نيكوس كازانتزاكيس

الإغواء الأخير للمسيح

ترجمة: أسامة منزلجي



الاغواء الأخير للمسيح

منشورات

٨

اسم المؤلف : نيكوس كازانتزاكيس

عنوان الكتاب : الاغواء الأخير للمسيح

ترجمة : أسامة منزلجي

تاريخ الطبع : الطبعة الثانية ١٩٩٥

التصميم : محمد سعيد الصكار - باريس

الناشر : دار المدى للثقافة والنشر

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ - ٧٣٦٦ - ٣٣٠٣٩

تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢

بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 - 7366 - 33039

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

نيكوس كازانتزاكيس

الاغواء الأخير للمسيح

منشورات

٨

مقدمة

لطالما مثّل جوهر المسيح المزودج - توق الانسان، التوق الشديد الانسانية، الخارق في انسانيته، ليبلغ الله أو ، بعبارة أدق، ليعود الى الله ويتطابق معه - مثّل لغزاً مبهماً عويصاً بالنسبة اليّ. هذا الحنين الى الله، وهو في وقت واحد غامض وحقيقي تماماً، نكأ داخلي جروحاً كبيرة وفجّر أيضاً ينابيع متدفقة.

كان مصدر المي الأساسي ومنبع كل افراحي وأحزاني بدءاً من طفولتي فصاعداً صراع متواصل لا يعرف الرحمة بين الروح والجسد.

في داخلي تكمن القوى المظلمة السحيقة القِدَم للجانب الشرير، الانساني وماقبل الانساني ، وفي داخلي أيضاً القوى المضيئة، انسانية وماقبل انسانية، للّه- وكانت روحي ساحةً تصادمَ عليها هذان الجيشان وتقاتلا.

كان الألم مبرِّحاً. لقد أحببتُ جسدي ولم أرد له أن يفنى، وأحببت روحي ولم أرد لها أن تبلى. جاهدت لأصالح بين هاتين القوتين الأساسيتين الشديدتي التناقض، لأجعلهما تدركان أنهما ليستا عدوتين وانما رفيقتا عمل، أملاً في أن تبتهجا في انسجامهما - وأملاً في أن أبتهج معهما .

❖ ❖ ❖

إن كل إنسان يتشارك مع روحه وجسده في الطبيعة القدسية، لهذا فان لغز المسيح ليس مجرد لغز لعقيدة معينة. ان الصراع بين الله والانسان يتفجر في كل فرد، الى جانب التوق لأحداث مصالحة. وفي أغلب الأحيان يكون هذا الصراع لا واعياً وقصير الأمد. إن الروح الضعيفة لا تقوى على مقاومة الجسد لمدة طويلة، فتغدو ثقيلة، تصبح هي نفسها جسداً، وينتهي النزاع، لكن بين الرجال الذين يتكبّون المسؤولية، الذين يبقون أعينهم مثبتة ليل نهار على الواجب السامي، يتفجر الصراع بين الجسد والروح دون هوادة وقد يدوم حتى الموت.

كلما قويت الروح كان الصراع مثمراً والانسجام النهائي أقوى. الله لا يحب الأرواح الضعيفة والأجساد الرخوة. الروح تريد أن تتصارع مع الجسد القوي والمفعم بالمقاومة. إنها طائر لاحم جائع على الدوام. تأكل اللحم وتجعله يختفي، بتمثّلهُ.

صراع بين الجسد والروح، تمرد ومقاومة، مصالحة واستسلام . وأخيراً- الهدف الأسمى من الصراع - الاتحاد في الله : هذا هو الارتقاء الذي اتّبعه المسيح، الارتقاء الذي يدعونا أيضاً لاتباعه، مقتفين في ذلك آثاره المدمّاة.

هذا هو الواجب الأسمى للانسان الذي يناضل - أن ينطلق يبغي الذروة الشامخة التي وصل اليها المسيح ، أول ابن للخلاص. فكيف يمكننا أن نبدأ ؟

اذا كان بمقدورنا أن نتبع خطاه علينا أن نحصّل معرفة عميقة بصراعه، يجب أن نعيش من جديد بلواه: انتصاره على الأحابيل المنتشرة في الأرض وتضحيته بمتع البشر الكبيرة منها والصغيرة وارتقاؤه من تضحية الى تضحية. من مأثرة الى مأثرة، حتى بلوغه ذروة الشهادة، الصليب.

❖ ❖ ❖

لم أتبع مسار رحلة المسيح المخضّبة بالدم الى الجلجلة بمثل ذاك الرعب، لم أعش من جديد حياته وآلامه بمثل تلك الكثافة، وذاك النهك والحب، كما حدث خلال الأيام والليالي التي كتبت فيها «الاغواء الأخير للمسيح» . وبينما

أنا أقرّ هذا الاعتراف بكرب الجنس البشري وأمله العظيم أحسست بتأثر شديد حتى أن عينيّ امتلأتا بالدموع. لم أكن قد شعرت بدم المسيح يسقط قطرة قطرة في قلبي بمثل كل ذاك القدر من الحلاوة والألم.

لكي يرتقي الى الصليب، قمة التضحية، ومنه الى الله، قمة اللاماديّة، مرّ المسيح خلال كل المراحل التي يمرّ خلالها كل من يصارع. لهذا نرى ان معاناته مألوفة لدينا، لهذا ترانا نشارك فيها، ولهذا يبدو انتصاره النهائي لنا خليقاً تماماً بأن يكون هو انتصارنا في المستقبل. ذاك الجانب من طبيعة المسيح والذي كان انسانياً بعمق يساعدنا على فهمه وحبه وعلى اتباع درب آلامه وكأنها آلامنا نحن. ولو لم يكن في داخله هذا العنصر الانساني الدافئ لما تمكن من أن يغدو نموذجاً لحياتنا. نكافح، نراه يكافح أيضاً، فنكتسب القوة. نرى أننا لسنا وحدنا في العالم: فهو يقاتل الى جانبنا .

ان كل لحظة من حياة المسيح هي صراع وانتصار . لقد قهر الفتنة القاهرة لرغبات الانسان البسيط، قهر الاغراءات ، وعمل دون هوادة على احالة اللحم الى روح ، ثم ارتقى. وحين وصل الى قمة الجلجلة صعد الى الصليب.

ولكن حتى وهو هناك لم ينته صراعه. فالاغراء- الاغراء الأخير - كان بانتظاره على الصليب. وأمام عينيّ المصلوب كشفت روح الشر، في لمح البصر، الرؤى الخادعة للحياة السعيدة الوادعة. وبدا للمسيح أنه سلك سبيل البشر الممهّد السهل، وتزوج وأنجب أطفالاً، وأحبه الناس واحترموه. والآن، بعد أن أصبح عجوزاً، جلس على عتبة داره يبتسم برضى وهو يتذكر أشواق شبابه. ما أروعه، وما أعقله! باختياره سبيل البشر! أي جنون في ارادة انقاذ العالم ! أي فرح بالافلات من ظروف الحرمان، ومصادر العذاب، ومن الصليب !

❖ ❖ ❖

كان ذاك هو الاغراء الأخير الذي جاء كلمع البرق ليعكر صفو اللحظات الأخيرة من حياة المخلّص .

لكن المسيح هزّ رأسه بعنف على الفور، وفتح عينيه ، ورأى. لا، لم يكن خائناً. المجد للرب! ولا كان آبقاً. لقد أنجز المهمة التي وكلها الله اليه. انه لم يتخذ له زوجة، ولم يعش حياة سعيدة. لقد وصل الى ذروة التضحية : سُمِّر على الصليب .

أغمض عينيه راضياً. ومن ثم تعالت صرخة انتصار عظيمة : لقد أنجز العمل !

بكلمات أخرى : لقد أديت واجبي، وهاقد صُلبت ،ولم أستسلم للغواية...

لقد كُتب هذا الكتاب لأنني أردت أن أقدم نموذجاً سامياً للانسان المقاوم، أردت أن أبين له ان عليه أن لا يخشى الألم، أو الغواية أو الموت - لأن الثلاثة يمكن قهرهم، وأن الثلاثة قد قهروا فعلاً . لقد عانى المسيح الألم، ومنذ ذلك الحين تقدّس الألم. وجاهدت الغواية حتى آخر لحظة لتضلله، وهزمت الغواية. مات المسيح على الصليب، وفي تلك اللحظة تلاشى الموت الى الأبد.

أصبحت كل عقبة ظهرت أثناء رحلته علامة على الطريق، وفرصة لاحراز مزيد من النصر. أمامنا الآن نموذج، نموذج يضيء دربنا بتألّقه ويلهمنا القوة.

هذا الكتاب ليس سيرة حياة، انه اعتراف كل انسان يكافح. وأنا بنشري اياه أكون قد أديت واجبي ، واجب انسان كافح كثيراً، وذاق الأمرّين في حياته، وانطوى على آمال كثيرة. أنا واثق من أن كل انسان حر يقرأ هذا الكتاب ، المترع بالحب، سوف يحب ، أكثر من أي وقت مضى، المسيح

ن. كازانتزاكيس

الفصل الأول

هبَّ نسيم قدسيٌ مَلَكَ عليه كيانه .

فوقه ، تفتَّحت أبواب السماوات المزدهرة عن حشد كثيف من النجوم، وفي الأسفل، على الأرض، كانت الحجارة تتبخَّر، وماتزال ملتهبة بحرٍّ النهار القائظ. وشملت السماء والأرض سكينة وعذوبة مملوءتان بالصمت العميق لأصوات الليل السرمدية. صمت أعمق حتى من الصمت نفسه. كان الليل حالكاً، لعله وصل الى منتصفه، وعينا الرب، الشمس والقمر، مغمضتين غافيتين، والشاب يتأمل سعيداً، مفتوناً بالنسيم الرقيق. وتعجّب في نفسه، ولكن ما أروع العزلة! ما أروع الفردوس! وفجأة تبدلت الريح واحتقن الجو، لم يعد نسيماً قدسياً بل هبات قوية من الرياح الثقيلة اللزجة، وكأنما هناك في دغلة كثيفة أو بستان منيع رطب الى الأسفل منه حيوان يلهث، أو قرية، يكافح عبثاً ليغفو. أصبح الهواء ثقيلاً مضطرباً. وتصاعدت أنفاس الرجال، والحيوانات والأقزام الفاترة وامتزجت مع العبق الحاد للعرق الانساني الكريه، وعبير الخبز الطازج المستخرج تواً من الفرن، وزيت الغار الذي تستخدمه النسوة لدهن

شعورهن. تشم، تشعر، تخمّن- لكنك لا ترى شيئاً. وشيئاً فشيئاً تعتاد عيناك على الظلام وتتمكنان من تمييز شجرة سرو مستقيمة الجزع حالكة وأشد حلكة من الليل نفسه، وأجمة من شجر النخيل مضموم معاً كنافورة، وأشجار زيتون تحف أوراقها القليلة في وجه الريح وتلمع كما الفضة في الظلام. وهناك على بقعة خضراء من الأرض ترى أكواخاً بائسة أقيمت باهمال تارة ضمن مجموعات، وأخرى منفردة ، بنيت من الليل والطين والآجر، وقد لطخت جميعاً ببياض ماء الكلس، وتستدل من الرائحة والقذارة أن الأشكال الانسانية، بعضها متدثر بملاءات بيضاء ،وأخرى مكشوفة ، نائمة على الأسطح.

وتلاشى الصمت، وامتلأ الليل المبهج غير المأهول بالأسى. تلوَّت الأيدي الانسانية وتقلَّبت عبثاً تبغي الراحة. وتنهدت القلوب الانسانية، وانطلقت صرخات يائسة عنيدة من مئات الأفواه كافحت وسط هذا العماء الأخرس الذي وطأه الليل لتتَّحد، جاهدت لتعبِّر عما تتوق لقوله لكنها لم تتمكن ، وتشتتت وضاعت في نوبات هذيان مفككة.

وفجأة تصاعدت صرخة زاعقة تمزق القلب من أعلى سطح، في وسط القرية. كان هناك صدر ينشق عن : «يا رب اسرائيل، يا رب اسرائيل، أدوناي، الى متى؟». لم يكن صوت رجل، بل كانت القرية بأكملها تحلم وتصرخ معاً. تراب اسرائيل كله بكل مافيه من عظام الموتى وجذور أشجاره، كان تراب اسرائيل في حالة مخاض، غير قادر على وضع مولوده، ويصرخ.

وبعد صمت طويل عادت الصرخة من جديد تمزق الجو من الأرض الى السماء، الا أنها هذه المرة بمزيد من الغضب والضيم : «الى متى؟ الى متى؟»، استيقظت كلاب القرية وأخذت تنبح،

وأقحمت النسوة الخائفات وهن على الاسطح المستوية رؤوسهن تحت آباط أزواجهن.

كان الشاب يحلم، وقد سمع الصرخة في منامه فانتبه. لقد فزع الحلم، فلملم أذياله وفرَّ هارباً، وتخلخل الجبل، وبانت دواخله. لم يكن مكوَّناً من صخور ، بل من نوم ودوار. وجماعة الرجال الضخام الهمجيين الذين كانوا يرتقونه بغضب بخطى هائلة- تغطيهم شوارب، ولحى، وحواجب وأيدٍ كبيرة وطويلة ـ هم أيضاً تخلخلوا، تطاولوا، وتضخموا ، طرأ عليهم تحوّل كامل، ثم استحالوا فجأة خيوطاً رفيعة، أشبه بغيوم تذروها ريح عاتية. وبعد قليل اختفوا من ذهن النائم.

ولكن قبل أن يحدث هذا ثقل رأسه واستغرق ثانية في سبات عميق. ومن جديد تكثَّف شكل الجبل وعاد صخراً، وتكتَّلت الغيوم فصارت لحماً وعظماً. وسمع أحدهم يلهث، ثم سمع وقع خطى سريعة، وعاد ذو اللحية الحمراء الى الظهور فوق ذروة الجبل. كان قميصه مفتوحاً، وقدماه حافيتين، ووجهه أحمر ، ويتفصَّد عرقاً. وكان تابعوه العديديون اللاهثون خلفه، مايزالون مختفين بين صخور الجبل الوعرة. وفي الأعالي شكلت قبة السماء من جديد سقفاً حسن التكوين، أما الآن فلم يبق غير نجمة وحيدة، كبيرة، شبيهة بفم مملوء بالنار معلَّقة من الشرق. إنه الصبح ينبلج.

كان الشاب متمدداً على سريره المصنوع من قشارة الخشب، يتنفس بعمق ، يأخذ قسطاً من الراحة بعد العمل الشاق الذي أداه في أثناء النهار . تباعدت جفونه برهة وكأن نور نجمة الصبح أصابها، الا أنه لم يستيقظ : لقد أحاط به الحلم من كل جانب. حلم بأن ذا اللحية الحمراء توقف، والعرق يتصبب من ابطيه، وساقيه ومن جبينه بتجاعيده الضيقة العميقة ، وأخذ يصب سباباً

وفمه يطلق بخاراً من الاجهاد والغضب، لكنه كبح جماح نفسه، وابتلع لعنته واكتفى بالدمدمة غمّاً، «الى متى، يا أدوناي ، الى متى؟»، لكن غضبه لم يخمد. ثم استدار بسرعة البرق، وهبَّ دافع السير الطويل داخله.

غابت الجبال مبتعدة، وتلاشى الرجال، وتحول الحلم الى موقع جديد ورأى النائم أرض كنعان مبسوطة فوقه على سقف بيته الواطئ المغطى بأعواد الخيزران - أرض كنعان، كالأثير المطرَّز ، متعددة الألوان، غنية بالزخارف ، وترتعش. والى الجنوب صحراء أدومية تهتز متغيرة كظهر نمر. وأبعد منها البحر الميت، كثيف وسام، يغرق الضوء ويبتلعه. وبعده تنهض أورشليم الفوق بشرية، يكتنفها خندق من كل جانب بأمر يهوه. وعلى بلاط شوارعها تجري دماء ضحايا الرب، دماء الحملان والأنبياء. بعد ذلك تأتي السامرة، قذرة، يعيث فيها الوثنيون ،في وسطها بئر تسحب منها امرأة متبرجة الماء، وأخيراً، في أقصى الشمال، الجليل- المشمسة، المتواضعة، المخضوضرة. ومن أحد طرفيّ الحلم الى الطرف الآخر جرى نهر الأردن، شريان الرب الملكي، قاطعاً قفاراً رملية وبساتين خصبة، ويمر بيوحنا المعمداني وبالهراطقة السامريين، وبعاهرات وصيادي بحيرة جنيسارت، يرويهم جميعاً دون تحيّز.

ابتهج الشاب في منامه لأنه رأى الماء والتراب المقدسين. ومدَّ يده يبغي لمسهما لكن الأرض الموعودة المكونة من قطرات الندى والريح والرغبات الانسانية القديمة قدم الدهر، والمضاءة كوردة في نور الصبح، خفق نورها فجأة وسط الظلام الخفيف وتلاشى. ولدى تلاشيه سمع سباباً وأصواتاً تجأر ورأى مجموعة الرجال الغفيرة تعود للظهور من خلف الصخور الوعرة والتين الشوكي، إلا أنهم تغيروا الآن ولم تعد ملامحهم واضحة. كم انكمش العمالقة

وذبلوا، كم تقزّموا! أصبحوا لاهثين متلاحقي الأنفاس ، ولحاهم تتجرّ على الأرض. كل منهم يحمل أداة تعذيب غريبة الشكل. كان بعضهم يحمل أحزمة جلدية مفزعة مرصعة بالحديد، والبعض الآخر يقبض على خناجر ومهاميز للثيران، ومنهم من يحمل مسامير ثقيلة رؤوسها عريضة. وكان ثلاثة من الأقزام بمؤخرات تكاد تحف الأرض يحملون صليباً ضخماً صعب المأخذ، وأخيراً جاء أقبح الجميع، وهو قزم أحول يحمل تاجاً من الشوك .

مال ذو اللحية الحمراء وحدق اليهم ثم هز رأسه بعظامه البارزة ازدراءاً. سمع النائم أفكاره : انهم لا يؤمنون . ولهذا انحطّوا ، ولهذا أنا أُعَذَّب : انهم لا يؤمنون.

مدَّ يده الضخمة المشعرة وقال «انظروا!» مشيراً الى السهل المنبسط في الأسفل، الغارق تحت شيب صقيع الصباح.

«اننا لا نرى شيئاً يا ريّس. الدنيا ظلام».

«ألا ترون أي شيء؟ لماذا، اذن، لا تؤمنون ؟»

«اننا مؤمنون يا ريّس، مؤمنون، ولهذا ترانا نتبعك. لكننا لا نرى شيئاً»

«انظروا ثانية!»

أنزل يده كما السيف، ونفذ من خلال شيب الصقيع وكشف عن السهل الهاجع تحته. واستيقظت بحيرة زرقاء، ابتسمت وتلألأت وهي تزيح جانباً ملاءة الصقيع التي تغطيها. لمعت أعشاش عظيمة من البيض ـ هي قرى كبيرة وصغيرة ـ بيضاء تتلألأ تحت أشجار النخيل . تتناثر حول شواطئها ووسط حقول القمح.

قال القائد، مشيراً الى قرية كبيرة تحيط بها مروج خضر «انه هناك». وكانت ثلاث من طواحين الهواء التي تشرف عليها قد نشرت أجنحتها في الصباح الباكر وباشرت دورانها.

وفجأة غمر الرعب وجه النائم الأسمر ذي البشرة القمحية. واستقر الحلم على جفنيه في سكينة. دلك عينيه بيده ليتخلص منه، محاولاً بكل ما أوتي من جهد أن يستيقظ. قال في نفسه، انه حلم، يجب أن أستيقظ وأنقذ نفسي منه. لكن الرجال الأقزام أخذوا يدورون حوله في عناد غير راغبن في تركه وشأنه. والآن بدأ ذو اللحية الحمراء بوجهه الهمجي يخاطبهم، وهو يهز اصبعه مهدداً باتجاه القرية الكبيرة في الأسفل الى السهل.

«انه هناك يعيش هناك مختبئاً، حافي القدمين، بأسمال رثة، يقوم بدور النجار، يتظاهر بأنه ليس المختار. انه يريد أن ينقذ نفسه، لكنه لن يفلت منا : ان عيني الله قد رأته! عليكم به يا رجال!».

رفع قدمه ليعطي اشارته ، لكن الأقزام تشبثوا بذراعيه وساقيه، فأنزل قدمه ثانية.

«هناك كثير من الناس يرتدون الأسمال يا ريّس، وكثيرون يتجولون حفاة، وهناك العديد من النجارين. أعطنا مايكشف عن شخصه، ماهو شكله وأين يسكن، لكي نتعرف عليه. والا فلن نتزحزح من مكاننا. اعلم هذا يا ريّس : لن نتزحزح؛ إننا متعبون».

«سوف أضمه الى صدري وأقبّله، ستكون تلك اشارتي ، تقدموا الآن ، أسرعوا! ولكن بهدوء ، ولا ترفعوا أصواتكم. إنه نائم الآن. انتبهوا لئلا يستيقظ ويفلت منا . عليكم به يا رجال باسم الرب!».

صرخ الأقزام بصوت واحد «سننال منه يا ريّس!»، ورفعوا أقدامهم الكبيرة استعداداً للانطلاق.

لكن أحدهم، وكان أحدب أحول وضامراً يحمل تاج الشوك ، تشبث بشجرة شوكية ورفض أن يتحرك.

صرخ قائلاً «لن أذهب الى أي مكان، لقد سئمت ! كم ليلة

أمضينا ونحن نتعقبه! كم بلداً وقرية اقتحمنا؟ احسبوا : في صحراء ايدوميا فتشنا أديرة الأسينيين واحداً بعد آخر، واقتحمنا قرية بيت عنيا وهناك اغتلنا اليعازر دون فائدة، ثم وصلنا الى الأردن ، لكن المعمداني طردنا قائلاً «لست الذي تبحثون عنه، فارحلوا!»، فرحلنا ودخلنا أورشليم، وفتشنا الهيكل، وقصور حنّان وقيافا، وأكواخ الكتبة والفريسيين: ولم نجد أحداً! لا أحد غير الأنذال، والكذابين، واللصوص، والعاهرات، والقتلة فغادرنا من جديد. وهرعنا الى السامرة المحرومة كنسياً ووصلنا الى الجليل، ودفعة واحدة شملنا المجدل وقانا، وكفر ناحوم وبركة بيت حسدا. فتشناها كوخاً كوخاً، وزورقاً فزورق بحثاً عن أعظم الناس فضيلة وأشدهم مخافة لله. وكلما عثرنا عليه نهتف «أنت المختار، فلم تختبئ؟ انهض وانقذ أرض اسرائيل!»، لكنه ما إذ يرى الأدوات التي نحملها يتجمد الدم في عروقه، فيرفس، ويضرب قدمه في الأرض ويزعق «انه ليس أنا، ليس أنا!»، وينغمس في حياة ملؤها الخمر، والمقامرة، والنساء انقاذاً لنفسه، فيصبح سكيراً، مجدفاً وفاسقاً- فقط ليبين لنا أنه خاطئ وليس المختار الذي نبحث عنه ... أنا آسف يا ريس، لكننا سيقابلنا الشيء نفسه هنا. إن بحثنا عنه غير مجد ولن نجده: إنه لم يولد بعد».

قبض عليه ذو اللحية الحمراء من مؤخر عنقه ورفعه حتى تدلى فوق الأرض فترة طويلة، وقال ضاحكاً «يا توما الشكّاك، يا توما الشكّاك. أنت تعجبني!»ثم استدار نحو الآخرين «إنه مهماز الثور، ونحن الحيوانات الكادحة. فليكن حافزاً لنا، ليكن حافزاً لنا لكي لا نعرف السكينة».

صرخ توما الأصلع من الألم، فأنزله ذو اللحية الحمراء الى الأرض. وعاد يضحك، وراح يمر ببصره على المجموعة المتنافرة،

وسأل «كم عددكم ؟ اثنا عشر ـ واحد من كل قبيلة في اسرائيل. شياطين، ملائكة، عفاريت، أقزام: من كل مخلوقات الرب السويّة والجهيضة. اختاروا مَنْ تشاؤون!».

كان مزاجه رائقاً ، ولمعت عيناه المستديرتان كعيني صقر. ثم مدَّ يده الضخمة وبدأ يقبض على رفاقه ، بغضب رفيق، من أكتافهم، يرفعهم واحداً إثر آخر في الهواء ويأخذ يتفحصهم من قمة رؤوسهم الى أخمصهم ضاحكاً. وكلما انتهى من أحدهم باشر مع واحد آخر.

«مرحى يا ابن ابراهيم، أيها الخسيس، الحاقد، المجنون أبداً بالريح... وأنت، أيها المتهور المهذار، الجشع... وأنت يا شارب الحليب الورع: أنت لا تقتل أو تسرق أو تزني -لأنك جبان- كل فضائلك هي بنات جبنك... وأنت ، أيها الحمار المغفل الذي ينكسر ظهرك من كثرة الضرب : أنت تحث السير، وتحث السير بالرغم من الجوع، والعطش، والبرد والسوط. كادٌ، غير آبه باحترام ذاتك، وتكتفي بلعق أسفل القدر، وكل فضائلك هي وليدة فقرك ... وأنت، أيها الثعلب الماكر : أنت تقف خارج باب عرين الأسد، عرين يهوه، ولا تفكر بالدخول... وأنت، أيها الخروف الأحمق : إنك تثغو وتتبع ربا ينوي أن يأكلك... وأنت، يا ابن لاوي : دجَّال، تتاجر بالرب، تبيعه بالتقسيط، صاحب نزل يقدم الرب للرجال وكأنه مشروب حتى يسكروا ويفتحوا لك أكياس نقودهم وقلوبهم- أنت يا أوغد الأوغاد!... وأنت أيها الزاهد العنيد، المتعصب، الخبيث : تنظر الى وجهك وتختلق إلهاً خبيثاً، متعصباً وعنيداً، ثم تسجد وتعبده لأنه يشبهك ... وأنت يا من افتتحت روحك الخالدة محلاً للصيرفة : تجلس على العتبة، وتدخل يدك الى الجراب وتمنح الصدقات للفقراء، وتقرض الرب. تحتفظ بدفتر حسابات وتدوِّن: أعطيت

الكثيرمن الفلورينات حسنة الى فلان وفلان في يوم كذا وكذا، في الساعة كذا وكيت.وتوصي أن يوضع دفتر حساباتك معك في الكفن لكي تفتحه أمام الرب، وتقدم له فاتورتك وتجمع ملايينك الخالدة... وأنت، أيها الكذاب، المدّعي: إنك تطأ بقدميك كل وصايا الرب، فتقتل ، وتسرق، وترتكب الزنا، وبعد ذلك تتفجر باكياً، تضرب على صدرك، وتتناول قيثارتك وتحوّل خطيئتك الى أغنية. أيها الشيطان الداهية، أنت تعلم علم اليقين أن الرب يسامح المغنين مهما يفعلون ، لأنه ببساطة يمكن أن يموت اشتياقاً لسماع أغنية... وأنت، يا توما، يا مهماز الثور الحاد الذي يخز أردافنا... وأنا، أنا : أحمق مجنون لا يشعر بالمسؤولية،مغرور تركت زوجتي وأولادي لأبحث عن المسيح! إننا جميعاً - شياطين وملائكة وعفاريت وأقزام- لازمون لانجاز قضيتنا العظيمة! ... عليكم به، يا رجال!»

ضحك، وبصق في كفيه وحرك قدمه الكبيرة.

عاد يصرخ «عليكم به، يا رجال»! وانطلق على الطريق المنحدرة المؤدية الى الناصرة.

* * *

تحولت الجبال والرجال الى دخان وتلاشوا. وامتلأت عينا النائم بظلمة خالية من الأحلام. وهاهو الآن، أخيراً، لم يعد يسمع أثناء نومه المتواصل غير وقع الأقدام الضخمة الثقيلة وهي تتحدر أسفل الجبل.

خفق قلبه بقوة، وسمع صرخة ثاقبة تتصاعدمن أعماقه: انهم قادمون! انهم قادمون! انتفض مجفلاً (هذا مابدا له أثناء نومه)، وأوصد الباب بنضد عمله وكدّس فوقه كل مالديه من أدوات -

مناشير، ورافعة وخشبة السحج، وقُدُم، ومطارق، ومفكات براغي- وأيضاً صليباً ضخماً كان يصنعه في ذلك الوقت. ثم عاد من جديد يتدثر بالنجارة وبقطع من الخشب وينتظر.

خيم هدوء غريب ، مثير للقلق- كثيف، خانق. لم يسمع أي شيء،ولاحتى صوت أنفاس القرويين، ناهيك عن أنفاس الرب. كان كل شيء، حتى الشيطان اليقظ، قد غرق في بئر مظلمة، لا قرارة لها. أكان ذاك نوماً؟ أم الموت، أم الخلود، أم الرب؟ استولى الذعر على الشاب، رأى الخطر بأم عينه، وبذل أقصى جهده ليصل الى عقله الغارق لينقذ نفسه. ثم استيقظ.

كان منقوعاً بعرقه. لم يتذكر شيئاً من الحلم. فيما عدا مايلي : أن ثمة من كان يتعقبه. من هو؟... أكان واحداً؟ أم عدة؟رجالاً؟ أم شياطين ؟ لم يتذكر. نصب أذنيه وأصاخ سمعه. أصبح تنفّس القرويين مسموعاً الآن وسط سكينة الليل : تنفس وحوش كثيرة، والكثير من الأرواح. نبح كلب بنبرة حزينة، وبين الحين والحين تحف أوراق احدى الأشجار في وجه الريح. وفي أطراف القرية هدهدت أم ولدها لينام، ببطء، وبصوت مؤثر... كان الليل مملوءاً بالغمغمات والتنهدات التي يعرفها ويحبها. إن الأرض تتكلم، والرب يتكلم، وهدأت غلواء الشاب. وقبل قليل كان يتملكه خوف من كونه وحيداً في العالم .

سمع أنفاس والده العجوز قادمة من الغرفة التي ينام فيها والداه، والمجاورة لغرفته. ولم يتمكن الرجل التعيس من النوم. كان يلوي فمه ويبذل جهداً في فتح شفتيه واغلاقهما في محاولة للكلام. منذ سنين عديدة وهو يعذب نفسه هكذا، يكافح لاصدار صوت انساني، لكنه جلس على طرف سريره كالمشلول، عاجزاً عن التحكم، في لسانه. كدّ، وعرق، وأصدر من فمه تمتمات غير

واضحة، وبين الحين والآخر وبعد صراع رهيب كان ينجح في تكوين كلمة لفَظَ كل مقطع على حدة، وبجهد يائس- هي كلمة واحدة، واحدة لاغير. وهي نفسها دائماً: أ-دو-نا-ي، أدوناي ولاشيء آخر، فقط أدوناي... وبعد أن ينتهي من لفظ كامل هذه الكلمة يبقى ساكناً ساعة أو ساعتين من الوقت والى أن يستحوذ عليه دافع الكفاح ويبدأ مرة أخرى بفتح فمه واغلاقه.

غمغم الشاب ، وعيناه تمتلئان بالدموع «إنها غلطتي... غلطتي».

ووسط صمت الليل سمع الابن تألم والده وبدأ هو بدوره لا ارادياً، وقد تغلّب عليه، الأسى، يتعرّق ويباعد مابين شفتيه ويغلقهما. أغمض عينيه، وأخذ ينصت الى مايفعله والده لكي يفعل مثله؛ يتنهد مع الرجل العجوز ويجتهد بيأس ليخرج صرخات يائسة، غير مفهومه وبينما هو يفعل ذلك استغرق في النوم مرة أخرى.

ولكن حالما غلبه النوم من جديد اهتز المنزل بعنف، ووقع نضد العمل، وتدحرجت الأدوات والصليب على الأرض، وانفتح الباب واذا بذي اللحية الحمراء يقف شامخاً على العتبة، هائلاً، يضحك بوحشية وذراعاه مفتوحتان واسعاً.

أطلق الشاب صرخة، ثم استفاق.

الفصل الثاني

اعتدل جالساً على نجارة الخشب واستند بظهره الى الجدار. كان يتدلى فوق رأسه حزام مرصّع بصفّين من المسامير المدببة. وكان في كل مساء قبل أن يأوى الى السرير يسوط جسمه بالحزام حتى يدمى لكي يبقى هادئاً أثناء الليل ولا يتصرف بوقاحة. وهزته ارتعاشة خفيفة. لم يتمكن من تذكّر الغوايات التي عادت تراوده في منامه، الا أنه شعر أنه نجا من خطر عظيم. وغمغم، وهو يرفع بصره الى السماء ويتنهد «لم أعد أحتمل، لقد نالني مايكفي». انزلق نور النهار من جديد، المتردد والباهت، متسللاً من شقوق الباب وأضفى على اللون الأصفر الرقيق للسقف المصنوع من الخيزران، عذوبة غريبة وضاءة، ونفيسة كالعاج. وعاد يغمغم «لم أعد أحتمل، لقد نلت مايكفي، لقد نلت مايكفي «وصرف بأسنانه ناقماً. ثبّت عينيه في الفضاء،وفجأة مر شريط حياته كلها أمامه : عكاز والده الذي أزهر يوم خطبته ثم ومض البرق الذي ضرب الخطيب فأقعده ، وبعد ذلك كيف حملقت أمه، حملقت إليه ، ولم تفه بكلمة. لكنه سمع شكواها الخرساء ـ لقد كانت على حق! كانت

آثامه سكاكين تطعن في قلبه ليل نهار. جاهد عبثاً طوال السنين القليلة الأخيرة ليتغلب على شيطان الخوف، الشيطان الوحيد الباقي. أما الآخرون فقد قهرهم : الفقر، واشتهاء النساء، ومتع الشباب، والسعادة البيتية. قهرهم جميعاً- كلهم ماعدا شيطان الخوف. ليته يتمكن من التغلب عليه أيضاً، ليته يقدر... لقد غدا رجلاً الآن: لقد حانت الساعة.

غمغم «لقد شُلَّ والدي بسببي. وبسببي انحدرت المجدلية الى حمأة البغاء، وبسببي مازالت أرض اسرائيل تئن تحت ثقل العبودية...»

صفق ديك ـ لابد أنه من المنزل المجاور حيث يعيش عمه الحبر- بجناحيه وهو على السطح وصاح مراراً، وبغضب. كان واضحاً انه قد ملَّ الليل، الذي طال أكثر مما ينبغي، وأخذ أخيراً ينادي الشمس كي تبزغ.

مال الشاب مستنداً الى الجدار وأنصت. كان الضوء قد صفع البيوت، ففتحت الأبواب، ودبت الحياة في الشوارع. وشيئاً فشيئاً تصاعدت الهمهمة الصباحية من الأرض والأشجار، وانزلقت متسربة من الشقوق التي في المنازل: كانت الناصرة تستيقظ. وفجأة سُمعت أنّة عميقة من المنزل المجاور، تبعتها على الفور صرخة الحبر الوحشية. كان يوقظ الرب، يذكّره بالوعد الذي قطعه لبني اسرائيل. هتف الحبر : يا رب اسرائيل، يا رب اسرائيل، الى متى؟»، وسمع الشاب صوت ارتطام ركبتيه جلياً سريعاً، بخشب الأرضية.

هز رأسه، وتمتم «انه يصلي، يسجد ويخاطب الرب. والآن سوف يقرع على الجدار ويطلب مني أن أباشر سجودي»، وعبس غاضباً «يكفيني سوءاً أنني مضطر للتعامل مع الرب دون أن أكون

مضطراً للصبر على الناس»، وطرق بعنف على الجدار الفاصل بقبضته ليبين للحبر الهائج أنه مستيقظ ويصلي.

ثم قفز واقفاً على قدميه، وكشف ثوبه المرقع مراراً وتكراراً، بانزلاقه عن كتفيه، عن جسمه ـ نحيل، لوحته الشمس، عليه آثار الضرب الحمراء والسوداء. فشعر بالخجل وأسرع بلمّ الثوب ولفه حول جسده العاري.

تسلل نور الصباح الواهن من خلال الكوة وسقط عليه، مضيئاً برقة وجهه الذي كان كتلة من العناد، والكبرياء، والتألّم... واذا بكتلة الزغب المحيطة بذقنه ووجنتيه تغدو لحية جعدة سوداء بلون الفحم. وأصبح أنفه معقوفاً، وثخنت شفتاه، وبما أنهما كانتا متباعدتين قليلاً سطع بياض أسنانه براقاً بفعل الضوء. لم يكن وجهه وجهاً جميلاً، ولكن كان ينطوي على فتنة خفية، مثيرة للقلق. أكان اللوم يقع على رموشه؟ فهي غزيرة الشعر وطويلة جداً، تفرش ظلاً أزرق غريباً على كامل وجهه. أم المسؤول عيناه؟ فقد كانتا كبيرتين وسوداوين، مفعمتين بالضياء، غارقتين في الظلمة- كلهما رعب وعذوبة. تحدقان إليك من بين رموشهما الطويلة، وتبرقان كعيني أفعى، ويصيبك دوار.

نفض عنه النجارة التي علقت بابطيه وبلحيته. وكانت أذناه قد التقطتا صوت وقع الأقدام الثقيلة. إنهم يقتربون، كما لاحظ. وصرَّ اشمئزازاً وهو يقول : «انه هو، هاقد عاد من جديد. ماذا يريد مني؟» واقترب متسللاً من الباب ليتنصت، لكنه توقف فجأة، وقد تملكه الرعب. من وضع نضد العمل خلف الباب وكوَّم الصليب والأدوات عليه؟ من؟ متى؟ الليل مملوء بالأرواح الشريرة، مملوء بالأحلام. اننا ننام، فيجدون الأبواب مفتوحة ويدخلون ويخرجون على هواهم وينبشون منازلنا وعقولنا رأساً على عقب.

وغمغم من بين أسنانه «ثمة من جاء ليلة أمس أثناء نومي»، وكأنه كان يخشى أن يكون الزائر مايزال موجوداً فيسمعه «لقد جاء أحدهم. لاشك بأنه الرب، الرب... أم هل كان الشيطان؟ فمن يستطيع أن يميز بينهما ؟ انهما يتبادلان وجهيهما، أحياناً يصبح الرب مسربلاً بالسواد. ويشع الضياء من الشيطان، ويتبلبل عقل الانسان، وأصابته الرعشة. انهما يمثلان دربين. فأيهما يسلك، وأي درب يختار؟

تابعت الخطى الثقيلة اقترابها. تلفت الشاب ينظر حوله في قلق، وكأنه يبحث عن مكان يختبئ فيه؛ عن مهرب. انه يخشى هذا الرجل ولا يريده أن يأتي، ففي أعماقه ثمة جرح قديم لا يريد أن يندمل. وذات مرة وهما وطفلان كانا يلعبان معاً، فأطاح به الآخر، الذي كان يكبره بثلاث سنوات، أرضاً وجلده. فلملم نفسه ونهض واقفاً دون أن ينبس بكلمة، لكنه لم يعد قط بعدها الى اللعب مع بقية الأولاد. لقد سيطر عليه الخجل، والخوف. فالتفّ حول نفسه جالساً في فناء منزله ينسج في عقله الطريقة التي سيعمل بها ذات يوم على غسل عاره، ويبرهن على أنه كان أفضل منهم، ويبزهم جميعاً. وبعد مرور سنين كثيرة مازال الجرح مفتوحاً ولم يكف قط عن النزف.

غمغم «أما زال يلاحقني. أمازال؟ ماذا يريد مني؟ لن أدعه يدخل!».

تلقّى الباب رفسة فارتجّ، واندفع الشاب كالسهم الى الأمام واستجمع كل قواه ثم أزاح النضد وفتح الباب. وعلى عتبة الباب رأى مارداً ذا لحية حمراء جعدة واقفاً ، مفتوح القميص، حافي القدمين، أحمر الوجه، والعرق يتصبب منه راح يمسح أرجاء الورشة بنظره وهو يمضغ كوزاً من الذرة المشوية كان يحمله بيده، ورأى الصليب مُسنَداً الى الجدار، فعبس. ثم مدّ قدمه ودخل.

ودون أن ينطق بكلمة جلس ملتفَّاً حول نفسه في الركن وهو يقضم بعنف في الذرة. ظل الشاب، وكان مايزال واقفاً، متفادياً النظر الى وجه الآخر وأرسل بصره الى الخارج عبر الباب المفتوح الى الشارع الضيق، اليقظ في غير أوانه. لم يكن الغبار قد تصاعد بعد، والتربة ماتزال رطبة ويفوح عبيرها. وتدلى ندى الصباح ونور الفجر من أوراق شجرة الزيتون المقابلة له، وكأن الشجرة كلها تضحك. أحس الشاب بنشوة عارمة وراح يستنشق دنيا الصباح.

لكن ذا اللحية الحمراء التفت اليه وهرَّ قائلاً : «أغلق الباب . لدي ما أقوله لك»

ارتجف الشاب حين سمع الصوت الضاري،فأغلق الباب، ثم جلس على حافة النضد، وأخذ ينتظر.

قال ذو اللحية الحمراء «هاقد أتيت. كل شيء جاهز»

رمى كوز الذرة وهو يرفع عينيه بزرقتهما العميقة وثبَّتهما على الشاب ثم مدَّ عنقه الضخم، الكثير التغضن الى الأمام: «وماذا عنك- هل أنت أيضاً جاهز؟»

كان الضوء قد ازداد، وبات بامكان الشاب الآن أن يرى وجه ذي اللحية الحمراء، الخشن التقاطيع، القلق بوضوح. لم يكن وجهاً واحداً، بل وجهين. حين يضحك نصفه يتوعد النصف الآخر، وحين يتألق نصفه يظل الآخر صارماً جامداً، بل حتى حين يتصالح النصفان برهة من الزمن، تشعر أن الرب والشيطان يتصارعان ويتخاصمان من تحت المظهر المتصالح.

لم يعط الشاب جواباً ، فرماه ذو اللحية الحمراء بنظرة حانقة.

سأله من جديد «هل أنت جاهز؟» وكان قد استعد للنهوض لكي يمسك به من ذراعه ويهزه كي يستيقظ ويعطيه جواباً، ولكن

قبل أن يتمكن من فعل ذلك دوى صوت نفير واندفع خيالة الى الشارع الضيق تبعهم خطو ثقيل، منتظم للجنود الرومان. شد ذو اللحية الحمراء على قبضته ورفعها نحو السقف.

جأر قائلاً «يا رب اسرائيل، لقد حان الوقت.اليوم ! وليس غداً. اليوم!»

التفت ثانية الى الشاب.

سأله مرة أخرى «هل أنت مستعد؟». ولكنه تابع دون أن ينتظر منه جواباً «لا، لا، لن تحضر الصليب معك ـ هذا أمر. الناس مجتمعون. لقد هبط باراباس من الجبال مع رجاله. سوف نقتحم السجن ونخرج عضو الزيلوت. ثم ستحدث- لا تهز رأسك- عندئذ ستحدث المعجزة. اسأل عمك الحبر. بالأمس جمعنا كلنا في الكنيس- لماذا لم تحضر فخامتك أيضاً؟ ووقف بيننا وخطب فينا . قال «ان المسيح لن يأتي مادمنا نقف مكتوفي الأيدي. على الرب والناس أن يحاربوا معاً اذا أرادوا للمسيح أن يأتي «هذا ماقاله لنا، لمعلوماتك. الرب ليس كافياً، والانسان ليس كافياً. عليهما أن يقاتلا معاً- معاً! أتسمعني»».

قبض على الشاب من ذراعه وهزه «أتسمعني؟ أين عقلك؟ كان يجب أن تحضر معنا لتتصت الى عمك- ربما كنت عدت الى صوابك أيها المسكين ! لقد قال ان عنصر الزيلوت-نعم، ذاك الزيلوت نفسه الذي سيصلبه الرومان الملحدون في هذا اليوم- قد يكون هو المختار الذي ننتظره منذ أجيال عديدة جداً. فاذا لم نقدم له يد العون، اذا قعدنا عن الانطلاق لانقاذه فسوف يموت دون أن يكشف لنا عن هويته. ولكن اذا هرعنا لانقاذه فستحدث المعجزة . أي معجزة؟ انه سيخلع عنه أسماله وسوف نرى تاج داوود الملكي يتلألأ فوق رأسه! هذا ما أنبأنا به، لمعلوماتك. وحين سمعناه أخذنا

نبكي. ورفع الحبر العجوز يديه الى السماء وصرخ «يا رب اسرائيل، اليوم ، وليس غداً، اليوم!» فرفعنا كلنا، كل واحد منا، أيدينا، ونظرنا الى السماء، وصرخنا، وتوعدنا، وبكينا «اليوم! ليس غداً، اليوم!» أتسمعني، يا ابن النجار، أم أنني أتكلم مع الجدار الأصمّ؟».

كان الشاب، الذي كانت عيناه نصف المغمضتين مثبتتين على الحزام بما عليه من مسامير مدببة والمعلق على الجدار المقابل، ينصت بانتباه الى شيء ما. فقد كان يسمع من تحت صوت ذي اللحية الحمراء الخشن المتوعد حشرجات والده العجوز الأجشة المكتومة في الغرفة المجاورة وهو يحاول عبثاً أن يفتح شفتيه ويغلقهما ليتكلم. واجتمع الصوتان في قلب الشاب، وفجأة أحس أن كفاح البشر برمته مثير للسخرية.

وقبض عليه ذو اللحية الحمراء من كتفيه ودفعه.

«أين عقلك أيها المستبصر؟ ألم تسمع ما قاله لنا عمك شمعون؟»

تمتم الشاب «المسيح لن يأتي من هذا الدرب»، وكانت عيناه قد استقرتا على الصليب المصنوع حديثاً، الذي يغتسل بنور الصبح الوردي الباهت، وأردف «لا، المسيح لن يأتي من هذا الدرب، ولن يتخلى عن أسماله أو يضع تاجاً ملكياً على رأسه. ولن يهرع الناس ولا الرب لنجدته، لأنه لا يمكن انقاذه . سوف يموت ، يموت ، مرتدياً أسماله،وسوف يتخلى عنه الجميع- حتى أشد الناس اخلاصاً له. سوف يموت وحيداً فوق قمة جبل قاحل، يتوج رأسه تاج من الشوك».

التفت ذو اللحية الحمراء وحدق اليه مندهشاً، وقد تلألأ نصف وجهه بالضياء، وظل النصف الآخر معتماً تماماً. سأله «كيف عرفت ذلك؟ من أخبرك؟»

لكن الشاب لم يعط جواباً. وكان الضياء قد عم الدنيا الآن. قفز عن النضد وأخذ حفنة من المسامير وتناول مطرقة واقترب من الصليب. لكن ذا اللحية الحمراء سبقه اليه ووصله بفشخة عظيمة واحدة، وراح يلكمه بضربات سريعة ويبصق عليه وكأنه انسان. ثم استدار فوخزت لحيته وشاربه وشعر حاجبيه وجه الشاب.

صرخ «ألا تخجل؟ ان كل النجارين في الناصرة، وقانا، وكفر ناحوم رفضوا أن يصنعوا صليباً لصلب الزيلوت، وأنت ـ ألا تخجل، الا تخاف؟ ماذا لو أتى المسيح ووجدك تصنع صليباً، ماذا لو أن هذا الزيلوت، الذي صُلب اليوم، يكون هو المسيح... لماذا لا تتحلى بالشجاعة كالآخرين وتقول للقائد الروماني «أنا لا أصنع صلباناً لأبطال اسرائيل؟ فيم تحدق؟».

وبحركة سريعة ألصقه بالجدار، ثم راح يصب عليه جام ازدرائه «جبان، جبان ـ هذا رأيي فيك. إن حياتك كلها ليست الا هباء!».

مزَّق صوت زاعق الفضاء. فحرر ذو اللحية الحمراء الشاب والتفت نحو الباب وأخذ ينصت. كان هناك صخب هائل في الخارج: رجال ونساء، وحشد غفير، يهتفون : منادى البلدة! منادي البلدة! ومرة أخرى اجتاح الصوت الزاعق الفضاء :

«يا أبناء وبنات ابراهيم ، واسحق ويعقوب ، أمر ملكي : اسمعوا وعوا ! أغلقوا ورش عملكم وحاناتكم، ولا تذهبوا الى حقولكم. وعلى الأمهات أن يحملن أطفالهن، وعلى العجائز أن يحملوا عصيهم- وتعالوا أيها العرج، والصم، والمشلولين- تعالوا لتشاهدوا الذين رفعوا أيديهم ضد سيدنا الامبراطور ـ أطال الرب عمره! ـ وهم يعاقبون ، لتروا هذا المتمرد الحقير، الزيلوت، كيف سيموت!».

فتح ذو اللحية الحمراء الباب فرأى الحشد الهائج وقد خيم عليه الصمت الآن وبدأ ينصت، ورأى منادي البلدة معتلياً صخرة- وكان رجلاً نحيلاً، مكشوف الرأس، ذا عنق طويل وساقين طويلتين نحيلتين- فبصق، ثم جأر قائلاً «ملعون أنت حتى الجحيم، أيها الخائن!» وصفق الباب بغضب، ثم استدار نحو الشاب. كان واضحاً أن غضبه قد تصاعدحتى عينيه .

هزّ قائلاً «يمكنك أن تفخر بأخيك سمعان الخائن!»

قال الشاب بنبرة أسف عميق «إنها ليست غلطته، انها غلطتي، غلطتي أنا».

وصمت برهة، ثم قال «لقد طردته أمي من المنزل بسببي، بسببي، وهاهو الآن...»

رقّ نصف وجه ذي اللحية الحمراء وشع بالضياء هنيهة وكأنه تعاطف مع الشاب. وسأله «وكيف ستكفر عن كل تلك الذنوب يا مسكين؟»

ظل الشاب على صمته فترة طويلة. تحركت شفتاه، لكنه كان معقود اللسان. وأخيراً نجح في قول «بحياتي، يا يهوذا، يا أخي، وليس لدي غيرها».

أجفل ذو اللحية الحمراء. كان الضوء قد دخل الآن الى الورشة من خلال المنور ومن شقوق الباب. وبرقت عينا الشاب الكبيرتان الشديدتا السواد، وكان صوته مملوءاً بالمرارة والخوف.

قال ذو اللحية الحمرا «بحياتك؟»، ثم أمسك بذقن الآخر قائلاً «لا تشح بوجهك عني. أنت رجل الآن، انظر في عيني... أتقول بحياتك؟ ماذا تقصد ؟».

«لاشيء».

أطرق رأسه ولزم الصمت، لكنه قال فجأة «لا تسألني، لا

تسألني يا يهوذا يا أخي!»

قبض يهوذا على وجه الفتى بين كفيه، ورفعه ونظر اليه مدة طويلة دون أن يتكلم. ثم حرره بهدوء ومشى الى الباب . لقد تنبه قلبه فجأة.

كان الضجيج يتعاظم أكثر فأكثر، وتعالى حفيف الأقدام الحافية وربت الصنادل في الجو، الذي صلصل مع الأساور البرونزية وأطواق الكاحل التي تضعها النسوة. وقف ذو اللحية الحمراء منتصباً على عتبة المنزل يراقب الحشود التي كانت تتدفق دون انقطاع من الأزقة. وكان الجميع يتوجهون الى الطرف المقابل من القرية، الى التل البغيض حيث سيقع الصلب. لم يكن الرجال يتكلمون، كانوا يصبون السباب من بين أسنانهم ويضربون عصيهم على بلاط الطريق. وكان بعضهم يحمل سكيناً بيده، وتحت قميصه. وكانت النسوة تصرخ، وعديد منهن رفعن حجبهن وحللن شعورهن ورحن يرتلن ترنيمة جنائزية.

كان على رأس هذا السرب شمعون حبر الناصرة العجوز- منكمشاً، محني الظهر تحت وطأة السنين، وقد التوى وتشوه بفعل المرض الخبيث السل: أصبح تركيبة من العظام الجافة تحافظ روحه الصلبة على صيانته من الانهيار. وكانت اليدان النحيلتان جداً بمخالبهما الكبيرة الشبيهة بمخالب الطير تقبضان على الصولجان الكهنوتي الذي تتوجه حيَّتان متضافرتان وتضربان به حجارة الطريق . وكان هذا الجثة الحية يفوح برائحة مدينة تحترق. تكاد ترى اللهب يتلظى في عينيه وتشعر أن لحمه وعظامه وشعره- وكل جسمه المتداعي - يتلظى ناراً، وحين كان يفتح فمه ويصرخ، يا رب اسرائيل! كان الدخان يتصاعد من قمة رأسه. ومن خلفه سار العجائز أرتالاً بظهورهم المحنية، وعظامهم الضخمة، بعصيهم،

وحواجبهم الكثة ولحيهم المدببة الشعر، ومن خلفهم الرجال الأشداء بأجسامهم ومن ثم النساء. وفي المؤخرة تبعهم الأطفال، وكل منهم يحمل حجراً بيده، وبعضهم يعلق مقلاعاً على كتفه. تقدموا جميعاً معاً، يهدرون بهدوء دون ضجيج، كما البحر.

بينما يهوذا يتكئ على قائمة الباب ويراقب الرجال والنساء، انتعش قلبه ، وفكر قائلاً، وقد اندفع الدم الى رأسه، هؤلاء هم، هؤلاء هم الذين سيحققون المعجزة بمعونة الرب. اليوم، وليس غداً، اليوم!

انفصلت امرأة ضخمة الجسم، عالية الردفين، تشبه الرجل، عن الحشد. كانت هائجة وممسوسة، وقد انزلقت ملابسها عن كتفيها. انحنت وقبضت على حجر وطوحته بقوة الى باب النجار.

صرخت «ملعون يا صانع الصليب!»

وعلى الفور تعالت الصرخات والسباب من كل أرجاء الشارع، وتناول الأولاد المقالع من أكتافهم ، فصفق ذو اللحية الحمراء الباب بقوة.

ترددت صيحات الاستنكار من كل صوب «يا صانع الصليب! يا صانع الصليب!» ودمدم الباب تحت وابل الحجارة.

ركع الشاب أمام الصليب وراح يضرب المسامير بضربات مباشرة بالمطرقة، بطرق قوي وكأنه يريد بذلك أن يغطي على صيحات الاستنكار واللعنات الآتية من الشارع. كان صدره يغلي، والشرر يتطاير عبر جسر أنفه. أخذ يطرق بهياج، والعرق يتصبب من جبينه.

ركع ذو اللحية الحمراء، وقبض على ذراعه وانتزع المطرقة بعنف من قبضته . ثم وجَّه للصليب ضربة واحدة طرحته أرضاً.

«هل ستحضره ؟»

«نعم»
«ألا تخجل؟»
«لا»
«لن أدعك تفعل. سوف أهشمه الى قطع صغيرة»
نظر فيما حوله ومدّ ذراعه بحثاً عن قدوم.

قال الشاب ببطء، متضرعاً «يهوذا، يهوذا، أخي، لا تقف في طريقي». وكان صوته قد أصبح فجأة أشد عمقاً، أصبح غامضاً ، مبهماً. واضطرب ذو اللحية الحمراء.

سأله بهدوء «أي طريق؟» وانتظر، وهو يحملق بقلق الى الشاب. عندئذ كان الضوء يسقط مباشرة على وجه النجار وعلى جزعه العاري، الصغير العظام. التوت شفتاه، وانضمتا بقوة وكأنهما تناضلان لكبح صرخة عظيمة. ورأى ذو اللحية الحمراء مبلغ هزاله، وشحوبه، وشعر قلبه الكاره للبشر بالشفقة عليه. لقد كان يذوي، في كل يوم تغوص وجنتاه أكثر. كم مضى من الوقت منذ أن رآه آخر مرة؟ انها فقط بضعة أيام.كان قد غادر ليقوم بجولاته على القرى المجاورة لجنيسارت. وبما أنه حداد فقد كان يطرق الحديد ويشكّله،ويصنع نعال الخيل، والمعاول، وشفرات المحارث، والمناجل، الا أنه سارع بالعودة الى الناصرة اثر تلقيه رسالة تقول ان الزيلوت سيُصلب . تذكر كيف كان قد ترك صديقه القديم، والآن، انظر كيف وجده! ما أشد انتفاخ عينيه، وما أشد غور صدغيه! ثم ماسبب تعبير المرارة الذي يحيط بفمه؟

سأله «ماذا ألمَّ بك؟ لماذا ذبت هكذا؟ ما الذي يضنيك ؟»

ضحك الشاب بوهن وكاد يجيب بالقول انه الرب ولكنه أحجم. هذا ماكان يضج في داخله . ولم يكن يريد له أن ينطلق من بين شفتيه.

أجاب «انني أتصارع»
«مع من ؟»
«لا أدري. انني أتصارع»
ثبَّت ذو اللحية الحمراء عينيه في عينيّ الشاب، وراح يستجوبهما، يناشدهما، ويهددهما، لكن العينين السوداوين كحفرتين، المملوءتين بالدمع، لم تدليا بجواب.

وفجأة تحركت عيناه. فبينما هو يميل نحو العينين السوداوين الصامتتين خيل اليه أنه يرى أشجاراً مزهرة، ومياهاً زرقاء صافية، وحشوداً من الرجال، وفي الداخل، عميقاً عميقاً في البؤبؤ البراق، خلف الأشجار المزهرة والمياه والرجال، رأى صليباً أسود كبيراً، مرتسماً على كامل قزحية العين.

قفز منتصباً، وقد جحظت عيناه في رأسه. أراد أن يتكلم ، أن يسأل، أيعقل أن تكون ... أنت؟ لكن شفتيه جمدتا. أراد أن يضم الشاب بقوة الى صدره وأن يقبله، لكن ذراعيه، الممدودتين في الفراغ تصلبتا فجأة، اخشوشنتا.

ثم لما رآه الشاب على هذا الحال، بذراعيه المفتوحتين واسعاً، وعينيه الجاحظتين ، وشعر رأسه المنتصب، أطلق صرخة. لقد قفز الكابوس المرعب من باب سحري في رأسه ـ الأقزام الرعاع بأكملهم، بما يحملون من أدوات للصلب وبصرخاتهم : عليكم به يا شباب! ومرة أخرى هاهو يتعرف على رئيسهم ذي اللحية الحمراء : إنه يهوذا، يهوذا الحداد ، وكان ينطلق في المقدمة. ويضحك بضراوة.

تحركت شفتا ذي اللحية الحمراء، وتمتم «أيمكن أن تكون... أنت...؟»
«أنا ؟ من؟»

لم يجب الآخر . راح يرمقه وهو يمضغ شاربيه، ومرة أخرى أضاء نصف وجهه بسطوع، وغاص النصف الآخر في الظلمة. وأخذت تتدافع في ذهنه الاشارات والمعجزات التي أحاطت بهذا الشاب منذ مولده، وحتى قبل ذلك: كيف حدث ، حين اجتمع المرشحون للزواج، أن كانت عصا يوسف- من بين عدد كبير منها - الوحيدة التي أزهرت. ولهذا السبب منحه الحبر مريم، مريم الممتازة، المكرسة لعبادة الرب. ثم كيف ضربت صاعقة العريس وأقعدته في يوم زفافه، وقبل أن يتاح له أن يلمس عروسه. وكيف شمَّت العروس فيما بعد، وكما أشيع،زنبقة بيضاء وحملت صبياً في رحمها. وكيف حلمت في الليلة التي سبقت مولده بأن السماء قد انشقت، وهبطت الملائكة واصطفت رتلاً كالعصافير التي تصطف على السطح المتواضع لمنزلها، تبني أعشاشها وتبدأ بالزقزقة، فوقف بعضها حارساً على عتبة دارها، ودخل بعضها غرفتها، فأشعل النار وسخن ماءاً لتحميم الطفل المنتظر، وطبخ بعضها مرقاً لتحتسيه المرأة الحامل...

اقترب ذو اللحية الحمراء ببطء، وتردد، ومال على الشاب. كان صوته الآن قد غدا مملوءاً بالتوق، والتضرع، والخوف. وسأله مرة أخرى «أيمكن أن تكون... أنت ...؟»، الا أنه من جديد لم يجرؤ على اكمال السؤال.

ارتعش الشاب من الخوف. قال «أنا؟»، وهو يحاول أن يضحك متهكماً «ولكن الا تراني؟ انني لست فصيح الكلام، ولا أتحلى بالشجاعة لدخول كنيس. وكلما رأيت الناس أسرع الى الانزواء. انني أعصي دون وازع وصايا الرب. وأنا أعمل في يوم السبت...»

حمل الصليب، وجعله قائماً من جديد وقبض على مطرقته.

«والآن ، انظر ! ها أنا أصنع صلباناً وأصلب!». ومرة أخرى جاهد ليضحك.

انتاب الحنق ذا اللحية الحمراء ولم يتكلم . فتح الباب، فظهر في آخر الشارع حشد مندفع جديد من القرويين الهائجين ـ نساء عجائز شعثات الشعر، ورجال عجائز رقيقو الصحة، من عرج، وعمي ، ومجذومين ـ وكلهم من حثالة الناصرة . هم أيضاً كانوا يصعدون، مقطوعي الأنفاس، هم أيضاً كانوا يزحفون نحو موقع الصلب العالي... اقتربت ساعة التنفيذ.حان الوقت لأرحل وأنضم الى الناس، هذا ما قاله ذو اللحية الحمراء لنفسه، حان الوقت لننطلق كلنا دفعة واحدة ونخطف عضو الزيلوت. وعندئذ سيتبيَّن إن كان هو المخلّص أم لا ... ثم فكَّر، لا، هذا الرجل الذي سيصلب اليوم لن يكون المختار الذي طالما انتظره العبرانيون قرون عديدة. غداً! غداً ! غداً! كم من السنين جعلتنا نحث خطانا، يا رب ابراهيم، يحدونا هذا الغد! الغد! الغد! حسن- فمتى اذاً؟ نحن بشر، لقد صمدنا كفاية!

كان قد أصبح ضارياً. ورمى نظرة ملؤها الغيظ الى الشاب الذي انكبَّ على الصليب يسمِّره، وتساءل وقد انتابته رعشة، أيمكن أن يكون المختار، أيمكن أن يكون المختار- صانع الصلبان هذا؟ ان أساليب الرب، غامضة وملتوية... أيمكن أن يكون المختار؟

من خلف النساء العجائز والمعوقين، ظهرت الآن دورية من الجنود الرومان بدروعهم، ورماحهم، وخوذهم البرونزية. ساقوا قطيع البشر أمامهم، لامبالين وصامتين، تعبيراً عن ازدرائهم للعبرانيين.

شيّعهم ذو اللحية الحمراء بنظرات متوحشة، ودمه يغلي. ثم التفت الى الشاب. لم يعد يرغب برؤيته: كان يشعر بأنه هو علّة كل هذا.

صرخ، وهو يشد على قبضته «أنا راحل! أما أنت - أنت فافعل مايحلو لك، يا صانع الصلبان! أنت جبان،خائن تافه مثل أخيك منادي البلدة! لكن الرب سيصليك ناراً كما أصلى أباك ، وسيحرقك. هذا قولي - احفظه لكي يذكّرك بي!»

الفصل الثالث

بقي الشاب وحيداً. اتكأ على الصليب وأخذ يجفف العرق عن جبينه. اختنقت أنفاسه في حنجرته، وبدأ يلهث. شعر برهة أن الدنيا تدور من حوله، إلا أنها عادت فسكنت حركتها. وسمع أمه تضرم النار لتطبخ عليها الوجبة باكراً لكي يتاح لها أن تلحق بالآخرين وتشاهد عملية الصلب. كان جيرانها جميعاً قد ذهبوا، وزوجها مايزال يئن، يجاهد كي يحرك لسانه، ولكن لم يكن فيه غير حنجرته حية، ولم يكن يصدر إلا أصواتاً مقرقة. وفي الخارج خلا الشارع من الخلق مرة أخرى.

ولكن بينما كان الشاب متكئاً على الصليب، مغمض العينين، لا يفكر في شيء ولا يسمع شيئاً خلاف وجيب قلبه، اذا به فجأة يرتجّ من صدمة ألم. ومرة أخرى بمخلب صقر خفي ينغرز عميقاً في فروة رأسه. غمغم «لقدجاء ثانية، جاء ثانية...» وبدأ يرتجف. أحس بالمخالب تنغرز أعمق، وتفلق جمجمته، وتلمس مخه. شد على أسنانه حتى لا يصرخ، لم يكن يريد أن يخيف أمه من جديد ويدفعها للصراخ. أمسك رأسه براحتيّ يديه بقوة وثبّته باحكام

وكـأنه يخـشـى أن يهـرب منه. وغـمـغـم وهـو يرتعش «لقـد جـاء من جديد، جاء من جديد...»

فـي المرة الأولـى، الأولـى علـى الاطـلاق ـ كــان فـي الثــانيــة عشـرة،وكـان جالسـاً مع الكبار اللاهثين المتعـرقين في الكنيس ينصت اليهم، يوضـحـون كلمـة الرب- استشـعـر وخـزاً خفيفاً طويلاً في قمة رأسـه، رقـيقـاً جـداً، كمـا المداعبـة. وأغـمض عينيه. أي نعـيم غـمـره حين أمسكت به تلك الأجنحة الخفيفـة وحملته الى السماء السابعة! وقـال فـي نفسـه، لابد انهـا الجنة! وتدفـقت من تحت جفونه المسـدلة ابتسـامة عـميـقـة سـرمـدية، وارتسـمت علـى فـمـه السـعـيـد، ونصـف المفتـوح، ابتسـامة ومسّت جسده برغبة عارمة حتى أن مـعـالم وجهه كلهـا اختـفـت. ورأى العـجـائز هـذه الابتسـامة الغـامـضـة مـفـتـرسـة الرجـال وحـدسـوا أن الـرب قـد انتـزع الفتـى ورفعـه عـاليـاً بمخـالبـه . فوضعوا أصابعهم على شفاههم ولزموا الصمت.

ومـرت السـنون. وهـو ينتظـر وينتظـر، لكن المداعـبـة لم تعـاوده، ومن ثم، ذات يوم ـ يوع عيد فـصـح اليهـود، والدنيـا ربيـع، والطقس رائع - توجـه الـى قانا، القـرية التي تنتمـي اليها أمـه، ليـختـار لنفسـه زوجـة. وكانت أمـه قـد دفعته الى ذلك، أرادت أن تراه متـزوجاً، كان قد بلغ العشرين من العمر، واكتست وجنته طبقة سميكة من الـزغب الجعـد وأصبح دمه يغلي بعنف بحيث منعه من النوم ليلاً. واسـتغلت أمه بلوغه ذروة شبابه هذه، وأقنعته ، بعد الحاح، بالذهاب الى قانا، قريتها، لينتقي عروساً.

وهكذا وقف، ووردة حـمـراء في يده، يحدق في فـتيات القـرية وهن يرقـصن تحت شجـرة حور كبيـرة نبتت أوراقها حديثاً . وبينمـا هو ينـظـرهـن ويقـارنهن ـ رغب فـيـهن جـمـيـعـاً، ولكن لم تكن لديه الشجاعة لينتقي - سمع فجأة ضحكة مفرقعة خلفه : كأنها نافورة

باردة بزغت من أحشاء الأرض. استدار، واذا بالمجدلية تهبط عليه بصندلها الأحمر، وشعرها المرسل وبكامل أسلحتها من أربطة الكاحل، وأساور، وأقراط، ابنة عمه الحبر الوحيدة. أصيب عقل الشاب بصدمة عنيفة. وهتف «إنها هي من أريده أريدها هي!»، ومد يده يبغي اعطاءها الوردة. لكنه حين فعل ذلك انغرزت عشرة مخالب كالمسامير في رأسه وخفق جناحان بحركة هائجة فوقه، وهيمنا باحكام على صدغيه. أطلق صرخة وانطرح على وجهه، والزبد يخرج من فمه. وكان على أمه التعسة، يسربلها العار، أن تغطي رأسه بمنديلها، وأن تحمله بين ذراعيها وتبتعد.

ومنذ ذلك الحين وهو تائه تماماً. وكانت الحالة تأتيه حين يكون القمر بدراً أثناء تجواله بين الحقول، أو أثناء نومه وسط صمت الليل، والأغلب أن تأتيه في الربيع، والعالم كله في أبهى حلله ويفوح بالعطر. كان عليه في كل مناسبة أن يكون سعيداً، أن يتذوق أبسط المتع الانسانية ـ أن يأكل ، وينام ، وأن يختلط مع أصدقائه، ويضحك، أن يقابل فتاة في الطريق ويقول في نفسه، انها تعجبني ـ وعلى الفور تنغرز المخالب العشرة عميقاً وتتلاشى رغبته.

ولكن لم يحدث من قبل أن انبلج عليه الصبح بمثل تلك الضراوة، فتكوّم تحت نضد العمل ودفن رأسه في صدره. وظل على تلك الحال فترة طويلة . وغاص العالم بالنسبة له. لم يعد يسمع غير همهمة داخله، وفوقه خفق الأجنحة العنيف.

وشيئاً فشيئاً تراخت المخالب، انفكت وحررت ـ ببطء، ومخلباً فمخلب ـ عقله أولاً، ثم عظام رأسه وجلده. وفجأة شعر بارتياح عظيم، وبتعب شديد. خرج من تحت النضد ووضع يده على رأسه وبحركة سريعة مرر أصابعه خلال شعره ليطمئن على فروة رأسه. فقد خيل اليه أنها قد خرقت، لكن أصابعه المتقصيَّة لم تعثر على

جرح واحد، وهدأ اضطرابه. ولكن حين أخرج يده ونظر اليها في الضوء أصابته رعشة: لقد كانت أصابعه تقطر دماً.

غمغم «الرب غاضب، غاضب... لقد بدأ الدم يتدفق».

رفع عينيه ونظر : لا أحد. الا انه اشتم رائحة حادة لحيوان بري نتن في الجو. وقال لنفسه وقد تملكه الرعب، هاقد عاد، انه يحيط بي من كل جانب وهو تحت قدمي وفوق رأسي...

أحنى رأسه وانتظر. كان الصمت والسكون يخيمان، والضوء - الذي بدا بوضوح ساذجاً ومسالماً - كان يلهو على الجدار المقابل له، وعلى السقف المكسو بعيدان الخيزران. وقرر بينه وبين نفسه أن لا يفتح فمه. لن أفوه بكلمة. فربما تأخذه الرأفة بي ويرحل.

حين توصَّل الى هذا القرار باعد مابين شفتيه وتكلم، وكان صوته ملؤه الأسى» «لماذا تثير حفيظتي؟ لماذا أنت غاضب؟ الى متى ستظل تلاحقني؟».

توقف. مال، فمه مفتوح، وشعر رأسه منتصب والخوف يملأ عينيه، وأخذ ينصت...

في أول الأمر لم يسمع شيئاً، كان السكون والصمت يسودان الجو. ومن ثم، فجأة، خاطبه صوت من فوقه. أصاخ سمعه وسمع- سمع، وهز رأسه بحركة عنيفة، متواصلة، وكأنه يقول، لا! لا! لا! لا!

وأخيراً فتح بدوره فمه ونطق. لم يعد صوته يرتعش «لا أستطيع! أنا أميّ، لانفع مني، وأخاف من كل شيء. أنا أحب الطعام الجيد، والخمر، والضحك، وأريد أن اتزوج، وأن انجب أطفالاً... فدعني وشأني!»

وعاد الى هدوئه وأنصت.

«ماذا تقول ؟ لا أسمعك؟»

فجأة اضطر الى أن يضع يديه على أذنيه ليخفف من وطأة

الصوت الوحشي عليهما وضغط بكل تقاطيع وجهه، وهو يحبس أنفاسه ، وأصبح يسمع الآن، وأجاب : «نعم، نعم، أنا خائف... أتطلب مني أن أنهض وأتكلم ؟ وماذا أقول، وكيف أفعل ذلك؟ أقول لك اني لا أستطيع ! أنا أميّ!... ماذا قلت؟ ... مملكة السماء؟... لا تهمني مملكة السماء. أنا أحب الأرض . وأعلم أني أريد أن أتزوج؛ أريد المجدلية، حتى وان كانت مومساً. لقد أصبحت كذلك بسببي، بسببي، وسوف أنقذها. هي! وليس الأرض . ليس مملكة هذا العالم - أريد أن أنقذ المجدلية. هذا يكفيني!... أخفض صوتك، انني لا أفهمك»

ظلل عينيه بكفّه : كان الضوء الخفيف الذي تسرب من خلال ضياء السماء يبهر بصره. ثبّت عينيه على السقف فوقه، وراح ينتظر. أنصت، وهو يحبس أنفاسه، فكان كلما سمع أكثر اتّقد وجهه أكثر بخبث ورضا. استشعرت شفتاه الغليظتان النضرتان خدراً، وفجأة انفجر بالضحك.

غمغم «نعم، نعم، أنت تفهمني بدقة. نعم، عن عمد، فعلته عمداً. أريدك أن تبغضني، أن تذهب وتفتش عن شخص آخر؛ أريد أن أتخلص منك!»

ثم تابع كلامه بعد أن استجمع الشجاعة الكافية لرفع صوته «نعم، نعم، عن عمد، وسأظل أصنع الصلبان طوال حياتي، لكي يُصلب عليها كل مسيح تختاره!»

قال هذا ثم فك الحزام المرصع بالمسامير من مكانه على الجدار وربطه حوله. نظر الى ضياء السماء. أخيراً أشرقت الشمس وعلت. وكانت السماء من فوقه قاسية وزرقاء، كأنها فولاذ. عليه أن يسرع، فعملية الصلب ستقع عند الظهيرة. تحت لظى الشمس في أوجها.

ركع وأسند الصليب الى كتفه وقبض عليه بذراعيه. ثم رفع احدى ركبتيه، واستجمع قواه- شعر أن ثقله هائل بالنسبة له، ويستحيل رفعه- وتقدم يترنح نحو الباب . مشى خطوتين وهو يلهث، ثم خطوة ثالثة وأخيراً وصل الى الباب، لكن ركبتيه خذلتاه، وأصيب بدوار، وسقط منهاراً على العتبة، تحت وطأة ثقل الصليب.

اهتز المنزل الصغير، وسمعت صرخة نسائية ثاقبة من الداخل، فتح باب وظهرت أمه.كانت طويلة القامة؛ عيناها كبيرتين وسوداوين، وبشرتها قمحية اللون؛ وقد تجاوزت لتوها المرحلة الأولى من الشباب ودخلت الى مرحلة الخريف بمرارتها الحلوة المحفوفة بالقلق. وكانت هالتان رزقاوان تحيطان بعينيها؛ وفمها يدل على الحزم كفم ابنها، غير أن ذقنها كانت أشد دلالة على القوة من ذقن ابنها وأشد صلابة. كانت تضع وشاحاً من الكتان البنفسجي؛ ويتدلى من أذنيها قرطان فضيان طويلان، هما حليتها الوحيدة.

حالما فتحت الباب ظهر الأب العجوز من خلفها، كان جالساً على حشية، الجزء العلوي من جسمه عارياً، وجلده الرخو أصفر شاحباً، وعيناه كامدتين وجامدتين. وكانت قد انتهت لتوها من اطعامه، ومايزال يمضغ بهمة وجبته من الخبز والزيتون والبصل. وكان شعر صدره الأبيض الجعد مملوءاً باللعاب وفتات الخبز. والى جوار سريره أسند عصاه الشهيرة التي قدّر لها أن تزهر في يوم خطبته . أما الآن فهي جافة وذابلة.

حين دخلت الأم ورأت ابنها واقعاً يتخبط تحت وطأة الصليب غرزت أظافرها في وجنتيها وهي تحدق اليه دون أن تهرع الى رفعه ليقف. لقد تعبت من كثرة ماباتت ترى شخصاً يدخل عليها وهو يحمله بين ذراعيه مغشياً عليه، ومن رؤيتها اياه يرحل ليجوب

الحقـول أو أمـاكن مـقـفـرة، ومـن بقـائه ليـلاً ونهـاراً دون طعـام، ومن رفضـه العمل، ومن اكتفائه بالجلوس ساعات طويلة وعيناه مثبتتان في الهواء، يحلم في اليقظة ويقضي الليل سـائراً وحيـاته خاليـة من أي انجـاز . ولم ينكبُّ على العمل بكل مـا أوتي من نشـاط الا عندمـا طُلب منه صنـع صليب لغـرض الصلب وراح يكدّ بجنون نهـاراً وليـلاً. ولم يعد يؤم الكنيس ، ولم يعـد يريد أن يطـأ أرض قـرية قـانا، أو أن يحضـر أياً من الاحتفالات. وحين يكتمل القمـر بدراً يضطرب عقله، وتسمـعـه الأم البـائسـة يهـذي ويصـرخ فـي هيـاج وكأنه يصـارع أحـد الشياطين.

كم من مرة سجدت أمام شقيق زوجـها الحبـر العـجوز الذي كان ضليعاً في طرد الشيـاطين. فقـد كان المبتلون يأتون اليـه من أطراف الدنيا ليشفيهم. وقبل أيام قليلة خـرّت على قدميه وأبدت شكواها : «إنك تشفي الغرباء وترفض أن تشفي ابنـي».

هـزّ الحبـر رأسـه. قـال «يا مـريم، ان ابنك لا يعذبه شيطـان، ليس الشيطـان، بل الـرب- فـماذا يسـعني أن أفعل له؟»

سـألت الأم البـائسة «أمـا من دواء؟»

«قلت لك أن السـبب هو الـرب. لا، لا دواء»

«ولمَ يعذبه؟»

تنهد طارد الأرواح الشـريرة العجوز ولم يدل بجواب.

عادت الأم تسأل «لم يعذبه؟»

أخيراً أجاب الحبـر العجوز «لأنه يحبه»

نظـرت اليـه مـريم مرتاعـة. فتحت فـمهـا تبغي أن تسـتـرسـل في سـؤاله، لكن الحبـر أسكتها.

قـال لهـا «لا تسـألي. ذاك هـو قـانون الـرب»، وهـو يقطب مـابين حاجبيه، ثم أومـأ لها أن ارحلي.

استمر مرضه سنوات طويلة. وأخيراً غلبها التعب والضجر، على الرغم من كونها أماً، وهاهي الآن تراه منطرحاً على عتبة الباب والدم ينزّ من جبينه، ولا تحرّك ساكناً. اكتفت باطلاق تنهيدة من أعماق قلبها- الا أنها لم تتنهد تعاطفاً مع ابنها بل من سوء حظها. لقد كانت سيئة الحظ في حياتها، وفي زوجها، وفي ابنها. فقد ترملت قبل أن تتزوج، وأصبحت أماً دون أن تحمل بولد، وهاهي تتقدم في السن - شعرها الأبيض يتضاعف عدده في كل يوم- ومع ذلك لم تعرف دهرها معنى أن تكون شابة، لم تشعر بدفء زوجها، ولا تذوقت حلاوة كونها زوجة وأماً أو شعرت باعتزاز بذلك. وأخيراً نضب الدمع من عينيها. لقد سفحت كل الدموع التي قسمها الرب لها، وأصبحت تنظر الى ابنها وزوجها بعينين جافتين. وان كانت أحياناً تبكي فذلك يحدث في الربيع حين تجلس وحدها تحدق الى الحقول الخضراء وتتنشق العبير الآتي اليهامن الأشجار المزهرة. في تلك الأوقات لم تكن تبكي حسرة على زوجها أو ابنها وانما حسرة على حياتها الضائعة.

كان الشاب قد نهض واقفاً وأخذ يجفف الدم بطرف ثوبه. التفت فرأى أمه تتأمله بنظرة قاسية، فتملكه الغضب. لقد كان يعرف تلك النظرة التي لم تكن تغفر له أي شيء، ويعرف تلك الشفتين المضغوطتين المفعمتين بالمرارة. ولم يعد بامكانه أن يتحمل ذلك. هو أيضاً أصابه الضجر والتعب في هذا البيت، بوجود ذاك المشلول المتداعي، والأم التي لاشيء يعزيها والأوامر اليومية المذلّة: كُل ! اعمل! تزوج! كُل! اعمل! تزوج!

باعدت الأم مابين شفتيها المضغوطتين وقالت بلهجة تأنيب «مع من عدت تتشاجر في هذا الصباح الباكر يا يسوع؟»

عض الابن على شفتيه حتى لا تفلت من بينهما كلمة فظة. ثم

فتح الباب، فدخلت أشعة الشمس ومعها دخلت ريح لاسعة محمّلة بالتراب، قادمة من الصحراء . ودون أن ينطق بكلمة راح يمسح العرق والدم عن جبينه، ومرة أخرى دعم الصليب بكتفه ورفعه.

كان شعر أمه منسدلاً على عظمتي كتفيها . مررت يديها عليه ثم جمعته معاً تحت منديلها، وتقدمت خطوة نحو ابنها . ولكن حالما رأته بوضوح في النور انتابتها رعشة دهشة. كم يتغير وجهه باستمرار! وكيف يتدفق- كالماء! كل يوم تراه وكأنما للمرة الأولى. تجد نوراً غامضاً ينبعث من جبينه، ومن عينيه وفمه، ترى ابتسامة تارة تكون سعيدة ، وأخرى تكون مفعمة بالألم، وبريقاً نهماً يلعق جبينه، وذقنه، وعنقه- ثم يلتهمه.

اليوم، كان هناك لهب أسود عظيم يتلظى في عينيه . تملكها الخوف، وخطر لها لحظة أن تسأله، من أنت؟ لكنها أحجمت. ثم قالت بصوت مرتعش «يا بني!». ولزمت الصمت، بانتظار أن ترى ان كان هذا الرجل الناضج هو بحق ابنها . هل سيلتفت اليها، هل سيخاطبها؟ لم يفعل. أطلق تنهيدة، وعدَّل وضع الصليب على كتفه وخطا خارجاً من المنزل، هذه المرة بخطى ثابتة.

اتكأت الأم على قائمة الباب وراحت تراقبه يخطو بخفة من بلاطة على الطريق الى أخرى وهو يرتقي المنحدر. الرب وحده يعلم من أين له مثل تلك القوة! لم يكن ما يحمله على كتفيه صليباً بل جناحين يدفعانه الى الأمام!

همست الأم المضطربة «يا رب، يا إلهي، من يكون؟ ابنُ منْ هو؟ إنه لايشبه أباه، لا يشبه أحداً . إنه في كل يوم يتغير. إنه ليس شخصاً واحداً، بل عدة...آخ، لقد تشوش عقلي».

وتذكرت ماحدث بعد ظهيرة أحد الأيام حين كانت في الفناء المجاور للبئر، وكانت تضمه الى صدرها . كان الفصل صيفاً-

وتعريشة العنب التي تخيم فوقها مثقلة بالثمار. وبينما وليدها يرضع غرقت في نوم عميق، ولكن سرعان ماتراءى لها- في غضون لحظة من الزمن- حلم بلا حدود: تراءى لها ملاك في السماء يحمل نجمة تتدلى من يده، نجمة تشبه مصباحاً، ثم تقدم وأنار الأرض من تحته. وكان هناك درب وسط الظلام، كثير التعاريج، يتوهج بالبريق، كومض البرق. امتد باتجاهها، وصار يتلاشى عند قدميها. وبينما هي تحدق مذهولة وتتساءل من أين بدأ هذا الدرب ولماذا انتهى عند قدميها، رفعت بصرها- فماذا رأت : رأت النجم وقد توقف فوق رأسها، وظهر من آخر الدرب المضاء بنور النجم ثلاثة خيالة. وثلاثة تيجان تتلألأ فوق رؤوسهم. توقفوا برهة من الزمن، نظروا الى السماء، فألفوا النجم قد سكن، ثم حثوا خيولهم وخبّوا متقدمين منها. ولم تتمكن الأم من تمييز ملامحهم بوضوح. كان أوسطهم أشبه بوردة بيضاء، شاب مليح أشقر بوجنتين ماتزال طبقة من الزغب تغطيهما. والى يمينه انتصب رجل أصفر بلحية سوداء مدببة وعينين مائلتين، والى يساره وقف زنجي، كان شعره أبيض جعداً، وفي أذنيه قرطان ذهبيان؛ ولمعان أسنانه مبهراً. ولكن قبل أن تتمكن الأم من تمييزهم بشكل أفضل أو أن تغطي عيني طفلها حتى لا يبهره النور الساطع، وصل الخيالة الثلاثة، وترجلوا وركعوا أمامها.

كان الأمير الأبيض هو أول المتقدمين. وكان الطفل عندئذ قد غادر حضن أمه وانتصب واقفاً على ركبتيها. خلع الأمير تاجه ووضعه بخضوع عند قدمي الطفل. بعده جاء الزنجي وخرّ على ركبتيه وأخذ حفنة من الزمرد والياقوت من تحت قميصه ونثرها بكل رقة على الرأس الصغير. أخيراً مدّ الأصفر يده ووضع ملء ذراع من ريش الطاووس الطويل عند قدمي الطفل ليلعب بها...

نظر الطفل الى كل من الرجال الثلاثة وهو يبتسم لهم، لكنه لم يمد يديه الصغيرتين ليلمس الهدايا.

فجأة اختفى الملوك الثلاثة وظهر راع شاب، يرتدي جلد خروف ويحمل بيديه سلطانية مملوءة بالحليب الدافئ. وحالما رأى الطفل الحليب شرع يرقص وهو على ركبتي أمه، وأمال وجهه الصغير الى السلطانية وأخذ يشرب الحليب بنهم وحبور...

تذكرت الأم الحلم السرمدي وهي تتكئ على قائمة الباب، وتنهدت.

كم من أمل أعطاها هذا الابن الوحيد، كم من أعجوبة تنبأ له بها السحرة! ألم يحدق الحبر العجوز نفسه اليه، وفتح الكتب المنزلة، وقرأ ماجاء به الرسل فوق الرأس الصغير ونقب في صدر الطفل، أجل، وحتى في أخمص قدميه، بحثاً عن علامة؟ ولكن، يا للأسف، مع مرور الوقت ذوت آمالها وتساقطت. لقد اختار ابنها طريق الشر، طريقاً حادت به أكثر فأكثر عن مسالك البشر؛ أحكمت لفّ وشاحها وأرتجت الباب. ومن ثم أخذت بدورها ترتقي التل، متوجهة لتشاهد عملية الصلب ـ تزجية للوقت.

الفصل الرابع

مشت الأم ومشت، وأسرعت في سيرها لتتسلل بين الحشد وتختفي. وسمعت صراخ النسوة في المقدمة، ومن خلفهن كان الرجال الغاضبون اللاهثون، حفاة شعثي الشعور، متسخي الأجساد، خناجرهم مخبأة عميقاً داخل قمصانهم. وبعدهم كان العجائز، وأبعد منهم تبع العرج، والعمي، والمشوهون. تفتتت الأرض تحت أقدام الناس، وتصاعدت سحب الغبار، وتعكر صفو الهواء. وفي الأعالي كانت الشمس قد بدأت تتلظى بغضب.

تلفتت امرأة عجوز فيما حولها فرأت مريم، وأطلقت سباباً. وأشاح اثنان من الجيران بوجهيهما بعيداً عنها وبصقا لابعاد نذير الشؤم، وارتعشت عروس حديثة العهد ولملمت أطراف ثوبها خشية أن تلمسها أم صانع الصلبان أثناء مرورها. أطلقت مريم تنهيدة وأحكمت لف وشاحها البنفسجي اللون حولها، فلم يعد يظهر منها غير عينيها اللوزيتين المملوءتين باللوم، وفمها المغلق بشكل ينم عن احساس بالمرارة. وراحت تتقدم وحدها، وهي تتعثر بالصخور، تسرع الى الاختباء، والى الاختفاء داخل الحشد. وكان الهمس يضج

في كل مكان حولها، لكنها حضّت قلبها وحثّت خطاها. كانت تقول في نفسها، أي حضيض انحط اليه ابني، يا بني، يا بني، يا حبيبي... تابعت سيرها وهي تعض على طرف وشاحها لكي تمنع دموعها من الانفجار.

وصلت الى تجمع الناس، مخلفة وراءها الرجال، منزلقة بين النسوة لتختبئ. وكانت قد غطت فمها بكف يدها ـ ولم يعد يظهر منها الآن غير عينيها. وقالت في نفسها، لن يتعرف أي من جيراني عليّ. وهدأ بالها.

فجأة سمعت خلفها جلبة عظيمة. كان الرجال قد شكلوا قوة دفع كبيرة، وأخذوا يتدافعون خلال جموع النساء ليكونوا في المقدمة، وكانت الثكنة التي حبس فيها الزيلوت قد أضحت مزدحمة، وكانوا يتحرقون لتهشيم الباب وتحرير الأسير. تنحت مريم جانباً، وتوارت في أحد المداخل المستترة، وراحت تنظر: رأت لحى طويلة مزيتة، وشعراً طويلاً مزيتاً، وأفواهاً مزيتة، ورأت الحبر يعتلي كتفي عملاق ذي ملامح وحشية، يلوح بذراعيه نحو السماء ويصرخ، بماذا يصرخ؟ نصبت مريم أذنيها وسمعت:

« يا أبنائي، ضعوا ثقتكم في شعب اسرائيل. تقدموا ـ جميعاً! لا تخافوا. ماروما غير دخان. وسوف ينفخ الرب عليها ويذروها! تذكروا المكابيين، تذكروا كيف طردوا الاغريق، حكام العالم، وكيف سببوا لهم الخزي وبالطريقة نفسها سنطرد الرومان، وسنلبسهم ثوب الخزي، لا اله الا رب القرابين، ربنا!»

رقص الحبر العجوز، وقد تملكته النشوة العلوية، ورقص وهو على كتفي العملاق العريضين. كان قد تقدم في السن، واستهلكه الصوم المتواصل، وكثرة السجود وما يحمله من آمال عظمى، ولم يعد فيه قوة لتعينه. وكان سكان الجبال ذوو الأجساد الضخمة قد

أمسكوا به وأخذوا يركضون معه في مقدمة الناس، وهم يلوحونه أماماً وخلفاً كأنه راية.

هتف الناس «هيه، سوف توقعه يا باراباس»، لكن باراباس تقدم دون أن يبدي أدنى قدر من القلق، وهو يتقاذف العجوز ويؤرجحه على كتفيه.

كان الناس يبتهلون للرب. وكانت السماء من فوقهم تشتعل ناراً، واللهب يتصاعد ويصل السماء بالأرض. وترنحت رؤوسهم: بهت عالم الحجارة والعشب واللحم هذا، أصبح شاقاً، وتبدى العالم الآخر من خلفه، مكوناً من لهب وملائكة.

اشتعل الحماس في يهوذا، فمد ذراعيه باندفاع وانتزع الحبر العجوز من على كتفيّ باراباس، ودفعه ليتقدمه وبدأ يجأر «اليوم لا غداً، اليوم»، ودب الحماس في الحبر بدوره فأخذ يرتل مزمور النصر بصوته العالي، صوت رجل يضع قدماً في القبر. وفي الحال ردد الناس:

كل الأمم أحاطوا بي، باسم الرب أبيدهم
أحاطوا بي واكتنفتني، باسم الرب أبيدهم
أحاطوا بي مثل النحل، انطفأوا كنار الشوك، باسم الرب أبيدهم(١)

ولكن بينما هم يرتلون، ويبددون الأمم في أذهانهم، لاح فجأة حصن العدو أمامهم يشمخ في قلب الناصرة: مربع الشكل، حصيناً، بأربع زوايا، وأربعة أبراج، تعلوها أربعة نسور ضخمة. وكان الشيطان يسكن كل انش من هذه الثكنات. وفوق كل هذا كله، أعلى

---

١ ـ المزمور ١١٨: الأرقام ١٠، ١١، ١٢ من الانجيل.

من الأبراج تشمخ أعمدة رومانية تحمل نسراً ذا لونين أصفر وأسود، وتحتها يقف روفوس، قائد المائة الناصري المتعطش لسفك الدماء، مع جيشه، والى أسفل أكثر ثمة الأحصنة، والكلاب، والجمال والعبيد، وأسفل أكثر يقف الزيلوت، المحشور عميقاً في بئر جافة، شعره شعث لم يقربه مقص، وشفتاه لم يقربهما الخمر، وجسده لم يقرب النساء. هذا المتمرد لن يتمكن الا من رفع رأسه، وكل الطبقات الملعونة التي فوقه ـ من رجال، وعبيد، وخيول، وأبراج ـ سوف تنهار عليه. هكذا دائماً يفعل الرب، فعميقاً في أسس الخطأ يدفن صرخة العدل الصغيرة المحتقرة.

هذا الزيلوت كان آخر سلالة طويلة من المكابيين. وكان رب اسرائيل ظلل على رأسه بيده وحفظ البذرة المقدسة من الفناء. وذات ليلة قام هيرودس ملك اليهودية العجوز ـ الخائن الملعون، الشرير! ـ بتلطيخ أربعين من الفتيان بالقطران وأشعلهم كما المشاعل لأنهم حطموا النسر الذهبي الذي كان قد ثبَّته على أسكفة المعبد الطاهرة، ولم تكن من قبل قد تعرضت للتدنيس، ولم يتم القبض الا على أربعين شخصاً من بين المتآمرين الواحد والأربعين، وفر قائدهم. فقد أمسك به رب اسرائيل من شعره وأنقذه، وكان ذلك هو الزيلوت، الحفيد الأكبر للمكابيين، وكان في ذلك الوقت فتى وسيماً، بوجنتين مايزال الزغب يغطيهما.

أمضى سنين عديدة بعد ذلك يتجول بين الجبال، يحارب ليحرر الأرض المقدسة التي أهداها لرب اسرائيل. وكان كثيراً مايصرخ «ليس لنا غير سيد واحد ـ هو أدوناي، لا تدفعوا ضريبة الرؤوس للحكام الأرضيين، لا تخضعوا لأوثانهم التي تحمل صورة النسر فتدنسوا معبد الرب، لا تقدموا الثيران والخرفان كأضاحي للامبراطور الطاغية، ليس هناك غير رب واحد، هو ربنا، وليس

هناك غير شعب واحد، هو شعب اسرائيل، وليس هناك غير ثمرة واحدة على شجرة الأرض كلها - هي المسيح»

ولكن فجأة أبعد رب اسرائيل يده عنه وقبض عليه روفوس، قائد المائة الناصري، وانطلق الفلاحون، والعمال، وأصحاب الأملاك حشوداً من كل القرى المجاورة، وجاء الصيادون من بحيرة جنيسارت. والآن ومنذ أيام طويلة هناك رسالة غامضة، غير واضحة، مزدوجة المعنى تتنقل من منزل الى منزل، من قارب صيد الى آخر، بل كانت تصل حتى الى عابر السبيل في الطريق: «انهم يصلبون الزيلوت، هو أيضاً انتهى أمره - انتهى!»، لكن الرسالة كانت في أوقات أخرى تقول: «أحييكم، يا أخوتي، وأبلغكم بمجيء المخلّص فليحمل كل منكم سعفة نخيل كبيرة وتقدموا، جميعاً - سيروا الى الناصرة لترحبوا بمقدمه!»

وقف الحبر العجوز وعلى ركبتيه معتلياً كتفيّ ذي اللحية الحمراء، وأشار الى الثكنة ومرة أخرى أخذ يصرخ: «لقد أتى! لقد أتى ! إن الواقف في تلك البئر الجافة هو المسيح - منتصباً وينتظر. ينتظر من؟ ينتظرنا، نحن شعب اسرائيل! الى الأمام، حطموا الباب، وحرروا المحرر، لكي يحررنا!»

هتف باراباس بصوت وحشي «باسم رب اسرائيل!» ورفع الفأس التي يحملها بيده.

تعالى صراخ الناس،وبرزت السكاكين المخبأة تحت قمصانهم، وعبّأ الأولاد مقاليعهم وقام الجميع - يقودهم باراباس - بهجوم مفاجئ على الباب الحديدي. لكن نور الرب الساطع بهر كل العيون، فلم ير أحد منهم باباً صغيراً للثكنة قريباً من الأرض فتح فقط بمقدار شقة، مظهراً المجدلية شاحبة كالموتى وتجفف عينيها المترعتين بالدموع. كان الرجل المدان قد أثار الشفقة في روحها

فنزلت ليلاً الى الحفرة لتمنحه المتعة الكبرى،أعذب ما يمكن للعالم أن يمنحه. لكنه كان أحَد جنود الزيلوت العنيفين وقد أقسم على أنه، والى ان يتم تحرير أرض اسرائيل، لن يقص شعره، ولن تذوق شفتاه الخمر، ولن يضاجع امرأة. أمضت المجدلية الليل بطوله جالسة قبالته، لكن عينيه كانتا تنظران الى أورشليم، هناك بعيداً بعيداً في المدى خلف شعر المرأة الفاحم، ليس الى أورشليم الخاضعة المنتَهَكة لتلك الأيام، وانما الى أورشليم المستقبل المقدسة، ببوابات حصنها المنتصر السبعة، بملائكتها الحارسة السبع وشعوب الأرض السبعة والسبعين ساجدين تحت قدميها. لمس الرجل المدان الصدر البارد لأورشليم المستقبل، فتلاشى الموت وأصبح العالم المحيط به أكثر حلاوة، أصبح مدوَّراً، وأصبح ملء قبضته. أغمض عينيه، وضم ثدي أورشليم بكفه ولم يفكر الا بشيء واحد ـ برب اسرائيل، الرب الذي لم يلمس شعره قط مقص، ولم تلمس الخمر شفتيه، ولم يقرب جسده النساء. الزيلوت أجلس أورشليم على ركبتيه طوال الليل وبنى مملكة السماء عميقاً في أحشائه، ليس من الملائكة والسحب، وانما كما أرادها، دافئة في الشتاء، باردة في الصيف، قوامها الرجال والتراب.

رأى الحبر العجوز ابنته السيئة السمعة تخرج من الثكنة، فأشاح بوجهه عنها. لقد كانت المصدر الوحيد لذل حياته الأعظم. كيف خرجت هذه العاهرة من صلبه الطاهر، الذي يخشى الرب؟ أي شيطان تلبّسها أو أية آلام عصيَّة أصابتها حتى جعلتها تسير في درب المعاصي؟ في أحد الأيام، لدى عودتها من احتفال أقيم في قانا، جلست تبكي وأعلنت أنها تريد أن تقتل نفسها. وبعد ذلك انفجرت في نوبات من الضحك، ثم لوَّنت وجنتيها ولبست كل ماالديها من حلي وراحت تتجول في الشوارع. بعد ذلك غادرت بيت

أبويها وفتحت محلاً في مجدلة ـ عند تقاطع الطرق، حيث نقطة عبور كل القوافل...

تقدمت وصدارة ثوبها ماتزال محلولة نحو الحشد، غير هيابة. كانت قد أزالت الحمرة عن شفتيها ووجنتيها، وكانت عيناها كليلتين تغشاهما غمامة من مراقبتها للرجل طوال الليل والبكاء. وحين رأت والدها يشيح بوجهه عنها خزياً ابتسمت ابتسامة مريرة: كانت قد نفضت عنها كل احساس بالعار، وكذلك خشيتها من الرب، وحبها لوالدها، واهتمامها بآراء الناس. وكانت ثمة غيبة تقول إنها ممسوسة بسبعة شياطين، لكن قلبها لم يكن يحتوي على سبعة شياطين، بل على سبع سكاكين.

عاد الحبر العجوز يصرخ، طالباً من الناس أن يلتفتوا نحوه وينظروا اليه مباشرة وذلك حتى لا يقع بصرهم على ابنته. لقد رآها الرب، وهذا كاف ـ وهو الذي سيحاكمها.

هتف قائلاً، وهو متمركز على كتفي ذي اللحية الحمراء، «افتحوا عيون أرواحكم وتأملوا السموات. الرب فوقنا، وأبواب السموات مفتوحة، وجيوش الملائكة تتقدم، والهواء امتلأ بأجنحة حمراء وزرقاء!»

صارت السماء لهباً. ورفع الناس أبصارهم، ونظروا فوقهم فرأوا الرب ـ مدججاً بالسلاح ويهبط. رفع باراباس فأسه، وصرخ «اليوم ! لا غداً، اليوم!»، فاندفع الغوغاء الى الثكنة، ارتموا على البوابة الحديدية، أحضروا عتلات، وأسندوا سلالم على الجدران، وأحضروا جمراً ملتهباً ليضرموا النار بالمكان. ولكن فجأة فُتح الباب الحديدي وظهر منه فارسان مصفحان بالبرونز، مدججان بالسلاح حتى أسنانهما، لوحتهما الشمس، حَسَنَا التغذية، واثقان من نفسيهما. حثَّا حصانيهما على المسير وعلى وجهيهما أمارات جامدة،

ويرفعان رمحيهما ـ وعلى الفور امتلأت الشوارع بالأقدام المهرولة والظهور المولولة وهي تفرّ باتجاه التلة التي سيُنفّذ عليها الصلب.

هذه التلة الملعونة كانت جرداء، لا يغطيها غير حجر الصوان والشوك. كنت تعثر على قطرات جافة من الدم تحت كل حجر ترفعه. وكان العبرانيون كلما تصدوا للرومان للحصول على الحرية تمتلئ هذه التلة بالصلبان المنصوبة، وكان المتمردون يطلقون عويلهم وأنينهم وهم عليها. وليلاً كان أبناء آوى يأتون وينهشون أقدامهم، وفي صبيحة اليوم التالي تهبط الغربان وتأكل عيونهم.

توقف الناس عند أسفل التل، يلهثون من ضيق أنفاسهم. وازداد عدد الفرسان البرونزيين الذي يسحقونهم، وكانوا يتحركون جيئة وذهاباً، ويضغطون الحشد العبراني معاً ليقف في منطقة واحدة، ثم شكلوا نطاقاً حوله. كادت الظهيرة تنتصف والصليب لم يجلب بعد. وعلى قمة التل وقف غجريان ينتظران، يحملان المطارق والمسامير بأيديهما. ووصلت الكلاب القرية، متلهفة للأكل. وكانت وجوه الناس مصطبغة بحمرة نارية، وهي تيمم شطر التل تحت السماء المتقدة، عيوناً سوداء كالحفر، وأنوفاً معقوفة، ووجنات غائرة، لوحتها الشمس، وسبلات جانبية مزيَّتة. والنسوة السمينات بآباط منقوعة، وشعور مُندّاة بحبات عرق تقطر، يذبن تحت أشعة الشمس، وتفوح منهن روائح قوية.

وقدمت مجموعة من صيادي بحيرة جنيسارت كغيرها من الناس، كانوا يحملقون بعيون طفولية واسعة تعجُّباً، ليشاهدوا المعجزة: فبينما الكفار النغلة يسوقون الزيلوت الى الصلب كان هو سينزع عنه أسماله، ومن ثم سيظهر فجأة ملاك من تحت الأرض يحمل بيده سيفاً معقوفاً... كان الرجال، بوجوههم وصدورهم وأذرعهم الصدئة بفعل الشمس والريح، قد وصلوا في الليلة

السابقة مع سلالهم العامرة بالسمك. وبعد أن باعوها بأفضل سعر، استقروا في احدى الحانات وشربوا حتى ثملوا، ونسي بعضهم سبب مجيئه الى الناصرة. تذكروا جنس النساء وغنوا يمجدونه، ثم بدأوا يتقاتلون، وعادوا أصدقاء من جديد، وعند انبلاج الفجر تذكروا فجأة رب اسرائيل، فاغتسلوا، ثم انطلقوا، نصف يقظى، نصف نيام، ليشهدوا المعجزة.

انتظروا، وطال انتظارهم، وسرعان ما استولى عليهم الضجر والقلق، وكان يكفي أحدهم أن يتلقى ضربة قوية من الرمح على ظهره حتى يشعر بندم شديد لمجيئه.

قال أحدهم ذو لحية شائبة جعدة «أنا أقول يا شباب إن علينا أن نعود الى قواربنا» كان مملوءاً بالشباب والحيوية بالنسبة لسنه، وجبينه أشبه بصدفة محارة، «سيصلب الزيلوت كالبقية، والسماوات لن تتفتح، تذكروا كلامي. لانهاية لغضب الرب، أو لجور الانسان. ما قولك يا ابن زبدي؟»

ضحك رفيقه. وكان صياداً وحشي النظرات وذا لحية كالشوك. «أقول إنه لا نهاية لحماقة بطرس. سامحني يا بطرس، لكنك لم تُتَمَّ حساً سليماً ليليق بشعرك الأبيض. ان حماستك تشتعل بسرعة البرق وتنطفئ بالسرعة نفسها، كالضِّرَم. ألست أنت أول من استنهضنا للمجيء الى هنا؟ كنت تهرع منتقلاً كالمجنون من قارب الى قارب وتصرخ، «اتركوا كل شيء يا أخوتي، ان المرء لا يشهد معجزة الا مرة واحدة في حياته. هلموا بنا، هيا الى الناصرة لنشهد المعجزة!»، وها أنت الآن تضرب مرة أو مرتين برمح على ظهرك فينقلب رأيك على الفور رأساً على عقب، وتغير نبرة صوتك وتهتف «اتركوا كل شيء، يا أخوتي، وهيا بنا الى البيت!» ان تسميتك بـ «المتقلّب» لم تكن عبثاً!».

سمع هذا الحوار اثنان أو ثلاثة من الصيادين وضحكوا، ورفع راع تفوح منه رائحة الماعز عصاه وقال «إياك أن توبخه يا يعقوب حتى ولو كان متقلباً. انه أفضلنا، ولديه قلب من ذهب».

ووافق الجميع «معك حق يا فيلبُّس ـ قلب من ذهب»، ومدوا أيديهم ليداعبوا بطرس ويطيِّبوا خاطره، وهو ينفث غضباً. كان يقول في نفسه، فليقولوا ما يحلو لهم، كل ما يحلو لهم ـ الا ان يصفوني بالمتقلب. قد أكون وحيداً، قد أكون عرضة لكل هبة ريح، ولكن ذلك ليس لأني خائف، لا، بل بسبب قلبي الطيب.

رأى يعقوب تعبير وجه بطرس المتجهم فشعر بالانقباض. وندم لأنه تكلم بطيش شديد مع الرجل الأكبر سناً، ولكي يغير الموضوع سأل «كيف حال أخيك أندراوس يا بطرس؟ أمازال في الصحراء الأردنية؟»

أجاب بطرس وهو يتنهد «نعم، مازال هناك. يقال انه قد عُمِّد فعلاً وبدأ يأكل الجراد والعسل البري، على قدم المساواة مع معلمه، قد يثبت الرب كذبي، لكني أراهن على أننا سنراه قريباً يقوم بجولات في القرى وهو يصرخ «توبوا! توبوا! لقد حلت مملكة السماء!» مثلما فعل الباقون، أي مملكة هي ـ أهذه التي تحيط بنا؟ ألا نخجل من أنفسنا؟، أتساءل!»

هزَّ يعقوب رأسه وقطب مابين حاجبيه الكثّين. قال «رأيت المشهد نفسه يحدث لأخي العارف بكل شيء، يوحنا. لقد رحل ليصبح راهباً في الدير في صحراء جنيسارت. يبدو أنه لم يخلق ليكون صياد سمك، وهكذا تركني وحدي مع عجوزين وخمسة قوارب لأضرب رأسي في الجدار»

سأله فيلبّس، الراعي «ولكن ما الذي كان ينقص الفتى المبارك؟ لقد كان يحظى بكل ما يمكن للرب أن يهبه! ما الذي دعاه وهو

مازال في زهرة شبابه؟». سأل هذا الا أنه من داخله كان يبتهج سراً لأن الأغنياء من الناس أيضاً في داخلهم دودة تنخرهم.

أجاب يعقوب «لقد أصبح فجأة مضطرب النفس، وبدأ يتقلّب في سريره طوال الليل كفتى محتاج الى امرأة»

«ولمَ لمْ يتزوج؟ هناك عرائس لمن يريد»

«قال انه لا يريد أن يتزوج امرأة»

«ماذا كان يريد اذاً؟»

«يريد أن يحظى بمملكة السماء ـ مثل اندراوس»

وانفجر الرجال ضاحكين.

هتف صياد عجوز «ويعيشان في ثبات ونبات!»، وهو يفرك يديه الخشنتين معاً بخبث.

فتح بطرس فمه ليتكلم، ولكن قبل أن يفوه بكلمة امتلأ الفضاء بصراخ أجش «أنظروا! هاهو صانع الصلبان، صانع الصلبان!»

في اللحظة نفسها، التفتوا تملأهم الحيرة فشاهدوا أسفل الدرب ابن النجار يرتقي التل بخطى متقلقلة، وهو يلهث تحت وطأة ثقل الصليب.

هدر الحشد «صانع الصلبان صانع الصلبان! الخائن!»

نظر الغجريان الواقفان في أعلى التل الى أسفل، وحين رأيا الصليب يقترب راحا يقفزان فرحاً، فقد كانت أشعة الشمس تشويهما. بصقا في أكفهما وتناولا معوليهما وأخذا يحفران حفرة. كانا قد وضعا المسامير الضخمة ذات الرؤوس المسطحة على حجر قريب. وكانا قد أُمرا باحضار ثلاثة منها، فطرقا خمسة.

تماسك الرجال والنساء بالأيدي مشكّلين سلسلة لتعيق تقدم صانع الصلبان. خرجت المجدلية من بين الحشد وألقت نظرة ثابتة على ابن مريم الذي كان يتابع ارتقاءه ففاض قلبها أسى وهي تتذكر

الألعاب التي كانا يلعبانها معاً وهما مايزالان طفلين صغيرين. كان هو في الثالثة، وهي في الرابعة. كم كان فرحهما عميقاً، عصياً على البوح، وأي عذوبة تعقد اللسان، وأدركا للمرة الأولى الحقيقة العميقة المظلمة أن أحدهما رجلاً والآخر امرأة: جسدان خيّل اليهما في وقت من الأوقات أنهما جسد واحد، لكن الهاً لايعرف الرحمة فرّقهما، ومن ثم تلاقت القطعتان من جديد، وحاولتا ان تتضما معاً، ان تتحدا من جديد. وكانا كلما تقدما في العمر يزداد وضوح احساسهما بمعجزة أن يكون أحدهما رجل والآخر امرأة، وكانا يتبادلان النظرات يحيط بهما رعب أخرس، ينتظران كوحشين ضاريين أن يتفاقم جوعهما وأن تحين الساعة التي يندفع كل منهما نحو الآخر ليعيدا جمع مافرّقه الرب. ولكن، وذات أمسية أثناء احتفال أقيم في قانا، حين مد حبيبها يده ليناولها وردة تكريساً لخطوبتهما، انقضَّ الاله عديم الرحمة عليهما، وفرق مابينهما مرة أخرى. ومنذ ذلك الحين...

فاضت عينا المجدلية بالدمع، وخطت خطوة الى الأمام. كان حامل الصليب يمرُّ من أمامها مباشرة.

مالت عليه، ولامس شعرها المعطّر كتفيه العاريين الداميين.

عوت بصوت أجش، مختنق «يا صانع الصلبان»، وكانت ترتعش.

التفت الشاب وثبّت عينيه الكبيرتين العليلتين عليها لجزء من اللحظة، وعبثت ارتعاشات عنيفة بشفتيه، وتلوى فمه، لكنه أخفض رأسه على الفور، ولم يتح للمجدلية وقت كاف لتعرف ان كان هذا الالتواء هو بفعل الألم، أم الخوف، أم هو ابتسامة.

قالت، وهي ماتزال تميل عليه، وبعد أن التقطت أنفاسها «أليست لديك كبرياء؟ ألا تذكر؟ كيف ترضخ لهذا؟»

وبعد برهة صرخت، وكأنها سمعت منه جواباً «لا، لا، أيها

البائس المسكين، انها ليست مشيئة الرب، بل مشيئة الشيطان ! »

في تلك الأثناء كان الحشد قد اندفع مسرعاً الى الأمام ليسدّ طريقه. رفع رجل عجوز عصاه وضربه بها، وقام اثنان من رعاة البقر كانا قد انحدرا من أعلى جبل الطور للانضمام الى الآخرين لرصد المعجزة، قاما بتثبيته في مكانه بمهمازيهما. وشعر باراباس بالفأس القصيرة تتحرك الى أعلى والى أسفل في قبضته. ولكن حالما رأى الحبر العجوز الخطر يتفاقم، انزلق عن عنق ذي اللحية الحمراء وخفَّ للدفاع عن ابن أخيه.

صرخ «كفى، يا أولادي، انها لخطيئة فادحة ان نسد درب الرب، فلا تفعلوا ذلك. ان ما قُدِّر يجب أن يتم. لا تقفوا في طريقه. دعوا الصليب يمر ـ فالرب هو الذي أرسله، دعوا الغجريين يعدّا مساميرهما، وليصعد رسول أدوناي الى الصليب. لا تخافوا؛ تمسكوا بايمانكم! ان ناموس الرب من الصرامة بحيث لا مناص من أن تصل السكين مباشرة الى العظام. بغير ذلك لن تقع المعجزة! أنصتوا الى جدكم العجوز، يا أولادي، فأنا أقول لكم الحقيقة. لا يمكن للانسان ان ينمّي جناحين الا اذا وصل أولاً الى شفا الهاوية!»

أبعد رعاة البقر مهاميزهم، وسقطت الحجارة من القبضات المشدودة، وتنحّى الناس جانباً لاخلاء درب الرب، وواصل ابن مريم خطاه المتعثرة متنكباً الصليب. وسُمعت أصوات الجنادب قادمة من كرم الزيتون البعيد كأنها تنشر الجو، وعلى قمة التل راح كلب جائع يخصّ أحد اللحامين ينبح فرحاً. وأبعد أكثر، وبين تكتّل البشر، أطلقت امرأة، متلفعة بوشاح بنفسجي اللون، صرخة ثم أغمي عليها.

وقف بطرس فاغراً فاه جاحظ العينين، يراقب ابن مريم. انه يعرفه. لقد كان منزل أهل مريم في قانا قبالة منزلهم، ووالداها

العجوزان، يواكيم وحنه، كانا صديقين حميمين لوالدي بطرس. كانت تجللهما القداسة. وكانت الملائكة تتردد على كوخهما المتواضع بانتظام، وذات مساء شاهد الجيران الرب ذاته يجتاز عتبة منزلهما متخفياً بزي رجل متسول. لقد عرفوا أنه الرب، لأن البيت اهتز وكأنما ضربه زلزال، وبعد ذلك بتسعة أشهر حدثت المعجزة: وضعت حنه، وهي في ستينات عمرها، ابنتها مريم. في ذلك الوقت لابد أن بطرس كان يبلغ أقل من خمس سنين، لكنه كان يتذكر كل الاحتفالات التي تلت ذلك، وكيف دبّت الحركة في أرجاء القرية كلها، وكيف هرع الرجال والنساء ليقدموا التهاني. فحمل البعض معه دقيقاً وحليباً، وحمل البعض الآخر تمراً وعسلاً، وحمل آخرون ملابس وليد صغير: بمثابة هدايا للمرأة ابّان ولادتها ولطفلتها. وكانت والدة بطرس هي القابلة، فسخّنت ماءاً، وأضافت اليه الملح ثم حمّمت الطفلة المنتحبة حديثة الولادة. والآن، هاهو ابن مريم يمر من أمامه يرزح تحت ثقل الصليب، والكل يبصق عليه ويرشقه بالحجارة، وبينما بطرس ينظر ويطيل النظر شعر بقلبه يمور. أحس أن قدره بائس، لقد انتقى رب اسرائيل بلا رحمة ابن مريم ليصنع صلباناً ليصلب عليها الأنبياء. وقال بطرس في نفسه وقد مسّتا، الرجفة، انه كليّ القدرة، كان يمكن ان ينتقيني للقيام بالعمل نفسه، الا أنه انتقى ابن مريم ونجوت أنا... وفجأة هدأت غلواء قلب بطرس المائر، وشعر على الفور بامتنان عميق لابن مريم، لأنه قبل حمل الخطيئة على كتفيه.

بينما كل هذا يتلاطم في ذهنه، توقف حامل الصليب عن المسير وهو يلهث تعباً.

غمغم «أنا تعب، تعب» وراح ينظر فيما حوله بحثاً عن صخرة أو رجل يتكئ عليه، لكنه لم ير غير قبضات أيد مرفوعة في وجهه

وآلاف العيون تحدق اليه ملؤها الكراهية. ثم سمع ماخيّل اليه انه خفق أجنحة في الجو، فانتفض قلبه. لعل الرب أخذته الرأفة به في اللحظة الأخيرة فبعث اليه ملائكته. رفع ناظريه. نعم، ثمة أجنحة فوقه: لغربان! فأخذه الغضب، وتملكه العناد فرفع قدمه بتصميم يبغي متابعة المسير وارتقاء التل. لكن الأحجار غاصت تحت قدميه، فتعثر وبدأ ينكفئ الى الأمام. اندفع بطرس في الوقت المناسب ليمنعه من السقوط. ثم تناول الصليب منه ورفعه على كتفه.

قال «دعني أساعدك، أنت متعب»

التفت ابن مريم وحدق الى صياد السمك لكنه لم يتعرف عليه. بدت له هذه الرحلة برمتها حلماً. لقد أزيح العبء عن كاهليه، وهاهو يطير في الجو، تماماً كما يطير المرء في أحلامه. وقال لنفسه، لا يمكن أن يكون صليباً، لابد أنه زوج من الأجنحة! ومشى خلف بطرس بخطى واثقة وهو يجفف العرق والدم عن وجهه.

كان الجو يلتهب بنار تلسع الحجارة. وكانت كلاب حراسة قطعان الغنم التي أحضرها الغجريان لتلعق الدم قد مدّدت أحسادها جيدة التغذية عند أسفل صخرة، عند حافة حفرة حفرها أسيادها. كانت تلهث، والعرق يتفصّد من ألسنتها المتدلية. وكان بالامكان سماع قرع الطبول الذي يهدر في رؤوس الناس وسط هذا الفرن المستعر، وصوت غليان عقولهم. وسط هذه الحرارة كل التخوم تغيرت - الحس السليم والحماقة، الصليب والأجنحة، الرب والانسان: كل شيء انتقل من موضعه.

قامت عدة نسوة من ذوات القلوب الرقيقة بانعاش مريم. فتحت عينيها فرأت ابنها الهزيل، الحافي القدمين وقد شارف أخيراً على الوصول الى الذروة، يتقدمه رجل آخر يحمل الصليب.

تلفتت فيما حولها متلهفة وكأنها تطلب المساعدة. وحين رأت أهل قريتها وصيادي السمك اقتربت منهم ملتمسة العون ـ لكن الأوان كان قد فات! دوّى نفير البوق عالياً من الثكنة، وظهر خيالة جدد، وتصاعدت سحب الغبار، وعاد الناس الى التزاحم، وقبل أن يتاح الوقت لمريم لتصعد الى احدى الصخرات وتنظر، كان الخيالة قد باتوا فوقهم، بخوذاتهم البرونزية، وأرديتهم الحمراء، وخيولهم المتكبرة الجيدة التغذية التي كانت تدوس العبرانيين بحوافرها.

تقدم الزيلوت المتمرد، ذراعاه مشدودتا الوثاق خلف ظهره عند المرفقين، ملابسه ممزقة وملطخة بالدم، وقد ألصق الدم والعرق شعره بكتفيه، ولحيته الشائبة الشوكية كثّة وعيناه الجامدتان تحدقان مباشرة أمامه.

فزع الناس لهذا المشهد. هل هذا رجل، أم أنه يخفي عميقاً تحت أسماله ملاكاً أو شيطاناً تصون شفتاه المشدودتان سراً رهيباً لا يمكن البوح به؟ وكان الحبر العجوز والناس قد وافقوا على انه من أجل منح الزيلوت الشجاعة، سوف يشتركون معاً، حالما يظهر، وبأعلى أصواتهم، في ترتيل مزمور الحرب: «ربٌ بدِّد أعدائي». لكن الكلمات هذه المرة اختنقت في حناجرهم. وشعر كل واحد منهم أن هذا الرجل لم يكن يفتقر الى الشجاعة. بل كان فوق الشجاعة، لا يقهر، لا يُذَّل ـ كان يضم الحرية بين اليدين الموثقتين خلف ظهره. كلهم نظروا اليه يملأهم الرعب وظل الصمت يلفهم.

كان قائد المئة يسير أمام المتمرد ممتطياً حصانه ويجره خلفه بحبل مربوط الى مؤخر سرجه، بشرته القاسية ملوَّحة بأشعة الشمس الشرقية. كان يمقت اليهود منذ زمن طويل. منذ عشر سنوات وهو ينصب لهم الصلبان ويصلبهم، منذ عشر سنوات وهو يحشر أفواههم بالحجارة والأقذار ليخرسهم ـ ولكن عبثاً فما ان

ينتهي من صلب أحدهم حتى ينهض بدلاً منه ألف رجل ينتظرون بشوق أن يحين دورهم، يرتلون مزمور التحدي الذي يخص أحد ملوكهم الأقدمين، لا يخشون الموت. كان لديهم ربهم المتعطش للدماء الذي يلعق دماء الأطفال الذكور المولودين حديثاً، ولديهم قانونهم الخاص، الوحش آكل الرجال ذو القرون العشرة. فكيف يستطيع أن يسيطر عليهم؟ كيف يستطيع أن يستعبدهم؟ فهم لا يخشون الموت، ومن لا يخشى الموت ـ ولطالما تفكر قائد المئة في هذه الفكرة وهو موجود هنا في الشرق ـ من لا يخشى الموت يخلّد.

شد الزمام وأوقف حصانه ومسح العبرانيين ببصره؛ وجوه متآكلة، عيون ملتهبة، لحى متسخة، وكتل مزيتة كثة من الشعر. بصق تعبيراً عن اشمئزازه. ليته يستطيع أن يرحل، يرحل، ليته فقط يستطيع أن يعود من جديد الى روما بحماماتها العديدة، ومسارحها، ومدرجاتها ونسائها النظيفات! كم يمقت الشرق ـ بروائحه، وقذاراته، ويهوده!

كان الغجريان ينفضان عرقهما على الأحجار. كانا قد أقاما الصليب في حفرته في أعلى التل، وقدجلس ابن مريم على احدى الصخرات وراح ينظر اليهما، والى الصليب، والى الناس، والى قائد المئة الذي ترجّل أمام الناس، نظر وأطال النظر، لكنه لم ير غير بحر من الجماجم تحت السماء المستعرة ناراً. اقترب بطرس ومال ليكلمه وتكلم، لكن هديربحر مزبد صمّ أذني الشاب، فلم يسمع شيئاً.

بايماءة من رأس قائد المئة حرر الزيلوت. فأخذ يريح احدى ذراعيه لكي يخلصها من الخدر، ومن ثم بدأ يتجرد من ملابسه. تسللت المجدلية من بين قوائم الخيل وأخذت تقترب منه، وذراعاها مفتوحتان واسعاً، لكنه صدّها بتلويح من يده. وشقت امرأة عجوز

تمسك بعصا وعليها سيماء الارستقراطية طريقها خلال الحشد دون أن تفوه بكلمة وضمّته بين ذراعيها. أخفض رأسه، وقبل يديها الاثنتين مدة طويلة، وتشبث بها بقوة الى صدره ومن ثم أشاح بوجهه عنها. لزمت العجوز مكانها بعض الوقت، صامتة دون دموع، وهي تملي بصرها منه.

أخيراً همهمت «اني أباركك»، ثم ابتعدت واتكأت على الصخرة المقابلة، جنباً الى جنب مع كلاب قطعان الغجر التي كانت متمددة في الظل الضئيل، تلهث.

دق قائد المئة قدمه على الأرض وقفز عائداً الى السرج لكي يتمكن كل شخص من رؤيته وسماعه. قال، وهو يلوح بسوطه مهدداً فوق الحشد الغفير آمراً بالصمت: «أنصتوا الى كلامي أيها العبرانيون. إن روما تتكلم. اهدأوا!»

أشار بابهامه الى الزيلوت الذي كان قد خلع عنه أسماله ووقف معرضاً للشمس، ينتظر.

«هذا الرجل الواقف عارياً أمام الامبراطورية الرومانية تحدّى روما. وبما أنه مازال شاباً قوياً فقد أسقط الصقور شعار الامبراطورية ثم لجأ الى الجبال وناشدكم أن تلحقوا به الى هناك وأن ترفعوا الراية، قائلاً لكم إن اليوم الموعود الذي سيظهر فيه المسيح من بينكم قد حان وسيدمر روما!... اصمتوا، أنتم هناك، وكفاكم صراخاً!.. التمرد، والقتل، والخيانة: هذه هي جرائمه. والآن، أيها العبرانيون، أنصتوا الى ما سأطلبه منكم ـ أريدكم أنتم أن تصدروا الحكم عليه. ماهي العقوبة التي يستحقها؟»

راح يستعرض ببصره الحشد الممتد تحته وينتظر. كان الناس في حالة هياج، جأروا، تدافعوا، وتركوا البقعة المخصصة لهم واندفعوا نحو قائد المئة، والى أسفل قوائم حصانه، لكنهم سرعان

ما نكصوا رعباً وارتدوا في الاتجاه المعاكس، كموجة في بحر.

استشاط غضب قائد المئة، فتقدم من الجمع الفقير حاثاً حصانه.

هدر قائلاً «إنني أسألكم، ماهي العقوبة التي تقترحونها للمتمرد، القاتل، الخائن ـ ماهي العقوبة؟»

اندفع ذو اللحية الحمراء الى الأمام وهو مهتاج، ولم يعد بوسعه أن يتحكم في قلبه. أراد أن يصرخ «تعيش الحرية!»، وكاد يباعد مابين شفتيه، لكن رفيقه باراباس أمسك به ووضع يده على فمه.

مرت هنيهة بدت طويلة لم يسمع خلالها أي صوت خلاف هدير شبيه بهدير البحر. لم يجرؤ أحد على الكلام، لكن كلاً منهم كان يئن بصمت، ويتنهد، ويأخذ أنفاسه لهاثاً. وفجأة سُمع صوت زاعق يعلو فوق كل هذه الجلبة المضطربة. فالتفت الجميع، ابتهاجاً وخوفاً معاً. كان الحبر العجوز قد عاد فاعتلى كتفي ذي اللحية الحمراء، ثم رفع كلتا يديه الشبيهتين بالهيكل العظمي وكأنه يبغي ان يصلي أو أن ينزل لعنته، وهتف بحرارة «أي عقوبة؟ ضع له التاج الملكي!»

أخذت الناس الشفقة به فأثاروا جلبة في محاولة للتغطية على صوته، ولم يسمع قائد المئة ماقال.

هتف، وهو يرهف سمعه بواسطة كفه ويحث حصانه على التقدم «ماذا قلت أيها الحبر؟»

كرر الحبر ماقاله بكل ما أوتي من قوة «ضع له التاج الملكي!». أضاء وجهه، وكان جسمه كله كأنما أضرمت فيه النار، كان يهتز، ويقفز، ويرقص، وهو قابع على كتفي الحداد: بدا كأنه يريد أن ينطلق في الهواء ويطير.

عاد يصرخ «ضع له التاج الملكي!»، وقد ابتهج لأنه غدا المتحدث بلسان شعبه وربه، ثم مدَّ ذراعيه على كلا جانبيه وكأنه مصلوب في الهواء.

استشاط قائد المئة غضباً. فترجل عن صهوة جواده وتناول السوط من مكانه على قرن السرج، وتقدم نحو الحشد بخطى ثقيلة، تقدم بصمت، وهو يبعد الحجارة من طريقه، كوحش ضخم، أو ثور أو خنزير بري. سكن الجمهور في مكانه لا يأتي بحركة، حابساً أنفاسه. ومرة أخرى خلا الجو الا من أصوات الجنادب آتية من كرم الزيتون، والغربان العصبية.

تقدم خطوتين، ثم خطوة أخرى، وتوقف. كانت الروائح النتنة المنبعثة من الأفواه الفاغرة ومن الأجساد المتعرقة القذرة تلفحه. يهود منحطون! تقدم أكثر حتى أصبح أمام الحبر. كان العجوز ينظر اليه من أعلى من مكانه وهو ينتظر هذه اللحظة، وهاهي قد أتت: لحظة يحين دوره للموت، ميتة الأنبياء.

نظر اليه قائد المئة بعينين نصف مفتوحتين، وهو يبذل جهداً جباراً للتحكم بذراعه، وكانت قد ارتفعت لتطيح بالرأس المتمرد العجوز بضربة واحدة. لكنه لجم حنقه، اذ لم يكن يهم روما أن تقتل رجلاً عجوزاً، ثم إن هؤلاء الناس البغيضين العنيدين سينهضون على أقدامهم من جديد ويباشرون حرب عصابات، ولا يهم روما أن تُقحم يدها مرة أخرى في عش الدبابير العبرانيين. لذا، ضبط أعصابه ولفّ السوط حول ذراعه ثم التفت الى الحبر. كان صوته قد أضحى أجشاً وهو يقول:

«أيها الحبر، ان وجهك يوحي بالاحترام فقط لأنني أنا أحترمه، أنا وحدي، ممثل روما، أرغب في أن أضفي عليه التبجيل ـ أما وحده فلا يتصف بشيء. لهذا السبب لن أرفع سوطي في

وجهك. لقد سمعت ماقلت، لقد أصدرت حكمك. والآن سأحتذي بك»

التفت الى الغجريين الواقفين عند الطرف الآخر للصليب ينتظران، وجأر «اصلبوه!»

قال الحبر بصوت هادئ «أنا أصدرتُ حكمي، وكذا فعلت أنت يا قائد المئة. ولكن يبقى هناك طرف واحد، أهم منا جميعاً، وعليه أن يصدر حكمه»

«الامبراطور؟»

«لا... الرب»

ضحك قائد المئة وقال «أنا المتحدث بلسان الامبراطور في الناصرة، والامبراطور هو المتحدث بلسان الرب على الأرض، والامبراطور وروفوس أصدرا حكمهما»

قال هذا ثم فك السوط عن ذراعه وتوجه الى قمة التل وهو يسوط بعنف الحجارة والأشواك من تحته.

رفع العجوز ذراعيه نحو السماء وقال «فليُراكِم الرب الاثم على رأسك، أيها الشيطان، وعلى رؤوس أولادك وأولاد أولادك!»

في تلك الأثناء كان الخيالة البرونزيون قد شكّلوا دائرة حول الصليب. وفي الأسفل كان الناس ينفثون من الغضب ويتطاولون على رؤوس أصابع أرجلهم لتتاح لهم الرؤية. كانوا يرتجفون من عزم كربهم: هل ستقع المعجزة أم لا؟ وكثير منهم راحوا يفتشون في السماء بانتظار أن تتفتح أبواب السماوات. بل ان النساء قلن انهن تبين أجنحة متعددة الألوان في الجو. وكافح الحبر الراكع على كتفي الحداد العريضين ليتمكن من الرؤية من خلال حوافر الأحصنة وأردية الخيالة الحمراء. أراد أن يكتشف ماكان يحدث فوق، حول الصليب. نظر الى ذروة الأمل، الى ذروة اليأس ـ نظر،

ولم يتكلم. وانتظر. ان الحبر العجوز يعرفه، يعرفه حق المعرفة، رب اسرائيل هذا. انه عديم الرحمة وله قوانينه الخاصة به، ووصاياه العشر الخاصة. نعم، كان يعطي كلمته وأوفى بها، لكنه لم يكن في عجلة من أمره: انه يقيس الزمن بمقياسه الخاص. كانت كلمته تبقى على مدى أجيال وأجيال معلّقة في الجو عديمة الأثر ولا تحل على الأرض، وحين كانت تهبط في آخر الأمر، فالويل الويل للرجل الذي يعهد بها اليه! كم من مرة، وعلى امتداد الكتاب المقدس، قُتل من اختارهم الرب - ولكن هل عمل الرب أي شيء لانقاذهم؟ لماذا؟ لماذا؟ ألم يتبعوا ارادته؟ أم هل كان مِنْ صُلب ارادته ربما أن يُقتَلوا؟ طرح الحبر العجوز هذه الأسئلة على نفسه لكنه لم يجرؤ أن يتمادى في أفكاره لأبعد من ذلك. وقال في نفسه، ان الرب هوة سحيقة. هوة سحيقة. وأفضل أن لا أقترب منه!

كان ابن مريم مايزال جالساً منزوياً على حجره، يضم ركبتيه المرتعشتين بقوة بكلتا يديه، ويراقب مايجري. وكان الغجريان قد أمسكا بالزيلوت، وتقدم حراس رومان أيضاً، وعملوا جميعاً بعد شد وجذب، وسط سيل اللعنات والضحكات، وجاهدوا لرفع المتمرد على الصليب. وحين رأت كلاب الرعي هذا الصراع فهمت وبدأت تقفز على قوائمها.

ابتعدت الأم العجوز النبيلة عن الصخرة التي كانت تتكئ عليها، وتقدمت، وهتفت «تشجع يابني، لا تئن، لا تجعلنا نشعر بالخزي منك!»

تمتم الحبر العجوز «انها أم الزيلوت، أمه النبيلة، المتحدرة من سلالة المكابيين!»

مرروا حبلين ثخينين من تحت ابطي المتمرد. وثبَّت الغجريان سلالم على ذراعي الصليب وبدءا برفعه ببطء. كان جسمه ضخماً،

ثقيلاً. وفجأة مال الصليب وكاد يسقط. رفس قائد المئة ابن مريم، الذي نهض ليقف على قدمين مزعزعتين، وتناول الفأس وذهب للعمل في تثبيت الصليب بالحجارة والأوتاد لكي لا يسقط.

هذا المشهد كان أقسى على مريم، أمه، من أن تشهده. شعرت بالخزي من رؤية ابنها الحبيب بين الصالحين، فشدت من عزم قلبها وراحت تشق طريقها بين الحشود. رثى صيادو جنيسارت لحالها وتظاهروا بأنهم لا يرونها. أخذت تندفع متسللة بين الخيل لكي تمسك بابنها وتبعده، لكن جارة عجوزاً لها أخذتها الشفقة عليها فأمسكت بها من ذراعها. وقالت «مريم» لا تفعلي ذلك. الى أين أنت ذاهبة؟ سوف يقتلونك!»

أجابتها مريم «أريد أن أخرج ابني من هناك» وأجهشت بالبكاء.

قالت المرأة العجوز «لا تبكي يا مريم. انظري الى الأم الأخرى، انها تقف بثبات وتتابعهم وهم يصلبون ابنها. انظري اليها واستمدي منها الشجاعة.

«انني لا أبكي فقط من أجل ابني وحده، يا جارة. إنني أبكي أيضاً على تلك الأم» هزت المرأة العجوز، التي كانت بلاشك قد عانت كثيراً في حياتها، رأسها الذي أخذ يصلع. غمغمت «أفضل لك ان تكوني أم الصالب، على أن تكوني أم المصلوب»

لكن مريم كانت في عجلة من أمرها فلم تسمعها. انطلقت ترتقي التل، وعيناها الفائضتان بالدموع تبحثان في كل مكان عن ابنها. كان العالم كله يبكي. أصبح معتماً، ومن خلال الغشاوة الكثيفة تبينت الأم أحصنة ودرعاً برونزياً وصليباً هائل الحجم صُنع حديثاً يمتد من الأرض الى السماء.

التفت أحد الخيالة ورآها. رفع رمحه وهزه باتجاهها أن

ارجعي. توقفت الأم، ومالت الى أسفل وراحت تنظر من تحت بطون الخيول فرأت ابنها. كان راكعاً على ركبتيه، يحفر بالفأس ببراعة ويثبِّت الصليب بالحجارة.

هتفت «ولدي، يسوع!»

كانت صرخة الأم تمزق نياط القلب حتى أنها علت على ضجيج الرجال والخيول، والكلاب المجوّعة العاوية جميعاً. التفت الابن فرأى أمه، فأظلم وجهه وعاود الطرق بعنف أكثر من ذي قبل.

كان الغجريان قد ارتقيا سلم الحبال ومددا الزيلوت على الصليب، محافظين عليه مربوطاً بالحبال حتى لا ينزلق فيسقط. ثم صعدا بالمسامير وأخذا يسمِّران يديه. لطخت قطرات كبيرة من الدم وجه اليسوع. فترك فأسه ونكص الى الخلف فزعاً، انسحب متراجعاً خلف الخيول فألفى نفسه بجوار أم الرجل الذي سيموت قريباً. أصابته الرعشة، وانتظر ان يسمع صوت لحم يتمزق. تكثّف دمه كله متمركزاً في يديه، وانتفخت الأوردة وراحت تنبض بعنف ـ كأنها توشك أن تتفجر. شعر في كفيه نقطة مؤلمة، مدورة كرأس مسمار.

تردد صدى صوت أمه من جديد «يسوع، ولدي!»

هدر من أعلى الصليب صراخ عميق مدو، صراخ وحشي صادر ليس من حشا الرجل بل من باطن الأرض: «أدوناي!»

سمعه الناس ـ وتمزقت أحشاؤهم. أكانوا هم، أنفسهم، الذين أطلقوا الصرخة؟ أم هي الأرض؟ أم الرجل المصلوب بعد أن دق أول مسمار فيه؟ لقد كان الكل في واحد. لقد صلب الجميع.كان الكل ـ الناس والأرض والزيلوت ـ يصرخون. انبجس الدم وانتشر رذاذاً على الخيول، وسقطت قطرة كبيرة من الدم على شفتي يسوع. وكانت ساخنة ومالحة المذاق. ترنح صانع الصلبان، لكن أمه عجَّلت

نحوه في الوقت المناسب وأمسكت به بين ذراعيها، فلم يقع.

غمغمت مرة أخرى «ولدي، يسوع...»

لكن عينيه كانتا مغمضتين، فقد أحس بألم لا يحتمل في يديه، وقدميه وقلبه.

ثبتت العجوز النبيلة في مكانها لا تأتي حراكاً وتراقب تشنجات ابنها المسمّر على لوحي الخشب المتصالبين. كانت تعض على شفتيها في صمت. ثم سمعت خلفها ابن النجار وأمه، فأضرم الغضب فيها والتفتت. إنه العبراني المرتد الذي صنع صليب ابنها، وهذه هي الأم التي حملت به. لماذا يبقى مثل هذا الابن، الخائن، على قيد الحياة بينما ابنها يتلوّى ألماً ويطلق الصراخ وهو على الصليب! مدَّت كلتا يديها، مدفوعة ببلواها، نحو ابن النجار، فرفع بصره ورآها. كانت شاحبة الوجه، مهتاجة، وبلا رحمة. رآها، وأخفض رأسه، وتحركت شفتاها:

قالت بضراوة، وفظاظة «إنني ألعنك، ألعنك، يا ابن النجار. أدعو عليك، بعد أن تسببت بصلب رجل آخر، أن تصلب أنت نفسك!»

والتفتت الى الأم «وأنت، يا مريم، فلتعاني من الآلام التي عانيتها!»

حالما قالت هذا أدارت رأسها مرة أخرى وثبتت بصرها على ابنها. عندئذ كانت المجدلية تعانق أسفل الصليب وترتل الترنيمة الجنائزية للزيلوت، ويداها تتلمسان قدميه، وشعره وذراعيه الملطختين بالدماء.

تناول الغجريان سكينيهما وبدءا بتقطيع ملابس المصلوب ليتقاسما القطع. ثم اقتسما أسماله بعد اجراء القرعة. ولم يبق غير غطاء رأسه الأبيض، المبقع بقطرات كبيرة من الدم.

قالا «هيا نعطيها لابن النجار. مسكين، هو أيضاً أتقن عمله» عثرا عليه جالساً تحت أشعة الشمس، ملتفاً حول نفسه ويرتعش.

هتف أحدهما، وهو يرمي له بالمنديل الملطخ بالدم «هذه حصتك يا نجار. وأتمنى لك المزيد من عمليات الصلب الآتية!»

وقال الغجري الآخر، ضاحكاً «العقبى لك، أيها النجار!» ثم ربت بتحبب على ظهره.

الفصل الخامس

هتف الحبر العجوز، فاتحاً واسعاً ذراعيه ليجمع الجمهور المتبلبل من رجال ونساء يائسين «هيا بنا يا أولادي، هيا بنا ! لدي سر عظيم أكشفه لكم. تشجعوا!»

انطلقوا يهرعون في الأزقة الضيقة، ومن خلفهم خبَّ الخيالة يسوقونهم. زعقت ربات البيوت وأغلقن أبوابهن ـ هناك دماء أخرى ستسفك . وقع الحبر العجوز مرتين على الأرض وهو يركض وعاد يسعل ويبصق دماً. فحمله يهوذا وباراباس بين أذرعهما، وتوافد الناس زرافات وتغلغلوا داخل الكنائس يلهثون. وانحشروا جميعاً فيها، وملأوا أيضاً الفناء، ثم أرتجوا البوابة المؤدية الى الشارع.

انتظروا، وأنظارهم متعلقة بشفتي الحبر. أي سر، وسط كل هذه المرارة، يمكن للعجوز أن يفشي به اليهم ليفرح قلوبهم؟ لقد مرت عليهم حتى الآن سنون بعدها سنين وهم يعانون الكرب بعد الكرب، والصلب بعد الصلب. ظل رسل الرب ينبتون من أرض أورشليم، والأردن، والصحراء، أو يهبطون من الجبال مسربلين بالأسمال والأصفاد وأفواههم تزبد ـ وكان كل منهم يصلب.

تصاعد هرج غاضب. ان أغصان الأشجار وسعف النخيل التي تزين الجدران، والنجوم الخماسية، والرقاع المقدسة الموضوعة على المقرأ بما تحويه من كلمات نفاجة: الشعب المختار، الأرض الموعودة، مملكة السماء، المسيح - كلها لم تعد تواسيهم. لقد بدأ الأمل الذي طال أمده، يتحول الى يأس. ان الرب ليس في عجلة من أمره، لكن الانسان مستعجل، ولم يعد بوسعه أن ينتظر. لم يعد بوسع حتى الآمال المرسومة التي تحتل جداري الكنيس معاً أن تخدعهم الآن.

وذات مرة بينما كان الحبر يقرأ سفر النبي حزقيال غمره حب الرب، فقفز، وصرخ، وبكى ورقص، لكنه لم يجد الراحة. لقد أصبحت كلمات النبي جزءاً من لحمه. ولكي يحظى بالراحة أخذ مجموعة من الفراشي ودهاناً، ثم أقفل على نفسه في الكنيس وبدأ يغطي الجدار في اهتياج علوي برؤى النبي: الصحراء اللامتناهية، وجماجم وعظام، وجبال من الهياكل العظمية البشرية، وتخيم على كل ذلك سماء حمراء متوهجة، كحمرة الحديد الحامي، ويد عملاقة تبرز من قلب السموات، وتقبض على حزقيال من مؤخر عنقه وتبقيه معلقاً في الفضاء. لكن الرؤيا تستمر أيضاً على الجدار الآخر. هنا يقف حزقيال غائصاً حتى ركبتيه وسط العظام. فمه مفتوح وأخضر اللون ويخرج منه شريط مكتوب عليه بحروف حمراء : «يا شعب اسرائيل، يا شعب اسرائيل، لقد جاء المسيح!»، ثم تنضم العظام كلها معاً، وتنهض الجماجم مزودة بأسنان ومغطاة بالطين، وتظهر اليد المخيفة من قلب السماء وهي تحمل في كفها أورشليم الجديدة - أورشليم الجديدة، المبنية من جديد، تكتنفها أضواء ساطعة ، ويرصع جنباتها الزمرد والياقوت!

كان الناس ينظرون الى هذه الرسومات ويهزون رؤوسهم ويغمغمون ببعض الكلمات ، مما كان يثير غضب الحبر العجوز.

وكان يصرخ بهم قائلاً «لماذا تغمغمون؟ ألا تؤمنون برب آبائنا؟ لقد صلب شخص آخر: اذاً فقد اقترب المخلّص منا خطوة أخرى، وهذا هو معنى الصلب، يا ضعفاء الايمان!»

انتزع الرقعة عن المقرأ وفرشها بحركة عنيفة. كانت الشمس قد تسربت من النافذة، وهبط طائر لقلاق من السماء وحطّ على سطح المنزل المقابل، وكأنه هو بدوره أراد أن يسمع ماسيقوله. ومن الصدر المنهك قفزت صرخة النصر السعيدة «انفخوا من على قمة جبل صهيون بوق النصر! انشروا في أرجاء أورشليم الخبر البهيج! اهتفوا! لقد جاء يهوه الى شعبه. انهضي يا أورشليم، ارفعي عالياً قلوبك ! انظري! الرب يسوق من الشرق ومن الغرب أبناءك. الجبال سوّيت، والتلال هربت، والأشجار كلها أطلقت عبقها العطر. ارتدي زخارف النصر يا أورشليم. لقد جاءت السعادة الى شعب اسرائيل لتلازمهم أبد الآبدين»

وسمع صوت من بين الحشد يقول «متى، متى؟»، والتفت الجميع فاذا برجل عجوز ضئيل الجسم، نحيل، مجعد كما الزبيب، يقف على أطراف أصابع قدميه، ويهتف «متى، يا أبت، متى؟»

لفّ الحبر رقعة التنبوءات بغضب، وسأل «أأنت في عجلة من أمرك يا منسَّى؟»

أجاب العجوز الضئيل «نعم!» ، وكانت الدموع تغسل وجهه «وليس لدي وقت، انني أوشك أن أموت»

مدّ الحبر ذراعيه وأشار الى حزقيال المطمور بين العظام.

«انظر ، يا منسّى سوف تبعث!»

«وأقول لك انني عجوز وضرير: لا أرى»

هنا تدخل بطرس. كان النهار يقترب من نهايته، وهو أثناء الليل يصطاد في بحيرة جنيسارت، وكان متعجلاً. قال «يا أبت، لقد

وعدتنا بافشاء سر يريح قلوبنا. ماهو هذا السر؟»

تحلقوا جميعاً حول الحبر العجوز، وحبسوا أنفاسهم، وجاء من الفناء أكبر عدد منهم. كان الحر شديداً وقد عبقت رائحة عرق انساني كثيفة، وكان القندلفت يرمي في المبخرة حبيبات بشكل الدموع من نسغ خشب الأرز ليعطر الجو.

واعتلى الحبر أحد مرابط الخيول تجنباً للاختناق.

قال، وهو يجفف عرقه «يا أولادي، ان قلوبنا قد امتلأت بالصلبان. لحيتي السوداء غزاها المشيب منذ زمن طويل، ولحيتي التي كانت شائبة غدت بيضاء، وأسناني سقطت على الأرض وماهتفَ به منسّى العجوز هتفتُ أنا به طوال سنين. كنت أقول «الى متى، يا رب، الى متى؟ هل سأموت قبل أن أرى المسيح؟». هذا هو السؤال الذي طرحته مراراً وتكراراً، وذات ليلة تحققت المعجزة وأجابني الرب. لا، لم تكن تلك هي المعجزة. ان الرب يجيبنا كلما سألناه، لكن لحمنا ملوث ويكاد يكون اضمَّ: اننا لا نسمعه. لكني في تلك الليلة سمعته ـ وكانت تلك هي المعجزة»

هتف بطرس «وماذا سمعت؟ أخبرنا بكل شيء يا أبت». شق طريقه خلال الحشد حتى وقف أمام الحبر. مال الحبر العجوز على بطرس، ونظر اليه ثم ابتسم.

«الرب، يا بطرس، صياد سمك مثلك. هو أيضاً يخرج ليصطاد ليلاً حين يكون القمر بدراً أو شبه بدر، وفي تلك الليلة كان بدراً ـ كان يمخر عباب السماء أبيض بياض الحليب، مترعاً بالرحمة والاحسان حتى لقد عجزت عن اغماض عينيّ دونه. شعرت كأن المنزل يعصرني. فخرجت أتمشى بين الأزقة الضيقة ومن ثم غادرت الناصرة، ورحت أصعد المرتفعات حتى استقريت على صخرة وأرسلت ناظري صوب الجنوب ـ صوب أورشليم المقدسة. مال

القمر نحوي ونظر اليّ وكأنه كائن بشري، وابتسم، نظرت اليه - الى فمه، ووجنتيه، الى زاويتي عينيه - وتنهدت. شعرت وكأنه يكلمني، يكلمني وسط سكون الليل: مع ذلك لم أسمع... لم تأتِ أي ورقة خضراء على سطح الأرض بحركة، وكانت رائحة السهل غير المجزوز أشبه برائحة الخبز، وكان الحليب يتساقط شلالات من الجبال المحيطة بي، ومن جبل الطور، ومن جلبوع والكرمل... قلت في نفسي هذه ليلة الرب، لابد أن هذا البدر هو وجه الرب الحزين. ان ليالي أورشليم المستقبل ستكون مثل هذه.

«حالما خطرت هذه الفكرة على بالي فاضت عيناي بالدمع. وتملكني الحزن والخوف، وصرخت «لقد أصبحت عجوزاً، فهل سأموت دون أن يكحل عينيّ مرأى المسيح؟»

«قفزت واقفاً على قدميّ. ومرة أخرى تلبسني الحنق المقدس. فحللت حزامي وخلعت عني ملابسي، ووقفت. كما ولدتني أمي معرضاً لنظر الرب. أردته أن يرى كيف أني شخت، وذبلت وصرت أرتعش كورقة في شجرة تين في الخريف، كساق مدلاة عارية من كل شيء، عدا عنقود من العنب نهبته العصافير. أردته أن يراني، أن يشفق عليّ، وأن يسرع في التصرف!

«وبينما كنت واقفاً هناك عارياً تماماً أمام الرب، شعرت بضوء القمر يحرق لحمي. لقد أصبحت كلي روحاً : مندمجة في الرب. سمعت صوته،ليس من الخارج بل من داخلي. داخلي! ان صوت الرب الحقيقي يأتينا من الداخل. سمعته يقول «يا شمعون ، يا شمعون، لن أدعك تموت قبل أن ترى المسيح، وتسمعه، وتمسكه بيديك!»

«هتفت «يارب، قل هذا ثانية!»

«يا شمعون، يا شمعون، لن أدعك تموت قبل أن ترى المسيح، وتسمعه، وتمسكه بيديك»

«وكم كان فرحي عظيماً، جتى كدت أفقد عقلي. وبدأت أرقص وأنا عار تماماً، تحت ضوء القمر ، وأصفق بيدي وأضرب قدميَّ في الأرض. لا أدري ان كانت تلك الرقصة قد دامت جزءاً من الثانية أم ألف عام، لكني على أية حال اكتفيت في آخر الأمر ـ وجدت الراحة فارتديت ملابسي وعقدت حزامي، وانحدرت عائداً الى الناصرة. وما ان رأتني الديوك من مجاثمها عالياً فوق الأسطح حتى بدأت تصيح. وضحكت السماء، واستيقظت العصافير، وفتحت الأبواب وراحت تتمنى لي صباحاً طيباً. وكان كوخي المتداعي يسطع بالضياء من أسفله الى أعلاه ـ الأبواب، والنوافذ وكل شيء: كان كله مرصعاً بالياقوت. الخشب، الصخور،النسر، الطيور : كلها أحسست بالرب يحيط بي . حتى قائد المئة نفسه، بالرغم من كونه متعطشاً للدماء، سمّرته الدهشة في مكانه. سألني «مابك، أيها الحبر؟ انك تضيء كالمشعل. انتبه، إياك أن تضرم النار في الناصرة!»، لكني لم أفه بكلمة: لم أكن أرغب في أن أدعه يدفعني الى تلويث أنفاسي».

"لقد أخفيت هذا السر تحت جلدي لسنين وسنين. كنت أستمتع به وحدي، بغيرة وفخر ـ وانتظرت. أما اليوم، في هذا اليوم الأسود الذي شهد صليباً جديداً يسمّر في قلوبنا، فلم أعد قادراً على صيانته. انني أشفق على شعب اسرائيل، لذا أفضي اليكم بالخبر البهيج: انه قادم، ولم يعد بعيداً. لعله توقف ليشرب جرعة ماء من بئر قريبة، أو ليتناول كسرة خبز أخرج لتوه من التنّور. ولكن أينما يكون، فسوف يظهر ـ لأن هذا ماقاله الرب، وما يقوله الرب لا ينقضه: «يا شمعون، لن تموت قبل أن ترى المسيح، وتسمعه، وتمسكه بيديك!»... أشعر يوماً بعد يوم أن قواي تخذلني، لكن سرعة نفادها تساوي سرعة اقتراب المخلّص. انني في الخامسة

والثمانين من عمري، ولا يمكنه أن يتأخر أكثر من ذلك!»

هنا قفز رجل أصلع أحول العينين، ذو أنف مدبب ضامر، وكأن أحدهم نسي ان يضيف الخميرة حين عجنه.

قال مقاطعاً «ولكن ماذا لو أنك عشت ألف عام، يا أبت؟ ماذا لو أنك لم تمت قط؟ لقد رأينا هذا يحدث من قبل. ان حنوك[1] وايليا[2] لا يزالان حيين!»، وتنقلت عيناه الصغيرتان العنيدتان بحركة سريعة ماكرة من طرف الى طرف.

تظاهر الحبر بأنه لم يسمع ، لكن كلمات الرجل الأحول الهاسّة كانت كالسكاكين تمزق قلبه. ثم رفع يده بحركة آمرة وقال «أريد أن أكون وحدي مع الرب. اذهبوا - جميعكم!»

خلا المكان ، وتفرق الجمع، وظل العجوز وحيداً. أوصد الباب المطل على الشارع واستغرق في تأمله ، متكئاً على الجدار حيث رسم النبي حزقيال محلقاً في الهواء. قال في نفسه، انه نبي الرب، وقادر على كل شيء: انه يفعل مايشاء. أيمكن أن يكون ذاك الوغد توما على حق؟ الويل لي اذا قرر الرب أن أعيش ألف عام واذا قرر أن أكون خالداً - اذن فالمسيح... هل ستذهب كل الآمال العظيمة التي عقدها بنو اسرائيل أدراج الرياح؟ لقد حملت أرض اسرائيل كلمة الرب في رحمها على مدى آلاف السنين، تغذيها كما تغذي الأم بذرتها. لقد نهش لحمنا وعظامنا: ذبنا، وبتنا لا نعيش الا من أجل هذا الابن. لكن هذه السلالة استنفدت قواها، وبذرة ابراهيم تصرخ تبغي الخروج. حررها يارب، حررها بعد تأخر طويل! أنت الرب، ويمكنك أن تصبر - أما نحن فلا نستطيع. الرحمة!

---

١ - حنوك : ابن قايين (أو قابيل) ابن آدم عليه السلام.

٢ - ايليا : نبي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد.

راح يقطع الكنيس جيئة وذهاباً. وأخيراً انصرم النهار وأطفأت الظلال الرسومات وابتلعت حزقيال. نظر الحبر العجوز الى أشباه الظلال التي هبطت وأحاطت به، واذا بكل مارآه وعاناه في حياته يندفع فجأة للظهور في مخيلته. كم من مرة هرع يملؤه الشوق من الجليل الى أورشليم، ثم من أورشليم الى الصحراء بحثاً عن المسيح! لكن الصليب لم يكن يفشل في وضع حد لآماله وكان يعود الى الناصرة يسربله الشعور بالخزي. أما اليوم...

وضغط رأسه بين يديه.

غمغم برعب «لا، لا، لا، لا، مستحيل!»

لقد مرت عليه أيام طويلة وليال ورأسه يدمدم وكأنه يوشك أن ينشطر . وراوده أمل جديد، أمل أكبر من أن يستوعبه عقله - انه جنون، شيطان ينهشه ولكن تلك ليست المرة الأولى. هذا الجنون يحفر بمخالبه عقله منذ سنين. كان يبعده عنه، وكان يعاوده. لكنه لم يجرؤ قط على الظهور أثناء النهار، كان دائماً يأتيه في ظلمة الليل، أو في أحلامه. أما اليوم، اليوم - فيأتيه عند الظهيرة، في وضح النهار!... أيكون هو المختار؟

اتكأ على الجدار وأغمض عينيه. هاهو، يمر مرة أخرى من أمامه يلهث، والصليب على ظهره، والهواء يرتعش من حوله، تماماً كما يرتعش حول ملائكة الدرجة الأولى... انظر! ورفع بصره. لم يكن الحبر العجوز قد رأى دهره كل هذا القدر من السماء بعيني انسان أيكون هو المختار؟ غمغم الحبر «رب، رب ، لم تعذبني؟ لم لا تجيب؟»

كانت التنبؤات تتمزق كلمع البرق في مخيلته. في لحظة يمتلئ رأسه العجوز بالضياء، وفي اللحظة التالية يغوص في الظلام فاقداً كل أمل. انفتحت أحشاؤه وخرج منها الآباء الأجلاء. في داخله باشر شعبه، برجاله الأشداء المثابرين ، المثخنين بالجراح يقودهم

موسى، رؤوسهم مدججة بقرون ملتوية، انطلاقته من جديد في رحلة أبدية من أرض العبودية الى أرض كنعان، ثم تتواصل الرحلة من أرض كنعان الى أورشليم المستقبل. ولكن في المسيرة الحالية لم يكن الأب الجليل موسى هو الذي يبث الحماس في الزحف، وانما شخص آخر ـ ونبض عقل الحبر بقوة ـ آخر، يحمل صليباً على كتفه...

وصل الى باب الدار بقفزة واحدة وفتحه. لطمت الريح وجهه، فاستنشقها بعمق. كانت الشمس قد غربت، والطيور تعود الى أعشاشها لتأوي الى النوم. وكانت الشوارع ملأى بالظلال، والأرض تبرد. أوصد الباب ودسَّ المفتاح الثقيل تحت حزامه. خانته شجاعته لبعض الوقت، لكنه فجأة عقد عزمه. وانطلق، خافض الرأس ، يبغي منزل مريم.

كانت مريم جالسة على كرسي بلا ظهر في الفناء الصغير لمنزلها، تغزل . كان الضوء مايزال سائداً في الخارج: ان ضوء الصيف ينسحب ببطء عن وجه الأرض وعلى مضض. وكان الرجال والثيران عائدين من عملهم في الحقول؛ وربات البيوت تضرم مواقدها لاعداد وجبات العشاء؛ وقد عمّ عبق الخشب المحترق هواء المساء. كانت مريم تغزل، وعقلها يبرم مع المغزل، تارة الى هذه الجهة وطوراً الى تلك. وتضافرت ذاكرتها مع مخيلتها : تراءى لها أن نصف حياتها حقيقة ونصفها الآخر خرافة. ان دوران المهام اليومية الصغيرة متواصل منذ سنين عديدة، ومن ثم فجأة جاء الطاووس المذهل ـ المعجزة ـ بدون دعوة، وظلل على وجودها المعذّب بجناحيه الطويلين الذهبيين.

«خذني أين تشاء، يا رب؛ افعل بي ماتشاء. أنت اخترت لي زوجي، ومنحتني ولداً، وزودتني بعذابي. أمرتني أن أصرخ

فصرخت، وأمرتني أن ألزم الصمت فلزمته. فمن أكون، يارب؟ قبضة من طين في يديك، تجبلني كيفما تشاء. افعل ماتريد، انني لا ألتمس منك غير شيء واحد: رب، ارفق بولدي!»

طارت حمامة وضّاءة البياض من سطح مقابل، ورفرفت بجناحيها برهة فوق رأسها ومن ثم حطت بفخامة على حصباء الفناء وأخذت تسير بخطى منتظمة وتدور مراراً حول قدميّ مريم. ونشرت ريشها، ثم التفتت، ونظرت الى مريم، ولمعت عيناها المستديرتان وسط ضوء المساء كياقوتتين. نظرت اليها ، وكلمتها. قالت في نفسها، لابد أنها تريد أن تفضي اليّ بسر ما. آه، ليت الحبر العجوز يأتي؛ انه عليم بلغة الطيور ويمكنه أن يفسر لي ... نظرت الى الحمامة وشعرت بالشفقة عليها. تخلت عن مغزلها وراحت تنادي على الطائر بصوت غاية في الرقة، ابتهجت الحمامة وقفزت قفزة واحدة الى ركبتيها المضمومتين. وهناك، وكأن سرها كله انما كان توقها للوصول الى تلك الركبتين، جثمت، وضمت جناحيها، وسكنت لا تأتي بحركة.

شعرت مريم بوزنها المريح وابتسمت. آه، ليت كان من الممكن أن يهبط الرب دائماً على البشر بهذه الخفة! وبينما هي تفكر بهذا، تذكرت ذاك الصباح الذي ارتقت فيه مع خطيبها يوسف قمة النبي ايليا، الى جبل الكرمل الذي تقبّله السماء. أراد أن يناشد النبي السريع الغضب كي يتوسط لهما عند الرب لكي يمنحهما ولداً، فاذا حصل فانهما يكرسانه لخدمة النبي. وكانا ينويان أن يتزوجا في تلك الليلة بالذات وكانا قد انطلقا قبيل الفجر ليتلقيا تبريك هذا النبي العنيف الذي كانت متعته العظمى أن يحدث صاعقة. لم يكن يعكر صفو السماء أية سحابة، كان فصل خريف جميل. كان النمل البشري قد جمع محاصيله؛ والخمر الفطير يغلي في الجرار؛ والتين

يجف، وهو معلّق على العوارض الخشبية. في ذلك الوقت كانت مريم تبلغ الخامسة عشرة من العمر، وكان عريسها عجوزاً أشيب الشعر، لكنه كان يمسك بيده عصا الارتكاز مقدَّر لها أن تزهر.

وصلا الى القمة المقدسة عند منتصف الظهيرة، وركعا ولمسا حجر الغرانيت الحاد، الملطَّخ بالدم، بأطراف أصابعهما وهما يرتجفان. تطايرت شرارة من الصخر وجرحت يد مريم فتح يوسف فمه لينادي على ساكن القمة العنيف، لكنه قبل أن يتمكن من اخراج أي صوت اندفعت غيوم هابطة بغضب وهي تزأر مثقلة بالبرد من أعماق السماء وشكلت قمعاً مدوّماً فوق حجر الغرانيت الحاد. حين اندفع يوسف بسرعة الى الأمام لكي يمسك بخطيبته ويأخذها الى ملتجأ في أحد الكهوف ، قذف الرب ومضاً مخيفاً من البرق، فانطبقت السماء على الأرض ووقعت مريم الى الخلف مغمياً عليها. وحين استعادت وعيها وفتحت عينيها نظرت حولها، فرأت يوسف منبطحاً على الغرانيت الأسود ـ مشلولاً ...

وضعت مريم يدها على الحمامة الجالسة على ركبتيها، وأخذت تداعبها برفق لكي لا تخيفها. تمتمت قائلة «لقد هبط الرب بصورة وحشية على قمة الجبل وحدثني بنبرة فظة . فماذا قال لي؟»

طالما استجوبها الحبر حول هذا الموضوع، وكان محتاراً بسبب تكرار حدوث المعجزات معها.

كان يقول «حاولي أن تتذكري يا مريم. عادة هذه هي الطريقة التي يحدث بها الرب أحياناً البشر ـ بواسطة الصاعقة. جاهدي لتتذكري حتى نكتشف ماهو مقدَّر لابنك»

«لقد أرعدتَ يا أبت. انقضَّ الرعد من السماء وكأنه عربة يجرها ثور»

«وماذا جاء خلف الرعد يا مريم؟»

«نعم، أنت على حق يا أبت. لقدتكلم الرب بعد مرور الرعد، لكني لم أتمكن من كشف كنه كلماته. سامحني».

جاهدت، وهي تداعب الحمامة، كي تستعيد ذكرى مشهد البرق بعد مرور ثلاثين سنة وكي تكشف عن معناها الخفي.

أغمضت عينيها، وتحسست بباطن كفها جسم الحمامة الصغير الدافئ ونبض قلبها. وفجأة ـ دون أن تدري كيف حصل ذلك، ولا سببه ـ أصبحت الحمامة والرعد شيئاً واحداً، كانت واثقة من ذلك: نبضات القلب تلك وقصف الرعد ـ كلها كانت تمثل الرب أطلقت صيحة وقفزت واقفة من فرط رعبها. الآن، وللمرة الأولى، باتت قادرة على فهم مغزى الكلمات الكامنة خلف قصف الرعد الكامنة في هديل الحمامة : «سلام لك يا مريم... سلام لك يا مريم...»، لاشك بأن هذا ماهتف به الرب «سلام لك يا مريم...»

استدارت، فرأت زوجها مستنداً الى الجدار، ومايزال يفتح فمه ويغلقه. ومع أن الظلام كان قد عمّ الا أنه كان مايزال يحاول بكل جهده. سارت نحو الباب، مارة من أمامه دون أن تكلمه. أرادت أن ترى إن كان ولدها قادماً بالصدفة. كانت قد راقبته وهو يربط منديل الرجل المصلوب الملطخ بالدم حول شعره، وينحدر هابطاً الدرب نحو السهل. الى أين ذهب؟ لماذا تأخر؟ هل سيبقى في الحقول مرة أخرى حتى بزوغ الفجر؟

بينما كانت واقفة على عتبة الدار رأت الحبر العجوز يقترب .كان يلهث وهو يميل بثقله على صولجانه. كانت خصلات شعره الأبيض عند صدغيه ترفرف في وجه نسيم المساء الذي بدأ يهب منحدراً من جبل الكرمل.

تنحّت مريم جانباً احتراماً، ودخل الحبر. أمسك بيد أخيه

وربت عليهـا، لكنه لم يكلمـه ـ مـاذا في وسـعـه أن يقـول؟ إن عـقله غائص في محنة شديدة. التفت الى مريم.

قـال «عيناك تلمعـان يا مـريم. مـا الأمـر؟ هل جـاءك الرب من جديد؟». قـالت مريم. ولـم يعد بامـكانها أن تكبح نفسهـا «أبت، لقد فهمت!»

«فهمت؟ ما الذي فهمته، باسم الرب؟»

«الكلمات الكامنة خلف البرق»

أجفل الحبر. ثم هتف، رافعاً عالياً ذراعيه «يا رب اسـرائيل ما أعظمك، هذا بـالضبط مـاجئت لأجله يا مـريم، لـكي أسـتجوبك من جديد. كما تعلمين، اليوم صلب أحد آمالنا، وقلبي...»

كررت مريم «لقد فهمت يا أبت. فبينما كنت جالسة هذا المساء أغزل وأعيد التفكير في حادث البرق، أحسست بالبرق يهدأ داخلي وللمـرة الأولى، وبعـد خفوته سـمعت صـوتاً صـافيـاً ، واضـحـاً، صـوت الرب يقول : «ليكن سلام لك يا مريم!»

تداعى الحبر متهالكاً على كرسي بلا ظهر. ضغط صدغيه بين يديه، واستغرق في التفكير. وبعد فترة طويلة من الوقت رفع رأسه.

«لاشـيء آخـر يا مـريم؟ غـوصـي أكثـر داخلك فلعلك تسـمـعين. ربما يعتمد مصير اسرائيل على ماتقولين»

حين سـمعت مـريم كلمات الحـبـر ارتعبت وأخـذ صـدرهـا يخفق، ومـرة أخرى جهد عقلها ليكتشف المعنى الكامن خلف البرق.

أخيـراً، غمـغمت، وقد أجهدت «لا، لا يا أبت. لقـد قـال أكثر من هذا، أكثـر بكثـير، لـكني لا أسـتطيع أن أسـمـعـه. إنني أجتـهـد في المحاولة قدر استطاعتي، لكني لا أسمع ماقال»

وضع الحبر يده على قمة رأسها، فوق عينيها الكبيرتين.

«صـومي يا مريم وصلي، لا تشـتـتي تفكيرك في المهام اليوميـة.

أحياناً أرى هالة وضاّءة كومض البرق تحيط بوجهك كله. ترى، أهو ضوء حقيقي؟ لا يمكنني التيقن. صومي، وصلي، وسوف تسمعين ان رسالة الرب تبدأ بمنه : «سلام لك يا مريم...». جاهدي كي تسمعي مايليها»

في محاولة لاخفاء فرحها الشديد توجهت مريم الى رف تضع عليه الأباريق . تناولت كوباً نحاسياً عن كلاّبه، وملأته بالماء البارد، وأحضرت معه أيضاً حفنة من التمر، ومالت لتعطيها للعجوز.

قال «لست جائعاً أو ظمآن يا مريم، شكراً لك. اجلسي، لدي ما أقوله لك».

أخذت مريم أخفض كرسي بلا ظهر ، وجلست عند قدمي الحبر، وراحت تنتظر وهي تميل برأسها.

تفحص العجوز الكلمات كلمة فكلمة في عقله. ان مايحاول التعبير عنه صعب: انه أمل فائق الدقة ومراوغ وهو عاجز عن العثور على كلمات فائقة الدقة ومراوغة بشكل مناسب لكي يتجنب ان يحمل الأمل ثقلاً زائداً فيتحول الى يقين. انه لم يكن يرغب في أن يبث الرعب في قلب الأم.

أخيراً قال «يا مريم، هناك سر يحوم خارج هذا المنزل، يشبه أسد الصحراء. انك لست كبقية النساء يامريم. ألا تشعرين بهذا؟»

غمغمت «لا، لا أشعر يا أبت. انني مثل كل النساء. أحب كل ماتهتم به النساء وتستمتع به. أحب أن أغسل ، وأطبخ، وأن أذهب الى النبع لاحضار الماء، وأن أثرثر بمرح مع الجارات، وأحب في الأمسيات أن أجلس عند مدخل داري وأراقب المارة. وقلبي، يا أبت، مثل قلوب كل النساء، مترع بالألم».

كرر الحبر بصوت وقور، رافعاً يده وكأنه يريد أن يمنع أي اعتراض على كلامه «أنت لست كبقية النساء يا مريم، وابنك...»

هنا توقف الحبر عن المتابعة. كيف يجد الكلمات التي تعبر عن هذا، عن أصعب جزء من الأمر كله. رفع بصره الى السماوات وأخذ ينصت. بعض الطيور الكامنة في الأشجار تتأهب للايواء الى النوم، والبعض الآخر للاستيقاظ. إن الدولاب يدور، ويغوص النهار تحت أقدام الانسان.

تنهد الحبر. ما أغرب اندفاع الأيام، ما أسرع مايتبع أحدها الآخر الفجر، الغسق، مرور الشمس، مرور قمر بعد قمر، الأولاد يصبحون رجالاً، والشعر الأسود يغدو أبيض. والبحر يأكل من اليابسة، والجبال تتعرى ـ ومع ذلك فاليوم المنتظر لم يأت.

قالت مريم، بصوت يرتجف «ابني؟ أتقول ابني يا أبت؟»

أجاب الحبر بجسارة «انه ليس كبقية الأبناء يا مريم»

وزن كلماته مرة أخرى، ثم تابع بعد هنيهة «أحياناً يكون وحده أثناء الليل ويظن أن لا أحد يراقبه، يشع النور من كامل وجهه في الظلام. فليسامحني الرب يا مريم، ولكني أحدثتُ ثقباً صغيراً عالياً في الجدار، وأنا أصعد أراقبه من هناك، انني أستطلع سراً مايفعله. لماذا؟ لأنني ـ وأعترف بهذا ـ مضطرب الذهن تماماً، وعلمي لا يقدم لي أي عون: انني لا أملُّ من فتح الكتب المقدسة لكني لا أفهم ماذا يكون أو من يكون. لذا تراني أراقبه سراً فأتبين في الظلام هذا النور الذي يلعقه ويلتهم وجهه. ولهذا فهو يزداد شحوباً يوماً بعد يوم ويذوي. ليس ذلك بسبب المرض، أو الصيام أو الصلاة، لا، بل بسبب التهام ذاك النور له»

تنهدت مريم، وقالت في نفسها، ان الأسى هو نصيب الأم التي تحبل بابن يختلف عن كل الآخرين. لكنها لم تصرح بذلك.هنا مال العجوز عليها وأخفض صوته. لقد كانت شفتاه تحترقان.

قــال «ســلام لك يا مــريم، ان الرب قــادر على كل شيء، ان مراميه مبهمة، وقد يكون ابنك...»

لكن الأم البـائسـة أطلقت صرخة: «ارحمني يا أبت! نبي؟ لا، لا واذا كـان الرب قـد دوّن ذلك، فليـمـحـه! أريد ابني رجـلاً كـأي رجل آخـر، لا أكثـر، ولا أقل. كـأي رجل آخـر... فليصنع أجـراناً ، مهوداً، محاريث، وأواني منزليـة كما كان يفعل والده، وليس كما يصنع الآن، صلبـاناً لصلب البشـر. فليتـزوج صبيـة جميلة من أسـرة محتـرمة ـ تملك بائنة، فليعمل بالتـجارة الحـرة، ولينجب أطفـالاً، عندئذ سـوف نخـرج جـمـيـعـاً كل يوم سـبـت للتنزه ـ الجـدة، والأولاد والأحـفـاد.. وهكذا نحظى باعجاب الجميع».

مـال العـجوز بثقله على صـولجـانه ونهض واقفاً. قـال بحـدة «يا مريم، لو أن الرب ينصت الى كل مـاتقوله الأمهات لتعفنّا جميعاً في مستنقع الأمـان والعيش الرغـيد ... حين تنفـردين بنفسك فكري بكل ما تحدثنا به»

التـفـت الـى أخـيـه لكي يلقي عليـه تحـيـة المسـاء. كـان يوسف، بعينيه الكامدتين تعلوهما غشـاوة ولسانه متدليـاً الى الخارج، يحدق في الفراغ، ويجاهد ليتكلم.

هـزت مـريم رأسـهـا، قـالت «إنه يكافح منذ الصبـاح وحتى الآن لم يطلق مـالـديه»، ثم ذهبت اليـه وبللت له فـمـه الملتوي الـذي ينزّ لعاباً.

ولكن حالما مد الحبر يده ليقول عمت مسـاءاً لمريم أيضاً، فُتح البـاب بعنف وظهـر الابن على العتـبـة، ووجهـه يومض وسط الظلمـة. كان المنديل الملطخ بالدم ملتصـقاً بشـعـره، لكن الليل أخفى قطرات الدمع الكبيرة التي كـانت ماتزال تحفر طريقها على وجنتيه، والغبار والدماء التي كانت تلوث قدميه.

اجتاز العتبة، وراح ينظر فيما حوله على عجل، فاكتشف وجود أمه والحبر، وميَّز أيضاً، وسط الظلام، بالقرب من الجدار، عينيّ والده الكامدتين.

همَّت مريم لتشعل المصباح، لكن الحبر منعها.

غمغم «انتظري، سوف أكلمه» ثم استحضر جرأته وتقدم منه.

قال برفق، مخفضاً صوته حتى لا تسمعه الأم «يسوع، يسوع، ولدي، الى متى ستظل تقاومه؟»

هنا اهتز الكوخ كله اهتزازة عنيفة حين قال «حتى الموت!»

وفجأة، وكأنه استنفد طاقته حتى آخرها، انهار ابن مريم على الأرض واتكأ على الجدار يلتقط أنفاسه. أراد الحبر مرة أخرى أن يحدثه، فمال عليه لكنه سرعان ما تراجع كمن أصيب بصدمة. لقد شعر وكأنه اقترب من نار عظيمة فأحرقت وجهه. وقال في نفسه، ان الرب يكتنفه من كل جانب، نعم الرب هو الذي يحيط به، ولا يدع أحداً يقترب منه. الأفضل لي أن أرحل!

ورحل، غارقاً في التفكير. أغلق الباب، لكن مريم لم تجرؤ على انارة المصباح: ففي الظلام كان يكمن بانتظارها وحش كاسر. وقفت في وسط البيت وأخذت تنصت الى قرق زوجها اليائس والى ابنها الذي انهار كالكومة على الأرض وهو يلهث من الرعب كمن يختنق. ثمة من يخنقه ـ ولكن من هو؟ غرزت الأم التعسة أظافرها في وجنتيها وهي تسأل الرب مراراً، وتشكو ، صارخة: «أنا أم، ألا تشفق عليّ؟» ـولكن مامن مجيب.

أثناء وقوفها هكذا، مسمّرة، تنصت الى ارتعاشة كل شريان في جسدها ، سمعت صرخة انتصار وحشية. لقد انفكت عقدة لسان الرجل المشلول وخرجت أخيراً الكلمة كاملة من فمه الملتوي، مقطعاً فمقطع ، تتردد أصداؤه في أرجاء المنزل. أ ـدو ـناي! لكن حالما

لفظ العجوز هذه الكلمة غاص من فوره، كقطعة من الرصاص ، في أعماق النوم.

شدت مريم من عزمها وأنارت المصباح. كان الطعام يغلي، فاقتربت من الموقد، ثم ركعت وكشفت غطاء القدر الخزفي لترى ان كان الطعام يحتاج الى المزيد من الماء، أو ربما الى ذرة ملح.

الفصل السادس

أضيئت السماء بلون أبيض مائل للزرقة. كانت الناصرة هاجعة تحلم، وكوكب نجم الصبح يقرع أجراس الوقت فوق مضاجعها وأشجار الليمون والنخيل ماتزال ملفعة بغلالة زرقاء وردية. الصمت عميق... لا يسمع حتى صياح الديك الأسود. فتح ابن مريم الباب. كانت تحيط بعينيه حلقتان زرقاوان داكنتان، لكن يده لم ترتعش. فتح الباب، ودون أن يغلقه ثانية، دون أن ينظر خلفه لالقاء نظرة على أمه أو أبيه، هجر منزل أبويه والى الأبد. خطا خطوتين، ثم ثلاثاً، وتوقف. خيل اليه أنه سمع وقع خطوتين ثقيلتين تلاحقانه. نظر خلفه: لا أحد. أحكم وضع الحزام الجلدي المدجج بالمسامير، وشد المنديل المبقع باللون الأحمر على شعره وراح يهبط الأزقة الضيقة المتعرجة. نبحه كلب بنبرة حزينة، وشعر بوم باقتراب ضوء النهار فتملكه الفزع وطار بصمت مبتعداً ماراً من فوق رأسه. غادر على عجل مخلّفاً وراءه الأبواب المرتجة وخرج الى الحدائق والبساتين. كانت العصافير تشدو بأول لحن لها. وفي حديقة أحد المطابخ كان رجل عجوز يقوم بعمله الروتيني، يدير عتلة فوق بئر تستخدم للري. لقد بدأ النهار.

لم يكن يحمل حقيبة سفر، أو عصا أو ينتعل خفاً، والطريق طويلة. سيتوجب عليه أن يجتاز قانا، وطبرية، ومجدلة وكفرناحوم، ثم يلتف

حول بحيرة جنيسارت ويلج الصحراء. فقد كان قد سمع أن ثمة ديرا هناك مخصصاً للناس البسطاء، الورعين: هناك يرتدون جميعاً أردية بيضاء، ولا يأكلون اللحم، ولا يشربون الخمر، ولا يقربون النساء ـ لا يفعلون أي شيء غير عبادة الرب. هم ضليعون في علم الأعشاب ويعالجون أمراض الجسد بها، وضليعون أيضاً بأساليب سحرية يخلّصون بها الروح من الشياطين. كم من مرة حدّثه عمه الحبر، وهو لا يني يتنهد، عن هذا الدير المقدس! كان قد أمضى احدى عشرة سنة هناك كراهب، يسبّح بحمد الرب ويشفي الناس. ولكن واأسفاه! فقد تغلب عليه شيطان الغواية ذات يوم (وطبعاً هو أيضاً قادر): رأى امرأة، فتخلى عن حياة القداسة، وخلع عنه غفّارته البيضاء، وتزوج ـ وأنجب المجدلية. يستأهل مانالهُ! لقد أعطى الرب المرتد مايستحقه...

غمغم ابن مريم، وهو يحث خطاه «سأذهب الى هناك. وهناك، داخل الدير سأختبئ تحت أجنحته.»

ما أشد فرحه لهذا! كم مرَّ عليه من وقت ـ منذ ربيع عمره الثاني عشر ـ وهو يتوق للتخلي عن بيته وأبويه، لنسيان الماضي، ليفر من نصائح أمه، ومن جوار أبيه ومن هموم العمل اليومي الحقيرة التي تفترس الروح، كم تاق الى أن ينفض الانسان عن كاهله وكأنه طبقة من الغبار الكثيف ليهرب ويلجأ الى الصحراء! واليوم ـ أخيراً ـ هاهو قد رمى كل شيء وراءه بحركة واحدة، وتحرر من نير الانسان وتشبث، جسداً وروحاً، بنير الرب. لقد تم له الخلاص!

فجأة أضاء وجهه الشاحب، المترع بالمرارة. لعل مخالب الرب كانت طوال كل تلك السنين تتشبث به لكي تعمل بالضبط على جره الى حيث يتجه الآن بملء ارادته، متحرراً من المخالب. هل هذا يعني أن رغباته قد بدأت تتطابق مع رغبات الرب؟ أليس هذا هو أعظم واجبات الانسان وأصعبها؟ أليس هذا هو معنى السعادة؟

شعر بارتياح في قلبه. لا مخالب بعد الآن، ولا صراع ولا صراخ. هذا الصباح عند الفجر زاره الرب مملوءاً بالحب، جاء كالنسيم الرقيق المنعش وقال له «هيا بنا!»، وفتح له الباب، والآن - أي شعور لذيذ بالمصالحة، أية سعادة تغمره! غمغم قائلاً «هذا كثير عليّ، سوف أشمخ برأسي عالياً، وأرتل مزمور الخلاص «أنت مأواي وملاذي، يا رب...». مستحيلُ حبس نبع الفرح في قلبه، انه يفيض. وتابع طريقه على ضوء الفجر الساحر، محاطاً بخير الرب الوافر - أشجار زيتون، كروم العنب، حقول القمح، ومزمور الفرح ينطلق من صلبه، يبغي أن يشق عنان السماء. ورفع رأسه عالياً وفتح فمه، لكن قلبه وخزه فجأة : لقد سمع بوضوح وقع قدمين تجريان خلفه. فأبطأ خطوه وراح يرهف سمعه. أوقفت القدمان سيرهما. فانهارت ركبتاه وتوقف. وتوقفت القدمان بدورهما.

همس بصوت مرتعش «أنا أعرف من تكون، أعرف...»

لكنه استجمع شجاعته وقام بدورة سريعة الى الخلف لكي يقع بصره عليها قبل أن تتلاشى ... لا أحد!

أصبح لون الجهة الشرقية من قبة السماء كرزياً داكناً. كانت سنابل القمح في كامل نضجها، والعيدان تحني رؤوسها في الجو الساكن الهواء تنتظر المنجل. لم يكن هناك أي شيء على السهل : لا حيوان، ولا انسان، فقط في الناصرة، خلفه، توجد دلائل الحياة. كان الدخان قد بدأ يتصاعد من منزل أو اثنين. وكانت النسوة تستيقظ.

شعر بشيء من الطمأنينة، وقال في نفسه، من الأفضل أن لا أضيِّع الوقت. فلأندفع وبكل طاقتي وألتف الى الجانب الآخر من ذاك التل ، لأفلت من ملاحقتها. وانطلق يركض.

على الجانب الآخر من مكان وجوده كان طول عيدان القمح يصل حتى قامة الانسان. هنا في هذا السهل من الجليل كان أصل

زراعة القمح، والكرمة أيضاً. والكرمة البرية ماتزال تنمو زاحفة على سفوح الجبال. وعن بعد قرقعت عربة يجرها ثور. وهزت الحمير نفسها وهي تنهض عن مرقدها على الأرض، وشمّت الهواء، وهزت أذيالها وأخذت تنهق. وسمع صوت ضحك وثرثرة. ولمعت المناجل المشحوذة، وظهرت بوادر الحصادات. رأتهم الشمس فسقطت على سواعدهم، وأعناقهم وذقونهم الجميلة.

حين وقع نظرهم على ابن مريم عن بعد وهو يركض انفجروا يضحكون، ونادوا عليه، قائلين «أنت يا هذا، من تلاحق، أو من يلاحقك؟»

لكنه حين اقترب منهم وتعرفوا عليه بشكل أفضل، عرفوا من يكون، فكفوا جميعاً عن هذرهم وانضموا بعضهم الى بعض.

وتهامسوا «صانع الصلبان! اللعنة عليه! بالأمس رأيته يصلب...»

«انظروا الى المنديل المدمّى الذي يعصبه!»

«انه نصيبه من ملابس المصلوب. ليت دم الأبرياء يسقط على رأسه!»

وتابعوا على عجل مواصلة طريقهم، لكن الضحك كان الآن قد التصق في حناجرهم ولفّهم الصمت.

مرَّ ابن مريم بهم وتجاوزهم، خلّفهم وراءه، وعبر حقول القمح ووصل الى كروم العنب التي تغطي المنحدرات الانسيابية للجبل. وحين شاهد شجرة تين أخذ يبطئ في سيره ليقطف ورقة منها ويشمها. لقد كان يحب رائحة أوراق التين كثيراً: كانت تذكره برائحة تحت الابط الانساني. حين كان صغيراً اعتاد أن يغمض عينيه ويشم رائحة الأوراق، وتخيل نفسه من جديد مضموماً الى دفء صدر أمه، يرضع... لكنه حالما توقف ومدّ يده ليقطف الورقة، شعر بعرق بارد يتفصد من كل جسمه. وأيضاً كفّت القدمان فجأة عن ملاحقته -

وكانتا تركضان خلفه. انتصب شعر رأسه حتى آخره، وجمدت ذراعه في الهواء، وأخذ ينظر فيما حوله، إنها العزلة، لاشيء غير الرب. كانت التربة رطبة، والأوراق تقطر ماءاً، وفي تجويف احدى الشجيرات كانت هناك فراشة تكافح لتنشر جناحيها الرطبين لتطير.

وقرر قائلاً سأخرج، سأصرخ لأجد الراحة.

ما الذي كان يشعر به يغمره، كلما انفرد بنفسه فوق الجبل أو في السهل المقفر عند الظهيرة ـ أهو الفرح؟ أهو مرارة؟ أم هو، قبل أي شيء، خوف؟ كان دائماً يشعر أن الرب يكتنفه من كل جانب، فتنطلق منه صرخة عنيفة، وكأنه يرغب بالقيام بمحاولة يائسة للهرب. أحياناً كان يصيح كما الديك، وتارة يعوي كابن آوى جائع، وحيناً يغدو ككلب ضُرب بالسوط. لكنه الآن حالما فتح فمه ليطلق صرخة وقع بصره على فراشة تكافح لتنشر جناحيها فمال عليها، ورفعها برفق ووضعها عالياً على احدى أوراق شجرة التين، حين كانت الشمس قد بدأت تسطع عليها بقوة.

غمغم «أختاه ، أختاه»، ونظر اليها بحنو.

وانطلق من جديد، مخلفاً وراءه الفراشة لتدفأ، وسرعان ما سمع صوت وقع قدمين مكتوم على التربة الرطبة، خلفه ببضع خطوات. في البدء، أول مغادرته للناصرة، كان صوته خافتاً جداً : كأنه قادم من مكان بعيد جداً. وشيئاً فشيئاً اكتسبت القدمان شجاعة وأخذتا تقتربان. قال ابن مريم في نفسه وهو يرتعش : ستدركانني بعد قليل، وغمغم «رب، آه يا ربي، أنعم عليّ بأن أصل الى الدير بسرعة، قبل أن تثب عليّ»

في ذلك الوقت كانت الشمس قد غزت السهل، تسطع قوية على الطيور، والحيوانات، والبشر. وتصاعدت من التربة دمدمة غريبة المنشأ، وبدأ الماعز والخراف على سفوح الجبال بالتحرك وبدأ

الرعيان بالنفخ في مزاميرهم : وأصبح العالم مروَّضاً ومتحضراً . وفي غضون لحظات، وحالما يصل الى شجرة الحور الباسقة الشامخة أمامه الى اليسار، سوف يشاهد قانا، القرية المرحة التي كان مدلهاً بحبها . وحين كان مايزال غلاماً لم تنبت لحيته ـ قبل أن يغرز الرب مخالبه فيه ـ كم من مرة جاء هو وأمه الى هنا لحضور الاحتفالات الصاخبة! كم من مرة شارك الآخرين في ابداء اعجابهم بالفتيات اللواتي قدمن من كل القرى المجاورة وهن يرقصن تحت شجرة الحور الباسقة هذه السريعة الانبات وتهتز الأرض السعيدة تحت وطأة أقدامهن. ولكن ذات مرة، حين كان في العشرين من عمره وقف ليلتقط أنفاسه تحت شجرة الحور هذه، وهو يحمل وردة بيده...

ارتعش. فجأة رأى ذات الألف قبلة تمثل مرة أخرى أمامه، تختبئ الشمس والقمر في صدرها، واحداً الى اليمين، والآخر الى اليسار، ويطلع النهار ويحل الليل من خلف صدار ثوبها الشفاف.

هتف «دعيني وشأني، دعيني وشأني! انني مكرَّس للرب، وأنا في طريقي لمقابلته في الصحراء» وتابع سيره مسرعاً، متجاوزاً شجرة الحور. وفجأة برزت قانا أمام ناظريه: المنازل الواطئة المربعة، كلها مبيّضة، والأرصفة المربعة تجف، يحف بها نبات ذهبي متلألئ من الذرة وثمار اليقطين الضخمة المتمددة تحت أشعة الشمس. وفتيات صغيرات، أقدامهن الحافية تتدلى من الحواف، يعلقن فلفلاً أحمر في خيط قطني، لتزيين منازلهن.

غض بصره، وانطلق متجاوزاً فخ الشيطان بأسرع ما أمكنه. لم يكن يريد أن يرى أحداً أو أن يراه أي انسان. أصبح وقع القدمين الحافيتين على حجارة رصف الطريق مسموعاً بوضوح، هما أيضاً كانتا تسرعان.

كانت الشمس قد ارتفعت، وغطت وجه الأرض. وكان الحاصدون

يغنون بمرح وهم يلوحون بمناجلهم وحاصداتهم. وسرعان ماغدت الحفن ملء الأذرع، ثم حزماً ، ثم أكواماً تعلو في البيادر. وبينما ابن مريم يتابع مسيره راح يتمنى على عجل حصاداً طيباً لأصحاب الأراضي ، قائلاً «فلتكبر كل سنبلة حتى تملأ كيساً!»

غابت قانا خلف كروم الزيتون، وتجمعت ظلال الأشجار بالقرب من جذورها، فالوقت يقترب من منتصف الظهيرة. وبينما ابن مريم يبتهج بكل مايحيط به، وعقله لا يني يفكر بالرب، ملأت فجأة رائحة الخبز حديث النضج اللذيذة أنفه، وشعر فجأة بالجوع، وعلى الاثر توثب جسمه كله فرحاً . كم من مرة شعر بالجوع على مدى السنين الا انه لم يمر قط بتجربة مثل هذا الاشتياق القدسي للخبز! أما الآن...

راح أنفه يشم الهواء. وتبع منبع الشذا، فعبر خندقاً، وتسلق سياجاً، وتوغل في كرمة عنب فاكتشف كوخاً صغيراً قابعاً تحت شجرة زيتون مجوفة. كان الدخان يتصاعد غير متعرج أثناء ارتفاعه عن السطح القشي للكوخ. كانت هناك عجوز منحنية تعالج موقداً صغيراً من الآجر قائماً عند مدخل الكوخ. كانت سريعة الحركة، ذات أنف أشبه بالسفود وعينين بلا رموش. وكان الى جوارها كلب أسود ومنقط بنقاط صفراء، وقد وضع مخالبه الأمامية على الفرن وفتح فماً واسعاً عميقاً جائعاً مملوءاً بالأسنان. وحالما سمع صوت وقع أقدام في كرمة العنب نبح وهجم على الدخيل. فالتفتت العجوز وقد انتابتها الدهشة. حين رأت الشاب ومضت عيناها الصغيرتان. توقفت عن العمل وقد ابتهجت لأن شاباً قطع عليها عزلتها، والمجرفة الخشبية في يدها.

قالت «أهلاً بك. أنت جائع؟ من أين قدومك، بفضل الرب؟»

«من الناصرة»

سألته ثانية، وهي تضحك «ألست جائعاً؟ إن منخريك يتحركان كمنخري كلب»

«نعم ، أنا جائع، سامحيني»

لكن المرأة العجوز كانت صماء فلم تسمعه.

قالت «ماذا ؟ ارفع صوتك»

«أنا جائع . سامحيني»

«أسامحك ـ لماذا؟ ليس في الجوع ما يستدعي الخجل منه، يا ولدي الرائع، ولا في العطش، ولا الحب. انها جميعاً من عند الرب ـ فاقترب ولا تخجل»

ضحكت ثانية، كاشفة عن سنها الوحيدة الغالية عليها.

«ستجد عندي خبزاً وماءاً. أما الحب ـ فهو هناك أبعد، في مجدلة»

أمسكت برغيف كانت تضعه مع الآخرين على مقعد حجري بجوار الفرن : «انظر، هذا الرغيف نخصصه لعابري السبيل في كل مرة نفرغ فيها الفرن. نسميه رأس الجندب. إنه ليس لي، إنه لك. اقتطع شريحة وكلها»

عادت سكينة ابن مريم. جلس عند أسفل شجرة زيتون عتيقة وباشر الأكل. كم كان ذاك الخبز لذيذاً، وكم الماء منعشاً، وما ألذ حبتي الزيتون اللتين أعطتهما العجوز ليتناولهما مع الخبز. كانت نواتاهما صغيرتين وكانتا سمينتين لحميّتين كما التفاح! راح يمضغ بهدوء ويأكل، شاعراً أن جسمه وروحه قد اتحدا وأصبحا كياناً واحداً،بحيث كانا يتلقيان الخبز، والزيتون والماء بفم واحد، ويبتهجان معاً، ويتغذيان.

اتكأت العجوز على الفرن وراحت تملي نظرها من الشاب اعجاباً.

قالت وهي تضحك «لقد كنت جائعاً دون شك. كُل. أنت شاب، ولاتزال الطريق أمامك طويلة، ولا نهاية للمتاعب. كُل. تزوَّد بالطاقة لتتمكن من التحمُّل»

قطعت جانباً من رغيف آخر وأعطته حبتي زيتون أخريين. انزلق منديلها عن رأسها، كاشفاً عن فروة رأس تصلع، فسارعت الى اعادة شدِّه.

سألته «الى أين أنت ذاهب، بفضل الرب؟»

«الى الصحراء»

«أين؟ ارفع صوتك؟»

«الى الصحراء»

لوت العجوز فمها الأدرد، أصبح التعبير في عينيها ضارياً، وصرخت بغضب غير متوقع «الى الدير؟ لماذا؟ أي عمل لديك هناك؟ ألا تشفق على شبابك؟»

لم يجب. هزت العجوز رأسها الأصلع وهسَّت كالأفعى، وسألت ساخرة «تريد أن تبحث عن الرب، أليس كذلك؟»

قال الشاب، وكان صوته رفيعاً جداً «نعم»

رفست العجوز الكلب الذي كان ملتصقاً بساقيها الشبيهتين بقصبتين، واقتربت من الشاب.

صرخت «أووو، أيها الشيطان التعس، ألا تعلم أن الرب لا يوجد في الأديرة بل في منازل البشر؟ انك حيثما تجد زوجاً وزوجة، تجد هناك الرب، حيثما يوجد الأطفال والهموم الصغيرة والطبخ والمناقشات والمصالحات، يوجد أيضاً الرب. لا تنصت الى أولئك الخصيان، انهم عنب حامض. الرب الذي أعنيه هو الأليف، وليس الديري: هذا هو الرب الحقيقي. انه هو الجدير بعبادتك. دع الرب الآخر لأولئك البلهاء الكسالى، العقيمين القابعين في الصحراء!»

كانت العجوز كلما استطردت في كلامها ازداد غضبها. تكلمت وصرخت، وراحت تهدد بالانتقام، ثم هدأت.

قالت، وهي تلمس كتف الشاب «اعذرني يا ولدي الشجاع، لقد

كان لي ولد، ولد رائع مثلك. وذات صباح فقد صوابه، ففتح باب الدار وخرج يبغي الدير في الصحراء، الى الشافين ـ اللعنة عليهم، ليتهم لا يتوصلون الى شفاء أي انسان طوال حياتهم! حسن، لقد فقدته، وها أنا الآن أملأ الفرن وأفرغه ـ ولكن لأُطعمَ مَنْ؟ أطفالي؟ أم أحفادي؟ انني شجرة ذاوية، عقيمة»

سكتت برهة لتمسح عينيها، ومن ثم باشرت من جديد تقول «من سنين وأنا أرفع يدي وأبتهل الى الرب، وأصرخ «لماذا ولدت لقد كان لي ابن واحد، فلم حرمتني منه؟» صرختُ، ولكن مامن مستمع! مرة واحدة فقط رأيت أبواب السماء تتفتح. حدث ذلك عند منتصف الليل، فوق قمة جبل النبي ايليا. سمعت صوتاً هادراً يقول «اصرخي حتى يبح صوتك، لن أهتم»، ثم أغلقت أبواب السماء من جديد، وكان ذاك آخر عهدي بالابتهال الى الرب»

نهض ابن مريم واقفاً، ومد يده ليودع المرأة العجوز، لكنها سحبت بيدها. ومرة أخرى أخذت تهسّ كالأفعى «اذن فبغيتك الصحراء! أنت أيضاً شهيتك مفتوحة لسفّ الرمال، أليس كذلك؟ ولكن أليست لك عينان، يا ولدي الرائع؟ ألا ترى كروم العنب، والشمس، والنساء؟ هيا، اسمع كلامي، هيا الى مجدلة ـ هناك مكانك الصحيح! ألم تقرأ مرة الكتب المقدسة. الرب يقول «لا أريد صوماً وصلاة. أريد لحماً!»، بعبارة أخرى، انه يريد منك أن تنجب له أطفالاً».

قال الشاب «وداعاً، فليكافئك الرب على الخبز الذي أطعمتنيه»

قالت العجوز، وقد هدأت ثورتها «فليكافئك الرب أنت أيضاً، ليكافئك على الخير الذي قدمته لي. فلم يتوقف انسان على باب كوخي المتداعي منذ سنين، فاذا ما مرّ أحدهم، كان دائماً عجوزاً ...»

مشى عائداً عبر كرم العنب، وقفز فوق السياج فأصبح على الدرب الرئيسية.

غمغم «لا أتحمل رؤية البشر،لا أريد أن أراهم، حتى الخبز الذي يمنحونك اياه مسموم. ليس هناك غير درب واحد يؤدي الى الرب: الدرب الذي اخترته هذا اليوم. انه يمر من خلال الناس دون ان يلمسهم، ويدخل الى قلب الصحراء. آه، متى أصل؟»

لم يكن صدى كلماته قد تلاشى بعد حين فرقع ضحك خلفه. استدار، وقد تملكه الذهول. توتر الجو بضحك دون فم، ضحك هاسّ، موسوم بالحقد، والغل.

أفلتت من حنجرته المتقلصة صرخة «أدوناي! أدوناي». انتصب شعر رأسه حتى آخره، وراح يحدق في الفراغ، ثم انطلق، في طفرة من الذعر المفرط، يركض، وعلى الفور سمع وقع خطى القدمين الحافيتين اللتين كانتا تلاحقانه.

غمغم «لا يهم أين هما، فسرعان ما ستلحقا بي، لا يهم أين هما فسرعان ما ستلحقا بي» وهو يركض.

كانت النسوة ماتزال تحصد، والرجال يحملون الحزم الى البيادر. وكان آخرون، على مسافة أبعد، قد بدأوا يذرون. كان النسيم الدفيء يلتقط التبن وينثره على الأرض في شكل غبار ذهبي، تاركاً الحنطة الثقيلة تتراكم على البيادر. وكان عابروا السبيل يأخذون حفنة من القمح، ويقبّلونه ويتمنون لأصحاب الأراضي أن يحظوا بحصاد مماثل في الموسم القادم.

هاهي طبرية، المعبودة، قائمة بين تلتين على البعد، مهيبة، حديثة البناء، ملأى بالنصب، والمسارح ورسوم النساء. ملأ مرآها ابن مريم بالرعب. ذات مرة، حين كان مايزال طفلاً، قدم مع عمه الحبر الى هنا، وكان هذا الأخير استُدعي ليخلص سيدة رومانية كريمة الأصل من شياطينها. كان واضحاً أن الشيطان الذي تلبَّسها كان شيطان الحمَّام، فقد كات تندفع الى الشوارع وهي عارية تماماً وتهاجم المارة.

دخل الحبر وابن أخيه الى قصرها في الوقت الذي كانت السيدة ممسوسة مرة أخرى بشياطينها .كانت هائجة راكضة تبغي باب الخروج الى الشارع، والخدم يجدُّون في إثرها . مدّ الحبر عصاه وأوقفها، لكنها حالما رأت الصبي، وثبت عليه، فصرخ ابن مريم وفقد وعيه، ومنذ ذلك الحين كلما تذكر ذاك المكان المشين تأخذه الرعشة.

كان الحبر يقول له «إن الرب صبَّ لعنته على المدينة. حين تمر من هذا الطريق ، أسرع خطاك ، وغض بصرك الى الأرض وركز تفكيرك في الموت، أو ارفع بصرك الى السماء وركز تفكيرك في الرب. واذا أردت ان تحظى ببركتي، فكلما رحلت الى كفرناحوم، اتخذْ درباً آخر».

هاهي الفاجرة الآن تضحك في وضح النهار، يتدفق الناس داخلين خارجين من بواباتها، راجلين وعلى ظهور الخيل، والأعلام التي تحمل شعار النسر ذي الرأسين ترفرف فوق أبراجها، والأسلحة البرونزية تلمع. وذات مرة شاهد ابن مريم جيفة فرس متمددة وسط مستنقع أخضر خارج الناصرة .كانت قد انتفخت، وقد شُدَّ الجلد ومُطَّ وأصبح كالطبل. وكانت حشود السرطانات وخنافس الروث كأنها في استعراض، تدخل وتخرج من جوفها المفتوح، المملوء بالأحشاء والقذارة، وحوَّمت سحابة من ذباب الخيل الضخم بلونيه الذهبي والأخضر وملأ طنينه الجو، وأقحم غرابان منقاريهما الحادين في العينين الكبيرتين تحت الرموش الطويلة مباشرة واستغرقا في المص. كانت الجيفة متألقة. بدت، وقد كثر ساكنوها، وكأنها عادت الى الحياة: كنت تحسب أنها تتدحرج مبتهجة على العشب الربيعي، راضية تماماً، وحوافرها المنتعلة الأربعة ممدودة نحو السماء.

غمغم ابن مريم، وهو عاجز عن ابعاد عينيه عن المدينة البراقة «كذلك هي -مثل جيفة الفرس- كذلك هي طبرية. وكذلك هي

أيضاً سدوم وعمورة، وكذا هي روح الانسان الآثمة»

مرّ به عجوز نشيط، مايزال يحتفظ بعافيته، يمتطي متن حمار. ورأى اليسوع فتوقف.

سأله «إلامَ تنظر مشدوهاً، يا فتى؟ الا تعرفها؟ إنها أميرتنا الجديدة : طبرية المومس. يمتطيها يونانيون، ورومان، وبدو، وكلدانيون، وغجر ويهود، وهي دائماً مستعدة لاستقبال المزيد. هي دائماً مستعدة للمزيد ـ أتسمع ما أقول؟ اثنان واثنان يساوي أربعة!»

أخذ مقدار حفنة من الجوز من عدل خرجه واستضاف بها يسوع قائلاً «تبدو شاباً رائعاً مستقيماً وفقيراً. خذ هذه لتأكلها أثناء المسير ولا تنسَ أن تقول، بارك يا رب العجوز زبدي من كفر ناحوم!»

كانت لحيته المدببة بيضاء تماماً، وشفتاه غليظتين تنمان عن الشر، وكان عنقه قصيراً ضخماً وأسود اللون، وعيناه سريعتي الحركة ضاربة النظرة. هذا الجسد القصير الضخم قد نال حظه من الطعام، والشراب والقبل بوفرة، ولا يزال أبعد مايكون عن الشبع!

اقترب منهما عملاق عظيم كث الشعر. كان قميصه مفتوحاً كله من الأمام، وركبتاه عاريتين، ويمسك بيده عصا راع معقوفة.توقف، وهو في هياج تام، ودون أن يحي الرجل العجوز التفت الى ابن مريم «لا أظن أن سيادتك هو ابن النجار، من الناصرة؟ لا أظنك الشخص الذي يصنع الصلبان ويصلبنا؟»

كانت هناك امرأتان عجوزان تحصدان في الحقل المقابل وسمعتا الحديث فاقتربتا.

قال ابن مريم «أنا... أنا...»، وتحرك لينصرف.

صرخ العملاق «أو تظن أنك ستنصرف؟»، وقبض عليه من ذراعه «لن تفلت مني بهذه السهولة يا صانع الصلبان، يا خائن ـ سأقتلك!»

لكن العجوز الممتلئ حيوية قبض على عصا الراعي وانتزعها من يده.

قال «على رسلك يا فليب، وانصت الى رأي رجل عجوز. هل لك أن تجيب عن هذا السؤال: ألا ترى أن كل مايجري في هذا العالم يتم بارادة الرب؟»

«نعم، يا زبدى، كل شيء»

«حسن، اذن : إرادة الرب شاءت أن يصنع هذا الانسان صلباناً، فدعه وشأنه والحكيم من يتبع هذه النصيحة : من الأفضل عدم التدخل في شؤون الرب. اثنان واثنان يساوي أربعة»

في تلك الأثناء كان ابن مريم قد تخلَّص من كلاَّبي الرجل الجلف وانطلق يركض. وهرعت الحاصدتان العجوزان في اثره تصرخان، وتهزان عصايتهما بحركة هستيرية.

قال العملاق «هيا بنا معاً يا زبدى نغسل أيدينا، لأنها لمست صانع الصلبان، هيا بنا نغسل فمينا أيضاً، لأننا تحدثنا معه»

قال العجوز «لا تقلق، وهيا بنا من هنا، هيا، رافقني - انني في عجلة من أمري. ولداي غائبان. واحد ذهب الى الناصرة ليشهد الصلب، أو هذا ما قاله، ويبدو أن الآخر رحل الى الصحراء ليصبح قديساً. وها أنا ذا وحيد مع قوارب صيدي هيا، ساعدني في جذب الشباك، لعلها تكون الآن قد امتلأت بالسمك. سوف أعطيك منه ملء مقلاة»

وانطلقا. كان مزاج العجوز مرحاً، فقال وهو يضحك «يا إلهي، تصور الحيرة التي لابد أن الرب المسكين يمر بها بدوره. لاشك أنه تورط في خلق العالم. ان السمك يصرخ، لا تعمني يا رب، لا تجعلني أدخل الشباك! ويصرخ الصياد، اعم السمك يا رب، اجعله يلج الشباك! فالى أي منهما يجب أن ينصت؟ أحياناً يلبي طلب السمك، وطوراً يلبي رغبة الصياد - بهذه الطريقة يسير العالم!»

في تلك الأثناء كان ابن مريم قد سلك الدرب الضيق المنحدر لكي يتجنب المرور بمجدلة. لم يكن يريد أن يتلوث بهذه القرية الجبلية الفاتنة، المنفتحة، ولكن الخبيثة الهاجعة بين أشجار النخيل عند تقاطع طرق الثروات التي تمر فيها القوافل نهاراً وليلاً، بعضها قادم من أرض الفرات أو من الجزيرة العربية، متوجهاً الى البحر العظيم، وبعضها الآخر قادم من دمشق أو من فينيقية، وجهته الحوض الأخضر الزاهي للنيل. وعند مدخل القرية ثمة بئر مياهها باردة، رُسمت على حافتها صورة امرأة بصدر عار، تبتسم للتجار. آه، لو يهرب، لو يغير دربه، لو يختصر المسافة الى البحيرة ويصل الى الصحراء! فهناك، في بئر جافة يجلس الرب، بانتظاره.

عمر ذكر الرب قلبه، فحث خطاه. رأفت الشمس أخيراً بالفتيات اللواتي كن يقمن بالحصاد، وبدأت تغرب. وأصبح الهواء أكثر برودة. وتمددت الحاصدات على ظهورهن على أكداس التبن ليلتقطن أنفاسهن ويلقين نكتة أو أكثر غير محتشمة لينشطن أذهانهن. كانت أجسادهن تضطرم بالحرارة، بعد نهار طويل من العمل والتعرق تحت أشعة الشمس بصدور مكشوفة، جنباً الى جنب مع الرجال الذين كانوا يتفصدون عرقاً بدورهم. كانت الحرارة تضطرم في أجسادهم، والآن، وبمساعدة النكات والضحك، بردت.

سمع ابن مريم ضحكهم ومعاكساتهم، فاحمر وجهه خجلاً، وراح يجبر أفكاره، ومدفوعاً بلهفته للوقت الذي يغيب فيه عن سمعه أي صوت بشري، لاتخاذ منحى آخر، وبدأ يقلب التفكير في كلمات فيليب ، الراعي الصخَّاب.

تمتم وهو يتنهد «لا أحد يدرك مدى معاناتي، ولا أحد يفهم لماذا أصنع الصلبان أو مع من أتصارع»

أمام أحد الأكواخ وقف مزارعان ينفضان طبقة من غبار التبن

الناعم عن لحيتيهما وشعرهما، ويغتسلان. لابد انهما أخَّان. وكانت أمهما العجوز تمد وجبة عشاء أبيهما على الرف الصخري المجاور للفرن. كانت الذرة تشوى على الفحم المشتعل، والشذا يملأ الجو.

رأى المزارعان ابن مريم، وكان مرهقاً والغبار يغطيه، فأشفقا عليه.

هتفا «هيه أنت، الى أين تركض. يبدو أنك قادم من مكان بعيد جداً، لكنك لا تحمل كيساً. توقف قليلاً وانضم الينا وتناول لقمة»

قالت الأم «ولتأكل بعض الذرة أيضاً»

«واشرب قليلاً من الخمر لتعيد النضارة الى وجنتيك»

أجاب ابن ريم، متابعاً طريقه «لست جائعاً، ولا أحتاج الى أي شيء، شكراً لكم». وكان يقول في نفسه انهم حالما يكتشفون من أنا سيشعرون بالخزي لأنهم لمسوني وتحدثوا اليّ.

ناداه أحد الأخوين «ثلاثة هتافات لحماقتك. تعتقد أننا لا نليق بك، أليس كذلك؟»

كاد يسوع أن يجيب قائلاً، أنا صانع الصلبان، لكن الجبن غلبه، فأطرق رأسه، وواصل سيره.

هبط المساء كما السيف، وقبل أن يتاح الوقت للتلال أن تتوهج باللون الأحمر الوردي تحول لون التربة الى الأرجواني ومن ثم تحول مباشرة الى الأسود، ونور الشمس الذي كان قد صعد الى قمم الأشجار، قفز الى عنان السماء ومن ثم اختفى. أدركت الظلمة ابن مريم فوق قمة أحد التلال، حيث ضربت شجرة أرز معمِّرة جذورها. وعلى الرغم من سوط الرياح لها وتعذيبها على الدوام، فانها ظلت صامدة: لقد حفرت جذورها في الصخر. كان شذا القمح والخشب المحروق ينبعث من السهل، ومن الأكواخ المبعثرة ارتفع دخان اعداد وجبة العشاء.

كان ابن مريم جائعاً وظمآناً. وأحس لوهلة أنه يحسد أولئك العمال الذين أنهوا عمل يومهم، وعادوا الى أكواخهم متعبين حتى الارهاق وجائعين، ورأى عن بعد النار المشتعلة، والدخان المنبعث وزوجاتهم تعد لهم العشاء.

أحس فجأة بأنه أشد عزلة حتى من الثعالب والبوم، فهذه على الأقل لديها عش أو وجار ومخلوقات حبيبة دافئة بانتظارها. أما هو فليس له أحد ولا حتى أمه. جلس القرفصاء عند أسفل شجرة الأرز وتكوَّر كما الكرة ، وكان يرتعش.

غمغم «شكراً لك يا رب على كل شيء، على العزلة، والجوع، والبرد. لم يعد ينقصني شيء»

الا انه حالما قال هذا بدا وكأنه يشعر بالظلم الذي ارتكب في حقه. وراح يتلفت فيما حوله كحيوان وقع في الفخ، وأخذ صدغاه يقرعان غضباً وخوفاً. نهض متكئاً على ركبتيه وثبَّت بصره على الدرب المظلم. لازال بالامكان سماع وقع خطى القدمين الحافيتين. انهما تزيحان الحجارة وترتقيان التل. وأخيراً وصلتا الى القمة واذا بابن مريم، لاارادياً ـ حتى أنه هو نفسه أجفل لدى سماعه صوته ـ يصرخ بقوة «اقتربي، يا سيدتي. لا تختبئي. الوقت ليل الآن، ولا أحد سيراك. اكشفي عن نفسك!»

حبس أنفاسه وانتظر.

لم يجب أي مخلوق . لم يسمع غير الأصوات الليلية الأبدية تُرجِّع بعذوبة، وهدوء ، في الجو : صرير الجداجد والجنادب، وتنهد طيور الصنّوع، ومن مسافة بعيدة نبحت كلاب اكتشفت في الظلام أشياء لا يراها الناس... واشرأب برأسه الى الأمام. كان متيقناً من أن ثمة شخصاً يقف تحت شجرة الأرز، أمامه مباشرة.

هنا همس بصوت خفيض، متضرع، محاولاً استدراج الشخص

الخفي للتكلم «سيدتي ... سيدتي». انتظر. كان قد كفَّ عن الارتجاف، وبدأ العرق يتصبب من تحت ابطيه ومن حاجبيه.

حدق، وأرهف سمعه. خيل اليه لبرهة من الزمن أنه سمع مرة أخرى رنين ضحكة، خارجة بهدوء من قلب الظلمة، وخلال برهة أخرى خيل اليه أنه رأى الهواء يدوِّم، ومن ثم يتكثَّف ويصير جسداً ما ان اتخذ شكلاً حتى عاد فتلاشى واختفى.

جاهد ابن مريم، وقد أذواه الجهد الذي يبذله، لينفذ أكثر داخل الظلمة. الآن لم يعد يصرخ، ولا يتضرع، بل ظل ببساطة راكعاً ورأسه مشرئب تحت شجرة الأرز، ينتظر، ويذوب...

جرحت الصخور ركبتيه، فغيَّر من وضعه، استند الى جذع شجرة الأرز وأغمض عينيه ومن ثم، ودون أن يفقد سكينته أو أن تفلت منه صرخة، رآها - داخل عينيه. لكنها لم تأت بالطريقة التي توقعها. لقد كان يتوقع أن يرى أمه المحرومة من ولدها وقد وضعت كلتا يديها على رأسها تنزل لعنتها عليه. أما الآن فقد فتح عينيه بالتدريج، وكان يرتجف. وأمام ناظريه راح يسطع جسد همجي لامرأة مغطاة من رأسها الى قدميها بدرع مصفح معشق سميك من البرونز. لكن الرأس لم يكن رأساً انسانياً، كان رأس نسر، ذا عينين صفراوين ومنقار معقوف يقبض على لقمة من اللحم، كانت تلقي على ابن مريم نظرة ثابتة، لا رحمة فيها.

غمغم «لمَ تتبدي كما توقعتك. أنت لست الأم... ارحميني وقولي لي. من أنت؟»

سألها، وانتظر ، وكرر السؤال. لاشيء. لاشيء غير البريق الأصفر للعينين المستديرتين وسط الظلام.

لكن فجأة فهم ابن مريم.

هتف «إنها اللعنة!» ، وانطرح منبطحاً على الأرض.

الفصل السابع

أرسلت السماوات لآلأها من فوقه. بينما في الأسفل جرحته الأرض بحجارتها وأشواكها. مدَّ ذراعيه، وجاهد بقوة وأنَّ وكأن الأرض بكاملها غدت صليباً صُلب عليه.

مرَّ الظلام من فوقه مع مرافقيه الضخام منهم والصغار ـ من نجوم الليل وطيوره، والكلاب الخاضعة للانسان راحت تنبح من كل حدب وصوب على البيادر، تحرس ثروات سادتها، كان الجو بارداً، وأخذ يسوع يرتجف. غلبه النوم بعض الوقت وصحبه في نزهة بهيجة الى أراض دافئة، نائية لكنه عاد من جديد ورمى به مباشرة الى الأرض، فوق الحجارة.

قرابة منتصف الليل سمع رنين أجراس مرحة مارة من أسفل التل، وخلف الأجراس صدحت أغنية حزينة يشدو بها حادي جمل. وسمع صدى محادثة، وشخصاً يطلق تنهيدة،وصوت امرأة واضح رشيق، انبثقت من قلب الليل، لكن سرعان ماساد الصمت الدرب من جديد... واذا بالمجدلية تمر من أمامه ـفي منتصف الليل، وهي على متن جمل ذي سرج ذهبي، وجهها مخدَّد من طول البكاء، وقد

تحـولت المسـاحـيق على وجنتـيـهـا الى طين. اذ لما وصل التـجـار الموسـرون من جهات الدنيـا الأربعـة، فلم يجـدوهـا عند البـئـر ولا في منزلهـا، اختـاروا الجـمل ذا الطـقم الأفـخم، والموشّى أكثـر بالذهب، وأرسلوه مع سائق لجلبها بأقصى سرعـة. لقد كانت طريقـهم طويلة جـداً ومـحـفـوفـة بـالمخـاطر، لكنهم كـانـوا يمنّون أنفسـهم بجـسـد ينتظرهـم في مـجدلة، فتفور فيهم القـوة، لكنهم لم يجدوه، لذا بعثـوا بدليلهم واصطفوا في فناء بيت المجدلية، وهم جالسـون الآن هناك مغمضي العيون، ينتظرون.

شيئـاً فشيئـاً خفـت رنين الأجراس وسط الليل، وأصـبح أكـثـر عـذوبة. بات ابن مـريم يسمعـه الآن وكـأنه رنين ضحك رقيق، وكـأنه نوافـيـر مـاء مـخـرخـر تندفع بقـوة الى بسـتان عـميق وتنادي اسـمـه بدلال، وهكذا عـاد ينزلق برفق، وهو يتـابع الـرنين المغـوي لأجـراس الجمل، عائداً الى النوم.

ورأى حلمـاً، تهـيـأ له العـالم مـرجـاً أخـضـر، تغطيـه الأزاهيـر، والرب مـتـمـثل في شكل فتى راع زيتونـي البشـرة له قـرنان ملتويان، حديثـا النمو ولازالا رقيقين، جالس بالقـرب من حوض مـاء يعـزف على مـزمـاره. ولم يكن قـد سبـق لابن مـريم أن سـمع مـرة في حيـاته مـثل ذاك العـزف العـذب، السـاحـر. وبينمـا تابع الـرب المتـمـثل في الفـتى الراعي عـزفـه كـانت كل حـفنة من التـراب ترتعش وتنتـشي، وتتكور، وتدب فيها الحياة، وفجـأة امتلأ المرج بالغزلان الجميلة ذات القرون المتشعبة الشبيهة بالأكاليل. مال الرب ونظر في الماء، فامتلأ الحـوض بالسـمك، ورفع بصـره الى الأشـجـار، فـاذا بلون أوراقـهـا يتبدل، وتحولت الى عـصـافيـر تغرد. واستجمع قـوته، فأصـبح عزف العازف أقوى، وظهرت حشرتان ضـخمتان بحجم الانسـان من تحت الأرض على الفـور وأخـذتا تتعـانقـان على العـشب الربيـعي. راحتـا

تتدحرجان في طول المرج وعرضه، تجتمعان، وتفترقان، وتجتمعان من جديد، وهما تضاحكان بلا احتشام، وتهزأان من الفتى الراعي، وتصدران هسيساً. أنزل الفتى المزمار وأخذ يتأمل الحشرتين الوقحتين البذيئتين، وفجأة نفد صبره. وبضربة واحدة هشم مزماره تحت عقبه، وعلى الفور اختفت الغزلان، والعصافير، والأشجار، والمياه والرجل والمرأة الملتصقان.

أطلق ابن مريم صرخة واستفاق من نومه، ولكن ليس قبل أن تلمح عينه، عند لحظة الاستيقاظ بالضبط، جسدي الرجل والمرأة الملتصقين يغوصان مندفعين خلال الباب الخفي المظلم لأحشائه، فانتفض واقفاً على قدميه من الرعب.

«اذن، فهذا هو الوحل الكامن داخلي، هذه هي القذارة!»

حلَّ الحزام الجلدي المرصَّع بالمسامير وبدأ يدوس على الملابس التي كان يرتديها بقدمه، ودون أن يتكلم بدأ يجلد فخذيه وظهره ووجهه، وانبجس الدم وتطاير عليه. تحسسه فشعر بالارتياح.

طلع الفجر... خفت بريق النجوم، ووخزت الرياح الصقيعية عظامه. كانت شجرة الأرز التي تظلله مزدحمة بالأجنحة وبالغناء. تلفت فيما حوله، الفضاء خال، وعلى ضوء النهار تراءت من جديد اللعنة ذات رأس النسر البرونزي.

قال في نفسه، يجب أن أرحل، يجب أن أهرب، يجب أن لا أطأ أرض مجدلة - اللعنة على المكان ولن أتوقف حتى أصل الى الصحراء وأدفن نفسي في الدير. هناك سوف أقتل لحمي وأحوّله الى روح.

وضع كفَّه على جذع الشجرة المعمِّرة العتيق وداعبه. شعر بروح الشجرة ترتفع من جذورها وتتوزع على أعلى وأرقّ غصين.

تمتم «وداعاً يا أختاه. ليلة أمس جلبت العار على نفسي تحت ظلالك. سامحيني»

قال هذا ثم انطلق يهبط التل مضنى ومحمّلاً بالنُذُر المشؤومة.

وصل الى الدرب الرئيسي. كان الوادي يستيقظ، فأول أشعة الشمس قد سقطت عليه وملأت البيادر العامرة بالقمح، بالذهب. وعاد يتمتم من جديد «يجب أن لا أمر من مجدلة. أنا خائف، ثم توقف ليختار الطريق التي سيسلكها ليصل الى البحيرة، فاختا ـ أول درب ضيق وجده الى يمينه. كان يعرف أن مجدلة تقع جهة اليسار، وأن البحيرة في جهة اليمين، وتقدم بخطى واثقة.

سار طويلاً، وكان يتساءل. انه هارب من المجدلية، المومس، الى الرب: من الصليب الى الفردوس، من أمه وأبيه الى أراض وبحار نائية، الى رجال بوجوه عديدة لا تحصى، بيضاء، وصفراء، وسوداء. وعلى الرغم من أنه لم يتخط حدود أرض اسرائيل، ومنذ أيام طفولته الأولى وعيناه مغلقتان دون كل مايجري خارج كوخ والده المتواضع وعقله، كصقر مدرَّب مزوَّد بأجراس صقور ذهبية، كان يندفع منتقلاً من يابسة الى يابسة، ومن بحر محيط الى بحر محيط، يصرخ من البهجة.على أية حال فعقله الشبيه بعقل الصقور لم يكن يصطاد، لقد نسي متطلبات الجسد. كان يهرب من حاجات البدن، ويرتقي الى السماء ـ كان ذاك هو كل مايمكن أن يصبو اليه.

وسار وسار. كان الدرب يلتوي ويدور عبر كروم العنب، ثم يصعد مرة أخرى، ويصل الى كروم الزيتون. وكان ابن مريم يتبعه كما يتبع المرء ماءاً جارياً أو الغناء الحزين الرتيب لحادي جمال. كانت تلك الرحلة بجملتها تبدو له أشبه بحلم. كان بالكاد يلمس الأرض، وتترك قدماه ختمهما الانساني، العقب والأصابع الخمسة، بخفة على التربة. وكانت أشجار الزيتون تلوّح بأغصانها المحمَّلة مرحبة به. وكانت حبات العنب قد بدأت تينع، والعناقيد المثقلة

تتدلى نحو الأسفل حتى تصل الى الأرض. وحيَّته الفتيات اللواتي يعصبن المناديل البيضاء وهن بصحبة عجولهن المكتنزة التي لوَّحتها الشمس بعذوبة: شالوم! السلام عليكم!

أحياناً ـ حين لا يلوح مخلوق على الدرب، كان يسمع وقع خطى ثقيلة خلفه من جديد، ويسطع نور برونزي في الفضاء ومن ثم يختفي، ويفرقع الضحك الشرير مرة أخرى فوق رأسه. لكن ابن مريم أجبر نفسه على الصبر، هاهو يقترب من الانعتاق، قريباً سيرى البحيرة قبالته، وخلف المياه الزرقاء، ينتصب الدير معلقاً كعش الباز بين الصخور الحمراء.

تبع الدرب وفكره يتقدمه، لكنه توقف فجأة مجفلاً. هاهي مجدلة، هاجعة في تجويف مستتر، تمتد تحت أشجار نخيل التمر. استدار بعقله، استدار ليبتعد، لكن قدميه، على رغم ارادته، قادتاه، بخطى واثقة الى صومعة ابنة عمه المجدلية المعطرة، الى المنزل الذي استُنزلَت عليه نار جهنم.

تمتم وقد تلبّسه الرعب «لا، لا أريد أن أذهب، لا أريد أن أذهب!»، وحاول أن يعكس اتجاه سيره، لكن جسده رفض أن يستجيب، ولزم مكانه وأخذ يشم الهواء ككلب صيد.

سوف أبتعد ! هكذا قرر مرة أخرى بينه وبين نفسه، لكنه لم يتزحزح. رأى المنازل النظيفة المبيَّضة بماء الكلس والبئر القديمة بحافتها الرخامية. كانت الكلاب تنبح، والدجاجات تقوِّق، والنسوة يضحكن، وجمال مثقلة بأحمالها باركة حول البئر، تجتر... وسمع صوتاً عذباً داخله يقول، يجب أن أقابلها، يجب أن أقابلها. هذا ضروري. لقد قاد الرب قدميّ ـ الرب، وليس بمحض ارادتي ـ لأنني يجب أن أقابلها، وأركع عند قدميها، وأناشدها الغفران. انه خطأي، خطأي أنا! قبل أن أدخل الدير وألبس الرداء الأبيض يجب

أن ألتمس منها الغفران، والا لا يمكنني أن أنال الخلاص. شكراً لك يا رب، لأنك أحضرتني الى حيث لم أكن أريد أن آتي!

شعر بالسعادة. شد الحزام عليه، وانطلق يهبط التل الى مجدلة.

كان قطيع الجمال باركاً على بطونه متحلقاً حول البئر، وقد أنهى تناول طعامه وهاهو الآن، مازال محمّلاً، يمضغ جرَّته ببطء، وصبر. لابد أنه قدم من أصقاع نائية يفوح منها الأريج، لأن البقعة كلها كانت تعبق بروائح البهارات.

توقف يسوع عند البئر. قدَّمت امرأة عجوز كانت تسحب الماء جرتها له، فشرب. أراد أن يسأل إن كانت مريم في المنزل، لكن الخجل كان يغمره. وفكر، لقد دفعني الرب الى منزلها، وأنا متيقن من أنها في الداخل.

وطرق زقاقاً كثير الظلال. كان في البلدة العديد من الغرباء، بعضهم يرتدي جلباب البدو الطويل الأبيض، والبعض الآخر يرفل بشال الكشمير الهندي النفيس. فُتح باب صغير، وظهرت منه عقيلة ضخمة المؤخرة لها شارب أسود وحالما رأته انفجرت بالضحك.

هتفت «أهلاً، أهلاً بك أيها النجار. اذن أنت أيضاً تنوي أن تتعبد في المزار، هه؟» وأغلقت الباب وسط جلجلات ضحكها.

أصبح لون وجه ابن مريم قرمزياً من الخجل، لكنه استجمع شتات شجاعته. وفكر، يجب أن أفعل، يجب أن أركع عند قدميها وألتمس منها الغفران.

وحث خطاه. كان منزلها يقع في الجهة المقابلة من القرية، ومحاطاً ببستان صغير من شجيرات الرمان. انه يتذكره جيداً : بابه بمصراع واحد أخضر اللون مزين برسم يمثل ثعبانين متضافرين، واحد أسود اللون والثاني أبيض، وهو من تنفيذ أحد عشاقها، وهو

بدوي، وفوق الباب سحلية كبيرة صفراء، أطرافها ممطوطة على الجانبين وكأنها مصلوبة.

أضاع دربه، فعاد أدراجه الى حيث كان - وخجل أن يسأل من يدلّه على الطريق. وكان الوقت ظهيرة، فتوقف واستظل بفيء شجرة زيتون ليلتقط أنفاسه. ومرًّ به تاجر ثري، ذو لحية قصيرة سوداء جعدة، وعينين سوداوين لوزيتين، ويضع العديد من الخواتيم، ويتلبَّس هيئة ارستقراطية، فتبعه ابن مريم.

لابد أنه أحد ملائكة الرب، هكذا حدَّث نفسه وهو يسير خلفه ويعجب بالتكوين النبيل لجسده الغض، وبشال الكشمير النفيس، المزركش برسوم طيور وأزهار مذهلة، الذي يغطي كتفيه. لابد أنه أحد ملائكة الرب، وقد هبط ليدلني على الطريق.

مضى الرجل النبيل الأجنبي في طريقه يطرق دون أي خطأ في الأزقة المتعرجة. وسرعان ما تراءى الباب الأخضر ذو الثعبانين المتضافرين. وكانت هناك عجوز شمطاء تجلس في الخارج على مقعد بلا ظهر. كان لديها منصب مملوء بالفحم المشتعل وتطبخ عليه سرطانات، والى جانب ذلك بذور القرع المشوية، وكرات صغيرة من اللحم موضوعة في صحاف خشبية كانت تبيعها متبّلة بالفلفل.

مال الشاب النبيل على المرأة العجوز ونفحها قطعة نقد فضية، ثم دخل، فتبعه ابن مريم.

كان هناك أربعة من التجار يصطفون واحداً خلف الآخر جالسين القرفصاء على الأرض في الفناء : رجلان عجوزان برموش عيون وأظافر مصبوغة، وشابان بلحيتين وشاربين سود اللون. وكلهم يثبتون أنظارهم على باب غرفة مريم الصغير المربع. كان مغلقاً. وبين الحين والآخر كانت تصدر من الداخل صرخة، أو ضحكة، أو

صوت شخص يدغدغ، أو صرير سرير - وعلى الفور يقطع العبَّاد أحاديثهم التي كانوا قد باشروها ويغيرون مواقعهم وهم يلهثون. والبدوي الذي كان قد دخل قبل وقت طويل جداً تأخر في الخروج، وكان جميع من في الفناء، شباباً وشيباً، متلهفين. اتخذ الشاب الهندي النبيل مجلسه في الرتل، والى الخلف منه جلس ابن مريم.

في وسط الفناء كانت هناك شجرة رمان ضخمة مثقلة بثمارها، وعلى جانبي باب الدار بسقت شجرتا سرو مهيبتان، واحدة مذكَّرة ولهاجذع مستقيم كالسيف، والثانية مؤنثة بأغصان مفتوحة واسعاً ومنتشرة. وكان يتدلى من شجرة الرمان قفص من أماليد مجدولة يضم طائر حجل غني الألوان يتقافز، ينقر على الأسلاك ويرفسها ويقوق.

كان العبَّاد يقضمون التمر الذي يتناولونه من أحزمتهم، أو يقرطون بذور جوز الطيب ليعطّروا أنفاسهم. كانوا منهمكين في أحاديث لتجزية الوقت. التفتوا وحيّوا الشاب النبيل وألقوا نظرة ازدراء على ابن مريم ذي الملابس الرثة الجالس خلفه. وتنهد العجوز الذي كان الأول في الرتل، قال «لا استشهاد أعظم من استشهادي، ها أنا ذا واقف أمام الفردوس، والباب موصد في وجهي».

ضحك شاب يعصب شريطين ذهبيين حول كاحليه،وقال «انني أصدِّر التوابل من منطقة الفرات الى البحر العظيم. أترون هذا الحجل ذا المخالب الحمراء هنا الجاثم أمامنا؟ سوف أبتاع مريم بحمولة سفينة من القرفة والفلفل، وأضعها مثله في قفص ذهبي وأرحل بها. لذا، يا أصدقائي الشبقين، أسرعوا في اتمام ماتنوون عمله : ستكون تلك هي قبلتكم الأخيرة»

هنا قاطعه العجوز الآخر «شكراً لك، يا صاحبي القوي

الوسيم»، وكان ذا لحية بيضاء كالثلج ومعطرة ويدين أرستقراطيتين نحيلتي العظام، وكفين مصبوغين بصباغ لحاء الكينا، «إن ماقلته الآن سوف يزيد أكثر فأكثر من حلاوة قبلة هذا اليوم»

كان الشاب النبيل قد أغضى جفنيه المثقلين، وأخذ القسم الأعلى من جسمه يهتز ببطء الى الخلف والى الأمام، وشفتاه ترتجفان، وكأنه يتلو صلاته. كان، حتى قبل أن يلج الفردوس، قد بدأ يغيب في غبطة سرمدية. لقد سمع قوقأة طائر الحجل، وسمع صوت الدغدغة والصرير الصادر من داخل الغرفة الموصدة، وسمع المرأة العجوز القابعة عند البوابة وهي تملأ منصبها بالسرطانات الحية، التي تتقافز بعدئذ على الجمر.

أخذ يتفكر، وقد غالبه احساس رهيب بالتعب، هذه هي الجنة، هي هذا النوم العميق الذي ندعوه الحياة، النوم الذي نحلم خلاله بالجنة. لا وجود لجنة أخرى. يمكنني الآن أن أنهض وأرحل، فلا حاجة لي الى مزيد من المتعة.

لكزه رجل ضخم الجثة يعتمر عمامة خضراء، يجثم أمامه، بركبتيه، وضحك. قال «ماقول ربك في كل هذا، يا أمير الهند؟»

فتح الشاب عينيه، وسأله «كل ماذا؟»

«هنا، مايجري أمامك: رجال، نساء، سرطانات، حب»

«إن كل هذا حلم»

قاطعه العجوز ذو اللحية الناصعة البياض، وكان يعدُّ حبات سبحة طويلة من الكهرمان «اذن، يا أولادي الشجعان - احذروا، احذروا لئلا تستيقظوا!»

فُتح الباب الصغير وظهر منه البدوي. تقدم بخطى بطيئة، عيناه متورمتان، ويلعق فمه، وعلى الفور قفز الرجل العجوز الذي كان دوره هو التالي برشاقة فتى قوي في العشرين.

هتف الثلاثة الذين كانت أدوارهم هي التالية: «باي باي أيها الجد. ارحمنا وأنجز عملك بسرعة!»

كان الرجل العجوز قد باشر لتوه بحل حزامه وهو يقترب من الغرفة، فليس ذاك وقت الثرثرة، ثم دخل وصفق الباب من خلفه.

كانوا جميعاً يراقبون البدوي في حسد، ولا يجرؤ أحد على الكلام. شعروا وكأنه يخوض في مياه عميقة في مكان بعيدجداً، والحقيقة هي أنه لم تكن به أي رغبة في الالتفات اليهم. ترنح وهو يجتاز الفناء حتى وصل الى باب الخروج، وكاد يتعثر بمنصب الحيزبون وأخطأه بمقدار جزء من الانش، وأخيراً اختفى داخل الأزقة المتعرجة. عندئذ باشر الرجل السمين الضخم ذو العمامة الخضراء، من باب اعادة لفت انتباههم، بالتحدث، دون مقدمات، عن أسود وبحار، وعن جزر مرجانية نائية.

ومرَّ الوقت. وبين الحين والآخر كانت تُسمع طرطقة حبات السبحة الكهرمانية بطيئة رقيقة، ومن جديد تسمّرت كل العيون على الباب الصغير الواطئ. العجوز تأخر، تأخر كثيراً، في الخروج.

نهض الشاب الهندي منتصباً، فالتفت الآخرون نحوه دهشين. لماذا نهض؟ ألن يتكلم؟ هل ينوي أن يغادر؟... كان سعيداً، متألق الوجه، وقد ضمَّخ وجنتيه تورُّد خفيف. شد وشاح الكشمير حوله بقوة، ووضع يده على قلبه وعلى شفتيه واستأذن بالرحيل، واجتاز ظله بهدوء عتبة الباب.

قال الشاب الذي يربط كاحليه بشريطين ذهبيين «لقد صحا».

حاول أن يضحك، لكن خوفاً غريباً سيطر فجأة عليهم جميعاً، وبدأوا بسرعة متلهفة يناقشون تقدير الربح والخسارة، والأسعار السائدة في أسواق العبيد في الاسكندرية ودمشق. الا أنهم سرعان ما ارتدّوا الى حديثهم السافر عن النساء والغلمان، وأبرزوا ألسنتهم

ولعقوا أفواههم.

غمغم ابن مريم «يا رب، آه يا رب، أين رميت بي؟ أي فناء هذا؟ أي نوع من الرجال أجالس! إن هذا، يا رب، هو أسفل السافلين، امنحني القوة على احتماله!»

كان الحجيج جائعين. هتف أحدهم، فدخلت الحيزبون ووزعت على الرجال الأربعة خبزاً، وسرطانات، وفطائر اللحم الصغيرة، وأحضرت معها ابريقاً من خمر التمر. جلسوا القرفصاء، ووضعوا الوجبة في حجورهم وباشروا بطرطقة أحناكهم. وكان أحدهم في مزاج حسن فرمى بصدفة سرطان كبير الى الباب وصرخ «هيه، أيها الجد، عجِّل، لا تأخذ النهار كله!» وانفجروا جميعاً في قصف من الضحك.

مرة أخرى غمغم ابن مريم قائلاً «رب، آه يا رب، امنحني القوة لأبقى حتى يأتي دوري»

شعر العجوز ذو اللحية المعطَّرة بالشفقة عليه، فالتفت اليه وقال «هيه، أنت، أيها الفتى الطيب، ألست جائعاً أو ظمآن؟ تعال الى هنا وتناول لقمة، سوف تمنحك القوة» أضاف العملاق ذو العمامة الخضراء ضاحكاً «نعم، أيها المسكين ، يجب أن تأكل. عندما سيحين دورك وتدخل لا تريدك أن تلحق العار بنا نحن معشر الرجال»

اشتد احمرار ابن مريم حتى صار قرمزياً، وأطرق رأسه ولم يتكلم.

قال العجوز، وهو ينفض قطعاً من السرطان كانت قد علقت بلحيته «هذا الفتى أيضاً يحلم. نعم، وحق القديس بعلزبوب، هو يحلم. وسوف ينهض الآن كما فعل الآخر وسيرحل. انتظروا وسترون»

تلفت ابن مريم حوله وهو مرتعب. أيمكن أن يكون الهندي النبيل على حق؟ أيمكن أن يكون كل هذا ـ الفناء، والرمان، ومنصب النار، وطائر الحجل، والرجال ـ حلماً؟ لعله مازال جالساً تحت شجرة الأرز، يحلم.

استدار نحو باب الخروج وكأنه يبحث عن نجدة، فرأى رفيقة ترحاله ذات الرأس الشبيه برأس النسر واقفة بلا حراك بجوار شجرة السرو المذكرة مدججة بالبرونز حتى أسنانها. ولأول مرة بث مرآها الارتياح والطمأنينة في نفسه.

خرج العجوز لاهثاً، وولج الضخم ذو العمامة الخضراء. وبعد مرور بضع ساعات جاء دور الشاب ذي العصابتين الذهبيتين حول كاحليه، ثم دور العجوز بالسبحة الكهرمانية. والآن لم يبق غير ابن مريم وحيداً في الفناء، ينتظر.

أوشكت الشمس أن تغيب، وكانت هناك سحابتان تعبران السماء، ثم توقفتا، مثقلتان بحمل من الذهب. وغطت الأشجار والتربة ووجوه الناس طبقة رقيقة من الصقيع الذهبي.

وخرج العجوز ذو السبحة الكهرمانية. توقف برهة على العتبة وراح يمسح عينيه الدامعتين وأنفه الجاري وشفتيه اللتين تنزّان لعاباً. ثم جرّ قدميه محنى الكتفين نحو باب الخروج.

نهض ابن مريم واقفاً واستدار نحو شجرة السرو المذكرة. رفعت مرافقته قدمها استعداداً للحاق به. أراد أن يكلمها، أن يتوسل اليها أن تنتظره في الخارج، أن يخبرها بأنه يرغب في أن يكون وحده، وأنه لن يفر، لكنه كان يعرف أن كلماته ستذهب سدى، فانتظر صامتاً. شد الحزام حول خصره، ثم رفع بصره ونظر الى السماء. تردد في الدخول، لكن صوتاً أجشاً نادى بغضب من داخل الغرفة «هل بقي أحد؟ ادخل!». كان ذاك صوت المجدلية، فاستجمع

كل قواه وتقدم الى الداخل. كان الباب نصف مفتوح، فدخل وهو يرتجف.

كانت المجدلية مستلقية على ظهرها، عارية تماماً، منقوعة بعرقها، وشعرها الأسود الفاحم مبعثر على الوسادة وذراعاها معقودان خلف رأسها. كان وجهها ملتفتاً نحو الجدار وكانت تتثاءب. لقد أنهكها تصارعها مع الرجال على هذا السرير منذ الفجر. كان شعرها وأظافرها وكل انش من جسدها يفرز روائح كل الأمم، وذراعاها وعنقها وثدياها مغطاة بالعض.

أغضى ابن مريم بصره، وهو يقف في منتصف الغرفة، عاجزاً عن التقدم أكثر. انتظرت المجدلية دون أن تأتي بحركة، ووجهها ملتفت نحو الجدار لكنها لم تسمع صوت نخر ذكوري خلفها، ولا من ينزع عنه ملابسه، ولا حتى صوت لهاث. انتابها الخوف، فأدارت وجهها بسرعة لترى ـ وعلى الأثر أطلقت صرخة، وشدت الملاءة وتلفعت بها.

صرخت، وهي تغطي شفتيها وعينيها بكفها «أنت ! أنت!»

قال «سامحيني يا مريم!»

انفجرت المجدلية في نوبة ضحك أجش يفطّر القلب. حتى كنت تحسب أن حبالها الصوتية توشك أن تتقطع الى آلاف القطع.

كرر قائلاً «سامحيني يا مريم!»

ثم قفزت واقفة على ركبتيها وهي متدثرة تماماً بالملاءة، ورفعت قبضة يدها قائلة : ألهذا دخلت الى فناء بيتي، أيها الشاب الشهم؟ ألهذا اختلطت مع عشاقي: لكي تتسلل خلسة الى بيتي وتحضر الرب العابث اليّ هنا في مرتعي؟ حسن، لقد تأخرت يا صديقي، تأخرت كثيراً، أما فيما يخص ربك، فأنا لا أريده ـ لقد سبق له أن حطم قلبي!»

كانت تئن وتتكلم في وقت واحد وصدرها المملوء بالحنق يعلو وينخفض من تحت الملاءة. مرة أخرى أنّت وهي تقول «لقد حطم قلبي»، وصعدت دمعتان الى مقلتيهما وظلتا معلقتين على رموشهما الطويلة.

«لا تكفري يا مريم. أنا الملوم، وليس الرب، ولهذا أتيت : أريد أن تمنحيني غفرانك».

لكن المجدلية انفجرت قائلة «أنت وربك متطابقان، أنتما متشابهان تماماً ولا أستطيع أن أميِّز بينكما. أحياناً يحدث أن أفكر به في الليل، واذا بي - اللعنة على تلك الساعة أرى صورتك تبرز من قلب الظلام، وحين يصدف أن أقابلك في الطريق - واللعنة على تلك الساعة! - أشعر أني ما أزال أرى الرب يندفع مباشرة لينال مني»

ثم رفعت قبضة يدها في الهواء وصرخت «اياك أن تزعجني بالحديث عن الرب، اغرب عن وجهي ولا تدعني أراك ثانية. لم يبق لي غير ملجأ واحد ومصدر سلوى - الوحل! هناك فقط كنيس واحد أدخله لأصلي وأتطهر - انه الوحل!»

«اسمعيني يا مريم، دعيني أتكلم، لا تستسلمي لليأس. ان هذا بالضبط هو ماجئت لأجله، يا أختاه: لأخلصك من الغوص في الطين. لقد ارتكبتُ العديد من الآثام - انني الآن في طريقي الى الصحراء لأكفر عنها - انها كثيرة يا مريم، لكن نكبتك تثقل كاهلي أكثر من أي شيء»

وجهت المجدلية أظافرها الحادة نحو الضيف غير المدعو، بحركة هستيرية، وكأنها تبغي أن تمزق وجنتيه.

زعقت «أي نكبة؟ انني في أحسن حال، أحسن حال، ولا أحتاج الى عطف قداستك! انني أخوض قتالي بنفسي، وحدي، ولا أطلب أي عون من الناس، أو حتى من الآلهة أو الشياطين. انني أقاتل

لأحقق خلاصي، وسأنجح حتماً»

«ممَّ تريدين تخليص نفسك، ممَّن؟»

«ليس، كما تظن، من الوحل، باركه الرب! فهناك تكمن آمالي كلها - في الوحل. انه دربي الى الخلاص»

«الوحل؟»

«نعم، الوحل : العار، الفحش، هذا السرير، جسدي هذا، بكل ماعليه من عض وما يلطخه من لعاب العالم كله، وعرقه وطينه! لا ترمني بنظرتك المشتهية الخجلى هكذا. ابق بعيداً، أيها الجبان! لا أريدك أن تبقى هنا. أنت تثير اشمئزازي، لا تلمسني! انني لكي أنسى رجلاً واحداً، لأخلص نفسي، سلمت جسدي لكل الرجال!»

أطرق ابن مريم رأسه، وعاد يكرر بصوت مخنوق، وهو يقبض على الحزام المربوط حوله، ولا يزال ملطخاً بالدم «انها غلطتي، سامحيني يا أختاه. انها غلطتي، لكني سوف أسدد ديني».

مرة أخرى مزق ضحك وحشي حنجرة المرأة «ها أنت تواصل ثغاءك المثير للشفقة: «انها غلطتي...انها غلطتي يا أختاه... سوف أخلصك...» لكن لا، انك لا تجرؤ على رفع رأسك كرجل وتعترف بالحقيقة. أنت تتوق الى جسدي، وبدل أن تعترف بذلك، وهذا ما لاتجرؤ على فعله، تأخذ بوضع اللوم على روحي وتدّعي أنك تريد أن تخلصها. أي روح، أيها الحالم؟ ان روح المرأة هي لحمها. أنت تعرف ذلك، تعرفه، لكنك لا تملك الشجاعة على ضم هذه الروح بين ذراعيك كرجل وتقبّلها - قبلها وخلصها! انني أشفق عليك وأمقتك!»

هنا هتف الشاب، وقد أصبح لون وجهه أحمر نارياً من احساسه بالخزي «انك ممسوسة بسبعة شياطين أيتها العاهرة. سبعة شياطين. نعم، ان أباك العاثر الحظ على حق»

كانت المجدلية ترتجف، فلملمت شعرها بحركة غاضبة وصنعته على شكل لفّة وربطتها عالياً بشريط من الحرير الأحمر. ظلت فترة طويلة لا تتكلم، لكن شفتيها تحركتا أخيراً: «ليس سبعة شياطين، يا ابن مريم، ليس سبعة شياطين، بل سبعة جروح. إعلم أن المرأة ظبية جريحة، ومتعة تلك المسكينة الوحيدة هي أن تلعق جروحها».

وترغرغت عيناها بالدموع، فمسحتها بحركة واحدة من كفها، ثم انفجرت قائلة بصوت مسعور «لم أتيت الى هنا؟ ماذا تريد مني بوقوفك هكذا بجوار سريري؟ اغرب عني!»

اقترب الشاب منها خطوة واحدة، وقال «مريم، حاولي أن تعودي بذاكرتك الى عهد طفولتنا ...»

«انني لا أذكر شيئاً! أي رجل أنت؟ أما زلت تتفوه بحماقاتك ؟ يجب أن تخجل من نفسك! انك لم تتحل يوماً بالشجاعة لتقف وقفة رجل وترفض الاعتماد على أحد. انك ان لم تكن متشبثاً بأذيال أمك، فأنت تتشبث بأذيالي، أو بأذيال الرب. انك عاجز عن الوقوف وحدك، لأنك خائف. انك لا تجرؤ على الغوص عميقاً في روحك ـ أو في جسدك في هذه الحالة ـ لأنك خائف. وها أنت الآن تهرب الى الصحراء لتختبئ لتغرز أنفك في الرمل ـ لأنك خائف! خائف، خائفُ! انني أمقتك، يا مسكين، وأرثي لحالك، وكلما خطرت على بالي ينفطر قلبي لأجلك»

حين لم يعد بمقدورها أن تتابع بدأت تبكي. وعلى الرغم من أنها كانت تسرع في مسح عينيها، الا أن دموعها كانت تختلط بمساحيق وجهها وتجري بعنف متزايد وتلوث الملاء.

شعر الشاب بتشنج في قلبه. آه لو يتمكن فقط من التخلص من خشيته من الرب، لو يتمكن فقط من ضمها بقوة بين ذراعيه،

من أن يمسح دموعها، ويمسّد على شعرها ويدخل السعادة الى قلبها، ومن ثم يأخذها معه ويرحل!

لو كان رجلاً حقاً، فهذا ماكان عليه أن يفعله. ما شأنها هي بالصيام، وبالصلاة وبالأديرة؟ لا، ليست هذه الأشياء هي الطريق الصحيح ـ كيف يمكن لها أن توفر الخلاص لامرأة؟ أن يبعدها عن هذا السرير، أن يرحلا، ويفتح ورشة في قرية نائية، تعينهما على أن يعيشا معاً زوجاً وزوجة، وينجبا أطفالاً، وأن يعانيا ويبتهجا ككل البشر: هذا هو سبيل الخلاص بالنسبة للمرأة، وخلاص الرجل معها ـ وهو السبيل الوحيد!

كان الليل قد بدأ يخيم. وعلى البُعد دمدم الرعد، وتسرب ومض البرق من خلال شق في الباب فأضاء وجه مريم الذي علاه الشحوب، ثم عاد فأعتمه. الآن بات قصف الرعد مسموعاً، وأقرب من ذي قبل. وانخفضت السماء المختنقة بالغيوم حتى كادت تلمس الأرض.

فجأة تغلب على الشاب احساس عظيم بالارهاق، وتراخت ركبتاه، فجلس القرفصاء على الأرض. صدمت أنفه رائحة قذرة مقززة من مزيج المسك، والعرق، ورائحة التيوس. فأخذ يمسد على حنجرته بكفه لكي لا يتقيّأ.

سمع صوت مريم وسط الظلام يقول له «أدر وجهك الى الناحية الأخرى، أريد أن أنهض لأنير المصباح، فأنا عارية»

قال الشاب برقة «أنا ذاهب»، واستجمع كل مالديه من قوة ونهض واقفاً.

لكن مريم تظاهرت بأنها لم تسمعه وقالت «الق نظرة على الفناء، ان كان مايزال هناك أحد أطلب منه أن يرحل».

فتح الشاب الباب ومد رأسه. كان الظلام قد ساد، وقد تدلّت بضع قطرات كبيرة متفرقة من المطر من أوراق شجرة الرمان،

والسماء معلقة فوق الأرض، مستعدة للسقوط. كانت الحيزبون العجوز قد حطمت منصب النار المشتعل وحفرت في الفناء ووضعته فيها، وظلت واقفة مسمَّرة الى جذع شجرة السرو المذكرة. وبدأت القطرات الثقيلة تهطل أغزر فأغزر.

قال الشاب «لا أحد»، وأسرع باغلاق الباب. وكانت الريح المصحوبة بالمطر قد أضحت تلسع بكل قوتها.

في تلك الأثناء قفزت المجدلية عن سريرها وتدثرت بوشاح صوفي دافئ مطرز برسوم الأسود والغزلان، قدَّمه لها في ذاك الصباح عاشق أثيوبي. وارتعش كتفاها ووركاها بهجة من لذة دفء الملابس. تمطّت على رؤوس أصابع قدميها، وأنزلت المصباح عن الجدار.

كرر الشاب، وفي صوته رنة سعادة «لا أحد»

«والعجوز؟»

«جالسة تحت شجرة السرو. الجو عاصف تماماً»

هرعت مريم الى الفناء، وحين عثرت على مكان منصب النار اقتربت.

قالت، وهي تشير الى رتاج باب الدار الخارجي «أيتها الجدة نعمي، احملي منصبك وسرطاناتك واذهبي الى دارك. سأغلق البوابة. لم يعد هناك أحد هذه الليلة!»

قالت العجوز بصوت هاسّ «عشيقك في الداخل، هه؟»، وقد اغتاظت لأنها خسرت زبائن الليل.

أجابتها المجدلية «نعم، هو في الداخل. ارحلي!»

نهضت العجوز واقفة، وهي تدمدم متذمرة، وجمعت أغراضها. غمغمت بصوت خافت عبر لثتها الدرداء «صاحبك الرث ذاك جميل حقاً»، لكن مريم التي كانت في عجلة من أمرها دفعتها الى

الخارج وأرتجت الباب. فتحت السموات محابسها، واذا بالفضاء يسكب غيثه فيوضاً على فنائها. أطلقت صرخة فرح حادة، تماماً كما كانت تفعل وهي طفلة كلما رأت فاتحة أمطار الخريف. وحين ولجت الى الداخل كان وشاحها قد تشبَّع بالماء.

وقف الشاب في وسط الغرفة، عاجزاً عن اتخاذ قرار بشأن البقاء أم الرحيل. أيهما يمثل ارادة الرب؟ المكان هنا مريح، ودافئ، حتى أنه أخذ يعتاد على العبق المثير للتقزز. أما في الخارج : فريح، ومطر، وبرد. انه لا يعرف أحداً في مجدلة، وكفر ناحوم مازالت بعيدة جداً. فهل يرحل أم يبقى؟ وترددت روحه جيئة وذهاباً كناقوس يقرع.

قالت «المطر ينهمر غزيراً يا يسوع. أراهن على أنك لم تذق شيئاً من الطعام طوال النهار. ساعدني في اضرام النار لنطبخ». كان صوتها رقيقياً وملاطفاً، كصوت أم.

قال الشاب، وهو يستدير نحو الباب «أنا راحل».

أمرته المجدلية «اجلس سنتناول الطعام معاً! هل تثير الفكرة في نفسك التقزز؟ أتخشى أن تتدنس جراء مشاركة عاهرة الطعام؟»

تناول الشاب بعض أزناد الخشب وضرماً من الركن، وانحنى عند العضادة الحجرية للموقد، أمام المنصبين، وأشعل النار.

هدأ اضطراب قلبها، وأخذت تملأ القدر بالماء، وهي تبتسم الآن، ووضعته على النار. ثم تناولت من كيس معلق على الجدار ملء قبضتين مفعمتين من حبوب الفاصولياء العريضة المنزوعة النقار ورمتها فيه، ثم ركعت أمام النار المضرمة وأرهفت سمعها. وفي الخارج كانت محابس فيوض السماء قد فتحت واسعاً.

قالت بهدوء «لقد سألتني يا يسوع إن كنتُ أذكر عهد طفولتنا ولعبنا معاً...»

لكن الشاب اكتفى، وهو راكع مثل المجدلية أمام الموقد، بالتحديق في النار، وعقله شارد بعيداً. شعر وكأنه قد وصل فعلاً الى الدير وسط الصحراء، وكأنه قد ارتدى الثوب الأبيض وبدأ يتنزه في عزلته، كان قلبه أشبه بسمكة ذهبية صغيرة سعيدة تسبح في سكينة أعماق الرب. في الخارج كان العالم يتهاوى، وداخله كان السلام، والحب والأمان.

كرر الصوت المجاور له «لقد سألتني يا يسوع إن كنت أذكر أيام طفولتنا ولعبنا معاً...»

توقَّد وجه المجدلية، عاكساً ضياء اللهب، وكأنه قضيب حام من الحديد. لكن الشاب، الغارق في رؤيا الصحراء، لم يسمعها.

مرة أخرى قالت المرأة «كنتَ يا يسوع في الثالثة من عمرك وكنت أكبر منك بسنة. وكانت هناك ثلاثة درجات تؤدي الى باب بيتنا، فأجلس على الدرجة العليا وأراقبك وأنت تجاهد طويلاً، لا تقدر على ارتقاء الدرجة الأولى، فتقع، وتعود فتنهض، دون أن أحرِّك ساكناً لمساعدتك. كنتُ أريدكَ أن تأتي اليَّ، ولكن ليس قبل أن تعاني الأمرِّين... أتذكر؟»

كان ثمة شيطان، أحد شياطينها السبعة، يحثها على التحدث الى الرجل وعلى إغرائه.

«وبعد فترة طويلة تنجح أخيراً في ارتقاء الدرجة الأولى، ومن ثم تبدأ بالجهاد لارتقاء الثانية، ومن ثم الثالثة - حيث أجلس أنا، بلا حراك، أنتظركَ. عندئذ -»

انتفض الشاب ومد يده، وصرخ «اصمتي، لا تزيدي!»

لكن وجه المرأة شع وومض، ولعق اللهب حاجبيها، وشفتيها، وذقنها ونحرها العاري. تناولت حفنة من أوراق الغار، ورمتها في النار، وأطلقت تنهيدة.

«ثم أمسكت بيدي ـ نعم، أمسكت بيدي يا يسوع ـ ومن ثم ولجنا الى الداخل واستلقينا على حصباء الفناء. وألصقنا أخمصي أقدامنا بعضها الى بعض، واستشعرنا دفء جسدينا يمتزج معاً، يتصاعد من أقدامنا الى أفخاذنا، ومن أفخاذنا الى عورتنا، ومن ثم نغمض عيوننا و ـ «صرخ الشاب مرة أخرى «اصمتي!»، ورفع يده ليغطي بها فمها، لكنه أحجم ـ كان يخشى أن يلمس شفتيها.

هنا تنهدت المرأة، وتابعت كلامها وقد أخفضت صوتها الى مرتبة الغمغمة «لم أشعر في كل حياتي بمثل تلك العذوبة». وصمتت، ومن ثم قالت «تلك العذوبة يا يسوع هي التي أبحث عنها منذ ذلك الوقت وأنا أنتقل من رجل الى رجل، لكني لم أعثر عليها»

دفن الشاب وجهه بين ركبتيه، وتمتم «أدوناي، أدوناي، ساعدني!»

كان الصمت يلف الغرفة الساكنة الدافئة، لا يسمع فيها غير بقبقة قدر الفاصولياء ذي الرائحة الذكية، وهسيس النار وهي تلتهم الخشب. في الخارج، كانت المياه المذكرة تنهمر من السماوات بهدير والأرض تفتح مابين فخذيها وتقهقه.

سألته المجدلية، دون أن تجرؤ على مواجهته «بماذا تفكر يا يسوع؟»

أجاب بصوت مختنق «أفكر بالرب، بالرب، أدوناي...»

بعد أن تكلّم ندم لأنه تلفظ بالاسم المقدس في منزل كهذا...

قفزت المجدلية واقفة وراحت تقطع المسافة بين الموقد والباب جيئة وذهاباً، وعقلها يغلي حنقاً.

كانت تقول في نفسها، الرب هو العدو الأكبر، نعم، الرب. إنه لا يكف عن التدخّل، إنه شرير، غيور، لا يدع أحداً يسعد. توقفت خلف الباب وأرهفت سمعها. كانت السماء تجأر، وقد ارتفعت ريح دواميَّة وراحت رمانات الفناء تتلاطم معاً وأوشكت أن تتكسر.

قالت «لقد توقف هطول المطر قليلاً».

أجابها الشاب وهو ينهض واقفاً «سأرحل»

«كُل أولاً وزوِّد جسمك ببعض الطاقة. إلى أين ستذهب في مثل هذه الساعة؟ الظلمة حالكة في الخارج ومازالت تمطر»

أنزلت حصيراً مستديراً عن الجدار وفرشته على الأرض. ثم رفعت الكسرولة عن النار، وفتحت خزانة صغيرة داخل تجويف في الجدار وأخرجت منها رغيف شعير محمَّصاً وطبقين من الخزف للحساء.

قالت «هذه هي وجبة المومس. كُل، يا جوهر التقوى، كُل إن كانت لا تثير التقزز في نفسك».

لم يتردد الشاب الجائع في مد يده. وأخذت المرأة تضحك ضحكاً مكبوتاً.

قالت بصوت رفيع «أهكذا تأكل؟ دون أن تتلو صلاة المائدة؟ أما ينبغي أن تقدِّم الشكر للرب لأنه يمنح الخبز، والفاصولياء العريضة والعاهرات؟»

علقت لقمة يسوع في حلقه.

قال «لماذا تكرهينني يا مريم؟ لماذا تضايقينني؟ أنظري، ها أنا أوشك أن أتقاسم الخبز معك، هاقد عُدنا أصدقاء. فلندع الماضي للماضي، وسامحيني. لهذا ترينني أتيت»

«كُل، وكفاك نحيباً. إذا لم تُمنَح الغفران، انتزعه! أنت رجل»

رفعت يدها وكسرت الخبز، وهي تضحك «مباركٌ اسم الذي يبعث الخبز، والفاصولياء العريضة والعاهرات الى العالم - والضيوف الورعين!»

ظلا راكعين متقابلين تحت ضوء المصباح، دون أن يزيدا أي كلمة أخرى.كلاهما كان جائعاً، وكلاهما كان قد أصابه الكثير من

الألم في ذاك النهار، فأكلا ليرمما قواهما.

بدأ المطر في الخارج يخف. كانت السماء قد فرَّجت عن نفسها، والأرض امتلأت. ولم يكن يسمع أي صوت غير غرغرة ضحكات الجداول التي تجري فرحة على طرقات القرية المرصوفة بالحصى.

فرغا من تناول الطعام. وكانت الخزانة الصغيرة تحتوي أيضاً على رشفة من الخمر فشرباها، وعلى عدة حبات ناضجة تماماً من التمر تناولاها كحلوى. لزما الصمت بعض الوقت ومكثا يراقبان النار التي كانت توشك أن تخمد. وكان تفكيرهما يعلو وينخفض ويرقص مع النار الخابية.

كان الجو بارداً. نهض الشاب الواقف ووضع مزيداً من الحطب على النار، وتناولت المجدلية حفنة أخرى من أوراق الغار ورمتها فيها : ملأ العبق الغرفة. ثم توجهت الى الباب وفتحته؛ كانت الريح قد زادت من سرعتها، وتبددت الغيوم، وفوق الفناء تلألأت نجمتان بقوة، وقد اغتسلتا حديثاً وأصبحتا نظيفتين.

سألها الشاب الذي عاد فوقف في منتصف الغرفة، عاجزاً عن اتخاذ قرار «أما تزال تمطر؟»

لم تَحِرْ المجدلية بجواب، لفّت الحصير وتوجهت الى صندوقها، وأخرجت منه ملاءاً وبطانيات صوفية ـ هي هدايا من عشاقها ـ وصنعت سريراً أمام الموقد.

قالت «ستنام هنا. الجو بارد والريح شديدة في الخارج، وكاد الليل أن ينتصف. الى أين يمكن أن تذهب؟ سوف تموت من البرد. هنا سيكون منامك : بجوار النار»

أصابت الرجفة الشاب «هنا؟»

«أأنت خائف؟ حسن، اطمئن يا حمامتي البريئة، لن أضايقك.

لا، لن أغـويك، لن أمس عـذريتك، يا طفلي المدلل ـ وكـأن الأمـرَ يستأهل!»

عـزَّزت النـار بمزيد من الحطب وأنزلت فـتـيل المصبـاح. قـالت «أحلاماً سعيدة. غداً لدينا أنت وأنا عمل كثير نقوم به. أنت ستنطلق من جـديد لتـواصل مـسـيـرك الطويل، تبـحث عن خـلاصك، وأنا سأمشي في طريق أخرى، طريقي الخاصة، وأنا بدوري سأبحث عن الخلاص. لكل طريقه ولن نتقابل مرة أخرى. نوماً هانئاً»

ارتمت على حشيتها ودفنت رأسها في الوسادة، وأمضت الليل بطوله وهي تعضُّ على الملاء لتكبتَ صـراخـهـا ودمـوعـهـا. كـانت تخشى أن يسمعها الرجل النائم بجوار النار، فيخاف ويرحل. كانت طوال الليل تنصت اليـه يتنفس بهـدوء، وارتيـاح، كطفل يرضع من ثدي، وهي تنوح في دخيلتها بصوت خفيض، وتزفر تنهدًات رقيقة مطوّلة، يقظة تهدهدهُ لينام كأنها أمه.

في فجـر اليوم التالي أرسلت بصرها من خلال عـينين نصف مـغـمـضـتين فـوجـدته ينهض، ويشـد النطاق الجلدي باحكام حـول خـصـره، ثم يفـتح البـاب. وهنـاك توقف. كـان يريد أن يـرحل، وفي الوقت نفسـه لا يريد أيضـاً. التـفت، والقى نظرة على السـرير ثم خطا خطوة مترددة باتجاهه. مال عليه ـ لم يكن الضوء قوياً كثيـراً داخل الغرفة ـ مال وكأنه يرغب في أن يجد المرأة ويلمسها. كانت يده اليسـرى مدسوسة تحت النطاق، وكان يغطي بيده اليمنى فمه وذقنه.

ظلت المرأة مستلقية على ظهرها، لا تأتي بحركة، وشعـرها يستـر ثدييها العـاريين. راقبتـه من بين رموشـهـا، وجسدها كله يرتجف.

حرَّك شفتيه : «مريم...»

لكنه حالما سمع صوته تملكه الرعب، وبوثبة واحدة وصل الى عتبة الدار، وراح يقطع أرض الفناء على عجل ورفع رتاج البوابة.

عندئذ بدأت مريم المجدلية - التي انتزعت نفسها من فراشها ورمت عنها الملاء - تبكي.

الفصل الثامن

كان الدير قابعاً وسط الصحراء بعد بحيرة جنيسارت، مبنياً من حجارة بلون الرماد الأحمر ومحشوراً كالاسفين ومستتراً بين صخور ضخمة بلون الرماد الأحمر. الوقت منتصف الليل... والسماء تسكب ماءها، ليس على شكل قطرات، ولكن فيوضاً. الضباع والذئاب وأبناء آوى تعوي، وزأر أسدان عن بُعد ـ وقد أثارها قصف الرعود المتكرر. كان الدير الغارق في ظُلمة لا ينفذ خلالها بصر يتعرض باستمرار لسياط وميض البرق : وكأن رب سيناء يؤنبه بقسوة. وكان الرهبان منبطحين في صوامعهم، يتضرعون لأدوناي لكي لا يُغرق الأرض مرة أخرى. ألم يقطع لنوح الأب الجليل وعداً بذلك؟ ألم يمد قوس قزح من الأرض الى السماء دلالة على الصداقة؟

الضوء الوحيد كان يصدر من صومعة رئيس الدير. فقد كان يواكيم، رئيس الدير، جالساً تحت الشمعدان ذي السبعة فروع على كرسيه الكهنوتي المرتفع المصنوع من خشب السرو ينصت ـ وهو النحيل، القصير الأنفاس، ولحيته البيضاء أشبه بنهر جار، ومعقود

الذراعين ومغمض العينين ـ ينصت الى يوحنا، الراهب الشاب المبتدئ، الذي كان واقفاً عند المقرأ يتلو عليه من سفر النبي دانيال:

« (كنت أرى في رؤياي ليلاً واذا بأربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير. وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة هذا مخالف ذاك. الأول كالأسد وله جناحا نسر. وكنت أنظر حتى انتتف جناحاه وانتصب على الأرض وأوقف على رجلين كانسان وأعطي قلب انسان. واذا بحيوان آخر ثان شبيه بالدب فارتفع على جنب واحد وفي فمه ثلاث أضلع بين أسنانه فقالوا له هكذا. قُم كُل لحماً كثيراً. وبعد هذا كنت أرى واذا بآخر مثل النمر وله على ظهره أربعة أجنحة طائر. وكان للحيوان أربعة رؤوس وأعطي سلطاناً ...)»(١)

شعر الراهب المبتدئ بالانزعاج فكفَّ عن القراءة، فلم يعد يسمع رئيس الدير يتنهد أو يغرز أظافره من الاثارة في الكرسي، حتى أنه لم يُعد يسمع صوت تنفسه. أيكون قد مات؟ لقد مرت حتى الآن أيام طويلة وهو يرفض أن يضع في فمه أي شيء من الطعام. كان غاضباً من الرب وكان يتمنى الموت. أراد أن يموت ـ وهذا ماصرَّح به بوضوح للأخوة ـ فلعل روحه تتخفف من عبء الجسد ، ترتاح من هذا الثقل وتتمكن من السمو الى السماء لتجد الرب. كان يتحرق ليستقر دمعه: كان ضرورياً بالنسبة له أن يراه ويحدثه. لكن الجسد كان ثقيلاً كالرصاص، ومنعه من السمو. لذا قرر أن يأمره بالانصراف، أن يُودِعه القبر لكي يتمكن يواكيم الحقيقي من السمو الى السماء ليحكي للرب عن أساه. هذا هو واجبه. أليس هو أحد آباء بني اسرائيل؟ إن للناس أفواهاً، ولكن ليس لديهم أصوات. إنهم لا يستطيعون أن يَمْثُلوا أمام الرب ويحكوا له عن آلامهم. أما يواكيم فيستطيع، ولا خيار أمامه!

---

١ ـ سفر دانيال، الأصحاح السابع/ ٢ ـ ٦.

التفت الراهب المبتدئ ونظر. فرأى تحت الشعلات السبع رأس رئيس الدير، منقوراً كخشب عتيق أكلته الديدان، مخشوشناً من طول تعرُّضه للشمس والصيام: ما أشبهه بالجماجم البدائية التي غسلها المطر للوحوش التي تقابلها أحياناً القوافل في الصحراء! كم من رؤيا وردت على ذاك الرأس، وكم من مرة فُتِحَت له أبواب السماء، وكم من مرة تكشَّفت له أغوار جهنم! إن عقله أشبه بسُلّم يعقوب[1] ترتقيه كل هموم بني اسرائيل وآمالهم وتهبط منه.

فتح رئيس الدير عينيه فرأى الراهب المبتدئ واقفاً أمامه، يعلوه، شحوب الموت، وعلى ضوء الشمعدان السباعي الفروع توهج الزغب الأشقر الذي يغطي وجنتيه بكل مافيه من عذرية، وامتلأت عيناه، اللتان سرّحهما بعيداً في المدى، بالحب.

رقّت ملامح رئيس الدير القاسية. كان يحب هذا الشاب الحسن التكوين الذي انتزعه من زبدى العجوز، والده، وجلبه الى هنا ليرفعه الى الرب. كان يحب فيه طاعته، شدته، وشفتيه الصامتتين، وعينيه النهمتين، عذوبته وسرعة بديهته. وكان يقول في نفسه: إن هذا الفتى يتحدث ذات يوم مع الرب، سوف يفعل ماعجزتُ أنا عن فعله، والجُرحان المحفوران على كتفي سوف يحوِّلهما الى جناحين. إنني لم أسمُ الى السماء خلال فترة حياتي، أما هو فسيفعل في حياته.

كان الفتى قد قَدِمَ الى الدير ذات مرة مع والديه، وذلك للاحتفال بعيد الفصح. ولما كان رئيس الدير على صلة قرابة بعيدة مع عائلة زبدى العجوز فقد استقبلهم هاشاً وأجلسهم على مائدته

---

١ ـ سلّم يعقوب : ورد ذكره في العهد القديم (سفر التكوين : ١٢/٢٨ ـ ١٧). رآه يعقوب في منامه، ويؤدي الى السماء.

الخاصة. وكان يوحنا عندئذ في السادسة عشرة من عمره. وبينما كان يأكل، وقد مال فوق طعامه ، شعر بنظر رئيس الدير مسلطاً على فروة رأسه،

يزيح العظام جانباً، وينفذ خلال خطوط درز جمجمته الى مخه. رفع بصره، وقد انتابه الرعب، فتلاقت أنظارهما في منتصف المسافة عبر مائدة احتفال الفصح. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً لم تعد قوارب صيد السمك ولا بحيرة جنيسارت تكفي الفتى. أصبح يكثر من اطلاق التنهدات وذوى جسمه حتى وصل القلق بالعجوز زبدى الى حد جعله يصرخ به «أنت لم تعد تفكر بالصيد، بل بالرب. اذهب، اذن، اذهب الى الدير. لدي ولدان، وقد شاء الرب أن أتقاسمهما معه، فلنُجرِ القسمة وننتهِ - وليكن ما يشاء!»

حدق رئيس الدير بالفتى الماثل أمامه.كان قد قرر أن يعنِّفه، ولكن حين نظر اليه، رقَّت قسماته. سأله «لماذا توقفتَ ، يا ولدي؟ لقد قطعتَ الرؤيا من منتصفها. لا يجوز أن تفعل ذلك. إنه نبي، ويجب توقير الأنبياء»

اصطبغ وجه الفتى بحمرة قانية، وفتح اللفيفة الجلدية ومدَّها على المِقرأ مرة ثانية، وباشر من جديد يقرأ مرتلاً بنبرة صوت لا تتغير «(بعد هذا كنتُ أرى في رؤى الليل واذا بحيوان رابع هائل وقوي شديد جداً وله أسنان من حديد كبيرة. أكل وسحق وداس الباقي برجليه. وكان مخالفاً لكل الحيوانات الذين قبله. وله عشرة قرون...»)(١).

صرخ رئيس الدير «توقف! يكفي هذا!

١- سفر دانيال : الاصحاح السابع/ ٧.

أفزعت الصرخة الفتى، فسقطت اللفيفة المقدسة على بلاط الأرض فرفعها، ووضعها على شفتيه وقبّلها، ومن ثم ذهب ووقف عند الزاوية، ونظره مُثَبَّت على رئيسه. وأخذ رئيس الدير يهتف، وقد تشبَّثت أظافر يديه بالكرسي الكهنوتي «يا دانيال، لقد تحققت كل نبوءاتك. الحيوانات الأربعة داست علينا، والأسد المجنَّح بجناحيّ نسر انقضّ علينا ومزَّقنا، والدب الذي اقتات على اللحم العبراني جاء وأكلنا، والنمر ذو الرؤوس الأربعة جاء ومزّقنا أشتاتاً، شرقاً، وغرباً، وشمالاً، وجنوباً. والحيوان المخزي ذو الأسنان الحديدية والقرون العشرة يجثم علينا : إنه لم يأت بعد، ولم يفر. ان نبوءتك بالخزي والخوف اللذين سيحلان بنا قد تحققت يا رب ـ فشكراً لك ! لكنك تنبأت أيضاً بالطيبات. فلِمَ لم ترسلها الينا؟ لِمَ أنت قابضُ اليد كثيراً حين يتعلق الأمر بها؟ لقد زوَّدتنا بقدر واسع من المصائب، فكن كريماً معنا الآن في خيراتك أين هو ابن الانسان الذي وعدتنا ؟... يوحنا، اقرأ!»

خرج الفتى من الركن الذي كان واقفاً فيه واللفيفة تحت قميصه. اقترب من المِقرأ وباشر القراءة من جديد. لكن صوته كان قد غدا كصوت رئيسه ضارياً.

«(كنتُ أرى في رؤى الليل واذا مع سحب السماء مثل ابن الانسان أتى وجاء الى القديم الأيام فقربوه قدامه، فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبَّد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته مالا ينقرض)»[1]

لم يعد بامكان رئيس الدير أن يكبح نفسه أكثر من ذلك، فترك كرسيه الكهنوتي، وخطا خطوة، ثم أخرى، حتى وصل الى المقرأ

---

١ ـ سفر دانيال : ٧/ ١٣ ـ ١٤.

وزلت قدمه وكاد يقع، لكنه نجح في الاتكاء بباطن يده بقوة على المخطوط المقدس وثبَّت نفسه.

«أين ابن الانسان الذي وعدتنا؟ أكان ذلك وعداً منك أم لا؟ لا يمكنك أن تنكره هاهو مكتوب!»، وضرب بيده بقوة وغضب، وجذل، على النبوءة، «هاهي هنا مكتوبة! يوحنا، أعد قراءتها!»

لكن رئيس الدير لم يصبر على الانتظار، وقبل أن يتاح الوقت للراهب المبتدئ للبدء كان قد قبض على المخطوط ، ورفعه عالياً في وجه الضوء وأخذ يقرأ بصوت عال، بنبرة انتصار، ودون أن ينظر فيه «(فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً، لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي مالن يزول وملكوته مالا ينقرض»)

ترك اللفيفة مفتوحة على المقرأ ونظر عبر النافذة الى الظلمة في الخارج.

وصرخ وهو يحدق في الظلمة «فأين هو ابن الانسان؟ انه لم يعد يخصّك، بما أنك وعدتنا به ـ إنه ملكنا ! فأين هو؟ لماذا لم تعطه سلطاناً ومجداً وملكوتاً حتى يتمكن شعبك، شعب اسرائيل من حكم العالم كله؟ لقد تيبَّست أعناقنا من طول مراقبة السماء وانتظارها لتفتح أبوابها. فمتى، متى؟ نعم ـ لماذا تضرب على هذا الوتر ـ أنت تدرك جيداً أن ثانية واحدة بالنسبة لك هي آلاف السنين بالنسبة للبشر، حسن، ولكن لو كنتَ عادلاً يا رب لقستَ الزمن بمقياس البشر، وليس بمقياسك . هذه هي العدالة!»

وهمَّ بالتوجه الى النافذة، لكن ركبتيه وهنتا فتوقف ومدَّ يديه وكأنما أراد أن يتمسك بالهواء. وهرع الصبي لمساعدته، لكن رئيس الدير غضب وأومأ له بأن لا يلمسه. ثم استجمع كل مالديه من قوة حتى وصل الى النافذة ، واستند الى الجدار، ومد عنقه قدر

ماستطاع ونظر الى الخارج. ظلام... قلّ ومض البرق الآن، لكن السيول ماتزال تتهمر على الصخور التي تطوّق الدير. وفي كل مرة كانت نباتات الصبار تُضاء بومض البرق كانت تبدو وكأنها تدور ثم تتحول: تصبح عشيرة من المعاقين أذرعها المقطوعة المجذومة مرفوعة نحو السماء.

راح رئيس الدير ينصت، مشدود الجسم والروح. وعن بعد تناهى اليه عواء اللُعب الضاري الدائر في الصحراء. لم تكن الحيوانات جائعة، بل خائفة. فبالقرب منها، فوقها تقريباً، ثمة وحش متدثر بالنار وجأرت دوامة ريح واقتربت تشق الظلام.كان رئيس الدير ينصت الى أصوات الصحراء وبينما هو يفعل ذلك ارتعش فجأة والتفت. ثمة مخلوق خفي دخل صومعته! أمعن النظر. كانت الشعلات السبع للشمعدان تخفق باضطراب وتكاد تنطفئ، والأوتار التسعة للقيثارة، التي كانت موضوعة في الزاوية دون استعمال، تهتز بعنف وكأن يداً خفية شدّتها بغضب وتنوي أن تقطعها. وبدأ رئيس الدير يرتجف.

قال بصوت خفيض، وهو ينظر حوله «يوحنا، تعال الى هنا، اقترب مني»

أسرع الفتى بالخروج من زاويته واقترب.

قال «لبيك يا أبتِ»، ووضع ركبتيه على الأرض، استعداداً للسجود.

«اذهب يا يوحنا واستدع الرهبان. لديَّ ما أخبرهم به قبل أن أرحل»

«قبل أن ترحل يا أبت؟»

أخذ الفتى يرتعش. فقد رأى جناحين أسودين كبيرين يخفقان على ظهر العجوز.

قال رئيس الدير «أنا راحل»، وقد بدا صوته فجأة كأنه آتٍ من الضفة الأخرى، «أنا راحل! ألم ترَ الشعلات السبع تتمايل وتبتعد عن فتيلها؟ ألم تسمع الأوتار التسعة للقيثارة تهتز بجنون، وتكاد تتقطع؟ أنا راحل يا يوحنا. عجِّل واستدع الرهبان. أريد أن أتحدث اليهم»

أخفض الفتى رأسه وابتعد. وظل رئيس الدير واقفاً وسط الصومعة تحت الشمعدان السباعي الفروع. أخيراً صار وحيداً مع الرب: بات بوسعه أن يُصرِّح بما يدور في خَلَدِه بحرية، دون أن يخشى أن يسمعه أحد. فرفع رأسه بهدوء كان يعرف أن الرب واقف أمامه.

قال له «أنا قادم، أنا قادم. لماذا دخلت صومعتي، لماذا تحاول أن تُطفئ النور، وأن تهشِّم القيثارة وتأسرني؟ أنا قادم، ليس فقط تلبية لارادتك، وانما لارادتي أنا. أنا قادم، حاملاً بيدي اللوائح التي تتضمن شكاوى الناس مكتوبة. أريد أن أراك وأن أكلمك. أعرف أنك لا تسمع أو هكذا تتظاهر، لكني سأدق بقوة على بابك حتى تفتحه، واذا لم تفتح (لا أحد هنا الآن ليسمعني، لذا سأتكلم بحرية). اذا لم تفتح لي بابك، سأحطمه! أنت عنيف، وتحب العنيفين - فوحدهم تدعوهم أبناءك. لقد كنا حتى الآن نبكي، ونسجد ونقول: فلتكنْ إرادتك! ولكن لا يمكننا أن نظل هكذا الى الأبد يا رب، الى متى سننتظر؟ أنت عنيف، وتحب العنيفين - وسوف نصبح عنيفين. فلتكن ارادتنا الآن - ارادتنا نحن!»

بينما كان رئيس الدير يتكلم ظل يصيخ سمعه لكي يتمكن من سماع كل مايصدر عن الهواء. لكن هطول المطر كان قد خفَّ، تراجع الرعد داخل المدى - إذ خَفَتَ صوتُ القصف وأصبح يأتي من الشرق، من البعيد عبر الصحراء. وكانت الشعلات السبع تحترق بثبات فوق رأس العجوز الأبيض.

انتظر رئيس الدير يلفُّه الصمت. انتظر وقتاً طويلاً اللهب كي يعود فيهتز، والقيثارة كي ترتعش أوتارها مرة أخرى خوفاً... لاشيء! هز رأسه. غمغم «إن جسد الانسان ملعون، الجسد هو الذي يتدخل دائماً ويرفض أن يدع الروح ترى وتسمع اللامرئي. اقتلني يا رب، أريد أن أكون قادراً على المثول بين يديك متحرراً من جدار الجسد الفاصل ، حتى أسمعك حين تكلمني!»

في تلك الأثناء فتح باب الصومعة دون ضجيج، وملأ الرهبان اليقظين في غير أوانهم المكان، بأرديتهم البيضاء. وقفوا عند الجدار كعدد كبير من الأشباح، وانتظروا. كانوا قد سمعوا كلمات رئيس الدير الأخيرة، وعلقت أنفاسهم في حناجرهم. كانوا يقولون لأنفسهم، إنه يكلم الرب، إنه يوبِّخ الرب: الآن ستضربهم الصاعقة! فوقفوا ملتصقين بالجدار، يرتجفون.

أرسل رئيس الدير بصره في المدى البعيد. كانت عيناه في مكان آخر، فلم تريا شيئاً. اقتربَ الراهب المبتدئ منه وسجد.

قال «لقدجاؤوا يا أبت». تكلم بصوت خافت، حتى لا يفزعه.

سمع رئيس الدير صوت تابعه، فالتفت ورأى الآخرين. تحرك من مكانه في وسط الصومعة، بخطى منتظمة، بطيئة، ناصباً جسده المريض قدر استطاعته. وصل الى كرسيه الكهنوتي، وارتقى المقعد المنخفض الموضوع أمامه، ثم توقف. انحلَّت التميمة التي تحتوي على حِكَمْ مقدسة عن مكانها حول ذراعه، فاندفع الراهب المبتدئ الى الأمام بسرعة في التوقيت المناسب لكي يُحكِم ربطها وذلك قبل أن تتلوث بلمس الأرض التي تسير عليها البشر. مد رئيس الدير يده وقبض على صولجانه ذي المقبض العاجي الذي كان بجوار الكرسي الكهنوتي، وحين استعاد قواه، رفع رأسه بشموخ ومرَّ ببصره على الرهبان الذين كانوا يقفون صفاً واحداً عند الجدار.

قال «يا أخوتي ، لدي بعض الكلمات أقولها لكم ـ وهي الأخيرة. افتحوا آذانكم ، واذا كان بينكم ناعس، فليغادر! إن ما سأقوله صعب. يجب أن تستيقظ كل آمالكم ومخاوفكم وأن تنتصب آذانكم استعداداً لاعطائي جواب!»

قال الأب حبَّقوق، وهو أكبر أعضاء بطانة رئيس الدير سناً «إننا منصتون، أيها الرئيس المقدس»، ثم وضع يده على قلبه.

«هاكم آخر كلماتي يا أخوتي. بما أنكم جميعاً أغبياء فسأكلمكم بلغة الأماثيل»

كرر الأب حبقوق قائلاً «إننا منصتون أيها الرئيس المقدس»

أطرق الرئيس رأسه وقال بصوت خفيض «أولاً جاء الجناحان ثم الملاك!»

سكت، ونظر الى الرهبان واحداً بعد الآخر، ثم هز رأسه. قال «يا أخوتي، لماذا تحدقون بي هكذا، فاغرى الأفواه؟ أيها الأب حبقوق، أراك رفعت يدك وتحركت شفتاك، ألديك اعتراض؟»

وضع الراهب يده على قلبه وقال «لقد قُلتَ (أولاً جاء الجناحان ومن ثم الملاك). إننا لم نصادف هذه الكلمات في التوراة أيها الرئيس المقدس»

«كيف كان يمكنك أن تصادفها أيها الأب حبقوق؟ واحسرتاه! إن عقولكم مازالت مُعتمة. إنكم تنظرون في أقوال الأنبياء فلا ترون غير الأحرف، ولكن ماذا بوسع الحروف أن تقوله؟ إنها قضبان السجن الذي تختنق الروح داخله من طول الصراخ. إن الروح تتنقل بحرية بين الحروف والأسطر، وفي أرجاء الهوامش الخالية، وأتنقَّل أنا معها لأحضر لكم هذه الرسالة العظيمة: يا أخوتي، أولاً جاء الجناحان ومن ثم جاء الملاك!»

عاد الأب حبقوق ففغر فاه. قال «إن عقولنا، أيها الرئيس

المقدس، مصابيح انطفأت. أضئها لكي ندخل الى عمق الأمثولة، ونبصر»

«في البدء، أيها الأب حبقوق ، كان التوق الى الحرية. الحرية لا توجد، ولكن، فجأة، وسط أغوار العبودية، يحرك رجل يديه المغلولتين بسرعة، وعنف ـ وكأنهما جناحان، ومن ثم رجل آخر، فآخر. وأخيراً الناس جميعاً»

وتعالت أصوات متسائلة بحبور : «تقصد شعب اسرائيل؟»

«نعم، يا أخوتي، شعب اسرائيل! هذه هي اللحظة العظمى الرهيبة التي نعيشها الآن. لقد أصبح التوق للحرية ضارياً، والأجنحة تخفق بعنف، إن المخلص قادم! نعم، يا اخوتي، المخلّص قادم، لأن... انتظروا ـممّ، حسب ظنّكم، خُلق ملاك الحرية هذا؟ أمن عطف الرب واحسانه؟ أم من حبه؟ أم من عدالته؟ لا، هذا الملاك خُلق من صبر وعناد وكفاح الجنس البشري!»

غامر حبقوق العجوز بالاعتراض قائلاً «إنك ترمي بالتزام عظيم ، بعبء لا يُحتمل، على كاهل الانسان، أيها الرئيس المقدس. أتثق به الى هذا الحد؟»

لكن رئيس الدير تجاهل الاعتراض . لقد كان تفكيره منصبّاً على المسيح، فهتف «انه أحد أبنائنا، ولهذا سمَّته مخطوطاتنا ابن الانسان! لماذا في ظنكم واظب آلاف من رجال بني اسرائيل ونسائها على التزاوج ، جيلاً بعد جيل؟ ألكي تحتكَّ أكفالهم وتتدغدغ أعضاؤهم الجنسية؟ لا! إن كل تلك الآلاف والآلاف من القبلات كانت لازمة لانتاج المسيح!»

خبط رئيس الدير بصولجانه بعنف على الكرسي الكهنوتي، وقال «احذروا يا أخوتي! فقد يأتي في وضح النهار، قد يأتي في منتصف الليل. كونوا على استعداد دائماً : كونوا نظيفين، جائعين

ويقظين. الويل لكم ان هو وجدكم قذرين، مُتخَمين أو نائمين!»

انضمَّ الرهبان بعضهم الى بعض لا يجرؤ أحد على رفع بصره نحو رئيس الدير. كانوا يحسون بلهب عنيف يتلظى متصاعداً من قمة رأسه ومن ثم يهاجمهم.

نزل المريض عن كرسيه ومشى بخطوات ثابتة باتجاه مجموعة الأخوة الخائفين. مدَّ صولجانه وراح يلمسهم به واحداً بعد آخر. وهتف «احذروا، يا أخوتي! اذا ضعف التوق ولو لحظة، تعود الأجنحة فتصبح سلاسل. ابقوا يقظين، جاهدوا، ابقوا شعلة أرواحكم مضاءة نهاراً وليلاً. اضربوا بشدة! اطرقوا الأجنحة! أنا راحل - انني شديد التوق للتحدث الى الرب. أنا راحل... هاكم كلماتي الأخيرة: اضربوا بشدة! اطرقوا الأجنحة!»

فجأة توقفت أنفاسه ، وانزلق الصولجان من يده، وسقط العجوز دون أن يند عنه صوت، وبهدوء، ورفق، على ركبتيه وتدحرج بصمت على بلاط الأرضية. أطلق الراهب المبتدئ صرخة وهرع لنجدة سيده. ابتعد الرهبان عن موقعهم عند الجدار، ومالوا ومددوا رئيس الدير على الحجارة، ثم أخفضوا الشمعدان السباعي الشعلة ووضعوه بجوار وجهه المزرقّ، الجامد الحركة. كانت لحيته تتلألأ، وكان رداؤه الأبيض قد انفتح، كاشفاً عن غفارة خشنة مزوَّدة بكلاّبات حديدية حادة كانت تلفّ صدر العجوز وجنبيه المدمّاة.

وضع الأب حبقوق يديه على صدر رئيس الدير. قال «لقد مات»

قال آخر «حان وقت انعتاقه»

همس ثالث «لقد افترق الصديقان وعاد كلٌّ الى بيته، عاد اللحم الى التراب والروح الى الرب»

ولكن بينما هم يتحدثون ويعدُّون الماء لتسخين غسيله، فتح

رئيس الدير عينيه، فنكص الرهبان وقد مسّهم الرعب وراحوا يحدقون به. كان وجهه متألقاً، وتحركت يداه النحيلتان، بأصابعهما الطويلة، وتركزت نظرة عينيه بنشوة في الفراغ.

ركع الأب حبقوق ومرة أخرى وضع يده على قلب رئيس الدير، وهمس «إنه يخفق. إنه لم يمت».

التفت الى الراهب المبتدئ الذي كان ساجداً عند قدمي العجوز يقبلُهما . قال «انهض يا يوحنا. امتطِ أسرعَ جمل وانطلق الى الناصرة لتحضر العجوز شمعون، الحَبْر. سوف يعمِّل على شفائه. أسرع، الفجر يبزغ!»

كان النهار يطلع، وقد تلاشت السحب، والأرض المشبعة بالماء المغتسلة حديثاً تتلألأ وترفع أنظارها نحو السماوات امتناناً. وانطلق طائرا باشق الى السماء وراحا يحلقان في دوائر فوق الدير ليجفّا.

مسح الراهب المبتدئ دموعه وتوجه الى الاسطبل ليختار أسرع الجمال. كان صغيراً، نحيلاً على جبينه نجمة بيضاء، جعله ينخّ، ومن ثم امتطاه وأطلق هتافاً عالي النبرة من حنجرته، فانتزع الجمل نفسه ناهضاً عن قواعده، وانتصب واقفاً وبخطوات واسعة كبيرة انطلق الى الناصرة يسابق الريح.

كان ضياء الصباح يتلألأ فوق بحيرة جنيسارت ، والمياه تومض بأول خيوط النهار، موحلة عند الضفاف من التربة التي جرفها المطر اليها خلال الليل، أما على مسافة أبعد فهي زرقاء مخضرّة، وأبعد منها كانت بيضاء كالحليب. وكانت أشرعة قوارب الصيد منشورة لتجف. وكانت بعض القوارب قد وصلت الى عرض المياه: وبدأ الصيد، وعلى المياه المتماوجة جثمت طيور الزقزاق ذات الحلقة البيضاء الوردية سعيدة. وعلى الصخور وقفت طيور الغاق

السوداء، وعيونها المدوَّرة تنظر بثبات الى البحيرة فلعل سمكة تظهر على السطح لتمرح بحبور وسط الزبد. وبالقرب من الشاطئ كانت قرية كفرناحوم المبللة حتى العظام، تستيقظ : فالدِيَكَة تنفض الماء عن ريشها، والحمير تنهق، والعجول تخور برفق، ومع هذه الأصوات المنكرة تمتزج أحاديث البشر ذات المغزى مضفية الأمان والسعادة على الجو العام.

كان هناك قرابة العشرة صيادين واقفين في كهف منعزل، أقدامهم الكبيرة مثبّتة في الحصى، يغنون بصوت هادئ وهم يسحبون ببطء وبراعة الشباك. وفي مكان يعلوهم وقف زبدى العجوز، رئيسهم الثرثار، الذي يفوق دهاؤه دهاؤهم بسبع مرات. كان يتظاهر بأنه يحب كلاً منهم كابنه وانه يشفق عليهم، لكنه لم يكن يدعهم يرتاحون لحظة واحدة. كانوا ينالون أجرهم يومياً، وكان العجوز الشره المهذار يحرص على أن لا يتيح لهم لحظة للراحة.

دمدمت النواقيس، وتواثبت قطعان الماعز والغنم باتجاه الشاطئ، ونبحت الكلاب، وصفَّر أحدهم. التفت صيادو السمك لينظروا، لكن العجوز زبدى اندفع الى الأمام وقال بغضب «إنه فيلبس وأقرباؤه. أما نحن، فسنعود الى عملنا!»

وقبض بنفسه على الحبل متظاهراً بأنه يساعدهم.

كان صيادو السمك يتوافدون دون انقطاع قادمين من القرية، محمَّلين بالشباك تتبعهم زوجاتهم، اللواتي كن يحملن مؤونة يوم يوازنونها على رؤوسهن. ولم يضع الصبية الذين لوَّحتهم أشعة الشمس الوقت في الامساك بالمجاذيف والتجذيف. فقد كانوا يتوقفون بعد كل ضربتين أو ثلاث ليقضموا قضمة من كسرات خبز يابس يحملونها بأيديهم. صعد فيلبس الى احدى الصخرات لكي يصبح مرئياً، وأخذ يصفّر. أراد أن يفتح حديثاً، لكن العجوز زبدى

عبس، ثم وضع يديه على شكل بوق على فمه وصرخ «دعنا وشأننا يا فيلبُّس. لدينا عمل نؤديه. اذهب الى مكان آخر!»، ثم أدار له ظهره بجفاء، وغمغم «فليذهب ويثرثر مع يونان، انه هناك يرمي شباكه : أما نحن ، يا شباب، فلدينا عمل نؤديه!». ومرة أخرى أمسك بعقدة في الحبل وأخذ يشد.

واصل الصيادون غناء عملهم الحزين، الرتيب، وعيون الجميع مثبتة على الطوافات المصنوعة من اليقطين الأحمر، التي كانت تقترب باضطراد.

ولكن حين كادوا ينتهون من جر رحم الشبكة المثقل بالسمك الى الشاطئ سمعوا أزيزاً كئيباً عن بعد، يملأ السهل كله، مصحوباً بصرخات حادة كالتي تنطلق من الترنيم الجنائزي. أرهف العجوز زبدى أذنه الكبيرة الشَعِرة لكي يسمع بوضوح، وانتهز رجاله الفرصة وكفوا عن العمل.

سأل زبدى «ماذا حدث يا شباب؟ هذه ترنيمة جنائزية ، إن النسوة يندبن»

أجابه صياد عجوز «ثمة رجل مهم قد مات. أطال الرب عمرك، يا ريّس»

لكن العجوز زبدى كان قد ارتقى احدى الصخرات . ومسحت عيناه الجشعتان السهل، فرأى رجالاً ونساءاً يهرعون الى الحقول، يقعون وينهضون من جديد ـ ويرفعون عقيرتهم بالترتيل الجنائزي . وبدأت الفوضى تدب في أرجاء القرية كلها. كانت النسوة أثناء مرورهن يشددن شعورهن، لكن الرجال من خلفهن كانوا يسيرون صامتين، يطأطؤن رؤوسهم الى الأرض.

صرخ زبدى نحوهم «ماذا حدث؟ الى أين أنتم ذاهبون؟ لماذا تبكي النساء؟»

لكنهم كانوا مسرعين يتجاوزونه متجهين الى بيادر الحنطة دون أن يجيبوا.

زعق زبدى وهو يلوح بيديه «هيه، الى أين أنتم ذاهبون؟ من مات؟ من مات؟»

توقف رجل قصير القامة ممتلئ الجسم، وأجاب لاهثاً «الحنطة!»

«قُل كلاماً مفهوماً، أنا زبدى، ولست ممَّن يمزَح معهم الناس. من الذي مات؟»

أجابته الصرخات التي كانت تأتي من كل اتجاه «الحنطة، الشعير، الخبز!»

ظل العجوز زبدى واقفاً فاغر الفم. لكنه فجأة صفع مؤخرته: لقد فهم. وغمغم «إنه الطوفان. لقد جرف المحصول عن بيادره. حسن، دع المساكين يشتكون، فهذا ليس شأني»

أصبح الصراخ الآن يغمر السهل، وقد خرج كل الناس من منازلهم. وراحت النسوة تقع على البيادر وتتخبط في الأوحال،تسرع لجمع الكمية الصغيرة التي تبقّت من الحنطة والشعير على شكل ثفالة مترسبة في التجاويف والأخاديد. وتراخت أذرع رجال زبدى الى أجنابهم عاجزة: لم يعد بها قوة لسحب الشباك. ولما رآهم زبدى وقد أخذوا يحدقون جميعاً باتجاه السهل وأيديهم عاطلة، استشاط غضباً.

صرخ، وهو ينزل عن الصخرة «الى العمل!». ومرة أخرى قبض على الحبل وتظاهر بالسحب «يا للسماء! نحن صيادو سمك، تمجّد اسم الرب، ولسنا مزارعين. فليأت الطوفان. السمك خبير في السباحة ولا يغرق. اثنان واثنان تساوي أربعة!»

ترك فيلبّس قطيعه وراح يقفز من صخرة الى صخرة. أراد أن

يتكلم. هتف حين وصل اليهم «انه طوفان جديد يا شباب، توقفوا حباً بالرب، ودعونا نتحدث. انها نهاية العالم! فقط احصوا حجم الكوارث. أول أمس صلبوا أملنا العظيم، الزيلوت ، وبالأمس فتح الرب بوابات سيول السماء ـ بالضبط في الوقت الذي امتلأت فيه البيادر بالحنطة ـ وضاع خبزنا. وليس قبل زمن بعيد ولدت احدى غنماتي حَمَلاً برأسين. إنها نهاية العالم، أؤكد لكم! حباً بالرب، كفوا عن العمل ودعونا نتحدث!»

لكن العجوز زبدى احتقن غضباً، فزعق، وقد قفز الدم الى رأسه «ألن تغرب عن وجهنا يا فيلبّس وتدعنا وشأننا، ألا ترى أن لدينا عملاً ننجزه. نحن صيادو سمك وأنت راع، فليشتك المزارعون كما يشاؤون ـ ماهمنا نحن؟ .. يارجال، الى العمل!»

اعترض الراعي «أليس في قلبك رحمة يا زبدى على المزارعين الذين سيموتون جوعاً؟ أنت تعلم أنهم اسرائيليون مثلنا، أخوة لنا، اننا جميعاً من سلالة واحدة،كلنا، ومن الواضح أن المزارعين يمثلون الجذور فاذا جفَّت، فسنجف جميعاً. وثمة أمر آخر يا زبدى، اذا ما أتى المسيح وكنا عندئذ ميتين جميعاً، فمن سيخلّص؟ أجبني ان استطعت!»

نفث زبدى العجوز وتأفف، ولو أن أحداً قرص منخريه، لانفجر. «ارحل، حباً بالرب، عُد الى أنسبائك. لقد مللت سماع الكلام عن المُسحاء[1]، وسئمته، فما إن يأتي أحدهم حتى يصلب، ويأتي الذي بعده فيصلب أيضاً. ثم ألم تسمع بالرسالة التي أحضرها اندراوس الى والده يونان : يبدو أنك أينما ذهبت وحيثما وقفت تجد صليباً. ان الزنزانات تفيض بالمسحاء. أوو، لقد طفح

(١) مسحاء : جمع (مسيح).

الكيل! لقد كانت أمورنا جيدة بدون مُسحاء، فلا يأتي من ورائهم غير الازعاج.هيا أعطني بعض الجبن فأعطيك ملء مقلاة من السمك. أعطني فأعطيك: هذا هو المسيح!»

ضحك واستدار نحو أولاده بالتبنّي «انشطوا، يا أبنائي الشجعان حتى نضرم النار، ونطهو حساء الشودر(١) ونأكل. انظروا، هاقد ارتفعت الشمس مقدار ياردة ونحن لم ننجز شيئاً بعد»

ولكن ما إن رفع فيلبُس قدمه استعداداً لينضم الى قطيعه حتى عاد فتوقف. فقد ظهر على الدرب الضيق، الذي يعانق شاطئ البحيرة، حمار يكاد يرزح تحت ثقل حمولة وصلت حتى أذنيه ، وخلف الحمار سار عملاق حافي القدمين، مفتوح القميص ـ وذو لحية حمراء. كان يحمل بيده عصا ذات فروع ينخس بها الحيوان : وكان متعجلاً.

قال الراعي، وقد تسمَّر في مكانه : انظروا! أظن أنه الشيطان العجوز الكثيف الشعر بذاته، يهوذا الاسخريوطي. لقد باشر مرة أخرى جولاته على القرى ينعل البغال ويصنع المعاول. هيا بنا نرى ماذا لديه ليقوله»

غمغم زبدى العجوز « اللعنة عليه! أنا لا أحب شعره. لقد سمعت أن سلفه قايين(٢) كانت له لحية مثل هذه»

قال فيلبّس «لقد ولد المسكين في صحراء ايدوميا، التي لازالت الأسود تجوبها حتى الآن، لذا يحسن أن لا نثير معه نقاشاً»، ووضع اصبعين في فمه وأطلق صفيراً لسائق الحمار.

هتف «مرحباً، يهوذا، سعيد برؤيتك. اقترب من هنا قليلاًحتى نستمتع برؤياك»

١ـ حساء يصنع من السمك والبطاطا والبصل. ٢ ـ أو قابيل.

بصق ذو اللحية الحمراء وتلفّظ بسباب. لم يكن يحب هذا الراعي، ولا زبدى، ذاك الطفيلي ـ لم يكن يحبهما على الاطلاق. لكنه حداد، ورجل محتاج، فاقترب.

سأله فيلبّس «ماذا تحمل لنا من أخبار من القرى التي مررت بها في طريقك الطويلة؟ ماالذي يحدث في السهل؟»

أوقف ذو اللحية الحمراء حماره بشد ذيله ، وأجاب مع ضحكة جافة «كل شيء على أحسن مايرام. الرب رحيم على الدوام، تمجَّد! نعم، انه يحب شعبه! فهو في الناصرة يصلب الأنبياء، وهنا في السهل يبعث الطوفان ويسلب الناس خبزهم. ألا تسمع الندب؟ النساء تولول على فقدان الخبز : وكأنما على فقدان أولادها»

اعترض زبدى وقد انتابه الغيظ لأن كل هذا الحديث كان يعيق سير عمل النهار، «إن كل مايفعله الرب حق. إني أثق به مهما فعل، فاذا غرق الجميع ونجوت أنا وحدي، فالرب بهذا انما يحميني، واذا نجا الجميع وغرقتُ وحدي فالرب بهذا أيضاً يحميني. انني أثق بالرب، أؤكد لك. واثنان واثنان يساوي أربعة»

حين سمع ذو اللحية الحمراء هذه الكلمات نسي أنه كان عاملاً مياوماً يعيش كفاف يومه، وأن اعتماده هو على كل فرد من أولئك الناس لتأمين أسباب رزقه، فانفعل بتأثير من طبعه الشرير، وأخذ يتكلم دون أن يلطّف كلماته «إن ثقتك يا زبدى تعود الى أن الرب يمهّد لك ولأعمالك السبيل، وسيادتك تملك خمسة قوارب صيد في خدمتك، ولديك خمسون صياد سمك تستغلهم كالعبيد، تطعمهم فقط بما يكفي ليزودهم بالقدرة على العمل لأجلك وبحيث لا يموتوا جوعاً ـ وطوال الوقت وسُموّك تحشو خزانتك بالنفائس، ومستودعاتك بالمؤن، وبطنك بالطعام. وبعد كل هذا ترفع يديك نحو السماء وتقول «الرب عادل، أنا أثق به! العالم جميل ، آمل أن لا

يتبدّل!»... لماذا لا تسأل الزيلوت من الذي صُلب في ذاك اليوم ولماذا كافح لتحريرنا، أو اسأل الفلاحين، الذين سلبهم الرب مخزون عام كامل من الحنطة في ليلة واحدة - اسألهم ! انهم يتخبطون في الوحل الآن يلتقطونه حبة حبة، ويبكون. أو اسألني أنا. إنني أجوب القرى وأرى وأسمع معاناة شعب اسرائيل. الى متى؟ الى متى؟ ألم تسأل نفسك هذا السؤال يا زبدى؟»

أجابه العجوز «الحق أقول لك، انني لا أثق بذوي الشعر الأحمر. أنت من سلالة قايين الذي قتل أخاه. اذهب الى الشيطان يا صديقي. لا أرغب بالتحدث مع أمثالك!»

قال هذا ثم أدار له ظهره.

صفع ذو اللحية الحمراء الحمار بالعصا ذات الفروع، فرفع الحيوان رأسه، ثم ارتدً الى نيره، وانطلق كالسهم يركض.

غمغم يهوذا «لا تخف، أيها الطفيلي العجوز، فالمسيح آت ليضع كل شيء في نصابه»

بعد أن التفً منعطفاً حول الصخور ، استدار وهتف «سوف تتاح لنا الفرصة لنتناقش في هذا الأمر ثانية يا زبدى، سيأتي المسيح ذات يوم، أليس كذلك؟ سيأتي وعندئذ سيضع بنفسه كل وغد في مكانه الصحيح، لست أنت الوحيد الذي لديه الثقة! الى لقاء - في يوم الحساب!»

أجابه زبدى «الى الجحيم ، يا ذا الشعر الأحمر!». أخيراً ظهر رحم الشبكة للنظر، وكان ملآنَ بسمك الحفّار والبورى الأحمر.

كان فيلبّس واقفاً بين الاثنين، عاجزاً عن التحيُّز لأي منهما. إن ماقاله يهوذا صحيح وينمُّ عن شجاعة. لطالما أحس الراعي برغبة بقذف مثل هذا الكلام في وجه العجوز القبيح أو بضربه به على رأسه، لكنه لم يكن يملك الشجاعة الكافية. لقد كان هذا العنيد

مالكاً واسع السلطة؛ قوياً على اليابسة وفي البحر. كان يملك كل مرج من المروج التي ترعى فيها ماعز فيلبّس وغنمه ـ فكيف يقدر الراعي على مهاجمته؟ إن هذا الأمر يتطلب إما مجنوناً أو بطلاً، وفيلبّس لا هذا ولاذاك. انه ببساطة متبجّح وثرثار، ولم ينتهز قط أي فرصة مفيدة.

لذا لزم الصمت أثناء شجار الاثنين الآخرين، وظل ساكناً، يكبّله الخجل والتردد. وكان الصيادون حينئذ قد سحبوا الشباك، فانحنى معهم وراح يساعدهم بملء السلال الكبيرة. حتى زبدى غاص حتى وسطه في الماء، ومن هناك كان يوجه حركة الرجال والأسماك.

ولكن بينما هم يبدون اعجابهم بالسلال التي تفيض بما فيها، ويملأهم التيه، تناهى الى أسماعهم فجأة صوت ذي اللحية الحمراء الأجش من الصخرة المقابلة «هيه، زبدى!»

تظاهر العجوز زبدى بالصمم.

مرة أخرى هدر الصوت «هيه، زبدى، خذ بنصيحتي واذهب وابحث عن ابنك يعقوب!»

صرخ العجوز مهتاجاً «يعقوب!». لو كان الأمر يتعلق بابنه الأصغر، فالضرر قد وقع : لقد أضاعه. ولم يكن يرغب بفقدان هذا أيضاً. ليس لديه ابن آخر، وكان يحتاج اليه في عمله. فخاطب يهوذا بصوت قلق «يعقوب! ماذا لديك لتقوله عن يعقوب، يا ذا الشعر الأحمر اللعين؟»

«لقد رأيته على الطريق يصاحب صانع الصلبان . وكانا يستمتعان بتبادل الحديث!»

«عن أي صانع صلبان تتحدث أيها الكافر؟ أفصح!»

«ابن النجار، الابن الذي يصنع الصلبان في الناصرة ويصلب

الأنبياء... لقد فات الأوان! مسكين أيها العجوز زبدى - لقد ضاع يعقوب أيضاً. كان لديك ولدان. خطف الرب واحداً منهما وخطف الشيطان الثاني»

تسمَّر العجوز زبدى فاغر الفم. قفزت سمكة طائرة من الماء وحلَّقت فوق رأسه، ثم عادت فغاصت في البحيرة واختفت.

غمغم العجوز مذعوراً «هذا نذير شؤم، نذير شؤم ! أهكذا سيغادرني ابني، مثل السمكة الطائرة، ويختفي في الأعماق السحيقة؟»

التفت نحو فيلبّس وقال «أرأيت السمكة الطائرة؟ لاشيء يحدث في العالم دون أن يكون له مغزى. قل لي، ما مغزى هذه السمكة؟ أنتم الرعاة...»

«لو كانت حَمَلاً لأخبرتك ، أيها الأب زبدى، حتى وان لم أرَ غير ظهره. أما السمك فليس من اختصاصي». كان غاضباً لأنه كان، خلافاً ليهوذا، تنقصه الشجاعة ليجهر بما عنده كما يليق برجل. قال «أنا ذاهب لأرعى قطعاني». قال هذا وهو يضع عصاه على كتفه، ويقفز من صخرة الى صخرة حتى لحق بيهوذا.

ناداه «انتظر، يا أخي، أريد أن أتحدث معك»

أجابه ذو اللحية الحمراء «اذهب الى قطيعك، يا جبان» دون أن يلتفت اليه، اذهب الى قطيعك، وابعد أنفك عن شؤون الرجال. ولا تنادني بـ «أخ»، أنا لست بأخ لك!»

«أقول لك انتظر. لدي ما أفضي به اليك، لا تغضب»

عندئذ توقف يهوذا ونظر اليه بازدراء «لماذا لم تفتح فمك؟ لماذا تخشاه؟ هل ستظل على خوفك بعد أن تعرف مايحدث، ومن هو الآتي، وماهو مصيرنا؟ أم لعلك لست مستعداً بعد لمعرفة هذا. حسن، أيها المسكين ، لقد حان الوقت، وملك اليهود يقترب بكل

مجده ـ والويل للجبناء!»

ناشده فيلبّس «زدني ، يا يهوذا ، زدني، جرَّني فوق الفحم، ارفع العصا ذات الشعب التي تحملها واضربني بها لتمنحني بعضاً من احترام الذات. لقد مللت من كوني دائم الخوف»

اقترب يهوذا منه بخطى بطيئة وقبض على ذراعه. قال «هل يخرج هذا الكلام من قلبك يا فيلبّس، أم أنها مجرد كلمات جوفاء؟»

«لقد مللت، أؤكد لك. اليوم شعرت بالتقزز من نفسي. تقدَّم، يا يهوذا، تقدَّم وأرني الطريق . أنا مستعد»

تلفَّت ذو اللحية الحمراء حوله ومن ثم قال وقد أخفض صوته «فيلبّس ، هل أنت قادر على القتل؟»

«رجال؟»

«طبعاً. ماذا كنت تعتقد ـ غنم؟»

«انني لم أقتل رجلاً من قبل، لكني قادر على ذلك، نعم، حتماً، في الشهر الفائت صرعت ثوراً وقتلته وحدي»

«قتلُ رجل أسهل. تعال معي»

أصابت الرِّجفة فيلبّس. لقد فهم . سأله «هل أنت واحد منهم ـ من الزيلوت؟» وكان الرعب يتلبّس وجهه. كان قد سمع الكثير من هذه العصبة الرهيبة، «القتلة القديسون»، كما كانت تسمَّى. كانوا يبثون الرعب في كل انسان، من جبل حرمون نزولاً حتى البحر الميت، وحتى أبعد من ذلك الى الجنوب، الى صحراء ايدوميا. كانوا يتنقلون وينشرون أفكارهم. مسلحين بعتلات، وحبال وسكاكين، ينادون: لا تدفعوا الأتاوات للكفرة. ليس لنا إلا ربٌّ واحد، هو أدوناي. اقتلوا كل يهودي يعصى الناموس المقدس، وكل من يضحك، أو يتكلم أو يعمل مع أعداء ربنا، الرومان. اضربوهم، اقتلوهم، مهِّدوا الطريق لمرور المسيح! نظفوا العالم، افتحوا الشوارع: فهو قادم!

كـانوا يدخلون القـرى والمدن في وضح النهـار ليـقـتلوا، دون استـشارة من أحـد غـيـر انفسـهم، صـدوقـيًّا[1] خـائناً أو رومـانيـاً متـعطشـاً لسـفك الدمـاء. وكان مـلاك الأراضـي، والكهنة يرتجـفـون أمـامـهم، يستـنزلون عليهم لعنة حـرمـانهم الكنسـي: فهم يحـرضـون على حركات العصيان المسلح، وسببوا خروج الكتائب الرومانية، مما نتج عنه مـذابح كانت تقع في فترات منتظمة وسـفك أنهار من الدم اليهودي.

كرر فيلبّس قوله همساً «أنت واحد منهم ـ من الزيلوت؟»

سـأل ذو اللحيـة الحمـراء، ضـاحكاً بـاحـتـقـار «أخـائف أنت، يا صـديقـي الشـجـاع؟ لا تجـزع، لسنا قـتلة. نحن نقـاتل من أجل نيل الحـرية، يا فـيلبّس، لتـحـريـر أرواحنا . انهض. لقـد حـانت اللـحظة لتبرهن أنت أيضاً للعالم أجمع على أنك رجل. انضم الينا»

لكن فيلبّس أطرق يحدّق في الأرض وندم على الفور لأنه أفـرط في التعبير عن مشاعره مع يهوذا بشأن هذه المسألة . وقال في نفسه، لابأس من التـفوه بكلمـات تنم عـن شـجـاعـة. ومن المـمـتـع أن نجلس مع صديق، أن نأكل مـعـه، ونشـرب، وننخـرط في نقـاشـات خطيـرة ونقـول «سـأفعل هذا» أو «سـأبرهن على ذاك». ولكن على رسلك يا فيلبّس، لا تتمادى أكثر من ذلك، والا وجدت نفسك في مأزق.

مال عليه يهوذا وراح يكلمه بنبرة صوت مختلفة. والآن لمس كفه الثـقـيل الشـبـيه بالمخلب كـتف فـيلبّس برفـق وأخـذ يداعبـه . قـال «مامعنى حيـاة الرجل؟ مـا قـيـمـتـهـا ؟ لاشيء، اذا لم تكن حـرة. اننا نكافح من أجل الحرية، أؤكد لك . انضم الينا»

---

١ ـ الصدّوقي : أحد أفراد طائفة يهودية في زمن المسيح أنكرت الحشر ووجود الملائكة.

لزم فيلبّس الصمت. ليته يستطيع أن يبتعد لكن يهوذا كان يمسك به بحزم من كتفه.

«انضم الينا! أنت رجل : قرر ! هل معك سكين؟»

«نعم»

«ابقها معك طوال الوقت، تحت قميصك. فقد تحتاجها في أي وقت. اننا نمر بأيام عصيبة يا أخي. ألا تسمع وقع خطى رشيقة تقترب أكثر فأكثر؟ انه المسيح، ولايجب أن يجد الطريق أمامه مسدودة. ان السكين أكثر عوناً في هذا المجال من الخبز. هنا. انظر اليّ »

فتح قميصه، فرأى خنجراً بدوياً قصيراً ذا حدين مجرداً يلمع وهو ملتصق على بشرة صدره السمراء.

لولا ابن زبدى، يعقوب، المشتّت الفكر، لغرزته في قلب ذاك الخائن. بالأمس، وقبل أن أغادر الناصرة حكمت عليه العصبة بالموت ـ»

«على من؟»

« ... ووقعت القرعة عليّ لتنفيذ القتل»

«على من؟». عاد فيلبّس يسأل.كان قد أصابه الرعب.

أجابه ذو اللحية الحمراء بسرعة «هذا شأني. أبعد أنفك عن شؤننا»

«ألا تثق بي؟»

تلفّت يهوذا حوله، ثم مال وقبض على فيلبّس من ذراعه.

«أنصت جيداً الى ما سأقوله لك يا فيلبّس، واياك ان تبوح بكلمة واحدة منه لأي كان ـوالا قضي عليك! انني الآن في طريقي الى الصحراء، الى الدير. لقد أرسل الرهبان في طلبي لأصنع لهم بعض الأدوات . وبعد بضعة أيام ـ ثلاثة أو أربعة ـ سأمرٌ ثانية على

مخيمكم . قلّب الكلمات التي تبادلناها جيداً في رأسك. الزم الصمت، ولا تفش بالسر لأي كان. قرر بنفسك. ان كنت رجلاً وتوصلت لاتخاذ القرار الصواب، فسأكشف لك عمن سنضرب»

«من ؟ هل أعرفه؟»

«لا تكن متعجّلاً، فأنت لم تصبح بعد من أعضاء العصبة»، ومدّ له يده الضخمة، «وداعاً يا فيلبّس. لقد كنتَ حتى الآن نكرة، لا يأبه أحد إن كنتَ ميتاً أم حياً. أنا كنتُ مثلك - نكرة - الى ان جاء يوم وانضممت الى العصبة، ومنذ ذلك الحين أصبحت شخصاً مختلفاً: أصبحت رجلاً. لم أعد يهوذا ذا اللحية الحمراء، الحداد الذي يكدّ كالثور لغرض وحيد هو تغذية هاتين القدمين وهذه البطن واشباع هذا الفم القبيح. وها أنا الآن أعمل من أجل هدف عظيم - أتسمع؟ - من أجل هدف عظيم ، وكل من يعمل من أجل هدف عظيم، حتى وان كان من أشد الناس تواضعاً، يصبح عظيماً. أتفهم؟ هذا كل ماعندي لأقوله لك. وداعاً!»

لكز حماره وانطلق مهرولاً نحو الصحراء.

ظل فيلبّس وحيداً. أسند ذقنه على عصاه وراح يراقب يهوذا حتى وصل الى الجانب الآخر من الصخور ومن ثم اختفى .

قال في نفسه، انظر، ان ذا اللحية الحمراء هذا كلامه حسن، حسن وشبيه بكلام قديس . لعله يتباهى قليلاً، ولكن لا يهم! مادام لا يتجاوز حدود الكلام فكل شيء سيسير على أحسن مايرام، ولكن اذا تجاوز الكلام الى الفعل... فاحذر يا فيلبّس، يا مسكين. فكّر في قطيعك الصغير. ان هذا العمل يحتاج الى بعض التفكير. الأفضل أن تدع الأمور تسير - انتظر وانظر ماذا سيحدث.

وضع عصاه على كتفيه - بعد أن سمع أجراس ماعزه وغنمه - وانطلق مسرعاً، وهو يصفّر.

في تلك الأثناء كان ولدا زبدى المتبنيان قد أضرما ناراً ووضعا عليها الماء لاعداد حساء السمك. وحالما غلى الماء وضعا فيه سمكاً صخرياً، وبطلينوس، وقنفذ البحر، وسمكة دنتكس أو اثنتين، وحجراً نبت عليه عشب أخضر ليضفي على الطعام نكهة البحر. وبعد قليل أضافا سمك الحفار، والبوري الأحمر، اذ لا يمكن أن يكتفيا بالسمك الصخري والبطلينوس فقط. جلس صيادو السمك الجائعون القرفصاء على شكل دائرة حول القدر وراحوا ينتظرون بلهفة،يتكلمون بأصوات خافتة فيما بينهم. مال أكبرهم على جاره وقال «ما أروع أن أرى الحداد يصفعه بذاك الكلام : صبراً . سيأتي اليوم الذي ينهض فيه الفقراء الى العلاء ويغوص الأغنياء الى الحضيض. هذا هو معنى العدالة»

أجاب الآخر «أتعتقد أن هذا سيحدث أبداً؟»، وكان قد أذواه الجوع منذ أن كان شاباً، «أتظن ان هذا سيحدث أبداً على هذه الأرض؟»

أجاب العجوز «الرب موجود ، أليس كذلك؟ نعم ، موجود! وهو عادل لذا فسيحدث. كل مانحتاج اليه يا بني هو الصبر - الصبر»

قال زبدى، الذي كان قد سمع طرفاً من الكلام، وساوره الشك «هيه، عمَّن تتهامسان أنتما الاثنان؟ فقط اهتما بعملكما وانسيا أمر الرب. انه يعرف أفضل منك مايجب أن يفعله. يا اله العالمين، ماذا سيحل بنا بعد!»

على الفور ران الصمت عليهم جميعاً. ونهض الصياد العجوز واقفاً، ثم تناول ملعقة خشبية، وباشر بتحريك الحساء.

الفصل التاسع

ساعة رفع الابنان المتبنيان الشباك على أكتافهما وغمر نور الصباح البحيرة، التي بدت شديدة النقاء وكأنها خرجت من جديد من بين يدي الخالق، كان ابن مريم يواصل سفره مع يعقوب، ابن زبدى الأكبر. كانا قد خلّفا لتوهما مجدلة وراءهما. وكانا بين حين وآخر يتوقفان برهة لمواساة النساء اللواتي يندبن فقدان الحنطة، ومن ثم يواصلان الطريق، وهما يتجاذبان أطراف الحديث. وكان يعقوب أيضاً قد أدركته العاصفة، فأمضى الليل في مجدلة، ونام في منزل أحد الأصدقاء ونهض قبل الفجر ليواصل رحلته.

أخذ يخوض في الوحل على هدى الضوء الأزرق الباهت، يحدوه توقه للوصول الى بحيرة جنيسارت، وكانت المرارة التي سببها كل مارآه في الناصرة قد بدأت تخف وتهدأ داخله؛ فقد أصبح مرأى الزيلوت المصلوب ذكرى نائية، ومرة أخرى انشغل ذهن يعقوب بقوارب صيد والده وبرجاله : بالهموم اليومية. كان يتجاوز بخطى واسعة الحفر التي تشكلت بفعل المطر. وكانت الأشجار تقطر، شبه مبتسمة، شبه باكية، والسماوات من فوقه تضحك،

واستيقظت الطيور - لقد كان النهار مشرقاً. ولكن مع انتشار الضياء أصبح قادراً على رؤية الخراب الذي أنزلته الفيوض ببيادر الحنطة. فسنابل الحنطة والشعير التي كُوِّمت على شكل حُزم قائمة انجرفت الآن مع المياه في الطريق، واندفعت طلائع المزارعين وزوجاتهم الى الحقول وأخذوا يندبون. وفجأة شاهد ابن مريم، منحنياً مع امرأتين عجوزين فوق أحد البيادر المنكوبة.

قبض بقوة على عصاه وتلفظ باللعنة. وقفزت ذكرى الناصرة من جديد الى ذهنه، مع صورة الصليب والزيلوت المصلوب - والآن، هاهو! صانع الصلبان يندب مع النسوة المحصول الضائع! وكانت طبيعة يعقوب خشنة ولا تعرف المجاملة، صخاباً عنيفاً، لا يعرف الشفقة، اكتسب كل صفات والده ولم يكن يحمل أي شبه سواء من أمه سالومه، المرأة الورعة، أو من يوحنا، أخيه العزيز المحبوب ... قبض بشدة على عصاه وتقدم يملأه الغضب نحو البيدر.

في تلك اللحظة استقام ابن مريم وانتصب، ولاتزال الدموع تجري على خديه، استعداداً لمواصلة سيره. أمسكت كلتا المرأتين بيديه لتقبلاهما وتمنعاه من الرحيل. فمن يستطيع أن يبز عابر السبيل هذا في قول الكلمات المناسبة لمواساتهما؟

وظل يكرر على مسامعهما «لا تبكيا، لا تبكيا، سأعود»، وهو يحرر يديه بالتدريج من أيديهما الهرمة.

توقف يعقوب عن التقدم ووقف فاغر الفم من الدهشة. لمعت عينا صانع الصلبان من الدموع التي كانت تملأ عينيه؛ كانتا تارة تنظران عالياً نحو السماء الوضَّاءة، المبتهجة، وطوراً تطرقان نحو الأرض، الى الناس المنحنين يفتشون في الطمي ويندبون.

غمغم يعقوب «أيُعقل أن يكون هذا هو صانع الصلبان - هذا؟» وتنحى جانباً، مضطرباً، «إن وجهه يشرق كوجه ايليا النبي!»

في ذلك الحين كان ابن مريم قد تجاوز حافة البيدر، فأبصر يعقوب، وتعرف عليه ووضع يده على قلبه علامة التحية.

قال ابن زبدى، مرققاً نبرة صوته «الى أين؟ يا ابن مريم؟»، ولكن قبل أن يتاح للآخر أن يجيب، أضاف «فلنسر معاً. الطريق طويلة وتتطلب رفيقاً».

الطريق طويلة وتتطلب رفيقاً، هكذا ردَّد ابن مريم لنفسه، لكنه لم يَبُح بما دار في خَلَده.

قال «هيا بنا»، وانطلقا معاً على الطريق المعبَّدة الى كفرناحوم.

مرَّ بعض الوقت لم يتبادلا خلاله الكلام. لقد كان ندب النسوة ينبعث من كل بيدر يمران به. وكان العجائز من الرجال مستندين على عكازاتهم يراقبون الحنطة تتجرف مع المياه. ووقف المزارعون مكفهري الوجوه لا يأتون بحركة وسط حقولهم المحصودة المنكوبة. وظل بعضهم صامتاً، في حين راح آخرون يكيلون اللعنات.

تنهد ابن مريم وقال «آه، ليت هناك رجل واحد يملك القدرة على أن يجوع حتى الموت لكي لا يموت الناس من الجوع!»

رمقه يعقوب بنظرة من زاوية عينه، وقال هازئاً «لو أمكنك أن تتحول الى حنطة يأكلها الناس وتنقذهم، فهل تفعل؟»

قال ابن مريم «ومن لا يفعل؟»

خفق بريق عينيّ يعقوب الصقريتين، وترجرجت شفتاه الغليظتان البارزتان، أجاب «أنا»

صمت ابن مريم . شعر الآخر بالاهانة، فدمدم قائلاً «ولمَ أفنى؟ إن الرب هو الذي بعث بالطوفان. ماذنبي أنا؟»، ورمى السماء بنظرة قاسية، «لماذا فعل الرب هذا؟ أي اهانة وجهها البشر اليه؟ أنا لا أفهم - هل تفهم أنت يا ابن مريم؟»

«لا تسأل، يا أخي: هذا خطيئة. حتى قبل أيام قليلة كنت أنا

أيضاً أسأل، أما الآن فأنا لا أفهم. إنه الأفعى التي أفسدت المخلوقات الأولى وجعلت الرب يطردها من الجنة»

«ماذا تعني بـ «هذا»؟»

«طرحُ الأسئلة»

قال ابن زبدى «انني لا أفهم»، وحث خطاه.

لقد فقد رغبته في مرافقة صانع الصلبان، لأن وطأة كلماته كانت ثقيلة عليه، وكانت فترات صمته حتى أشد وطأة من كلماته.

ثم وصلا الى مرتفع قليل في السهل. وشاهدا عن بعد مياه جنيسارت المتلألئة. كانت القوارب قد وصلت الى منتصفها ، وكان الصيد قد بدأ: والشمس نهضت من قلب الصحراء، حمراء متوهجة. وعلى الشاطئ الآخر للبحيرة شع سوق البلدة الوافر المسربل ببياض شامل.

رأى يعقوب قواربه عن بعد، وامتلأ ذهنه بمشاهد السمك، فالتفت الى مرافقه المزعج، وسأله «الى أين أنت ذاهب يا ابن مريم؟ انظر، هاهي كفرناحوم»

طأطأ ابن مريم رأسه ولم يجب. كان يخجل أن يقول انه ذاهب الى الدير ليصبح قديساً.

رفع يعقوب رأسه بحركة سريعة ورمقه بنظرة. وفجأة خطرت بباله فكرة شريرة، فدمدم قائلاً «أم أنك تفضل أن لا تبوح؟ تريد أن تبقيه سراً!»

أمسك بذقن رفيقه ورفع له رأسه «انظر في عينيّ. قل لي : من أرسلك؟»

تنهد ابن مريم، وتمتم «لا أدري، لا أدري، لعله الرب، ولكن قد يكون الـ...»

ثم تلعثم . لقد كان خائفاً جداً، فاختنقت الكلمة في حنجرته .

ماذا لو أنه مُرسل حقاً من قِبَل الشيطان؟

أطلق يعقوب ضحكة جافة، ملؤها الاحتقار، وقبض على ذراعه بقوة وراح يهزه بعنف، وعوى بهدوء «إنه قائد المئة، صديقك قائد المئة ـ أليس هو الذي أرسلك؟»

نعم، هذا صحيح : لابد أنه قائد المئة أرسله ليتجسس. فقد ظهر فجأة زيلوت جدد فوق الجبال وفي الصحراء، ونزلوا الى القرى، والتقوا بالناس سراً وحدَّثوهم عن الانتقام وعن الحرية. فبثَّ قائد المئة السفاح الناصري في كل قرية جاسوساً يهودياً مرتشياً، ولابد أن هذا الشاب، صانع الصلبان هذا، هو بلاشك أحدهم.

عقد يعقوب مابين حاجبيه ودفع بيسوع بعيداً عنه، قائلاً بصوت منخفض «اسمعني، يا ابن النجار، هنا يفترق طريقانا. لعلك لا تعرف وجهتك، أما أنا فأعرف. فارحل الآن، ولكن لن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ستراني فيها أو تسمع أخباري. فحيثما تذهب يا مسكين سأتبعك ـ والويل لك ! هذا كل مالدي لأقوله لك، ولكن انتبه الى كلامي، ان الطريق التي اخترتها لن تبقيك حياً!»

قال هذا ثم، ودون أن يصافحه، انطلق يهبط المنحدر ركضاً.

رفع أولاد زبدى بالتبني المرجل النحاسي عن النار وتحلقوا جلوساً حوله. كان العجوز نفسه أول من غمس الملعقة الخشبية فيه، واختار أكبر السمكات وباشر الأكل، لكن أكبر المجموعة سناً مد يده ومنعه.

قال يذكره «نسينا أن نتلو صلاة المائدة»

رفع العجوز زبدى الملعقة الخشبية، وهو مايزال يمضغ الطعام الذي يملأ فمه، وأخذ يقدم شكره لرب اسرائيل لأنه يهب السمك، والقمح، والخمر والزيت لتغذية الأجيال من العبرانيين وكي تعينهم على التحمل الى أن يحين يوم قدوم الرب ـ يوم سيتشتت شمل الأعداء وتخرُّ الأمم كلها تحت أقدام اسرائيل لتتعبدها، وتخرُّ

الآلهـة تحت قـدمي أدوناي وتعـبـده، «لهـذا نحن نأكل يا رب، لهـذا نتزوج وننجب أطفالاً، لهذا نعيش ـ كله اكراماً لك!»

قال هذا ثم ابتلع السمكة دفعة واحدة.

وبينما السيد والرجال يأكلون ويستمتعون بتناول ثمار جهدهم، وعيونهم تحدق إلى البحيرة ـ الأم التي تغذيهم ـ إذا بيعقوب يظهر فـجـأة أمـامـهم، يلهث وقـد غطاه الوحل. انضم الصـيـادون مـعـاً ليـفسحـوا مكاناً له، وهتف العـجـوز زبدى، الذي كان مـرحـاً طروباً «أهلاً بولدي البكر! أنت محظوظ، اجلس وكُل. ما الأخبار؟»

لاجواب. ركع الابن الى جوار والده لكنه لم يمد يده الى المرجل الذي يفوح بالروائح الذكية وبالأبخرة.

التفت العـجوز زبدى وقـد انتـابه الخـوف لينظر اليـه.كان يعـرف ابنه هـذا، الشكس، الحـرون ، قلبـاً وقـالبـاً، ويخـشـاه. سـألـه «ألست جائعاً؟ ماهذا الوجه المكفهر؟ مع من كنت تتشاجر هذه المرة؟»

أجـابه يعـقـوب بغـضـب «مع الرب، والشـيـاطين والنـاس. لست جائعاً!»

قال زبدى في نفسـه «أوه، لقـد جاء ليفسد استمـتاعنا بحسائنا» لكنه اجتهد للاحتفاظ بمزاجه المرح فغيَّر الموضوع، وصفع ركبة ابنه بتحبب ثم قـال وهو يغـمزه «هيـه، مع من كنت تتبادل الحـديث طوال الطريق أيها الوغد؟»

أجـفـل يعـقـوب «اذن فـبـيننا جـواسـيس، أليس كـذلك؟ من أخبرك؟... لم أكن أتحدث مع أحد!»

نهض واقفاً، واقترب من البحيرة، ثم غمر قدميه حتى الركبتين فيـهـا وراح يغتسل. بعـد ذلك عـاد لينضم الى المجـمـوعـة ، ولكن لما لاحظ مـدى سـعـادتهم وهم يأكلون ويضـحـكون، انفـجـر قـائلاً «أنتم تأكلون وتشربون، وفي النـاصـرة آخرون يصلبون من أجلكم!»

وانطلق ميمماً وجهه صوب القرية، وهو يبربر متذمراً، فلم يعد يطيق رؤيتهم.

تابعه العجوز زبدى ببصره وهو يبتعد عن مجلسهم، ثم قال هازاً رأسه الكبير «إن ولديَّ شوكتان مغروزتان في لحمي. واحد شديد الرقة والتقى، والآخر شديد العناد والحمق : أينما ذهب أو توقف لابد وأن يثير شجاراً. شوكتان... لم يغدُ أي منهما رجلاً حقيقياً: يكون تارة رقيقاً، وطوراً عنيداً، أحياناً لطيفاً، وحيناً كلباً عضاضاً، نصفه شيطان، ونصف ملاك ـ باختصار ، ان يكون انساناً!»

تنهد وأمسك بسمكة حفار لكي يبتلع بها احساسه بالمرارة. قال «شكراً للرب لأن لدينا سمك حفار ولدينا أيضاً البحيرات التي تربيه ولدينا الرب الذي يخلق البحيرات»

قال أكبر المجموعة سناً «إذا كان هذا ماتقوله أنت، فماذا عسى يونان أن يقول؟ إن هذا المسكين يجلس في كل مساء على احدى الصخرات ويسرح ببصره نحو أورشليم ويأخذ بالنوح على ابنه اندراوس، فهو أحد أولئك المستبصرين. ويقال انه اكتشف نبياً وأنه يرافقه في تجواله، ولا يأكل غير الجراد والعسل، ويمسك بالناس يبغي اجبارهم على الغطس في مياه نهر الأردن، لكي يغسلوا ذنوبهم على مايبدو»

قال زبدى «ويقولون لك أنك يجب أن تنجب أولاداً ليواصلوا الكفاح! اليَّ باليقطينة يا رجال. أعتقد أنه تبقى فيها بعض الخمر، أليس كذلك؟ ان معنوياتي بحاجة للرفع!»

ثم سمعوا وقع خطى ثقيلة، بطيئة الحركة على الحصباء. يبدو أن حيواناً ثقيلاً يقترب وهو غاضب. التفت العجوز زبدى، وهتف : «أهلاً بيونان، الرجل الطيب!»،وجفف بقايا الخمر عن لحيته،

ثم نهض بكل احترام وقدم له مكانه. «كنت أحسم بعض الأمور مع أبنائي أثناء تناول سمك الحفار. هيا، تذوق سمك الحفار واحكِ لنا عن أخبار ابنك القديس انداروس»

مثل أمامهم صياد سمك عجوز، قصير القامة ضخم الجثة، حافي القدمين، وقد لفحته أشعة الشمس، عيناه محسورتان مجهدتان، ورأسه ضخم يغطيه شعر أبيض جعد، وجلده قد غدا أشبه بحراشف السمك. مال الى الأمام وراح يحدق اليهم واحداً إثر آخر، باحثاً عن شخص ما.

سأله زبدى «عمن تبحث، أيها الأب يونان؟ هل أعجزكَ التعب عن الكلام؟»

أخذ يحدق الى قدميه، ولحيته، وشعره الذي تشابك جميعاً وكان يعج بحسك السمك وبالعشب البحري، والى شفتيه الغليظتين المشققتين اللتين كانتا تتباعدان وتتغلقان كفم السمك دون أن يندُّ عنهما صوت. أراد زبدى أن يضحك، لكن فجأة غلبه شعور بالخوف. وعبر ذهنه سهم أحمق من الريبة. فمد كلتا يديه الى الأمام بدافع من رعبه، وكأنه يرغب بمنع العجوز يونان من الاقتراب.

صرخ، وهو يقفز واقفاً على قدميه «تكلم! أيعقل أن تكون أنت النبي يونان؟ أنت موجود بيننا منذ زمن غابر ، ومع ذلك كنت مختبئاً طوال الوقت؟ أستحلفك بأدوناي: تكلم! لقد سمعت ذات مرة رئيسِ الدير المقدس يتحدث عن سمكة القرش التي ابتلعت النبي يونان، وكيف تقيأت السمكة، بعد ذلك، فقفز يونان خارجاً من بطنها، سليماً كما كان . عونك يا رب، ان الصفات التي سردها علينا رئيس الدير تنطبق عليك: أعشاب بحرية عالقة في شعر رأسه وفي صدره، ولحيته تعج بصغار السرطانات، لا أقصد

الاسـاءة اليك يا يونان، لكني أراهن على أنني اذا تحـسـسـت تحت لحيتك فسأعثر هناك على سرطانات»

انفـجـر الصـيـاد ضـاحكاً، لكن زبدى ظل يحـملق في صـديقـه القديم والرعب يملأ عينيه.

قال له «تكلم، أيها المقدس ، هل أنت النبي يونان؟»

هـز العجـوز يونان رأسه نفياً. انه لا يذكـر أن أي سمكة ابتلعته، إلا أن ذلك كان ممكناً. فبـعـد مرور سنين عـديدة على صـراعـه مع السمك، كيف كان يمكن أن يتذكر أي شيء؟

غـمغم العـجـوز زبدى، ونظراته تـزيغ من زاوية الى أخـرى وكأنه يود أن يهرب «انه هو، انه هو!». كان يعـرف أن الأنبيـاء رجال غـريبو الأطوار ولا يمكن الوثوق منهم. انهم يتلاشون في الأثير، في البحر، أو في النـار ـ وبعـد ذلك، ودون سـابق انذار، تنظر واذا بهم يظهـرون أمـامك! ألم يعـرّج ايليـا الـى السمـاء على متن النـار؟ ومع ذلك فـهـو مـازال حيـاً ويحكم، ومهـمـا كـان علو الجبل الذي يرتقيـه المرء، فـانه يلتقيه أمـامه هناك، والقياس نفسـه يصح على حنوك(١): انه خالد. والآن، هاهو يونان النبي ، قـال زبدى في نفسـه ، انـه يدّعي الجـهل، يتظاهـر بـأنه صـيـاد سـمك ووالد بطرس واندراوس. الأفـضـل أن أعالجه باللين: هؤلاء الأنبياء غـريبو الأطوار، عنيدون، واذا لم تتنبه فسوف تجد نفسك في ورطة.

رقق من نـبـرة صـوته، وباشـر بالـقـول «يا جـاري الحـبـيب، أيهـا الأب يونان، أنت تبـحث عن شـخص مـا ـ أهو يعقـوب؟ لقـد عـاد من الناصـرة لكنه تعب، كمـا يبدو، وقـد توجـه الى القـرية. اذا كنت تريد أن تتـقـصى أخـبـار ابنك بطرس فـهـويقـول انه بخـيـر وانه لا داعي

---

١ ـ حنوك : ابن قايين ابن آدم عليه السلام.

للقلق عليه: هو بخير، وسيأتي قريباً، ويبعث اليك بأطيب تمنياته. أتسمعني يا يونان؟ أعطني اشارة» كلّمه برقّة وربت على كتفيه الشبيهين بالجلد المدبوغ. من يدري، كل شيء ممكن، فربما يكون هذا الصياد الأبله هو يونان النبي، لذا، يجب الحذر!

مال العجوز يونان واختطف عقرباً بحرياً صغيراً من المرجل، وحشره كله في فمه وأخذ يمضغه، بعظمه وكل شيء.

غمغم ، بعد أن أدار لهم ظهره «أنا ذاهب»، ومرة أخرى سمع صوت سحق الحصباء، وطار نورسٌ ماراً بسرعة من فوق رأسه، رفرف جناحيه وتوقف برهة وكأن بصره قد وقع على سرطان بحري موجود في تضاعيف لحية الصياد. لكنه أطلق صرخة أجشة لعلها من الخوف، ثم حلّق بعيداً.

قال زبدى العجوز «انتبهوا يا أولاد، أراهن بعظامي على أنه النبي يونان. يحسن أن يذهب اثنان منكم لتقديم يدالعون له بما أن بطرس غائب الآن. والا ، من يدري ماذا سيحدث لنا؟»

نهض ماردان ضخمان وخاطباه بنبرة نصف مازحة، نصف خائفة «يا زبدى، اننا نحمّلك مسؤولية النتائج. الأنبياء حيوانات متوحشة. انهم يفتحون أفواههم هكذا فجأة ويبتلعونك حتى آخر عظمة! حسن، هيا بنا، الوداع!»

تمطّى العجوز زبدى دلالة على رضاه - لقد نجح تماماً في التعامل مع النبي. والآن التفت الى أبنائه المتبقين، «انشطوا، يا رجال، خِفّوا، املأوا السلال بالسمك وانتشروا في كل القرى. ولكن احذروا؛ الفلاحون ماكرون، انهم ليسوا مثلنا صيادي سمك - نحن شعب الرب المختار! اعطوا أقل قدر ممكن من السمك مقابل أكبر قدر ممكن من الحنطة (حتى وان كانت من حصاد العام الفائت)، ومن الزيت، والخمر، والدجاج، والأرانب. أتفهمون؟ اثنان واثنان أربعة»

هبَّ الأبناء بالتبنيّ وباشروا ملء السلال.

وعلى البعد، خلف الصخور، ظهر رجل يمتطي ظهر جمل مسرع. ظلّل العجوز زبدى عينيه بيده ونظر.

هتف «هيه، يا رجال، هناك، انظروا ـ ألا تعتقدون أنه يوحنا، ولدي؟»

كان الراكب يسير فوق أرض من الرمال الناعمة ويقترب منهم.

هتف الصيادون «انه هو، انه هو! أهلاً بابنك!»

ثم مر الراكب من أمامهم متجاوزاً اياهم، وهو يلوِّح بيده محيياً.

صرخ الوالد العجوز «يوحنا، لِمَ أنت في عجلة هكذا؟ الى أين أنت ذاهب؟ توقف برهة ودعني أملي نظري منك»

«رئيس الدير يحتضر؛ لا وقت لدي»

«ماذا ألمَّ به؟»

«انه يرفض أن يأكل؛ إنه يتمنى الموت»

«لماذا؟ لماذا؟»

لكن كلمات الراكب ضاعت في الهواء.

سعل العجوز زبدى، وتفكر برهة من الزمن ومن ثم هز رأسه، وقال «ربنا يحفظنا من القداسة»

راقب ابن مريم يعقوب وهو يهبط باتجاه كفر ناحوم بخطى غاضبة ثم انهار الى الأرض، وجلس القرفصاء، وقلبه ملؤه الأسى. لماذا عمل هو، يامن طالما تاق لأن يُحِب ويُحَب، على ايقاظ كل ذاك القدر من الحقد في قلوب الناس ؟ ان الذنب ذنبه، لا ذنب الرب، ولا الناس، وانما ذنبه هو. لماذا تصرف بجبن شديد، لماذا اختار طريقاً ليسير فيها ومن ثم جبن عن مواصلة السير حتى النهاية؟ لقد كان جباناً عاجزاً، يرثى له. لماذا لم يجرؤ على اتخاذ المجدلية

زوجة له، وعلى أن يخلّصها من العار والموت؛وحين أمسك به الرب وأمره أن ينهض لماذا تشبث بالأرض ورفض أن ينهض؟ والآن، لماذا سيطر عليه الخوف وهاهو يتوجه الى الصحراء ليختبئ؟ هل ظن أن الرب لن يعثر عليه وهو هناك كما في أي مكان آخر؟

كانت الشمس متوقفة تقريباً فوق رأسه، والندب على الحنطة قد توقف. لقد اعتاد الناس هؤلاء على الكوارث: تذكروا أن عويلهم لم يكن مرة حلاً، فسكتوا. لقد تحمّلوا على مدى آلاف السنين الظلم، والجوع، وتقاذفتهم قوى مرئية وأخرى غير مرئية. إلا أنهم نجحوا بطريقة ما في مواصلة الحياة بخطى واهنة، وكانوا دائماً ينجحون في الاقتصاد في الانفاق ـ وهذا علّمهم الصبر.

برزت عظاءة خضراء اللون من شجيرة قصيرة، خرجت لتتشمّس، وحين رأت هذا الرجل ـ الوحش المخيف فوقها تملّك الخوف قلبها وأخذ ينبض بشدة، تحت العنق مباشرة، لكن العظاءة تمالكت نفسها والتصقت بجسمها على طوله بالصخرة الدافئة، وراحت تحرك عينها المستديرة السوداء الفاحمة بسرعة وتحدق بثقة بابن مريم، وكأنها ترحب به أو تقول ، رأيتُ أنك وحيد فأتيتُ لآنسك. فرح ابن مريم وحبس أنفاسه حتى لا يبث الخوف في الزائرة، ولكن بينما هو يراقبها، ويشعر بقلبه يخفق مع قلب العظاءة، هبطت فراشتان مشوّشتان، كلتاهما سوداء اللون مع رذاذ من اللون الأحمر، ترفرفان بأجنحتهما بينهما وتطيران جيئة وذهاباً من طرف الى طرف، غير راغبتين في الابتعاد. رقصتا بمرح، وتمازحتا تحت أشعة الشمس. وفي آخر المطاف حطّتا على منديل الشاب المخضب بالدم ووضعتا خرطوميهما فوق البقع الحمراء، وكأنهما تريدان أن تمتصا الدماء. وحين استشعر دغدغتهما فوق قمة رأسه تذكر مخالب الرب، وتهيأ له أن هذه الدغدغة وأجنحة

هاتين الفراشتين تنقل اليه رسالة واحدة متطابقة. آه، لو يهبط الرب دائماً على الانسان، ليس كنزول الصاعقة أوكانقضاض صقر نهّاب، وانما كفراشة!

حين كان يربط في ذهنه مابين الفراشة والرب، شعر بشيء يدغدغ أخمص قدميه. نظر الى أسفل فرأى حشداً من النمل الضخم بلونيه الأصفر والأسود المنهمك يهرع في رتل واحد ماراً من تحته. كان يحمل الحنطة بأشداقه الواسعة، كل حمولة بحبة واحدة، وكان يعمل في جماعات من اثنين أو ثلاثة . كان قد سرقها من السهل، خطفها من أفواه الناس، وهاهو ينقلها الى بيوت النمل، وطوال الوقت يحمد الرب ـ النملة العظمى، الجَزِع أبداً على شعبه المختار، النمل، الذي يرسل بالفيوض الى السهل في اللحظة المناسبة بدقة، بالضبط في الوقت الذي تُحزم فيه الحنطة في البيادر.

تنهد ابن مريم. النمل أيضاً خليقة الرب، هكذا راح يفكر، كما البشر، والعظاءات، والجنادب التي أسمعها في كرم الزيتون، وكما أبناء آوى الذين يعوون طوال الليل، وكما الفيوض ، وكما الجوع...

سمع شخصاً يلهث خلفه، فتملكه الخوف. كان قد نسي أمرها وقتاً طويلاً، لكنها لم تنسه. انه يشعر بها الآن خلفه مباشرة، جالسة القرفصاء مثله وتتنفس بعمق.

تمتم «اللعنة أيضاً مِنْ خَلْق الرب»

أحسَّ أنه محاط من كل جانب بأنفاس الرب، تهب عليه، تارة دافئة طيبة، وطوراً عنيفة، بلا رحمة. العظاءة والفراش، والنمل، اللعنة ـ كلها من خلق الرب.

لدى سماعه أصواتاً بشرية وقرع أجراس قادمة على الطريق التفت. كانت قافلة جمال طويلة مثقلة بالبضائع النفيسة تمر من

هناك، يتقدمها حمار متواضع. لابد أن هذه القافلة قد انطلقت من نينوى وبابل، من وادي النهر الوافر الذي سكنه ابراهيم، عابرة الصحراء لتنقل الحرير، والتوابل، والعاج، وربما العبيد من ذكور واناث الى السفن المتعددة الأجناس الراسية في البحر العظيم.

ومر رتل الموكب، بدا كأن لا نهاية له. وقال ابن مريم في سريرته، كم من النفائس يحمل أولئك القوم، وكم من الأشياء الرائعة! وأخيراً، في نهاية القافلة، ظهر التجار الأثرياء ذوو اللحى السوداء بأقراطهم الذهبية، وعمائهم الخضراء وجلابيبهم البيضاء الطويلة الفضفاضة. وهاهم الآن يمرون من أمامه، يهتزون ويتمايلون مع تمايل الجمال الوئيد.

دبت الرعشة في أوصال ابن مريم ، فقد خطر له فجأة انهم سوف يتوقفون في مجدلة، وباب بيت المجدلية مفتوح نهاراً وسوف يلجونه، هذا ماقاله في سريرته، وقال، يجب أن أخلّصك يا مجدلية - آه، لو بامكاني ذلك! - أنت يا مجدلية لستِ أمة اسرائيل: فهذه لا طاقة لي على تخليصها. أنا لستُ نبياً. اذا فتحتُ فمي، فلا أعرف ماذا أقول. الرب لم يمسح على شفتيّ بجمر مشتعل، لم يضرب أحشائي بصاعقته ليضرم فيها النار، لأندفع مهستراً في الشوارع وأصرخ... أريد أن تكون الكلمات كلماته هو، لا كلماتي : لا أريد أن تكون لي علاقة بها. سأكتفي بفتح فمي، وهو سيتكلم. لا، لست نبياً، أنا مجرد رجل عادي، بسيط يخاف من كل شيء: لا قدرة لي على تخليصك من سرير العار يا مجدلية، لذا ترينني ذاهب الى الصحراء، الى الدير، لأصلي لأجلك. فالصلاة كلهاقوة. يقولون انه أثناء الحروب طالما ظل موسى رافعاً يديه نحو السماء كان أبناء اسرائيل يتغلبون ، وحين يتعب ويخفضهما، كانوا يهزمون... يا مجدلية، سأبقي يدي مرفوعتين نحو السماء نهاراً وليلاً، لأجلك.

رفع بصره ليرى متى سيحين موعد غروب الشمس. كان يريد أن يواصل السير وسط الظلام لكي يتجاوز كفرناحوم دون أن يراه أحد ومن ثم يلتف حول البحيرة ويلج الصحراء. لقد كان توقه يزداد باضطراد للوصول.

تمتم، وهو يتنهد من جديد «آه، ليت باستطاعتي أن أسير فوق الماء وأتوجه مباشرة الى الصحراء!»

كانت العظاءة ماتزال تتشمَّس، ملتصقة بالصخرة الدافئة. وكانت الفراشتان قد حلَّقتا عالياً واختفتا داخل النور. وواصل النمل نقل الحصاد. كان يصبه في مخازنه ، ومن ثم يسرع بالعودة الى البيادر ليرجع بأحمال جديدة. كانت الشمس تستعد للمغيب وأصبح المارة أقل فأقل، واستطالت الظلال ، وهبط المساء على الأشجار وعلى التربة، ووشّاها بظل ذهبي. وفي البحيرة كانت المياه في حالة فوضى تامة : ففي لمح البصر كانت تُبدِّل شكلها ـ تصبح حمراء، ثم تتحول الى اللون البنفسجي الخفيف، ثم تُظلِم. وسطعت نجمة كبيرة في الجهة الغربية من السماء.

قال ابن مريم لنفسه، الآن سيحلُّ الليل، الآن ستصل ابنة الرب السوداء مع قافلتها من النجوم ، وقبل أن يتاح للنجوم أن تبزغ وتملأ السماء، ملأت رأسه.

كان قد همَّ لتوه بالنهوض لمتابعة رحلته حين سمع خلفه نفخ بوق. ثمة عابر سبيل يناديه باسمه. التفت وعلى هدى الضوء الباهت للمساء ميَّز شخصاً يشير اليه ويرتقي المنحدر، مثقلاً بحمل صرة ضخمة. وتساءل، من عساه يكون؟ وجاهد لتمييز ملامح ابن السبيل من تحت الصرة. لقد سبق له أن رأى ذاك الوجه الشاحب واللحية القصيرة الهزيلة وذينك الساقين النحيلتين المقوستين من قبل. وفجأة هتف «أهذا أنت يا توما؟ هل عاودت تجوالك في القرى؟»

كان البائع المتجول، الأحول، المراوغ قد بات واقفاً أمامه، يلهث، وضع صرته على الأرض وأخذ يجفف العرق عن جبينه البارز وعينيه الصغيرتين المزمومتين اللتين تجعلك حركتهما الملتبسة غير قادر على تمييز إنْ كانتا تعبران عن البهجة أم عن السخرية.

كان ابن مريم يحبه كثيراً، وطالما رآه يمر من أمام ورشته في طريق عودته من جولاته، وبوقه مدسوس تحت حزامه. فيرمي بصرته على أحد المقاعد ويبدأ بالتحدث عن كل ماشاهده. يسخر، يضحك، يضايق؛ انه لا يؤمن برب اسرائيل ولا بأي رب آخر. ويقول ،انهم جميعاً يسخرون منا، يسخرون منا لنضحّي بالأطفال لأجلهم، لنحرق لهم بخوراً ذكي الرائحة ونهتف بأصواتنا الأجشة متغنّين بحسنهم... أنصت ابن مريم اليه، وانبسط قلبه المقبوض قليلاً: كان معجباً بهذا العقل الاحتيالي الذي، بالرغم من محدوديته ومن كل مايعانيه الشعب الذي يحمله من عبودية وبؤس ، كان لديه من القوة مايجعله يقهر العبودية والفقربالضحك والسخرية.

وكان توما البائع المتجول يحب ابن مريم. كان يرى فيه خروفاً ساذجاً، سقيماً، يثغو، يبحث عن الرب لكي يختبئ خلف ظله.

كان لا يفتأ يردد على مسمعه ويكاد ينفجر من الضحك «أنت خروف يا ابن مريم، ولكن ذئباً يكمن داخلك، وهذا الذئب سينهشك!»، ثم يتناول حفنة من التمر أو الرمان أو تفاحةيكون قد سرقها من البستان من تحت قميصه ويستضيفه.

والآن، حالما التقط أنفاسه قال «تسرني رؤيتك. الرب يحبك. الى أين أنت ذاهب؟»

أجابه اليسوع، مشيراً باتجاه البحيرة «الى الدير»

«اذن فسروري مضاعف لرؤيتك. عُد من حيث أتيت!»

«لماذا؟ إن الرب ـ»

لكن توما انفجر قائلاً «اعمل معي معروفاً ولا تباشر من جديد الحديث عن الرب. فحين يأتي ذكره فلن ننتهي. انك لتمضي حياتك كلها سائراً، هذه الحياة والحياة الأخرى، تبحث عنه، لكن هذا المبارك لا نهاية له.فانس أمره ولا تخلطه مع شؤوننا. اسمع : هنا علينا أن نهتم بأمر الانسان - بالانسان المخادع، داهية الدواهي. قبل كل شيء احترس من يهوذا ذي اللحية الحمراء، فقبل أن أغادر الناصرة رأيته يهمس بشيء لوالدة الزيلوت الذي صُلب، ثم همس لباراباس ولاثنين أو ثلاثة من رفاقه طارقي الخناجر منذ عهد الطفولة. وسمعتهم يذكرون اسمك، فاحترس يا ابن مريم: لا تذهب، فليعنّي الرب !»

صرخ توما غاضباً «ستذهب؟ ولكن في هذه اللحظة، في هذه اللحظة بينما نحن نتحدث، يهوذا موجود في الدير وخنجره مخبّأ تحت قميصه. فهل تحمل أنت خنجراً؟»

ارتجف ابن مريم، قال «لا ، وماحاجتي الى واحد؟»

ضحك توما، وغمغم «خروف... خروف...خروف...»، والتقط صرته وقال «الوداع. افعل ماشئت. أنا أقول لك عُد من حيث أتيت، وأنت تقول «سأذهب». حسن، اذهب -وبعد ذلك ستلعن نفسك حين يفوت الأوان!»

طرفت عيناه المزمومتان قبل أن ينطلق هابطاً أسفل المنحدر، وهو يصفّر.

هبط الليل بوقار . فأظلمت الأرض، واختفت البحيرة عن الأنظار، وفي كفرناحوم أضيئت أول المصابيح. وكانت عصافير النهار قد دفنت رؤسها تحت أجنحتها لتوها ونامت، أما طيور الليل اليقظة، فأخذت تنطلق بحثاً عن صيد.

تفكّر ابن مريم قائلاً، هذه ساعة مباركة، وقت حسن للرحيل.

لن يراني أحد - فلأنطلق فلأسرع بالذهاب، ولأُقتَل. هذا، على الأقل، ما أستطيع عمله، وسأعمله»، واستدار ليلقي نظرة خلفه.

قال مخاطباً مرافقته الخفية «هيا بنا»، وانطلق يبغي البحيرة.

الليل عذب، دافئ، نديّ، هبَّت نسمة رفيقة من الجنوب. ومن كفرناحوم فاحت رائحة السمك والياسمين. جلس زبدى العجوز في فناء منزله مع زوجته سالومه تحت شجرة اللوز الكبيرة. كانا قد فرغا من تناول وجبة العشاء، وأخذا يتسامران. وفي الداخل، كان ابنهما يعقوب يتقلب في فراشه، يشتبك في ذهنه ويحتقن في قلبه صورة الزيلوت المصلوب، والجور الجديد الذي أنزله الرب بالناس بأخذه حنطتهم ، وصورة ابن مريم، الذي باع نفسه ليصبح جاسوساً، هذه الأفكار حالت دونه والنوم، ومما زاد من حنقه حديث والده في الخارج. فقفز واقفاًعلى قدميه، وهو يغلي من الغضب، وخرج الى الفناء ومنه عبر عتبة الدار.

نادته أمه بقلق «الى أين أنت ذاهب؟»

عوى «الى البحيرة لأستنشق شيئاً من الهواء النقي»، واختفى داخل الظلام.

هز العجوز زبدى رأسه وتنهد.

قال «لم يعد العالم كما كان يا زوجتي. اليوم أصبح الشبان أكبر من أن تحتويهم جلودهم. فلا هم طيورٌ ولا أسماك؛ إنهم أسماك طائرة. يضيق بهم البحر فينطلقون محلِّقين في الجو. لكنهم لايقدرون على المكوث هناك طويلاً، فيندفعون غائصين في عمق البحر ويعيدون العملية من جديد . لقد جنوا. فقط انظري الى ولدنا يوحنا، العزيز على قلبك. إنه يقول لنا أنه سيهب نفسه للدير. صلوات، وصيام ، ورب... ان قارب الصيد يبدو له ضيقاً - لعله لا يسعه. ثم لدينا الابن الآخر، الذي حسبت أنه أكثر تعقلاً.

علّمي على كلامي: سيسير في الاتجاه نفسه. ألم ترى هذا المساء كيف بدا وكأنه يغلي، ويوشك أن ينفجر وكيف ضاق عليه المنزل؟حسن، إن الأمرلا يهمني، ولكن من سيعنى بزوارقي ورجالي؟ هل سيذهب كل مجهودي هباءاً؟ انني في ورطة يا زوجتي، أحضري لي بعض الخمر ووجبة خفيفة من لحم الأخطبوط لأستعيد مزاجي الحسن»

تظاهرت سالومه العجوز بالصمم، فقد كان زوجها العجوز قد شرب قدراً كافياً حتى ذلك الحين. حاولت أن تغير الموضوع. قالت «انهم شبان، فلا تقلق ، سينقضي الأمر»

«وربي أنت على حق يا زوجتي! إنك تحملين رأساً خصباً بين كتفيك. لماذا أجلس هنا وأوجع رأسي؟ هذا صحيح، انهم شبان، وهذه الفترة ستنقضي. فترة الشباب مرض، وستنتهي. انني حين كنت شاباً كانت تمر بي أوقات أكاد أغلي خلالها وأقضي الليل أتقلّب في فراشي. كنت أحسب أنني أبحث عن الرب، لكني في الحقيقة كنت أبحث عن زوجة - عنك يا سالومه! وتزوجت فهدأت سريرتي، الشيء نفسه سيحدث لولدينا، فلا داعي للتفكير أكثر في الأمر! أنا راض الآن... أحضري وجبة خفيفة من لحم الأخطبوط يا زوجتي، ومعها قليلاً من الخمر يا عزيزتي سالومه - أريد أن أشرب نخب صحتك!»

وفي مكان مجاور ملاصق ، على مسافة قليلة، كان يونان العجوز جالساً وحيداً في كوخه يرمم شبكته على ضوء المصباح. يرمم ويرمم، لكن عقله وأفكاره لم تكن تدور حول زوجته العزيزة التي فارقته؛ توفيت في مثل ذلك الوقت قبل عام، ولا حول ابنه شبه المعتوه أندراوس، ولا حول ابنه الآخر بطرس، ذاك الغنيمة الأحق المعتوه، الذي كان مايزال يقوم بجولاته على حانات الناصرة،

بعد أن ترك والده بلا سند ولا معين، وهو العجوز، ليصارع السمك وحيداً. لا، بل كان يفكر بكلام زبدى ويرزح تحت عبء عظيم من القلق. لعله بحق النبي يونان. نظر الى يديه، الى قدميه، والى فخذيه: إنه مغطى بالحراشف. حتى أنفاسه وعرقه تفوح برائحة السمك،وقد تذكر الآن انه حين زرف الدمع على زوجته قبل أيام كانت لدموعه أيضاً رائحة السمك. وقد كان زبدى العجوز الماكر محقاً فيما يخص السرطانات: لقد كان يعثر أحياناً على بعض منها... فمن يدري لعله حقاً النبي يونان. آه! وهذا يفسر سبب عدم احساسه بأي رغبة في الكلام، وسبب وجواب انتزاع الكلام منه بالكُلاب، وسبب تعثره دائماً في مشيه واضطرابه حينما يسير على أرض جافة. لكنه حين يغوص في البحيرة: كم يشعر بالارتياح، والمتعة! ان الماء يضمه الى صدره، يداعبه، ويلعقه، ويخرخر في أذنه ويكلمه، ويجيبه هو، كالسمك، دون كلمات، وتخرج الفقاعات من فمه!

قال في نفسه، أنا النبي يونان، لاريب في ذلك. لقد بُعثت من جديد - لفظتني سمكة القرش من جديد. ولكن هذه المرة أنا أكثر عقلانية، أنا نبي حقاً، لكني أتظاهر بأني صياد سمك ولا أفوه بكلمة لأي انسان. لا أريد أن أجد نفسي متورطاً من جديد... وابتسم ابتسامة رضا لحذقه. وقال في نفسه، لقد عالجت الأمر بشكل جيد. انظر كم من السنين مرت دون أن يلاحظ أحد ذلك،حتى أنا، الى أن جاء ذاك الشيطان زبدى. حسن، لقد أحسن صنعاً بتوعيتي.

وضع أدواته على الأرض، ودلك يديه معاً تعبيراً عن رضاه، ثم فتح صواناً، وأخرج ملء يقطينة من الخمر، وأمال حنجرته القصيرة الثخينة، المحرشفة، عالياً وأخذ يشرب، مقوقاً.

بينما العجوزان القانعان يشربان في كفرناحوم، كان ابن مريم يواصل مسيره على طول شاطئ البحيرة، وهو مستغرق كل الاستغراق في أفكاره. لم يكن وحيداً : فخلفه سمع صوت انسحاق الرمل. وفي فناء دار المجدلية ترجَّل تُجَّار جدد وهم جالسون الآن القرفصاء على الحصباء، يتسامرون بهدوء ويمضغون ثمار التمر ويشوون السرطانات بانتظار أن يحين دورهم. وفي الدير مدد الرهبان رئيس الدير في منتصف صومعته وجلسوا يسهرون عليه. كان مايزال يتنفس ، وعيناه الجاحظتان تحدقان الى الباب المفتوح، ووجهه المهزول مشدود التقاطيع، وبدا كأنه يجاهد لينصت الى شيء ما.

نظر اليه الرهبان وأخذوا يتهامسون فيما بينهم :

«إنه يحاول أن يسمع خبر وصول الحبر من الناصرة ليشفيه»

«إنه يحاول أن يسمع خبر اقتراب جناحيّ كبير الملائكة الأسودين»

«إنه يحاول أن يسمع وقع خطى المسيح تقترب»

تهامسوا وأطالوا النظر اليه، وروح كل منهم متأهبة لمجيء الساعة التي ستقع فيها المعجزة. أرهفوا جميعاً أسماعهم لكنهم لم يسمعوا شيئاً غير ضربات مطرقة عنيفة على السندان، في الزاوية النائية من ساحة الدير كان يهوذا قد أشعل ناره ليقوم بعمله آناء الليل.

الفصل العاشر

بعيداً في الناصرة ، جلست مريم زوجة يوسف في كوخها المتواضع. المصباح مضاء، والباب مفتوح، وهي تلف بسرعة الصوف الذي كانت قد غزلته . وكانت قد قررت أن تنهض وتباشر تنقيب القرى بحثاً عن ولدها. غزلت وغزلت ، لكن ذهنها لم يكن منصبَّاً على عملها، كان يجول وحيداً يائساً بين الحقول، زار مجدلة وكفرناحوم؛ بحث على طول شاطئ بحيرة جيسارت. كانت تبحث عن ابنها الذي فرَّ من جديد، مرة أخرى نخسه الرب بمهماز الثيران. وتساءلت ، ألا يرحمه ، ألا يرحمني؟ ماذا فعلنا له؟ أهذه هي بهجة المجد التي وعدنا؟ لماذا يا رب جعلت عصا يوسف بالذات تزهر، وأجبرتني على الزواج من رجل عجوز؟ لماذا أنزلت صاعقتك وزرعت في رحمي هذا الحالم، هذا الابن الوحيد السائر آناء الليل؟ كان الجيران طوال فترة حملي يبدون اعجابهم بي، قائلين «يا مريم، أنت أقدس نساء الدنيا». وأزهرتُ؛ كنت شجرة لوز تغطيها الزهور من جذورها وحتى أعلى أغصانها. وكان التجار العابرون يسألون «مَنْ شجرة اللوز المزهرة هذه؟» ويتوقفون مع قوافلهم . ويترجلون

عن جمالهم ويملأون حجري بالعطايا. ومن ثم هبّت فجأة ريح واذا بي أجدني عارية تماماً. فضممت ذراعيّ حول ثديي. يا رب، لقد تمّت ارادتك : جعلتني أزهر، ونفخت فيَّ فسقطت البتلات. أما من أمل في أن أزهر مرة أخرى يا رب؟

في صبيحة اليوم التالي تساءل ابنها «أما من أمل في أن تهدأ غلواء قلبي؟». كان قد دار حول البحيرة وأصبح الآن يرى الدير قبالته، مقحماً بين الصخور ذات اللونين الأخضر والأحمر. ان قلبي يزداد اضطراباً كلما اقتربت أكثر من الدير. لماذا ؟ ألم أسلك الدرب الصحيح يا رب؟ ألم تكن تدفعني لأتجه الى هذا المعتزل المقدس؟ اذن لماذا ترفض أن تمد لي يدك وتفرح قلبي؟

ظهر راهبان برداء أبيض كامل عند باب الدير الكبير، ثم ارتقيا صخرة وراحا يحدقان باتجاه كفرناحوم.

قال أحدهما، وكان نصف مجنون أحدب تكاد مؤخرته تلامس الأرض «لم يظهر أي أثر بعد»

قال الآخر ، وكان رجلاً ضخماً كالفيل، فمه أشبه بشق سمكة القرش ويصل بالضبط حتى أذنيه «حين سيصلون سيكون قد فارق الحياة. اذهب أنت يا يربُعام، سأواصل أنا المراقبة هنا الى ان يظهر الجمل»

قال الأحدب المبتهج، منزلقاً عن الصخرة «عظيم، سأذهب لأراه وهو يلفظ أنفاسه»

وقف ابن مريم متردداً على عتبة الدير، وقلبه يترنح كلهاة جرس: أيدخل أم لا؟ كان الرواق المسقوف دائري الشكل ومرصوفاً بحجارة لوحية. لم يكن يزين الفناء شجرة خضراء واحدة، أو زهرة، أو عصفور: لاشيء غير نبات الأجاص البري الشائك في كل مكان. وعلى طول محيط هذا القفر المستدير، الفوق بشري اصطفّت

الصوامع، محفورة في الصخر كالأجداث.

أهذه هي مملكة السماء؟ قال ابن مريم لنفسه. أهنا تهدأ غلواء قلب الانسان؟

نظر وأطال النظر، غير قادر على اتخاذ قرار تجاوزه العتبة. برز كلبا رعي أسودان من احدى الزوايا وأخذا ينبحانه.

لاحظ الأحدب المقزَّم الزائر فأسكت الكلبين بصفرة منه، ثم استدار وراح يتفحَّص الوافد الجديد من قمة رأسه الى أخمص قدميه. بدت له عينا الشاب مترعتين بالمعاناة، والملابس التي يرتديها بائسة جداً، وكان الدم ينزف من قدميه ، وأشفق عليه.

قال «أهلاً بك يا أخي، أي ريح رمت بك الى هنا من عمق الصحراء؟»

أجاب ابن مريم بصوت عميق يائس «الرب!». تملك الخوف الراهب : لم يكن قد سمع من قبل اسم الرب تلفظه شفتا انسان بمثل ذاك الشكل المرعب. فعقد ذراعيه ولم يقل شيئاً.

بعد فترة صمت قصيرة تابع الزائر كلامه «أتيت لأرى رئيس الدير»

«قد تراه أنت، أما هو فلن يراك. ماذا تريد منه؟»

«لا أدري. حلمت حلماً... أنا قادم من الناصرة»

قال الراهب شبه المجنون وهو يضحك «حلم!»

«حلمٌ فظيعٌ يا أبت. ومنذ ذلك الحين وقلبي لم يعرف السكينة . إن رئيس الدير من القديسين، علّمه الرب كيف يفسِّر لغة الطيور ولغة الأحلام. لهذا جئت»

لم يكن قد خطر بباله أن يأتي الى هذا الدير ليسأل رئيس الدير تفسير الحلم الذي رآه ليلة صنع الصليب : تلك المطاردة العنيفة التي جرت في منامه وذو اللحية مندفع في المقدمة والأقزام

الذين يتبعونه حاملين أدوات التعذيب . أما الآن وهو يقف متردداً على العتبة فقد انبثق الحلم فجأة في ذهنه كومضة برق. وهتف من داخله، فهمت! لقد أتيت من أجل الحلم. أرسله الرب لينير به طريقي، ورئيس الدير سوف يقوم بفك طلسمه.

قال الراهب «رئيس الدير يحتضر، لقد وصلت متأخراً يا أخي. عُد من حيث أتيت»

أجابه ابن مريم «لقد أمرني الرب بالمجيء، فهل يخدع أبناءه؟»

قوَّق الراهب. لقد رأى الكثيرين على مدى حياته وليس لديه ثقة بالرب.

«أليس هو رب العالمين؟ اذن فهو يفعل مايشاء. فاذا لم يكن قادراً على أن يُنزِل الجور بالانسان، فكيف يمكن أن يكون قادراً على كل شيء؟»

صفع الزائر على ظهره، وكان يقصد بذلك المداعبة، لكن مخلبه الضخم كان ثقيلاً وآذى الشاب.

قال «حسن، لا تقلق، هيا ، أدخل. أنا المسؤول عن الضيوف».

ولجا الرواق المسقوف. كانت سرعة الريح قد ازدادت، ودوَّم الرمل فوق بلاط الأرضية، وطوَّقت عاصفة هوائية معتمة وجه الشمس، فساد الظلام.

في وسط الفناء كانت هناك بئر جافة فاغرة فاها، وفي وقت من الأوقات كانت تمتلئ بالماء، أما الآن فقد أضحت مملوءة بالرمال. وبرزت عظاءتان لتتشمسا على حافتها المتآكلة.

كان باب صومعة رئيس الدير مفتوحاً. أمسك الراهب الزائر من ذراعه وقال «انتظر هنا ريثما أطلب الاذن من الأخوة. لا تتزحزح»

عقد ذراعيه على صدره ودخل، وكان الكلبان قد جثما على

جانبي باب رئيس الدير، يشرئبان بعنقيهما، ويشمّان الهواء ويعويان بنبرة حزينة.

كان رئيس الدير ممدداً في منتصف الصومعة، وقدماه باتجاه الباب، وحوله الرهبان الساهرون ينعسون ، وقد أرهقهم السهر طوال الليل. وكان وجه المريض ، الممدد هكذا على فرشته، مشدوداً على الدوام وعيناه مفتوحتين، مثبتتين على ممر الباب المفتوح. وكان الشمعدان السباعي الأفرع مايزال موضوعاً بجوار وجهه، يضيء التقوس اللامع لجبينه، وعينيه النهمتين، وأنفه الشبيه بمنقار الصقر، والشفتين ذاتي اللون الأزرق الباهت واللحية البيضاء المسترسلة التي تصل حتى خصره وتغطي صدره العاري ، البارز العظام. وكان الرهبان قد ألقوا بخوراً معجوناً ببتلات الورد اليابسة الى الجمر المتوهج في مبخرة خزفية ، وقد غزا العبق الجو.

دخل الراهب، وقد نسي سبب دخوله ، وجلس القرفصاء عند العتبة ، بين الكلبين.

كانت الشمس الآن قد انتشرت على الباب بكامله وتحاول أن تلمس قدميّ رئيس الدير . وكان ابن مريم واقفاً في الخارج ينتظر . ولم يكن يسمع غير صوت عواء الكلبين الناحب، وضربات بطيئة منتظمة لمطرقة على السندان عن بعد.

انتظر الزائر وطال انتظاره، وانتصف النهار، يبدو أنهم نسوا أمره. لقد كان الليل مصقعاً، أما الآن وهو واقف خارج الصومعة فشعر بدفء شمس الصباح اللذيذ يتغلغل في عظامه.

فجأة كسر حاجز الصمت صوت الراهب الذي كان يقوم بواجب الحراسة على الصخرة : «هاهما آتيان ! هاهما آتيان!»

استيقظ الرهبان الموجودون في صومعة رئيس الدير مجفلين وهرعوا خارجين ، تاركين رئيس الدير وحده.

تمالك ابن مـريم نفسـه وتقـدم خطـوتين ، في وجل، ثم توقف عند العتبـة. وكـان سكون الموت، الخلود،يخيِّم فـي الداخل، وكـانت قدما رئيس الدير الشاحبتان، النحيلتان تومضان، تستحمان بأشعة الشـمس. طنَّت نحلة بالقـرب مـن السـقف، وطارت حـشـرة سـوداء طانَّةً مـتنقلة بسـرعة بين الشـمـوع السـبـعة، تقفـز من واحـدة الى الآخرى وكأنها تحاول أن تتقي محرقتها.

فـجـأة تحـرك رئيس الدير، واسـتـجـمع كل قـواه، ورفع رأسـه، وعلى الفور حجظت عيناه من مـحجـريهمـا، وفغر فاه، وراح منخـراه يشـمَّـان الـهـواء، وينتـفـضـان نهـمـاً. وضع ابن مـريم يده على قلبـه ،وشفتيه وجبينه، مقدماً التحية.

تحـركت شفتا رئيس الدير، وتمتم بصوت غير واضح، حتى أن ابن مـريم لم يسـمع شـيـئـاً «لقـد أتيتَ... أتيـتَ... أتيتَ...»، لكن ابتـسـامـة ذات جـمـال لا يوصف انتـشـرت على وجـه رئيس الدير، القاسي، المشبع بالمرارة، وفي الحال أغمضت عيناه، وتوقف منخراه عن الحـركة، وأغلق فمه ويداه اللتـان كانتا متـصـالبتين على صـدره انحـدرتا واحـدة الى اليـمين والأخـرى الى اليـسـار واسـتـقـرتا على الأرض وكفاهما المفتوحتان تتجهان الى أعلى.

في تلك الأثناء كـان الجـمـلان قـد أنـاخـا في الفنـاء، وهـرع الرهبان لمساعدة الحبر العجوز على الترجل، وسـأل الراهب المبتدئ بنبرة صوت متألمة «أهو حي، أما زال حياً!»

أجـاب الأب حبَّقـوق «مـازال يتنفَّس. إنه يرى ويسـمـع كل شـيء، لكنه عاجز عن الكلام»

دخل الحبر أولاً، متبوعاً بالمبتدئ حـاملاً الحقيبة النفيسة التي تحتوي على مراهم المداوي، وأعشابه وتمائمـه السحرية. ولم يزعج الكلبـان الأسـودان، اللذان وضـعـا ذيليـهـمـا بين قـوائمـهـمـا، حـتى

بالالتفات نحوه. فقد كان عنقاهما ممدودين على الأرض وهما يعويان بنبرة حزينة، وكأنهما من البشر.

سمعهما الحبر وهز رأسه،وقال في نفسه ، لقد تأخرتُ في المجيء، لكنه لم يتكلم.

ركع بجوار رئيس الدير، ومال على جسده ووضع يده على قلبه. وكادت شفتاه تلامسان شفتي رئيس الدير.

همس «فات الأوان. تأخرتُ كثيراً في المجيء... أطال الرب أعماركم أيها الآباء!»

انحنى الرهبان، وهم ينوحون بصوت عال، وراحو يقبّلون الجثة، كلٌ حسب طول مدة خدمته، وفق العرف: يقبّل الأب حبقوق العينين، وبقية الرهبان اللحية والكتفين المقلوبين الى أعلى، والرهبان المبتدئين يقبلون القدمين. وتناول أحدهم صولجان رئيس الدير من المقعد الكنسي الخالي ووضعه بجوار الجثمان المقدس.

ركع الحبر العجوز وراح يتأمله،لا يقوى على ابعاد عينيه عنه. مامعنى تلك الابتسامة التي تنم عن الانتصار ؟ أي معنى يخفيه الضياء الغامض الذي يحيط بالعينين المغمضتين؟ ثمة شمس، شمس لا تغرب، سقطت أشعتها على هذا الوجه واستقرت هناك. فأي شمس هي؟

تلفّت حوله. الرهبان مازالوا راكعين يعبّرون عن ولائهم للفقيد، ويوحنا شفتاه ملصقتان بقدمي رئيس الدير، يبكي. راح الحبر العجوز ينقّل بصره بسرعة من راهب الى آخر وكأنه يستجوبهم، وفجأة لمحت عيناه ابن مريم واقفاً لا يأتي بحركة، ساكناً في الزاوية الخلفية للصومعة، وذراعاه معقودتان على صدره. ولكن على وجهه كله انتشرت الابتسامة الهادئة المنتصرة ذاتها.

همس الحبر المرعوب «يا رب الجنود، يا أدوناي، ألن تكف قط

عن غواية قلبي؟ ساعد عقلي الآن على أن يفهم ـ ويقرر!»

في اليوم التالي برزت شمس غاضبة ، لونها بلون الدم تحيط بها عاصفة ظلماء تنبثق من قلب الرمال. وهبت ريح شرقية ملتهبة قادمة من الصحراء، وعمَّ الظلام العالم . حاول كلبا الدير الأبنوسيان أن ينبحا، لكن فميهما امتلآ بالرمال فلزما الهدوء. والتصق الجملان بالأرض، وأغمضا عيونهما وانتظرا.

تلّمس الرهبان طريق تقدمهم ببطء، وقد اتصلوا معاً كحلقات سلسلة يجاهدون كي لا يسقطوا. تقدَّموا ، في طريقهم لدفنه، يتزاحمون معاً في رتل واحد ممسكين بجثمان رئيس الدير بحزم بأذرعهم لكي لا تنتزعه الريح منهم. كانت الصحراء تتمايل ، ترتفع وتنخفض كالبحر.

غمغم يوحنا وهو يميل بكامل جسمه على ابن مريم «انها رياح الصحراء؛ أنفاس يهوه. تُذبل كل ورقة خضراء، وتُنضب كل الينابيع ، وتملأ فمك بالرمال. إننا ببساطة سنترك الجثمان في احدى الحفر، وستتولى أمواج الرمال أمر دفنه»

حالما تخطّوا عتبة الدير اذا بذي اللحية الحمراء، ومطرقته على كتفه، يبرز أسود ضخماً من الضباب العاصف ويلقي عليهم نظرة سريعة، لكنه سرعان ما اختفى تلفه غلالة من الرمال. رأى ابن زبدى هذا الغول يظهر من قلب العاصفة الرملية، فأصابه الرعب وتشبث بذراع رفيقه.

سأله بصوت منخفض «من هذا؟ أرأيته؟»

لكن ابن مريم لم يجب، وقال في نفسه إن الرب يعدُّ كل شيء بدقة تامة، وبما يتطابق ومشيئته. انظر كيف جمعنا يهوذا وأنا معاً ـ هنا وسط الصحراء ، على أطراف الأرض. حسن يا رب فلتكن ارادتك.

تقدموا جميعهم معاً، منحنيي الظهور، وهم يغرزون أقدامهم في الرمال اللاهبة. حاولوا أن يغطوا أفواههم وأنوفهم بأطراف أرديتهم ، لكن الرمل الناعم كان قد دخل الى حناجرهم ورئاتهم. وفجأة أطاحت الريح بالأب حبَّقوق الذي كان يسير في المقدمة. دوَّمت حوله وطرحته أرضاً. ووطأه الرهبان بأقدامهم وقد أعمتهم سحب الرمال. أطلقت الصحراء صفيرها، وجلجلت الحجارة، وأفلتت من العجوز حبَّقوق صرخة أجشة، ولكن أحداً لم يسمعه.

كان ابن مريم يقول في نفسه، لماذا لا تكون أنفاس يهوه نسائم منعشة تهب علينا من البحر الكبير؟ ودَّ لو يطرح هذا السؤال على رفيقه لكنه لم يتمكن من فتح فمه. لماذا لا تملأ رياح يهوه الآبار الجافة في الصحراء بالمياه؟ لماذا لا يحب الرب الخضرة ويرأف بالبشر؟ آه، ليت رجلاً واحداً يظهر ويتقدم منه، ويخر على قدميه وينجح، قبل أن يتحول الى رماد، في أن يحكي له عن آلام البشر، وعن آلام الأرض والأوراق الخضراء!

كان يهوذا مايزال واقفاً في ممر الباب الواطئ للصومعة المنعزلة التي منحه اياها الرهبان ليستخدمها كورشة عمل. كان يراقب موكب الجنازة وهو يترنح وتتقاذفه الرياح، يغيب عن الأنظار ويختفي في لحظة، وفي اللحظة التالية يعود للظهور، وكادت خاصرتاه تتفلقان من الضحك. ولمح الشخص الذي كان يتصيده ، وبرقت عيناه من السرور. همس قائلاً «ما أعظم رب اسرائيل، انه يعدُّ كل شيء بشكل رائع. لقد أحضر الخائن حتى رأس خنجري».

ولج الى الداخل مداعباً شاربه بابتهاج. كانت الصومعة مظلمة، لكن الجمر المشتعل كان يتوهج بقوة في الموقد الصغير الكائن في الزاوية. وكان الراهب ذو الكفلين القصيرين، شبه القديس وشبه المجنون، ينخس النار، ومنفاخ في يده.

كان مزاج الحداد رائقاً، فقال «هيه ، أيها الأب يربُعام، أهذه التي يسمُّونها رياح الرب؟ انها تعجبني ، تعجبني كثيراً . أنا أيضاً كنت سأنفخها ، لو كنت مكان الرب»

ضحك الراهب، وقال «أما أنا فما كنتُ نفخت أي شيء - لقد هلكت»، وترك المنفاخ لكي يجفف العرق عن جبينه وعنقه.

تقدم منه يهوذا ، وسأله «هل تقدم لي معروفاً أيها الأب يربعام؟ بالأمس حلَّ شاب يافع ذو لحية سوداء قصيرة ضيفاً على الدير، نصف معتوه مثل فضيلتكم ، وهو حافي القدمين ويعصب رأسه بمنديل منقط بالأحمر»

قال الراهب وهو يتخذ هيئة فخيمة مصطنعة «كنت أنا أول من رآه. ولكن يا عزيزي الحداد انه ليس فقط نصف معتوه، بل مجنون تماماً مثلهم ! يقول إنه رأى حلماً وانه جاء من الناصرة لكي يحلّ له رئيس الدير - أراح الرب روحه - لغزه»

«حسن، اذن، اسمع : أنت المسؤول عن الضيوف، أليس كذلك؟ وكلما حل شخص ضيفاً، ألست من يعد له صومعة، ويرتب له سريره، ويقدم له الطعام؟»

«هذا عملي، دون شك! ويبدو أن لا نفع لي في أي عمل آخر، لذا جعلوا مني مسؤولاً عن الضيوف. فأنا أغسل، وأكنس وأطعم الزوار»

«عظيم! ضع سريره في صومعتي هذه الليلة، فأنا لا أستطيع أن أنام وحدي، يا يربعام - كيف أشرح الأمر؟ تراودني كوابيس، يأتي شياطين ويغوونني، وأخشى أن تصيبني اللعنة وأذهب الى الجحيم. لكني حالما أشعر بوجود كائن بشري يتنفس بالقرب مني أهدأ. هيا، افعل. وسوف أقدم لك هدية: مجزّة للخرفان لكي تشذِّب لحيتك. ويمكنك أيضاً أن تحلق للرهبان، وتقص شعرالجمال

ـ ولن يقال عنك بعد الآن أنك غير موهوب. أتسمع ما أقول؟»

«أحضر لي المِجزّة!»

نقّب الحداد في حقيبته ثم أخرج منها مقصاً ضخماً صدئاً. انتزعه الراهب منه وقرَّبه من الضوء، فتحه، وأغلقه. وكان اعجابه به بلا حدود.

همس، وهو مذهول تماماً «ما أعظمك يا رب، وما أجلَّ أعمالك!»

قال يهوذا وهو يهزه بعنف ليوقظه «ماذا قلت؟»

أجابه الراهب «سيكون معك هذه الليلة»، وشدَّ قبضته على المجزة وغادر.

كان الآخرون قد عادوا، لم يتمكنوا من الابتعاد كثيراً، فقد دوَّمت رياح يهوه حولهم وطوَّحت بهم أرضاً. ثم عثروا على حفرة فرموا بالجثة الى داخلها ونادوا على الأب حبَّقوق كي يتلو الصلاة، لكنهم لم يعثروا عليه في أي مكان، فمال حبر الناصرة العجوز فوق الحفرة وهتف للَّحم الخالي، الفارغ من الروح : «من رماد، والى الرماد تعود. غادرتك الروح، ولا حاجة لك بعد الآن، لقد أديت واجبك . أيها اللحم، لقد أديت واجبك : ساعدت الروح على الهبوط الى منفاها الأرضي؛ على أن تسير مدة بضع دورات شمسية وقمرية فوق الرمال والحجارة؛ وعلى أن تأثم؛ وتشعر بالألم؛وأن تهفو الى السماء، الى أرض أبيها، وأن تهفو الى الرب، أبيها. أيها اللحم، رئيس الدير لم يعد بحاجة اليك: فتلاشَ!»

حتى أثناء ماكان الحبر يتكلم تشكلت طبقة من الرمل الناعم على جثة رئيس الدير: اختفى خلفها الوجه،واللحية واليدان. وهبَّت سحب أخرى من الرمال، وعاد الرهبان أدراجهم على عجل. وحالما انتزع المسؤول عن الضيوف نصف المعتوه مجزّة الخرفان وغادر

الحداد، أخذ الرهبان، المعميُّون، المشققو الشفاه الذين بليت آباطهم بالاحتكاك، يتسربون الى داخل الدير، حاملين العجوز حبقوق، الذي كانوا قد عثروا عليه في طريق عودتهم، نصف مدفون في الرمال.

دلك الحبر العجوز عينيه، وفمه وعنقه بقطعة قماش مبلّلة، وجلس القرفصاء على الأرض أمام كرسي رئيس الدير الخالي. وكان بامكانه أن يسمع من خلف الباب المرتج أنفاس يهوه تحمّص العالم وتطمس معالمه. وأخذ يستعرض الأنبياء وهم يمرون في رأسه من صدغ الى صدغ.

كانوا في مثل هذا الجو المحموم يهتفون منادين الرب، ولابد أنهم شعروا لدى اقتراب رب الجنود باحتراق مشابه في شفاههم وعيونهم. وغمغم «هذا مؤكد! الرب ريح لاسعة، ومضُ برق - أعرف ذلك. إنه ليس بستاناً في ذروة تفتّحه. وقلب الانسان ورقة خضراء : يلوي الرب سويقها حتى تذوي. فما عسانا أن نفعل، كيف نتصرف حياله لكي نرقق قسماته؟ اذا قدّمنا له الأضاحي يصرخ «لا أريدها، لا أريد لحماً، إن جوعي لا يشبع إلا بتلاوة المزامير»، واذا فتحنا أفواهنا وبدأنابترتيل المزامير، يصرخ «لا أريد كلمات، لاشيء غير لحم الحمل، الابن، الابن الوحيد، يشبع جوعي!»

أطلق الحبر العجوز تهيدة. لقد أحنقه التفكير في الرب، وأهلكه. وبحث عن زاوية ليستلقي فيها. وكان الرهبان المرهقون من قلة النوم قد توزعوا على صوامعهم ليأووا الى أسرّتهم وليحلموا برئيس الدير. إن روحه ستظل تحوم في أرجاء الدير مدة أربعين يوماً، وستدخل الى صوامعهم لترى مايفعلون، ولتمنحهم النصيحة أو لتقرعهم. لذا استلقوا لينالوا قسطاً من الراحة وليشاهدوه في منامهم. تلفت الحبر العجوز ينظر فيما حوله. فلم ير أحداً. كانت الصومعة خالية الا من الكلبين الأسودين. كانا قد دخلا، وتمددا

على حجارة الأرضية اللوحية، وكانا يعويان بحزن وهما يشمان الكرسي الكهنوتي. وفي الخارج كانت الرياح السريعة تضرب على الباب : هي أيضاً تريد أن تأوي الى الداخل.

ولكن حالما استعد الحبر للاستلقاء بجوار الكلبين اكتشف وجود ابن مريم واقفاً لا يأتي بحركة في الزاوية ، ويراقبه. وعلى الفور فرَّ النوم من عينيه الناعستين. استقام في جلسته وقد اضطرب حاله،وأومأ الى ابن أخيه. ويبدو أن الشاب كان بانتظار أن يُدعى. تقدَّم، وابتسامة مُرَّة ترتعش على شفتيه.

قال الحبر «اجلس يا يسوع. أريد أن أتحدث معك»

أجاب الشاب «أنا منصت»، وركع قبالته، «أنا أيضاً أريد أن أتحدث معك يا عمي شمعون»

«عمَّ تبحث هنا؟ إن أمك تطوف في القرى بحثاً عنك، وتندب»

أجابه الشاب «هي تبحث عني؛ وأنا أبحث عن الرب. ولن نلتقي»

«أنت قاسي القلب. أنت لم تكنّ أي حب لأبيك ولأمك كما يجدر بالبشر أن يفعلوا»

«هذا أفضل. ان قلبي أشبه بجمرة مشتعلة. وهي تحرق كل من يلمسها»

«ماذا ألم بك؟ كيف تقول هذا؟ ماذا ينقصك؟». قال الحبر هذا مشرئباً برأسه ليدقق النظر في ابن مريم. كانت عينا الشاب تكادان تفيضان بالدمع «إن ألماً دفيناً ينهشك يا ولدي. اعترف لي واسترح. إن الألم المدفون عميقاً ـ»

فقاطعه الشاب، وابتسامة مريرة تنتشر على وجهه كله «ألم واحد؟ ليس واحداً، بل عديدا!»

هذه الصرخة التي تفطر القلب أفزعت الحبر، فوضع يده على

ركبة الشاب ليمنحه الشجاعة، وقال برقة «أنا منصت يا ولدي، أخرج مالديك الى النور، ادفعها خارج أحشائك. انها تصارع في الظلام، والنور يقتلها. لا تخجل أو تخف ـ تكلم!»

ولكن لم يكن لدى ابن مريم أي فكرة كيف يبدأ أو ماذا يقول : ماذا يُبقي دفيناً في قلبه، وبماذا يعترف ليرتاح. الرب، المجدلية الاثام السبعة، الصلبان، الصلب ـ كلها كانت تخترقه وتمزق أحشاءه.

تأمله الحبر بنظرة توسُّل أخرس وربت على ركبته.

أخيراً قال، بصوت خفيض، رقيق «ألا تستطيع يا ولدي؟ ألا تستطيع؟»

«لا يا عمي شمعون، لا أستطيع»

سأله، وقد بات صوته الآن حتى أكثر رقة وحناناً «هل تكتنفك غوايات عديدة؟»

أجاب الشاب مرعوباً «العديد منها، العديد»

قال الحبر متهداً «حين كنتُ شاباً يا ولدي؛ انا أيضاً تعرَّضت لمعاناة كبيرة. لقد عرّضني الرب للعذاب واختبرني كما يفعل معك: أراد أن يعرف إن كنتُ سأتحمَّل، والى أي حد. أنا أيضاً تعرضت لغوايات كثيرة. لم أخف من بعضها ـ تلك التي تحمل وجوهاً همجية ـ أما الأخرى، الوديعة، المفعمة بالعذوية، فتلك التي خشيتها؛ وكما تعلم، أتيت الى هذا الدير بحثاً عن الراحة، كما فعلت أنت. لكن الرب لا يتخلى عن المطاردة، وهنا، هنا بالذات، سقطت. أرسل اليَّ غواية على شكل امرأة للأسف؛ استسلمت أمام هذه الغواية، ومنذ ذلك الحين ـ لعل هذا ما أراده الرب، وربما لهذا راح يعذبني ـ منذ ذلك الحين هدأت غلوائي، وكذا الرب: تصالحنا، ونحن الآن أصدقاء. أنت أيضاً يا ولدي ستتصالح مع

الرب بالطريقة ذاتها - وستُشفى»

هز ابن مريم رأسه نفياً، وغمغم «لا أعتقد أنني سأشفى بسهولة»، ثم لزم الصمت، كما فعل الحبر الجالس بقربه. كانا معاً يتنفسان بسرعة، يلهثان.

قال الشاب «لا أعرف من أين ابدأ. إنني لن أبدأ أبداً: إنني مسربل بالعار» وهم بالنهوض.

لكن الحبر أبقى قبضته القوية على ركبة الشاب، وأمره «لا تنهض، لا ترحل. الشعور بالخجل أيضاً غواية. اقهره - ابقَ! سوف أطرح عليك بعض الأسئلة، أنا سأسأل وعليك بالصبر وأجبني ... لماذا أتيت الى الدير؟»

«لأنقذ نفسي»

«لتنقذ نفسك؟ ممَّ؟ ممَّن؟»

«من الرب»

صرخ الحبر مضطرباً «من الرب»

«انه يطاردني ، ويغرز أظافره في رأسي، وفي قلبي، وفي عورتي. يريد أن يدفع بي -»

«الى أين؟»

«من فوق الجرف»

«أي جرف؟»

«جرفه. يقول إن عليَّ أن أنهض وأتكلم. ولكن ماذا عساي أقول؟ فصرخت في وجهه «دعني وشأني، ليس لدي ما أقوله!»، لكنه رفض. فقلت له «أها، اذن فأنت ترفض، أليس كذلك؟ حسن، اذن الآن سأريك - سأجعلك تمقتني، بعدها ستدعني وشأني...»، وعلى هذا رحت أقترف كل صنوف الإثم»

هتف الحبر «اقترفتَ كل صنوف الاثم؟»

لكن الشاب لم يسمعه، فقد كان مغلوباً بمشاعر السخط والألم.

«لماذا اختارني أنا؟ ألم يكشف عن مكنون صدري وينظر اليه؟ ان كل أنواع الأفاعي المتضافرة هناك تهسُّ، تهسُّ وتتراقص - تمثل كل الآثام. وفوق كل هذا...»

علقت الكلمة في حنجرته. سكت. وتفصَّد العرق من جذور شعره.

سأله الحبر برقة «وفوق كل هذا؟»

قال يسوع، رافعاً رأسه «المجدلية!»

«المجدلية!»

أصبح وجه الحبر شاحباً.

«بسببي، بسببي آلت الى ما آلت اليه. لقد دفعتُها للانغماس في متع الجسد حين كنت ما أزال طفلاً - نعم، أعترف. اسمع أيها الحبر، إن كنت ترغب في أن تصاب بالرعب. حدث ذلك حين كنت في حوالي الثالثة من عمري. تسللت الى منزلكم في وقت لم يكن فيه أحد. أمسكت بيد المجدلية ، ثم خلعنا ملابسنا وتمددنا على الأرض، ورحنا نضغط أخامص أقدامنا الحافية. ماكان أكبر تلك المتعة،ما أمتع ذاك الاثم! ومنذ ذلك الحين سارت المجدلية في طريق الضياع، ضاعت - لم يعد بامكانها ان تعيش بلا رجل، بل بلا رجال»

نظر الى الحبر العجوز، لكن الآخر كان قد وضع رأسه بين ركبتيه ولزم الصمت.

هتف ابن مريم وهو يضرب على صدره «انها غلطتي، غلطتي أنا! أنا!» ثم تابع بعد برهة «وليت الأمر توقف عند هذا الحد! لكن منذ فترة طفولتي ، أيها الحبر، لم أكتف فقط بالاحتفاظ بشيطان

الفسوق كامناً عميقاً داخلي وانما أيضاً بشيطان الكبر. حتى وأنا صغير ـ ولم أكن أقوى على المشي عندئذ، وكنت أسير على طول الحائط، متمسكاً به لكي لا أقع ـ حتى عندئذ كنت أهتف لنفسي ـ آه، أية صفاقة ! أية صفاقة! ـ «يارب اجعلني رباً! يارب، اجعلني رباً ! يا رب، اجعلني رباً»، وذات يوم كنت أحمل كمية كبيرة من العنب بين ذراعيّ، فمرت بي امرأة غجرية. اقتربت مني وجلست القرفصاء، وتناولت يدي، ثم قالت «أعطني العنب وأخبرك عن حظك»، فأعطيتها اياه. فمالت ونظرت في كفي، وهتفت «أوه، أوه، أرى صلباناً ـ صلباناً ونجوماً»، ثم أخذت تضحك «سوف تصبح ملكاً على اليهود»، وغادرت. لكني صدَّقتها وغلبتني الخُيلاء، ومنذ ذلك الحين يا عمي شمعون لم أعد متمالكاً لقواي العقلية. انت أول شخص أخبره بهذا ، يا عمي شمعون ـ حتى الآن لم أكن قد اعترفت به لأي انسان : منذ ذلك اليوم وأنا لست متمالكاً لقواي العقلية».

صمت برهة من الوقت، لكنه صرخ قائلاً «أنا الشيطان! أنا! أنا!»

رفع الحبر رأسه من بين ركبتيه وقبض بيده على فم الشاب. أمره «اصمت!»

قال الشاب المهتاج «لا، لن أصمت مادمت قد بدأت فقد فات الأوان. لن أصمت أنا كاذب، مراء، انني أخاف من ظلّي، ولم أقل الحق قط ـ فلست أتحلى بالشجاعة اللازمة. انني حين أشاهد امرأة مارة أحمرُّ خجلاً وأطرق رأسي. لكن عينيّ تمتلئان بالشهوة. انني لم أرفع يدي قط لأسرق أو لأضرب أو لأقتل ـ ليس لأنني لا أريد ذلك بل لأنني خائف. خائف!

أريد أن أتمرد على أمي، وعلى قائد المئة، وعلى الرب ـ لكني خائف. خائف! خائف! لو تنظر داخلي لرأيت الخوف مجسَّداً ،

لرأيت أرنباً يرتجف، قابعاً في أحشائي ـ الخوف، ولاشيء غيره . وهو أبي، وأمي وربي».

تناول الحبر العجوز يدي الشاب وضمَّهما بين يديه، ليهدِّئ من روعه. لكن جسد يسوع كان ينتفض بعنف.

قال الحبر، مهدِّئاً اياه «لا تخف يا ولدي، كلما زادت الشياطين داخلنا، زادت فرصتنا لخلق الملائكة. «الملاك» هو الاسم الذي نطلقه على الشياطين التائبين ـ فكن مؤمناً ... لكني أودُّ أن أسألك سؤالاً واحداً فقط : يسوع ، هل سبق لك قط أن ضاجعت امرأة؟»

أجاب الشاب برقة «لا»

«ألا ترغب بذلك؟»

احمرَّ وجه الشاب خجلاً، ولم يحر بكلمة، لكن الدم كان ينبض بعنف في صدغيه.

عاد العجوز يسأله «ألا ترغب بذلك؟»

أجاب الشاب بصوت خافت جداً حتى بالكاد سمعه الحبر «أرغب».

لكنه على الفور انتفض وكأنه استيقظ لتوه ، وصرخ «لا، لا أرغب، لا أرغب!»

سأله الحبر «ولم لا؟»، ولم يكن يرى دواءاً آخر لشفاء آلام الشاب. لقد كان يعرف من تجربته الخاصة ومن التجارب التي لا تحصى لأولئك الممسوسين بالشياطين الذين يأتون اليه يلعنون، ويرغون ويزبدون ويصرخون قائلين إن العالم أصغر من أن يسعهم : فيتزوجون، واذا بالعالم لا يعود صغيراً جداً، وينجبون أطفالاً ، وتهدأ غلواؤهم»

قال الشاب بصوت ثابت «لا يكفيني هذا. احتاج الى شيء أعظم»

هتف الحبر مندهشاً «ألا يكفيك؟ حسن، حسن، ماالذي تريده اذن؟»

عبرت المجدلية بخطوتها الواثقة، وردفيها العاليين أمام عين خيال الشاب، مكشوفة الصدر، تغطي المساحيق عينيها ، وشفتيها ووجنتيها. ضحكت فلمعت أسنانها في ضوء الشمس، ولكن بينما هي تتلوى رائحة غادية من أمامه، كان جسدها يتبدل، يتضاعف، ثم رأى ابن مريم بحيرة، لابد أنها بحيرة جنيسارت، وحولها آلاف الرجال والنساء ـ آلاف من المجدلية ـ بوجوه سعيدة، مستبشرة، وهبطت الشمس عليها فأشرقت. ولكن لا، لم تكن الشمس هي السبب بل هو نفسه، يسوع الناصري ، الذي مال على تلك الوجوه وجعلها تفيض بالضياء، ولم يعرف إن كان السبب في ذلك هو الفرح، أم الرغبة أم الخلاص: كل ما رآه كان سناءاً.

سأل الحبر «بم تفكر؟ لماذا لا تجيبني؟»

انفجر الشاب يسأل على عجل «هل تؤمن بالأحلام يا عم شمعون؟ أنا أؤمن ، ولا أؤمن بغيرها. ذات ليلة حلمت بأن أعداءاً غير مرئيين أوثقوني الى شجرة سرو يابسة . وكانت تخترقني سهام حمراء طويلة من رأسي الى قدمي، وكان الدم يتدفق. ووضعوا على رأسي تاجاً من الشوك، وقدانضفرت مع الشوك كلمات من نار تقول «قديس كافر». أنا قديس كافر، أيها الحبر شمعون. فمن الأفضل أن لا تسألني حول أي شيء، والا بدأت أكفر»

قال الحبر مهدئاً، وهو يمسك من جديد بيده «هيا يا ولدي ـ إبدأ، ابدأ بكفرك وأرح نفسك»

«ثمة شيطان داخلي يصرخ «أنت لست ابن النجار، أنت ابن الملك داوود! أنت لست انساناً، أنت ابن الانسان الذي تنبّأ بقدومه دانيال. بل أكثر من ذلك : أنت ابن الرب بل أكثر من ذلك: أنت الرب!»

أنصت الحبر، وهو يميل الى الأمام، وسرت رعشة في أعضاء جسده المتداعي وكان الزبد يحف بشفتي الشاب المشققتين، ولسانه ملتصق بحنكه: لم يعد يقوى على الكلام. ثم ماذا عساه يزيد؟ لقد قال كل ماعنده،وشعر بأن قلبه قد استُنزف، فخلّص يديه من قبضة الحبر، ونهض واقفاً، ثم استدار نحو العجوز وقال ساخراً «هل من أسئلة أخرى؟»

أجاب العجوز «لا»، وشعر بأن قواه كلها تتسرب منه الى الأرض وتتلاشى. خلال حياته انتزع العديد من الشياطين من أفواه الرجال. كان الممسوسون يأتونه من أطراف الأرض وكان يشفيهم. غير أن شياطينهم كانت صغيرة، سهلة القياد : شياطين الاغتسال، والغضب، والمرض. أما الآن ... كيف يمكنه أن يصارع شيطاناً كهذا؟

في الخارج كانت رياح يهوه ماتزال تضرب على الباب، تحاول أن تدخل. ولم يكن يسمع صوت آخر. لا يوجد ابن آوى واحد على الأرض، ولا غراب في الجو. كان كل كائن حي يجثم منكمشاً من الخوف، ينتظر أن يهدأ غضب الرب.

الفصل الحادي عشر

اتكأ ابن مريم على الجدار وأغمض عينيه. المرارة تملأ فمه، مرارة سامة. والحبر الذي حشر رأسه مرة أخرى بين ركبتيه أخذ يتفكر في الجحيم والشياطين وفي قلب الانسان...لا، الجحيم بشياطينه لا يوجد في حفرة عظيمة تحت الأرض، بل في صدور البشر، في صدر أشدّهم فضيلة وعدالة. الربُ لُجٌّ ، والانسان لجٌّ - والحبر العجوز لا يجرؤ على فتح قلبه ليرى مابداخله.

مرَّ بعض الوقت لم يتبادلا خلاله الكلام. كان صمتاً عميقاً ... حتى الكلبين الأسودين استغرقا في النوم : تعبا من العويل على الميت. وفجأة انبعث هسيس عذب ثاقب من الفناء. قفز يربعام نصف المعتوه واقفاً ، وكان أول من سمعه. كانت رياح يهوه دائماً مصحوبة بمثل هذا الهسيس الجميل الصادر عن الفناء، وكان الراهب يقفز ابتهاجاً كلما وصل هذا الصوت الى أذنيه. كانت الشمس تغرب، لكن الفناء بكامله كان مايزال يغتسل بالضياء، وميَّزت عينا الراهب على البلاط الحجري المجاور للبئر الجافة حية كبيرة ، سوداء مع زخرفات صفراء، ترفع عنقها المنتفخ ، وتهز

لسانها، وتهس. لم يكن يربعام قد سمع أنغاماً أشد اغواءاً من تلك التي تصدر عن حلق الحية. وفي الصيف حين كان بدوره يحلم بين الحين والآخر بامرأة، كانت تظهر له على هذه الصورة، أشبه بحية تتسلل منزلقة الى فراش نومه، وتقرِّب لسانها من أذنه، وتهسّ...

في هذه الليلة خرج يربُعام بخفة مرة أخرى من الصومعة، وحبس أنفاسه واقترب من الحية المهتاجة. كانت تصفّر، نظر اليها، وأخذ هو أيضاً يصفّر ويشعر بدفء الحية يتغلغل في جسده. ثم ، شيئاً فشيئاً، أخذت حيات أُخَر تخرج من البئر الجافة أو من قلب الرمال، أو من حول نبات الصبار: واحدة بقمة رأس زرقاء، وأخرى خضراء ولها قرنان، وغيرها صفراء اللون، ورقطاء، وسوداء... انزلقت بسرعة كجريان الماء متقدمة لتنضم الى الحية الأولى، الطعم الجاذب، ولتنتظم معاً بشكل سلسلة، تحتكّ احداها بالأخرى، وتلعق احداها الأخرى: كعنقود من الحيات معلّق في وسط الفناء، ويربُعام يفتح فمه ويسيل لعابه، وكان يقول في نفسه، هذا هو الجنس، هكذا يتزاوج الرجال والنساء، ولهذا طردهم الرب من الجنة... وراح جسمه المحدودب الذي لم يتلق قبلة واحدة من قبل يتمايل الى الأمام والى الخلف مع حركة الحيات.

سمع الحبر الصوت المغوي، فرفع رأسه، وأخذ ينصت. قال في نفسه، تهب رياح الرب الملتهبة ووسط معمعانها تتزاوج الحيات، وتتضاجع! ولبرهة من الزمن استسلم العجوز للغواية وبدأ يتلوى. ولكن فجأة سرت فيه رجفة. قال لنفسه، إن كل شيء من الرب، ولكل شيء معنيان، واحد ظاهر، والآخر مستتر. والعامة لا تدرك إلا الظاهر منهما. يقولون «هذه حية»، ولا يذهب عقلهم لأبعد من ذلك، لكن العقل الذي يسكن في الرب يرى ما يكمن خلف الظاهر. يرى المعنى الخفي. إن هذه الحيات التي زحفت خارجة اليوم أمام

أبواب هذه الصومعة وأخذت تهسّ في هذه اللحظة بالذات، مباشرة بعد ادلاء ابن مريم باعترافه، لاشك أنه يكمن خلفها معنى عميق، مستتر، ولكن ماهو؟

تكوَّر كالكرة على الأرض وكان صدغاه ينبضان بشدة. ماهو المعنى؟ تصبَّب العرق البارد من وجهه الذي لفحته أشعة الشمس. أحياناً كان يلقي نظرة من زاوية عينه الى الشاب الشاحب الجالس قريباً منه، وتارة ينصت بانتباه، مغمض العينين فاغر الفم، الى الحيات التي في الخارج. ماهو المعنى؟

كان قد تعلّم لغة الطير من طارد الأرواح الشريرة العظيم يوشفاط، رئيسه السابق، الذي كان رئيساً للدير حين جاء الى الدير ليغدو راهباً. كان بوسعه ترجمة أقوال طيور السنونو، واليمام والنسور. وكان يوشفاط قد وعده أيضاً بتعليمه لغة الحيات، لكنه توفي وأخذ السر معه. هذه الحيات في هذه الليلة تحمل معها دون شك رسالة، ولكن مافحواها؟

عاد من جديد يتكور ويعصر رأسه بين يديه، وكان عقله يدمدم. أمضى فترة طويلة يتلوى ويتنهد وشعر وكأن صواعق بيضاء وسوداء تمزق عقله. ما الفحوى؟ ماالرسالة؟ وفجأة أطلق صرخة، ونهض واقفاً، ثم تناول صولجان رئيس الدير واتكأ عليه.

قال بصوت خفيض «يا يسوع، كيف حال قلبك؟»

لكن الشاب لم يسمع. كان غارقاً في جذل يعصى على الوصف. هذه الليلة ، وبعد مرور سنين عديدة، هذه الليلة ، الليلة التي قرر فيها أن يعترف ويفضي بمكنوناته، تمكن ولأول مرة من أن يسبر ظلام قلبه ويميِّز الحيات التي كانت تهسُّ داخله، واحدة واحدة. أعطاها أسماءاً، وبينما هو يفعل ذلك شعر وكأنها تنبثق من أحشائه وتنزلق الى الخارج، وتريحه.

عاد العجوز يسأل «كيف حال قلبك يا يسوع؟ هل ارتاح؟»، ومال عليه وأمسك بيده. قال برقة «تعال»، ووضع اصبعه على شفتيه.

فتح الباب، وأمسك يسوع من يده وعبرا العتبة، فشاهدا الحيات الوقحة، الملتصقة واحدة مع الأخرى والتي لا تتصل بالأرض إلا بواسطة أذيالها، وقد نهضت وسط دوامة الرمال الملتهبة ترقص في رتل واحد، مستسلمة استسلاماً تاماً لرحمة رياح الرب، وبين فينة وأخرى تتيبَّس وتتوقف حركتها من الارهاق.

نكص ابن مريم لدى مرآها، لكن الحبر ضغط على يده، ومد الصولجان ولمس طرف عنقود الحيات المدلّى.

قال بهدوء ، وهو يراقب الشاب ويبتسم «هاهي قد فرَّت»

قال الشاب مرتبكاً «فرَّت ؟ من أين؟»

«ألا تشعر بأن عبئاً قد انزاح عن قلبك؟ لقد فرت من قلبك»

حدَّق ابن مريم جاحظ العينين أولاً الى الحبر،الذي كان يبتسم له، ومن ثم الى الحيات التي كانت ، وهي متكتّلة، تنتقل وهي تتراقص الى البئر الجافة. فوضع يده على قلبه وشعر به يخفق بسرعة، وابتهاج.

قال الحبر، وهو يمسك بيده من جديد «هيا بنا ندخل»، فولجا الى الداخل وأغلق الحبر الباب.

هتف بحرارة «المجد للرب»، ثم نظر الى ابن مريم فانتابه اضطراب غريب. خاطب نفسه ، هذه معجزة. إن حياة هذا الفتى الماثل أمامي ليست غير مجموعة من المعجزات... انتابته لبرهة رغبة في أن يضع كلتا يديه على رأس يسوع ويباركه، ومن ثم أن يخر ويقبل قدميه. لكنه أحجم. ألم يعمد الرب الى خداعه مراراً وتكراراً حتى الآن؟ كم مرة قال، بعد أن يسمع أحد الأنبياء الذين قدموا مؤخراً من سفوح الجبال أو من الصحراء، «هذا هو

المسيح»؟، لكن الرب كان يخدعه في كل مرة، ويبقى قلب الحبر المهيّأ للازهار دائماً جَدّعةً عقيمة. لذا، أحجم عن الكلام.. وفكر قليلاً، يجب أن أختبره أولاً. تلك كانت الحيات التي كانت تنهشه، وهاقد فرت وأصبح نقياً. والآن بات قادراً على النهوض. سوف يخطب في الناس ـ وعندئذ سنرى.

فتح الباب، ودخل يربعام المسؤول عن الضيوف حاملاً عشاء الزائر الهزيل المؤلف من خبز الشعير، والزيتون والحليب. التفت نحو يسوع وقال «فرشت لك حشيتك في صومعة أخرى هذه الليلة لكي تكون في صحبة أحدهم»

لكن ذهن الزائرين كان شارداً بعيداً، فلم يسمعاه. كانا يسمعان هسيس الحيات من جديد، آت من قعر البئر.كانت تصفُر، وتصفّر، وتتسارع أنفاسها.

قال الراهب مقهقهاً «إنها تتزاوج. تهب رياح الرب، أما هي ـ اللعنة عليها! ـ فلا يتملكها الخوف، بل تتزاوج!»

ثم نظر الى العجوز وغمز بعينه، لكن الحبر كان قد باشر بغمس خبزه في الحليب وبدأ يأكل. أراد أن يستعيد قواه، أن يحوِّل الخبز، والزيتون والحليب الى ذكاء يعينه على التحدث مع ابن مريم. وبعد أن نقّل الأحدب القزم بصره من أحدهما الى الآخر أصابه الضجر، فغادر.

جلس الاثنان القرفصاء متقابلين، وراحا يتناولان الطعام بصمت. كانت العتمة قد سادت الصومعة. وكانت الكراسي التي بلا مساند ومقعد رئيس الدير والمِقرأ، الذي مايزال مفتوحاً عليه سفر دانيال، تلمع لمعاناً غير واضح وسط الظلام. كان هواء الصومعة مايزال تفوح منه رائحة البخور الحلوة. وفي الخارج كانت الرياح قد هدأت.

قال الحبر فجأة «هدأت الريح. جاء الرب وذهب»

لم يجبه الشاب. وكان يقول في نفسه ، لقد رحلت، لقد رحلت. الأفاعي فرت من داخلي. لعل هذا ما أراده الرب، لعله لهذا أحضرني الى هنا الى الصحراء: لأشفى. نفخ، فسمعته الأفاعي وخرجت من قلبي وفرَّت . المجد للرب!

بعد أن انتهى من تناول طعام العشاء، رفع الحبر يديه وقدَّم الشكر للرب، ثم استدار الى رفيقه وقال «أين سرحتَ يا يسوع؟ أنا حبر الناصرة، أتسمعني؟»

قال الشاب، بعد أن خرج من سرحانه في نجمة «أسمعك يا عمي شمعون»

«لقد حانت الساعة يا ولدي. هل أنت مستعد؟»

سأل يسوع ، وهو يرتجف «مستعد؟ مستعد الى ماذا؟»

«أنت تعلم جيداً ـ فلماذا تسألني؟ أقصد مستعد لتنهض وتخطب»

«أخاطب من؟»

«البشرية»

«وماذا أقول؟»

«لا تقلق بهذا الشأن. فقط افتح فمك، والرب لا يطلب منك أكثر من ذلك. ألا تحب البشرية؟»

«لا أدري. انني أرى البشر فأرثي لحالهم، لا أكثر»

«هذا كاف يا ولدي، هذا كاف. انهض وخاطبهم. قد تتضاعف أحزانك عندئذ، ولكن أحزانهم ستُخَفَّف. ربما لهذا أرسلك الرب الى العالم. سوف نرى!»

كرر الشاب بعده «ربما لهذا أرسلني الرب الى العالم؟ كيف لك أن تعرف يا أبت؟» وغادرت روحه جسده وتوترت في حالة ترقبٍ، بانتظار الجواب.

«أنا لا أعرف. لم يخبرني أحد، ولكن مع ذلك، هذا محتمل. لقد رأيت اشارات. ذات مرة وأنت طفل صغير أخذت بعض الغضار وشكّلتَه على هيئة عصفور. وبينما أنت تداعبه وتتحدث اليه، خيِّل اليَّ أن ذاك العصفور الغضاري قد نما له جناحان وطارمُفلتاً من قبضتك. من الممكن أن ذاك العصفور كان يمثل روح الانسان، يا يسوع، يا ولدي - إن روح الانسان رهن يديك».

نهض الشاب واقفاً وفتح الباب بعناية. أخرج رأسه وأخذ ينصت. كانت الحيات قد سكتت تماماً الآن - أخيراً . سُرَّ لذلك، ثم التفت الى الحبر العجوز وقال «امنحني بركتك يا أبت، ولا تقل أي شيء آخر. لقد قلتَ مافيه الكفاية، ولم أعد أحتمل سماع المزيد»

بعد أن صمت برهة، تابع «أنا تَعِبٌ يا عمي شمعون وسآوي الى السرير. أحياناً يأتي الرب أثناء الليل ويفسر أحداث النهار... نوماً هانئاً يا عمي شمعون»

كان المسؤول عن الضيوف بانتظاره عند الباب من الخارج. قال «هيا بنا، سأريك أين وضعت لك سريرك. مااسمك أيها الفتى الطيب؟»

«أنا ابن النجار»

«واسمي يربعام، وأُدعى أيضاً بالأخ مخبول، وأيضاً بالأحدب. وماذا يهم! إنني أضع أنفي على حجر الشحذ وأحتّ الطبقة اليابسة التي منحني اياها الرب»

«أي طبقة يابسة؟»

ضحك الأحدب، وقال «ألا تفهم أيها الأحمق؟ إنها روحي وحالما أنتهي - نوماً هانئاً، وأحلاماً سارة - يأتي شارون(١) ويبدأ بنهشي!»

---

١ - في الأساطير اليونانية : شارون هو حامل أرواح الموتى عبر نهر الموت الى العالم الآخر.

هنا توقف وفتح باباً صغيراً قصيراً.

قال «أدخل، هناك - في الزاوية الخلفية، الى اليسار - تجد حشيَّتك!، ودفعه عبر الباب وهو يقهقه «نوماً هانئاً، أيها الفتى الطيب، وأحلاماً سارة. ولكن لا تخف، سوف تحلم بالنساء - إن جو الدير يعبق بهن»

وكاد ينفلق من شدة الضحك وهو يغلق الباب بصفقة مدوية.

لم يأت ابن مريم بأي حركة. الدنيا ظلام... في البدء لم يميز شيئاً، ولكن قليلاً قليلاً بدأت تتبدى له جدران مبيَّضة غير واضحة بصورة باهتة جداً، والتمع إبريق موجود في مشكاة محفورة على طول الجدار، وفي الزاوية رأى عينين ينطلق منهما الشرر تثبَّتان عليه نظرتهما.

تلمّس طريقه ببطء الى الأمام، وذراعاه ممدودتان أمامه. تعثّرت قدمه بالحشية غير الممدودة، فتوقف. وتحركت العينان وهما تتابعانه.

حيّا ابن مريم رفيقه «عمت مساءاً يا صديقي»، ولكن لم يجبه أحد.

كان يهوذا متكئاً على الجدار ويراقبه، ظهره محنياً ومكوراً، ذقنه معتمدة على ركبتيه، وأنفاسه الثقيلة، اللاهثة يتردد صداها في أرجاء الصومعة. كان يردد في نفسه «تعال... تعال... تعال»، وقبضة يده تشد على الخنجر وهي ملتصقة بصدره، وغمغم «تعال... تعال... تعال»، وهو يراقب تقدم ابن مريم. وغمغم يستدرجه «تعال... تعال... تعال»

عاد بذهنه الى القرية التي وُلد فيها ، كريوت، الواقعة في صحراء ايدوميه النائية. تذكر ان هذا بالضبط ماكان يفعله عمه طارد الأرواح الشريرة لاستدراج أبناء آوى، والأرانب وطيور الحجل

التي يريد أن يقتلها. كان يلبث على الأرض، ويثبِّت عينيه بنظرتهما المتقدة على الطريدة ويطلق هسيساً مفعماً بنبرة الاشتياق، والاستعطاف والسيطرة: تعال... تعال... تعال... وعلى الفور يصيب الدوار الحيوان ويبدأ بالزحف، محني الرأس مقطوع الأنفاس، متجهاً صوب الفم الذي يصدر الهسيس.

فجأة أخذ يهوذا يطلق هسيساً ـ خافتاً في أول الأمر وشديد الرقة، ولكن الصوت أصبح أقوى على حين فجأة، أضحى عنيفاً ويوحي بالتهديد، فانتفض ابن مريم، الذي كان قد استلقى لينام، من الرعب. مَنْ الذي يجلس الى جواره؟ من الذي يهسّ؟ استشعر في الجو وجود بهيمة ثائرة من الغضب، وفهم.

سأل بهدوء «يهوذا، يا أخي، أهذا أنت؟»

دمدم الآخر قائلاً، وهو يضرب بقدمه بغضب على الأرض «أيها الصالب!»

كرر الشاب السؤال «يهوذا، يا أخي، إن الصالب يعاني أكثر من المصلوب»

انفجر ذو اللحية الحمراء قائلاً، بعد أن استدار بحركة سريعة بجسمه كله لكي يواجه ابن مريم:

«لقد أقسمتُ لاخوتي الزيلوت ولأم المصلوب بأني سأقتلك. فأهلاً بك، يا صانع الصلبان. أنا هسستُ وأنت أتيت»

وقفز واقفاً على قدميه، وأرتجَ الباب ومن ثم عاد الى الركن وتكوَّر من جديد على شكل كرة، وصوَّب وجهه نحو يسوع.

«أسمعت ماقلته؟ اياك أن تباشر نحيبك. استعد!»

«أنا مستعد»

«لا تصرخ الآن! أسرع! أريد أن أنتهي مادامت الدنيا ظلام»

«انني سعيد برؤياك، يا يهوذا، يا أخي. أنا مستعد. لم يكن

أنت من هسٍّ، إنه الرب ـ وأنا أتيت. لقد أعدَّ كل شيء على أكمل وجه بنعمته الضافية. لقد أتيت في اللحظة المناسبة تماماً، يا يهوذا، يا أخي. هذه الليلة تخفَّفَ قلبي من أعبائه، وتطهَّر، ويمكنني الآن أن أمثل أمام الرب. لقد تعبت من طول مقاومته،تعبت من العيش . انني أقدِّم لك عنقي، يا يهوذا ـ أنا مستعد»

أنَّ الحداد وقطب جبينه. لم يعجبه ذلك ،لم يعجبه ذلك على الاطلاق ـ والحق انه كان يأنف أن يلمس عنقاً يُقدَّم له دون مقاومة، كعنق الحمل. ان ماكان يريده هو المقاومة؛ التصارع جسداً بجسد، وأن يأتي القتل في آخر المطاف كما يليق بالرجال الحقيقيين، بعد أن يغلي الدم: كمكافأة عادلة للتصارع.

انتظر ابن مريم، وعنقه ممدود الى الأمام. لكن الحداد مدَّ يده الضخمة بسرعة ودفعه بعيداً عنه.

دمدم «لماذا لا تقاوم؟ أي نوع من الرجال أنت؟ انهض وقاتل!»

«ولكني لا أريد ذلك، يا يهوذا، يا أخي. ولماذا أقاوم؟ إن ماتريده أنت أريده أنا، ولاشك بأن الرب يريدالشيء ذاته ـ لهذا تراه رتَّب الأمر بدقة متناهية. ألا ترى:لقد خرجتُ أبغي الدير، وخرجت أنت في اللحظة نفسها، وصلتُ أنا وعلى الفور تطهَّر قلبي: بتُّ مستعداً للموت، وأمسكتَ أنت بخنجرك وربضتَ في هذا الركن وتهيأتَ للقتل، وفتح الباب، وولجت... أي اشارات أدلُّ من هذه تريد، يا يهوذا يا أخي؟»

لكن الحداد لم ينطق . وراح يمضغ شاربه وهو هائج، ودمه الثائر يتدفق بدفقات مضطربة، ويرتفع الى رأسه فيشتعل دماغه حتى الاحمرار، ثم يهبط بسرعة مرة أخرى تاركاً وجهه شاحباً، ويعود فيصعد من جديد.

وأخيراً هدر قائلاً «لماذا تصنع الصلبان؟»

طأطأ الشاب رأسه. لقد كان ذاك سره الخاص - فكيف يفشيه؟ كيف يمكن للحداد أن يصدق الأحلام التي يرسلها الرب اليه، أو يصدق الأصوات التي يسمعها حين ينفرد بنفسه، أو البراثن التي تنغرز في رأسه وتريد أن ترفعه نحو السماء؟ وكيف أنه قاوم ورفض أن يذهب - كيف يسع يهوذا أن يفهم كل هذا؟ انه يتشبَّث بالاثم بيأس، ويستخدمه كوسيلة للبقاء على الأرض.

قال، وفؤاده يكاد ينفطر «لا أستطيع أن أشرح لك يا يهوذا، يا أخي. سامحني، ولكن لا أستطيع»

عدَّل الحداد من جلسته بحيث يميِّز وجه الشاب بشكل أفضل وسط الظلام. نظر اليه بنهم. ومن ثم تراجع ببطء واتكأ مرة أخرى على الجدار. وتساءل، أي نوع من الناس هذا؟انني لا أفهم. تُرى أيكون الشيطان من يقوده - أم الرب؟ اللعنة عليه. في كلا الحالين! انه يقوده بيد واثقة، وهو لا يقاوم، وهذه هي المقاومة الكبرى. انني لا أستطيع أن أذبح حملاناً؛ رجالاً، نعم، ولكن ليس حملان.

انفجر قائلاً «أنت جبان، أيها البائس التعس! أووو - لماذا لا تذهب الى الجحيم! انك تُصفع على أحد خديك، فماذا تفعل، تعمد على الفور الى ادارة خدك الآخر. وترى خنجراً، فتسرع الى مد عنقك. لا يمكن لرجل أن يمسَّك دون أن يشعر بالامتعاض»

تمتم ابن مريم بهدوء «الرب يمكنه»

أدار الحداد الخنجر في قبضته، معبراً عن عجزه عن اتخاذ قرار . وخُيل اليه لوهلة أنه رأى هالة من النور تخفق في الظلام فوق رأس الشاب المحني، فانتابه الرعب وتراخت مفاصل يديه.

قال لابن مريم «قد أكون بليد الفهم، ولكن تكلم - سوف أفهم. من أنت؟ ماذا تريد؟ من أين أتيت؟ وما تلك القصص التي تروى عنك في كل مكان : عصا تزهر، وبرق وامض، ونوبات الاغماء التي

تتابك وأنت سائر، والأصوات التي يقال انك تسمعها في الظلام؟ قل لي ، ماهو سرك؟»

«إنه الشفقة، يا يهوذا، يا أخي»

«لمن؟ على من تشفق؟ على نفسك، على بؤسك وفقرك ؟ أم ربما تشفق على اسرائيل؟ حسن، أفصح! أعلى اسرائيل؟ هذا ما أريد أن أعرفه، أتسمع؟ هذا ولاشيء غيره.هل معاناة اسرائيل هي التي تنهشك؟»

«بل معاناة الانسان، يا يهوذا، يا أخي»

«دعك من «الانسان». إن اليونانيين الذين ظلوا يذبحوننا طوال سنين عديدة، اللعنةعليهم! - هم من البشر. والرومان من البشر،وهم مازالوا يذبحوننا ويدنسون الهيكل وربنا. فلماذا تهتم بهم؟ عليك أن تضع اسرائيل نصب عينيك، فاذا كنت تشعر بالشفقة، فلتكن على اسرائيل . أما الباقون جميعاً فليذهبوا الى الشيطان!»

«لكني أشعر بالشفقة على أبناء آوى، يا يهوذا، يا أخي، وعلى طيور السنونو، وعلى العشب»

قال ذو اللحية الحمراء ساخراً «ها! ها! وعلى النمل؟»

«نعم، وعلى النمل أيضاً. إن كل شيء مُلكٌ للرب. وأنا حين أميل على نملة فانني أرى داخل عينها السوداء اللامعة وجه الرب»

«ألا تخشى الموت؟»

«ولم أخشاه، يا يهوذا، يا أخي؟ الموت ليس باباً يُغلق؛ إنه باب يُفتح. إنه يُفتح، وأنت تلجه»

«ألج الى أين؟»

«الى حضن الرب»

تنهد يهوذا من الغيظ . قال في نفسه، هذا الفتى لا يمكن

الايقـاع به، لا يمكن الايقـاع به لأنه لا يخـشى الموت... وأسـند ذقنه براحة يده، وراح يملي بصره من يسوع وجاهد كي يصل الى قرار.

أخيراً قال «اذا لم أقتلك ، فماذا تنوي أن تفعل؟»

«لا أدري. ليكن ما يقرره الرب... أود أن أقوم وأخاطب الناس»

«وماذا ستقول لهم؟»

«كيف تتوقع مني أن أعرف، يا يهوذا،يا أخي؟ سوف أفتح فمي، وسيقوم الرب بالكلام»

أصـبحت هالة النور التي تحيط برأس الشـاب أشد سطوعـاً، وومض وجهه الحـزين، الهـزيل كمـا البـرق وأغوت عيناه الكبيـرتان السـوداوان كالكهرمان يهوذا بعذوبتهمـا التي لا توصف، فاضطرب ذو اللحيـة الحمـراء وأغـضى بصـره. قال في نفسـه، لن أقتله اذا تأكـدتُ من أنه سـيـخـرج ويتكلم ويلهب مـشـاعـر العـبـرانيين، ويستنهضهم لمهاجمة الرومان.

سـأله الشـاب «مـاذا تنتظر يا يهـوذا، يا أخي؟ أم لعل الرب لم يرسلك لتقتلني، لعله يريد شيئاً آخر، شيئاً مجهولاً حتى لديك، وأنت تنتظر اليّ وتجاهد كي تخمّن ماهو. انني مستعد لأقُتَل، وأنا أيضاً مستعد لأعيش. فخذ قرارك»

أجاب الآخر وهو مغموم «لا تكن عجولاً، فما زال الليل طويلاً، ولدينا الكثير من الوقت»

لكنه بعد هنيهة من الصمت، صرخ هائجاً «إن المرء لا يستطيع حتى أن يكلّمك دون أن يجد نفسه متورطاً. أنا أسـألك عن شيء وأنت تجيب عن شيء آخر: انني عاجز عن محاصرتك. لقد كان قلبي وعقلي أكثر ثقة قبل أن أقابلك وأستمعَ اليك مما هما الآن. دعني وشـأني. أدر وجـهك الى النـاحيـة الأخـرى واخلد الـى النوم. أريد أن أنفرد بنفسي حتى أستوعب كل هذا وانظر ماذا سأفعل»

قال هذا واستدار نحو الجدار، وهو يدمدم تذمراً.

استلقى ابن مريم على حشيته وعقد ذراعيه بهدوء.

قال في نفسه، مايشاء الرب يكون، ثم أغمض عينيه في اطمئنان.

خرج بومٌ من مكمنه في الصخرة المقابلة لهما، فألفى دوامة الرب قدمرت، فراح يطير جيئة وذهاباً بصمت ثم أخذ ينعب بصوت خافت، منادياً على أليفته، وكان ينادي ، الرب غادر، ونجونا مرة أخرى يا عزيزتي - تعالي! وفي أعلى السقف كان منور الصومعة قد امتلأ بالنجوم. فتح ابن مريم عينيه وفرح لرؤيتها. كانت تتحرك ببطء ، ثم تختفي، ثم تظهر غيرها. ومرت الساعات.

كان يهوذا يتلوى ويتقلب وهو مايزال جالساً القرفصاء على حشيته، وبين الحين والآخر ينهض ويمشي، لاهثاً مغمغماً، حتى الباب، ثم يعود من جديد. راقبه ابن مريم وعيناه نصف مغمضتين وانتظر. وفكّر، مايشاؤه الرب سيكون، وراح ينتظر. ومرت الساعات.

صهل جمل في الاسطبل المجاور لهما صهيل خوف، يبدو أنه رأى ذئباً أو أسداً في منامه. وسعت نجوم جديدة كبيرة بضراوة جهة الشرق، وانتظمت انتظام جيش.

فجأة صاح ديك وسط الظلام الحالك الهاجع. قفز يهوذا ، وبخطوة واسعة واحدة وصل الى الباب. فتحه بعنف، ثم عاد فأغلقه خلفه. وأمكن سماع وقع قدميه الحافيتين الثقيل على الأحجار اللوحية.

استدار ابن مريم فرأى رفيقة سفره المخلصة؛ واقفة في الزاوية ، منتصبة ويقظة وسط الظلام.

قال لها «اغفري لي يا أختاه، لم تحن الساعة بعد».

الفصل الثاني عشر

هبَّت في ذاك النهار ريح دافئة رطبة، أثارت أمواجاً عالية في بحيرة جنيسارت. لقد حلَّ الخريف، وفاحت الأرض برائحة أوراق الكرمة والعنب الشديد النضج. كان الرجال والنساء قد تدفَّقوا من كفرناحوم عند الفجر. وكان محصول الكرمة في قمة تألقه؛ فأغصان العنب ملآى بخمرها الفطير، ملقاة على الأرض تنتظر. وكانت الفتيات الصغيرات ، المتألقات مثل العنب، قد أكلن عناقيد كاملة ولطّخن وجوههن بالعصير. وأخذ الشبان ، النابضون بعنفوان الشباب العارم، يلقون نظرات ماكرة الى الفتيات المقهقهات اللواتي يقطفن المحصول. وكنت تسمع في كل كرم عنب صرخات ونوبات ضحك. لقد أصبحت الفتيات أكثر جراءة وأصبحن يضايقن الفتيان الذين كانوا يزدادون تأججاً أكثر فأكثر ويقتربون منهن،ويتجول شيطان محصول العنب الخبيث هنا وهناك يقرص النسوة ويجعل خواصرهن تكاد تنفلق من الضحك.

كان منزل العجوز زبدى القروي الفسيح مفتوحاً وتضج في أرجائه الحركة. وكانت معصرة الخمر، في الجانب الأيسر من

الفناء، ملأى بمحتويات السلال المترعة التي ينقلها الشبان من الكروم. كان أربعة من العمالقة ، فيلبُّس، ويعقوب، وبطرس، ونثائيل، اسكافيُّ القرية، وهو أشبه بجمل ساذج، يغسلون سيقانهم الكثيفة الشعر ويستعدون لدخول المعصرة لمعالجة العنب. ولاشك بأن كل انسان فقير في كفرناحوم كان يعد كرمته الصغيرة لزيادة مخزون الخمر السنوي، وفي كل عام ينقل محصوله الى هذه المعصرة، فيعصر العنب بقدميه ويستعيد نصيبه من الخمر الفطير. ويملأ زبدى العجوز المحشو بالمال برطماناته وبراميله الخاصة المعدَّة لهذا العام بالعمولة التي أخذها مقابل استخدام المعصرة. وهكذا، يجلس على منصبة مرتفعة ويمسك بعصا طويلة بيد وباليد الأخرى مطواة وباستخدام الأثلام يحدِّد عدد سلال كل شخص. لكن المالكين أيضاً يحتفظون بسجل في أذهانهم : فهم لا يريدون أن يتعرضوا للغش في اليوم التالي عند تقسيم الخمر الفطير. إن زبدى العجوز نهَّاب ـ ولا يثق أحد به، وكان على كل واحد أن تكون له عينان في خلفية رأسه.

كانت النافذة الداخلية من المنزل المطلة على الفناء مفتوحة، وسالومه العجوز، سيدة المنزل، متمددة على الأريكة، تراقب مايجري في الخارج وتنصت الى كل مايحدث في الفناء، وبهذه الطريقة كانت تنسى الآلام التي تمضُّ ركبتيها ومفاصلها الأخرى. لابد انها كانت تتمتع بجمال أخَّاذ في شبابها ـ فعظامها نحيلة، طويلة القامة، ذات بشرة زيتونية وعينين كبيرتين : خامة جيدة. وكانت ثلاث قرى ـ هي كفرناحوم ومجدلة وبيت حسدا ـ تتنافس عليها. فقط انطلق ثلاثة من الخاطبين في وقت واحد يبغون والدها العجوز ، صاحب السفن الثري، بصحبة كل منهم طابور من الأصدقاء الأثرياء، والجمال والسلال الطافحة بمحتوياتها. وأخذ

العجوز الداهية يقيّم وبعناية جسد وروح وثروة كل منهم، واختار زبدى، الذي تزوجها. وكانت مصدر سعادة له، أما الآن فالفتاة الرائعة الجمال أصبحت عجوزاً، وجمالها الذي نخره الزمن، اختفى، وبين وقت وآخر، أثناء الاحتفالات الهامة، يقوم زوجها الذي لازالت فيه حياة ونضارة بجولات في الليل ليعبث مع الأرامل.

أما اليوم فوجه العجوز سالومه مستبشر. إن ولدها الأثير، يوحنا، قد وصل بالأمس من الدير المقدس. بدا شاحباً تماماً ونحيلاً جداً، استنفده طول الصلاة والصوم، أما الآن فستحتفظ به الى جانبها ولن تدعه يرحل ثانية. سوف تغذيه بالطعام والشراب، وسيصبح قوي البدن، وسيعود الرونق الى وجنتيه. قالت في نفسها، الرب طيب، ونحمده على نعمته. نعم، انه طيب ـ ولكن لا يجب أن يتوق الى شرب دماء أولادنا. ان الصوم باعتدال، والصلاة باعتدال، يفيدان الانسان والرب معاً، ويجب أن يعملا على تنظيم الأمور بهذه الطريقة ـ بشكل معقول. راحت تنظر الى الباب بقلق، بانتظار عودة يوحنا، ولدها، من كروم العنب؛ فهو بدوره يقدم يد المساعدة في جمع المحصول.

في منتصف الفناء، تحت شجرة لوز كبيرة، مثقلة بالثمار، كان يهوذا ذو اللحية الحمراء منحنياً، صامتاً، يضرب بمطرقته لتثبيت أطواق حديدية حول براميل الخمر. ولو نظرت اليه من اليمين، لرأيت وجهه متجهماً وملؤه الضغينة، ولو نظرت اليه من جهة اليسار، لوجدته مضطرباً وحزيناً. لقد مرت أيام عديدة منذ أن هرب كاللصوص من الدير. وخلال تلك الفترة جاب القرى يصلح البراميل لتعبئة الخمر الفطير الجديد. كان يدخل البيوت؛ يعمل، ينصت الى الأحاديث ويسجل في عقله كلام وأفعال كل رجل، لكي يبلّغ كل شيء لأعضاء المنظمة. ولكن أين هو ذو اللحية الحمراء

السابق ـ المشاكس، مثير المشاكل! منذ اليوم الذي غادر فيه الدير ، لم يعد كما كان.

زعق زبدى في وجهه «اللعنة، يا يهوذا الاسخريوطي، انطق، يا شعر الشيطان، ما الذي يدور في ذهنك؟ اثنان واثنان يساوي أربعة ـ ألم تدرك هذا بعد؟ انطق، أيها الهمجي المبارك، قُل شيئاً. هذا هو المحصول ـ لا يستهان به. في يوم كهذا الجميع يضحكون، حتى النفور المتجهم»

قاطعه فيلبّس قائلاً «لا تقده الى الغواية يا زبدى، لقد ذهب الى الدير، ويبدو أنه يريد أن يلبس الرداء الكهنوتي. ألم تسمع؟ حين يتقدم العمر بالشيطان يصبح ناسكاً!»

التفت يهوذا وألقى نظرة ملؤها الحقد على فيلبّس لكنه لم ينطق . لقد كان يمقته. إنه ليس رجلاً؛ لا، فهو لا يعرف غير الكلام بدون فعل؛ إنه ثرثار. لقد أصابه الشلل وملأه الخوف في الدقيقة الأخيرة ورفض أن ينضم الى التنظيم . وكان عذره «لدي قطيع من الماشية، لدي قطيع من الماشية ، فكيف أتركه؟»

انفجر العجوز زبدى يضحك والتفت الى ذي اللحية الحمراء، وهتف به «احذر أيها البائس، الحياة الرهبانية مرض معد، فاحذر لئلا تصاب به! لقد نجا ابني بجلده على آخر رمق. فقد مرضت زوجتي العجوز، باركها الرب ، فعلم ابنها الحبيب بذلك، وكان قد أنهى لتوه دراسة الأعشاب مع رئيس الدير، فعاد الى المنزل ليطبّبها. ولن يغادر هذا المكان بعد الآن، علّم على كلامي. الى أين يذهب؟ انه ليس مجنوناً، أليس كذلك؟ هناك في الصحراء الجوع، والعطش، والسجود ـ والرب. أما هنا فالطعام، والخمر، والنساء ـ والرب، الرب موجود في كل مكان. فلماذا نذهب لنبحث عنه في الصحراء ؟ مارأيك، يا يهوذا الاسخريوطي؟»

لكن ذا اللحية الحمراء واصل الضرب بمطرقته ولم يدل بجواب. ماذا يسعه أن يقول له؟ إن كل السفن تجري بما يرغب هذا الكلب القذر ويشتهي. كيف يمكنه أن يفهم مشاكل جاره؟ حتى الرب، الذي أزال أقواماً أخرى عن وجه الأرض بقفزةٍ برغوث، مدح هذا الخنزير، هذا الطفيلي، هذا العابد للمال، ودلّله؛ حفظه من التعرض لأقل أذى، وحط عليه كرداء من الصوف في الشتاء، وكرداء من الكتان يشيع البرودة في الصيف. لماذا ؟ ماذا يرى فيه؟ هل يعذب ابن الحرام العجوز هذا قلقٌ حول اسرائيل؟ الحق انه لن يرفع اصبعه الصغير لمساعدة اسرائيل ـ انه يحب الرومان المجرمين لأنهم يحرسون له ثروته، وهو يقول، فليحمهم الرب لأنهم يحفظون النظام. لولاهم لانقلب علينا جموع الدهماء، من الهمجيين والحفاة، ولكان ذلك ايذاناً بنهاية أملاكنا... ولكن، لا تخشى شيئاً، يا ابن الحرام العجوز، فالساعة آتية. ان ماينساه الرب ويتركه دون انجاز سيتذكره الزيلوت، باركهم الرب، وسينجزونه. الصبر، يا يهوذا، لا تنطق بأية كلمة! الصبر، فيوم يهوه رب الجنود آت!

رفع عينيه الفيروزيتين لينظر الى زبدى فترآى له إنه في معصرة الخمر، يطفو على ظهره في دمه، وابتسامة كبيرة تغطي وجهه.

في تلك الأثناء كان العمالقة الأربعة قد انتهوا من دلك سيقانهم وقفزوا الى داخل المعصرة. غرقوا فيها حتى ركبهم وأخذوا يطأوون العنب ويسحقونه، وينحنون ليلتقطوا ملء قبضاتهم منه، ويأكلونه فتمتلئ لحيهم بعيدانه. أحياناً يرقصون متشابكي الأيدي، وتارة أخرى يصرخ كل منهم وحده ويقفز. وتُسكِرَهم رائحة الخمر الفطير ـ وليس فقط الخمر الفطير : فحين يمدون أبصارهم عبر الباب المفتوح باتجاه كروم العنب يرون الفتيات

منحنيات يقطفن العنب، وجمالهن مكشوف حتى مافوق ركبهن، وأثدائهن كعناقيد العنب، تتأرجح أماماً وخلفاً فوق أوراق الكرمة.

رآهم العاصرون فتشوَّشت أذهانهم. هذه ليست معصرة عنب وتلك ليست أرضاً أو كرمة عنب، بل هي الفردوس، ويهوه رب الجنود جالس على المنصة حاملاً عصا طويلة ومطواة يعلِّم بها مديونيته الدقيقة لكل منهم: كم من سلال العنب جلب كل منهم وكم سيعطيهم من أباريق الخمر، بعد غد حين يموتون - كم ابريق من الخمر، كم خَلَقين من الطعام، وكم عدد النسوة؟

قال بطرس قاصفاً «بشرفي لو أن الرب أتى في هذه اللحظة وقال لي : «هيه ، بطرس، يا صغيري بطرس، انني رائق البال اليوم، فاطلب مني ما تشاء، أي شيء، وسألبيه لك. ماذا تريد؟» - اذا سألني ذلك فسأجيبه : «أريد أن أعصر العنب، يا ربي، أريد أن أظل أعصر العنب الى الأبد!»

سأله زيدى بفظاظة «ولا تريد أن تشرب الخمر، يا أبله؟»

«لا، أقولها من أعماق قلبي : أريد أن أعصر العنب!»

لم يضحك، كان وجهه ينم عن جَدِّية واستغراق. كفَّ عن العصر برهة من الزمن وتمدد تحت أشعة الشمس. كان الجزء الأعلى من جسده عارياً، وقد وُشِم فوق قلبه وشَمَ سمكة سوداء كبيرة، وكان صانع ماهر، سجين سابق، قد ضربه له قبل سنين عديدة بابرة؛ فعل ذلك بمهارة فائقة حتى لتظن انها تحرك ذيلها وتسبح بسعادة، وهي متشابكة بشعر صدر بطرس الجعد. وفوق السمكة وشم رسم مرساة صغيرة وأربع أذرع متصالبة، تحمل كل منها صنارة صيد.

لكن فيلبّس تذكر غنمه ولم يكن يرغب بالعمل بحراثة الأرض، والعناية بكروم العنب وبعصر العنب.

قـال هـازئاً «يا الهي يا بطرس، يا له من عـمل تطلبـه لنفسك ـ أن تعـصـر العنب الى الأبد ! لـو سـألني الرب لطلبت منـه أن يجـعل السـمـاء والأرض مـروجـاً خـضـراء تملؤهـا قطعـان الماعـز والغنم. عندئذ أحلبهـا وأسكب الحليب ليتدفق على سفـوح الجبـال، ليجـري كالنهر ويشكل بحيرات في السهل حتى يشرب منه الفقراء. وفي كل مساء نجتمع كلنا ـ كل الرعاة، مع الرب سيد الرعاة، ونضـرم ناراً، ونشوي لحم الحملان ونروي الحكايات. هذا هو معنى الفردوس!»

دمـدم يهـوذا «اللعنة عليك، أيهـا الأبله!»، ورمـى فيلبّس بنظرة تتطاير شرراً.

كـان الفـتيـة المراهـقون يتوافـدون على الفناء ويخـرجـون منه، عـراة، شعـورهم طويلة، تستـر عـوراتهم خُـرَق ملونة. فـسمـعوا هذه النقـاشـات غيـر المترابطة وضحكوا، فهم أيضاً كان لديهم تصـورهم الخاص عن الفردوس ، لكنهم لا يبوحون به. كانوا يرمون بمحتويات السلال الى المعصرة ومن ثم بقفزة واحدة يتخطون العتبة وينطلقون للانضمام الى القاطفات الحسان.

باعد زبدى مـابين شفتيه يبغي أن يضيف ملاحظة حـاذقة لكنه ظل واقفاً فاغر الفم. فقد ظهر زائر غريب عند البـاب وكان ينصت الى حـديثهم؛ يحـيط عنقـه بجلد مـاعـز أسـود يتـدلّى منه؛ حـاف، وشعره شعث، ووجهه أصفر بلون الكبريت؛ عيناه كبيرتان، سوداوان، وتقدحان شرراً.

كفّت الأقدام عن العصـر، وابتلع زبدى كلمته، والتفت الجـميع نحو البـاب. من هو صـاحب هذه الجـثـة الحية الواقف عند عتـبة البـاب؟ ماتت الضـحكات ، وظهـرت العـجوز سـالومه عند النـافذة، نظرت، وفجأة هتفت «انه اندراوس!»

هـتف زبدى «يا الهي ، اندراوس ، يا لغــرابة مظهــرك! أأنت

عائد من عالم الموتى؟ أم لعلك في طريقك اليه هناك في الأسفل!»

قفز بطرس خارجاً من معصرة الخمر، وضمَّ يديّ أخيه دون أن ينطق بكلمة، وراح ينظر اليه بحب وخوف. آخ ، يا ربي، أهذا اندراوس ، اندراوس البطل الشاب الريان، الرياضي الشهير، الأول في العمل والعبث؟ أهذا اندراوس الذي كان خطيباً لراعوث ذات الشعر الذهبي الناعم، أجمل فتاة في القرية؟ لقد غَرِقتْ مع والدها في البحيرة؛ حدث ذلك ليلة أثار الرب رياحاً رهيبةَ، وفي غمرة يأسه رحل اندراوس ليسلِّم نفسه، موثوق اليدين والقدمين ، للرب. وقال في نفسه ، من يدري، لعلي اذا ذهبت الى الرب فقد أجدها معه. واضح أنه كان يبحث عن خطيبته، وليس عن الرب.

حدَّق اليه بطرس يملؤه الرعب. تذكر كيف كان حين سلَّموه للرب، والآن، انظر كيف أعاده الرب اليهم!

صرخ زبدى في بطرس «هيه، هل ستظل تحدق اليه وتتحسسه طوال النهار. دعه يدخل، فقد تهب رياح هنا وتطرحه أرضاً! ادخل يا اندراوس يا ولدي، تقدم وخذ بعض العنب وكُل. لدينا خبز أيضاً، المجد للرب. كُل وأعد بعض الحيوية الى وجنتيك ، لأنه اذا رآك والدك العجوز المسكين وأنت في هذه الحالة، فسيصيبه رعب شديد وسيعود من فوره الى بطن حوته!»

لكن اندراوس رفع ذراعه النحيلة، وهتف بهم جميعاً «ألا تخجلون من أنفسكم! ألا تخافون الرب! العالم ينهار، وأنتم هنا تعصرون العنب وتضحكون!»

غمغم زبدى «فليحفظنا القديسون، هاكم آخر جاء لينغِّص علينا حياتنا!»، ثم استدار نحو اندراوس وقال بغضب «أرى أنك أنت أيضاً لن تدعنا وشأننا، هه؟ اعلم اذن اننا ممتلوءن حتى الزبا. أهذا ماينادي به نبيّك المعمداني؟ حسن، من الأفضل أن تخبره أن يغيِّر

نبـرته هذه. يقـول إن نهـاية العـالم قـد حـانت ، وإن القـبـور سـتُفـتح وسينطلق الموتى خارجها، يقول إن الرب سيهبط - العود الثاني! - ويبدأ الحساب، وعندئذ الويل لنا! أكاذيب ! أكاذيب! لا تنصتوا اليه يا شباب. هيا الى العمل! اعصروا العنب!»

عـوى ابن يونان «توبوا! توبوا!»، وانتـفض مـتـملّصـاً مـن بين أحضان أخيه ووقف في وسط الفناء، أمام زبدى العجوز مباشرة، وأشار باصبعه نحو السماء.

قال زبدى «اجلس يا اندراوس، لصالحك، كُل، واشرب شيئاً من الخمر وعُد الى وعيك. المسكين، لقد ذهَبَ الجوع بعقله!»

أجابه ابن يونان «وأنت يا زبدى ذهَبَ العيش الرغيد بعقلك. لكن الأرض تتفلق من تحتك، والرب هو الزلزال وسوف يبتلع معصرة الخمر خاصتك وقواريك وأنت أيضاً، اللعنة عليك وعلى بطنك!»

كان يضطرم كالنار، ينقّل عينيه من طرف الى طرف، يثبّتهما تارة على شخص، ثم على آخر، ويصرخ «قبل أن يتحول الخمر الفطير هذا الى خمر، ستكون نهاية العالم قد حانت ارتدوا قمصاناً من الشعر، وانثروا الرماد على رؤوسكم، واضربوا على صدوركم واهتفوا «أنا آثم! أنا آثم!». الأرض شجرةٌ، وهي تتعفن، والمسيح قادم حاملاً فأساً!»

كفَّ يهوذا عن الطرق. تراجعت شفته العليا فومضت أسنانه الحادة تحت أشعة الشمس، لكن زبدى لم يتمكن من ضبط نفسه.

صرخ «حُباً بالرب يا بطرس ، خذه واخرجا من هنا، لدينا عمل نؤديه. يقول «إنه قادم! إنه قادم!»، تارة حاملاً ناراً، وطوراً دفتر المحاسبة والآن - ماذا أيضاً! فأساً. لماذا لا تدعوننا وشأننا، أيها الدجالون، أيها المحتالون على البشر؟ هذا العالم صامد، وعلى

أحسن مايرام، أحسن مايرام ـ هذا هو رأيي!... اعصروا العنب يا رجال، واطمئنوا!»

ربت بطرس برفق على ظهر أخيه ليهدّئ من روعه، وقال له برقة «اهدأ، اهدأ يا أخي، لا تصرخ. أنت تعب من رحلتك. هيا بنا الى المنزل لنأخذ قسطاً من الراحة وليكحّل أبونا عينيه بمرآك وليسكن اضطراب قلبه»

أمسك به من يده، وقاده ببطء، وعناية، وكأنه كفيف ، وصعدا الطريق الضيقة، ثم اختفيا.

انفجر زبدى العجوز يضحك، قال «ايه، يا ليونان البائس، يا عزيزي المسكين نبي السمكة، ماكنت أتمنى أن أكون مكانك ولو أعطوني العالم كله!»

والآن حان دور العجوز سالومه لتفتح فمها. كانت ماتزال تشعر بعينيّ اندراوس الكبيرتين مسلّطتين عليها تقدحان شرراً. قالت، وهي تهز رأسها ذا الشعر الأبيض «زبدى، انتبه الى ماتقول أيها العجوز الآثم. لا تضحك. ثمة ملاك يقف فوق رؤوسنا ويسجل، وستدفع ثمن استهزاءك»

قال يعقوب، الذي ظل حتى الآن يلزم الصمت «أمي على حق، لقد كنت قيد شعرة من أن تعاني الشيء نفسه مع يوحنا، الأثير لديك، وحسبما أرى فأنت مازلت بغير منأى عن الخطر. فهو لا يساعدنا في قطف الكروم، كما قال لي الحاملون، انه يجالس النسوة ويحدثهن حديثاً جياشاً عن الرب والصوم وعن الأرواح الخالدة. أنا أيضاً لا أتمنى أن أكون مكانك ، يا أبت!»

وضحك ضحكة جافة، لم يكن يتحمل أخاه الكسول، المدلل، وواصل بحنق عصر العنب بقدميه.

صعد الدم الى رأس زبدى الكبير، وهو أيضاً لا يتحمل ابنه البكر

ـ انهما متشابهان الى حد كبير. وكان سينشب شجار لو لم تظهر في تلك اللحظة مريم، زوجة يوسف الناصري، عند الباب، وهي تتكئ على ذراع يوحنا. كانت قدماها النحيلتين ملطختين بالدم ويغطيهما التراب نتيجة رحلتها الطويلة. فقد تركت منزلها منذ أيام طويلة وراحت تتنقل من قرية الى قرية، تبكي ، بحثاً عن ابنها التعيس. لقد سلبه الرب صوابه، وحاد عن سبيل البشر. ثم أخذت الأم تتنهد وتنوح على ابنها بالرغم من انه حيٌّ يرزق، وتسأل، سألت في كل مكان، إن كان أحد قد رآه: «إنه طويل القامة، نحيل، حافي القدمين، وكان يرتدي رداءاً أزرق ويتمنطق بنطاق جلدي أسود. فهل يا ترى لمحته؟»... لم يره أحد، ولم يتمكن من اقتفاء أثره الا الآن، والفضل في ذلك يعود الى ابن زبدى الأصغر، انه في دير وسط الصحراء، وقد لبس الرداء الأبيض وأصبح يسجد منبطحاً على وجهه على الأرض، ويصلي... لقد كشف لها يوحنا عن الأمر كله، مدفوعاً بالشفقة عليها. وهاهي الآن تدخل، متكئة على ذراعه، الى فناء دار زبدى لتأخذ قسطاً من الراحة قبل أن تنطلق تبغي الصحراء.

نهضت سالومه العجوز بحركة تدل على الاحترام الجم، وقالت «أهلاً بك ، يا عزيزتي مريم. ادخلي»

أنزلت مريم منديلها حتى حاجبيها، وأخفضت رأسها وعبرت أرض الفناء وهي تغضي بصرها، وأخذت تبكي وهي تتشبث بيدي صديقتها العجوز.

قالت سالومه العجوز «إثمٌ عظيم منكِ أن تبكي ، يا طفلتي»، وأجلستها على أريكة وجلست الى جوارها «ابنك آمن الآن، انه يستظل الآن بسقف الرب»

أجابتها مريم وهي تتنهد «وجع الأم ثقيل يا سالومه. إن الرب لم يهبني غير ولد واحد، وهو ابن عاق»

سـمـع زبدى شكواها (وهـو ليس بـالرجل السـيء اذا لم يتـدخل أحد في شؤون أرباحـه)، فنزل عن منصته ليواسيها. قـال «إنها فـورة شبابه، يـا مريم، شبابه. لا تقلقي - وستمر بسلام. إن الشـبـاب، باركه الرب، كالخمر، لكننا سـرعان مانستعيد وعينا ونستسلم للنير ونكفُّ عن المقاومة. قريباً سيستعيد ابنك وعيه يا مريم. انظري الى ولدي. هذا الواقف أمامك: هاهو قد بدأ يستعيد وعيه، المجد للرب»

احـمرّ وجه يوحنا خجلاً لكنه لم ينطق بكلمة. ولج الى الداخل ليحضر كأساً من الماء البارد وبعض ثمار التين الناضجة ليقدمها للزائرة. وكانت المرأتان جالستين جنباً الى جنب يتلامس رأساهما، وتتحدثان عن الولد الذي خطفه الرب. تحـدثتـا همـسـاً لكي لا يسمعهما الرجال فيفسدون بتدخلهم المتعة الأنثوية العميقة التي يمنحها لهما الألم.

«ان ابنك يا سالومه يقول انه لا يني يصلي ويصلي، ويُكثر من السجود، حتى جَسَأت يداه وركبتاه. ويقول يوحنا أيضاً إنه لا يأكل، وإنه يذوب باضطراد. وأصبحت تتراءى له أجنحة في الهواء أيضاً. بل يبدو انه يرفض أن يشـرب الماء، لكي يتـاح له أن يرى الملائكة. إلامَ يمكن أن تفضي اليه هذه البلوى يا سالومه؟ حتى عمه الحبر يعجز عن شفائه، وهو الذي توصل الى تخليص أعداد غفيرة من الناس الذين تلبَّستهم الأرواح الشريرة. لماذا أنزل الرب لعنته عليه، يا سالومه، ماذا فعلتُ له؟»

مالت برأسها على ركبتيّ صديقتها العجوز وأخذت تبكي.

ظهر يوحنا حاملاً الكأس المملوءة بالماء وخمسة ثمار أو ستة من التين في حجره. «إن ضيـاءاً قدسيـاً يحف بكامل وجه ابنك، لايراه الجميع، لكني رأيته ذات ليلة: رأيته يلعق وجهه ويلتهمه، فانتابني الخوف. وبعد وفاة رئيس الدير أصبح الأب حبَّقوق يراه

في منامـه كل ليلة. ويقـول انه يحلم به ممسكاً بيـد ابنك وينتـقل به من صومعة الى صومعة، ويمد اصبعه ويشير به اليه، دون أن يتكلم، وانما يكتفي بالابتسام وبالاشارة اليه. وأخيراً قفز الأب حبَّقوق من فـراشـه وقـد تملكه الرعب وراح يوقظ بقيـة الرهبـان. وجـاهدوا جميعاً لحل لغز الحلم. بماذا يريد رئيس الدير أن يبلِّغهم؟ لماذا كان يشـيـر الى ضـيـفـهم الجـديد ويبـتـسم؟ وفـجـأة، بالأمس الأول، يوم مغادرتي، أنار الرب طريق الرهبان واستطاعوا أن يحلوا لغز الحلم. لقد كان المتـوفى يأمـرهم بأن يجعلوا من ابنك رئيسـاً للدير. وعلى الفور هرع كل من كان في الدير من رهبان يبحثون عن ابنك. وخرُّوا تحت قدميه وهتفوا قائلين إن مشيئة الرب هي أن يصبح رئيساً للدير.لكن ابنك رفض، وقـال «لا، لا، ليس هـذا هو طـريقـي. إنـي غيـر جـديـر به ، سـوف أغـادر!» وسـمـعت صـيـحـات رفـضـه عند الظهيـرة، وقت مـغادرتي الدير، وكان الرهبـان يهـددون بحبسـه في احدى الصوامع وبوضع حراس على بابه لمنعه من الهرب»

قالت سالومه العجوز ووجهها العجوز يشع «تهانيَّ لك يا مريم، يا لـك من أم مـحظوظة! لقـد نفخ الـرب في رحـمك وأنت حـتى لاتدركين ذلك!»

أنصتت المرأة التي أحبـها الرب وهزت رأسـها، دون أن تشـعر بالسلوى، وتمتمت قائلة «لا أريد لابني أن يصبح قـديساً، أريده أن يغدو رجلاً مثل بقية الرجال. أريده أن يتزوج وأن ينجب لي أحفاداً . هذا هو سبيل الرب»

قال يوحنا بصوت رقيق، وكأنه يخجل أن يعترض «بل هو سبيل الانسان، أما السبيل الآخر فهو سبيل الرب، الذي يسلكه ابنك»

سمـعوا أصـواتاً وضـحكاً صـادرة من جهة الكروم، ودخل الفناء شابان من الحاملين يفيضان بالحيوية. وهتفا، وهما يكادان ينفلقان

من فرط الضحك «خبر سيء، يا سادة، يبدو أن ثورة قامت في مجدلة. فقد أخذ الناس يتناولون الحجارة ويضربون حوريتهم يبغون قتلها!»

زعق العاصرون، وقدكفّوا عن الحركة «عن أية حورية تتحدثان أيها الولدان؟ تقصدان المجدلية؟»

«نعم، المجدلية، بوركت! لقد نقل لنا الخبر اثنان من راكبي البغال لدى مرورهم بنا. قالا إن رئيس المجموعة باراباس ـ أوه! كم كان خائفاً ويرتعش! ـ قالا إنه غادر الناصرة وأغار على بلدة مجدلة يوم أمس، السبت»

دمدم زبدى بغضب «هاكم واحداً آخر! اللعنة عليه! يقول انه من الزيلوت وإنه سيخلّص أرض اسرائيل، اللعنة عليه وعلى خطمه الكريه. ليته يتعفّن في الجحيم، ابن الحرام القذر ذاك!... ثم ماذا؟»

«ثم مرّ في المساء على منزل المجدلية فوجد الفناء ممتلئاً. لقد كانت المغضوب عليها تعمل في يوم السبت المقدس ولم يستطع تحمل هذا العقوق. فاقتحم المكان، وقد استلّ خنجره من تحت قميصه، فشهر التجار سيوفهم، وتجمع الجيران أيضاً، وتدافعوا، وعلى الفور تحول الفناء الى كتلة متشابكة من الأذرع والسيقان. وسقط اثنان من رجالنا جريحين، وهرع التجار الى امتطاء جمالهم ولاذوا بالفرار. كسر باراباس الباب بحثاً عن المرآة آنفة الذكر ينوي ذبحها، ولكن أين كانت المجدلية؟ لقد فرّت من خمّها، خرجت من الباب الخلفي، خلسة! واشترك أهل القرية كلهم في البحث، لكن الظلام سرعان ماحل، وفقدوا أي فرصة في العثور عليها. وفي الصباح انتشروا في كل الجهات، يبحثون، مقتفين أثرها. ويبدو أنهم عثروا على آثارها في الرمال ـ كانت متجهة شطر كفرناحوم!»

قال فيلبّس، وهـو يلعق شفتيه البـارزتين كشفتيّ تيس «مـا أسـعد حظنـا يا شـبـاب لـو تأتي الى هنـا! كـانت هـي الشيء الوحـيـد الذي ينقص فـردوسنـا. نعم، نسـينـا حـواء، والآن يسـعـدنـا دون شك أن نقابلها!»

قال نثائيل البسيط وهو يتكلف ابتسامـة ماكرة من بين لحيته «ان ناعورتهـا تعمـل أيضـاً في يوم السـبت، بوركت!». وتذكـر انه في أحد المرات كان قـد استـحـمَّ، ليلة يوم سـبت، وارتدى ثيـابـاً نظيـفـة وحلق ذقنه. ثم جاءته غواية الحـمَّام وقادته من يده وذهبـاً معـاً الى مـجدلة، وسلكا أقـرب الدروب المؤدية الـى منزل المجـدليـة ـ بوركت! كان الوقـت شتـاءاً، والعـمل راكداً، فظل نثـائيل مـلازمـاً طاحـونتـهـا طوال نهار السبت، وحـده ـ وهـو يطحن. ابتسم معبـراً عن رضـاه. قد يقول قائل، إنه إثم. نعم ، دون شك، بل هو إثم فـادح، لكننا نضع كل ثقتنا في الرب، والـرب يغفـر... لقد أمضـى نثـائيل الهادئ، المسكين، المنهك، العـازب، حيـاته كلهـا جالسـاً أمـام طاولة صـغيـرة في احدى زوايا شـارع القرية يصنع قبـاقيب للقرويين وصنـادل سـميكة للـرعـاة. فـأي حيـاة كـانـت تلك! لذا أقـدم مـرة واحـدة، مـرة واحـدة ثـمينة في حيـاته، على الانقـلاب على كل شيء ونال مـتعـته كمـا يجـدر برجل ـ حتى وان حـدث ذلك فـي يوم السبت. وكمـا يقـال، إن الـرب يفـهـم مثل هذا التصـرف، ويغفـر...

لكن زبدى العجـوز عبس، وغمغم «مشـاكل! مشـاكل! أيجب دائمـاً أن تُسـوَّى الشـجـارات في فـنـاء بيتي؟ أولاً الأنـبيـاء، ثم العـاهـرات أو الصيـادون النـائحون، والآن باراباسات ـ هـذا أكـثـر من كثيـرا!»،والتفت الى العـاصـرين، وقـال «وأنتم، يا أولادي الرائـعين، التـزمـوا بعـملكم. اعصـروا العنب!»

سـمعت سـالومه العـجـوز ومـريم زوجـة يوسـف النبأ، وهـمـا داخل

المنزل، وتبادلتا النظرات، وعلى الفور، ودون أن تتفوها بأية كلمة، أطرقتا برأسيهما. وترك يهوذا مطرقته وتوجه الى باب الخروج، وهناك اتكأ على عضادة الباب. وسمع كل شيء وحفره في عقله، وأثناء توجهه الى الباب رمى زبدى العجوز بنظرة متوحشة.

وقف عند الممر وأخذ ينصت. سمع أصوات ورأى سحابة من الغبار ترتفع؛ ثمة رجال يركضون، ونسوة يصرخن «أمسكوها! أمسكوها!»، وقبل أن يتاح للرجال الوقت للقفز من معصرة الخمر أو يتاح لصاحب الجيوب المحشوة بالانزلاق عن منصته، دخلت المجدلية الفناء؛ رثة الثياب ولسانها يتدلى من فمها، وارتمت عند قدمي سالومه العجوز.

صرخت «انجديني! انجديني! إنهم في إثري!»

أشفقت العجوز سالومه على الآثمة، فنهضت واقفة وأغلقت النافذة وطلبت من ابنها أن يرتج الباب.

قالت للمجدلية «اجلسي القرفصاء على الأرض، اختبئي»

مالت مريم زوجة يوسف وأخذت تنظر الى المرأة التي ضلت سواء السبيل، نظرت اليها بمزيج من العطف والرعب. وحدهن النساء الشريفات يعرفن كم أن الشرف مرير وغامض، وأشفقت عليها. ولكن في الوقت نفسه بدا لها هذا الجسد الآثم أشبه بوحش كاسر، أشعث، مظلم وخطر. هذا الوحش كاد يخطتف منها ولدها حين كان في العشرين من عمره، لكنه نجا منها في آخر لحظة. رددت مريم في سريرتها وهي تتنهد ، نعم، نجا من براثن المرأة، ولكن كيف سينجو من الرب...

وضعت سالومه العجوز يدها على رأس المجدلية الملتهب وسألتها في حنو «لماذا تبكين، يا طفلتي؟»

أجابت المجدلية «لا أريد أن أموت. الحياة جميلة، لا أريد أن أموت»

ثم مدّت مريم زوجة يوسف بدورها يدها، فلم تعد تشعر بأي خوف منها ، ولا هي شعرت بالامتعاض منها. وقالت، وهي تلمسها «لا تخشي شيئاً يا مريم، انك في حماية الرب، ولن تموتي»

سألتها المجدلية، وعيناها تلمعان «وكيف لكِ أن تعرفي يا مريم؟»

أجابت أم اليسوع بيقين «إن الرب يمنحنا الوقت يا مجدلية، وقتاً لنتوب»

ولكن بينما النسوة الثلاث يتحدثن وكاد يوحدهن الألم، تصاعدت من كروم العنب صيحات «انهم قادمون! انهم قادمون هاهم وصلوا!»، وقبل أن يتمكن زبدى من النزول عن منصته، ظهر رجال ضخام ينفثون من الغضب عند الباب الخارجي، وتخطى باراباس، أحمر الوجه ويتصبب عرقاً، عتبة الباب، وهو يخور.

صرخ «هيه، زبدى، سوف ندخل، سواء سمحت لنا أم لم تسمح - باسم رب اسرائيل!»

بعد أن قال هذا، وقبل أن يتمكن صاحب المكان العجوز من فتح فمه، خلع باراباس الباب عن مفاصله بضربة واحدة وقبض على المجدلية من جدائلها.

زأر قائلاً وهو يجرُّها الى الفناء «الى الخارج ، يا عاهرة الى الخارج». هنا دخل مواطنو مجدلة، وأمسكوا بها، ورفعوها، ونقلوها وسط صيحات الاستنكار ونوبات الضحك، الى حفرة بالقرب من البحيرة، ورموا بها فيها. ومن ثم انتشر الرجال والنساء في المكان وراحوا يملأون مآزرهم وأرديتهم الطويلة بالحجارة.

في تلك الأثناء كانت العجوز سالومه قد قفزت مغادرة مضجعها على الرغم من آلامها التي كانت تمضها وجرت نفسها حتى وصلت الفناء تبغي أن توبخ زوجها.

صرخت به قائلة «يجب أن تخجل من نفسك. لقد تركت أولئك المشاكسين ينتهكون حرمة دارك وينتزعون امرأة من بين يديك، امرأة تلتمس الرحمة منك»

والتفتت أيضاً الى ابنها يعقوب، الذي وقف متردداً في وسط الفناء.

قالت «وأنت - أنت تقتفي خطا والدك. عار عليك ألا تنوي أن تغدو أفضل منه؟ أنت أيضاً تريد أن تجعل من الأرباح رباً لك؟ هيا، سارع! سارع الى حماية امرأة تريد قرية بأكملها أن تقتلها. قرية بأكملها! خليق بهم أن يخجلوا من أنفسهم!»

أجابها ابنها، الذي لم يكن يخشى أحداً في الدنيا كلها غير أمه «اهدئي يا أمي، أنا ذاهب». كان في كل مرة تثور عليه غاضبة يستولي عليه الخوف لأنه كان يشعر أن هذا الصوت العنيف، القاسي، ليس صوتها هي : إنه صوت سلالة بني اسرائيل العنيد، العريق في القِدَم، الذي خشّنته سكنى الصحراء.

التفت يعقوب وأومأ الى رفيقيه، فيلبّس ونثائيل، وقال «هيا بنا!» وراح يبحث حول البراميل عن يهوذا، لكن الحداد اختفى.

قال زبدى، الذي اضطرب لأنه كان يخاف أن يبقى وحده مع زوجه «أنا أيضاً قادم» وانحنى وتناول هراوته وتبع ابنه.

كانت المجدلية تصرخ مذعورة مستنجدة، وقد انهارت في احدى زوايا الحفرة ورفعت ذراعيها لتقي رأسها، وقد غطت الجروح جسدها. وتحلّق الرجال والنساء حول الحافة ينظرون اليها ويضحكون. وكان ناقلو العنب وقاطفوه من كل الكروم في المناطق المجاورة قد تركوا أعمالهم وأخذوا يقتربون، الشبان منهم متلهفون لرؤية الجسد الشهير وهو شبه عار وملطخ بالدماء، والفتيات متلهفات بدورهن لأنهن كن يحقدن على هذه المرأة ويحسدنها لأنها

تستمتع بكل الرجال ولأنهن محرومات منهم.

رفع باراباس يده كاشارة للهاتفين كي يكفّوا . كان يريد أن يعلن القرار ليبدأ بعده الرجم بالحجارة. في تلك اللحظة ظهر يعقوب، وأخذ يقترب من الزيلوت رئيس المجموعة، لكن فيلبّس أمسك به بقوة من ذراعه.

قال «الى أين أنت ذاهب؟ الى أين سيذهب أي منا؟ مانحن غير ثلة قليلة، وهم يعدّون قرية بأكملها. لن ننجح!»

ظل يعقوب يسمع صوت أمه الوحشي يضج داخله، فصرخ «هيه، يا باراباس، هيه، يا قاطع الأعناق. أتراك أتيت الى قريتنا لتقتل الناس؟ حسن، دع المرأة وشأنها ، نحن سنحاكمها. سيأتي كُبراء مجدلة وكفرناحوم وسيحاكمونها، وسيأتي أيضاً والدها الحبر من الناصرة. هذا هو القانون!»

قاطعه العجوز زبدى، الذي كان قد وصل مع هراوته الثقيلة «ابني على حق ، انه على حق، هذا هو القانون!»

استدار باراباس بكامل جسمه ووقف ليقابلهم مباشرة، وصرخ «كُبراء القرية مرتشون، وكذا زبدى. انني لا أثق بهم. أنا هو القانون، فاذا كان لدى أي منكم أيها الشبان الشجعان الجرأة فليتقدم وليبارزني بقوته !»

تجمهر رجال ونساء مجدلة وكفرناحوم حول باراباس ، الذي كان حب القتل يلتمع في بؤبؤي عينيه. ووصلت مجموعة من الأولاد قادمين من القرية، ومسلحين بالمقالع.

أمسك فيلبّس نثنائيل من ذراعه وخطا الى الخلف. ثم التفت نحو يعقوب، وقال «اذهب أنت يا ابن زبدى، اذهب وحدك اذا شئت - أما نحن ، فلن نبارح مكاننا. أتظن أننا مجنونان؟»

«ألا تخجلان من نفسيكما، يا جبانان؟»

«لا لسنا خجلين، اذهبا، اذهبا وحدكما»

التفت يعقوب الى والده، لكن زبدى سعل، ثم قال: «أنا رجل عجوز»

هتف باراباس، مقهقهاً «مارأيك؟»

اقتربت سالومه العجوز، متكئة على ذراع ابنها الأصغر. ومن خلفها جاءت مريم زوجة يوسف ، وعيناها ممتلئتان بالدموع. التفت يعقوب، رأى أمه، فأصابته الرعشة. أمامه يقف قاطع الأعناق المرعب مع حشد الفلاحين ، وخلفه أمه،ثائرة وصامتة.

جأر باراباس من جديد، وهو يرفع كُميّه «ماذا قلت؟»

غمغم ابن زبدى «لن أدعهم يخجلون مني!» ، ثم تقدم ، وعلى الفور اقترب باراباس نحوه مباشرة.

قال الأخ الأصغر «سيقتله!»، محاولاً أن يتخلص لكي يهرع لنجدة يعقوب. لكن أمه منعته.

قالت «اهدأ أنت. لا تتدخل»

حين همَّ الخصمان بالاشتباك سمعت صيحة فرح قادمة من حافة البحيرة : !Maran atha! Maran atha، وقفز شاب لفحته أشعة الشمس ماثلاً أمامهم، يلهث ويلوّح بيديه.

هتف «!Maran atha! Maran atha، الرب قادم!»

هتفوا جميعاً، وهم يدورون حوله «من القادم؟ من؟»

أجابهم الشاب «الرب»، وأشار خلفه جهة الصحراء «الرب - هاهو!»

التفت الجميع . كانت الشمس عندئذ قد أخذت تغرب، والحرارة بدأت تخف، وأمكن رؤية رجل يرتقي السفح من الشاطئ . كان متلفعاً بالبياض، أشبه براهب من الدير. كانت أزهار الدفلى النامية على ضفة البحيرة في أبهى تفتحها، فمد الرجل ذو الرداء

الأبيض يده وقطف زهرة حمراء ووضعها بين شفتيه. وكان هناك نورسان يسيران على الحصى، تنحيا جانباً ليسمحا له بالمرور.

رفعت سالومه العجوز رأسها المتوَّج بالشعر الأبيض وأخذت تشم الهواء. وسألت ابنها «من القادم؟ لقد تبدَّل اتجاه الريح»

أجابها الفتى «قلبي يكاد يتفطّر يا أماه. أعتقد أنه هو!»

«من؟»

«هس، لا تتكلمي!»

«ومن أولئك الناس الآتين خلفه؟ يا الهي، هناك جيش كامل يهرع خلفه»

«إنهم الفقراء الذين يلتقطون بقايا قطاف الكرمة يا أماه. انهم ليسوا جيشاً، فلا تخافي»

الحق يقال، إن الحشد الغفير من الصعاليك الذي بدأ يظهر في إثره كان أشبه بجيش، وعلى الفور تفرَّق في كل اتجاه في الكروم المقطوفة الثمار ـ رجال ونساء وأطفال، مزودن بأكياس وسلال ـ وبدأوا بالبحث. ففي كل عام عند موسم حصاد القمح، وقطاف الكرمة والزيتون تتدفق هذه الأسراب من الجائعين قادمة من كل مناطق الجليل لتجمع الحنطة والعنب والزيتون التي يتركها أصحاب الأراضي للفقراء، كما ينص قانون اسرائيل.

فجأة توقف الرجل ذو الرداء الأبيض . لقد أفزعه مشهد الحشد الغفير، وقال في نفسه، يجب أن أرحل!، وقد تمكن منه الخوف القديم. هذا هو عالم البشر. يجب أن أرحل، يجب أن أعود الى الصحراء، حيث الرب... مرة أخرى كان قدره معلقاً بخيط رفيع. كيف يتجه الى الأمام أم الى الوراء؟

وقف المتحلّقون حول الحفرة لايبدون حراكاً، ويراقبونه، يعقوب وباراباس مازال أحدهما يواجه الآخر، وأكمامهما مرفوعة. حتى

المجدلية رفعت رأسها وراحت تنصت ، مامعنى هذا الصمت؟ أهو الحياة؟ أم الموت؟ كان اتجاه الريح قد تبدل. وفجأة قفزت واقفة، ورفعت ذراعيها وصرخت «انجدوني!»

سمع الرجل ذو الرداء الأبيض الصوت، وتعرَّف عليه، واهتز كل جسمه.

تمتم «انها المجدلية، المجدلية! يجب أن أنجدها!»، وتقدم مسرعاً نحو الحشد المتجمهر، وذراعاه مفتوحان واسعاً.

كان كلما اقترب من الناس وميَّز أكثر الغضب الذي يملأ عيونهم، والعنف القاتم، المعذِّب في قسمات وجوههم، ازداد اضطراب قلبه،وفاض أكثر التعاطف والحب العميقين في داخله. وقال في نفسه، هؤلاء هم البشر، انهم جميعاً أخوة، كل واحد منهم، لكنهم لا يعون ذلك ـ ولهذا هم يتعذبون . لو أنهم يدركون هذا، اذن لأقيمت الاحتفالات، وتبادلوا العناق والقبلات، ولغمرت السعادة الجميع.

أخيراً وصل واعتلى احدى الصخرات، ونشر ذراعيه يساراً ويميناً، وأطلق كلمة واحدة، كلمة ملؤها الفرح والانتصار، من أعماقه :«يا أخوتي!»

تبادل الناس المدهوشون النظرات . ولم يُجبْ أي منهم.

تردد صدى الهتاف المنتصر من جديد «يا أخوتي ـ يا أخوتي، انني مسرور لرؤياكم»

أجابه باراباس ، وهو يتناول حجراً ثقيلاً عن الأرض «أمانحن فلا تسرنا رؤياك، يا صانع الصلبان!»

هتف أحدهم بصوت يفطِّر القلب «ولدي!»، واندفعت مريم من بينهم وعانقت ابنها. ضحكت، وبكت، وراحت تلاطفه؛ أما هو ، ودون أن ينطق بكلمة، فكَّ ذراعي أمه المحيطتين به وتقدم باتجاه باراباس.

قال «باراباس، يا أخي، أنا سعيد برؤياك. أنا صديق، وأحمل رسالة فرح عظيم»

زأر باراباس «اياك أن تقترب أكثر»، ووقف أمام مكان وجود المجدلية لكي يخفيها عن عينيّ الرجل الآخر. لكنها سمعت الصوت المحبب اليها فقفزت واقفة على قدميها.

صرخت «يسوع ! انجدني!»

وبخطوة واسعة كان يسوع قد وصل الى حافة الحفرة، وكانت المجدلية قد باشرت بالصعود، وهي تتشبث بالصخور بأصابع يديها وقدميها. انحنى يسوع ومد لها يده. فقبضت عليها، وجرها الى الخارج . انهارت واقعة على الأرض، وهي تنفث، وقد غطاها الدم.

اندفع باراباس ووطأ بقدمه على ظهرها، وجأر «إنها لي!»، رافعاً الحجر الذي كان يحمله بيده «سأقتلها - لقد دنّست يوم السبت المقدس - الموت لها!»

عوى الناس لفورهم «الموت! الموت!»، وقد خشوا أن تفلت الضحية منهم.

صرخ زبدى أيضاً عالياً «الموت!»، وذلك حين رأى الصعاليك يحيطون بالقادم الجديد، الذي لابد انه كان يعمل على ملء رؤوسهم بالأفكار الوهمية. الويل لنا اذا سمح للمعدمين بأن يفعلوا ماشاء لهم. فعاد يصرخ من جديد، وهو يضرب بهراوته على الأرض «الموت! الموت!»

كبح يسوع ذراع باراباس المرفوعة ، وقال، بصوت هادئ ملؤه الحزن «ألم يسبق لك يا باراباس أن عصيت احدى وصايا الرب؟ ألم يسبق لك على مدى حياتك كلها قط أن سرقت، أو قتلت نفساً، أو ارتكبت الزنا أو كذبت؟»

والتفت الى الحشد الهادر وراح ينظر الى كل منهم ببطء،

واحـداً واحـداً، وقـال «من كـان منكم بلا خطيئـة فليكن أول من يرجمها!»

سادت البلبلة بين الحشد، وأخذ الناس يتراجعون واحداً إثر آخر، يتدافعون للهرب من نظرته الممزّقة التي كانت تحفر في ذكرياتهم وفي أعضائهم الحية. تذكروا كل الأكاذيب التي تلفّظوا بها على مدى حياتهم، والأفعال الجائرة التي ارتكبوها، وزوجات الآخرين اللواتي ضاجعوهن، وأخفت النسوة مناديلها، وانزلقت الحجارة التي كن يحملنها في أيديهن واقعة على الأرض.

حين وجد العجوز زبدى أن الغوغاء على وشك الخروج منتصرين ثار وغضب، ومرة أخرى التفت يسوع الى الناس وراح يحدّق اليهم واحداً بعد آخر، وأطال التحديق حتى وصل الى أعماق عيونهم ، وقال «من كان منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرجمها»

خفَّ زبدى الى القول «أنا ، يا باراباس، أعطني حجرك. إن البراءة لا تعرف الخوف : أنا سأرميه»

فرح باراباس، وأعطاه الحجر وخطا خطوة واحدة جانباً. وقف زبدى فوق المجدلية وهو يقبض على الحجر ويقدِّر ثقله، لكي يسدد ضربته بدقة الى رأسها. وكانت هي قد انكمشت على نفسها، متكورة عند قدمي يسوع بهدوء، لأنها شعرت أنها هنا لا تخشى الموت.

نظر الصعاليك الحانقون الى زبدى العجوز، وقفز أحدهم، وكان أشد الجميع هزالاً، الى الأمام.

صرخ «هيه، زبدى، إعلم أن هناك رباً. سوف تُشَل يدك - ألست خائفاً؟ راجع نفسك: ألأنت لم تلتهم مرة في حياتك حقوق الفقراء؟ ألأنت لم تعمد مرة في حياتك الى بيع كرم عنب يخص أحد اليتامى في المزاد العلني؟ ألأنت لم تدخل بيت أرملة ليلاً؟»

بينما كان الآثم العجوز ينصت شعر بثقل الحجر الذي في يده

وتحامل على نفسه أكثر فأكثر . وفجأة أطلق صرخة، وتراخت ذراعه بحركة سريعة وهبطت الى جانبه عاجزة. وأفلت الحجر الكبير من قبضته واستقر على قدمه، ساحقاً أصابعها.

تصايح الصعاليك فرحاً «معجزة ! معجزة! المجدلية بريئة!»

جن جنون باراباس ، وانتفخ وجهه المجدور واشتعل بالاحمرار. اندفع كالسهم الى ابن مريم، ثم رفع يده وصفعه. لكن يسوع وبكل هدوء أدار له الخد الآخر. قال «اضرب الخد الآخر أيضاً، يا باراباس، يا أخي»

خَدِرَتْ يد باراباس، وجحظت عيناه من محجريهما. من يكون هذا الشخص؟ من يكون - أشبحاً أم رجلاً أم شيطان؟ انعقد لسانه فخطا الى الوراء وهو يحدق الى يسوع.

عاد يسوع يحثه قائلاً «اضرب الخد الآخر، يا باراباس ، يا أخي»

هنا خرج يهوذا من ظل شجرة التين حيث جلس متنحياً، وكان يراقب مايجري. رأى كل شيء ولم يتكلم . لم يكن يهمه إن قتلت المجدلية أم لم تقتل، ولكن أسعده أن يسمع باراباس والصعاليك يقفون في وجه زبدى ويشهّرون بآثامه. وحين رأى يسوع يظهر عند شاطئ البحيرة مسربلاً بردائه الأبيض الجديد ، طفر قلبه، وتمتم، ناصباً أذنه الكبيرة «الآن سيتّضح أمره، ماذا يريد وماهي الرسالة التي يحملها للبشر». لكن مابدأ به، الكلمة الأولى التي تلفظ بها - «يا أخوتي» - أزعجته ، وتعكرت تعابير وجهه، ودمدم «إنه لم يتعقّل بعد، لا، لسنا جميعاً أخوة. العبرانيون والرومان ليسوا أخوة، ولا العبرانيون أخوة بين بعضهم بعضاً. ان الصدّوقيين[1] الذين يبيعون

---

١ - الصدوقي : هو أحد أفراد طائفة يهودية في زمن المسيح، عادت الفريسين، وأنكرت الحشر والملائكة ، وصِحّة التراث الشفهي.

أنفسهم لروما، وكبراء القرى ـ وهم من الكثرة بحيث يشكلون غطاءاً لأفعال الطاغية ـ ليسوا اخوة لنا. لا، لقد بدأتَ بداية سيئة، يا ابن النجار. فانتبه!» ولكن حين شاهد يسوع يقدم خده الآخر، دون أي غضب وبعذوبة انسانية مذهلة، استولى عليه الخوف. ماتكوين هذا الرجل هكذا هتف لنفسه. هذا... هذا العرض للخد الآخر: لا يمكن إلا للملاك أن يفعل ذلك، فقط ملاك ـ أو كلب.

وبقفزة واحدة سريعة اقترب من باراباس وأمسك به من ذراعه حين همَّ بالاندفاع نحو ابن مريم.

قال بصوت مكتوم «اياك أن تلمسه . اذهب الى بيتك!»

نظر باراباس الى يهوذا في دهشة. لقد كانا معاً عضوين في رابطة الأخوة، وطالما اشتركا جنباً الى جنب في اقتحام القرى والمدن وفي قتل خونة اسرائيل. وهاهو الآن...

غمغم «أنت ، يا يهوذا، أنت؟»

«نعم، أنا ، فاذهب!»

ظل باراباس ملازماً مكانه. كان يهوذا أعلى مقاماً منه في رابطة الأخوة لذا لا يمكنه أن يعارضه؛ ولكن، من ناحية أخرى، عزة نفسه منعته من مبارحة مكانه.

أمره ذو اللحية الحمراء مرة أخرى «اذهب!»

أطرق رئيس المجموعة برأسه ورمى ابن مريم بنظرة ضارية ، وغمغم، وهو يشد على قبضته «لن تفلت مني، سنتقابل من جديد!»

ثم التفت الى تابعيه وأمرهم بنصف حماس «هيا بنا»

الفصل الثالث عشر

كادت الشمس أن تلمس أسس السماء، ووهنت حرارة النهار، وهدأت الرياح، وتلألأت البحيرة باللونين الوردي والأزرق. ووقف عدد من طيور اللقلق، ومايزال جائعاً، على ساق واحدة على الصخور، وعيونه مثبتة على المياه.

سدد الصعاليك أنظارهم الى ابن مريم وانتظروا، لا يرغبون بالرحيل. ماذا ينتظرون؟ لقد نسوا أمر جوعهم وعراهم؛ نسوا خبث مالكي الأرض، الذين ليس في قلوبهم من الخير مايدفعهم لترك بعض العنب في الكروم ليحلّي الفَقْر بلعومه. منذ الصباح وهم يدأبون على الانتقال من كرم الى كرم، ولكنٍ سلالهم ظلت خاوية.. الشيء نفسه حدث وقت حصاد القمح: تنقّلوا من حقل الى حقل، وأكياسهم تتدلى فارغة الى جانبهم ، وفي كل مساء ينتظرهم أطفالهم بأفواه مفتوحة! أما الآن ـ دون أن يعرفوا لماذا أو كيف ـ بدت سلالهم فجأة وكأنها قد امتلأت. راحوا يُملّون أبصارهم من الرجل المسربل بالبياض الماثل أمامهم ولا يقوون على الرحيل. وانتظروا . انتظروا ماذا؟ هم أنفسهم لم يكونوا يعرفون.

بادلهم ابن مريم النظر ، هو أيضاً كان ينتظر، لقد شعر أن كل هذه الأرواح معلق مصيرها في عنقه. ماذا يريدون منه؟ عمَّ يبحثون؟ ماذا يمكنه أن يمنحهم، وهو الذي لا يملك شيئاً ؟ نظر اليهم، وأطال النظر، وللحظة من الزمن شعر بأنه قد فقد شجاعته وأراد أن يهرب من جديد، ولكن منعه الاحساس بالعار. ماذا سيحل بالمجدلية، التي تتشبث بقدميه؟ وهذه العيون الكثيرة التي تحدق به مشتاقة : كيف يتركها دون مواساة؟ أيرحل؟ ولكن الى أين؟ الرب يكتنفه من كل جانب. إن روعته توجهه كيفما شاءت ـ ليست روعته، بل قوته، قوته الكلية القدرة. ثم أحس ابن مريم أن هذه الأرض هي موطنه ـ ولا موطن آخر له؛ شعر بأن الناس هم صحراؤه ـ ولا صحراء أخرى غيرهم له.

تمتم، وهو يحني رأسه ويستسلم لرحمة الرب، «فلتكن مشيئتك يا رب».

نهض رجل عجوز من بين الصعاليك وقال «يا ابن مريم، نحن جائعون، لكننا لا ننتظر منك خبزاً؛ فأنت فقير، مثلنا. أفصح، ألقِ على مسامعنا كلمة طيبة، وسنشبع»

وغامر شاب بالقول : «يا ابن مريم ، الظلم يخنقنا ، ولم يعد لقلوبنا القدرة على التحمل. لقد قلت انك تجلب كلمة طيبة. قل لنا هذه الكلمة الطيبة، اجلب لنا العدالة»

نظر ابن مريم اليهم. لقد سمع صوت الحرية والجوع، فابتهج. شعر بأنه انما كان ينتظر هذا الصوت منذ سنين ، هذا الصوت الذي وصله الآن وراح يناديه باسمه. فتوجه الى الناس بالكلام، وقد فتح ذراعيه واسعاً «يا أخوتي ، هيا بنا!»

وعلى الفور، وكأنهم بدورهم كانوا بانتظار هذه الدعوة منذ سنين وقد سمعوا اسمهم الحقيقي ينادى به للمرة الأولى ، ابتهج

الناس وصاحوا «هيا بنا! باسم الرب!»

سار ابن مريم في المقدمة، وتحرك الباقون ككتلة واحدة. كانت ثمة تلة محفّرة مجاورة لشاطئ البحيرة، وكانت ماتزال مغطاة بخضرة باهتة بالرغم من حرارة شمس الصيف الحارقة المسلّطة عليها طوال النهار، والآن في عذوبة المساء، أصبحت تفوح بعبق الصعتر والروائح الذكية. ولابد أن قمتها كانت مقاماً لأحد المعابد الوثنية القديمة، لأنه كانت لاتزال هناك قطع من عدة تيجان منقوشة لأعمدة ملقاة على الأرض. وكان صيادو السمك المستبصرون يرون بانتظام، أثناء ممارستهم الصيد ليلاً، شبحاً أبيض جالساً على الحجر الرخامي، بل ان يونان العجوز سمعه ذات ليلة يبكي... وكانوا جميعاً يسيرون متجهين نحو هذه التلة كالمسلوبي الارادة، وابن مريم في المقدمة، ومن خلفه عائلة الفقراء الكبيرة.

التفتت سالومه العجوز الى ابنها الأصغر وقالت له «احملني بين ذراعيك. نحن أيضاً سنذهب»، ثم أمسكت بيد مريم، وقالت «لا تبكي يا مريم. ألم تري هالة من النور تحيط بوجه ابنك؟»

أجابت الأم، وقد بدأت تجهش باكية بعنف «لا ابن لي، لا ابن لي. كل هؤلاء الصعاليك لديهم أبناء، وأنا لا ابن لي»، وانطلقت صوب التلة، وهي تنوح وتولول. وقد كانت على حق : لقد غادرها ابنها الى الأبد. حين هرعت لتعانقه وتأخذه معها الى البيت نظر اليها نظرة دهشة وكأنه لا يعرفها ، وحين قالت له «أنا أمك»، مدَّ يده وأبعدها عن طريقه.

رأى زبدى العجوز زوجته ترتقي التل مع الحشود، فقبض على هراوته وهو مكفهر الوجه، والتفت الى ابنه يعقوب والى رفيقيه، فيلبّس ونثائيل، وأشار نحو الغوغاء الضاجين المهتاجين. قال «إنهم

ذئاب جائعة، اللعنة عليهم جميعاً! يستحسن أن نعوي معهم لكي لا يظنوننا نعاجاً ويأكلوننا. هيا نتبعهم - ولكن تذكروا، مهما قال لهم ابن مريم الواهم ذاك، فسوف نطلق أصوات الاستهجان . أتسمعون؟ لن نسمح بأن تكون له اليد الطولى. هيا بنا، معاً، ولنسرع!»

قال هذا وانطلق بدوره يرتقي التل ، ببطء كحمار يعرج.

هنا ظهر ابنا يونان. كان بطرس يمسك أخيه من ذراعه ويكلمه بهدوء، ورفق، لكي لا يثير حنقه. لكن الآخر كان منزعجاً وعيناه لا تحيدان عن النظر الى الحشود التي ترتقي التل. والى الرجل ذي الرداء الأبيض الذي يتقدمهم.

سأل بطرس يهوذا «من هؤلاء؟ والى أين هم ذاهبون؟»، وكان يهوذا مايزال واقفاً في الطريق ، عاجزاً عن اتخاذ قرار.

قال ذو اللحية الحمراء ساخراً «انه ابن مريم»

«والعدد الغفير الذي يتبعه؟»

«انهم الفقراء الذين يلتقطون فضلات العنب بعد قطافه. حالما وقع نظرهم عليه لازموه، وأعتقد أنه صاعد الى هناك ليكلمهم»

«وماذا بوسعه أن يقول ؟ انه لا يحسن حتى قسمة مقدار من التبن بين حمارين»

هز يهوذا كتفيه ، وجأر قائلاً «سوف نرى»، وانطلق بدوره يرتقي التل.

كانت امرأتان قويتان بمظهر رجولي عائدتين من كروم العنب، يبدو عليهما الارهاق وشدة الحر، وكل منهما تحمل سلة مملوءة بالعنب توازنها على رأسها. وبدافع من حسدهما الآخرين لروح الصداقة الحميمة التي تسود بينهم، قررتا الانضمام اليهم لتزجية الوقت، وانضمتا الى آخر الموكب.

كان يونان ، وشبكته على كتفيه، يجر نفسه، متجهاً الى كوخه. كان جائعاً، شديد التوق للوصول . وحين شاهد ولديه والحشد الغفير يرتقون التل،توقف ، فاغر الفم ، وراح يحدق اليهم بعينين مدوَّرتين كعيون السك. لم يفكر في أي شيء، لم يتساءل عمَّن مات، أو تزوج، او الى أين يذهب كل هذا العدد الكبير من الناس معاً. لم يفكر في أي شيء ، واكتفى بالتحديق وهو فاغر الفم.

ناداه زبدى قائلاً «هيا، يا يونان، أيها النبي السمكة، تعال معنا، سيقام حفل! يبدو أن مريم المجدلية ستتزوج. هيا، تعال واقض وقتاً ممتعاً!»

حرَّك يونان شفتيه الغليظتين. كاد يتكلم، لكنه غيَّر رأيه. ثم نخع كتفه ليعدِّل وضع الشبكة على ظهره ، وانطلق متوجهاً الى حيه، بخطى متثاقلة. وبعد مرور وقت طويل، وحين أخذ يقترب أخيراً من كوخه، تفتَّق ذهنه أخيراً، بعد جهد مضن، وأعطى نتاجه، فتمتم قائلاً «اذهب الى الشيطان يا زبدى، أيها الأحمق!»، ثم فتح الباب برفسة من قدمه، ودخل.

حين وصل زبدى وصحبه الى قمة التل، كان يسوع جالساً القرفصاء على تاج أحد الأعمدة. ولم يكن قد نطق بأية كلمة، وكأنه كان بانتظارهم. كان جمع الفقراء متجمِّعين أمامه، الرجال جالسين القرفصاء، والنساء واقفات في الخلف ، يرنون بأبصارهم اليه. كانت الشمس قد أفلت، لكن جبل حبرون(١)، الى الشمال، كان مايزال ممسكاً بالضوء عند ذروته ولا يسمح له بالفرار.

راقب يسوع الضوء وهو يصارع الظلام، ويداه معقودتان على صدره. أحياناً كان يعيد بصره ببطء الى وجوه الناس، التي كانت

١ ـ الخليل ، حالياً.

مصوَّبة اليه مباشرة. كانوا ذابلين، حزانى، منكمشين من الجوع، والعيون التي كانت مستقرة عليه كانت تنظر اليه نظرة عتب، وكأنه هو الملوم.

حالما رأى زبدى ورجاله نهض واقفاً. قال «أهلاً بكم. اقتربوا كلكم. إن صوتي ليس جهورياً كثيراً. أريد أن أكلمكم»

ذهب زبدى الى المقدمة بوصفه من كُبراء القرية واستقر فوق حجر. الى يمينه جلس ولداه وأيضاً فيلبّس ونثنائيل، والى يساره جلس بطرس واندراوس. وكانت سالومه العجوز ومريم زوجة يوسف واقفتين بين النسوة، بعيداً في المؤخرة. أما مريم الأخرى، مريم المجدلية، فكانت تستكين عند قدمي يسوع، ووجهها مدفون بين كفيها، وكان يهوذا ينتظر تحت شجرة صنوبر تهيِّجها الرياح وتشوه شكلها، متنحياً جانباً، وعيناه الزرقاوان القاسيتان توجهان نظرات كطعنات الخنجر الى ابن مريم، من خلال وريقات الصنوبر الابرية.

كان يسوع يرتعش سراً ويجاهد ليستجمع شجاعته. هذه هي اللحظة التي كان يخشاها منذ سنين طويلة. وهاقد حانت ، لقد انتصر الرب، وأحضره بالقوة الى حيث أراده أن يأتي - أمام الناس ليخطب فيهم. والآن، ماذا يسعه أن يقول لهم؟ ولمعت أفراح حياته القليلة وهي تعبر كالبرق ذاكرته، ومن بعدها أحزانه الغفيرة، ومباراته مع الرب، وكل ماشاهده في تجوالاته وحيداً ـ الجبال، الأزهار والطيور، والرعيان وهم يحملون بسعادة خروفاً شارداً على أكتافهم ليعيدوه الى الحظيرة وصيادي السمك وهم يلقون بشباكهم لتصيد السمك، والفلاحين وهم يبذرون الحب، ويحصدون، ويذرون الحنطة، ومن ثم ينقلون المحصول الى بيوتهم. كانت السماء والأرض تنفلقان وتنغلقان بأطوار متكررة في ذاكرته : استرجعَ كل معجزات الرب ـ ولم يعرف أيها يختار أولاً! أراد أن يعرضها كلها عليهم، كلها

! ليواسي من لا يُواسَون. إن هذا العالم الذي تكشَّف أمامه هو حكاية الرب الخيالية، ملؤها الأميرات والغيلان ـ تماماً كالحكاية التي كانت ترويها له جدته لكي تتجنب بكاءه، والرب يتكئ على حافة السماء ويرويها للبشر.

ابتسم وفتح ذراعيه واسعاً.

قال بصوت مرتعش، ولايزال متهدجاً «يا أخوتي، يا أخوتي، سامحوني إنّ أنا استخدمت الأمثولات في حديثي، فأنا رجل بسيط، عاميّ، وفقير ومحتَقَر مثلكم. قلبي مترع بما يريد أن يفضي به اليكم، ولكن عقلي عاجز عن الربط فيما بينها. انني أفتح فمي واذا بالكلمات تخرج منه، ودون أية رغبة مني، على شكل حكاية. سامحوني، يا أخوتي، لكني سأتكلم بلغة الأمثولات»

هتف الناس «نحن منصتون، يا ابن مريم، منصتون!»

مرة أخرى فتح ابن مريم فمه «خرج الباذر ليبذر حقله،وبينما هو يفعل وقعت حبة على الأرض فجاءت الطيور فأكلتها، ووقعت أخرى على الحجارة، ولم تجد تربة تتغذى عليها فذبلت وماتت. ووقعت أخرى على الشوك، فنما الشوك وتكاثر حتى خنقها. وأخيراً، وقعت واحدة على تربة خصبة، فخرج منها جذر، وشطأت في الهواء، وأثمرت قمحاً وأطعمت البشر. فليسمع كل من له أذنان، اسمعوا وعوا!»

لم يتكلم أحد. راحوا يتبادلون النظرات ، وقد أخذتهم الحيرة. لكن العجوز زبدى الذي كان يبحث عن أية ذريعة لاثارة شجار، قفز واقفاً، وقال:

«اعذرني ، ولكني لا أفهم. أنا لدي أذنان، المجد للرب، أنا لدي أذنان وأنا أستمع ـ لكني لا أفهم. ماذا تريد أن تقول؟ ألا تستطيع أن تعبر بشكل أشد وضوحاً؟»، وأخذ يضحك بتهكم، ويمسد على لحيته البيضاء بزهو.

«أم لعلك أنت الباذر المذكور؟»

أجاب يسوع بتواضع «نعم، أنا هو الباذر»

هتف كبير القوم العجوز، وهو يضرب بهراوته الأرض «فليحفظنا الرب وحتماً نحن المقصود بنا الحجارة والأشواك والحقول التي تبذرها ، هه؟»

أجاب ابن مريم، ومايزال صوته هادئاً «نعم أنتم»

أصاخ اندراوس سمعه، وكان قلبه الثائر وهو ينظر الى يسوع يكاد يطفر بعنف. وكان قد طفر بالطريقة ذاتها على ضفاف نهر الأردن حين وقع بصره لأول مرة على يوحنا المعمدان ـ المتلفّع بجلود الحيوانات، وقد نخره طول التعرض لأشعة الشمس، واستهلكه التعبُّد حتى آخر رمق، والصلوات المسائية والجوع حتى لم يبق منه غير عينين هائلتي الحجم ـ كأنهما جمرتان متوهجتان، وحنجرة تصرخ «توبوا! توبوا!»، وحين كان يصرخ كانت تتشكل على سطح مياه نهر الأردن أمواج عظيمة عالية، وتتوقف القوافل، وتعجز الجمَال عن متابعة سيرها. أما الآن فها هو هذا الرجل الماثل أمامه مبتَسماً وصاحب صوت صاف متهادي ـ إنه أشبه بعصفور أخرق، يجاهد كي يغرد للمرة الأولى ، وعيناه؛ بدل أن تتقدا، تداعبان. كان قلب اندراوس يرفرف منتقلاً جيئة وذهاباً بين الاثنين، وقد وقع في حيرة تامة.

وشيئاً فشيئاً، أخذ يوحنا يبتعد عن مكانه بجوار والده ويقترب من يسوع، حتى كاد يصل عند قدمي المعلم واذا بزبدى يراه ويزداد غضباً على غضب. لقد كان قد ملَّ وسئم الأنبياء الزائفين. والآن بات يظهر واحد جديد كل يوم من أيام العام ويضع ثقل العالم كله على أكتافهم، ويعمل كل منهم، وكأنه قد توصل الى فهم مسبق للأمور، على مهاجمة الملاك، والكهنة والملوك، وكل ماهو مستقر

وطيب في هذا العالم ، يريدون أن يدمروه. والآن ـ ماذا بعد! ـ هاهنا ابن مريم الحافي! وتمنّى زبدى في نفسه، آه، يستحسن أن أدق عنقه طالما انه مازال شاباً وغضاً.

وتلفت فيما حوله ليتعرَّف على رأى الآخرين، وكأنما ليستمد منهم الشجاعة. فرأى يعقوب، ابنه البكر، مقطباً مابين حاجبيه، لكنه لم يعرف إن كان ذلك من الغم أم من الغضب، ورأى زوجته ، وكانت قد اقتربت أكثر وهي تمسح عينيها، وألقى نظرة سريعة على الصعاليك فأرعبه أن يراهم جميعاً، جميع أولئك الفقراء الجائعين، يشخصون بأبصارهم الى ابن مريم وأفواههم فاغرة، كعصافير تطعمهم أمهم.

دمدم وهو يغوص في مكانه بجوار ابنه «اللعنة على المتسولين!»، ثم قال في نفسه، من الأفضل أن ألزم الهدوء، والا ورطّتُ نفسي في المتاعب.

ثم سمعوا صوتاً هادئاً ، نبرته حزينة. هناك من يجلس عند قدمي يسوع وقد بدأ يتكلم. والناس الذين كانوا يتمددون في المؤخرة اعتدلوا في جلستهم ليروا : إنه ابن زبدى الأصغر، فقد زحف ببطء حتى وصل الى قدمي يسوع وأخذ يكلمه، مطأطأ الرأس.

«تقول انك الباذر وأننا الحجارة، والشوك والحقل، ولكن مانوع البذور التي تحملها؟»

كان وجهه العذري، الذي نما عليه الزغب، قد تضرج لونه، وعيناه السوداوان، اللوزيتا الشكل تشخصان الى يسوع بنظرة كلها ألم، وجسمه الأبيض الريان، الذي مسَّته الرعشة، قد امتد الى أعلى في وضع انتظار. كان لديه نذير بشر بأن حياته كلها تعتمد على الجواب الذي سيتلقاه ـ حياته هذه، والحياة الآخرة.

كان يسوع قد انحنى ليسمعه. ظل صامتاً فترة طويلة، وهو ينصت الى قلبه ويجاهد بحثاً عن الكلمة المناسبة، الكلمة البسيطة، المألوفة، الخالدة، وتندَّى وجهه بعرق حار.

كرر ابن زبدى سؤاله وقد انتابه القلق «مانوع البذور التي تحملها؟»

وفجأة، انتصبت قامة يسوع بحركة سريعة، وبسط ذراعيه وتوجه الى الجموع قائلاً:

«أحبوا بعضكم بعضاً ـ ». خرجت الصرخة من أعمق أعماقه ـ «أحبوا بعضكم بعضاً!»

بعد أن قال هذا شعر أن قلبه قد أضحى فجأة خاوياً ، ثم تهالك على تاج العمود، وقد ناله الارهاق.

تعالى الهمس، ودب النشاط بين الناس. هز كثير منهم رؤوسهم، وبعضهم ضحك.

وسأل رجل عجوز ثقيل السمع «ماذا قال؟»

«قال ان علينا أن نحب بعضنا بعضاً»

قال العجوز ، متكئاً على شجرة الصنوبر يمسد على لحيته الحمراء وقد تملكه الغيظ، ودمدم قائلاً «هكذا اذن، يا ابن النجار، أهذا ما أتيت لتقوله لنا؟ أهذه هي الرسالة المذهلة التي جلبتها لنا؟ تريدنا أن نحب الرومان، هه؟ هل يفترض بنا أن نقدم أعناقنا كما قدمت أنت خدك، ونقول «يا أخي العزيز، اذبحني أرجوك؟»

سمع يسوع الهمس، ورأى الوجوه العابسة، والعيون المكتئبة ـ وفهم دلالتها، وغمر الاحساس بالمرارة وجهه. ثم استجمع كل قواه، ونهض واقفاً.

كرر قائلاً، بصوت ملحاح متوسل، «فليحب بعضنا بعضاً! فليحب بعضنا بعضاً! الرب محبة! أنا أيضاً كنت أظنه متوحشاً، أنا

أيضاً كنت أظن أنه بلمسة منه تتبخر الجبال، ويصرع الرجال. لقد اختبأت في الدير لأهرب ، سجدت على وجهي وانتظرت... كنت أقول لنفسي، الآن سيأتي، الآن سيهبط عليَّ هبوط الصاعقة. وذات صباح جاءني، هبَّ عليَّ كهبوب نسيم منعش وقال «قم ، يا ولدي، فنهضت، وأتيت : وها أنا هنا!»

شبك يديه وانحنى بدءاً من وسطه وكأنه يحيِّي الناس الماثلين أمامه.

سعل زبدى العجوز وبصق، وهو يشد قبضته على هراوته، وجأر بصوت خفيض حانق «الرب نسيم منعش! اذهب الى الجحيم، أيها الدجال!»

تابع ابن مريم كلامه، وقد نزل الآن بين الناس، وراح ينظر اليهم فرداً فرداً، ويناشدهم واحداً واحداً، ويسير جيئة وذهاباً، رافعاً ذراعيه نحو السماء.

قال «انه أبونا . لن يدع ألماً دون مواساة، ولا جرحاً دون مداواة. إننا مهما عانينا من ألم وجوع في هذا العالم، بهذا القدر وأكثر، فسنشبع في الجنة، سوف نفرح...»

هنا نال منه التعب، فصعد من جديد الى تاج العمود وجلس عليه.

وهتف صوت «سننال فطيرة في السماء حين نموت!»، وضج المكان بالضحك.

لكن يسوع كان مغموراً بروح الرب، فلم يسمع.

وهنا هتف قائلاً «طوبى للجياع والعطاش الى البر»

قاطعه أحد الجائعين «البر وحده لا يكفي، البر وحده لا يكفي، نريد خبزاً!»

تنهد يسوع وقال «الخبز أيضاً، الخبز أيضاً... طوبى للجياع

والعطاش الى البر، فسيشبعون. طوبى للحزانى، فالرب سيعزيهم. طوبى للمساكين، وللودعاء، وللمظلومين ، فلأجلهم، لأجلكم، أنتم المساكين ، للودعاء وللمظلومين ، أعدَّ الرب مملكة السموات»

تبادلت المرأتان المسترجلتان، اللتان كانتا واقفتين وسلتا العنب ماتزالان على رأسيهما ، تبادلتا نظرة سريعة ودون أن تتفوها بأية كلمة أنزلتا السلتين وبدأتا ، واحدة من اليمين والأخرى من اليسار، توزعان عناقيد العنب على الفقراء. والمجدلية، الجاثمة عند قدمي يسوع، كانت ماتزال لا تجرؤ على رفع رأسها ليرى الناس وجهها لكنها كانت تلثم قدميّ المعلم سراً، وكان شعرها يغطيهما.

وصل تحمُّل يعقوب الى آخر مداه، فقفز واقفاً وغادر المكان. وتولَّى الحنق اندراوس، فتخلَّص من قبضة أخيه وتقدم حتى وقف أمام يسوع، وهتف «لقد جئت لتوي من نهر الأردن في يهودا. ويوجد هناك نبي ينادي قائلاً «الناس قش وأنا النار. وقد جئت لأحرق الأرض وأطهِّرها، لأحرق الروح، وأنقِّيها تمهيداً لمجيء المسيح!»، وأنت، يا ابن النجار، أنت تبشر بالمحبة! لماذا لا تلقي نظرة فيما حولك؟ وسترى في كل مكان : كذابين ، وقتلة ، ولصوصاً! والجميع مخادعون - أغنياء وفقراء، مظلومون وظالمون، كتبة وفرِّيسون - كلهم! كلهم! أنا أيضاً كذاب، أنا أيضاً مخادع، وكذا أخي بطرس الواقف هناك، وكذا زبدى ببطنه الضخم: يسمع كلمة «محبة» فيفكر في قواربه ورجاله وفي الطريقة المُثلى للسرقة قدر مايستطيع عن طريق معصرة الخمر»

حين سمع زبدى العجوز هذا الكلام استشاط غضباً، وصار لون مؤخر عنقه السمين أحمر نارياً ، وانتفخت أوردة عنقه، ثم اندفع الى الأمام رافعاً هراوته، وعلى استعداد للضرب. لكن سالومه تدخلت في الوقت المناسب وأمسكت ذراعه.

قالت له بصوت خافت «عار عليك، عار عليك. هيا، تعال الى المنزل .

زعق بأعلى صوته «لن أسمح للمتسولين الحفاة أن تكون لهم اليد الطولى هنا في «منطقتي!»، حتى أن الجميع سمعه. ثم التفت الى ابن مريم، وقال وهو يلهث وينفث «وأنت، أيها النجار، لا تمثّل عليَّ دور المسيح، إذ لهفي عليك أيها المسكين، لأنه سينتهي بك الأمر الى الصلب مثل الآخرين ـ بهذه الطريقة ستنسى مشاكلك! لكني لا أشفق عليك أنت، أيها التافه، بل أشفق على الأم التعيسة التي كنت لها ابنها الوحيد»

وأشار الى مريم، التي كانت قد انهارت واقعة على الأرض كالكومة، وأخذت تضرب رأسها على الحجارة.

لكن غضب الرجل العجوز لم يسكن، وتابع ضرب هراوته على الأرض وهو يصرخ «يقول «محبة»، وعلى الملأ ـ أنتم جميعاً أخوة، فاغرفوا منها قدر ماتشاؤون، وكل شيء على حساب المحل! ولكن هل يمكنني أن أحب عدوي؟ هل يمكنني أن أحب المتسول الذي يحوم حول فناء داري، يتلهف لكسر الباب وسرقتي؟ يقول «المحبة» ـ فقط اسمعوا مايقوله المعتوه! أما أنا فأقول ، مرحى ثلاثاً للرومانيين ، حتى وان كانوا وثنيين. مرحى ثلاثاً ! فانهم يحفظون النظام!»

هذا الكلام أثار الفقراء وحرَّضهم على الحركة، فاندفعوا نحو زبدى وتملك الرعب سالومه العجوز، فأسكتت زوجها بوضع يدها على فمه ومن ثم التفتت الى الحشد المائج المخيف الذي كان يقترب.

قالت «لا تأبهوا لكلامه يا أولادي. إن غضبه يجعله يقول ما لا يعنيه»

واستدارت نحو العجوز، وقالت بنبرة صوت آمرة «هيا بنا»

وأومأت أيضاً الى ابنها المحبوب، الجالس بسكينة وسعادة عند قدمي يسوع.

قالت «هيا ، يا ولدي. لقد حل الظلام»

أجابها الفتى «أنا سأبقى يا أمي»

نهضت مريم عن الصخور التي ارتمت عليها. مسحت عينيها، ومشت بخطى متقلقلة تريد أن تصحب ولدها الى البيت. لقد كانت التعيسة تخشى شيئين، الحب الذي أظهره الفقراء له والتهديدات التي تلقاها من العجوز القروي الثري.

كانت تقول لكل شخص تمر به «أستحلفك باسم الرب أن لا تنصت الى مايقوله. انه مريض... مريض... مريض...»

ثم اقتربت من ابنها، وهي ترتعش، وكان عندئذ واقفاً متشابك اليدين، يحدق بعيداً الى البحيرة. قالت له برقة «تعال يا ولدي، تعال، لنذهب معاً الى المنزل...»

سمع صوتها، فالتفت ونظر اليها بدهشة،وكأنه يسأل من تُراها تكون.

كررت مريم طلبها «تعال يا ولدي»، وأحاطت به من وسطه، «لماذا تنظر اليّ هكذا؟ الا تعرفني؟ أنا أمك. تعال، أخوتك بانتظارك في الناصرة، ووالدك العجوز...»

هز الابن رأسه، وقال بهدوء «أي أم؟ أي أخوة؟ أمي هنا وأخوتي»

مد يده وأشار بها الى الصعاليك والى زوجاتهم، والى يهوذا ذي اللحية الحمراء الذي وقف صامتاً أمام شجرة الصنوبر وهو يرميه بنظرة ملؤها الحنق.

رفع اصبعه مشيراً بها الى السماء «وأبي ـ أبي هو الرب»

أخذت عينا هذه الضحية العاثرة الحظ لصاعقة الرب تسكب الدموع، وقالت «هل في العالم كله أم أشد بؤساً مني؟ كان لي ولد واحد، واحد، والآن...»

سمعت سالومه العجوز البكاء الذي يفطّر القلب، فتركت زوجها، وعادت أدراجها وأمسكت بيد مريم. لكن الأخيرة نفرت واستدارت مرة أخرى نحو ابنها.

صرخت به «ألن تأتي؟ سأقولها لك للمرة الأخيرة : تعال معي!»

وانتظرت. ظل ابنها صامتاً؛ عاد من جديد ينظر الى البحيرة.

صرخت الأم بصوت يمزق القلوب «ألن تأتي؟»، ورفعت يدها، «ألا تخشى لعنة الأم؟»

أجاب الابن دون أن يلتفت «انني لا أخشى شيئاً. انني لا أخشى غير الرب»

أصبحت تعابير وجهها ضارية ، ورفعت قبضة يدها بل إنها فتحت فمها لتصب لعنتها عليه، لكن سالومه العجوز وضعت يدها في الوقت المناسب على شفتي الأم.

قالت «اياكِ، اياكِ!»، وأحاطت بها من وسطها وجرتها بالقوة بعيداً. قالت «تعالي يا مريم، يا ابنتي، تعالي، هيا بنا. لدي ما أقوله لك»

راحت المرأتان تنحدران الى أسفل التل الى كفرناحوم، وتقدمهما العجوز زبدى وهو يزبد من الغضب ويطيح بالأشواك بهراوته.

تحدثت سالومه الى مريم قائلة «لماذا تبكين يا مريم يا ابنتي؟ ألم تريهم؟»

نظرت اليها مريم مندهشة وحبست دموعها. قالت «رأيت ماذا؟»

«حين كـان يتكلم، ألم تري الأجنحة الزرقاء، آلاف الأجنحة الزرقاء خلفه؟ أقسم لك يا مريم انه كان هناك جيش كامل من الملائكة»

لكن مريم هزت رأسها تعبيراً عن يأسها، وغمغمت «أنا لم أر شيئاً، لم أر شيئاً ... أي شيء»، ثم أردفت بعد فترة صمت «ماذا تفيدني الملائكة يا سالومه؟ أنا أريد أن يتبعه أولاده وأحفاده، أريد أولاداً وأحفاداً، لا ملائكة!»

لكن عينيّ سالومه كانتا مملوءتين برؤيا الملائكة الزرق، فمدت يدها ولمست صدرها وهمست لها قائلة، وكأنها تفضي اليها بسر عظيم «أنتِ مباركة يا مريم، ومباركة ثمرة رحمك»

ولكن أي شيء لم يكن ليعزي مريم، فهزت رأسها وتبعتها وهي تذرف الدموع.

في تلك الأثناء كان الصعاليك الحانقون قد تحلَّقوا حول يسوع وهم يتهددون ويتوعدون، ويضربون بعصيهم على الأرض، ويلوحون بسلالهم الفارغة في الهواء ، ويصرخون:

«الموت للأغنياء! أحسنت القول يا ابن مريم - الموت للأغنياء!»

لوَّح يسوع بذراعيه في قنوط، وهتف «أنا لم أقل ذلك! أنا لم أقل ذلك! بل قلت «عليكم بالمحبة يا أخوتي!»

لكن الفقراء كان قد هيَّجهم الجوع : فكيف يمكن أن يسمعوه!

وزعقوا «اندراوس على حق، النار والفأس أولاً. ثم المحبة!»

سمع اندراوس هذا الكلام، وهو واقف بجانب يسوع ، لكنه أطرق متفكراً، ولم يجب. فكَّر كيف كان معلمه يتكلم في الصحراء، وكانت كلمته تقع على الناس كوقوع الحجارة فتحطمهم. لكن هذا الرجل الواقف الى جواره يوزع كلامه على الناس وكأنه خبز... مَنْ

المُحِق؟ أي الطريقين يؤدي الى خلاص العالم - العنف أم المحبة؟

بينما كل هذا يغزل في عقله شعر بيدين تلامسان رأسه. كان يسوع قد اقترب منه بهدوء ووضع كفيه على قمة رأس اندراوس. وكانت الأصابع لدنة بشكل محبب وطويلة جداً بحيث أنها تعانق كل ماتمسك به - وكانت قد امتدت على كامل رأس اندراوس. ولم يأت اندراوس بحركة. شعر بحدود اتصال عظام جمجمته تتفتح وتتسكب فيها حلاوة غليظة القوام كالعسل تعصى على الوصف. نزلت الى دماغه، ووصلت الى فمه، وعنقه وقلبه، وواصلت طريقها الى عورته، ومن ثم تفرَّعت حتى وصلت الى أسفل قدميه، وعمَّت البهجة كامل جسده، وروحه كلها - وعميقاً حتى وصلت الى جذور كيانه، كشجرة عطشى رويت. لم يفه بكلمة. ليت هاتين اليدين المستقرتين فوقه لا تبارحانه أبداً! هاهو بعد صراع مرير يشعر أخيراً بالأمان والسلام الداخلي.

على مبعدة يسيرة كان فيلبّس ونثائيل البسيط، الصديقان الحميمان، يتبادلان الحديث.

قال الاسكافي الأخرق «أنا معجب به، كلامه حلو كمذاق العسل. أتصدق: انني وأنا أنصت اليه كنت في الحقيقة أتلمَّظ شفتي!»

أما الراعي فكان له رأي آخر. قال «أنا لم أحبه. ان أقواله تخالف أفعاله، فهو يهتف «المحبة! المحبة!» ثم يصنع صلباناً ويساعد على الصلب!»

«هذا وضع انقضى وانتهى، أؤكد لك يا فيلبّس. لقد كان عليه أن يمر بتلك المرحلة، مرحلة الصلبان. والآن هاقد اجتازها وسلك درب الرب»

أصر فيلبّس على موقفه. قال «أريد أفعالاً. لقد أصيبت

ماشيتي بالحكاك. فليأت أولاً وليمنحها بركته. فاذا شُفيت أؤمن به، والا فليذهب الى حيث تعرف أين مع البقية من أمثاله. لماذ تهز لي رأسك؟ اذا كان يريد أن يخلّص العالم، فليبدأ بماشيتي»

هبط الليل وشمل البحيرة، وكروم العنب ووجوه النساء. وفي السماء ظهرت عربة داوود[1]. وتدلت نجمة حمراء من الشرق، كقطرة نبيذ فوق الصحراء.

فجأة أحس يسوع بالتعب والجوع. أراد أن ينفرد بنفسه، وشيئاً فشيئاً صار الناس يتذكرون أن أمامهم رحلة طويلة الى أوطانهم، والى منازلهم وأولادهم الصغار الذين ينتظرونهم. ومرة أخرى جثمت الهموم اليومية بثقلها عليهم. إن ماحدث هو وميض برق - لقد تركوا أنفسهم على سجيتها، أما الآن فقد انتهى الأمر وهاهو دولاب الحاجات اليومية يأسرهم من جديد، فأخذوا ينسحبون فرادى وأزواجاً - خلسة، كالفارين - وغادروا.

استلقى يسوع على الرخام العتيق وقد غلبته الكآبة. لم يمد أحد منهم يده ليودعه، لا أحد سأله إن كان جائعاً أو إن كان له مكان يبيت فيه الليل. التفت الى الأرض التي تزداد ظلمة، وكان يسمع الخطوات المستعجلة تتقهقر، تتقهقر... ومن ثم تتلاشى. وفجأة شمل السكون كل شيء. رفع رأسه ونظر: لا أحد. وتلفت فيما حوله: ظلام. لقد رحل الناس. لم يكن يحيط به غير النجوم في الأعلى، وداخله لاشيء غير الارهاق والجوع. الى أين سيذهب؟ على أي باب يدق؟ عاد يتلفت حوله على الأرض، وهو يشعر بتأنيب الضمير وبالظلم. غمغم قائلاً «حتى الثعالب لديها أوجرة تأوي اليها، أما أنا فليس لدي شيء»، وأغمض عينيه. ومع الليل هبط برد قارس، وأخذ يرتعش.

---

١ - المقصود بها «الدب الأكبر» في لغة علم الفلك.

وفجأة سمع أنيناً صادراً من خلف الرخام ومن ثم تبعه بكاء مكبوت. فتح عينيه فميَّز امرأة تزحف باتجاهه على أطرافها الأربعة وسط الظلام. وحين وصلت اليه حلّت ضفائر شعرها وراحت تمسح له قدميه اللتين كانتا قد تأذتا بشكل قاس بسبب الحجارة. وتعرَّف عليها من رائحتها الذكية.

قال، وهو يضع يده على رأسها الدافئ العطر «مجدلية، يا أختاه، مجدلية، يا أختاه، عودي الى بيتك وكفّي عن الاثم»

قالت، وهي تقبل قدميه «يسوع، يا أخي، دعني أستظل بظلّك الى يوم مماتي. الآن بتُّ أعرف ماهي المحبة»

كرر يسوع القول «عودي الى بيتك . وعندما تحين الساعة سأرسل في طلبك»

«أريد أن أموت فداءاً لك، يا ولدي»

«لا تكوني ضيقة الصدر يا مجدلية. ستحين الساعة، لكنها لم تأت بعد. وسأرسل في طلبك حين تأتي. والآن اذهبي»

كادت تبدي اعتراضها واذا بها تسمع صوته من جديد، وهذه المرة كان صارماً تماماً «اذهبي!»

راحت المجدلية تنحدر أسفل التل. ظل وطء خطاها مسموعاً لبعض الوقت، ومن ثم، وشيئاً فشيئاً، تلاشى كلياً، ولم تبق غير رائحة جسدها في الجو. لكن نسيم الليل هبّ وأخذ معه هذه أيضاً.

بقي الآن ابن مريم وحيداً تماماً، من فوقه : الرب، بوجه الليل الأبنوسي الذي يحمله والمرشوش بالنجوم. نصب يسوع أذنه وكأنه أراد أن ينصت الى صوت منبعث من الظلمة المرصعة بالنجوم . انتظر... لاشيء. أراد أن يفتح فاه ويسأل اللامرئي: رب، هل أنت راض عني؟ لكنه لم يجرؤ. أراد أن يقول أشياء كثيرة للامرئي، لكنه

لم يجرؤ. كان مرعوباً من الصمت المفاجئ الذي أطبق عليه. وخطر له فجأة انه لابد أن الرب غير راض عني. فهزّته الرعشة. ولكن لماذا يقع اللوم عليّ يا رب؟ لقد أخبرتك، وكم من مرة أخبرتك: لست بمتكلم! لكنك حرصت على دفعي مراراً وتكراراً، أحياناً وأنت تضحك، وتارة وأنت عابس من الغضب، وهذا الصباح في الدير حين لاحقني الرهبان ليجعلوني رئيساً للدير - ولم أكن أهلاً لذلك - وأرتجوا جميع الأبواب ليمنعوني من الهرب، فتحت لي باباً صغيراً خفيّاً، وغرزت مخالبك في شعري وجررتني للأسفل الى هنا لأمثلُ أمام هذا الحشد الغفير، وأمرتني قائلاً «تكلم، فقد حانت الساعة!»، لكني أحكمت اطباق شفتيّ ولم أفه بكلمة. وصرخت بي، ولم أفه بكلمة. وأخيراً نفد صبرك واندفعت بقوة وفتحت لي فمي. ورفضت أن أفتحه، ففتحته لي - بالقوة؛ ومسحت عليه ليس بالجمر الملتهب كما اعتدتَ أن تمسح على شفاه الأنبياء، لا، ليس بالجمر المشتعل، بل بالعسل! ونطقت. كان قلبي حانقاً، وأغراني بالهتاف: الرب نار! - نعم، مثل نبيك المعمداني - الرب نار، وهو آت! الناس بلا قانون، بلا عدالة، بلا شرف: فأين ستختبئ؟ انه آت!... هذا مايحاول قلبي أن يدفعني لأنادي به، لكنك مسحت على شفتيّ بالعسل وبدل ذلك هتفت «المحبة! المحبة!»

ثم تمتم «رب، آه يا رب، لا يمكنني أن أصارعك. هذه الليلة أنا أسلّم لك أسلحتي. فلتكن مشيئتك»

حالما قال هذا ، شعر بالارتياح، فأطرق برأسه حتى وصل الى صدره وكأنه عصفور ناعس، وأغمض عينيه ونام وعلى الفور، خُيِّل اليه أنه سحب تفاحة من تحت قميصه ، وشقها، ثم أخرج منها بذرة زرعها أمامه في الأرض . وحالما فعل ذلك أنبتت البذرة، وشقت طريقها خلال سطح التربة، وشكّلت سويقاً، شطأت منه

أغـصـان، وأوراق، وأزهـار ـ ثم أثمـرت : مـئـات من ثمـار التـفـاح الأحمر...

تبـعـثـرت الحـجارة : سـمع وقـع خطى انسـان. فـزع نوم يسـوع وتطاير. رفع جفنيـه فرأى شخصاً واقفاً أمامه. غمره الفرح لأنه لم يعد وحيداً، فرحب بهدوء، ودون وكلام، بحضور الرجل الذي أشاع فيه الدفء.

تقدم زائر الليل وركع. قال «لابد أنك جائع. أحضرت لك خبزاً وعسلاً وسمكاً»

«ومن أنت يا أخي؟»

«أنا اندراوس ، ابن يونان»

«كلهم تخلوا عني ورحلوا. نعم، صحيح أنا جائع. كيف تذكرتني يا أخي حتى أحضرت لي خبزاً وعسلاً وسمكاً، وكلها من خيرات الرب؟ اننا لا نفتقد الا الكلمة الطيبة»

قال اندراوس «وهذه أيضاً أحضرتها لك»، وقد منحه الظلام الشجاعة. لم ير يسوع يديَّ الشاب وهما ترتجفان، ولا الدمعتين اللتين تدحرجتا على وجنتيه الشاحبتين.

قال يسوع، وهو يمد له يده ويبتسم «هات تلك أولاً - الكلمة الطيبة أولاً»

همس ابن يونان «يا رابوني، يا سيدي»، وخرَّ وقبَّل قدميه.

الفصل الرابع عشر

الزمنُ ليس حقلاً يقاس بالقصبات، ولا بحراً يقاس بالأميال. إنه نبض القلب. كم من الزمن استمرت فترة الخطوبةهذه؟ أياماً؟ شهوراً؟ سنين؟ لقد كان ابن مريم يتنقل يملأه الحبور والشفقة من قرية الى قرية والبشارة على شفتيه؛ من قرية الى قرية، ومن جبل الى جبل، وأحياناً كان ينتقل بالقارب من أحد شواطئ البحيرة الى الطرف الآخر، بردائه الأبيض أشبه بعريس. وكانت الأرض خطيبته. ما إن يرفع قدمه حتى تمتلئ الأرض التي يطأها بالزهور، وحين ينظر الى الأشجار تتفتّح براعمها، وحالما يضع قدمه في قارب الصيد تهب ريح مواتية وتملأ الشراع. كان الناس ينصتون اليه فيتحول الطين في داخلهم الى أجنحة. وطوال فترة الخطوبة كلها كنت كلما رفعت حجراً تجد الرب تحته، واذا قرعت باباً يأتي الرب ليفتحه لك، واذا نظرت في عين صديقك أو عدوك كنت ترى الرب متربعاً في البؤبؤ يبتسم لك.

أما الفريسيون الناقمون فوبّخوه، والشرر يتطاير من عيونهم الرصاصية قائلين «إن يوحنا المعمداني يصوم ويبكي. إنه يهدد

ويتوعد ولا يضحك. أما أنت ـ فحيثما أقيم حفل زفاف سعيد تكون الأول والأسبق اليه. تأكل وتشرب وتضحك مع بقية الناس، وفي ذاك اليوم في عرس أقيم في قرية قانا لم تخجل من الرقص مع الصبايا. من سمع بوجود نبي يضحك ويرقص؟»

لكنه ابتسم وقال «أيها الفريسيون، يا أخوتي، أنا لست نبياً، أنا عريس»

ويجأر الفريسيون ويكادون أن يمزقوا ملابسهم «عريس؟»

«نعم، أيها الفريسيون، يا أخوتي، عريس. سامحوني، لكني لا أعرف أسلوباً آخر أصف لكم به الأمر»

ثم يلتفت الى أصحابه، يوحنا، واندراوس، ويهوذا، والى الفلاحين وصيادي السمك الذين تخلوا عن حقولهم وقواربهم لكي يلحقوا به وينصتوا اليه، تجذبهم اليه حلاوة وجهه، والى النسوة اللواتي أتين وأطفالهن على أذرعهن.

ويقول لهم «ابتهجوا وافرحوا مادام العريس مازال بينكم. ستأتي أيام أيضاً تصبحون فيها أرامل ويتامى، ولكن ضعوا ثقتكم في الآب. انظروا الى ايمان الطيور في السماء. انها لا تبذر ولا تحصد، ومع ذلك فالآب يطعمها. تأملوا أزهار الأرض، إنها لا تغزل ولا تنسج، ولكن أي ملك بمقدوره أن يرتدي ثياباً بمثل روعة أشكالها؟ لا تكثروا من الاهتمام بأجسادكم، بما ستأكلون، وما ستشربون وما ستلبسون. ما أجسادكم غير تراب والى التراب ستعود. ليكن اهتمامكم منصبَّاً على مملكة السماء وعلى أرواحكم الخالدة!»

أنصت يهوذا اليه وقد عقد مابين حاجبيه. لم يكن مهتماً بمملكة السماء. كان اهتمامه الأعظم هو بمملكة الأرض- وليس بالأرض كلها حتى، وانما فقط بأرض اسرائيل، المؤلَّفة من الناس

والحجارة، وليس بالصلاة وبالسُحُب. إن الرومان ـ أولئك البرابرة الوثنيين ـ يدوسون بأقدامهم هذه الأرض. أولاً يجب أن يُطرَدوا منها، وبعد ذلك بوسعنا أن نقلق على ممالك السماء.

لاحظ يسوع تجهُّم ذي اللحية الحمراء وقرأ في التجاعيد التي غزت جبينه مايدور في خلده.

قال له وهو يبتسم «السماء والأرض شيء واحد، يا يهوذا يا أخي، والحجر والغيمة شيء واحد؛ مملكة السماء لا توجد في الجو، انها في دواخلنا، في قلوبنا. وأنا أتحدث عن هذا، عن القلب. بدِّلْ مافي قلبك، وستتعانق السماء والأرض، سيتعانق العبرانيون والرومان والكل سيصبح في واحد»

لكن ذا اللحية الحمراء كبت حنقه داخله. وأطال التفكير فيه ووطِّن نفسه على الصبر والانتظار. انه لا يفهم عما يتحدث، ودمدم بينه وبين نفسه، انه يعيش في عالم وهمي وليست لديه أدنى فكرة عما يدور فيما حوله. لن يتبدَّل مافي قلبي الا اذا تبدَّل العالم من حولي، ولن أرتاح الا اذا اختفى الرومان من أرض اسرائيل!

وذات يوم التفت ابن زبدى الأصغر الى يسوع وقال «سامحني يا معلم، لكني اكتشفت أنني لا أحب يهوذا. حين أقترب منه أشعر بقوة خفيَّة تنبثق من جسده، أشبه بآلاف الابر الصغيرة، الصغيرة، تجرحني، وفي يوم قريب رأيت عند الغسق ملاكاً أسود يهمس بشيء في أذنه. فماذا قال؟»

أجاب يسوع بعد أن تنهد «أستطيع أن أتنبأ بما قال»

«ماذا؟ أنا خائف يا معلم. ماذا قال؟»

«ستعرف عندما يحين الوقت. أنا نفسي لا أزال لا أعرف بدقة»

«لماذا تصحبه معك، لماذا تسمح له بملازمتك ليلاً ونهاراً؟ وحين تكلمه، لماذا يكون صوتك أعذب منه حين تكلمنا؟»

«هكذا يجب أن يكون، يا يوحنا، يا أخي. انه في أعظم حاجة للمحبة»

ظل اندراوس يتبع المعلم الجديد، ويوماً بعد يوم تغير العالم بالنسبة اليه، أضحى أكثر عذوبة. ليس العالم: بل قلبه! لم يعد الأكل والشرب من الآثام، والأرض أصبحت أشد ثباتاً تحت قدميه، والسماء تظلله بحنو الأب، ولم يعد يوم الرب يوم غضب وحريق عظيم، ولا نهاية العالم- بل هو الحصاد، وقطاف العنب، والأعراس، والرقص : هو التجديد الأبدي لعذرية الأرض. أصبح كل فجر بعث جديد، وفي كل صباح يجدد الرب وعده في أن يحتوي العالم في كفه المقدس.

مع مرور الأيام غدا اندراوس أكثر طمأنينة. فعقد صداقات مع الضحك والأكل، واحمرَّت وجنتاه الشاحبتان. وفي المساء أو عند الظهيرة حين يتمدد تحت شجرة ليأكل، أوحين يحتفى بهم في بيت بعض الأصدقاء، ويقوم يسوع، كما كانت عادته، بمباركة الخبز وتوزيعه، كانت أحشاء اندراوس تتلقى هذا الخبز وعلى الفور تحوله الى محبة وضحك. الا أنه ظل بين حين وآخر يزفر التنهدات حين يتذكر عائلته وأصدقاءه.

وذات يوم سأل وعيناه تائهتان في المدى «ماذا سيحل بيونان وبزيدى؟». لقد كان العجوزان يبدوان له وكأنهما موجودان في آخر الأرض «وماذا عن يعقوب وبطرس؟ أين هما، وفي أي محيط يعانون الآن؟»

أجاب يسوع وهو يتبسم «سنعثر عليهم جميعاً، وكل واحد منهم سيعثر علينا. لا تحزن يا اندراوس. إن أرض الآب واسعة، وتتسع للجميع»

ذات أمسية دخل يسوع قرية بيت صيدا، فكان الأطفال

يحملون أغصان الزيتون وسعف النخيل ويهرعون لتحيتهم. وفتحت الأبواب، وخرجت سيدات من بيوتهن، تاركات عمل المنزل ورحن يتراكضن خلفه ليسمعن الكلمة الطيبة. وكان الأبناء يحملون آباءهم المشلولين على أكتافهم، والأحفاد يقودون جدودهم الكفيفين من أيديهم. والرجال ذوو العضلات الضخمة كانوا يجرون معهم الممسوسين بالأرواح الشريرة ويركضون خلفه ليضع يده على رؤوس أولئك الممسوسين ويشفيهم.

وتصادف أن كان ذاك هو اليوم الذي يقوم به توما البائع المتجول بجولات في القرية. يتهادى تحت حمله من مكبات الخيطان،والأمشاط ومساحيق تجميل النسوة التي تصنع المعجزات، والأساور البرونزية والأقراط الفضية، وحين رآه يسوع كان ينفخ في بوقه وينادي على بضاعته. وهبَّت نفخة ريح مفاجئة واذا به لم يعد توما التاجر الأحول، واذا به يحمل في يده مسواة النجارين، واذا به محاط بجمهرة من الناس، في بلد بعيد، وعمال ينقلون حجارة واسمنت، وبنّاؤون يبنون هيكلاً كبيراً، هو صرح مهيب ذو أعمدة رخامية، وتوما هو رئيس البنائين يركض هنا وهناك ومعه المسواة، يعاين عملهم... طرفت عينا يسوع، فطرفت عين توما أيضاً- وفجأة اذا به يجد نفسه ماثلاً أمامه من جديد، ينوء مرة أخرى بحمل بضاعته، وعيناه الحولاوان الماكرتان تتحركان بخبث.

وضع يسوع يده على رأس البائع المتجول، وقال «تعال معي يا توما. سوف أغمرك بنوع آخر من البضائع: بتوابل الروح وزخارفها. وسوف تقودك جولاتك عندئذ حتى أطراف الأرض، وسوف تنادي على بضاعتك الجديدة وتوزعها على الناس»

قال التاجر الداهية، وهو يضحك ضحكاً خافتاً «أفضل أن أبيع هذه أولاً، ومن ثم... حسن، لننتظر ونرى مايحدث»، وشحن صوته

العالي النبرة وبدأ من مكانه ينادي على الأمشاط، والخيطان والمساحيق التجميلية التي تصنع المعجزات.

وقف أحد وجهاء القرية العجائز، فاحش الثراء، وقاسي القلب، ومعدوم الشرف، على باب بيته، وقد وضع يديه على عضادتي الباب، وراح يحدق بنظرة فضولية الى الحشد المقترب، الى جمع الأطفال وهم يتراكضون في المقدمة ملوحين بسعف النخيل وأغصان الزيتون، يدقون على الأبواب ويصيحون «إنه قادم، إنه قادم، ابن داوود قادم!». وكان يتبعهم رجل برداء أبيض، وشعره مسدل على كتفيه؛ ماداً يديه، تهيمن عليه السكينة وترتسم على شفتيه ابتسامة، الى اليمين والى اليسار وكأنه يمنح بركته للمنازل؛ وكان الرجال والنساء المهرولون خلفه يتنافسون لرؤية من سيلمسه ليكتسب القوة والطهارة. والى الخلف أكثر كان يلحق به الكفيفون والمشلولون، واستمرت أبواب جديدة تفتح وتظهر منها حشود أخرى.

شعر الوجيه العجوز بالانزعاج، فسأل «ومن يكون هذا؟»،وكان يقبض بقوة على عضادتيّ الباب طلباً للأمان خشية أن يندفع الرعاع الى الداخل وينهبوا ثروته.

توقف أحد الناس وأجابه «انه النبي الجديد ياحنانيا. هذا الرجل ذو الرداء الأبيض الذي تراه أمامك يحمل الحياة بيد، والموت باليد الأخرى، ويوزعهما كما يرغب ويشاء. قل كلمة للحكيم يا حنانيا: تقرَّبْ منه، استضفه عندك»

حين سمع حنانيا هذا أصابه الهلع. إن لديه مشاكل كثيرة تثقل على روحه، وأثناء الليل غالباً ما يستيقظ مجفلاً وقد لجم الخوف لسانه. وكان في كوابيسه يرى نفسه يشوى، ويغمر حتى عنقه في لهيب جهنم. لعل باستطاعة هذا الرجل أن يخلِّصه. وقال في نفسه، ان كل مايجري في العالم هو من قبيل السحر، وهذا الرجل ساحر.

فلأمد له المائدة، ولأنفق على اطعامه مبلغاً صغيراً من المال، فمن يدري فقد يقوم بمعجزة.

بعد أن حزم أمره خرج الى منتصف الطريق ووضع كف يده على قلبه. قال «يا ابن داوود، أنا حنانيا العجوز، خاطئ، وأنت قديس. وحين علمت أنك قررت أن تحل في قريتنا، مددت الموائد لاستضافتك. فادخل، أرجوك، واغمرني بلطفك. كلنا يعلم أن القديسين يأتون الى العالم لأجلنا نحن الخطاة، ومنزلي متعطش للطهارة»

توقف يسوع، وقال «ماتقوله يا حنانيا يسرني. ويسعدني أني قابلتك»

ولج منزل القروي الثري، ومد العبيد الموائد في فناء الدار، وجلبوا الوسائد. اضطجع يسوع، وعلى كلا جانبيه اضطجع يوحنا واندراوس ويهوذا، وأيضاً توما الماكر، الذي تظاهر بأنه أحد المريدين ليشارك في تناول الطعام. تربع صاحب الدار العجوز قبالتهم، وأخذ يبحث في عقله عن طريقة حاذقة لتوجيه دفة الحديث الى موضوع الأحلام واقناع طارد الأرواح الشريرة بطرد الكوابيس عنه. ثم أُحضر الطعام، وأيضاً ابريقان من النبيذ. ووقف الناس في الخارج يراقبونهم وهم يتناولون الطعام ويتحدثون عن الرب،والطقس، وكروم العنب. وبعد انتهائهم من تناول الطعام والشراب أحضر العبيد أباريق الماء الساخن وأحواض الغسل. فغسلوا أيديهم وتهيأوا للرحيل. عندئذ وصل احتمال العجوز حنانيا منتهاه. وقال في نفسه، لقد كلّفت نفسي عبء تقديم وجبة له فأكل وشرب ـ هو وحاشيته، والآن من حقي عليه أن يدفع الثمن.

قال «يا معلم، انني أرى كوابيسي، وقد علمت أنك تعتبر طارد أرواح شريرة عظيم. ولقد قدمت لك كل ماباستطاعتي، والآن جاء

دور قداستك لتقدم لي شيئاً بالمقابل : ارفق بي واطرد عني أحلامي. يقولون أنك تتكلم وتطرد الأرواح الشريرة بلغة الأمثولات. اذن، فاحكِ لي أمثولة. سوف أفهم ماخفي من معناها وسأشفى. أليس كل شيء في العالم يحدث بفعل السحر؟ حسن، اذن، فليعمل السحر عمله.»

ابتسم يسوع ونظر في عينيّ العجوز. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها الفكين الجشعين، ومؤخر العنق السمين والعينين السريعتي الحركة لشخص متخم. انهم يشيعون القشعريرة فيه. هؤلاء الناس يأكلون ويشربون ويضحكون، ويحسبون أن العالم برمته ملك يمينهم، فيسرقون، ويرقصون ويفسقون- دون أن يخطر في بالهم لحظة واحدة أنهم انما يحترقون في نيران جهنم. فقط في أحيان نادرة، أثناء نومهم، يفتحون عيونهم ويرون... نظر يسوع الى الجشع العجوز، نظر الى لحمه، الى عينيه، الى خوفه- ومرة أخرى أصبحت الحقيقة داخله حكاية.

قال «افتح أذنيك يا حنانيا، وافتح قلبك، لأنني سأتكلم»

«هاقد فتحت أذنيّ وفتحت قلبي. انني منصت، المجد للرب»

«في يوم من الأيام يا حنانيا، كان هناك رجل غني وكان ظالماً معدوم الشرف. كان يأكل ويشرب، ويرتدي أثواب الحرير وألوان الأرجوان، ولم يكن يتكرم حتى بمقدار ورقة نبات خضراءعلى جاره اليعازر الذي كان انساناً جائعاً ولا يجد ما يردُّ به البرد عن جسده. وكان اليعازر هذا يزحف تحت الموائد ليلتقط الفتات ويلعق العظام، لكن العبيد كانوا يطردونه، فيجلس على العتبة وتأتي الكلاب فتلعق جروحه. ثم حل اليوم المقدَّر ومات الاثنان. ذهب أحدهما ليُصلى في نار سرمدية، وذهب الآخر ليرتاح بين أحضان سيدنا ابراهيم. وذات يوم، رفع الرجل الغني بصره ليرى جاره اليعازر يضحك وكله

حبور بين أحضان سيدنا ابراهيم، فهتف قائلاً «أبتِ ابراهيم، أبت ابراهيم. أنزل اليَّ اليعازر؛ دعه يبلل طرف اصبعه لكي يرطب لي فمي- إنني أشوى بالنار!»، لكن سيدنا ابراهيم أجابه قائلاً «تذكَّر الأيام التي كنت تأكل خلالها وتشرب وتستمتع بما تنتجه الأرض من خيرات بينما كان هو يتضور جوعاً ويرتجف قرّاً. هل أحسنت اليه مرة ولو بمقدار ورقة نبات خضراء؟والآن حان دوره هو كي يستمتع، وحان دورك أنت لتحترق بالنار الى أبد الآبدين»

تنهد يسوع وسكت. وقف حنانيا العجوز فاغر الفم، ينتظر أن يسمع المزيد، وقد جفت شفتاه ويبس حلقه. أطال النظر الى يسوع، يتوسل اليه بعينيه.

ثم سأله، وصوته يرتعش «أهذا كل شيء؟ أهذا كل شيء، أما من مزيد؟»

قال يهوذا ضاحكاً «لقد نال ما يستحق! ان من يتخم بالطعام والشراب على الأرض سوف يتقيأ كل شيء هناك في جهنم»

لكن ابن زبدى الأصغر مال على يسوع وقال بصوت خافت «يا معلم، إن كلماتك لم تخفف العبء عن قلبي. كم من مرة أمرتنا أن نسامح أعداءنا! قلت لنا، يجب أن تحبوا عدوكم، واذا أخطأ في حقكم سبعاً وسبعين مرة سبع مرات فيجب أن تغفروا له سبعاً وسبعين مرة سبع مرات، وقلت إن تلك هي الطريقة الوحيدة لتخليص العالم من الحقد. وهذه المرة... ألا يقدر الرب على الغفران؟»

قاطعه ذو اللحية الحمراء، وهو يرمي العجوز حنانيا بنظرة ساخرة «الرب عادل»

اعترض يوحنا «الرب هو الخير المطلق»

قال صاحب الدار متلعثماً «أيعني هذا أن لا أمل؟ أهكذا تنتهي الأمثولة؟»

نهض توما واقفاً، ومشى خطوة نحو الباب الخارجي، ثم توقف وقال هازئاً «لا، يا سيدي، لم تنته بعد، لازال هناك المزيد»

«تكلم، يا ولدي، وسوف أمنحك بركتي»

قال توما «إن اسم الرجل الغني ذاك هو حنانيا!»، وقبض على صرته من البضاعة واذا به فجأة يصبح في وسط الشارع، حيث توقف وراح يقهقه مع الجيران.

صعد الدم الى رأس العجوز الوجيه الكبير، وأظلمت عيناه كالشمس الغاربة.

مد يسوع يده ومسَّد على الشعر المجعد لرفيقه الحبيب. قال «يا يوحنا، الكل لديهم آذان، وقد سمعوا، والكل لديهم عقول، وقد حكموا. قالوا، الرب عادل، ولم يذهبوا لأبعد من ذلك، ولكن أنت أيضاً لك قلب وقلت نعم، الرب عادل، ولكن هذا غير كاف. انه أيضاً الخير المطلق. ان الأمثولة لا يمكن أن تقف عند هذا الحد؛ بل يجب أن تكون لها نهاية مختلفة»

قال الشاب «سامحني يا معلم، ولكن هذا ماشعر به قلبي بالضبط. قلت في نفسي، ان الانسان يغفر، فهل يعقل أن لا يغفر الرب؟ لا، مستحيل. ان الأمثولة كفر فادح ولا يمكن أن تبقى كما هي، يجب أن تنتهي نهاية مختلفة»

قال يسوع مبتسماً «إن لها بالفعل نهاية مختلفة، أيها الحبيب يوحنا، اسمع يا حنانيا، سأطمئنك. اسمعوا، يا من تتجمعون في الفناء، وأنتم أيها الجيران، يا من تضحكون في الشارع. الرب ليس فقط عادلاً، إنه طيِّب، وليس فقط طيباً، بل هو أيضاً الأب. حين سمع اليعازر كلمات سيدنا ابراهيم تنهد وخاطب الرب بينه وبين نفسه قائلاً «ربٍّ، كيف يمكن لأي انسان أن يكون سعيداً في الجنة وهو يعلم أن ثمة انساناً – روحاً– يُشوى الى أبد الآبدين؟ اروهِ، يا

رب، حتى أرتوي أنا أيضاً. حرره، يا رب، حتى أتحرر بدوري، والا أصابتني أنا حرارة اللهب». سمع الرب تفكيره ففرح. قال «اليعازر، أيها الحبيب، انزل، وأمسك الظمآن من يده. إن ينابيعي لا تنضب. أحضره الى هنا لكي يشرب ويرتوي، وترتوي أنت أيضاً»... فسأله اليعازر «الى أبد الآبدين؟» فأجابه الرب «نعم، الى آبد الآبدين»

نهض يسوع واقفاً دون أن يزيد كلمة واحدة. كان الليل قد شمل الأرض كلها، وتفرق الناس، وعاد الرجال والنساء الى أكوخهم البائسة، وهم يتهامسون، وقلوبهم مترعة. وتساءلوا، أيمكن للكلمة أن تغذّي؟ نعم، يمكن ذلك - حين حنانيا خرّ على قدميه.

تمتم «سامحني، يا معلم!»، وانفجر بالبكاء.

في تلك الليلة عينها، ذهب يهوذا الى فيء أشجار الزيتون التي اضطجعوا تحتها وناموا، فألفى ابن مريم. ولم يكن قد تمكن من الركون الى الهدوء، فكان يجب أن يراه ويحدثه لكي يكشفا عن أوراقهما كلها ويوضحا الأمور بشكل كامل. فحين كانوا في منزل ذاك المجرم حنانيا، وابتهج يهوذا لنزول العقاب على العجوز الغني في جهنم وصفق بيديه وهتف «لقد نال مايستحق!» نظر اليه يسوع من زاوية عينه مطولاً، خلسة، وكأنه يؤنبه، هذه النظرة كانت ماتزال تعذبه. لذا كان من الضروري أن يصفّيا حساباتهما. فلم يكن يهوذا يحب الكلمات غير الواضحة والنظرات المختلسة.

قال يسوع «مرحباً بك، كنت بانتظارك»

باشر يهوذا كلامه على الفور ودون مقدمات «يا ابن مريم، انني لا أتواءم مع الآخرين. انني لا أتصف بنقاء وطيبة يوحنا، أثيرك، ولا أنا حالم شارد الذهن، مثل اندراوس، الذي يبدل فكره مع كل نسمة هواء تهب. أنا حيوان بري لا يقبل الحلول الوسط. ولدت من زواج غير شرعي وأمي رمتني في البرية، وهناك رضعت من حليب

ذئبة، فنشأت فظاً، صلباً، صادقاً. وحين أحب شخصاً - أصبح غباراً تحت قدميه، وحين أكره -أقتل»

كان صوته، وهو يتكلم، يزداد خشونة. وكانت عيناه تطلقان الشرر الى الظلمة. وضع يسوع يده على الرأس الرهيب ليُنزل عليه السكينة، لكن ذا الشعر الأحمر نفض عنه اليد المسالمة.

بعد ذلك تابع كلامه وهو يزن كلماته كلمة كلمة «بل انني قادر على قتل من أحب، اذا وجدتُ انه يحيد عن الصراط المستقيم»

«وماهو الصراط المستقيم، يا يهوذا، يا أخي؟»

«تحرير أرض اسرائيل»

أغمض يسوع عينيه ولم يجب. كان منبعا اللهب المصوبان اليه من قلب الظلام يحركانه، وكذا فعلت كلمات يهوذا. ماهي اسرائيل؟ لماذا فقط أرض اسرائيل؟ ألسنا جميعاً أخوة.

انتظر ذو اللحية الحمراء سماع جوابه لكن ابن مريم لم يتكلم. أمسك به يهوذا من ذراعه وهزه وكأنه يحاول أن يوقظه. وسأله «هل تفهم؟ هل سمعت ماقلته؟»

أجابه يسوع، بعد أن فتح عينيه «نعم، أفهم»

«لقد كلّمتكَ دون مداورة لأني أريدك أن تعرف من أنا وماذا أريد، ولتعطني بعد ذلك جواباً. أترغب بأن آتي معك أم لا ترغب؟ أريد أن أعرف»

«أريدك أن تأتي يا يهوذا، يا أخي»

«وستدعني أبوح بما يجول بفكري بكل حرية، وستدعني أعترض وأقول «لا» حين تقول أنت«نعم»؟ لأن ـ سأشرح لك السبب لكي لا يبقى في ذهنك ظل من الشك ـ لأن الجميع قد ينصتون الى كلامك فاغري الأفواه، إلا أنا! أنا لست عبداً؛ أنا رجل حر. هكذا هي الأمور، وعليك أن تستغل ذلك أفضل استغلال»

«لكن الحرية يا يهوذا هي بالضبط ما أريده أنا أيضاً»

أجفل ذو اللحية الحمراء، ثم قبض على يسوع من كتفه وهتف بروح متقدة «أتريد أن تحرر أرض اسرائيل من الرومان؟»

«بل ان أحرر النفس من الاثم»

انتزع يهوذا يده بعيداً عن كتف يسوع في نوبة هياج وضرب قبضته بقوة على جذع شجرة الزيتون،وجأرقائلاً، وهو يواجه يسوع ويرميه بنظرة حقد «الى هنا ويفترق طريقانا. أولاً يجب تحرير الجسد من طغيان الرومان، ومن ثم يأتي تحرير النفس من الاثم. هذا هو الدرب الصحيح. فهل تسلكه؟ إن البيت لا يُبنى بدءاً من السقف ثم الى أسفل، بل يُبنى بدءاً من الأساس ثم يرتفع»

«الأساس هو النفس، يا يهوذا»

«بل الأساس هو الجسد- من هنا يجب أن تبدأ. انتبه يا ابن مريم، أنا قلتها مرة ولن أعيدها: انتبه، اسلك الدرب الذي أشير اليه. لماذا تظنني أمشي معك؟ إعلم اذن أنه لكي أريك سبيلك»

كان اندراوس مضطجعاً تحت شجرة زيتون مجاورة، وسمع كلاماً أثناء نومه فاستيقظ. أصاخ سمعه فميَّز صوت المعلم وصوت شخص آخر، أجش ومفعماً بالغضب. أخذ يرتعش كغزال مجفل.

أيمكن أن يكون بعض الناس قد أتوا أثناء الليل لازعاج المعلم؟ وكان اندراوس يعلم انه أينما حلَّ المعلم يخلِّف وراءه العديد من النساء والفتيان، وحشوداً من الفقراء، الذين أحبوه، وأيضاً العديد من وجهاء القوم، والعديد من الأثرياء العجائز، الذين كرهوه وتمنوا خذلانه. أيمكن أن يكون هؤلاء المجرمون قد أرسلوا بعض قطاع الطرق لايذائه؟ فزحف متقدماً في الظلام على أطرافه الأربعة، باتجاه الصوتين. لكن ذا اللحية الحمراء سمع صوت الزحف فانتصب على ركبتيه.

وهتف «من هناك؟»

تعرَّف اندراوس على صاحب الصوت، فأجاب «يهوذا، انه أنا، اندراوس»

«عُد الى فراشك، يا ابن يونان. بيننا شأن خاص»

وقال يسوع أيضاً «اخلد الى النوم يا اندراوس يا بني»

بعد ذلك أصبح يهوذا يخفض صوته، وكان يسوع يشعر بأنفاس ذي اللحية الحمراء الثقيلة على وجهه.

«ستتذكر أنني أنا مَنْ كشف لك ونحن في الصحراء أن منظمة الأخوة انتدبتني لقتلك. لكني غيرت رأيي في الدقيقة الأخيرة، وأعدت خنجري الى غمده وهربت من الدير عند الفجر، كاللصوص»

«ولماذا غيرت رأيك يا يهوذا، يا أخي؟ لقد كنتُ مستعداً»

«رغبت في الانتظار»

«انتظار ماذا؟»

لزم يهوذا الصمت برهة، ثم فجأة قال «لأتأكد من أنك المختار الذي تنتظره اسرائيل»

أصابت الرعشة يهوذا، فاتكأ على جذع شجرة الزيتون، وكان جسده كله يرتجف.

صرخ يهوذا، وهو يدلك جبينه الذي أصبح فجأة ينضح بالعرق «لا أريد أن أتهور في عملي وأقتل المخلص، لا،لا أريد ذلك!» ثم زعق وكأن ثمة من يخنقه «أتفهم؟ أتفهم: أنا لا أريد ذلك!»

وأخذ نفساً عميقاً، ثم تابع «قلت في نفسي، لعله هو نفسه لا يعرف بالأمر. الأفضل أن أتجمَّل بالصبر وأدعه يعيش بعض الوقت، فليعش لنرى أقواله وأفعاله، فاذا لم يكن المختار الذي ننتظره، فسيكون هناك دائماً متسع من الوقت للتخلص منه... هذا ماقلته لنفسي، ولهذا أبقيت عليك»

جعل ينفث لبعض الوقت، وهو يجرف التربة باصبع قدمه الكبير. وفجأة قبض على يسوع من ذراعه، وكان صوته أجشاً ويائساً وهو يقول له «لا أدري بماذا أناديك- يا ابن مريم؟ أم يا ابن النجار؟ أم يا ابن داوود؟ كما ترى، ما أزال لا أعرف من أنت - ولكن حتى أنت لا تعرف. علينا نحن الاثنين أن نكتشف الجواب، كلانا يجب أن يرتاح! لا، لا يمكن لهذا، الشك أن يستمر. لا تنظر الى الآخرين - انهم يتبعونك كخرفان تثغو، لا تنظر الى النسوة اللواتي لا يُحسنَّ غير اطرائكِ وذرف الدموع. وعلى أية حال، ماهنَّ الا نسوة: لديهن قلوب ولا عقول، ولا فائدة ترجى منهن لنا. نحن الاثنان اللذان يجب أن نعرف من أنت وما اذا كان هذا اللهب الذي يحرقك هو من رب اسرائيل أم من الشيطان. يجب! يجب!»

كان يسوع يرتجف من رأسه الى أخمصه «وماذا يسعنا أن نفعل يا يهوذا، يا أخي؟ كيف يمكننا أن نعثر على الجواب ؟ ساعدني»

«ثمة طريقة»

«وماهي؟»

«سوف نذهب الى يوحنا المعمداني، وهو الذي سيخبرنا. انه يهتف «انه قادم! انه قادم!، اليس كذلك؟ حسن اذن، حالما سيراك سيدرك إنْ كنت القادم المنتظر أم لا. هيا بنا: بهذا ستهدأ غلواؤك، وأنا سأعرف ماعليَّ أن أفعله»

استغرق يسوع في تأمل عميق. كم من مرة استحوذ عليه هذا القلق، وكم من مرة تمدد منبطحاً على الأرض، يهتز بعنف في نوبات التشنج ويخرج الزبد من فمه! كان الناس يظنونه مخبولاً، ممسوساً بشيطان، وكانوا يركضون هاربين منه وقد تملكهم الخوف. أما هو فيكون قد وصل الى السماء السابعة، وانفلت عقله من سجنه، وارتقى، ودق على باب الرب وسأله، من أكون؟ لماذا

ولدت؟ ماذا أفعل لأخلّص العالم؟ ماهي الطريق الأقصر - أتكون موتي أنا؟

رفع رأسه. كان جسم يهوذا مائلاً كله فوقه.

قال «يا يهوذا، يا أخي، اضطجع بجواري. سيأتي الرب على هيئة نوم وسيأخذنا. وغداً، بمشيئة الرب، سننطلق في الصباح الباكر للبحث عن نبي اليهودية، وليكن ما يشاؤه الرب، أنا مستعد»

قال يهوذا «أنا أيضاً مستعد»، ثم تمدد، وكانا متجاورين.

كلاهما كان تعباً، لذا استغرقا في النوم في وقت واحد، وفي فجر صبيحة اليوم التالي وجدهما اندراوس، الذي كان أول من استيقظ، مستسلمين لنوم عميق وهما متعانقان.

سطعت الشمس على سطح البحيرة. تبعه يسوع مع رفيقيه المخلصين يوحنا واندراوس. أما توما، الذي كان مايزال معه بضاعته ليبيعها، فتخلّف في القرية. وقال البائع المتجول الماكر في عقله، الذي كان يحاول أن يستفيد من الوضع من الناحيتين. قال: يعجبني مايقوله ابن مريم. سيأكل المساكين ويشربون حتى يشبعون والى أبد الآبدين - بعد أن يموتوا. هذا جيد، ولكن حتى ذلك الحين، انظر مايحدث لنا هنا ونحن تحت ! انتبه، يا توما أيها البائس، انتبه - اياك أن تقحم نفسك في أي من المكانين. ولكي تكون في الجانب الأسلم، الأفضل أن تملأ سلتك بنوعين من البضائع: ضع في الجزء الأعلى، لكي يراها الجميع، الأمشاط ومساحيق التجميل، وتحت، في الأسفل، وخصيصاً لزبائن الدرجة الأولى، مملكة السماء... وأخذ يقهقه، وعاد يرمي بالصرة على ظهره وعند انبلاج الصبح بدأ ينفخ في بوقه، وينادي بصوته العالي وباشر جولاته في أزقة بيت صيدا، معلناً عن بضاعته الدنيوية.

في كفرناحوم كان بطرس ويعقوب قد استيقظا عند الفجر ليجمعا الشباك. وكانت عيون الشباك ملآى بالسمك المنتفض

اللامع تحت أشعة الشمس. ولو أن هذا حدث في أي وقت آخر لابتهج الصيادان لشعورهما بوزن شباكهما الثقيلة، أما اليوم فذهناهما شاردان، ولم يتفوها بكلمة. كانا صامتين، ولكن في داخل كل منهما كان يدور شجار، تارة مع القدر، الذي قيَّدهما الى هذه البحيرة جيلاً بعد جيل، وطوراً مع عقليهما، اللذين يقومان بالحساب، واعادة الحساب، ولا يتركان مجالاً لقلبيهما للتحليق. وكانا يصرخان في داخلهما، أي حياة هذه؟ نرمي الشباك، ونصيد الأسماك، ونأكل ونشرب، وعند انبلاج فجر كل يوم جديد نبدأ حياة الكفاف نفسها من جديد - على مدار اليوم، على مدار السنة، وطوال حياتنا! الى متى؟ الى متى؟ أهكذا سنموت؟ ولم يكن هذا قد خطر على بالهما من قبل، لطالما استقرت السكينة في قلبيهما، كانا يعيشان وفق المنوال القديم جداً دون أي شكوى. هكذا عاش آباؤهما وأجدادهما من قبلهما، وعلى مدى آلاف السنين- حول هذه البحيرة، يتصارعون مع الأسماك. ثم يأتي يوم يشبكون أيديهم المتيبِّسة ويموتون، ومن ثم يأتي أولادهم وأحفادهم ويسلكون الطريق ذاتها، دون ابداء أي شكوى. وهذان الاثنان، بطرس ويعقوب، كانا يواصلان المسيرة بشكل حسن حتى ذلك الوقت، وهما أيضاً لم يكن لديهما مايشكوان منه. الا أنهما مؤخراً أخذا فجأة يشعران أن المكان يضيق بهما وأنهما يختنقان. وبدأت نظرتهما تشرد بعيداً، أبعد من البحيرة. أين؟ نحو ماذا؟ هما نفسيهما لم يكونا يعرفان، كل ماكانا يعرفانه هو أنهما يختنقان.

وكأن هذا العذاب لم يكن كافياً، فقد كانا في كل يوم يشاهدان المارة يأتون بأنباء جديدة : ثمة جثث تعود للحياة، ومشلولون يسيرون، وعمي يبصرون. وكان المارة يسألون الصيادين «من هو ذاك النبي الجديد؟ إن أخويكما يرافقانه، وجَبَ أن تعلما ذلك. وقد

سمعنا انه ليس ابن النجار الناصري وانما ابن داوود. أصحيح هذا؟». لكن بطرس ويعقوب كانا يهزان كتفيهما وينكبَّان مرة أخرى للانشغال بشباكهما، وتغالبهما رغبة في البكاء لينفِّسا عما يخالجهما. وأحياناً كان بطرس يلتفت الى رفيقه، بعد أن يغيب المارة في المدى، ويقول «أتصدق هذه المعجزات يا يعقوب؟»

يجيبه ابن زبدى الصخَّاب «اسحب الشباك والزم الصمت»، ومن ثم بحركة سريعة قوية يجر الشبكة المثقلة مسافة طول ذراع.

هذا اليوم أيضاً مرَّ بهما سائق عربة نقل ومعه مزيد من الأنباء: «يقولون ان النبي الجديد تناول الطعام في بيت صيدا في منزل العجوز حنانيا القابض اليد. وحالما انتهى من تناول الطعام وأحضر له العبيد الماء ليغسل يديه، اقترب من حنانيا وهمس له بشيء في أذنه، وعلى الفور انقلب عقل العجوز رأساً على عقب، وانفجر باكياً وبدأ يوزِّع بضائعه على الفقراء»

سأله بطرس، وقد زاغت عيناه مرة أخرى في المدى البعيد، وأبعد من البحيرة «وبماذا همس له؟»

قال سائق العربة، ضاحكاً «آه، ليتني عرفت! لكنت طرقت به أذن كل رجل غني، لكي يتاح للفقراء أن يتلقوا نفحة حياة»... ثم هتف، مواصلاً طريقه «وداعاً، وصيداً موفقاً!»

التفت بطرس ليحدث رفيقه لكنه على الفور غير فكره. ماذا يسعه أن يقول له؟ مزيداً من الكلمات؟ ألم يكتف بما تلقاه منها حتى الآن؟ وشعر برغبة في كسر كل هذه الأعمال على الأرض، برغبة في أن ينهض معبراً عن اشمئزازه ليرحل بعيداً والى الأبد. نعم، سيرحل! ان كوخ يونان لم يعد يسعه، ولا حوض الماء هذا أيضاً، بحيرة جنيسارت هذه. وغمغم «هذه ليست حياة، انها ليست حياة! سوف أرحل!»

التفت اليه يعقوب، وسأله «بماذا تغمغم؟ اهدأ!»

أجابه بطرس «لاشيء، اللعنة، لاشيء!» وأخذ يسحب الشباك بحنق.

في تلك اللحظة ظهرت قامة يهوذا وحده فوق قمة التل الأخضر في الموقع الذي كان يسوع قد خاطب الناس منه. كان يمسك عصا معقوفة اقتطعها وراح يقطع مسافة الطريق التي تبدأ من سنديانة القرمز البرية، وكان يضرب بالعصا على الأرض أثناء سيره. وظهر بعده الرفاق الثلاثة الآخرون.توقفوا فوق القمة برهة وهم يلهثون ليعاينوا العالم الممتد الى الأسفل منهم. كانت البحيرة تتلألأ فرحاً؛ والشمس تداعبها وهي تضحك. وكانت قوارب الصيد أشبه بفراشات حمراء وبيضاء فوق صفحة المياه. وفوقهم حلق الصيادون الطائرون،النوارس. وعلى البعد ضجَّت كفرناحوم بالحركة. كانت الشمس قد ارتفعت وعلت : لقد بلغ النهار أوجه.

قال اندراوس، مشيراً الى الشاطئ، حيث كان أخوه يسحب الشباك «انظروا، هاهو بطرس!»

قال يوحنا وهو يتنهد «ويعقوب أيضاً. انهما مازالا عاجزين عن انتزاع نفسيهما بعيداً عن الدنيا»

ابتسم يسوع. قال «لا تتنهد، أيها الرفيق الحبيب. اضطجعوا هنا كلكم، وارتاحوا. سوف أنزل وأحضرهما»

وأخذ ينحدر بخطوات سريعة نشطة. وفكر يوحنا معجباً به بأنه أشبه بملاك، لا ينقصه إلا جناحان... وتابع يسوع هبوطه منتقلاً من حجر الى حجر. وحين وصل الى الشاطئ أبطأ خطاه واقترب من الصيادين اللذين كانا منكبَّين على جمع شباكهما. وقف خلفهما وأمضى وقتاً طويلاً يتأملهما دون أن يأتي بحركة. راقبهما ورأسه خالٍ من الأفكار، لكنه شعر بأنه قد استنزف: ثمة قوة

تتسرب من داخله. أصبح كل شيء خفيفاً، طافياً في الهواء، عائماً فوق البحيرة كغمامة؛ حتى الصيادان أصبحا خفيفين وطافا في الهواء، وتمجَّدت شبكتهما بما تحتويه : إنها لم تعد شبكة، وتلك لم تعد أسماك ـ إنها أناس، آلاف من البشر، سعداء يرقصون...

فجأة شعر الصيادان بوخز خفيف على قمة رأسيهما، خَدَر غريب، ممتع. قفزا معتدلين ثم التفتا فزعين، فألفيا خلفهما يسوع واقفاً بلا حراك، صامتاً، يراقبهما.

هتف بطرس، وقد شعر بالخزي «سامحني، يا معلم!»

«لماذا يا بطرس؟ ماذا فعلتَ حتى أسامحك؟»

غمغم بطرس «لاشيء»، ثم قال فجأة «أتسمِّي هذه حياة؟ لقد سئمتها!»

قال يسوع، ماداً يديه لكليهما «تعالا، تعالا، سوف أجعلكما تصطادان الناس»

أمسك كل منهما بيد وسار بينهما، وقال «هيا بنا»

سأله بطرس، وقد تذكر العجوز يونان «أليس من الواجب أن أودِّع والدي؟»

«لا تلقِ الى الوراء حتى نظرة واحدة، يا بطرس. لا وقت لدينا. هيا بنا»

توقف يعقوب، وسأله «الى أين؟»

«لماذا تسأل؟ كفاكَ أسئلة يا يعقوب، وهيا!»

في تلك الأثناء كان العجوز يونان يطبخ، وقد انكبَّ فوق منصب الموقد بانتظار قدوم ولده بطرس لكي يجلسا معاً ويتناولا الطعام. الآن لم يبق له غير ولد واحد ـ ليحفظه الرب. ان بطرس فتى عاقل، ومدير جيد للأمور، أما الآخر، اندراوس، فان الرجل العجوز قد شطبه من حسابه. فهو تارة يتبع هذا المشعوذ، ثم ذاك

وذاك، تاركاً والده العجوز وحده لا يجد من يساعده في ترميم الشباك ومصارعة الرياح والقارب اللعين، بالاضافة الى أعمال الطبخ والعناية بأمور المنزل- انه يصارع هذه الشياطين المنزلية منذ وفاة زوجته. أما بطرس هنا أخذ يونان باسباغ بركته عليه- بطرس يساندني ويمنحني القوة... تذوّق الطعام. بات جاهزاً. ونظر الى الشمس. كاد ينتصف النهار. ودمدم متذمراً «أنا جائع، لكني لن آكل حتى يأتي»، ثم شبك يديه معاً وانتظر.

كان منزل زبدى، الذي يبعد مسافة عنه، مفتوحاً. وكان الفناء ممتلئاً بالسلال والجرار، وفي الزاوية منه كان المَقْطَر. سُقيا لأيام كان يستخلص فيها الراكي[1] المقطر من قشور حبات العنب ومن السويقات بعد تركه في معصرة النبيذ، وتفوح رائحة المنزل كله بعبق الكحول. كان زبدى وزوجته يتناولان طعام الغداء على طاولة صغيرة تحت تعريشة عنب منهوبة. كان زبدى العجوز يسحق الطعام قدر استطاعته بلثتيه الدرداوين ويتحدث عن تطوير عمله، منذ وقت طويل وهو يضع عينه على كوخ العجوز ناحوم، جاره المباشر، الذي كان مديناً له ولا يملك المال الكافي لسداد دينه. وكان زبدى قد خطط كي يعرض البيت في الأسبوع التالي، بمشيئة الرب، لبيعه في المزاد العلني. منذ سنين وهو يتوق للحصول عليه لكي يهدم الجدار الفاصل ويوسِّع بذلك مساحة فناء داره. انه يمتلك معصرة نبيذ، الا أنه أراد أن يمتلك أيضاً معصرة زيتون، لكي يأتي اليه أهل القرية جميعاً ليحصلوا عى زيت الزيتون الذي تعصره، ويمكنه بذلك أن يستقطع نسبة مئوية ويملأ جراره لمؤونة العام. ولكن أين سيضع معصرة النبيذ؟ يجب أن يحصل على منزل ناحوم مهما كلفه الأمر...

١- الراكي : شراب مُسكِر قوي، معروف في تركيا وبلاد البلقان.

سمعت سالومه كلامه، لكن تفكيرها كان منصباً على يوحنا، ولدها الحبيب. أين يمكن أن يكون؟ مامعنى ذاك العسل الذي تقطّر من شفتيّ النبي الجديد؟ كم كانت تتوق لرؤيته ثانية، لسماعه وهو يتكلم مرة أخرى ويدخل سكينة الرب الى قلوب الناس! وفكرت، لقد أحسن ولدي عملاً، لقد اتخذ السبيل القويم، وأنا أباركه. وتذكرت الحلم الذي رأته قبل بضعة أيام الذي ألفت نفسها فيه تفتح الباب ثم تخرج وتصفقه وراءها، تاركة هذا البيت بما يحتويه من معاصر النبيذ ومخازن اللحوم والأطعمة الطافحة بمحتوياتها لتلحق بالنبي الجديد.

قالت في نفسها، لقد ركضت خلفه، حافية جائعة، ولأول مرة في حياتي عرفت معنى السعادة.

سأل زبدى زوجته، حين رأى عينيها وقد زاغتا لحظة «هل تنصتين اليّ؟ أين عقلك؟»

أجابته سالومه «انني منصتة»، ونظرت اليه وكأنها لم تكن قد رأته من قبل.

في تلك اللحظة سمع العجوز أصواتاً مألوفة قادمة من الطريق. فرفع عينيه.

صرخ «هاقد جاءا!». ولما رأى الرجل ذا الرداء الأبيض يحيط به من الجانبين ولداه اندفع الى الباب الخارجي، وفمه مايزال محشواً بالطعام.

صرخ «هيه، يا أولاد، الى أين أنتما ذاهبان؟ أهكذا تعبران من أمام بيتي؟ قفا!»

أجابه بطرس، بينما تابع الآخرون طريقهم : «لدينا مهمة نؤديها، يا زبدى»

«أية مهمة؟»

قال بطرس «مهمة متشابكة ومعقدة جداً»، وانفجر ضاحكاً.

جحظت عينا العجوز من رأسه، وهتف، وهو يبتلع ما يملأ فمه دون أن يمضغه «أنت أيضاً يا يعقوب، أنت أيضاً؟»، وولج الى الداخل وهو يكاد يختنق ونظر الى زوجته.

قالت، وهي تهز رأسها «قُل على ولديك السلام يا زبدى. لقد أخذهما منا»

قال العجوز «ويعقوب أيضاً؟»، ولم يدر ماذا يقول «لكنه أكثر تعقلاً. هذا مستحيل!»

لم تتكلم سالومه. ماذا عساها تقول له؟ كيف يمكنه أن يفهم؟ لم تعد تقبل الطعام. فقامت ووقفت في ممر الباب وراحت تشيِّع الصحب السعيد بنظرها وهو يسير في الدرب الملكي الذي يتبع نهر الأردن باتجاه أورشليم. رفعت يدها الهرمة وقالت بصوت خافت حتى لا يسمعها زوجها «بوركتم جميعاً».

عند أطراف القرية قابلوا فيلبّس. وكان يقود قطيعه الى طرف البحيرة ليرعى. وكان قد ارتقى مكاناً عالياً فوق صخرة حمراء، يميل الى الأمام، معتمداً على عصاه، يعجب بخياله، الذي شكّل تموُّجاً أسود على صفحة مياه البحيرة الزرقاء المخضرة في الأسفل. وحين سمع صوت انسحاق الحصى الى الأسفل منه على الدرب نهض ووقف معتدل القامة.

هتف حين تعرف على المارة «مرحباً! هيه، ألا تروننى؟ الى أين أنتم ذاهبون؟»

هتف أندراوس «الى مملكة السماء! الا تأتي؟»

«اسمع يا اندراوس، قُل كلاماً عاقلاً. إن كنتم متوجهين الى مجدلة لحضور مراسم الزفاف، فأنا معكم. في الواقع أن نثنائيل أيضاً دعاني. انه يزوج ابن أخيه»

هتف يعقوب قائلا له «ألا تذهب الى مكان أبعد من مجدلة؟»
أجابه فيلبّس «لدي قطيع غنم. أين أتركه؟»
قال يسوع دون أن يلتفت « في رعاية الرب»
«ستأكله الذئاب!»
هتف يوحنا «فلتفعل!»
أخيراً قال الراعي مستنتجاً، يا الهي لقد جُنَّ الشباب تماماً، ثم أخذ يصفّر ليضم القطيع معاً.
واصل الصحب مسيرهم. ومرة أخرى سار يهوذا، حاملاً عصاه المعقوفة، في المقدمة. وكان على عجلة عظمى من أمره للوصول. وكانت قلوب الآخرين عامرة بالفرح. كانوا يصفّرون كشحارير تغرد وكانوا يضحكون وهم سائرون. اقترب بطرس من يهوذا، القائد، وكان الوحيد الذي يحمل سحنة حادة. لم يكن يصفّر، أو يضحك، كان يقود الركب، يحدوه توق للوصول.
قال له بطرس بصوت خافت «أخبرني مرة واحدة ووحيدة يا يهوذا، الى أين نحن جميعاً ذاهبون؟»
ضحك نصف وجه ذي اللحية الحمراء. قال «الى مملكة السماء»
«كفاك مزاحاً، اكراماً للرب، وقل لي الى أين نحن ذاهبون. انني أخاف أن أسأل المعلم».
«الى أورشليم»
قال بطرس، وهو يشد شعره الشائب «آخ! يعني مسيرة ثلاثة أيام! لو كنت أعرف لأحضرت معي صندلي، ورغيف خبز، وملء يقطينة من النبيذ، وعصاي»
هذه المرة ضحك كامل وجه ذي اللحية الحمراء. قال «آه، يا بطرس المسكين. الكرة تتدحرج الآن ولا يمكن ايقافها. قل على

صندلك وعلى خبزك ونبيذك وعصاك، السلام. ألا تفهم يا بطرس، لقد خلفنا وراءنا الدنيا، خلفنا اليابسة والبحر، وانطلقنا في الجو!»، ثم مال على أذن بطرس وقال «مازال هناك متسع من الوقت... اذهب!»

قال بطرس «كيف يمكنني الآن أن أعود أدراجي؟»، ثم مدّ ذراعيه وراح يديرهما في كل اتجاه وكأنه محاصر. ويكاد يختنق، وقال، مشيراً الى البحيرة، وقوارب الصيد ومنازل كفرناحوم «أصبح الآن كل هذا بلا معنى بالنسبة لي»

قال ذو اللحية الحمراء، هازاً رأسه الكبير «أوافقك! حسن، اذن، كف عن تذمرك، وهيا بنا».

الفصل الخامس عشر

كانت كلاب القرية هي أول من اشتم رائحته فبدأت تنبح. وسرعان ماركض بعض الأولاد الى مجدلة ليزفوا النبأ «انه قادم! انه قادم!»

وكان أهالي القرية يسألون بعد أن شرَّعوا أبوابهم «من، يا أولاد، من؟»

«النبي الجديد!»

امتلأت عتبات الدور بالنسوة الصبايا والعجائز، وترك الرجال أعمالهم، وقفز المرضى مرحاً واستعداداً للزحف اليه ولمسه. وكان عندئذ قد اكتسب سمعة عظيمة في المنطقة المجاورة لبحيرة جنيسارت. كانت مواهبه وقدراته ينتشر خبرها من قرية الى قرية على لسان المصابين، والعميان والمشلولين الذين كان قد شفاهم:

«لقد لمس عينيّ الكفيفتين فرأيت النور»

«حالما أمرني أن أترك عكازيّ رحت أسير، بل بدأت أرقص»

«كانت هناك حشود من الشياطين تنهش أحشائي، فرفع يده وأمرهم قائلاً «اخرجوا، اخرجوا وحِلّوا في الخنازير!»، وعلى الفور

قفزوا خارجين من أحشائي، يرفسون، وحلّوا في الخنازير التي كانت ترعى بالقرب من الشاطئ. وجُن جنون هذه الحيوانات. وأخذ كل واحد منها يعتلي الآخر، ثم اندفعت قافزة الى الماء وغرقت»

حين سمعت المجدلية الأخبار الطيبة خرجت من كوخها، ولم تكن قد ظهرت على باب بيتهامنذ أن أمرها ابن مريم بالعودة الى بيتها والتخلّي عن ارتكاب الاثم. وكانت قد بكت وطهَّرت روحها بالدموع، وجاهدت كي تمحي الماضي من ذاكرتها، كي تنسى كل شيء - العار، المتع، والسهر طوال الليل - لتولد من جديد بجسدعذراء. في الأيام القليلة الأولى كانت تضرب رأسها على الأرض وتعول، لكنها مع مرور الوقت هدأت، وخفَّ ألمها، والكوابيس التي كانت تعذبها اختفت. والآن، في كل ليلة، تحلم بأن يسوع قد أتى، وفتح الباب وكأنه صاحب الدار وجلس في الفناء تحت شجرة الرمان المزهرة. كان قد قطع مسافة طويلة جداً وقد هدَّه التعب، وغطاه الغبار، وناله الكثير من أذى الناس. وفي كل مساء تسخِّن له المجدلية الماء، وتغسل له قدميه الطاهرتين ومن ثم تفرش شعرها وتجففهما به. ويسترخي هو مبتسماً ويتسامر معها. ولم تكن تتذكر قط مايقوله، لكنها حين تستيقظ في الصباح كانت تقفز من السرير وقد امتلأت مرحاً وحبوراً؛ وخلال الأيام القليلة الأخيرة أصبحت تغرد - بصوت خفيض، حتى لا يسمعها الجيران - تغريداً عذباً وكأنها طائر حسُّون. والآن، بعد أن سمعت صياح الأطفال معلنين عن قدومه، قفزت واقفة، وأرخت منديلها حتى غطى كامل وجهها الذي كم تلقّى من قبلات، فيما عدا عينيها الكبيرتين، اللتين يحيط بهما السواد، ورفعت مزلاج الباب وخرجت لتستقبله.

في هذا المساء كانت الحركة تدب في القرية كلها. فالصبايا بدأن يضعن حليهن ويهيِّئن المصابيح استعداداً لحفل الزفاف. كان

ابن أخو نثائيل يستعد للزواج. وكان اسكافياً كعمّه، فتى لحيماً، أسمر، ضخم الجثة، بأنف أشبه بالنبُّوت، أما العروس، المحجَّبة بخمار من السماكة بحيث لم يكن يُرى منها غير عينيها اللتين حُفر لهما مكان فيه، وقرطيها الفضيين الكبيرين في أذنيها، فكانت جالسة على كرسي ذي ذراعين مرتفع في وسط الدار، تنتظر الحبر كي يأتي وينشر الكتاب المقدس ويقرأ منه المباركة، وأخيراً تنتظر لحظة يغادر الجميع وتبقى وحدهامع أنفها النبوتيّ.

سمع نثائيل صياح الأطفال «انه قادم! انه قادم!»، فخرج مسرعاً ليدعو أصدقائه الى حفل الزفاف. فألفاهم جالسين بجوار البئر عند مدخل القرية، يشربون الماء ليطفئوا ظمأهم. وكانت المجدلية راكعة أمام يسوع، وقد غسلت قدميه وبدأت الآن تجففهما بشعرها.

قال «الليلة حفل زفاف ابن أخي، فأرجو أن تتلطفوا وتحضروا العرس. سوف نشرب النبيذ المصنوع من العنب الذي عصرته في فناء دار زبدى هذا الصيف»

ثم التفت الى يسوع «اننا نسمع الكثير عن قداستك يا ابن مريم. امنحني شرف مجيئك لمباركة الزوجين الجديدين حتى ينجبا ذكوراً، من أجل مجد اسرائيل»

نهض يسوع واقفاً، وأجاب «ان أفراح الناس تسعدنا، أيها الرفاق، هيا بنا»

أمسك بيد المجدلية وأعانها على النهوض. قال «رافقينا يا مريم»

وسار في المقدمة وهو يشعر بالخذلان، فقد كان يحب المشاركة في الاحتفالات. كان يحب وجوه الناس المتوردة، ويحب أن يرى الشبان يتزوجون ويحافظون على النار مشتعلة في الموقد. كان يفكر

وهو متوجه الى موقع العرس بأن النباتات، والخنافس، والطيور، والحيوانات، والناس ـ كلهامقدسة، كلها مخلوقات الرب. لماذا تعيش؟ انها تعيش لتمجّد اسم الرب. اذن، فلتعش الى أبد الآبدين!

كانت الفتيات المستحمات حديثاً واقفات بأروابهن البيضاء خارج الباب الغني بالزخارف.كن يحملن المصابيح المضاءة بأيديهن ويغنين أغاني قديمة خاصة بالأعراس تمدح العروس، وتضايق العريس ويدعين الرب كي يتلطّف ويأتي لينضم الى بقية الصحب. فثمة حفل زفاف يقام، وشاب اسرائيلي يتزوج، والجسدان اللذان سيقترنان هذه الليلة قد ينجبا المسيح.. كانت الفتيات تغني لتزجية الوقت، فقد تأخر العريس. كن بانتظار أن يجيء ليفتح الباب بقوة ولتبدأ مراسم الزفاف.

ولكن بينما هن يغنين ظهر يسوع مع موكبه. التفتت العذارى، وحالما رأين المجدلية انقطع غنائهن فجأة وتراجعن، وهن يحدقن اليها. ما شأن هذه الفاسقة بين العذارى؟ أين كبير القرية العجوز ليأتي ويحبسها؟ لقد تلوث العرس! والتفتت أيضاً النساء المتزوجات وألقين عليها نظرة ضارية؛ وصرت ترى موجة بعد موجة من التحركات بين حشود الضيوف المغمغمين، وبين سيدات البيوت المحترمات، اللواتي كن بدورهن منتظرات خارج الباب المغلق. ومع ذلك كانت المجدلية متألقة، أشبه بمشعل وضّاء. كانت واقفة بجوار يسوع تشعر أن روحها عادت عذراء من جديد وأن شفتيها لم تتلقيا أي قبلة بعد. وفجأة أفسح الحشد السبيل واذا بكبير القرية العجوز، الضئيل الجسم، جاف العود، أنفه يقطر سماً، يقترب من المجدلية ويلمسها بطرف عصاه ويومىء اليها أن ارحلي.

شعر يسوع بالنظرات الحقود للناس على يديه، ووجهه وصدره المكشوف. واشتعلت الحرارة في جسده، وكأن أشواكاً لا تحصى

تخزه. وراح ينقّل نظره من الرئيس العجوز، الى الزوجات الوفيات، والرجال العابسين والعذارى المرتبكات، وتنهد. الى متى ستظل عيون الناس عمياء لا ترى أن الجميع أخوة؟

تعالت الهمهمات، وصارت تتردد في الظلام أصداء التهديدات الأولى. وتقدم نثنائيل ليتحدث الى يسوع، لكن المعلم دفعه بهدوء جانباً، وبعد أن شق طريقه بين الحشد، تقدم من جمع العذارى. ترنحت المصابيح في أيديهن وأفسح له طريق للمرور. ثم توقف وسطهن ورفع يده «يا أخواتي العذارى، إن الرب مسح على فمي وأسرَّ إلي بكلمة طيبة لأقولها لكنَّ في ليلة العرس المقدسة هذه. يا أخواتي العذارى، افتحن آذانكن، افتحن قلوبكن؛ وأنتم يا إخوتي، هدوءاً، فسأتكلم!»

التفتوا جميعاً اليه، وهم مضطربون. واستشف الرجال في نبرة صوته أنه غاضب، أما النسوة فشعرت بحزنه. وسكت الجميع. وسُمع موسيقيَّان كفيفان واقفان في فناء الدار يدوزنان عوديهما.

رفع يسوع يده. قال «يا أخواتي العذارى، ماذا في ظنكن تشبه مملكة السماء؟ انها أشبه بحفل زفاف. الرب هو العريس، وروح الانسان هي العروس. يقام حفل زفاف في السماء، فيُدعى اليه الجنس البشري كله. سامحوني يا أخوتي، لكن الرب هكذا يكلمني، بلغة الأمثولات، وبلغة الأمثولات سأحدثكم الآن:

«يحكى أن حفل زفاف أقيم في احدى القرى، وخرجت عشر من العذارى الحاملات المصابيح لاستقبال العريس. خمس منهن كن حكيمات فأخذن معهن قوارير مملوءة بالزيت، والخمس الأخريات كن حمقاوات فلم يحملن معهن كمية زائدة من الزيت. ووقفن خارج منزل العروس ورحن ينتظرن وينتظرن، لكن العريس تأخر فنال منهن التعب فنمن. وفي منتصف الليل سمع هتاف «انظروا،

العريس قادم! هلموا بسرعة لاستقباله!». وثبت العذارى العشر لملء مصابيحهن التي كادت أن تنطفئ. لكن العذارى الخمس الحمقاوات لم يكن لديهن زيت، فقلن للعذارى الحكيمات «أعطنا قليلاً من الزيت يا أخوات، فمصابيحنا تكاد تنطفئ»، لكن الحكيمات أجبن «ولكن لم يبق لدينا شيء لكنَّ اذهبن واحضرن بعضه». وبينما كانت العذارى الحمقاوات يهرعن لاحضار الزيت، وصل العريس، ودخلت العذارى الحكيمات معه، وأُغلق الباب»

«بعد قليل عادت العذارى الحمقاوات، ومصابيحهن مضاءة، وأخذن يقرعن الباب، ويهتفن مناشدات «افتحوا لنا الباب!»، لكن العذارى الحكيمات كن يضحكن في الداخل، ويجبنهن «لقد نلتن ما تستحقون. والآن لقد أقفل الباب، فارحلن!». لكن الأخريات رحن يبكين ويتوسلن «افتحوا الباب! افتحوا الباب! افتحوا الباب!»، ومن ثم...»

هنا توقف يسوع. ومرة أخرى راح ينقّل بصره من الرئيس العجوز، الى الضيوف، وسيدات البيوت المحترمات، والعذارى ذوات المصابيح المضاءة. وابتسم.

قال نثنائيل «ثم ماذا؟»، وكان ينصت وفمه فاغر، وقد بدأ عقله البسيط، البليد، ينشط، «ثم ماذا، يا معلم، ماذا كانت النتيجة؟»

سأله يسوع، وهو يثبت نظرة عينيه الكبيرتين الفاتنتين عليه «ماذا كنت تفعل يا نثنائيل لو كنت أنت العريس؟»

لزم نثنائيل الصمت، فلم يكن قد اتضح في ذهنه ماكان يمكن أن يفعله. وخطر له لبرهة من الزمن أنه كان سيصرفهن، فالباب قد أوصد دون شك، وهذا ما يحتّمه القانون. لكنه في اللحظة التالية شعر بالاشفاق عليهن وفكر في السماح لهن بالدخول.

عاد يسوع يسأله «ماذا كنت ستفعل يا نثنائيل لو كنت أنت

العـريس؟» وكانت عـيناه المتـوسلتـان تداعبـان ببطء، والحـاح الـوجـه البسيط والصريح للاسكافي.

أجابه الآخـر بصوت خفـيض لكي لا يسمـعه الرئيس العـجوز «كنت فتـحت لهن البـاب». وكان غيـر قـادر على مواجهـة عـينيَّ ابن مريم.

قـال يسوع بسعـادة «تهانيَّ، يا صـديقي نثائيل»، ومد يده نحوه وكأنه يباركه، «في هذه اللحظة دخلت الجنة، وان كنت ماتزال حيـاً تُرزق. لقد فعل العـريس تماماً كمـا قلت : نادى على الخدم وأمـرهم بفـتح البـاب. وهتف «هذا حفل زفـاف، فليـأكل الجمـيع، وليشـربوا وليمرحوا. افتحوا الباب للعذارى الحمقاوات واغسلوا لهن أقدامهن وانعشوها، فقد ركضن كثيراً»

انهمـرت الدموع سـخيـة من بين رمـوش المجـدليـة الـطويلة. آه، ليت كـان بوسـعهـا فـقط أن تقـبّل الفم الذي تلفّظ بتلك الكلمـات! احـمرَّ نثائيل الساذج من رأسـه وحتى أطراف أصابع قـدميه وكـأنه كـان بالفعل قـد أصبح في الجنة. لكن صـاحب الأنف العـجوز الذي يقطر سماً، كبير القرية، رفع عصاه، وصرخ:

«أنت تناقض القانون يا ابن مريم»

أجاب يسوع بهدوء «القانون يناقض مافي قلبي»

كـان مـايزال يتكلم حين ظهـر العـريس، وقـد اسـتحمَّ، وتطيَّب، وتوَّج رأسـه الضـخم ذا الشعـر المجـعد اكليل أخضـر. وكـانت بضع كـؤوس من النبيـذ قـد جـعلت مـزاجـه في أحـسن حـال، وكـان أنفـه مـتـألقـاً. وبضـربـة واحـدة دفـع البـاب فـانفـتح، وتدفـق الضيـوف من خلفه، ودخل أيضاً يسوع، ممسكاً المجدلية من يدها.

سـأل بطرس يوحنا بصـوت منخـفض «أيهن العـذارى الحمقاوات، وأيّهن الحكيمات؟ ماذا فهمت من الأمثولة؟»

أجاب ابن زبدى «ان الرب هو أبونا»

وصل الحبر وأقام المراسم. وبعد ذلك جلست العروس مع العريس في وسط الدار، ومرَّ الضيوف عليهما على شكل رتل، يقبِّلونهما معبِّرين عن تمنياتهم بانجاب مولود ذكر حتى يخلِّص اسرائيل من عبوديتها. ثم بدأت آلات العود تعزف. ورقص الضيوف وشربوا، ورقص يسوع مع صحبه وشربوا معهم. ومرت الساعات، وحين ظهر القمر نهضوا وواصلوا رحلتهم. كان الوقت خريفاً عندئذ، ولكن لم تكن حرارة الجو قد خفَّت، وكان من الممتع الترحال وسط رطوبة الليل المنعشة.

تقدموا ميممين وجوههم شطر أورشليم. وكان الشراب قد أدار رؤوسهم وأصبحوا يرون كل شيء على غير هيئته. صارت أجسادهم خفيفة، كالأرواح، كانوا يسيرون بأقدام مجنّحة، نهر الأردن على يسارهم، وعلى يمينهم يمتد سهل زابولون، وديعاً وخصباً تحت ضياء القمر، وكان تعباً ومطمئناً هذا العام أيضاً، بعد أن أنجز مرة أخرى المهمة التي عهد بها الرب اليه على مدى قرون لا تحصى: أن يوصل طول نبات القمح حتى قامة الانسان، وأن يثقل الكروم بالعنب وأشجار الزيتون بالزيتون. وهاهو مستلق الآن، تعباً ومطمئناً، كأم وضعت لتوها مولودها.

كرر بطرس مرة بعد مرة «أي فرح هذا يا أخوتي!». كان ابتهاجه بهذا المسير الليلي واستمتاعه بالصحبة لا يشبعان «أهذا حقيقة؟ أم حلم؟ هل كنا مسحورين؟ انني أشعر، وأنا بحالتي هذه، برغبة في أن أغني، والا سأنفجر!»

هتف يسوع «فلنغن كلنا معاً!»، وتقدمهم، شامخاً برأسه، وكان أول البادئين بالغناء. كان صوته ضعيفاً، لكنه عذب ومملوء بالعنفوان. وعلى جانبيه صدح صوتا يوحنا واندراوس، شجيان

ورقيقان. ظلت هذه الأصوات الثلاثة العالية تغرد وحدها بتماوج جميل. وكان انسيابها شديد الرقة، حتى لتكاد دقات قلبك تتقص دقة: وتقول لنفسك، لن يتمكنوا من الاستمرار؛ إن شدة الحلاوة سوف تصبيهم دون شك،واحداً بعد آخر، بالدوار والغثيان. لكن الأصوات انبجست مندفعة من نبع شديد العمق وكلما أوشكت أن تتداعى، تعود لتثبت من جديد. وفجأة - يا للفرح! يا لها من قوة! - شقّت أصوات الباريتون[1] لبطرس، ويعقوب ويهوذا الجو، قوية، مبتهجة بالنصر، وملؤها الرجولة، وصدحت المجموعة معاً، كل بما لديه من جمال صوت وقوة، حتى وصل الصوت الى عنان السماء بترنيمة متهللة حول الرحلة المقدسة :

آه، لاشيء افضل أو أعذب
من أخوة يرتحلون معاً
انه أشبه بالزيت المقدس الذي
يجري من لحية هارون،
أشبه بندى حرمون الذي
يسقط على جبال صهيون.
هناك، يمنح الرب بركته، والحياة
الى أبد الآبدين.

ومرت الساعات، وخبت النجوم، وبزغت الشمس. خلّفوا وراءهم تربة الجليل الحمراء، ليطأوا تربة السامرة السوداء.

توقف يهوذا، واقترح قائلاً «فلنغير دربنا. هذه أرض مهرطقة ملعونة. فلنعبر جسر نهر الأردن ونسير على الضفة الأخرى. من الاثم أن نلمس أولئك الذين ينتهكون القانون. إن إلههم ملوث وكذا

---

١ - الجهير الأول: الصوت الرجالي الوسط مابين الجهير والصادح.

مياههم وخبزهم. كانت أمي تقول لي إن لقمة من الخبز السامريّ لهي لقمة من لحم خنزير... هيا نغيِّر الطريق!»

لكن يسوع أمسك بهدوء بيد يهوذا وواصلا الطريق معاً، وقال له «يا يهوذا يا أخي، حين يلمس رجل طاهر رجلاً فاسداً، يصبح الفاسد طاهراً. لا تعترض. نحن أتينا من أجلهم، من أجل الآثمين. ماذا يستفيد الصالح منا؟ هنا في السامرة يمكن لكلمة طيبة أن تخلِّص روحاً - كلمة طيبة، يا يهوذا، كلمة طيبة، ابتسامة لسامري عابر سبيل. أتفهم؟»

ألقى يهوذا نظرة ماكرة فيما حوله ليتأكد من أن الآخرين لا يسمعون، ثم قال بصوت منخفض «ليست هذه هي الطريق الصحيحة ولكن سأصبر حتى نصل الى الناسك البري. وهو سيعطي حكمه. وحتى ذلك الحين، اذهب حيث تشاء. افعل ماتشاء. ولن أتركك»

ثم وضع عصاه المعقوفة على كتفيه وسار في المقدمة، وحده.

كان الآخرون يتسامرون أثناء مسيرهم. وكان يسوع يحدثهم عن المحبة، والآب، ومملكة السماء، وشرح لهم أي الأرواح تمثل العذارى الحمقاوات، وأيها يمثل الحكيمات، وعن مغزى المصابيح والزيت، وماذا يمثل العريس ولماذا لم يكتف بالسماح للعذارى الحمقاوات بالدخول الى المنزل، كنظيراتهن الحكيمات، بل حظين وحدهن بأن يغسل لهن الخدم أقدامهن المتعبة. وبينما كان الرفاق الأربعةينصتون، اتّسع أفق عقولهم، واستوعبوا كل ماقيل لهم، وثبتت قلوبهم. عندئذ تبدَّى لهم الاثم على صورة عذراء حمقاء واقفة ومصباحها المطفأ في يدها، تتوسل وتبكي أمام بوابة الرب...

ساروا وساروا. ثم اكفهرَّت السموات من فوقهم بالغيوم، وأظلم وجه الأرض، وفاح الجو برائحة المطر.

وصلوا الى القرية الأولى، عند سفح جريزِّم، الجبل المقدس

عند آبائهم. وعند مدخل القرية، التي تكتنفها أشجار النخيل وعيدان القصب، كان بئر يعقوب القديم العهد. فالى هنا جاء الشيخ الجليل مع غنمه ليسحب الماء ويشرب. كانت حافة البئر الحجرية قد تآكلت بفعل الجبال التي حفتً عليها على مدى أجيال وأجيال.

شعر يسوع بالتعب. لقد جرحت الحجارة قدميه، وأخذتا تنزفان. قال «سأمكث هنا، أما أنتم فادخلوا القرية واقرعوا على الأبواب. لابد أنكم ستقابلون انساناً طيباً يمنحنا رغيفاً من الخبز صدقة، وستأتي احدى النساء الى البئر لتسحب ماءاً من أجلنا لنشرب. كونوا مؤمنين بالرب، وبالناس»

غادر الخمسة، ولكن في الطريق غيَّر يهوذا رأيه، وقال «لن أدخل القرية الملوثة، ولن آكل من الخبز الملوث. سأمكث هنا تحت هذه التينة وأنتظركم»

كان يسوع في هذه الأثناء قد اضطجع في ظل عيدان القصب. كان عطشاناً، لكن البئر عميقة: كيف يسعه أن يشرب؟ مال برأسه واستسلم للأفكار. لقد سار في طريق شاقة. جسمه ضعيف. وناله التعب، وتراخت ركبتاه. ولم يعد لديه من القوة مايدعم روحه، فوقع، لكن الرب كان دائماً يرسل اليه على الفور نسيماً لطيفاً، فيستعيد جسمه قواه وينهض ليواصل مسيره. الى متى؟ أحتى الممات؟ حتى مابعد الموت؟

بينما هو يفكر في الرب، والانسان والموت، تحركت عيدان القصب واذا بامرأة شابة تتحلى بالأساور والأقراط وتحمل جرة على رأسها وتقترب من البئر ثم تنزل جرتها وتضعها على الحافة. رآها يسوع من خلال عيدان القصب وهي ترخي الحبل الذي كانت تحمله وتنزل الدلو، ثم ترفع الماء وتملأ به الجرة. وزاد احساسه بالعطش.

برز من بين عيدان القصب،وقال «يا امرأة، أعطني لأشرب»
أجفلت المرأة من ظهوره المفاجئ أمامها.
فقال «لا تخافي، أنا رجل شريف. انني ظمآن، أعطني لأشرب»
أجابته «كيف، وأنت جليليّ - أعرف هذا من ملابسك - تطلب جرعة ماء مني، أنا السامريّة؟»
«لو عرفتِ مَنْ الذي قال لك «يا امرأة، أعطني جرعة ماء» لخررت على قدميه وطلبت منه أن يعطيك جرعة من الماء السرمدي لتشربي»
تحيَّرت المرأة. قالت «ليس معك حبل ولا دلو، والبئر عميقة، فكيف يمكنك أن تسحب ماءاً لتعطيني منه جرعة؟»
أجابها يسوع «إن من يشرب من ماء هذه البئر سيعطش من جديد، أما من يشرب من الماء الذي سأعطيك اياه فلن يعطش الى أبد الآبدين»
فقالت المرأة «سيدي، أعطني من هذا الماءحتى لا أعطش ثانية والى أبد الآبدين أو لكي لا أضطر للمجيء كل يوم هنا الى البئر»
قال لها يسوع «اذهبي، ونادي على زوجك»
«لا زوج لي، يا سيدي»
«أنت محقة في قولك «لا زوج لي»، لأنه كان لك حتى الآن خمسة أزواج، وزوجك الحالي ليس زوجك»
سألته المرأة، وقد ملأها الاعجاب به «سيدي، هل أنت نبي؟ هل تعرف كل شيء؟»
ابتسم يسوع، وقال «هل تودين سؤالي عن شيء؟ تكلمي ولا تحجمي»
«نعم، هناك سؤال وأود لو تجيبني عنه، ياسيدي. ان آباءنا كانوا دائماً يعبدون الرب فوق هذا الجبل المقدس، جريزّم والآن

هاأنتم الأنبياء تقولون إن علينا أن لا نعبد الرب إلا في أورشليم. فمن منكم على حق؟ أين يوجد الرب؟ أنرني»

أطرق يسوع رأسه ولم ينطق. هذه المرأة الخاطئة، التي تتعذب أيما عذاب بسبب قلقها حول الرب، أهاجت قلبه في عمقه. وجاهد اكراماً لها، جاهد في دخيلته للعثور على الكلمات المناسبة ليواسيها. وفجأة رفع رأسه، وكان وجهه يشع.

«يا امرأة، احفظي ما سأقوله لك عميقاً في قلبك. سيأتي يوم ـ وقد جاء فعلاً ـ لن يعبد فيه الناس الرب لا فوق هذا الجبل ولا في أورشليم. الرب روح، والروح يجب أن لا تعبد الا في الروح»

تبلبل فكر المرأة، فمالت وراحت تنظر بقلق الى يسوع. ثم سألته ببطء وبصوت يرتعش «أيمكن أن تكون... أيمكن أن تكون أنت هو المختار الذي ننتظره؟»

«من ذا الذي تنتظرونه؟»

«أنت تعرفه. لماذا تريدني أن أنطق اسمه؟ أنت تعرفه. إن شفتيَّ آثمتان»

أطرق يسوع رأسه حتى لامس صدره. بدا وكأنه ينصت الى وجيب قلبه، ويتوقع منه أن يعطيه الجواب. وانتظرت المرأة، وهي تميل نحوه، بقلق محموم.

ولكن بينما الاثنان المضطربان واقفان يرين عليهما الصمت، سمعا أصواتاً فرحة ثم ظهر الحواريون، يلوِّحون بحركة انتصار برغيف من الخبز. ولما وجدا المعلم مع امرأة غريبة توقفوا. ابتهج يسوع لرؤيتهم، لأنه بهذا تخلَّص من عبء الإجابة عن سؤال المرأة الرهيب. وأومأ الى رفاقه ليقتربوا.

نادى «تعالوا، هذه المرأة الطيبة جاءت من القرية، أرسلها الرب لتسحب لنا ماءاً نشربه»

اقتـرب الرفـاق، كلهم مـاعـدا يهـوذا، الذي تنحى جـانبـاً لكي يتجنب التلوث بماء السامرية.

أمـالت المرأة جـرتهـا، وشـرب الرجـال الظمـآى. أعـادت ملء الجرة، ثم وضعـتهـا بشكل بارع على رأسـهـا وواصلت طريقـهـا الى القرية، مشغولة البال وصامتة.

سأل بطرس «من تلك المـرأة يا معلم؟ كنت تتحدث معها وكأنما يعرف أحدكما الآخر منذ سنين وسنين»

أجـاب يسـوع «كانت احدى اخـواتي، وطلبت منها جـرعة مـاء لأطفئ ظمأي، فأطفأت ظمأها»

حكّ بطرس جمجمته الكبيرة، وقال «أنا لا أفهم»

أجـابه يسـوع، وهو يربت على رأس صـديقـه الشـاب «لا يهم. لاتكن ضيق الصدر. سـوف تفهم في الوقت المناسب، شيئاً فشيئاً... أما الآن فنحن جائعون، هيا نأكل!»

اضطجعوا تحت أشجار النخيل، وبدأ اندراوس يحكي كيف دخلوا القرية وأخذوا يطلبون الصدقات «رحنا ندق أبواب المنازل فاستُقبلنا بصيحات الاستهزاء والاستهجان وطوردنا من باب الى باب. وأخيراً، في الطرف الآخر للقرية، فتحت امرأة عجوز باب دارها نصف فتحة وراحت تستكشف بحذر الطريق من الجهتين. لم يكن هناك أحد. فناولتنا خلسة رغيفاً من الخبز وعلى الفور أغلقت الباب. اختطفناه منها وأسرعنا نلوذ بالفرار»

قال بطرس «المؤسف أننا لا نعرف اسم السيدة العجوز. يمكننا أن نطلب من الرب أن يتذكرها»

ضحك يسوع، وقال «لا تقلق بهذا الشأن يا بطرس، فالرب يعرف اسمها»

تناول يسوع الخبز، وباركه. وقدم شكره للرب لأنه وضع السيدة

العجوز في طريقهم لتتصدق به عليهم، ثم قسَّمه الى ست قطع كبيرة، وأعطى واحدة لكل واحد من رفاقه. لكن يهوذا دفع عنه حصته بعيداً بعصاه وأدار وجهه. قال «أنا لا آكل خبزاً سامرياً. أنا لا آكل لحم الخنازير»

لم يجادله يسوع. كان يعلم أن قلب يهوذا قاس ويحتاج ترقيقه الى بعض الوقت - الى وقت ومهارة والكثير من المحبة.

قال للآخرين «سوف نأكل، والخبز السامري سوف يصبح جليلياً حين يأكله الجليليون، ويصبح لحم الخنازير لحماً بشرياً حين يأكله بشر. اذن، باسم الرب!»

باشر الرفاق الأربعة الأكل وهم يضحكون ويتلذذون. وكان مذاق الخبز السامري لذيذاً، ككل أنواع الخبز، وغمرهم التيه. بعد تناول الطعام شبكوا أيديهم، ومن شدة تعبهم ناموا - جميعهم ماعدا يهوذا، الذي ظل مستيقظاً وأخذ يضرب عصاه على الأرض وكأنه يجلدها. قال في نفسه الجوع أفضل من العار، مما عزَّاه.

بدأت أول قطرات المطر تضرب عيدان القصب، فقفز النائمون واقفين على أقدامهم.

قال يعقوب «انها تباشير المطر. وسوف تطفئ الأرض عطشها»

لكن حين بدأوا يفكرون في ايجاد كهف يحتمون فيه، هبت ريح من الشمال وطردت الغيوم، وصفت السماوات، وتابعوا مسيرهم.

التمعت ثمار التين المتبقية على أشجار التين في وجه الهواء الرطب. وكانت شجيرات الرمان مثقلة بالثمار. مد الصحب أيديهم وقطفوا بعض ثمار الرمان واستمتعوا بأكلها. ورفع المزارعون رؤوسهم عن عملهم في الأرض. وبدا عليهم الذهول لدى مرأى الجليليين. ماذا يفعلون في السامرة؟ لماذا يختلطون بالسامريين ويأكلون من خبزهم ويقطفون ثماراً من أشجارهم؟ يجب أن يغربوا عن أبصارنا، وبسرعة!

ولم يحتمل أحد الرجال العجائز مرآهم، فترك بستانه واعترض سبيلهم. صرخ بهم «هيه، أيها الجليليون، إن قانونكم النغل يصب على أرضنا الطاهرة التي تطأونها الآن لعنه الحرم. فماذا تفعلون على أرضنا؟ اغربوا عن أبصارنا!»

أجابه بطرس «نحن متوجهون الى أورشليم المقدسة لنتعبد»، ثم وقف أمام العجوز ونفخ صدره في وجهه.

رعد العجوز قائلاً «يجب أن تتعبدوا هنا، أيها المرتدّون، على قمة جريزّم، الجبل الذي وطأه الرب. ألم تقرأوا الكتاب المقدس قط؟ هنا عند سفح جبل جريزّم، تحت أشجار السنديان، ظهر الرب لسيدنا ابراهيم. أراه الجبال والسهول المحيطة به من كل جانب، من جبل حبرون الى ايدوميه وأرض الميديين، وقال له «انظر الى الأرض الموعودة، أرض تفيض بالحليب والعسل. لقد قطعت لك عهداً بأن أهديها اليك، وسوف أفي بعهدي»، ثم تصافحا وختما على المعاهدة. أتسمعون، أيها الجليليون؟ هذا مايقوله الكتاب المقدس. لذا، فكل من أراد أن يتعبد فليتعبد هاهنا في هذه الأرض المقدسة وليس في أورشليم، التي تقتل الأنبياء!»

قال يسوع بصوت هادئ «كل أرض مقدسة، أيها العجوز، الرب موجود في كل مكان، أيها العجوز، ونحن جميعاً أخوة»

التفت الآخر، وقد تملكته الدهشة. قال «والسامريون والجليليون أيضاً؟»

«والسامريون والجليليون أيضاً، أيها العجوز ـ واليهود. الكل!»

استغرق العجوز في تفكير عميق، وهو يمسّد لحيته. وراح يتفحَّص يسوع من قمة رأسه الى طرف اصبع قدمه.

وأخيراً سأله «والرب والشيطان أيضاً؟». قال هذا بصوت منخفض حتى لا تسمعه القوى الخفية.

ارتعب يسوع. لم يسأله أحد قط إن كانت رحمة الرب هي من العظم بحيث انه في يوم ما سيغفر حتى للشيطان ويرحب بعودته الى مملكة السماء.

أجاب لا أدري، أيها العجوز، لا أدري. أنا انسان واهتمامي منصب على الناس، أما مايقع أبعد من هذا فهو من شأن الرب»

لم يفه العجوز بكلمة. وأخذ، ومايزال يمسِّد لحيته وهو مستغرق في تفكير عميق، يراقب عابري السبيل يواصلون مسيرهم، اثنين اثنين، ويتوارون تحت الأشجار.

هبط الليل، وهب هواء بارد. عثروا على كهف فتوغلوا داخله وربضوا معاً على شكل كرة ليظلوا دافئين. وكان قد تبقى لكل منهم قطعة من الخبز،فأكلوا. ثم خرج ذو اللحية الحمراء وجمع حطباً وأشعل ناراً مما بعث الحياة في الصحب، وجلسوا على شكل دائرة يراقبون ألسنة اللهب يخيم عليهم الصمت، يسمعون صفير الريح، وعواء أبناء آوى، وقصف رعود مكتومة بعيدة آتية تتدحرج من أعلى جبل جريزِّم. وتمكنوا من أن يروا في فتحة الكهف نجمة كبيرة في السماء تريح النظر، ولكن سرعان ما تجمَّعت الغيوم وحجبتها. أغمض الرفاق عيونهم واتكأوا برؤوسهم بعضهم على أكتاف بعض. والقى يوحنا سراً رداءاً صوفياً كان يرتديه على ظهر يسوع، ونام الجميع، وهم منضمُّون بقوة معاً كالوطاويط.

في اليوم التالي دخلوا اليهودية. ولاحظوا بالتدريج تبدل أنواع الأشجار. فقد أصبحت تحف بالدرب أشجار الحور ذات الأوراق الصفراء وأشجار الخرنوب المثقلة بثمارها، وأشجار الأرز العتيقة.كانت المنطقة صخرية، قاحلة، وعرة، حتى الفلاحون الذين ظهروا على الأبواب الواطئة، المعتمة كانوا كأنهم قُدُّوا من حجر الصوان. وبين الحين والآخر كانت تبرز لهم من بين الصخور زهرة

برية زرقاء، بسيطة وجميلة، وأحياناً كانوا يسمعون وسط الوحشة الخرساء، من عمق وهدة، قوقأة طائر حجل. وحين يسمعه يسوع يقول في نفسه، لابد أنه عثر على رشفة ماء فنزل ليشربها، ويكاد يستشعر صدر الطائر الدافئ في كفه فيبتهج.

حين اقتربوا من أورشليم أخذت طبيعة الأرض تزداد قساوة باضطراد. إن الرب أيضاً يتبدل. الأرض هنا لا تضحك كما كانت في الجليل، والرب، ذاته، مثل القرى والناس، كان قد قُدَّ من حجر الصوان. والسموات، والتي حاولت في السامرة للحظة على الأقل أن تمطر وتنعش التربة، كانت هنا أشبه بالحديد الحامي حتى الاحمرار. وتقدم الصحب لاهثين داخل هذا الفرن العميق. وحين حل الليل من جديد، شاهدوا مجموعة كبيرة من الأجداث حفرت في الصخور تشع بالضياء بالرغم من سوادها. إن آلافاً من أجدادهم قد تعفَّنوا داخلها وعادوا فاستحالوا حجراً. توغلوا داخل الأجداث الخاوية، واضطجعوا واستسلموا باكراً للنوم، ليكونوا نشيطين لدى دخولهم المدينة المقدسة في اليوم التالي.

وحده يسوع لم ينم. راح يتجول في أرجاء الأجداث، يرهف سمعه لصوت الليل.كان قلبه مضطرباً، ففي داخله أصوات غامضة وعويل عظيم، وكأن آلاف الرجال المتألمين يصرخون... وقرابة منتصف الليل هدأت الريح وعمَّ السكون الليل. ثم شقَّت صرخة تفطِّر القلوب هذا الصمت. في أول الأمر ظن انه ابن آوى جائع، لكنه أدرك، وقد مسَّه الرعب، أنها صادرة عن قلبه.

غمغم قائلاً «ربِ، من الذي يصرخ داخلي؟ من الذي يبكي؟»

أحس بالتعب، فدخل بدوره الى أحد الأجداث، وشابك يديه ثم استسلم لرحمة الرب. وعند الفجر راوده حلم. تراءى له انه كان مع مريم المجدلية، وأنهما معاً يطيران بسلام ودون ضجيج فوق مدينة

كـبـيـرة، بالكاد يلامـسـان برفق أسطح المنازل. وحين وصـلا الى أطراف المدينـة فتح آخر باب فيها، وخـرج منه رجل عـجـوز ضـخم الجـثـة. كـانت له لحـيـة طويلة منسـدلة وعـينـان زرقـاوان تلمـعـان كنجـمـتين. وكان كـمَّاه مرفـوعين الى أعلى، ويداه وذراعـاه ملطخين بالطين. وحين رفع ناظريه ورآهما طائرين، هتف قائلاً «توقفا. لدي ما أقوله لكما» فتوقفا.

«ماذا لديك، أيها العجوز؟ نحن منصتان»

«المسـيـح هو ذاك الذي يحب العـالم كله. المسـيح هو ذاك الذي يموت بسبب حبه للعالم أجمع»

سألته المجدلية «ولاشيء آخر؟»

صرخ العجوز بغضب «ألا يكفيكما هذا؟»

سألته المجدلية «أتسمح لنا بدخول ورشتك؟»

«لا. ألا تريان أن يديّ ملطختان بالطين؟ انني أكوِّن المسيح في الداخل»

أفاق يسوع مجفلاً. لقد كان جسمه بحق خفيفاً؛ وشعر بأنه يطيـر. لقـد انبلج ضـوء النهـار. الصـحب سـبـقـوه بالاسـتـيـقـاظ، وأبصـارهـم تنتقل من صـخـرة الى صــخـرة، ومن تل الى تل، تمتـد باتجاه أورشليم.

وانطلقـوا، يحـدوهم التـوق للوصـول. وسـاروا، وسـاروا، لكن الجبال الشـامـخـة أمامهم بدت أنها تتقهقـر على الدوام وأن الدرب يطول ويطول.

قـال بطرس قـانطاً «لا أظننا سنصل أبداً الى أورشليم، يا أخوتي. ما الذي يحدث لنا؟ ألا ترون ـ انهاتنأى عنا أكثر فأكثر»

أجـابه يسـوع «انهـا تقـتـرب باضطراد. تشـجـع يا بطـرس. فكلما خطونا خطوة نحو أورشليم، تخطو هي خطوة نحونا. مثل المسيح»

سأله يهوذا، ملتفتاً بسرعة نحوه «المسيح؟»

قال يسوع بصوت عميق «المسيح قادم. أنت تعلم هذا علم اليقين يا يهوذا، يا أخي، سواء كنا نمشي بالاتجاه الصحيح نحوه أم لم نكن. فاذا قمنا بعمل طيب أو نبيل، اذا ما تفوهنا بكلمة طيبة، فان المسيح سيحث خطاه ويقترب منا. واذا كنا غير صادقين، وأشراراً، وخائفين من كل شيء، فان المسيح سيدير لنا ظهره ويبتعد. المسيح هو أورشليم متنقلة، يا أخوتي. أورشليم في عجلة من أمرها، وكذا نحن. فلنسرع لملاقاتها! ضعوا ثقتكم في الرب وفي روح الانسان الخالدة!»

حثوا الخطى جميعاً، وقد امتلأوا شجاعة. ومرة أخرى سار يهوذا في المقدمة، وهذه المرة كان وجهه كله يفيض بالسعادة. قال في نفسه وهو يسير، انه يحسن الكلام. نعم، ابن مريم على حق. هذا نفسه ماهتف به الحبر العجوز لنا : الخلاص متوقف علينا. فاذا عقدنا أيدينا على صدورنا فلن تتحرر أرض اسرائيل أبداً. أما اذا رفعنا السلاح فستلوح لنا الحرية.

تابع يهوذا سيره، محدّثاً نفسه، ولكن فجأة توقف وقد استبدت به الحيرة، وتمتم «من هو المسيح؟ من؟ أتراه يكون الناس أجمع؟»

بدأت حبات من العرق تتحدر على جبينه المتّقد. أتراه يكون الناس أجمع؟ هذه أول مرة تخطر بباله هذه الفكرة، وانتابه الاضطراب. أيمكن أن يكون المسيح هو الناس أجمع؟ سأل نفسه هذا السؤال مرات عديدة. ثم، ماحاجتنا الى كل أولئك الأنبياء الزائفين؟ لم علينا أن نتلمس طريقنا يملؤنا الأسى، محاولين أن نعرف أيهم المسيح؟ هذا هو الجواب : الناس هم المسيح ـ أنا، أنت، وكل فرد منا. وليس أمامنا الا أن نرفع السلاح!

عاود مسيره، ملوحاً بهراوته في الهواء، وكان أثناء تقدمه يعبث

بسعادة بفكرته الجديدة كعبثه بهراوته، وفجأة أطلق صرخة. فأمامه لاحت أورشليم المقدسة، تومض فوق جبل مزدوج القمة، جميلة، بيضاء ومتكبرة. لم يناد على الآخرين، فقد كانوا يقتربون خلفه. لقد أراد أن يستمتع بمرآها وحده أطول مدة ممكنة. كانت القصور، والأبراج وبوابات القلاع،تتلألأ في بؤبؤي عينيه الزرقاوين، وفي قلب كل هذا نهض الهيكل، في حمى الرب، يجلله الذهب، وخشب الأرز والرخام.

لحق بقية الصحب به، وأطلقوا بدورهم صيحات الفرح.

اقترح بطرس، البلبل الصداح، قال «هيا، فلنتغنَّ بجمال سيدتنا. استعدوا يا رجال، كلنا معاً الآن!»

وبدأ الخمسة يرقصون على شكل دائرة حول يسوع، الذي وقف في الوسط لا يأتي بحركة، وراحوا ينشدون الترنيمة المقدسة :

فرحتُ حين قالوا لي،
«انهض، هيا بنا نذهب الى بيت الرب»
وتوقفت قدماي أمام
باحاتك، آه يا أورشليم.

أورشليم، يا حصناً منيعاً،
فليحل السلام داخل أبراجك القوية،
والسعادة في أرجاء قصورك.
اكراماً لأخوتي وأصحابي،
ليحل سلام، سلام عليك يا أورشليم !

الفصل السادس عشر

كانت أورشليم، بشوارعها، وأسقف منازلها، وساحاتها، وميادينها، مكتسية بكاملها برداء أخضر. انه موسم الاحتفال الخريفي الكبير، وقد أقام الأورشليميون آلاف الخيام بأغصان الزيتون والكرمة وسعف النخيل، وفروع الصنوبر والأرز، كما أمر رب اسرائيل احياءاً لذكرى السنوات الأربعين التي أمضاها أسلافهم تحت الخيام في البراري. كان موسم الحصاد والقطاف قد انتهى، وانتهى معه العام. وعلّق الناس آثامهم كلها من رقبة ذكر ماعز أسود اللون معلوف جيداً، وأخذوا يرجمونه بالحجارة، وطاردوه حتى توغل في الصحراء. وبعد ذلك شعروا بارتياح جم. فقد تطهَّرت أرواحهم، وهاقد بدأ عام جديد، وفَتَح الرب دفتراً جديداً للحساب، وسوف يمضون ثمانية أيام في الأكل والشرب تحت الخيام الخضراء، مسبحين بأمجاد رب اسرائيل الذي بارك الحصاد والقطاف وأرسل لهم أيضاً ذكر ماعز ليحمل عنهم خطاياهم. هو أيضاً كان مسيحاً أرسله الرب: حمل عن الناس كل خطاياهم، وهلك جوعاً في الصحراء ـ ومعه هلكت كل خطاياهم.

غرقت ساحات الهيكل الواسعة بالدماء. ففي كل يوم كانت تُذبح قطعان من القرابين للحرق. وكانت المدينة المقدسة تنتن من روائح اللحم، والروث، وعرق الشواء. وكان الجو المقدس تتردد فيه أصداء نفخ الأبواق والأنفار. وكان الناس يغالون في الأكل، وفي الشرب، حتى اكتأبت أرواحهم. اليوم الأول كان كله تلاوة مزامير، وصلوات، وسجود، ثم ولج يهوه، خفيًّاً، يملؤه الحبور، الى خيامهم وراح بدوره يحتفل، فأكل وشرب بشفتيه، ومسح لحيته. ولكن بدءاً باليومين الثاني والثالث، أخذ الاسراف في الأكل والشرب يؤثر على عقول الناس، وبدأت تُسمع النكات البذيئة والضحكات وأغاني الحانات الداعرة، وتضاجع الرجال والنساء بلاحياء في وضح النهار، داخل الخيام في أول الأمر، ومن ثم علانية في الطرقات وعلى العشب الأخضر. وظهرت في كل حي أشهر عاهرات أورشليم، ملطخات بمساحيق التجميل ومضمَّخات بالزيوت المعطرة القوية الرائحة. ووقع المزارعون وصيادو السمك البسطاء الذين قدموا من أطراف أرض كنعان ليعبدوا قدس الأقداس، وقعوا في حبائل تلك الأذرع البارعة وقد أصابهم الذهول، فلم يتخيلوا قط أن تتضمن القبلة كل ذاك القدر من المهارة والنكهة الخاصة.

حبس يسوع أنفاسه، وحث خطاه، وقد احتقن بالغضب، مجتازاً الشوارع وأجساد الناس السكارى المتدحرجة على الأرض. وأثارت فيه الروائح القذرة والقهقهات المعيبة الغثيان. وراح يحض رفاقه قائلاً «عجلوا ! عجلوا!»، وأحاط بذراعه اليمنى يوحنا وبذراعه اليسرى اندراوس، وتقدم.

لكن بطرس كان يتلكأ باستمرار، ليقابل حجيجاً من الجليل قدَّموا له كأساً من النبيذ، ولقمة من طعام، وانخرطوا واياه في حديث. وفكر في أن ينادى على يهوذا، ورأى أن يعقوب أيضاً

سينضم اليه - انهم لا يرغبون في أن يتيحوا لأي من أصدقائهم الذريعة للتذمر منهم. لكن الثلاثة السائرين في المقدمة كانوا في عجلة من أمرهم. وظلوا لا ينون ينادون على المتلكِّئين لحثِّهم على الانطلاق من جديد.

غمغم بطرس متذمراً «يا الهي، إن المعلم لا يدعنا نتنفس بحرية كبقية البشر. أي ورطة هذه التي وقعنا فيها؟»، وكان مزاجه قد أضحى مرحاً.

قال يهوذا، هازاً رأسه «وأين كنت طوال هذا الوقت أيها المسكين بطرس؟ أتظن أننا جئنا الى هنا لنمرح؟ أتظن أننا ذاهبون الى حفل زفاف؟»

ولكن بينما هم مسرعون سمعوا صوتاً أجشاً صادراً من احدى الخيام، يقول «هيه، بطرس، يا ابن يونان، أيها الجليلي القذر - ها أنت تمر مرور الكرام، ويكاد رأسانا يرتطمان لكنك لا تلاحظني. توقف قليلاً واشرب كأساً، عندئذ سيصفو بصرك وستراني!»

ميَّز بطرس الصوت فتوقف، وهتف «مرحباً! ما أسعدني بمقابلتك يا سمعان، أيها القيرواني القذر!»

ثم التفت الى رفيقيه وقال «يا شباب، هذه المرة لا يمكننا الهروب. فلنتوقف لنشرب كأساً. إن سمعان سكير معروف، فهو يدير حانة شهيرة كائنة بجوار بوابة داوود، ويستحق أن يشنق ويُعلَّق رأسه فوق عصا، لكنه في كل الأحوال انسان طيب، ويجب أن نشرِّفه بحضورنا»

والحق يقال، كان سمعان انساناً طيباً. قَدِمَ في شبابه بحراً من قيروان وافتتح حانة. وفي كل مرة يزور فيها بطرس أورشليم كان يحل ضيفاً على منزله. فيأكلان معاً ويشربان، ويتحدثان، ويتبادلان النكات؛ تارة يصدحان بأغنية، وطوراً يتشاجران، ثم يتصالحان من

جديد، ويشربان المزيد، وبعد ذلك يتلفَّع بطرس ببطانية سميكة، ويضطجع على مقعد طويل ويستغرق في النوم. أما الآن فسمعان جالس في خيمة مجدولة من فروع الكرمة، ويتأبط ابريقاً ويحمل بيده كأساً من البرونز، ويشرب، وحده.

تعانق الصديقان، وكان كلاهما ثملاً قليلاً، وكان حب أحدهما للآخر كبيراً لدرجة أن عيونهما امتلأت بالدموع. وبعد مقدمة من الصيحات والعناق وبعد انتهاء تكرار شرب الأنخاب، بدأ سمعان يضحك.

قال «أراهن بعظامي على أنك ذاهب لتتلقى المعمودية. أحسنتَ التصرف، وسوف أمنحك بركتي. قبل أيام تعمدت، ولست نادماً على ذلك. انه أمر مرض تماماً»

سأله يهوذا «وهل لاحظت أي تحسُّن؟»، وكان يأكل، ولا يشرب. وكان ذهنه مليئاً بالأشواك.

«ماذا أقول لك، يا صديقي؟ لقد مرت سنوات كثيرة منذ أن لامس الماء جسدي آخر مرة. ان الماء وأنا طرفا نقيض. لقد خلقت لأشرب النبيذ، أما الماء فهو للشراغف. لكنني في ذلك اليوم قلت لنفسي : انظر يا هذا، لماذا لا تذهب وتتعمد؟ ان الناس كلهم يذهبون، ولابد أن أجد بين المستتيرين الجدد من يشرب النبيذ. لا يمكن أن يكونوا جميعاً حمقى، وهكذا سأتعرف على عدد من الناس، وأتصيَّد بعض الزبائن. الجميع يعرفون حانتي الكائنة عند بوابة داوود... حسن، باختصار، ذهبت. كان النبي همجياً، وحشاً ضارياً - كيف أصفه؟ كأنه ينفث لهباً من منخريه - ليحمه الرب! قبض عليّ من عنقي وغمرني في الماء حتى لحيتي. ورحت أزعق. كان ينوي أن يغرقني، الكافر! لكني نجوت، وخرجت - وها أنا!»

كرر يهوذا سؤاله «هل لاحظت أي تحسُّن؟»

«أقسم لك بنبيذي أن الاغتسال نفعني كثيراً، نعم، نفعني كثيراً وشعرت بالارتياح. وقد قال المعمداني انني تخلصت من آثامي، ولكن، بيني وبينك - أظنني انما تخلصت من بعض بقع الشحم، لأنني حين خرجت من نهر الأردن وجدت طبقة رقيقة من الزيت طافية على وجه الماء بعمق انش».

انفجر في نوبة ضحك، وملأ كأسه، وشرب، ومن ثم شرب بطرس ويعقوب بدورهما. وأعاد ملء الكأس والتفت الى يهوذا. قال «وأنت أيها الحداد، ألا تشرب؟ انه نبيذ، أيها الأحمق المبارك، وليس ماءاً»

أجابه ذو اللحية الحمراء، دافعاً الكأس عنه «لا أشرب قط»

جحظت عينا سمعان، وسأله بصوت منخفض «هل أنت واحد منهم؟»

قال يهوذا «نعم، واحد منهم»، ولوَّح بيده مرة واحدة منهياً الحديث.

مرت امرأتان متبرجتان، وتوقفتا برهة وغمزتا للرجال الأربعة.

سأل سمعان، محتاراً «ولا نساء؟»

أجابه يهوذا مرة أخرى بجفاف «لا نساء»

صرخ سمعان، وقد نفد صبره «ماذا تريد اذن، يا مسكين؟ ولم خلق الرب النبيذ والنساء، ألا تخبرني؟ لتزجية وقته هو، أم لتزجية وقتنا نحن؟»

في تلك اللحظة اقترب اندراوس راكضاً، صرخ «هيا أسرعوا، المعلم في عجلة من أمره»

سأله صاحب الحان «أي معلم؟ ذاك ذو الرداء الأبيض، الحافي القدمين؟»

لكن الرفاق الثلاثة كانوا قد غادروا، ووقف سمعان القيرواني،

مـرتبكاً، خـارج خـيـمـتـه، والكأس الفـارغـة مـاتزال فـي يده والابريق تحت ابطه، وراح يتابعهم ببصره ويهز رأسه. قال «لابد انه معمداني آخر، معتوه آخر. باه، أصبحوا مؤخراً ينبتون كالفطر»، وتابع وهو يملأ كـأسـه «فـلأشـرب نـخب صـحـتـه، أدعـو الرب أن يعـيـده الى صوابه!»

في تلك الأثناء، كان يسوع ورفاقه قد وصلوا الى الفناء الفسيح للهيكل. توقفوا، وغسلوا أيديهم وأقدامهم وأفواههم استعداداً لولوج الهيكل والتعبد. ألقوا نظرة سريعة فيما حولهم فرأوا صفوف مدرَّج مملوءة كلها برجال وحيوانات، وممرات مقنطرة ظليلة، وأعمدة من الرخـام الأبيض والأزرق مطوَّقة بأغصـان الكرمـة الذهـبيـة وثمـار العنب، وعلى كلا الجانبين أقيمت سقيفات، وخيام، وعربات جر، ومواقف للصيـارفة والحـلاقين، وبائعي الخمـر، واللحامين. وكـان الجو يضج بالهتافات، بالشجار والضحك، وكان منزل الرب ينتن برائحة العرق والقذارة.

غطّى يسوع بكفه أنفه وفمه، وجال ببصره في أرجاء المكان، لكنه لم يجد للرب أثراً. «انني أبغض احتفالاتكم، وأمقتها. أشعر بالغثيان من نتانة العجول السمينة التي تذبحونها لأجلي. ابعدوا عني جلبة مزاميركم وقيثاراتكم». لم يكن من يتكلم هو النبي، ولا كان الرب، بل قلب يسوع الذي اضطرب وأطلق الصراخ. وفجأة أحس بالاغماء. اختفى كل شيء من أمامه. وتفتحت أبواب السموات وهبط ملاك بشعر من لهب مندفعاً، وقدماه تسوطان الهواء، وارتقى صخرة سوداء موجودة في وسط الفناء، والدخان واللهب يتصاعدان من شعر رأسه، وأشار بسيفه الى الهيكل الشامخ المدجج بالذهب.

ترنح يسوع، فدعم نفسه بالاعتماد على ذراع اندراوس. وحين فتح عينيه رأى الهيكل والناس بضجيجهم. وكان الملاك قد اختبأ

داخل ضياء عظيم. مدَّ يسوع ذراعيه نحو رفاقه، وقال «اغفروا لي لا أستطيع البقاء. سوف أصاب بالاغماء. هيا بنا»

قال يعقوب، وقد صُدم «دون أن نتعبد!»

قال يسوع «سوف نتعبد في داخلنا، يا يعقوب. إن كل جسد من أجسادنا هيكل»

وغادروا. سار يهوذا في المقدمة، وكان يطرق بعصاه على الأرض، ويقول في نفسه انه لا يحتمل القذارة ومرأى الدماء والصراخ. انه ليس المسيح.

وكان هناك فريسي هائج، يلهث، وقد انبطح على وجهه على الدرجة الأخيرة من الهيكل، وأخذ يقبِّل الرخام بنهم، وينتحب. وكان يعلق من عنقه ويدلّي من ذراعه خيوطاً سميكة من الطلاسم محشوة بنصوص مرعبة من الكتاب المقدس. وكان طول السجود قد جعل ركبتيه تجسآن وتصبحان كركبتي جمل، وكان وجهه، وعنقه وصدره مغطاة بجروح مفتوحة وتنزف: فكلما كانت عاصفة الرب هذه تنزل به كان يقبض على حجارة حادة الحواف ويمثِّل بنفسه.

سارع انداروس ويوحنا الى الوقوف أمام يسوع لكي لا يرى الفريسي. وتقدم بطرس من يعقوب، أكبر أبناء يوسف النجار. انه يقوم بجولاته لبيع الطلاسم وكل دقيقتين تمسّه روحه الشريرة، فيتدحرج على الأرض ويكاد يقتل نفسه»

سأل يعقوب، بعد أن توقف برهة «أهو ذاك الذي يطارد المعلم بضراوة؟»

«نعم. ويقول انه يجلب العار الى منزلهم»

غادروا الهيكل من باب الذهب، ثم اجتازوا وادي قدرون وبدأوا بالمسير باتجاه البحر الميت. وعلى اليمين منهم مروا بحديقة وكرم زيتون تدعى جشيماني. وكانت السماء من فوقهم بيضاء وملتهبة.

ثم وصلوا الى جبل الزيتون. كان العالم قد أضحى أجمل قليلاً. وكان النور يتقطّر من كل ورقة من أشجار الزيتون، واندفعت أسراب الغربان واحداً اثر آخر باتجاه أورشليم.

كان اندراوس متأبطاً ذراع يسوع يحدثه عن معلمه السابق، المعمداني. كان كلما اقترب أكثر من عرينه اشتمّ أكثر، مرعوباً، أنفاس النبي الشبيهة بأنفاس الأسد.

«انه ايليا الحقيقي. انحدر من جبل الكرمل ليعالج روح الانسان مرة أخرى بالنار. وذات ليلة رأيت بأم عينيّ العربة النارية تحوم مشتعلة ليأكلها. وذات يوم استجمعت شجاعتي وسألته «هل أنت المسيح؟»، فانتفض وكأنما وطأ على حية، وتنهد وأجاب «لا، أنا الثور الذي يجر المحراث. المسيح هو البذرة»

«ولماذا تركت صحبته يا اندراوس؟»

«أردت أن أعثر على البذرة»

«وهل وجدتها؟»

ضغط اندراوس يد يسوع على قلبه وعلته حمرة شديدة. أجاب «نعم»، لكن صوته كان من الخفوت حتى أن يسوع لم يسمعه.

هبطوا بخطى بطيئة، وهم يلهثون، متجهين الى البحر الميت. كانت الشمس ترسل لظاها من فوقهم حتى أن رؤوسهم خشخشت. ثم شمخت أمامهم جبال موآب أعلى فأعلى، أشبه بجدار قاحل، وخلفها ارتفعت جبال ايدوميه، البيضاء الجيرية، وتلوى الدرب وأخذ يهبط أكثر فأكثر.كأنهم كانوا يهبطون بئراً عميقة، فحبسوا جميعاً أنفاسهم.

شعروا معاً بأنهم انما يهبطون الى الجحيم، وكانوا يشمون رائحة القطران والكبريت.

بهرهم الضوء. تقدموا متلمّسين طريقهم، وأقدامهم تتأذى،

وعيونهم تحترق، ثم سمعوا رنين أجراس: مرَّ جملان - لم يكونا جملين، بل سرابين وسط الحرارة المتلظية.

همس ابن زبدى الأصغر «أنا خائف. انه الجحيم»

أجابه اندراوس «تشجع. ألم تسمع بأن الجنة تقع في قلب الجحيم؟»

«الجنة؟»

«سوف ترى بعد قليل»

أخيراً انحدرت الشمس، وتحول لون جبال موآب الى أرجواني داكن، ولون جبال ايدوميه قرنفلي - فارتاحت أبصار الرجال. وفجأة، عند أحد منعطفات الطريق، انتعشت أبصارهم - أبصارهم وأجسادهم، وكأنهم خاضوا في مياه باردة. ما تلك المروج غير المتوقعة التي تبدت أمامهم، وسط الرمال؛ وتلك المياه التي تضحك ضحكاً خافتاً، وشجيرات الرمان المثقلة بثمارها، والأكواخ البيضاء الظليلة؟ لقد تعطَّر الجو فجأة بعبير الياسمين والورد.

هتف اندراوس بابتهاج «انها أريحا، وفيها أحلى أنواع التمر مذاقاً في العالم كله، وأشد أنواع الورد اعجازاً : اذا ذبل، كل ماعليك عمله هوأن تغمسه في الماء فيعود الى الحياة»

سرعان ماهبط الليل. كانت أوائل المصابيح قد أضيئت.

قال يسوع، بعد أن توقف ليستمتع بشكل كامل بهذه اللحظة القدسية، «ان الترحال، ومراقبة هبوط الظلام، والوصول الى قرية، ورؤية أوائل المصابيح تضاء، وأن لا يكون لديك ما تأكله أو لا تجد مكاناً تأوي اليه، وأن تدع كل الأمور لرعاية الرب ولطيبة البشر - ان هذا، في اعتقادي، هو أحد أعظم مباهج العالم وأنقاها»

شمَّت كلاب القرية رائحة الغرباء فبدأت تنبح. وفُتِحَت أبواب وظهرت منها مصابيح مضاءة، جاست في الظلام ومن ثم عادت

الى الداخل. توجه الصحب الى الأبواب، يدقونها، وكانوا يُمنَحون بكل ودّ قطعة خبز من هنا ورمانة من هناك، أو حفنة من العنب أو الزيتون الأخضر. جمعوا كل هذه الهبات التي أتتهم من عند الرب والانسان، واستلقوا في ركن من بستان، فأكلوا، وسرعان ماغرقوا جميعهم في النوم. وطوال الليل كانوا يسمعون في أحلامهم الصحراء تتحرك، تهدهدهم ليناموا كما البحر. لكن يسوع أثناء نومه سمع نفخ أنفار - واذا بجدران أريحا تتقوض وتنهار.

كان الوقت قد قارب منتصف النهار حين وصل الصحب، وقد علاهم شحوب الموت، وتدلت ألسنتهم، الى البحر الميت البغيض. كان السمك المنحدر مع تيار نهر الأردن ينفق حالما يمسّ مياهه، وكانت الشجيرات القصيرة الموجودة على ضفتيه أشبه بالهياكل العظمية الواقفة. وكانت المياه كما الرصاص،غليظة القوام، ولا حراك بها. فاذا كنت رجلاً ورعاً وملت فوقها لرأيت فيها صورة لعاهرتين عفنتين، سدوم وعمورة، تتعانقان في الأعماق المظلمة.

ارتقى يسوع احدى الصخرات وحدَّق في المدى : لاشيء غير القفر، الأرض تحترق، والجبال ذابت. أمسك اندراوس من ذراعه وسأله «أين يوحنا المعمداني؟ انني لا أرى أحداً... لا أحد...»

أجابه اندراوس «هناك خلف عيدان القصب وحيث يهدأ اضطراب النهر وتشكل المياه بركة، يقوم النبي بالعماد. هيا بنا نبحث عنه، أنا أعرف الطريق»

«أنت تعب يا اندراوس. ابق مع الآخرين، وسأذهب أنا بنفسي»

«إنه متوحش. سأصحبك يا معلم»

«أريد أن أذهب وحدي يا اندراوس. ابق هنا»

تقدم صوب عيدان القصب، وقلبه ينبض بقوة، فوضع يده عليه وراح يربت ليخفف من غلوائه. وظهر سرب جديد من الغربان قادماً

من الصحراء طائراً على عجل باتجاه أورشليم.

فجأة سمع شخصاً يمشي في اثره. استدار. كان يهوذا.

قال ذو اللحية الحمراء مبتسماً بسخرية «نسيت أن تناديني. ان هذه هي أصعب الساعات، وأريد أن أكون معك»

قال يسوع «تعال»

وتقدما بصمت، يسوع في المقدمة، ويهوذا خلفه. باعدا مابين عيدان القصب وخاضا بأقدامهما في وحل النهر الخامل. انتفضت حية سوداء، وانزلقت داخل صخرة ثم رفعت رأسها وعنقها. وأخذت تنظر اليهما بعينيها الصغيرتين الماكرتين وتهسُّ، ونصف جسدها متشبث بالصخرة، وهي شبه منتصبة. توقف يسوع برهة ولوَّح بيده بود للحية، وكأنه يرحب بها. ورفع يهوذا هراوته السنديان لكن يسوع مد ذراعه ومنعه.

قال «لا تؤذها يا يهوذا، يا أخي. هي أيضاً تؤدي واجبها - بالعض»

كانت الحرارة تهدر، والريح الجنوبية التي هبت من البحر الميت تحمل معها رائحة نتانة ثقيلة لجثث متفسخة. ثم بدأ يسوع يسمع صوتاً أجشاً همجياً. وكان بين الفينة والأخرى يميز بعض الكلمات «نار... فأس... شجرة عقيمة...». ومن ثم بصوت أعلى «توبوا! توبوا!»، وعلى الفور انفجر جمع غفير بالصراخ والعويل.تقدم يسوع بخطى بطيئة، بارعة، وكأنه يقترب من كهف حيوان متوحش. باعد مابين عيدان القصب: فزاد الضجيج. وفجأة عض على شفتيه ليمنع نفسه من الصراخ - هاهو ذا، واقف على ساقين أشبه بعودي قصب فوق صخرة ترتفع فوق مستوى مياه نهر الأردن. أهذا رجل، أم جرادة، أم ملاك الجوع، أم رئيس ملائكة الانتقام؟ وكانت أمواج وأمواج من البشر تجأرمنهارة على الصخور - من أثيوبيين بأظافر

أصابع ورموش مصبوغة، وكلدانيين يعلقون أقراطاً نحاسية كبيرة من أنوفهم، واسرائيليين بسبلات خدِّية طويلة دهنية. وكان المعمداني يصرخ، وفمه يرغي ويزبد، والريح الجنوبية تهزه وكأنه قصبة «توبوا! توبوا! لقد جاء يوم الرب! تدحرجوا على الأرض، عَضّوا في التراب، اعووا! فقد قال رب الجنود: «في هذا اليوم سآمر الشمس فتغرب عند الظهيرة، وسأحطم قرون القمر الجديد وأنشر الظلام على السماء والأرض. سأغير ضحككم فيصير دموعاً، وأغانيكم فتصبح نَدْباً. سوف أنفخ فتقع كل حلي أيديكم، وأقدامكم، وأنوفكم، وآذانكم، وشعوركم - على الأرض»

خطا يهوذا الى الأمام وأمسك يسوع من ذراعه. قال «أتسمع؟ أتسمع؟ انظر! هكذا يتكلم المسيح ! انه هو المسيح!»

أجابه يسوع «لا، يا يهوذا، يا أخي، ان الذي يحمل الفأس ويشق الطريق للمسيح هو من يتكلم بهذه الطريقة، أما المسيح فلا يفعل»، ثم مال وقطف ورقة خضراء مدببة ومررها من بين أسنانه.

جأر ذو اللحية الحمراء قائلاً «إن من يفتح الطريق هو المسيح»، ثم دفع بيسوع لكي يبرزه من بين عيدان القصب ليظهر للملأ.

وأمره «تقدم، دعه يراك. وسوف يحكم بنفسه»

خرج يسوع الى نور الشمس، وخطا خطوتين مترددتين، وتعثر، ثم توقف، وكانت عيناه مثبتتين على النبي. أخذ يحدق بكل كيانه متفحصاً النبي، من ساقيه الشبيهتين بعودي قصب وحتى رأسه المتّقد ومن ثم أعلى الى كامل هيبته الخفية. فقد كان المعمداني يدير له ظهره، وشعر بنظرته الثاقبة المتقدة تدقق في كامل جسده، فاستشاط غضباً واستدار بكل جسمه وأغمض عينيه المستديرتين الشبيهتين بعيني صقر نصف اغماضة لكي يرى بشكل أفضل. من ذاك الشاب

الصامت، الذي لا يأتي بحركة، يتلفع برداء أبيض ويحدق به؟ لقد رآه في مكان ما، في مناسبة ما، ولكن أين؟ متى؟ وبذل جهداً مضنياً ليتذكر. أيكون قد حدث ذلك في حلم؟ انه كثيراً ما يحلم برجال يرتدون ثياباً بيضاء كاملة بهذا الشكل. لم يكلموه قط لكنهم كانوا يكتفون بالتحديق اليه والتلويح بأيديهم وكأنهم يحيونه أو يودعونه. ثم يصيح الديك معلناً بزوغ الفجر فيتحولون الى ضياء ويتلاشون.

فجأة أطلق المعمداني صرخة، وهو لايزال ينظر اليه. لقد تذكر: فذات يوم وعند الظهيرة بالضبط وكان مضطجعاً على ضفة النهر، يقرأ في سفر اشعيا النبي، مخطوطاً على جلد ماعز، وفجأة اذا بالحجارة، والماء، والناس، وعيدان القصب والنهر يختفون عن بصره، وامتلأ الجو بالنيران، وبنفخ أنفار وتصفيق أجنحة، وتفتحت كلمات النبي وكأنها أبواب، ودلف منها المسيح. تذكر انه كان يتلفع كله بالبياض، نحيلاً، نخره، طول التعرض لأشعة الشمس، حافي القدمين، كهذا الرجل، ويحمل بين أسنانه ورقة خضراء.

امتلأت عينا الزاهد بالغبطة والخوف. قفز نازلاً عن صخرته وتقدم منه، مشرئباً بعنقه الكثير العقد.

سأله، وصوته الأجش يتهدج «من أنت؟ من؟»

قال يسوع، وقد تقدم خطوة أخرى «ألا تعرفني؟»، وكان صوته يرتعش: كان يعرف أن مصيره متوقف على اجابة المعمداني.

قال المعمداني لنفسه، انه هو، هو، وأخذ قلبه يخفق بعنف ولم يقدر، بل لم يجرؤ على اتخاذ قرار. ومرة أخرى اشرأب بعنقه. سأله من جديد «من أنت؟»

أجابه يسوع بصوت عذب ولكن متذمر، وكأنه يؤنبه «ألم تقرأ الكتاب المقدس؟ ألم تقرأ أقوال الأنبياء؟ ماذا يقول اشعيا؟ أيها السابق، ألا تذكر؟»

همس الزاهد «أهو أنت، أنت!»، ووضع كلتا يديه على كتفي يسوع وراح يحدق في عينيه.

قال يسوع بتردد «لقد جئت...»، ثم سكت. فقد شعر بالاختناق ولم يتمكن من المتابعة. وكأنه كان يمد قدمه ومن ثم يتقصّ ليعرف إن كان بوسعه أن يتقدم خطوة أخرى دون أن يقع.

مال النبي الهجمي فوقه وراح يتفحصه بصمت. وتساءل ان كان قد سمع الكلمات الرائعة، المرعبة، التي أفلتت من بين شفتيّ يسوع.

كرر ابن مريم القول «لقد جئت...» بصوت شديد الخفوت حتى ان يهوذا نفسه، الذي كان واقفاً خلفه يقظاً يصيح بأذنه، لم يسمعه. هذه المرة أجفل النبي. لقد فهم.

قال «ماذا؟»، وانتصب شعر رأسه.

مرَّ غراب من فوقهم وأطلق صراخاً أجشاً يشبه صراخ إنسان يغرق كان يسخر من شيء، أو يضحك. وتملك الغضب المعمداني. انحنى ليلتقط حجراً ويرمي به للطائر. لكن الغراب كان قد طار بعيداً، لكنه ظل ينظر اليه، ويزداد ابتهاجه مع مرور الوقت ـ فبهذه الطريقة هدأ اضطراب ذهنه بالتدريج... ثم نهض، وقال بهدوء «أهلاً بك»، وظل ينظر اليه، ولكن لم يكن في عينيه أي حب.

اهتز قلب يسوع. أفي أذنيه شواش أم أنه حقاً سمع النبي يرحب به؟ إن كان هذا صحيح، فكم هو مذهل، ومبهج، ومخيف!

تلفت المعمودي فيما حوله، ومر ببصره على طول نهر الأردن، وعيدان القصب، والناس الراكعين وسط الطين يعترفون علناً بآثامهم. وعلى عجل عانق مملكته وودعها. ثم التفت الى يسوع «الآن بوسعي أن أرحل»

«ليس الآن، أيها السابق. أولاً يجب أن تعمِّدني»، وقد أصبح صوته أكثر ثقة وحزماً.

«أنا؟ أنتَ الذي يجب أن يعمدني، أيها الرب»

«لا ترفع صوتك. فقد يسمعوننا. ان ساعتي لم تحن بعد. هيا بنا!»

كان يهوذا يصيخ سمعه، لكنه لم يسمع غير همهمة، همهمة مرحة، لعوب وكأنها ناتجة عن اتحاد جدوليّ ماء جار.

أفسح الحشد المجتمع على الضفة طريقاً. من هذا الحجيج الذي خلع عنه رداءه الأبيض، واكتسى أشعة الشمس؟ من هذا الذي دخل في الماء بكل ذاك النبل والطمَأنينة، دون أن يعترف بآثامه؟ شقا معاً طريقهما داخل الجدول الأزرق، المعمداني في المقدمة. ثم ارتقى المعمداني صخرة كانت ناتئة خارج سطح الماء. ووقف يسوع بجواره على حوض النهر الرملي، وكانت المياه تعانق جسده وحتى ذقنه.

ما إن رفع المعمداني يده ليصب الماء على وجه يسوع ويمنحه بركته حتى صرخ الناس احتجاجاً. واذا بدفق نهر الأردن يتوقف، وتطفو أسراب من السمك المتعدد الألوان من كل صوب، وتحيط بيسوع وتأخذ بالرقص، تضم زعانفها وتفتحها وتهز أذيالها، وبرز جني صغير أشعث على هيئة عجوز بسيط منضفر مع أعشاب الماء، خارجاً من قاع النهر، واتكأ على عيدان القصب، وراح يحدق الى كل مايجري أمامه، فاغر الفم، جاحظ العينين فرحاً وخوفاً.

لجمت هذه المعجزات ألسنة الناس. انبطح منهم الكثير على أرض الضفة ليحجبوا عيونهم. وأصابت الرعشة آخرين وسط ذاك الحر الشديد وهتف أحدهم، حين رأى العجوز يخرج من الأعماق وقد غطاه الوحل، «انه روح نهر الأردن!»، ثم أغمي عليه.

ملأ المعمداني صدفة بالماء وبدأ يصبه بيد مرتعشة على وجه يسوع، ويقول «عُمِّد خادم الرب باسم...»، لكنه سكت : لم يكن يعرف بأي اسم يُعمِّده.

التفت ليسأل يسوع، وتمطى على أطراف أصابع قدميه، وترقب كبقية الناس أن يسمع اسمه، واذا به يسمع رفرفة أجنحة تهبط من السموات وطائر أبيض الريش - فهل كان طائراً، أم أحد من السيرافيم؟ - يندفع نحوهم ثم يتوازن فوق رأس المعمِّد. وظل هكذا ساكناً لبضع لحظات، ثم حوَّم فجأة فوقه ثلاث مرات. وومضت في الجو ثلاثة أكاليل من النور وزعق الطائر زعقة وكأنه يصرِّح باسم خفي، إسم لم يُسمَع به من قبل. وكأن السموات تجيب عن سؤال المعمداني الأخرس.

طنّت آذان الناس، وترنحت رؤوسهم. كانت تصحب رفرفة الأجنحة كلمات. أهو صوت الرب؟ أم صوت الطائر؟ إنها لمعجزة غريبة... شدَّ يسوع جسمه كله، يحاول أن يسمع. كان لديه حدس بأن هنا يكمن اسمه الحقيقي، لكنه لم يتمكن من تمييزه. كل ماسمعه كان صوت أمواج عديدة تتلاطم داخله، وأجنحة كثيرة، وكلمات عظيمة، مريرة. رفع بصره. كان الطائر قد وثب منطلقاً الى عنان السموات وأصبح ضوءاً داخل الضياء.

كان المعمداني، الذي مكَّنته السنوات الطوال التي قضاها في الصحراء وفي عزلة قاسية من التضلع في لغة الرب، كان الوحيد الذي فهم، فهمس بينه وبين نفسه قائلاً، وهو يرتعش، اليوم عُمِّد خادم الرب، ابن الرب، أمل البشرية!

أومأ لمياه نهر الأردن لتعاود جريانها، وهكذا انتهى القربان المقدس.

الفصل السابع عشر

بزغت الشمس من الصحراء كنهوض أسد وسطعت على كل أبواب أرض اسرائيل. وتصاعدت من كل منزل يهودي صلاة الصباح الوحشية الى رب العبرانيين المتكبّر : «نسبح باسمك ونمجدك، يا ربنا ورب أجدادنا، أيها الجبار الرهيب، أنت عوننا وسندنا. المجد لك، أيها السرمدي، المجد لك، يا حامي ابراهيم. من يقدر على مجاراتك في قوتك أيها الملك، أنت يا من تقتل، وتبعث وتحرر؟ المجد لك، يا محرر اسرائيل ! دمّر أعداءنا وامحقهم وبعثر أشلاءهم، ولكن أسرع، لنشهد ذلك في حياتنا !»

وجدت الشمس البازغة يسوع ويوحنا المعمداني جالسين في تجويف صخرة شاهقة تشرف على نهر الأردن. كان الاثنان قد أمضيا الليل بطوله يضمّان العالم بين أيديهما، يتفكران فيما سيفعلان به. فيتناوله أحدهما، ثم يأخذه الآخر. فترى وجه أحدهما قاسياً وصارماً: ترتفع ذراعاه وتنخفضان وكأنه في الواقع يحمل فأساً ويحطمه به. وترى وجه الآخر وديعاً متردداً وعينيه ملؤهما الحنو.

سأله «ألا تكفي المحبة؟»

فأجابه المعمداني غاضباً «لا، إن الشجرة نخرة. لقد ناداني الرب وأعطاني الفأس، فوضعته عندئذ عند جذور الشجرة. لقد قمت بواجبي، والآن جاء دورك : خذ الفأس واضرب!»

«لو كنتُ ناراً، لأحرقتُ؛ ولو كنتُ حطاباً لضربتُ. لكني قلب، وأنا أحب»

«أنا أيضاً قلب، لهذا تراني لا أطيق الظلم، أو الخزي أو العار. كيف يسعك أن تحب الظالم، والشائن والصفيق الوجه؟ اضرب ! ان أحد أعظم التزامات الانسان هو الغضب»

قال يسوع، معترضاً على ذلك في قلبه «الغضب؟ ألسنا جميعاً أخوة؟»

أجاب المعمداني ساخراً «أخوة؟ أتظن أن المحبة هي الطريق الى الرب ـ المحبة؟ انظر هنا ـ»، ومدَّ يده النحيلة، الكثيفة الشعر وأشار بها الى البحر الميت، الذي كان ينتن كجثة متفسخة، «هل انحنيت مرة فوقه لترى العاهرتين، سدوم وعمورة، قابعتين في القاع؟ لقد غضب الرب، ونفث ناره، ووطأ الأرض فتحولت اليابسة الى بحر ابتلع سدوم وعمورة، هذا هو أسلوب الرب ـ فاتَّبعه. ماذا تقول النبوءات؟ تقول «حين تأتي ساعة الرب سيتدفق الدم من الخشب، وستُبعث الحياة في حجارة المنازل، فتنهض لتقتل مالكي المنزل!» وها ان ساعة الرب قد بدأت وهي آتية. لقد كنتُ أول من تبيَّنها. صرختُ، وحملت فأس الرب، ووضعتها عند جذور العالم. ناديتك، وناديتك، وناديتك لتأتي. وهاقد أتيت، والآن سأرحل أنا»

قبض على يدي يسوع وكأنه يضع فأساً فيهما. ثم تراجع يسوع وقد تملكه الخوف. قال «اصبر قليلاً، أتوسل اليك. لا تتعجل. سوف أذهب وأكلِّم الرب في الصحراء. هناك يسمع صوته بجلاء أعظم»

«وكذا صوت الغواية. حذار ـ فالشيطان كامن بانتظارك، وجيشه في حالة استعداد تام. انه يعلم جيداً أنك تعني بالنسبة له الحياة أو الموت. سوف ينقضُّ عليك بكل وحشيته وعذوبته، فحذار. الصحراء ملأى بالأصوات العذبة ـ وبالموت»

«يا صديقي، لا يمكن للأصوات العذبة والموت أن يخدعوني. ثق بي»

«أثق بك، والويل لي ان لم أفعل! اذهب، تحدث مع الشيطان، وتحدث مع الرب، ثم قرر. فاذا كنتَ النبي المختار الذي طالما انتظرته يكون الرب قد اتخذ قراره، ولا مفر لك. واذا لم تكن هو، فما همّني إن اختفيت؟ اذهب، وسوف نرى. ولكن أسرع؛ لا أريد أن أغادر العالم وحدي»

«تلك الحمامة البرية التي صفَّقت بجناحيها فوقي بينما كنت أعمِّد: ماذا كانت تقول؟»

«انها ليست حمامة برية. سيأتي يوم تسمع فيه الكلمات التي كانت تقولها. ولكن حتى ذلك الحين، ستظل معلّقة فوقك كالسيوف المسلَّطة»

نهض يسوع واقفاً ومد يده، وقال، وكان صوته يرتعش «أيها السابق الحبيب، وداعاً ـ ربما الى الأبد»

ضغط المعمداني شفتيه على شفتي يسوع وأبقاهما هناك. كان فمه جمرة حية، حرقتا شفتي يسوع. قال، وهو يعصر بقوة يد يسوع الرقيقة «ها أنا أخيراً أسلِّم روحي لك، ان كنت أنت المختار الذي طالما انتظرته، فاسمع تعليماتي؛ لأني أعتقد أنني لن أراك بعد الآن على وجه هذه الأرض، لن أراك أبداً»

همس يسوع، وهو يرتعش «أنا منصت، ماهي تعليماتك؟»

«بدِّل تعابير وجهك. قوِّ ذراعيك. ثبِّت قلبك، فحياتك حياة

ثقيلة. أرى دماءاً وشوكاً على جبينك. تحمَّل يا أخي ورئيسي، وتشجَّع! أمامك طريقان : طريق الانسان، وهي مستوية، وطريق الرب، وهي صاعدة. اتخذ الطريق الأصعب. وداعاً! لا تحزن عند الفراق. ليس من واجبك أن تبكي، بل أن تضرب. اضرب! وليثبِّت الرب يدك! تلك هي طريقك. ان الطريقين هما من عمل الرب، فلا تنس ذلك. لكن النار خلقت أولاً ومن ثم جاءت المحبة بعدها. لذا لنبدأ بالنار. الى الأمام، وحظاً طيباً!»

كانت الشمس قد ارتفعت وعلت. وظهرت القوافل قادمة من الصحراء العربية، تحمل معها حجيجاً جداً بعمامات متعددة الألوان يضعونها على رؤوسهم الحليقة. بعضهم كان يحمل تعاويذ ذات شكل هلالي مصنوع من أسنان الخنازير البرية، تتدلى من أعناقهم، وآخرون كان معهم تماثيل صغيرة لإلاهات - بأرداف ضخمة؛ وغيرهم يحملون قلائد مصنوعة من أسنان أعدائهم. كانوا حيوانات الشرق الضارية جاؤوا ليتعمدوا .حين رآهم المعمداني أطلق صرخة ثاقبة وأسرع ينزل عن الصخرة. بركت الجمال على طمي نهر الأردن، وسمع صوت الصحراء يجلجل بلا رحمة «توبوا، توبوا. إن يوم الرب قادم!»

في تلك الأثناء عثر يسوع على رفاقه فألفاهم جالسين على ضفة النهر، ينتظرونه وقد خيم عليهم الصمت والحزن. كانت قد مرت حتى ذلك الحين ثلاثة أيام وثلاث ليال لم يظهر خلالها، ثلاثة أيام وثلاث ليال تخلى فيها المعمداني عن التعميد ليتحدث معه. كان يتكلم ويتكلم ويسوع منصت اليه خافض الرأس. ماذا كان يقول، وهو مخيِّم فوقه كالصقر، ولماذا كان أحدهما هائجاً والآخر حزيناً؟ وراح يهوذا يسير جيئة وذهاباً، حانقاً يتأفف. وحالما هبط الليل اقترب من الصخرة خلسة ليسمعهما. كانا يتحدثان حديثاً حميماً.

أصاخ يهوذا سمعه لكنه لم يميِّز غير همهمة سريعة، وكأنها خرير مياه جارية. أحدهما كان يعطي، والآخر يتلقى ليمتلئ، وكأن ابن مريم كان ابريقاً مستقراً تحت صنبور. انزلق ذو اللحية الحمراء هابطاً أسفل الصخرة، وهو في حالة هياج، ومرة أخرى أخذ يمشي في المكان وسط الظلام، ودمدم «عار عليَّ، عار عليَّ أن أدعهما يتداولان حول اسرائيل أثناء غيابي! كان على المعمداني أن يعهد بسرِّه اليَّ. كان يجب أن يعطي الفأس لي. أنا الوحيد الذي يشعر بآلام اسرائيل. أنا قادر على استخدام الفأس، أما هو، المستبصر، فلا يقدر. انه يعلن بلا خجل اننا جميعاً أخوة، مجروحون وجارحون، اسرائيليون ورومان ويونان، فليأخذهم الشيطان جميعاً!» ثم استلقى عند أسفل الصخرة بعيداً عن رفاقه الآخرين، غير راغب في رؤيتهم. وغطّ في النوم برهة من الزمن وخيل اليه انه يسمع صوت المعمداني وكلمات متفرقة، مبعثرة: «نار»، «سدوم وعمورة»، «اضرب». فانتفض. الا أنه حالما استيقظ لم يعد يسمع غير طيور الليل وأبناء آوى وغمغمة نهر الأردن مع عيدان القصب. فنزل الى النهر وغمر رأسه الملتهب في الماء ليطفئ ناره. وتمتم «لابد أن ينزل عن الصخرة عاجلاً أو آجلاً، أليس كذلك؟ سيفعل، وعندئذ سأعرف سره، شاء أم أبى!»

لذا، حين رأى يسوع يقترب، قفز واقفاً كما فعل بقية الرفاق، وهرعوا مبتهجين للقياه، لمسوا كتفيه، وظهره، وداعبوه، وامتلأت عينا يوحنا بالدموع ـ هذه المرة كان هناك تغضن عميق يشق منتصف جبين المعلم.

ولم يتمالك بطرس نفسه، فقال «يا معلم، لماذا ظل المعمداني يتحدث اليك طوال أيام وليال؟ ماذا قال لك حتى أحزنك هكذا؟ لقد اكفهرَّ وجهك»

أجـــاب يســـوع «أصـــبـــحت أيامـــه مـــعـــدودة. لازمـــوه، جميعكم،وتعمدوا. أما أنا فراحل»

هتف ابن زبدى الأصغر، وهو يتشبث برداء يسوع «الى أين أنت ذاهب يا معلم؟ سنأتي جميعنا معك»

«سأذهب وحدي الى الصحراء، حيث لا حاجة الى رفيق. أنا ذاهب الى هناك لأكلم الرب»

قال بطرس، وغطى وجهه «مع الرب؟ اذن فلن تعود!»

تنهد يسوع وقال «سوف أعود، يجب أن أعود. ان العالم معلَّق من خيط واحد. سوف يعطيني الرب تعليماته، ومن ثم سأعود»

هتفوا جميعاً، هم يتشبثون به لمنعه من الذهاب «متى؟ كم يوماً ستغيب مرة أخرى؟ انظر بأي حال ستتركنا!»

لكن يهوذا وقف بعيداً، صامتاً، وأخذ يرميهم بنظرة احتقار، وغمغم «غنم... غنم... أشكر رب اسرائيل على أنني ذئب»

«سـأعـود حين يشـاء الرب، يا أخـوتي، الوداع. ابقـوا هنا وانتظروني. وحتى ذلك الحين، الى اللقاء!»

وقف الأخوة كالمتحجرين وراقبوا ابتعاده البطيء داخل الصحراء. لم يعد يسير كماكان يفعل في السابق، حين كان بالكاد يلمس الأرض، بل سار بخطى ثقيلة، مهمومة. اقتطع عود قصب ليتكئ عليه، وأخذ يعبر الجسر المقنطر، وتوقف في منتصفه ونظر الى أسفل، فرأى في كل مكان حوله حجيجاً مغمورين في تيار النهر الموحل، ووجوههم التي لفحتها أشعة الشمس حتى اشتدت سمرتها تشع بالسعادة. وقبالهم على الضفة الأخرى كانوا مايزالون يضربون على صدورهم ويعترفون بذنوبهم للهواء، ينتظرون بعيون متقدة قدوم المعمداني ليشير ببدء دورهم بالغوص في الماء المقدس. وغاص الزاهد الهمجي حتى وركيه في مياه نهر الأردن وأخذ يعمد

الناس جماعات، ومن ثم وبحركة غاضبة، ودون ابداء أي ودّ، دفعهم بعيداً باتجاه الضفة الأخرى لأن أسراباً أخرى منهم تنتظر خلفهم، كانت لحيته السوداء الفاحمة المدببة تلمع تحت أشعة الشمس، وكذا حال شعره الشعث، الذي لم يُقَص قط، وكانت الهتافات المتواصلة تخرج من فمه الواسع الضخم، المفتوح دائماً.

مسح يسوع بعينيه النهر، والناس، والبحر الميت عبر المدى، وجبال الجزيرة العربية، والصحراء،ومال فرأى ظله المتماوج مع تماوج التيار المتجه صوب البحر الميت.

قال في نفسه، ما أجمل الجلوس على حافة النهر ومراقبة المياه تجري تبغي البحر، والأشجار، والطيور، والغيوم، والنجوم في الليل كلها تنعكس فيه وتتدفق بدورها؛ حبذا لو أستطيع أن أتدفق أيضاً بدل أن ينهشني اهتمامي بالعالم.

لكنه انتفض، وطرد عنه الغواية، وابتعد عن الجسر هابطاً بخطى سريعة، مختفياً خلف الصخور الجرداء. وقف ذو اللحية الحمراء على الضفة يراقبه بنظرة ثابتة. رآه يختفي، وخاف أن يهرب، فرفع كُمَّيه وتبعه، وأدركه قبيل أن يلج بحر الرمال اللامتناهي.

ناداه «يا ابن داوود، توقف! لماذا تتركني هكذا؟!»

التفت يسوع، وقال بنبرة توسل «يهوذا، يا أخي، لا تتبعني أكثر يجب أن أكون وحدي»

قال يهوذا، متقدماً «أريد أن أعرف سرك!»

«لا تكن متعجلاً. سوف تعرفه عندما يحين الوقت. ولكن سأقول لك مايلي، يا يهوذا، يا أخي: افرح، فكل شيء يسير سيراً حسناً!»

«لا يكفيني قولك «كل شيء يسير سيراً حسناً». إن جوع الذئب

لا تخفف من وطأته الكلمات. لعلك لا تشعر بذلك، ولكن أنا أشعر به»

«ان كنت تحبني، اصبر. انظر الى الأشجار. أتراها متعجلة لانضاج ثمارها؟»

قال ذو اللحية الحمراء معترضاً، وقد اقترب منه «أنا لست شجرة، انا انسان. والانسان مفطور على الاستعجال. انني أعمل وفق قوانيني الخاصة»

«إن قانون الرب واحد، ينطبق على الأشجار كما على الناس يا يهوذا»

صرَّ ذو اللحية الحمراء بأسنانه، وسأله ساخراً «ماذا يسمى ذاك القانون؟»

«الزمن»

وقف يهوذا ساكناً وشد على قبضته. إنه لا يقبل ذاك القانون، فايقاعه بطيء جداً، في حين ليس لديه لحظة واحدة يضيعها. إن أعماق كيانه متعلقة بقانون آخر، قانونه هو، المناقض لقانون الزمن،.

هتف «الرب يعيش سنين عديدة. إنه سرمدي، لذا يمكنه أن يصبر وينتظر. أما أنا فأقول لك اني بشر، ومفطور على الاستعجال. لا أريد أن أموت قبل أن أرى بعيني مايجول الآن فقط في خلدي - ولا أريد فقط أن أراه، بل وأن ألمسه بيديّ!»

أجابه يسوع، وهو يلوِّح بيده ليهدِّئ من روعه «سوف تراه، سوف تراه وتلمسه يا يهوذا يا أخي - كن مؤمناً. الى اللقاء!. إن الرب بانتظاري في الصحراء»

«سآتي معك»

«الصحراء لا تتسع لاثنين. عد أدراجك»

هرَّ ذو اللحية الحمراء وكشَّر عن أسنانه ككلب القطيع حين يسمع صوت سيده. أخفض رأسه واستدار عائداً وهو يسير بخطى متثاقلة، عابراً الجسر، محدِّثاً نفسه. تذكر حين كان يجوب الجبال مع باراباس ـ باركه الرب! ـ وبقية المتمردين. كم كان جواً مفعماً بالعنف والحرية! وكان رب اسرائيل هو القائد الرائع لمجموعة من السفاحين! إنهم بحاجة الى مثل ذاك القائد. لماذا تراه يتبع هذا المستبصر الذي يخشى الدماء ويهتف «المحبة! المحبة!» كفتاة صغيرة متلهفة؟ ولكن صبراً، يا يهوذا لنر ماذا سيجلب معه من الصحراء!

ولج يسوع الصحراء، وكان كلما تقدم أكثر زاد احساسه بأنه انما يلج عرين أسد. بدأ يرتعش، ليس من الخوف، بل بفعل فرح غامض لم يفهم كنهه. كان سعيداً. لماذا؟ لا تفسير لديه. وفجأة، تذكر، تذكر حلماً كان قد رآه ذات ليلة وهو مايزال طفلاً بالكاد يستطيع الكلام، وكأن ذلك حدث قبل آلاف السنين: كان أقدم حلم يستطيع أن يتذكره. رأى أنه يغذ السير داخل كهف عميق فوجد لبؤة وضعت لتوها وكانت ترضع أشبالها. حين رآها شعر بالجوع والعطش، فاضطجع وأخذ يرضع مع الأشبال. بعد ذلك يبدو أنهم جميعاً خرجوا الى مرج أخضر وراحوا يلعبون تحت أشعة الشمس، ولكن بينما هم يطفرون مرحاً هكذا، اذا بمريم، أمه، تظهر له في الحلم، ورأته وسط الأسود فصرخت. أفاق من نومه ورمى أمه النائمة الى جواره بنظرة غاضبة، وصرخ بها، لماذا أيقظتني ؟ لقد كنت مع أخوتي وأمي!

الآن بتّ أفهم لماذا أنا سعيد، انني ألج كهف الأم، كهف اللبؤة، كهف العزلة...

سمع هسيس أفاع يثير القلق، وصوت الرياح الحارة التي تهب من بين الصخور، وأصوات أرواح الصحراء الخفية.

مال يسوع وتحدث الى روحه «يا روحي، هنا سأعرف ان كنتِ خالدة أم لا»

حين سمع وقع خطى خلفه، أصاخ سمعه، فتناهى اليه صوت سحق رمال. ثمة من يسير باتجاهه، بهدوء، وثبات. قال في نفسه، وهو يرتعش، لقد نسيت أمرها، لكنها لم تنسني. انها قادمة معي، أمي قادمة معي... كان يعلم علم اليقين انها اللعنة، لكنه كان يناديها بأمي منذ وقت طويل.

واصل المسير، وهو يبعد أفكاره عن الأمر. تذكر الجماعة البرية. شعر كأن طائراً وحشياً محبوساً داخله - أم هل هي روح تندفع تبغي الهروب؟ لعلها هربت، لعل الحمامة البرية التي كانت تهدل وتطير فوق رأسه بحركات دائرية طوال فترة تعميده كانت هي روحه، وليست طائراً أو سيرافاً، بل روحه هو.

هذا هو الجواب. وانطلق من جديد، بهدوء. وسمع وقع خطى تسحق الرمال خلفه. لكن قلبه أصبح ثابتاً الآن، وبامكانه أخيراً أن يتحمل كل شيء بكرامة. وقال في نفسه، ان روح الانسان قوية جداً، وبات بامكانها الآن أن تتخذ أي شكل تريد. وفي تلك اللحظة اتخذت شكل طائر وطارت فوقه... ولكن بينما هو يواصل السير بطمأنينة، اذا به فجأة يطلق صرخة ويتوقف. فقد خطر له أنه ربما كانت الحمامة وهماً، طنيناً في أذنه، تدويماً في الهواء - لأنه تذكر كيف ومض، وأنار وكان كامل القدرة، كالروح، وكيف كان يسمع كل مارغب في سماعه؛ ويرى كل مارغب في رؤيته... لقد بنى قصوراً في الهواء وغمغم «يا رب، يا رب، الآن وقد بتنا وحدنا، قل لي الحقيقة، ولا تخدعني. لقد مللت سماع الأصوات في الهواء»

غذ سيره ومعه الشمس التي وصلت أخيراً الى عنان السماء، فوق رأسه مباشرة. كانت قدماه تخترقان بالرمال الملتهبة. استطلع

المكان من حوله بحثاً عن ظل، فلم يجد، وسمع رفرفة أجنحة تحوم فوقه ورأى سرباً من الغربان تندفع نحو حفرة فيها شيء أسود نتن يتفسَّخ.

سد أنفه واقترب، كانت الغربان قد انقضت على جيفة، وغرزت مخالبها فيها، وبدأت تأكل. وحين رأت انساناً يقترب طارت بغضب. وكل منها يحمل بمخالبه مقدار لقمة من اللحم. وشكَّلت في الجو دائرة، وراحت تدعو الدخيل الى الرحيل. مال يسوع فرأى البطن المفتوحة، والجلد الأسود، شبه المسلوخ، والقرنين القصيرين المعقودين بأنشوطة، وخيوط التمائم ملتفَّة حول العنق المتعفِّن.

تمتم وهو يرتعش الماعز الماعز المقدس الذي يحمل آثام الناس. لقد لوحق من قرية الى قرية، ومن جبل الى جبل، وأخيراً وصل الى الصحراء، حيث اختفى»

انحنى وأخذ يحفر في الرمل بيديه أعمق ما استطاع، ثم طمر الجثة.

قال «يا أخي، لقد كنتَ بريئاً ونقياً، ككل حيوان آخر. أما الناس الجبناء فأجبروك على حمل آثامهم، وقتلوك. تعفَّن في سلام؛ لا تحقد عليهم. ان البشر، المساكين الضعفاء، لا يملكون الشجاعة اللازمة ليتحمَّلوا أنفسهم تبعة آثامهم، بل يرمون بها على كاهل من لا اثم له. يا أخي، عوِّضهم عن آثامهم، ووداعاً!»

تابع سيره لكنه بعد بضع لحظات عاد فتوقف، وقد شعر بالانزعاج، ولوح بيده، ونادى «الى الملتقى!»

أخذت الغربان تلاحقه بهياج، فقد حرمها من الجثة اللذيذة وهي الآن تلاحقه، تنتظره كي يختفي بدوره ولكي تنتفخ البطن وتعاود الأكل. بأي حق يسبب لها هذا الظلم؟ ألم يخلق الرب الغربان لتأكل الجثث ؟ يجب أن يدفع الثمن!

أخيراً سيحل الليل. هدَّه التعب، فجلس القرفصاء على صخرة ضخمة ومستديرة كحجر الرحى، وهمهم قائلاً «لن أبتعد أكثر من ذلك. هنا على هذه الصخرة سأقيم حصني وأشن معركتي». انهمرت الظلمة سريعاً من السماء، وتصاعدت من الأرض، وغطت العالم. ومع الظلام جاء الصقيع. اصطكت أسنانه فشدَّ رداءه الأبيض عليه، وتكوَّم على شكل كرة وأغمض عينيه، لكنه بعد أن أغمضهما ازداد خوفه. تذكر الغربان، سمع أبناء آوى الجائعين وقد أخذوا يعوون من كل حدب، وشعر بالصحراء تجوس متحركة من حوله كوحش ضار، فعاد وفتح عينيه من الخوف. كانت السماء قد ترصعت بالنجوم، وشعر بارتياح. لقد خرجت السيرافيمات لتآنس وحدتي، هذا ماقاله لنفسه. انها الأنوار السداسية الأجنحة التي ترتل المزامير حول عرش الرب، لكنها بعيدة جداً، شديدة البعد حتى أننا لا نسمعها... أضاء عقله بنور النجوم، فنسي أمر احساسه بالجوع وبالبرد. هو أيضاً كائنٍ حي، نار للاسترشاد وسط الظلام سريعة الانطفاء؛ هو أيضاً رتَّل المزامير للرب. ان روحه منارة صغيرة، هي شقيقة الملائكة، المسكينة، الرثة الملابس... ثبَّت قلبه حين أخذ يفكر في نسبه الراقي، ورأى أن روحه تقف مع الملائكة حول عرش الرب، بعد ذلك، وبكل سكينة ودون خوف، أغمض عينيه ونام.

حين أفاق رفع وجهه ناحية الشرق فرأى الشمس، وكأنها فرن ينفث وهجاً رهيباً، ترتفع فوق الرمال. فكر، وهو يظلل عينيه بكف يده لكي يتَّقي الانبهار، هذا هو وجه الرب، ثم همس «يا رب، أنا حبة رمل، فهل تراني وأنا وسط هذه الصحراء؟ أنا حبة رمل تتكلم وتتنفس وتحبك ـ تحبك وتناديك يا أبي. انني لا أملك غير سلاح الحب، وبه جئت لأشن معركتي. فأعنّي!»

نهض واقفاً، وبعود القصب رسم دائرة حول الصخرة التي كان نائماً عليها.

قال بصوت عال، لكي تسمعه القوى الخفية الكامنة بانتظاره «لن أغادر أرض هذا البيدر، لن أغادر أرض هذا البيدر حتى أسمع صوت الرب. ولكن يجب أن أسمعه بوضوح، ولن أرضى فقط بالهمهمة أو بالهذر المقلقل المعتاد، أو بقصف الرعد. أريد منه أن يكلمني بوضوح، بكلمات انسانية، وأن يخبرني بما يريده مني وما أستطيع عمله، وما يجب عليَّ عمله. عندئذ فقط سوف أنهض وأغادر هذا البيدر عائداً الى رجالي، اذا أمرني بذلك، أو أموت، اذا شاء ذلك. سوف أفعل كل ما يرغبه، ولكن يجب أن أعرف ماهو باسم الرب!»

ركع على الصخرة ووجهه ميمم نحو الشمس، نحو الصحراء الشاسعة. أغمض عينيه، ولملم أفكاره التي كانت تدور حول الناصرة، ومجدلة، وكفرناحوم، وبئر يعقوب ونهر الأردن. وبدأ يشكلها بتنظيم هجومي. كان يتهيأ للحرب.

ثبَّت عنقه وأغمض عينيه، وغاص في أعماق نفسه. سمع هدير مياه، وحفيف عيدان قصب، وأناساً يندبون. ومن نهر الأردن تناهت موجة بعد موجة من الصراخ، والرعب وآمال رؤيوية نائية. وأول ماعاد الى مخيلته الليالي الثلاث التي أمضاها على الصخرة مع الزاهد المتوحش. فقد انطلقا وهما في كامل عدتهما الى الصحراء ليشنا الحرب لصالحه.

الليلة الأولى انقضَّت عليه من أعلى كانقضاض جراده عملاقة ذات عينين وجناحين وحشية لونها بلون القمح، أنفاسها كأنفاس البحر الميت، وقدكتبت أحرف خضراء غريبة على بطنها. تشبَّثت به، وبدأ جناحاها يمزقان الهواء بعنف. أطلق يسوع صرخة والتفت.

كان المعمداني واقفاً بجواره وذراعه النحيلة تشير في قلب الظلام الدامس باتجاه أورشليم.

«انظر. ماذا ترى؟»

«لاشيء»

«تقول لاشيء؟ أمامك تمثل أورشليم المقدسة، العاهرة. الا تراها؟ انها جالسة على ركبتيّ الروماني السمينتين وتقهقه. والرب يهتف «لا أريدها. أهذه زوجتي؟ لا أريدها!» أنا أيضاً، مثل كلب قابع عند قدمي الرب، أنبح، وأنبح عليها «عاهرة! عاهرة!». ان لها أربع بوابات ضخمة حصينة. عند الأولى يجلس الجوع، وعند الثانية يجلس الخوف، وعند الثالثة يجلس الجور، وعند الرابعة، الشمالية، يجلس الخزي. ادخل، وأجوب شوارعها؛ اقترب من أهلها وأتفحَّصهم. أتأمل وجوههم، فأجد ثلاثة منهم ثقيلين، ضخمين، متخمين،وثلاثة آلاف مهزولين من الجوع. متى يختفي عالم بأكمله؟ ثلاثة من السادة فيه متخمون بالأكل وشعب يَعُدُّ ثلاثة آلاف نسمة يموت من الجوع. انظر الى وجوههم مرة أخرى. ان الخوف يجثم عليهم جميعاً؛ فتحات أنوفهم ترتجف، انهم يشعرون بقدوم يوم الرب. انظر الى النسوة. حتى الأشد شرفاً بينهن تسترق النظرات الى عبدها، وتلعق شفتيها وتومئ اليه : تعال!

«ها أنا أكشف عما بداخل قصورهم. انظر. الملك يحضن زوجة أخيه وهي على ركبته ويداعب جسدها العاري. ماذا يقول الكتاب المقدس؟: «ان من ينظر الى جسد زوجة أخيه العاري ـ فعليه الموت!». ليس هو، الملك السافح، من سيقتل، بل أنا، الزاهد. لماذا ـ لأن يوم الرب قد حان!»

طوال تلك الليلة الأولى ظل يسوع جالساً عند قدميّ المعمداني يراقب الجوع، والخوف، والجور، والخزي داخلين خارجين من

بوابات أورشليم الأربع المفتوحة. وكانت الغيوم تتلبد فوق العاهرة المقدسة محمَّلة بالغضب والبرد.

في الليلة الثانية مد المعمداني مرة أخرى يده الشبيهة بعود قصب بحركة سريعة مخترقاً بها الزمن والمدى. «أنصت. ماذا تسمع؟»

«لاشيء»

«لاشيء! ألا تسمع صوت الاثم، الكلبة التي ارتقت دون أي احساس بالخجل الى السماء وراحت تنبح على باب الرب؟ ألم تتجول في أورشليم فترة كافية، ألم تر الكهنة يعوون، وكبار الكهنة، والكتبة والفريسيين الذين يحيطون بالهيكل ؟ لكن الرب لم يعد يتحمَّل وقاحة أهل الأرض. لقد ثار، وهو ينزل من سفوح الجبال قادماً الينا. أمامه الغضب، ومن خلفه كلاب السماء الثلاثة، النار، والجذام، والجنون. أين هو الهيكل ذو الأنفة، والأعمدة المطعمة بالذهب التي تدعمه، وتنادي: سرمدي! سرمدي! سرمدي! المعبد رماد، والكهنة، وكبار الكهنة، والكتبة، والفريسيون رماد، وتمائمهم المقدسة، وغفاراتهم الحريرية وأقراطهم الذهبية رماد! رماد! رماد! رماد!

«أين هي أورشليم ؟ انني أحمل مصباحاً مضاءاً، وأفتِّش في الجبال وسط ظلام الرب، وأصرخ «أورشليم ! يا أورشليم!»، وحيداً، منبوذاً من الجميع : لا أسمع حتى صوت غراب يجيبني - فالغربان قد أكلت، ورحلت. وغصت بين الجماجم والعظام حتى ركبتيّ، والدموع تترقرق في عينيّ، لكني دفعت العظام بعيداً عن طريقي. ضحكت، وانحنيت وانتقيت أطولها، وصنعت منها ناياً ورحت أعزف لمجد الرب»

طوال الليلة الثانية كان المعمداني يضحك، وقف وسط ظلام الرب وراح يمدح النار، والجذام والجنون. أمسك يسوع بركبة النبي،

وسـأله «ألا يمكن أن يأتي الخـلاص الـى العـالم بواسطة المحـبـة؟ بواسطة المحبة، والفرح، والرحمة؟»

أجـابه المعمـداني، دون أن يلتفت اليـه «ألم تقرأ الـكتاب المقـدس قط؟ ان المخلّص يسـحق عـوراتـنا، ويكسـر أسنـاننا، ويقـذف نـيـراناً على حـقـولـنا ويحـرقـهـا ـ وكل هـذا من أجل أن يبـذر. وهو ينزع الأشـواك، والأعـشـاب العـفـنة، والقـراص. فكيف يمكنك أن تمحـو زيفنـا، وعـارنا وجـورنا عـن وجـه العـالم اذا لـم يسـتـأصل الـكذابين، والظالمين، والجـبناء ـ يجب تنظيف الأرض ـ لا ترثي لها ـ نظّفهـا، أعدها لزراعة بذور جديدة»

ومـرت الليـلة الثانيـة. ولم يفـه يسـوع بكلمـة. كان بانتظار الليلة الثالثة: لعل صوت النبي يرق.

في الليلة الثـالثـة تقلقل المعـمـداني على الـصـخـرة وتقلّب من القلق. ودون أن يضـحك، ودون أن يتكلم، راح يتـأمل يسـوع مـكروباً، وتلّمس ذراعيه ويديه، وكتـفيـه وركبتيه، ثم هـز رأسه ولزم الـصـمت، ينفـخ الهـواء. شـع وجهـه، من ضـيـاء نور النـجـوم، يتـلألأ تارة بـاللون الأخـضـر، وطوراً بالأصـفـر، وجـرى عـرق ممزوج بالـدم من جـبـينه المسفوح بحـرارة الشمس. وأخيـراً، عند انبـلاج النهـار، وحين سـقط عليهما ضياء الفجر، أمسك بيد يسوع، ونظر في عينيه، وعبس.

«حين رأيتك لأول مـرة تبـرز من بين عيدان القصب على ضفاف نهر الأردن وتتقدم نحوي مباشرة، قفز قلبي قفز عجل صغير. أتتخيل كـيـف طفـر قلـب صـمـوئيل حين رأى للمـرة الأولى الراعـي الأمـرد ذا الشعـر الأحمـر داوود؟ هكذا طفر قلبي. لكن القلب من لحـم ولا يعشق الا لحم، وأنا لا أثق به. في الليـلة الفائتة تفحّصتُك، وشمـمتُك وكأني كنت أراك للمـرة الأولى، لكني لم أجـد السـكينة. نظـرت الـى يديك. لم تكونا يديّ قـاطع أخـشـاب، أو مـخلّص. فقـد كانـتـا شـديدتي الرقـة،

تفيضان بالرحمة. فكيف يسعهما أن تضربا بالفأس؟ ونظرت الى عينيك، فلم أجدهما عينيّ مخلّص - انهما مفعمتان بالعطف. فنهضت وتنهدت، وغمغمت، يا رب، أساليبك مبهمة وغامضة، أنت قادر على ارسال حمامة بيضاء لتحرق العالم وتحوله رماداً. اننا نراقب السموات، متوقعين حدوث صواعق، أو هبوط نسر أو غراب - فاذا بك ترسل لنا حمامة بيضاء. مافائدة التساؤل والمقاومة اذن لتكن مشيئتك»، ونشر ذراعيه وعانق يسوع، وقبّله على كتفه الأيمن، ثم على كتفه الأيسر. قال «ان كنت من أنتظره، فانك لم تأت على الصورة التي تخيلتها. أكان عبثاً اذن حملي للفأس ووضعه عند جذور الشجرة؟ أم هل تُحسِن المحبة أيضاً استخدام الفأس؟»، ثم تفكّر قليلاً، وأخيراً تمتم قائلاً «لا أستطيع أن أقرر. سوف أموت دون أن أصل الى نتيجة. لا يهم، هذا هو قدري، وهو قدر قاس - لكنه يعجبني!»، وشد على يد يسوع «اذهب، وحظاً سعيداً. اذهب وكلّم الرب في الصحراء. ولكن أسرع بالعودة، لكي لايبقى العالم وحيداً»

فتح يسوع عينيه. نهر الأردن، والمعمداني والمتعمدون، والجمال والنائحون من الناس - كلهم تبخروا في الهواء وتلاشوا. الآن لم يعد يمتد أمامه غير الصحراء. وكانت الشمس قد ارتفعت عالياً واحتدم لظاها: فالأحجار تطلق بخاراً كأرغفة من الخبز. وشعر بأحشائه تتمزق من شدة الجوع. فغمغم وهو ينظر الى الأحجار «أنا جائع، جائع!»، وتذكر الخبز الذي قدمته له السامرية العجوز. كم كان لذيذاً حلواً كالعسل! وتذكر العسل، والزيتون المشقوق والتمر الذي كان يقدَّم له كلما مرَّ باحدى القرى، والعشاء المقدس الذي تناولوه على ضفاف بحيرة جنيسارت، حيث جلسوا ورفعوا المشواة، بما عليها من شواء السمك الذكي الرائحة، عن منصب النار. وبعد ذلك راودت مخيلته ثمار التين، والعنب والرمان، مما زاد من اثاره جوعه.

جف حلقه وييس من العطش. كم من نهر يتدفق في العالم! وكل تلك المياه تتقافز من صخرة الى صخرة، وتجري من أحد أطراف أرض اسرائيل الى الطرف الآخر، ثم تصب في البحر الميت وتختفي - وليس لديه قطرة ماء واحدة ليشربها! أصابه الدوار، ورفرفت عيناه. برز أمامه من قلب الرمال الملتهبة شيطانان ساكران على صورة أرنبين صغيرين وقفا على قوائمهما الخلفية وراحا يرقصان. والتفتا، فشاهدا هذا الناسك، وزعقا بسعادة وأخذا يقتربان منه قفزاً. ارتقيا ركبتيه ثم قفزا على كتفيه. كان أحدهما بارداً كالماء، والثاني دافئاً ويفوح بالشذى، مثل رغيف خبز، لكنه حين مد يديه تواقاً للامساك بهما، تلاشيا في الهواء بقفزة واحدة.

أغمض عينيه واستجمع أفكاره التي بددها احساسه بالجوع والعطش وخطر الرب على باله، فلم يعد جائعاً ولا ظمآن. وأخذ يفكر في تخليص العالم. آه، ليت بالامكان أن يأتي يوم الرب بمعيّة المحبة وحدها! أليس الرب كليّ القدرة؟ فلم لم يأت بمعجزة وبلمسة واحدة يجعل قلوب البشر تزهر؟ انظر كيف تتفتح في كل عام في عيد الفصح السويقات الجرداء، والمروج والأشواك بلمسة منه. ليت الناس يستيقظون ذات يوم ليجدوا ذواتهم الأعمق وقد أزهرت!

ابتسم. كان العالم في أفكاره قد أزهر : فالملك الخليع قد عُمِّد، وتطهَّرت روحه، وأعاد زوجة أخيه هيروديا س الى زوجها، وفتح كبار الكهان والنبلاء مخازن أغذيتهم وخزائن نفائسهم، ووزعوا الأغذية على الفقراء ؛ فعاد الفقراء من جديد يتنفسون نسيم الحرية وينبذون الحقد والحسد والخوف من قلوبهم... نظر يسوع الى يديه، فوجد أن الفأس الذي سلّمه له السابق قد ازهر : أصبح يستقر في كفه الآن غصن لوز مزهر.

بهذا الشعور المريح انتهى النهار، فتمدد على الصخرة واستغرق

في النوم. وطوال الليل كان يسمع في منامه خرير ماء يجري، وأرانب صغيرة تتراقص وصوت حفيف غريب، وفتحتي أنف رطبتين تتفحصانه. وخيل اليه قرابة منتصف الليل أن ابن آوى جائع اقترب منه وأخذ يشمه. ووقف الحيوان برهة من الوقت يتساءل، أهذه جيفة، أم لا؟ دون أن يستقر على قرار، وأشفق عليه يسوع، في منامه. أراد أن يشق لأجله صدره ويقدمه طعاماً له، لكنه كبح نفسه. انه يحتفظ بلحمه للبشر.

أفاق قبيل بزوغ الفجر. كانت كوكبة هائلة من النجوم تغطي صفحة السماء، والفضاء زغبياً وأزرق اللون. قال في نفسه، ان الديكة تستيقظ في هذه الساعة، والمزارعون استيقظوا، والرجال يفتحون عيونهم وينظرون من خلال الكوة الى التوهج العائد من جديد. ويستيقظ الأولاد بدورهم، ويبدأ الصراخ العالي وتقترب الأمهات ليقدمن لهم أثداءهن... ولبرهة من الزمن يتماوج العالم فوق الصحراء بأناسه ومنازله وديكته وأطفاله وأمهاته - المغزولين كلهم من صقيع الفجر ونسيمه. ولكن سوف ترتفع الشمس الآن وتبتلعهم. أفلتت نبضة من قلب الزاهد. قال في نفسه، ليت بمقدوري أن أجعل هذا الصقيع أبدياً! لكن عقل الرب لاقرارة له، وحبه شفا هاوية مرعبة. انه يزرع عالماً، ويدمره حالما يبدأ بالاثمار، ومن ثم يزرع آخر. وتذكر كلمات المعمداني : «من يدري، فلعل المحبة تحمل فأساً...»

وارتعش جسمه. أرسل بصره في الصحراء. كان احمرارها وحشياً، تتهادى تحت أشعة الشمس التي ارتفعت بغضب، متمنطقة بعاصفة. هبت الرياح، ووصلت الى أنفه رائحة قار وكبريت، وتذكر... سدوم وعمورة - بقصورهما، ومسارحهما، وحاناتهما، وعاهراتهما - وهما غارقتان في القار. وكان ابراهيم قد هتف قائلاً

«الرحمة يا رب، لا تحرقهما. ألست طيباً؟ اذن، فأشفق على مخلوقاتك»، فأجابه الرب قائلاً «أنا عادل، وسأحرقهما معاً!»

أكان ذلك، إذن، هو أسلوب الرب؟ ان كان الأمر كذلك، فصفاقة عظمى من القلب - كتلة الطين الطرية تلك - أن ينهض ويهتف، توقف!... وتساءل، ماهو واجبنا؟ انه أن ننظر الى أسفل، نتقصى آثار أقدام الرب على التراب ومن ثم نتتبعها. وها أنا أنظر الى الأرض، وأرى بجلاء بصمات الرب مطبوعة على سدوم وعمورة. ان البحر الميت كله هو بصمة الرب. وطأ بقدمه، واذا بالقصور، والمسارح، والحانات، وبيوت الدعارة - أو سدوم وعمورة بأكملهما - تغوص وسوف يطأ مرة أخرى، ومرة أخرى ستخفس الأرض جميعاً - بملوكها، وكبار كهنتها، وفيريسيها، وصدوقيها - الى أسفل السافلين.

وبدأ دون وعي منه يصرخ. كان عقله يمور غضباً. حاول أن ينهض وقد نسي أن ركبتيه غير قادرتين على حمله لينطلق في إثر الرب، لكنه انهار منبطحاً على الأرض، مقطوع الأنفاس. رفع ناظريه الى السماء الملتهبة، وصرخ «انني عاجز؛ ألا تراني؟ أنا عاجز، فلم اخترتني؟ لاطاقة لي على الاحتمال!»، وبينما كان يصرخ، رأى كتلة سوداء على الرمال أمامه: انه الماعز، منزوع الأحشاء، وقوائمه مصوبة الى الأعلى.تذكر كيف انحنى فشاهد انعكاس وجهه هو في العينين الكئيبتين، فغمغم قائلاً «أنا الماعز، لقد وضعه الرب في طريقي ليريني من أنا والى أين أنا ذاهب...». وفجأة بدأ يبكي،، وتمتم «لا أريد... لا أريد... لا أريد أن أكون وحيداً. ساعدني!»

وبينما هو كذلك منحنياً يبكي هبَّت نسمة منعشة، وتبددت رائحة القار والجيفة الكريهة وانتشر في الدنيا عبق عطر ذكي،

وسمع الزاهد خرير ماء، ورنين أساور وضحكاً عن بعد وكان يقترب. وأحس بالانتعاش في جفنيه وابطيه وحنجرته. رفع ناظريه فرأى أمامه على صخرة حية لها عينا وصدر امرأة تلعق شفتيها وتحدق اليه. خطا الزاهد الى الخلف، وقد مسّه الرعب. أتلك أفعى، أم امرأة، أم أحد شياطين الصحراء الماكرين؟ مثل هذه الأفعى التفّت حول الشجرة المحرَّمة في الجنة وأغوت الرجل الأول والمرأة الأولى بالاتحاد وببدء الاثم. سمع ضحكاً وصوت امرأة عذباً متملقاً : «انني أرثي لحالك يا ابن مريم. انك تهتف «لا أريد أن أكون وحيداً، ساعدوني!». انني أرث لحالك، وهاقد أتيت. كيف أستطيع مساعدتك؟»

«لا أريدك. أنا لم أنادك. من أنت؟»

«أنا روحك»

هتف يسوع مندهشاً «روحي!»، وأغمض عينيه من شدة الرعب.

«نعم، روحك. أنت تخاف أن تبقى وحيداً. جدك الأكبر آدم انتابه خوف مشابه. هو أيضاً صرخ طالباً المساعدة. فاتحد جسده وروحه وخرجت امرأة من ضلعه لتسلّيه»

«لا أريدك، لا أريدك انني أذكر التفاحة التي أطعمتها لآدم. أذكر الملاك ذا السيف المعقوف!»

«أنت تتذكر، ولهذا تراك متألماً وتصرخ وتعجز عن العثور على طريقك. سوف أريك اياه. أعطني يدك. لا تنظر خلفك، لا تتذكر أي شيء. انظر الى ثدييّ وهما سيقودانك.اتبعهما، يا زوجي. انهما يعرفان الطريق معرفة تامة»

«انك ستقودينني أيضاً الى الاثم اللذيذ والى الجحيم. لن آتي. ان سبيلي سبيل آخر»

قهقهت الأفعى ساخرة، مكشرة عن أنيابها الحادة السامة «تريد أن تقتفي خطى الرب، خطى النسر ـ يا لك من دودة! أنت، يا ابن النجار، تريد أن تحمل آثام البشرية جمعاء! ألا تكفيك آثامك؟ يا لصفاقتك اذ تعتقد أن من واجبك أن تنقذ العالم!»

فكر الزاهد، وهو يرتعش... انها محقة... محقة. أي صفاقة في أن أرغب في انقاذ العالم!

قالت الأفعى بصوت عذب، وعيناها تبرقان «سأفضي اليك بسر يا ابن مريم»، وانزلقت نازلة عن الصخرة كجريان الماء وأخذت تزحف اليه، بزخارفها الغنية، وحين وصلت عند قدميه صعدت الى ركبتيه، وتابعت طريقها الى أعلى بحركة ملتفة وبقفزة واحدة وصلت الى فخذيه، فعورته، فصدره وأخيراً اتكأت على كتفه. أمال الزاهد رأسه مضطراً ليسمعها. لعقت الأفعى أذن يسوع بلسانها، وكان صوتها مغرياً ونائياً: وكأنه قادم من الجليل، من أطراف بحيرة جنيسارت: «انها المجدلية... المجدلية... المجدلية...»

قال يسوع، مرتعشاً «ماذا ؟ ماخطب المجدلية؟»

هسَّت الأفعى بلهجة آمرة «... المجدلية هي التي يجب أن تنقذها! وليس الأرض ـ انسَ أمر الأرض. انها هي، المجدلية، التي يجب انقاذها»

حاول يسوع أن ينفض الأفعى لابعادها عن رأسه، لكنها أقحمت نفسها الى الامام وهزت لسانها في أذنه «ان جسدها جميل، هادئ، وتام الأوصاف. كل الأمم مرت عليه، ولكن كتب عليك في يد الرب ومنذ طفولتك أن تكون هي من نصيبك. خذها. الرب خلق الرجل والمرأة ليتزاوجا، تزاوج المفتاح والقفل. افتحها. ان أطفالك يجلسون رابضين معاً غافين داخلها، ينتظرونك كي تنفض عنهم خدرهم لكي ينهضوا ويخرجوا ويسيروا تحت نور الشمس.

أتسمع ما أقوله لك؟ ارفع ناظريك، أعطني اشارة. فقط أومئ برأسك، يا حبيبي وسأحضر لك الساعة، على فراش وثير - زوجتك»

«زوجتي؟»

«زوجتك. انظر كيف تزوج الرب من العاهرة أورشليم. لقد مرت عليها الأمم كافة لكنه تزوجها ليخلّصها. انظر كيف تزوج النبي هوشع من العاهرة جومر ابنه ديلايم، بالطريقة نفسها يأمرك الرب أن تضاجع مريم المجدلية، زوجتك، لتنجبا أطفالاً وتخلّصها»

هنا ضغطت الأفعى صدرها القاسي، البارد، المستدير على صدر يسوع وراحت تنزلق ببطء، وحركة متمعجه، وتلتف حوله، فشحب لون يسوع،وأغمض عينيه، فرأى جسد المجدلية القوي ذا الردفين العاليين، يتلوى على ضفاف بحيرة جنيسارت، رآها تحدق باتجاه نهر الأردن وتتنهد. ثم مدت يدها - كانت تبحث عنه، وكان حضنها مملوءاً بالأطفال: أطفاله هو. كل ماكان عليه أن يفعله هو أن يطرف بزاوية عينه، أن يتنهد، وعلى الفور تحل السعادة الغامرة! وتتغير حياته، تصبح أحلى، وأكثر انسانية. هذا هو الدرب الصحيح، هذا! سوف يعود الى الناصرة، الى منزل والدته، سوف يتصالح مع أخويه. كان محض حماقة شباب - بل جنون - أن يرغب بتخليص العالم ويموت اكراماً للانسانية. ولكن الفضل يعود للمجدلية، بوركت، في شفائه؛ سوف يعود الى ورشته، وينخرط من جديد في مهنته الحبيبة، سيعود لصناعة المحاريث والمهود، والمعالف؛ سوف ينجب أطفالاً ويصبح كائناً بشرياً، سيد بيت. وسيحترمه الفلاحون ويقفون كلما مرّ بهم. سوف يعمل طوال أيام الأسبوع وفي يوم السبت سوف يتوجه الى الكنيس مرتدياً ثياباً نظيفة نسجتها له زوجته المجدلية من خيوط الكتان والحرير،

ويربط رأسه بمنديل غالي الثمن، ويضع في اصبعه خاتم زواج ذهبي، ويتخذ له مقعداً مع كبار القوم، فيجلس وينصت بسكينة ولا مبالاة للكتبة والفريسين المهتاجين، أنصاف المجانين، وهم يتصببون عرقاً ويرتجفون وهم يؤولون ماجاء في الكتاب المقدس. فيضحك ضحكاً مكبوتاً ويلقي عليهم نظرة عطف. الى ما سينتهي هؤلاء اللاهوتيون؟ لقد كان باتخاذه زوجة، وانجاب الأطفال، وصناعة المحاريث، والمهود والمعالف، انما يعمل على تفسير الكتاب المقدس بهدوء وطمأنينة... فتح عينيه فرأى الصحراء. أين ذهب النهار؟ كانت الشمس قد مالت مرة أخرى نحو الأفق، والأفعى تنتظر وصدرها ملتصق بصدره، تهسُّ بهدوء وبطريقة مغرية. وانسابت عبر أثير المساء تهويدة ناعمة، كئيبة، واهتزت الصحراء برمتها وهوّدت كأنها أم.

هسَّت الأفعى هسّاً مثيراً «انني انتظر... أنتظر... لقد أدركنا الليل... أنا أشعر بالبرد. قرر. أعطني ايماءة، وستفتح لك أبواب الجنة. قرر يا حبيبي. المجدلية تنتظر!...»

شل الخوف الزاهد. وحين أوشك أن يفتح فمه ليقول نعم، شعر بوجود شخص فوقه ينظر اليه. فهزّه الرعب ورفع رأسه فرأى عينين معلّقتين في الهواء، فقط عينين، سوداوين سواد الليل، وحاجبين أبيضين يتحركان ويومئان اليه أن : لا! لا! لا! فانكمش قلب يسوع، ومرة أخرى رفع الى أعلى نظرة توسل، وكأنه يود لو أنه يصرخ قائلاً : دعني وشأني! اسمح لي، ولاتغضب مني! لكن العينين كانتا مملوءتين بالحنق، والحاجبين يهتزان مهدّدين.

صرخ يسوع «لا! لا! لا!»، وطفرت دمعتان كبيرتان من عينيه.

على الفور تلوَّت الأفعى وتراخت عنه ثم أطلقت زعقة مكبوتة وانفجرت، واتخم الهواء برائحة كريهة.

انبطح يسوع على وجهه، فامتلأ فمه، ومنخراه وعيناه بالرمال، وامّحى كل شيء من ذهنه. أخذ يبكي، ونسي أمر جوعه وعطشه - بكى وكأن زوجه وكل أطفاله قد ماتوا، وكأن حياته برمتها قد تحطمت.

تمتم، وهو يعض الرمال «رب، رب، أبت، ألا ترحمني؟ فلتكن مشيئتك : كم من مرة قلت هذا حتى الآن، وكم من مرة سأقوله في المستقبل؟ سأظل طوال حياتي أرتجف، وأقاوم وأقول : فلتكن مشيئتك!»

ظل هكذا، يتمتم ويبتلع الرمال، حتى استغرق في النوم؛ وبينما كانت عينا جسده مغمضتين، كانت عينا روحه مفتوحتين ورأى شبح الأفعى واضحاً كجسد انسان متطاول من أول الليل الى آخره. كانت تمتد على أرض الرمال وفمها الواسع، الأحمر البراق مفتوحاً بجواره، وقبالة هذا الفم قفز طائر حجل منمق، يرتجف، يجاهد عبثاً كي ينشر جناحيه ويهرب. ترنح وهو يتقدم مطلقاً صرخات قصيرة ضعيفة، وقد انتصب ريشه من الفزع. ثبَّتت الأفعى التي لا تبدي حراكاً عينيها عليه، فاغرة فمها. لم تكن على عجلة من أمرها، لأنها كانت واثقة من النيل من فريستها. تقدم طائر الحجل الى الأمام شيئاً فشيئاً متوجهاً مباشرة الى الفم المفتوح، وهو يتعثر بساقيه المعقوفين، ووقف يسوع ساكناً يراقب، ويرتجف مثل طائر الحجل. عند انبلاج النهار كان طائر قد وصل أخيراً الى الفم الفاغر. ارتعش برهة، ثم ألقى نظرة سريعة حوله وكأنه يفتش عن نجدة، وفجأة مد عنقه وأدخل أولاً رأسه، ثم قدميه الاثنتين، وأغلق الفم، واستطاع يسوع أن يرى طائر الحجل، كتلة من الريش واللحم وقدمين بلون الياقوت، يدخل شيئاً فشيئاً الى بطن التنين.

قفز من الرعب. كانت الصحراء كتلة من الأمواج العالية وردية اللون.

كـانـت الشـمـس ترتفـع. تمتم، وهـو يـرتجـف «إنـه الـرب، وطـائـر الحـجل هـو...»

هنا اخـتـفى صـوته، لـم يكن يملك الشـجـاعـة الكافـيـة ليكمل الصـورة المتخيلة. ولكنـه من الداخل كان يقـول :... هـو روح الانسـان. إن طائر الحـجل هـو روح الانسـان!

ظل مستـغـرقاً في خيـالاته سـاعـات طويلة. ارتفـعت عين الشـمس والتهبت الرمال؛ واحترقت قمة رأس يسوع، ونفذت الى داخله وجففت دمـاغـه، وحلقـه وصـدره. وتدلت أحـشـاؤه وكـأنهـا عناقـيـد مـن العنب المتـبقي بعـد قطاف فـصل الخـريف، والتـصق لسـانـه بحنكه، وتشـقق جلده، وبرزت عظامه، وأصبح لون أطراف أصابعه بأكملها أزرق.

صـار الزمن، في داخله، صـغيراً كنبـضة قلب، وكبيـراً كالموت. لم يعـد جـائعـاً ولا ظمـآن، لم يعـد يرغب بالأولاد والـزوجـة. لقـد تـركـزت روحه فـي عينيـه. لقد رأى ـ هذا كل شيء: رأى. ولكن عند منتـصف الظهيـرة عشي بصره؛ تلاشى العالم، وأمـامه تمثّل فم عمـلاق فـاغـر، فكه السفلي هو الأرض، وفكه العلوي السـموات. جرجر نفسـه ببطء وهـو يـرتجـف باتجاه الفم الفاغـر، وعنقه مشـرئب...

تعـاقبت الأيام والليالي كومض لمع أبيض وأسـود. وفي منتـصف ليل أحد الأيام جـاء أسـد ووقف أمـامه، وهـو يهز عـرفه بكبـرياء. كان صـوته أشـبـه بصـوت رجل، وهو يقـول «أهلاً بك في عـريني،، أيهـا الزاهد الظـافـر. انـي أحـيي الـرجل الذي قـهـر الـفضـائل الصـغـرى، والمتع الوضـيـعـة، والسـعـادة! اننـا لا نـحـب مـاهو سـهـل ومـؤكـد؛ ان أنظـارنا مثبـتة على الأشيـاء الصعبة. والمجدلية ليست زوجـة عظيمة بالشكل الذي يناسبنا : نحن نـريـد أن نتزوج من الأرض بأكملها. أيها العـريس، ان الـعـروس تتنهـد، وأضـيـئـت مـصـابيح الـسـمـاوات، ووصل الضيوف : فهيا بنا!»

«من أنت؟»
«أنا ذاتك ـ الأسد الجائع الكامن في قلبك وفي عورتك والذي يجوس ليلاً حول زرائب الغنم، ممالك هذا العالم، ويتردد بين أن يقفز الى الداخل ويأكل أو لا يفعل. انني أنطلق من بابل الى أورشليم، ومن أورشليم الى الاسكندرية، ومن الاسكندرية الى روما، وأهتف أنا جائع، كل شيء ملكي! وعند انبلاج النهار أعود فأدخل صدرك وأنكمش، والأسد الذي يبث الرعب في القلوب يغدو حملاً. انني ألعب دور الزاهد المتواضع الذي لا يرغب في أي شيء، ويبدو قادراً على العيش بحبة قمح، ورشفة ماء، وبرب وديع، لطيف المعشر يحاول أن يتملقه بمناداته يا أبت. لكنني في السر، في قرارة قلبي، أشعر بالخجل، وأغدو عنيفاً وأشتاق لهبوط الليل لأخلع عني لبوس الحمل وأبدأ من جديد بالزئير، وأجوس في الليل وأطأ بقوائمي الأربع أرض بابل، وأورشليم، والاسكندرية وروما ...»
«لا أعرف من أنت. وأنا لم أرغب قط في مملكة هذا العالم. تكفيني مملكة السماء»
«إنها لا تكفي. وأنت تخدع نفسك. يا صديقي، انها لا تكفيك. انك لا تجرؤ على التحديق في أعماقك، في أعماق عورتك وقلبك ـ بحثاً عني... لماذا تنظر اليّ شذراً وتسيء الظن بي؟ أتظن أنني أمثل الغواية، وأنني أتجسس لحساب الشر، وانني أتيت لأضللك؟ أيها الزاهد الأحمق، أي قوة يمكن للغواية الخارجية أن تحظى بها؟ ان الحصن لا يقهر الا من الداخل. أنا أعمق صوت لذاتك الأعمق، أنا الأسد الكامن داخلك. لقد لبست لبوس حمل لتبث الشجاعة في الناس ليقتربوا منك، وبذا تتمكن من التهامهم. تذكر، حين كنت طفلاً صغيراً نظرت عرّافة كلدانية في راحة يدك. وقالت : «أرى نجوماً لا تحصى، وصلباناً كثيرة. سوف تصبح ملكاً». فلماذا تدَّعي

النسيان؟ انه في ذاكرتك ليل نهار. فانهض، يا ابن داوود، وادخل مملكتك!»

أنصت يسوع وهو مطرق، وشيئاً فشيئاً أخذ يتعرف على الصوت، وشيئاً فشيئاً تذكر انه سمعه في وقت ما في أحلامه وسمعه مرة حين كان طفلاً بعد أن جلده يهوذا، ومرة أخرى بعد أن غادر منزله وراح يجول في الحقول لأيام وليال طوال، يقرصه الجوع، ثم عاد مخذولاً الى البيت، ليستقبله أخواه، سمعان الأعرج ويعقوب الورع، بصيحات السخرية وهما يسدان عليه الباب. ثم، الحق يقال، سمع زئير الأسد داخله... منذ وقت قريب، حين حمل الصليب لصلب الزيلوت ومرّ أمام الحشد العاصف، وراح الجميع يرمونه بنظرات الاشمئزاز ويبتعدون عن طريقه، مرة أخرى قفز الأسد داخله بقوة كبيرة حتى انه انطرح أرضاً.

والآن، وسط قلب الليل الموحش هذا ـ انظر! هاهو الأسد الزائر، الذي كان كامناً داخله قد خرج ووقف قبالته. حك نفسه به، واختفى ثم عاد فظهر، وكأنه يلج فيه ومن ثم يخرج منه، ويربت عليه بذيله عابثاً... شعر يسوع بقلبه يزداد عنفاً أكثر فأكثر. وقال في نفسه، ان الأسد على حق تماماً. لقد سئمت كل هذا. سئمت كوني جائعاً، ورغبتي في أن ألعب لعبة المذلّة، وتقديم خدي الآخر ليصفع. سئمت تملّق هذا الرب الآكل للبشر. بمناداته أبت لأتزلّف له فيترفّق بي، سئمت سماع أخويّ يلعنانني، وأمي تبكي، والرجال يضحكون مني لدى مروري بهم، سئمت السير حافي القدمين، وعجزي عن شراء العسل، والخمر والنسوة اللواتي أشاهدهن لدى مروري بالسوق، وكوني لا أجد الشجاعة الا في منامي لأطلب من الرب أن يزوّدني بهم، لأتذوق الهواء الخاوي وأعانقه! سئمت كل شيء! سوف أنهض، وأتمنطق بسيف الأسلاف ـ ألست ابن داوود؟ ـ

وأدخل مملكتي! إن الأسد محق، كفاني أفكاراً وأوهاماً وممالك سماوية. الحجارة والتراب واللحم ـ تلك هي مملكتي!

نهض واقفاً. وبشكل ما وجد القدرة على القفز والتمنطق، التمنطق الى الأبد بسيف خفي، وزأر كالأسد، انه مستعد. وصرخ «الى الأمام!»، والتفت لكن الأسد كان قد اختفى. وسمع ضحكاً يتردد من فوقه وصوتاً يقول «انظر!». وشق قلب الليل ومض برق فجمد في مكانه لا يتحرك. وتحته كانت مدن وأسوار وأبراج، وبيوت، وطرق، وساحات، وأناس، وتحف بكل هذا سهول، وجبال، وبحر. كانت بابل تقع الى اليمين، وأورشليم والاسكندرية الى اليسار، وعبر البحر كانت روما. ومرة أخرى سمع من يقول: «انظر!»

رفع يسوع ناظريه، فرأى ملاكاً بجناحين أصفرين يهبط باندفاع انقضاضي من السماء. وسمع عويلاً: كان الناس في الممالك الأربع يرفعون أذرعهم الى السماء، لكن أيديهم كانت قد تساقطت من أماكنها بعد أن تآكلت بسبب الجذام. وكانوا يباعدون مابين شفاههم يريدون أن يصرخوا «ساعدونا!»، لكن شفاههم سقطت، نهشها الجذام. وكانت الطرقات مملوءة بالأيدي والأنوف والأفواه.

بينما كان يسوع يصرخ رافعاً ذراعيه الى أعلى «الرحمة، يا رب، ارأف بالبشر!» انقضَّ ملاك آخر، بجناحين أرقطين، تحيط بقدميه وعنقه أجراس، هابطاً من السماء. وعلى الفور ضجت في أرجاء الأرض كلها أصوات ضحكات وقهقهات: كان المجذومون الذين ضربهم الجنون يتراكضون شذر مذر. وما تبقّى من أجسادهم كان ينفجر في نوبات من الضحك.

سدَّ يسوع أذنيه وهو يرتجف لكي لا يسمع. ثم انقضَّ ملاك ثالث، أحمر الجناحين، كالشهاب من السماء. وتفجرت أربع نوافير من نار، وأربعة أعمدة من الدخان، وخبت النجوم من ندرة الهواء.

هب نسيم رقيق، مبدداً الأدخنة. أمعن يسوع النظر، فألفى أن الممالك الأربع قد أضحت أربع حفنات من الرماد.

مرة أخرى تردد الصوت قائلاً : «هذه، أيها البائس، هي ممالك هذا العالم التي تسعى لامتلاكها، وأولئك هم ملائكتي الثلاثة الأحباء : الجذام، والجنون، والنار. لقد حان يوم الرب - يومي، خاصتي!»، ومع قصف الرعد الأخير هذا اختفى البرق.

وجد الفجر يسوع منبطحاً ووجهه غائص في الرمال. لابد انه أثناء الليل تدحرج عن الصخرة وأخذ يبكي ويبكي، لأن عينيه كانتا متورمتين وتؤلمانه. نظر فيما حوله. أيمكن أن تكون هذه الرمال اللامتناهية هي روحه؟ كانت الصحراء تتبدل، تدب فيها الحياة. سمع صراخاً حاداً، وضحكات ساخرة، وبكاءاً. وثمة حيوانات صغيرة تشبه الأرانب، والسناجب، وأبناء عرس، وكلها ذات عين بلون أحمر ياقوتي، تتقدم منه قفزاً. قال في نفسه، انه جنون، جنون، جاء ليفترسني. أطلق صرخة، فاختفت الحيوانات، ومثل أمامه شامخاً ملاك مهيب يتدلى من عنقه هلال ويشع من بين حاجبيه نجم مبتهج، ونشر جناحيه الأخضرين.

ظلل يسوع عينيه درءاً للنور المبهر، وهمس «ملاك مهيب»

طوى الملاك المهيب جناحيه وابتسم. قال« ألم تعرفني؟ ألا تذكرني؟»

«لا، لا! من أنت؟ ابتعد قليلاً أيها الملاك المهيب. إن نورك يعميني»

«ألا تذكر حين كنت طفلاً غير قادر على المشي، كيف تمسكت بباب منزلكم وبملابس أمك حتى لا تقع، وصرخت من داخلك، صرخت بصوت عال «رب، اجعلني رباً! رب، اجعلني رباً! رب، اجعلني رباً!»

«لا تذكّرني بكفري المشين ذاك. انني لا أزال أذكره!»

«انني أنا ذاك الصوت الداخلي. أنا الذي صرخ عندئذ، ولا أزال أصرخ، لكنك خائف وتتظاهر بأنك لا تسمع. أما الآن فستنصت اليَّ، شئت أم أبيت. لقد حانت الساعة. لقد اخترتك حتى من قبل أن تولد - أنت، من بين كل البشر. انني أعمل وأومض داخلك، وأمنعك من السقوط في الفضائل الثانوية، والمتع الصغيرة، في السعادة. انظر كيف عملت الآن على ابعاد المرأة التي جاءت الى الصحراء حيث جلبتك. كم من مملكة قامت، ثم أقصيتها. هذا من فعلي أنا، لا أنت. انني أدَّخرك لمصير أهم بكثير، وأصعب»

«أكثر أهمية... وصعوبة...؟»

«إلام كنت تصبو وأنت صغير؟ الى أن تكون رباً. وهذا ماستكونه!»

«لا تكمش، لا تئن. هذا ما ستكونه، هذا ما أصبحته فعلاً. ماهي باعتقادك الكلمات التي ألقتها عليك اليمامة البرية في نهر الأردن؟»

«قل لي! قل لي!»

«أنت ابني، أنت ابني الوحيد!» هذه هي الرسالة التي حملتها اليك اليمامة البرية. لكنها لم تكن يمامة برية، بل كان جبرائيل الملاك الجليل. لذا فأنا أحييك. يا ابن الرب، ابنه الوحيد!»

خفق جناحان داخل صدر يسوع، وشعر بنجم صباحي كبير، متمرد، يتلظى بين حاجبيه. وتصاعدت صرخة داخله: لست انساناً، ولا ملاكاً، ولا عبدك، يا أدوناي - أنا ابنك. سوف أتربَّع على عرشك لأحاسب الأحياء والموتى. سوف أحمل بيدي اليمنى كوكباً - هو العالم - وألهو به. فافسح لي مكاناً لأجلس!

سمع يسوع جلجلة ضحك في الهواء، فأجفل. كان الملاك قد

اختفى. أطلق صرخة ثاقبة «ابليس!» وسقط منكبًّاً على وجهه على الرمال.

قال صوت ساخراً «سأراك ثانية. سنتقابل من جديد ذات يوم ـ قريباً!»

ولول يسوع، ورأسه مطمور في الرمال «أبداً، أبداً، أيها الشيطان!»

ردد الصوت «قريباً! في عيد الفصح، أيها البائس التعس!»

أخذ يسوع ينتحب، وانهمرت دموعه سخية على الرمال، تغسل روحه، وتشطفها، وتطهرها. وقرابة المساء هبت نسائم منعشة، ورقّت أشعة الشمس وصبغت الجبال النائية باللون القرنفلي. ثم سمع يسوع صوتاً رحيماً يأمره، وشعر بيد خفية تلمس كتفه.

«انهض، فقد حان يوم الرب. أسرع واحمل الرسالة الى البشرية منادياً: «أنا قادم!»

الفصل الثامن عشر

ما أسرع ماقطع الصحراء، ووصل الى البحر الميت ودار حوله ومرة أخرى وطأ أرضاً محروثة وتنشّق هواءاً مشبعاً بعرق الرجال! كان يسير مستعيناً بعصا ـ والا فمن أين كان سيستمد العون؟ كانت هناك يدان خفيتان ترفعانه من تحت ابطيه. تلبّدت الغيمة الرقيقة التي تشكلت فوق الصحراء، واسودّت، واحتلّت صفحة السماء. ثم قصف الرعد، وتبعته القطرات الأولى من المطر. أظلمت الأرض، وامّحت الدروب،وفجأة تدفقت شلالات السماء. جمع يسوع كفّيه معاً، فامتلأا بالماء، وشرب. توقف برهة، يتساءل في أي طريق يسير. شق البرق الفضاء، وأضيء وجه الأرض لبرهة من الزمن بلون أصفر مزرقّ خفيف، ومن جديد عاد فجأة فغرق في الظلمة. أي طريق تؤدي الى أورشليم، وأيها يوصل الى يوحنا المعمداني؟ وماذا عن رفاقه الذين ينتظرونه بين عيدان القصب في النهر؟ همس «الرب ينيرني، يرسل صاعقة، يبين لي طريقي؟» وبينما كان يتكلم شق وميض الفضاء أمامه مباشرة. لقد أرسل له الرب اشارة، فتابع سيره بخطى واثقة في الاتجاه الذي عُيِّن له.

كانت تمطر مدراراً. تدفقت مياه السماء الذكرية وامتزجت مع ميـاه الأنهـار والبـحـيـرة، الميـاه الأنثـوية للأرض. اتحـدت الأرض والسماء والمطر، وراحت تلحق به، توجهه نحو البشرية. أخذ يخوض في الطين، فيـشتبك في الجذور والأغصـان، ويعبـر الحفـر. وعلى سطوع ومض البرق رأى شجيرة رمان مثقلة بثمارها. قطف رمانة: فـامتـلأت يده بحـبـات اليـاقـوت، وترطّب حلقـه. وقطف أخـرى، فأخرى؛ أكل، وبارك اليد التي زرعت الشجرة. وعاد ينطلق بطاقة جديدة ويسير ويسير. الدنيا ظلام. هل الوقت نهار؟ أم ليل؟ ثقلت قـدمـاه بالطين، وأحس بأنه يرفع الأرض برمـتـهـا مع كل خطوة. وفجأة وعلى هدى ومض البرق رأى أمامه قرية صغيرة جاثمة في أعلى أحد التلال. أشعل البرق المنازل البيضاء، ثم عاد فأطفأها. وطفر قلبه فرحاً. ان الناس يجلسون في تلك المنازل - أخوة. ورغب في أن يلمس يداً انسانية، أن يتنفس أنفاساً انسانية،أن يأكل خبزاً، وأن يشرب خمراً، ويتحدث. منذ زمن وهو يتوق الى العزلة، جاب الحقول والجبال، تحدث مع الطيور، والطرائد، لا يرغب في ملاقاة البشر! أما الآن، يا حبذا لو يتاح له أن يلمس يداً انسانية.

حث خطاه صاعداً المرتقى المرصوف بالحصى. وقد وجد القدرة لفعل ذلك، لأنه الآن بات يعرف وجهته، المكان الذي سيفضي اليـه الدرب الذي بيّنه له الرب. أثناء صعوده ترقـقت السـحب وظهرت بقعة من السماء، وبانت الشمس قبيل غروبها. سمع ديكة القرية تصيح، والكلاب تنبح، والنسوة فوق أسطح منازلهن يتخاطبن بالصياح. وتصاعد دخان أزرق من المداخن. وتمكن من شم رائحة الخشب المحترق.

غمغم وهو يمر بأول منازل القرية ويسمع من داخله حديثاً انسانياً «بوركت ذرية الانسان...»

الحجارة، والمياه، والبيوت كانت تشع ـ لا، لا تشع، بل تضحك. فقد أطفأت الأرض عطشها. لقد أفزع الفيضان الحيوانات والبشر معاً، ولكن السحب أخذت تتبعثر، كاشفة عن سماء زرقاء داكنة والشمس التي كانت قد حُجبت عادت من جديد وجلبت معها الطمأنينة الى العالم. اخترق يسوع، منقوعاً وسعيداً، الأزقة الضيقة التي تقرقر فيها المياه، وظهرت فتاة شابة تجر معزاة كبيرة الضروع لترعاها.

سألها يسوع مبتسماً «ما اسم قريتك؟»

«بيت عنيا»

«وأي باب أطرق لأجد مكاناً أنام فيه؟ أنا غريب هنا»

أجابت الفتاة ضاحكة «أينما وجدت باباً مفتوحاً، ادخل»

أينما وجدت باباً أدخله. قال يسوع في نفسه، أهل هذه القرية شفوقون، مضيافون، ثم تقدم باحثاً عن باب مفتوح. كانت الأزقة قد تحولت الى أنهار صغيرة، لكن الأحجار الأكبر حجماً ارتفعت فوق مستوى الماء، فواصل يسوع تقدمه بالقفز من حجر الى حجر. كانت أبواب المنازل سوداء كالحة جراء المطر،وموصدة. انعطف عند أول زاوية، فوجد باباً صغيراً مقوساً، مصبوغاً بصباغ أزرق، مفتوحاً على آخره. وكانت هناك امرأة شابة، قصيرة ولحيمة، بذقن كثيفة الدهن وشفتين غليظتين، واقفة عند المدخل. وكان يمكن رؤية امرأة شابة أخرى داخل المنزل ذي الاضاءة الباهتة. كانت جالسة على المغزل تنسج وتغني بصوت خافت.

اقترب يسوع، وتوقف عند عتبة *الدار* ثم وضع يده على قلبه اشارة التحية. قال «أنا غريب، جليلي. وأنا جائع وبَرود، ولا مأوى لي، وأنا رجل شريف. اسمحي لي بقضاء الليل عندكم. لقد ألفيت الباب مفتوحاً، فدخلت. اعذريني»

التفتت المرأة الشابة اليه،ويدها ماتزال مملوءة بطعام الدجاج. تأملته من رأسه الى قدميه بهدوء، ثم ابتسمت. قالت «نحن في خدمتك. أهلاً بك. ادخل»

تخلت الناسجة عن المغزل وخرجت الى الفناء. كانت نحيلة العظام، شاحبة، وجدائل شعرها الأسود مربوطة بشكل كعكة على رأسها. كانت عيناها كبيرتين وغائمتين وحزينتين، وتحيط جيدها الرقيق بقلادة من الفيروز كتعويذة ضد اللامَّة. نظرت الى الزائر فاحمرَّت خجلاً. قالت «نحن وحدنا. أخونا اليعازر ليس هنا. خرج الى نهر الأردن ليُعمَّد»

قالت الأخرى «ماهمّ ان كنا وحدنا؟ انه لن يأكلنا. ادخل أيها الرجل الطيب. لا تصغ اليها : انها تخاف من ظلها. سوف ننادي على أهل القرية ليآنسوك،وسيأتي كبار السن ليسألوك من أنت، والى أين أنت ذاهب وعن الأخبار التي تحملها الينا. فادخل أرجوك الى بيتنا المتواضع. ماذا بك؟ أتشعر بالبرد؟»

أجاب يسوع، وهو يعبر العتبة «أنا بُرود، وجائع، ونعسان»

قالت «سوف نعالج الأمور الثلاثة، فلا تخف. والآن أريدك أن تعرف أن اسمي هو مرثا، وهذه أختي مريم. ما اسمك أنت؟»

«يسوع الناصري»

قالت مرثا ضاحكة، لتضايقه «وهل أنت صالح حقاً؟»

أجابها يسوع، وعلى وجهه سيماء قاسية «نعم، صالح. صالح قدر ما أستطيع يا مرثا، يا أختاه»

دخل الكوخ. أشعلت مريم المصباح وعلَّقته في مكانه ليضيء الغرفة وجدرانها النظيفة المبيَّضة. كان هناك صندوقان من خشب السرو المنقوش، وعدة مقاعد بلا ظهر، وعلى طول الجدار مدت على مسطبة طويلة خشبية حشايا ووسائد،ووضع المغزل في أحد

الأركان، وفي الآخر كان هناك جرتان خزفيتان لحفظ الزيتون والزيت، ووضع ابريق من الماء البارد في مكانه على الرف الى يمين المدخل، والى جواره عُلّقت منشفة طويلة من الكتان على مشجب. وكان يملأ المنزل شذا خشب السرو والسفرجل. وفي الخلف كان هناك موقد واسع خامد وأواني الطبخ معلّقة حوله.

«وسأضرم النار لكي تجف. اجلس»، وأحضرت مرثا مقعداً ووضعته أمام الموقد، ثم أسرعت الى فناء الدار وجلبت ملء ذراع من أماليد الكرمة، وأغصان الغار وزندين من خشب الزيتون. جلست القرفصاء وأعدت الضرم على شكل كوخ صغير، وأشعلته.

جلس يسوع رابضاً، واضعاً رأسه بين راحتي يديه، ومرفقيه على ركبتيه، يراقبهما. قال في نفسه، يا لها من طقوس مقدسة أن نعد الحطب ونشعل النار في يوم بارد: ثم يرتفع اللهب وكأنه أخت رحيمة ليدفئك. وتدخل بيتاً غريباً، وأنت جائع وتعب، فترى أختين أخريين لك، غريبتين، فتأتيان وتسهران على راحتك... ترغرغت عيناه بالدمع.

نهضت مرثا، وذهبت الى غرفة المؤونة وجلبت خبزاً وعسلاً ووعاءاً نحاسياً من الخمر، وضعتها عند قدمي الغريب، وقالت «هذا فاتح للشهية. والآن سأضع الوعاء على النار لتتذوق شيئاً ساخناً، وتستعيد قواك. أعتقد أنك قادم من مسافة بعيدة»

أجابها «من أطراف الدنيا» وانكبَّ بلهفة على تناول الخبز،والزيتون والعسل. ما أروعها، وما ألذها! ما أكرم الرب اذ يهبها للبشر! وراح يأكل ويأكل، حامداً الرب.

كانت مريم طوال الوقت واقفة عند حامل المصباح وهي تراقب بصمت النار أولاً، ثم الضيف المفاجئ، ثم اختها التي غمرها الفرح لاستضافتهما رجل في بيتهما واكرامه، وكأنما نبت لها جناحان.

رفع يسوع قدر الخمر ونظر الى المرأتين. قال «يا مرثا ومريم، يا أختيّ. لابد انكما سمعتما عن الفيضان الذي حدث زمن نوح. لقد كان كل الناس آثمين، وهكذا غرق الجميع ماعدا القلة الفاضلة التي ركبت السفينة وأنقذت. يا مرثا ومريم، أقسم لكما انه لو وقع فيضان آخر، ولو كان الأمر بيدي لأدعوكما لركوب السفينة، فسوف أفعل، يا أختيّ، لأنه في هذا المساء وصل الى باب داركما ضيف رث الثياب، غريب، حافي القدمين، فأضرمتما ناراً لأجله فتدفّأ، وقدمتما له خبزاً فأكل حتى شبع، وأحسنتما الكلام معه فهبطت مملكة السماء وسكنت قلبه. سأشرب في صحتكما، يا أختيّ. انني مبتهج لمقابلتكما!»

اقتربت مريم وجلست عند قدميه. قالت وقد علت وجهها حمرة شديدة «لا أكاد أسمع صوتك جيداً، أيها الغريب حدثنا أيضاً»

وضعت مرثا الوعاء على النار، وأعدت المائدة، وسحبت ماءاً بارداً من البئر في الفناء ثم أرسلت صبياً من الجيران ليعلن لعجائز القرية الثلاثة انها ترغب (لو يتلطفون) في أن تدعوهم الى منزلها، لأن زائراً حل عليها وعلى أختها.

كررت مريم، وقد رأت سكوت يسوع «حدثنا أيضاً»

سألها يسوع «ماذا تريدين مني أن أقول يا مريم؟»، ولمس جدائل شعرها الأسود مساً خفيفاً «الصمت مستحب، فهو يقول كل شيء»

«الصمت لا يرضي المرأة. ان النساء، لهفي عليهن، يحتجن الى أكثر من الكلمة الطيبة»

قاطعتها مرثا، وكانت تزود المصباح بالزيت، فقد أوشك كبار القوم على الوصول وسوف ينخرطون مع الزائر في نقاش عميق. قالت «لا تنصت اليها ـحتى الكلمة الطيبة لا ترضي المرأة. حتى

الكلمة الطيبة لا ترضي جنس النساء. المرأة ترغب بسماع زوجها يهز المنزل بوقع خطواته. تريد أن ترضع وليدها حتى يسكن ما يعتلج في صدرها. تريد أشياء مثيرة، أيها اليسوع الجليلي، كثيرة - ولكن ماذا تعرفون أنتم الرجال عن مثل هذه الأمور!»

حاولت أن تضحك فلم تستطع. كانت في الثلاثين من عمرها وغير متزوجة.

خيَّم عليهم الصمت، وهم ينصتون الى النار تلتهم زناد خشب الزيتون وتلعق الوعاء الخزفي الذي كان يغلي. وكانت عيون الأشخاص الثلاثة سارحة في اللهب.

أخيراً تكلمت مريم «ليتك فقط تعرف مايجري في خاطر المرأة وهي جالسة تنسج! لو تعرف لأشفقت عليه، يا يسوع الناصري»

قال يسوع مبتسماً «أنا أعرف. أنا أيضاً كنت امرأة يوماً، في حياة أخرى، وكنت أنسج»

«وبمَ كنت تفكر؟»

«بالرب. لاشيء آخر غير الرب يا مريم. وأنت؟»

لم تجب مريم، لكن صدرها كان يخفق. وسمعت مرثا حديثهما وتنهدت، لكنها أحجمت عن الكلام. وأخيراً لم تعد تقوى على الاحتمال.

قالت، وقد غدا صوتها فجأة أجشاً «لا تخف، فمريم وأنا، وكل النساء غير المتزوجات في العالم، نفكر في الرب. نحمله على ركبنا وكأنه زوج لنا»

أطرق يسوع رأسه ولم يتكلم. رفعت مرثا القدر من النار، وأعد طعام العشاء. وتوجهت الى غرفة المؤونة لكي تحضر صحافاً من الخزف لتقديم الطعام فيها.

قالت مريم همساً، لكي لا تسمعها أختها وهي في غرفة المؤونة

«أريد أن أقول لك شيئاً خطر ببالي ذات مرة بينما كنت أنسج. أنا أيضـاً كنت أفكر في الرب في ذاك اليوم، وتحدثت اليه. قلت «يا رب، اذا ماتنازلت ودخلت بيتنا المتواضع، فسوف تكون سيده، وسنكون ضيوفاً عليك والآن...»، هنا اختنقت كلماتها، وصمتت.

قال يسوع، وهو يميل الى الأمام ليسمع «والآن ماذا؟». وظهرت مرثا مع الصحاف.

همست مريم «لاشيء»، ونهضت.

قالت مرثا «تعالي وكلي. سيصل الكبراء قريباً. لا يجب أن يرونا ونحن نتناول الطعام»

جلس الثلاثة على الأرض. تناول يسوع الخبز، ورفعه عالياً وأخذ يلهج بحمد الرب بحرارة شديدة وتأثر كبير أدهش الأختين فالتفتتا اليه وحدّقتا اليه. وحين وقع بصرهما عليه أصابهما الرعب، لأن وجهه كان يشع والهواء حول رأسه كان متوهجاً ويهتز.

مدّت مريم يدها، وصرخت «رب، أنت السيد ونحن الضيوف ونحن طوع أمرك»

طأطأ يسوع رأسه لكي لا تريان مدى اضطرابه. كانت تلك هي الصرخة الأولى،المرة الأولى التي تتعرف فيها روح عليه.

نهضوا عن المائدة المنخفضة حالما بدأت الظلمة تسد ممر الباب، ثم ظهر رجل عجوز عملاق القامة على العتبة. كانت لحيته تجري كمياه النهر، وعظامه ضخمة، وذراعاه قويتين، وصدره كثيف الشعر ككبش. وكان يمسك بعصا معقوفة أطول منه، ولم يكن يحملها ليتكئ عليها، بل ليضرب بها الآخرين ويحافظ على النظام في القرية.

قالت المرأتان معاً وهما تتحيان باحترام «أهلاً بك في منزلنا المتواضع أيها الأب مَلْكي صادَق»

دخل، فظهر بعده عجوز ثان على العتبة الخالية. هذا الأخير كان نحيلاً، ذا رأس طويل، شبيه برأس حصان ذي فم أدرد. كان اللهب يتطاير من عينيه الصغيرتين، وكان من المستحيل النظر اليه مطولاً. ويقال ان سم الأفعى كامن خلف عينيها، أما خلف عينيّ ذاك الرجل فكانت النار، وخلف النار عقل غريب الأطوار، منحرف التفكير.

انحنت المرأتان له باحترام، ورحبتا به، وولج بدوره الى الداخل. ثم ظهر العجوز الثالث، وكان أعمى، قصيراً، وسميناً كخنزير، كان يمد عصاه الى الأمام، فتقوده عيناها وتقيه من التعثر أثناء المشي. كان طيباً، ويحب القاء النكات، وحين يحكم بين القرويين لم يكن يطاوعه قلبه على انزال العقاب بأي منهم، ويقول «لست الرب. ان كل من يحكم سيُحكَم عليه. حلّوا خلافاتكم، يا أولادي، حتى لا أقع في الحرج في الدار الآخرة.». أحياناً كان يدفع قيمة التعويض من جيبه الخاص، وتارة كان يودع نفسه السجن لينقذ المتعدي. وكان البعض يصفونه بالأحمق،والبعض الآخر بالقديس، أما الأب ملكي صادق فلم يكن يطيق رؤيته ـ ولكن ما حيلته، انه يتعامل مع رجل متحدر من سلالة هارون المهيبة، وهو أكفأ رب بيت في القرية.

قال ملكي صادق، الذي كانت عصاه تصل حتى عوارض السقف «مرثا، أين الغريب الذي نزل بالقرية؟»

برز يسوع من الركن المجاور للمدخنة حيث كان يمكث، صامتاً يراقب تلظي النار.

قال العجوز، وهو يدقق فيه من رأسه وحتى قدميه «أنت؟»

أجاب يسوع «نعم، أنا، وجئت من الناصرة»

غمغم العجوز الثاني، الحقود، بفمه الأدرد «جليلي؟ لا خير يأتي من الناصرة. هذا مايقوله الكتاب المقدس صراحة»

قاطعه العجوز الأعمى «لا تعنِّفه، أيها الأب صموئيل. صحيح أن الجليليين ثرثارون، حمقى، وقرويون أجلاف، لكنهم شرفاء. ان ضيفنا هذا المساء هو رجل شريف، استشف ذلك من صوته»، ثم التفت الى يسوع «أهلاً بك يا ولدي»

سأله ملكي صادق «هل أنت تاجر؟ ماذا تبيع؟»

بينما كان العجائز يتكلمون دخل الرجال المرموقون في القرية - الملاّك المحترمون - لما وجدوا الباب مفتوحاً. كانوا قد علموا بأمر وصول غريب، فارتدوا أفخم ملابسهم وجاءوا ليزجوا الوقت بالترحيب به، والاستعلام عن المكان الذي جاء منه وسماع أقواله. دخلوا وركعوا على الأرض خلف العجائز الثلاثة.

قال يسوع «انني لا أبيع أي شيء. كنت في السابق نجاراً في القرية، لكني تخليت عن عملي، وغادرت منزل أمي وكرَّست نفسي للرب»

قال الرجل الأعمى «أحسنت عملاً بالهروب من العالم، يا ولدي. ولكن احذر، فأنت الآن، أيها المسكين، متورط مع شيطان رجيم هذا الرب الذي ذكرته. فكيف ستفلت منه؟» ثم انفجر ضاحكاً.

لدى سماع ملكي صادق العجوز هذا الكلام أوشك أن ينفجر في نوبة غضب عارم. لكنه لزم الصمت.

قال العجوز الثاني بصوت كالهسيس الساخر «أأنت راهب؟ أتراك أحد أولئك اللاويين؟ أو الزيلوت؟ أم نبي زائف؟»

أجاب يسوع،منزعجاً «لا، لا، يا أبت. لا، لا!»

«ما أنت اذن؟»

كانت نساء القرية قد دخلن الآن متزينات بما لديهن من حلي لكي يرين الغريب ويراهن. هل هو عجوز، أم شاب، ووسيم؟ ماذا

يبيع؟ أم لعله متقدم لطلب يد احدى هاتين الجميلتين،وان كانتا مسنّتين، مرثا أو مريم؟ لقد مرَّ زمن طويل جداً منذ أن عانق أياً منهما رجل : ستفقدان عقليهما، المسكينتان... هيا بنا لنعرف!

جئن متزينات، ووقفن صفاً واحداً خلف الرجال.

ومرة أخرى سأله العجوز الخبيث «ما أنت، اذن؟»

فجأة شعر يسوع ببرودة تسري فيه فمدَّ يديه أمام النار. وتصاعد البخار من ملابسه التي كانت ماتزال رطبة. ظل فترة من الوقت صامتاً، يتفكر. قال في نفسه، هذه فرصة طيبة للافصاح، لحظة طيبة لافشاء الكلمة التي أودعها الرب لديه ولايقاظ الرب الهاجع داخل هؤلاء الرجال والنساء الذين دمروا أنفسهم في السعي وراء اهتمامات تافهة. ويسألونني ماذا أبيع؟ سوف أجيبهم قائلاً : أبيع مملكة السماء، خلاص الروح، والحياة الأبدية. فليخلعوا ملابسهم عن أجسادهم ليشتروا بها هذه اللؤلؤة النفيسة. ألقى نظرة سريعة حوله، فلم ير غير الوجوه على ضوء المصباح وعلى وهج النار : وجوها بشعة، ماكرة، شاخت بفعل الاهتمامات الحقيرة، المهلكة؛ ذبلت من الخوف. أحس بالشفقة عليهم وأراد أن ينهض واقفاً ويتكلم فيهم، لكنه هذا المساء كان مرهقاً جداً. لقد مرت عليه أيام عديدة منذ أن نام تحت سقف منزل مخصص للبشر أو أراح رأسه على وسادة. فاتكأ على جدار المدخنة المدخّن وقد غلبه النعاس، وأغمض عينيه.

تدخلت مريم قائلة، وهي تنظر نظرة توسل الى العجائز «انه تعب أيها السادة، فلا تعذبوه»

دمدم ملكي صادق قائلاً، وهو يتكئ على عصاه، وينهض استعداداً للمغادرة «أنت محقة! محقة تماماً يا مريم. لقد تكلمنا معه وكأننا قضاته، وننسى ـ»، هنا التفت الى العجوز الثاني « ـ لقد

نسيتَ، أيها الأب صموئيل، أن الملائكة كثيراً ما تهبط الى الأرض متخذة هيئة الفقراء، لا يرتدون غير رداء واحد متواضع ولا يمسكون بعصا، أو يحملون كيس نقود أو ينتعلون حذاءاً - مثل هذا الرجل. لذا يستحسن أن نعامل الغريب ونهتم به كما لو كان ملاكاً. وهذا ببساطة تصرف سليم»

عاد العجوز الأعمى يسخر،ويضحك قائلاً «هذا أيضاً ببساطة كلام أحمق. أنا أقول اننا يجب أن نعتبر كل انسان ملاكاً، كل انسان، نعم، حتى العجوز صموئيل!»

استشاط غضب العجوز الحقود، وكاد يفتح فمه، لكنه بعد تفكير غيَّر رأيه. لقد كان الأعمى الحقير ثرياً، وقد يحتاج اليه ذات يوم. من الأفضل التظاهر بالصمم - هذا أيضاً كان ببساطة من قبيل التصرف السليم.

سقط وهج النار الجميل على شعر يسوع ووجهه المتعب وعلى صدره المكشوف، والقى فجأة حزمة من الأشعة الزرقاء على اللحية الجعدة، السوداء الفاحمة»

قالت السيدات احداهن للأخرى خلسة «ما ألذه، بالرغم من فقره. هل لاحظت عيناه انهما أرقّ ما رأيت، أرق حتى من عينيّ زوجي وهو يضمني بين ذراعيه»

فقاطعتها أخرى «لم أر قط مثيلاً لهما في الضراوة. ان الرعب يسكنهما. تشعرين برغبة في التخلي عن كل شيء واللجوء الى التلال»

«وهل رأيت مرثا وهي تلتهمه بعينيها، يا عزيزتي؟ مسكينة، سوف تجن هذا المساء»

وقالت سيدة أخرى «لكنه يسترق النظر الى مريم. وهذا المساء سوف تحسم الفتاتان الأمر بينهما، وسترين. أنا جارتهما، وسأسمع زعيقهما»

أصـدر ملكي صـادق أمـره قـائلاً «هيـا بنا، لقـد أضـعنـا وقـتنا بتحملنا مشقة المجيء الى هنا. لقد غلب النعاس الزائر. انهضوا، أيها العجائز، وهيا بنا!»، وأخذ يشق طريقه بين الرجال والنساء مستعيناً بعصاه ليتمكن من المرور.

ولكن ما إن وصل الى الباب حتى سمع وقع خطى مستعجلة في الفناء، ثم اندفع الى الداخل رجل يعلو سحنته الشحوب، ثم انهار كتلة واحدة أمام موقد النار، وقد انقطعت أنفاسه. فهرعت الأختان اليه وعانقتاه.

هتفتا «أخي، ماذا حدث لك؟ من الذي يطاردك؟»

توقف ملكي صادق ولمس الوافد الجديد بعصاه. قال «اليعازر، يا ابن مناحيم، ان كان لديك نبأ غير سار فلتغادر النسوة المكان ويبقى الرجال، حتى نسمعه»

هتف اليعازر بنفس واحد «قبض الملك على يوحنا المعمداني وقطع رأسه!»

ثم نهض واقفاً وهو يرتجف. كان مريضاً باليرقان، لونه بلون التربة، ووجنتاه مترهلتين أشبه بيقطينتين، وكانت عيناه ذاتي اللون الأخضر الفاتح تلمعان أمام النار مثل عيني قطة برية.

قال العجوز الأعمى بسعادة «أمسيتنا لم تذهب هباءاً. ففي الفترة الممتدة من الصباح الباكر وحتى الآن، ونحن نوشك أن نذهب للنوم، على الأقل حدث شيء أخيراً : العالم تحرك. فلنجلس اذن وننصت، أحب سماع الأخبار، حتى وان كانت مقبضة»

ثم مال على اليعازر، وقال «تكلم، من فضلك، أيها الرجل الطيب. حدثنا متى وقع هذا الأمر المريع. وكيف ولماذا. رتب أفكارك ولا تتعجل ـ ان ذلك سيزجي وقتنا. احبسوا أنفاسكم... نحن منصتون»

كان يسوع قد نهض مجفلاً، وأخذ ينظر الى اليعازر وشفتاه ترتجفان. هذه اشارة جديدة أرسلها الرب. لقد غادر السابق العالم، ولم تعد ثمة حاجة به. لقد مهَّد السبيل ورحل، وأدَّى واجبه. قال يسوع وهو يرتعد، لقد حانت ساعتي... حانت ساعتي. لكنه لزم الصمت، وتسمَّرت عيناه على شفتي اليعازر ذاتي اللون الأخضر الفاتح.

دمدم العجوز ملكي صادق قائلاً، وهو يدق الأرض غاضباً بعصاه بقوة «اذن فقد قتله؟ يا لها من حالة وصلنا اليها، بتنا نرى الفاسقين سفاحي المحارم يقتلون القديسين، والمنحلين يقتلون النسَّاك ! انها نهاية العالم!»

استولى الرعب على النساء وأخذن يصرخن، فأشفق العجوز الأعمى عليهن. قال «أنت تبالغ يا ملكي صادق، العالم ثابت القدمين. لا تخشين شيئاً أيتها النسوة»

قال اليعازِر منتحباً، والدموع تجري سخية من عينيه «لقد نُحر عنق العالم، وأُخمد صوت الصحراء. من الذي سيتوجه الى الرب باسمنا نحن الخاطئين؟ لقد يُتِّم العالم!»

قال العجوز الثاني بصوته الهاسّ «لا يجب أن ترفعوا أيديكم في وجه السلطة، مهما فعل أولو الأمر. أغمضوا عيونكم ولا تنظروا - الرب يرى كل شيء. كان على المعمداني أن يلتفت الى شؤونه الخاصة. لقد نال ما يستحق!»

هدر ملكي صادق قائلاً «هل أنتم عبيد؟ أتستطيعون أن تقولوا لي لماذا منحنا الرب أيدي؟ أنا أقول لكم : لكي نرفعها في وجوه الطغاة!»

قال العجوز الأعمى ساخطاً «صمتاً، أيها الآباء، حتى نسمع كيف وقع هذا الحادث الشرير. تكلم يا اليعازر!»

باشــر اليـعـازر بالـقـول «كنت في طريقـي لأتعـمَّـد مع غـيـري من الناس، وكنت آمل أن يحسِّن ذلك صـحتي. وكما تعلمون، فصحتي لم تكن على مـايرام في الفـترة الأخيرة. بل ان حـالتي في الحـقيقة كانت تسير من سيء الى أسوأ. فالدوار ينتابني، وبصري يعشى، وكليتاي -»

قال العـجوز الأعمى هـازئاً «حسن، حسن، نحـن نعرف كل هذا. انتقل الى الأمر الهام!»

«وصلت الى نهـر الأردن ووقفت بالقرب من الجسـر حيث، تجمع الحشد استعداداً للتعميد. فسمعت صراخاً وبكاءاً فقلت لنفسي «انه لاشيء. لعلهم الناس يعترفون بآثامهم ويبكون»، وتقدمت أكثر قليلاً، فماذا أرى غير رجال ونساء منبطحين على وجوههم في طين النهر، يندبون، فسألت «ماذا حدث، يا أخوتي؟ لماذا تبكون؟»

«لقد اغتيل النبي!»

«ومن اغتاله ؟»

«المجرم الآثم - هيرود!»

«كيف، متى؟»

«كان ثمـلاً وكانت ابنة زوجته الشـائنة سـالومه ترقص أمـامه عارية تماماً. وأطاش جمالها صواب الفاسق العجوز. ثم أجلسها في حضنه وسألها ماذا تريد منه أن يعطيها. أتريد نصف مملكته؟ فقالت لا. مـاذا تريد اذن؟ فقالت رأس يوحنا المعمداني. فقال لها، لكِ ما طلبتِ، وأحضره لها على طبق من فضة»

انهـار اليـعـازر مـرة أخـرى على الأرض، وقـد أرهقـه الكلام. لم يتكلم أحد. بقـبق لهب المصبـاح وخفق وكـاد يخـمـد. نهضت مـرثا واقفة وأعادت ملأه بالزيت، فعاد يشع من جديد.

كرر ملكي صادق العجوز القول بعد صمت طويل «انها نهاية العالم»، وكان طوال الوقت يداعب لحيته بصمت ويتفكر في جور

العالم وخزيه. وكانت كثيراً ما تأتي أخبار من أورشليم تفيد بأن الوثنيين يدنسون الهيكل المقدس. ففي كل صباح يذبح الكهنة ثوراً وحملين كأضحية ليس لرب اسرائيل وانما للامبراطور الروماني الكافر، اللعين. ويفتح الأثرياء أبوابهم في الصباح ليجدوا أناساً ماتوا عند عتبات منازلهم جوعاً أثناء الليل، فيرفعون أطراف أثوابهم الحريرية ويتخطون الجثث ليذهبوا ويستعرضوا أنفسهم في الممرات المقنطرة المحيطة بالهيكل... تفكّر ملكي صادق في كل ماجال في خاطره، ثم وصل الى قرار : انها دون شك نهاية العالم.

التفت الى يسوع، وقال «وأنت، ماذا لديك تقوله حول هذا كله؟»

أجاب يسوع بصوت أصبح فجأة أعمق بكثير حتى أن الجميع التفتوا اليه وحدقوا اليه «لقد جئت من الصحراء وهناك رأيتهم. نعم، ثلاثة من الملائكة غادروا السموات ليحلوا على الأرض. رأيتهم بعينيّ، ظاهرين عند أطراف السماء. انهم قادمون. الأول هو الجذام، والثاني الجنون، والثالث، أشدهم رحمة، النار. وسمعت صوتاً يقول «يا ابن النجار، ابن سفينة، وضع فيها أكبر عدد ممكن من البشر الفاضلين، ولكن أسرع!». ان يوم الرب جاء ـ يومي أنا. أنا قادم!»

انكمش العجائز الثلاثة، أما البقية فنهضوا من مجلسهم القرفصاء على الأرض، وأسنانهم تصطك. والتفتت النسوة، اللواتي أصبن بالبكم، نحو الباب بحركة واحدة. وتقدمت مريم ومرثا ووقفتا بجوار يسوع، وكأنهما تلتمسان حمايته. ألم يقسم بأن يأخذهما في سفينته؟ وهاقد حان الوقت.

جفف العجوز ملكي صادق العرق الذي تفصد من سبلتيه البيضاوين وهتف «الرجل الغريب يقول الحق، الحق! اسمعوا يا

اخوتي هذه المعجزة: عندما استيقظت هذا الصباح، فتحت الكتاب المقدس كعادتي فوقعت على كلمات النبي يوئيل : «اضربوا بالبوق في صهيون صوّتوا في جبل قدسي. ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب. يوم ظلام وقتام... قدَّامه نار تأكل وخلفه لهب يحرق... ومثل الأفراس يركضون، كصريف المركبات على رؤوس الجبال يثبون.كزفير لهيب نار تأكل قشاً... هكذا يحل يوم الرب»[1]. قرأت هذه الرسالة المريعة مرتين أو ثلاث وأخذت أنشدها وأرقص حافي القدمين في فناء داري. ثم انبطحت على وجهي وصرخت «يا رب اذا نويت أن تأتي قريباً فابعث لي اشارة، فيجب أن أستعد. يجب أن أشفق على المساكين، وأفتح خزائن مؤونتي وأدفع ثمن آثامي. أرسل صاعقة، أو صوتاً، أو رجلاً ليحذرني، لأكون على بيِّنة من الوقت المحدد!»

ثم التفت الى يسوع «أنت هي الاشارة.الرب أرسلك، فهل مازال أمامي وقت؟ متى ستفتُح أبواب السموات، يا ولدي؟»

أجابه يسوع «ان كل لحظة تمر يا أبت هي سماء قد تفتح. في كل لحظة يتقدم الجذام، والجنون، والنار، خطوة أخرى. أجنحتهم تكاد تلمس شعري.

كان اليعازر قد فتح عينيه ذاتي اللون الأخضر الفاتح واسعاً، وأخذ يحدق الى يسوع، وتقدم خطوة متعثرة نحوه.

سأله «أيمكن أن تكون أنت يسوع الناصري؟ يقولون انه حين قبض الكافر على الساطور ليقطع به رأس المعمداني، مد النبي يده مشيراً بها الى الصحراء. صرخ «يا يسوع الناصري، غادر الصحراء. عد الى الانسانية، تعال. لا تتخلى عن العالم»، فاذا كنت

---

١ ـ سفر يوئيل : من الاصحاح الثاني.

أنت يسوع الناصري، بوركت الأرض التي تمشي عليها. لقد تطهر منزلي، وأنا عمّدت وشُفيت. ها أنا أخرُّ وأمجِّد قدميك!»

بعد أن قال هذا سجد ليقبِّل قدميّ يسوع اللتين كانتا مثخنتين بالرضوض.

لكن العجوز الماكر صموئيل سرعان ما تمالك نفسه، وكان قد فقد توازنه وتداعى برهة، لكنه أسرع فثبَّت قدمه على الأرض، وقال في نفسه، اننا نجد في أسفار الأنبياء كل ما تلهج به قلوبنا. ففي صفحة يستشيط الرب غضباً على شعبه ويرفع قبضته مهدداً بسحقهم، وفي صفحة أخرى يكون شديد العذوبة، وهكذا نعثر على النبوءة التي توافق مزاجنا المشرق - فلندع القلق جانباً... هز رأسه الشبيه برأس حصان وتكلف ابتسامة وسط لحيته، لكنه لم يقل شيئاً. فليخف الناس كما يشاؤون، الخوف يفيدهم. فبدون الخوف... يزداد الناس عدداً وقوة. ونضيع نحن!

لهذا لزم الصمت وألقى نظرة اشمئزاز على اليعازر الذي كان يمطر قدميّ الزائر ويقول له :

«ان كان الجليليون الذين قابلتهم على ضفاف نهر الأردن هم تلامذتك يا معلم، فقد سلّموني رسالة أوصلها اليك في حال قابلتك، يقولون فيها انهم راحلون، وانهم سينتظرونك في أورشليم، عند بوابة داوود، في حانة سمعان القيرواني. ومن الواضح أن الخوف تملكهم بعد قتل النبي فهربوا بغية الاختباء. لقد بدأ الاضطهاد»

في تلك الأثناء التصقت النسوة بأزواجهن، وكن يحاولن جرَّهم للمغادرة. لقد فهمن كل شيء. وكن يقلن لأنفسهن، هذا الأجنبي له عين أفعى. ينظر اليك فتفقد صوابك. ويتكلم فينهار العالم. هيا بنا نرحل!

أشفق العجوز الأعمى عليهن، فهتف «تشجعن، يا بناتي. ان ما أسمعه لأمور رهيبة، ولكن لا تخفن. كل شيء سيعود بسلام الى نصابه من جديد - وسترين. ان العالم ثابت، أساسه متين وسيظل كذلك مادام الرب موجوداً. لا تصغين الى المبصرين؛ أصغين اليّ أنا، الأعمى، الذي يرى أفضل منكم جميعاً. ان بني اسرائيل خالدون. لقد وقعوا اتفاقية مع الرب : الرب وضع ختمه عليها ووهبنا الأرض كلها. فلا تخفن. كاد الليل ينتصف - هيا بنا الى النوم!» ثم مد عصاه ومشى بخط مستقيم نحو الباب.

العجائز الثلاثة كانوا أول المغادرين. بعدهم خرج بقية الرجال، وأخيراً خرجت النساء - وهكذا خلا المنزل من الناس.

أعدَّت الأختان سريراً للزائر على منصة خشبية. وفتحت مريم صندوقها وأخرجت منه الملاءات الحريرية والكتانية التي كان مقرراً لها أن تستخدمها في ليلة عرسها. وأحضرت مرثا اللحاف الساتان المحشو بالريش وكانت تحتفظ به منذ سنين طويلة لم يمسه أحد، بانتظار الليلة الموعودة التي ستغطيهما فيها مع زوجها. وأحضرت أيضاً أعشاباً معطّرة - كالحبق والنعناع - وحشت بها وسادته حتى عمرت.

قالت مرثا وهي تتنهد «سينام الليلة وكأنه عريس»، وتنهدت مريم بدورها، لكنها لم تقل شيئاً. وغمغمت لنفسها قائلة، أغلق أذنيك يا رب. العالم طيب بالرغم من تنهداتي. نعم، طيب، لكني شديدة الخوف من الوحدة، وهذا الزائر يعجبني كثيراً...

دخلت الأختان الى الغرفة الداخلية الصغيرة واضطجعتا على الفراشين القاسيين. ونام الرجلان على المنصة الخشبية، كل من جهة، وتلامست أقدامهما. كان اليعازر سعيداً. يا للطهارة والغبطة اللتين تخيمان على المنزل بكامله! كان يتنفس بهدوء، وعمق، وشدَّ

أخمصي قدميه بلطف على الأخمصين المقدسين فشعر بقوة غامضة، بيقين علوي، يتصاعد وينتشر على كامل جسمه. لم تعد كليتاه تؤلمانه، وكف قلبه عن الوجيب، وتدفق دمه بسلام، وطمأنينة من رأسه الى أطراف أصابع قدميه وروى جسمه المريض باليرقان.

قال في نفسه، هذه هي المعمودية الحقة. هذه الليلة عُمِّدنا جميعاً - أنا، والمنزل، وشقيقتاي. لقد مرَّ نهر الأردن من منزلنا.

ولكن هيهات أن يداعب النوم عيون الشقيقتين ! فمنذ سنين عديدة لم ينم رجل غريب تحت سقف منزلهم. كان الزوار غالباً ما ينزلون عند أحد وجهاء القرية، ولا يفكر أحدهم قط بالنزول في كوخهم المتواضع، المنعزل، ثم أن أخاهم المريض، الغريب الأطوار لم يكن اجتماعياً. أما هذه الليلة فأي فرح مفاجئ حل عليهم! كانت فتحات أنفيهما تتحرك تشم الهواء. كم تغيَّر!، كم أصبح عطراً! - ليس بعطر الحبق والنعناع وانما بعبق رجل.

«يقول ان الرب أرسله ليبني سفينة، وقد وعد بأن يستقبلنا فيها. أتسمعين يا مريم، أم أنك نمت؟»

أجابت مريم «لست نائمة». كانت تضم ثدييها براحتيّ كفّيها، فقد كانا يؤلمانها.

تابعت مرثا قائلة «يا رب، فلتحل نهاية العالم سريعاً، حتى نتمكن من الانضمام الى السفينة معه. سوف أخدمه، لا يهمني، وأنت يا مريم ستلازمينه. سوف تبحر السفينة وتبحر الى الأبد، وسوف أخدمه على الدوام، وسوف تجلسين طوال الوقت عند قدميه وتلازمينه. هكذا أتخيل الفردوس. وأنت كذلك، يا مريم؟»

أجابت مريم، وهي تغمض عينيها «نعم»

كانتا تتحدثان وتتنهدان. وفي تلك الأثناء كان يسوع يجلس منتصباً، مع انه مايزال مستغرقاً في النوم. شعر انه لم يكن نائماً

على الاطلاق وانما واقفاً جسداً وروحاً وسط مياه نهر الأردن، ينتعش، وقد تخلص جسده من رمال الصحراء، وتخلصت روحه من فضائل البشرية وشرورها ـ وعاد طاهراً من جديد. وتراءى له وهو نائم انه خرج من مياه نهر الأردن، ثم سلك درباً مكسواً بالعشب لم تطأه قدم ودخل بستاناً كثيف الأشجار ملآن بالأزاهير والثمار. وكأنه لم يعد هو نفسه، يسوع ابن مريم الناصرية، بل آدم أول الخليقة. لقد خرج من بين يدي الرب في تلك اللحظة بالذات ـ ولحمه مايزال طيناً طرياً ـ واضطجع على العشب المزهر ليجف تحت أشعة الشمس ولكي تقوى عظامه، وتسري الحيوية في وجهه، وتتماسك مفاصل جسده والاثنتان والسبعون فيتمكن من الانتصاب والسير. وبينما هو مستلق لينضج تحت الشمس، أخذت الطيور ترفرف بأجنحتها فوق رأسه، وتتنقل من شجرة الى شجرة، وتتنزه على العشب الربيعي وتتسامر فيما بينها، تزقزق، تنظر الى هذا المخلوق الجديد المضطجع على العشب، تتفحصه بفضول ويقول كل منها مالديه ومن ثم يعاود طيرانه، وبما أنه كان ضليعاً بلغتها فقد أبهجه سماعها.

تمشّى الطاووس، الفخور بفرش ريشه، ذهاباً واياباً، وهو يلقي نظرات منحرفة، مغوية على هذا الآدم المتمدد على الأرض، وشرح له وضعه «أنا كنت أصلاً دجاجة، لكني وقعت في حب ملاك فأصبحت طاووساً. هل رأيت قط طائراً أجمل مني؟ مطلقاً!». وتنقل طائر القمرية من شجرة الى شجرة، ورفع حنجرته نحو السماء وصرخ «الحب! الحب! الحب!»، وصرخ طائر السمنه «من بين كل الطيور أنا فقط أغرد وأبقى دافئاً في أشد حالات الجو صقيعاً»، وقال السنونو «لولاي، ما أزهرت الأشجار»، وقال الديك «لولاي ما أشرق الصبح»، وقالت القبرة «عند الفجر حين أنطلق

في السماء لأغرد، أودِّع فراخي لأني لا أعرف ان كنت سأعود بعد أداء غنائي، حية أرزق»، وقال العندليب «لا تنظر اليَّ وأنا على حالي الآن، بملابسي الرثة. أنا أيضاً كان لي جناحان كبيران براقان، لكني حولتهما الى أغنية». ثم جاء شحرور طويل المنقار وتعلق بكتف الانسان الأول، ومال على أذنه وكلمه بصوت خافت، وكأنه يودع لديه سراً عظيماً «بوابتا الجنة والجحيم قريبتان، ومتشابهتان : كلتاهما خضراء، وكلتاهما جميلة. حذار، يا آدم! حذار! حذار!»

عندئذ بالضبط، عند الفجر، ولايزال غناء الشحرور يتردد في أذنه، استيقظ يسوع.

الفصل التاسع عشر

تحدث الأمور العظيمة حين يتَّحد الرب بالانسان. فبدون الانسان لن يكون للرب اهتمام بهذه الأرض بحيث يفكر بمخلوقاته بشكل واضح، ويختبر، بخوف ولكن بصفاقة، قدرته الكليّة الحكيمة. لن تكون به رغبة على هذه الأرض في أن يأسى هموم الآخرين وفي أن يجهد على أن يوجد فضائل واهتمامات، اما لأنه لا يريدها، أو نسيها، أو يخشى أن يصوغها. الا أنه نفخ في روح الانسان واهباً اياه القوة والجرأة لمواصلة الخلق.

انطلق في الصباح الباكر على الطريق الموصلة الى أورشليم. وكان الرب يكتنفه من يمينه ومن يساره، حتى كاد يتمكن من لمسه بمرفقيه. كانا يسيران معاً، يجمع بينهما همّ واحد، فالعالم قد ضل طريقه وبدل أن يرتقي نحو السماء اذا به ينحدر الى الجحيم، وعليهما معاً، الرب وابن الرب، أن يجتهدا كي يعيداه الى جادة الصواب. لهذا كنت ترى يسوع في عجلة من أمره كبيرة. كان يلتهم الطريق بخطوات واسعة، تواقاً للقاء رفاقه وليباشروا مشوار الكفاح. وكانت الشمس، وهي تبزغ من البحر الميت، والطيور التي سقط عليها

الضـوء الجـديد وأخـذت تغـرد، وأوراق الأشـجـار المرتعـشـة، والدرب البيضاء التي امتدت حتى وصلت الى أسوار أورشليم وحملته معها ـ كلها كانت تهتف له «عجِّل ! عجِّل! اننا نفنى!»

أجابها يسوع «أعرف، أعرف، وها أنا قادم!»

في ذاك الصباح نفسه، بعد طلوع الفجر، كان الرفاق ينحدرون بمحاذاة أسوار أورشليم التي كانت أزقتها ماتزال مقفرة؛ لم يسيروا كلهم معاً، بل متفرقين أزواجاً ـ بطرس مع اندراوس، ويعقوب مع يوحنا، ويهوذا وحده يتقدمهم.كانوا يركضون يحدوهم الخوف وهم ينظرون من زوايا عيونهم في كل اتجاه ليروا ان كان ثمة من يتبعهم. ثم ظهرت أمامهم بوابة الحصن التي تحمل اسم داوود. سلكوا أول زقاق متجه يساراً ثم تسللوا الى حانة سمعان القيرواني.

كان صاحب الحان السمين، الأحدب، مايزال نصف نائم بما انه كان قد غادر لتوه فراش القش. وكانت عيناه وأنفه حمراء ومتورمة، لأنه ظل يجرع الخمر مع زبائنه السكارى طوال ساعات الليل، يرفع عقيرته بالغناء، وبالكلام البذئ، ولم يلجأ الى فراشه الا في وقت متأخر جداً. وهاهو الآن متكاسل وعكر المزاج، ينظف منصة البيع، ويمسح عنها آثار القصف. وبالرغم من انه واقف على قدميه الا أنه لم يستيقظ بعد : كان يتهيأ له انه باشر تنظيف طاولة البيع في الحلم بالاسفنجة. ولكن بينما هو يعمل بين النوم واليقظة سمع لهاث رجال يدخلون حانه. التفت، وعيناه ماتزالان تؤلمانه، ويستشعر المرارة في فمه، ولحيته ممتلئة بقشور بذور اليقطين المحمَّصة.

جأر بصوت خشن «اللعنة، من هناك؟ دعوني وحدي! أراكم جئتم باكراً جداً لتأكلوا وتشربوا، هه؟ حسن، لست في مزاج حسن، فارحلوا فوراً!»

لكن صراخه عمل بالتدريج على ايقاظه، وبدأ شيئاً فشيئاً يتعرف على صديقه القديم بطرس وعلى بقية الجليليين، فتقدم وراح يتفحصهم عن قرب، ثم انفجر ضاحكاً. قال «باه، يا لهذه الخُطَم التي أراها! أعيدوا ألسنتكم الى أفواهكم - يا شباب! أمسكوا أزرار بطونكم قبل أن تنفجر من الخوف. يا لكم من مجموعة فخورة، يا أصدقائي الجليليين!

«اكراماً للرب يا سمعان، لا توقظ العالم كله بصراخك». كان هذا جواب بطرس، وهو يضع يده على فم سمعان، وتابع «أغلق الباب. لقد قتل الملك يوحنا المعمداني. ألم تسمع بهذا بعد؟ قطع رأسه ووضعه في طبق»

«أحسن صنعاً بفعلته هذه. لقد أزعجه المعمداني كثيراً بأقواله عن ابنة زوجته، لا يهمني! انه الملك، فليفعل مايشاء. وبعد ذلك بيني وبينكم - لقد أزعجني أنا أيضاً بصراخه «توبوا! توبوا!»، رباه، أنا أريد أن أترك وشأني!»

«لكنهم يقولون انه سيقتل كل من عُمِّد - سيقطع رؤوسهم ونحن مُعمَّدون. ألا تفهم قصدي؟»

«من قال لكم أن تتعمَّدوا أيها البلهاء! تستأهلون!»

وبَّخه بطرس قائلاً «ولكن أنت أيضاً تعمَّدت، يا ابريق الخمر! أنت أخبرتنا بذلك. فما الداعي لتعنيفنا؟»

«الأمر مختلف، أيها الصياد المدَّعي. أنا لم أُعمَّد. اتسمي ذلك تعميداً؟ لقد غصت في الماء بغية السباحة. وكل ما رتَّله النبي الزائف دخل من احدى أذني وخرج من الأخرى، كما يحدث مع كل من يتمتع بحس سليم. أما أنتم، أنتم أيها المغفلون... فتلك الشعوذات تقول لكم انها تستطيع أن تحلب تيساً في منخل، وأنتم أول من يصدقها. تأمركم بالغوص في الماء و - بوف! تغوصون على

الفور وتصابون بذات الرئة. وتأمركم بأن لا تقتلوا براغيثكم في يوم السبت ـ لأنه اثم عظيم، فلا تقتلونها، وتقتلكم هي، ولا تدفعوا ضريبة الرأس، فلا تدفعون، وهوب! يُقطع رأسكم. تستأهلون ! اجلسوا الآن وسنشرب كأساً معاً. أنتم بحاجة الى الثبات وأنا بحاجة للاستيقاظ!»

بدا للعيان برميلان ضخمان أسودان في أعماق الحان. رُسم على أحدهما رسم بالزيت لديك أحمر، وعلى الآخر رسم لخنزير باللونين الأسود والرمادي. ملأ ابريقاً بالخمر من برميل الديك،وجلب ستة كؤوس غمرها في حوض من الماء القذر بغرض تنظيفها. وحين وصلته رائحة الخمر انتعش.

ظهر رجل أعمى على باب الحان. كان يضع عصاه بين ساقيه ويدندن بلحن قديم وهو يسعل سعالاً جافاً ويبصق لينظف حنجرته. كان ذاك هو الياقيم، الذي كان في شبابه حادي جمال، وذات ظهيرة بينما كان يعبر الصحراء شاهد امرأة عارية تغتسل في تجمُّع للمياه تحت شجرة نخيل. وبدل أن يغض بصره، ثبَّت الرجل ناظريهُ على البدوية الجميلة. ويشاء الحظ أن يكون زوجها جالساً القرفصاء خلف صخرة يضرم النار من أجل طبخ الطعام. وحين رأى حادي الجمال يقترب من زوجته ويلتهم عريها بتحديقه، اندفع نحوه حاملاً جمرتين مشتعلتين وأطفأهما في محجري عينيّ منتهك الحرمات. ومنذ ذلك اليوم والياقيم يهيم يرنِّم ويغني. وكان يدور على حانات أورشليم ومنازلها مع عوده، تارة يسبِّح بحمد الرب، وطوراً يتغنى بأجساد النساء العارية. فيتلقى قطعة خبز يابس، أو حفنة من التمر، أو بضع حبات من الزيتون، ومن ثم يواصل طريقه.

دوزن عوده، وتنحنح،ورفع عقيرته وصدح باتقان نغمي مغنياً مزموره المفضَّل:

ارحمني يا رب، حسب رحمتك.

حسب كثرة رأفتك امح معاصيّ.

في تلك اللحظة ظهر صاحب الحان مع ابريق من الخمر وكؤوس لشرب الخمر. وسمع ترتيل المزمور فاستشاط غضبه، وانفجر قائلاً «كفى! كفى! ما أنت غير شخص آخر جاء ليزعجني. ودائماً ترتّل اللحن ذاته : «ارحمني... ارحمني...»، اذهب الى الجحيم، باه، أكنت أنا الخاطئ؟ أكنت أنا من رفع بصره ليحدق في زوجة رجل آخر أثناء استحمامها؟ لقد وهبنا الرب عيوناً لنبقيها مغمضة ـ ألم تفهم هذا بعد؟ حسن، تستأهل. هيا، أخرج من هنا. اذهب وازعج شخصاً آخر!»

مرة أخرى أمسك الأعمى بعصاه، وحمل عوده تحت ابطه، ورحل دون أن ينطق بكلمة. وردد صاحب الحان الهائج «ارحمني يا رب... ارحمني يا رب...»، لقد كان داوود يرنو بهيام الى زوجات أناس آخرين، وهذا الأبله الكفيف يفعل الشيء نفسه ـ ولا ينالنا نحن الا العذاب..يا رب، أنا لا أريد الا أن أترك وشأني!»

أخيراً ملأ الكؤوس، وشربوا. وأعاد ملء كأسه وجرعه، ثم قال «سأذهب الآن لأضع رأس حمل في الفرن لأجلكم. صنف أول! جديرٌ بأم أن تسرقه من فم وليدها!»، وانطلق الى الفناء حيث يوجد فرنٌ صغير كان قد بناه بنفسه، وجلب أماليد وأغصان الكرمة، وأشعل الفرن، وأدخل فيه المقلاة وعليها رأس الحمل، ثم عاد الى أصحابه. كان تواقاً لشرب الخمر ولتبادل أطراف الحديث.

لكن الأصحاب لم يكونوا في مزاج حسن. فقد تجمعوا حول النار وغمغموا ببعض الكلمات دون حماس، ثم خيم الصمت عليهم من جديد. كانوا وكأنما يسيرون على جمر مشتعل. ونظروا الى الباب، متلهفين للمغادرة. نهض يهوذا واقفاً وذهب ليقف على العتبة، كارهاً منظر هؤلاء الجبناء الذين قلب الاحساس بالخوف كيانهم. انظر كيف

كانوا يركضون، وما أسرع ما وصلوا الى أورشليم عبر نهر الأردن! انظر كيف عَمَدوا، وقلوبهم مخلوعة من الخوف الى الاختباء في هذا الحان المنعزل! وهاهم الآن، يرهفون أسماعهم كالأرانب، يرتجفون ويقفون على أطراف أصابع أقدامهم، استعداداً للفرار... الى الجحيم، أيها الجليليون الشجعان، هذا ماقاله لنفسه، شكراً لك يا رب اسرائيل، لأنك لم تجعلني على صورتهم. أنا ولدت في الصحراء، خلقت من صوان بدوي، وليس من تربة جليلية رخوة. كلكم تملَّقتموه وأسرفتم في اغداقه بالتعهدات والقبلات، في حين أنكم الآن لا تريدون غير أن تلزموا مخابئكم وتقولوا «لا تخذلاني يا قدميَّ!». أما أنا ـ الهمجي، الشيطان، السفاح ـ فلن أتخلى عنه. سوف أنتظر هنا حتى يعود من صحراء الأردن، لأسمع ماالديه ليقوله، وبعد ذلك سأتخذ قراري. لا يهمني أن أختبئ. ثمة شيء واحد يؤرقني، هو معاناة أرض اسرائيل.

سمع من الداخل نقاشاً يدور بأصوات منخفضة، فالتفت :

قال بطرس «رأيي أن نعود الى الجليل حيث الأمان. لا تنسوا بحيرتنا يا شباب» ثم تنهد. وتراءى له قاربه الأخضر يتهادى فوق الأمواج الزرقاء، فامتلأ قلبه بالفخر. تراءت له الحصى، ونبات الدفلى، والشباك المثقلة بالأسماك. ترغرغت عيناه بالدمع، وقال «فلنذهب يا شباب، هيا بنا نذهب!»

قال يعقوب «لقد وعدناه أن ننتظره في هذا الحان، ومن الحق أن نفي بوعدنا»

اقترح بطرس قائلاً «يمكننا أن نتدبر الأمور بأن نكلّف القيرواني باختباره، اذا ماجاء، أن ـ»

اعترض اندراوس «لا،لا! كيف نتخلى عنه في هذه المدينة البربرية؟ سوف ننتظره هنا»

كرر بطرس القول بعناد «أقول اننا يجب أن نعود الى الجليل»

أخذ يوحنا يشد على أيدي الآخرين وأكتافهم، وتوسل اليهم قائلاً «يا اخوتي، تفكّروا في كلمات المعمداني الأخيرة. لقد رفع ذراعيه من فوق سيف السياف وصرخ «يا يسوع الناصري، أترك الصحراء. انني راحل. عُد الى الانسانية، تعال، لا تتخلّ عن العالم!». تلك الكلمات لها مغزى عميق يا أصدقائي. سامحني يا رب اذا نطقت كفراً، ولكن...»

كفَّ قلبه عن الوجيب، فأمسك اندراوس بيده.

«تكلم يا يوحنا. ماهو الهاجس الرهيب الذي لا تجرؤ على الكشف عنه؟»

تلعثم قائلاً «ولكن ان كان معلمنا هو الـ...»

«هو ماذا ؟»

كان صوت يوحنا منخفضاً، لاهثاً، ملؤه الرعب: « ... المسيح!»

سرت الرعشة في الجميع. المسيح! لقد لازموه فترة طويلة جداً، لكن الفكرة لم ترد الى أذهانهم ! في أول الأمر اعتبروه مجرد رجل طيب، قديساً يحضُّ على المحبة في العالم، ثم وجدوا فيه نبياً، ليس عنيفاً كسابقيه من الأنبياء، وانما مرحاً وأليفاً. كان ينزل مملكة السماء الى الأرض. بكلمات أخرى، كان يشيع العدل، أسلوباً في الحياة مريحاً وقانعاً. كان يخاطب رب اسرائيل القديم بـ «أبتِ»، وحالما فعل ذلك رقّت ملامح يهوه الضخم الرقبة، العنيد، وأصبح الجميع أبناءه... أما الآن، ماذا كانت تلك الكلمة التي أفلتت من بين شفتيّ يوحنا؟ - المسيح! بعبارة أخرى : هو سيف داوود، قدرة اسرائيل الكليّة، الحرب! أما هم، مريدوه، فأول التابعين: انهم المجموعة الارستقراطية، أمراء ثانويون وأكابر الناس ملتفّون حول عرشه! وكما أن الملائكة ورؤساء الملائكة يحيطون بالرب في

السماء، كذلك هم، المريدون، حكام وشيوخ على الأرض!

ولمعت عيونهم.

هتف بطرس، وقد علا الاحمرار الشديد وجهه «انني أسحب كلامي، يا شباب. لن أتركه مطلقاً!»

«ولا أنا!»

«ولا أنا!»

«ولا أنا!»

بصق يهوذا بغضب وضرب قبضة يده بعنف على الباب وصرخ بهم «يا لكم من شجعان ملاعين! حين كنتم تعتقدون انه سقيم ضعيف لم تكونوا تقوون على المضي بعيداً. أما الآن وقد شممتم رائحة العظمة، وتقولون «لن أتركه مطلقاً!» فسيأتي يوم تتخلون فيه جميعاً عنه ـ تذكروا كلامي ـ وسأبقى أنا وحدي الذي لا يخونه. يا سمعان القيرواني، كن شاهداً!»

كان صاحب الحان ينصت اليهم، ويضحك ضحكاً مكبوتاً من خلف شاربه المتدلي، وتلاقت عينه مع عين يهوذا، فقال «باه، انظر اليهم! ويقولون انهم يريدون تخليص العالم!»

لكن منخريه اشتمّا رائحة صادرة من الفرن، فصرخ «الرأس يحترق!»، وبقفزة واحدة أصبح في الفناء.

تبادل الصحب الحائرون النظرات.

قال بطرس وهو يربت على جبينه «لهذا، اذن، تجمَّد المعمداني حين رآه»

أخذ الاحساس بالكبر يزداد باضطراد في رؤوسهم.

«وهل رأيتم جميعاً الحمامة التي حامت فوق رأسه أثناء تعميده؟»

«لم تكن تلك حمامة، بل وميض برق»

«لا، لا ـ بل حمامة. وكانت تهدل»

«لم تكن تهدل، بل تتكلم. سمعتها بأذنيّ وهي تقول «قدّوس! قدوس! قدوس!»

قال بطرس، وقد امتلأت عيناه بأجنحة ذهبية «انه الروح القدس. لقد هبط الروح القدس من السماء وتجمدنا جميعاً، الا تذكرون! أردت أن أخطو خطوة واقترب، لكن قدمي شُلّت ـ فكيف كان لي أن أتحرك! وأردت أن أصرخ، لكن شفتي لم تنفرجا. وسكنت الريح، تحولت نباتات القصب، والنهر، والناس، والطيور ـ وكل المخلوقات الى رخام من الخوف. وكانت يد المعمداني هي الشيء الوحيد المتحرك: وببطء، ببطء، عمَّدته»

قال يهوذا غاضباً «أنا لم أر شيئاً ولم أسمع شيئاً. لقد كانت عيونكم وآذانكم سكرى»

عنّفه بطرس «أنت لم ترَ، يا ذا اللحية الحمراء، لأنك لم تكن ترغب بالرؤية»

«وسيادتك، ياذا اللحية القشيّة، رأيت لأنك أردت أن ترى. كانت لديك رغبة قوية في رؤية الروح القدس، فكان أن شاهدت الروح القدس. وزيادة على ذلك، الآن ها أنت تقنع هؤلاء الحمقى *بأنهم رأوه. وعليك أن تتحمل عواقب ذلك*»

ظل يعقوب، حتى ذلك الحين، يقرض أظافر أصابعه، منصتاً، دون أن يقول شيئاً. الا أنه الآن لم يعد قادراً على تمالك نفسه، فقال «مهلاً يا شباب، لا تنفجروا هكذا. هيا، فلنناقش الأمر بتعقّل. أتعتقدون حقاً أن المعمداني قال تلك الكلمات قبيل قطع رأسه؟ ان ذلك يبدو لي مُستَبعداً. أولاً، من منا كان معه وسمعه؟ ثم هناك أمر آخر : حتى لو كان قد قال لنفسه تلك الكلمات، فهو لم يجهر بها قط ـ لأنه كان سيعرف أن الملك سيسمعها، وأنه سيبعث جواسيسه

للبحث عن هذا الرجل، هذا اليسوع القابع في الصحراء، فيقبض عليه ويعمل أيضاً على قطع رأسه. وكما يقول والدي، اثنان واثنان يساوي أربعة، اذن، فلنتجنب فرط الكِبَر»

استشاط بطرس غضباً. قال «اثنان واثنان يساوي أربعة عشر، هذا رأيي، واللعنة! فليقل المنطق وعقولنا ماتشاء. أعطنا شيئاً نشربه يا اندراوس. سوف نغرق عقولنا لنجلو بصيرتنا!»

اندفع رجل طويل القامة وبشع، ذو وجنتين منكمشتين، حافي القدمين، يرتدي قميصاً أبيض، ملتفاً حوله، ويعلِّق عقداً من التمائم من عنقه، اندفع داخلاً الحان ووضع راحة يده على صدره دلالة القاء التحية.

«الوداع يا أصدقائي. أنا راحل، ذاهب الى الرب. فهل لديكم ما تكلفوني به؟»

ودون أن ينتظر جواباً غادر ركضاً، ودخل المنزل المجاور.

في هذه اللحظة ظهر صاحب الحان حاملاً الصحن، وغزا المكان عبق رائحة لذيذة. ووقع بصره على المعتوه المهرول. فنادى عليه قائلاً «أتمنى لك رحلة طيبة، مع أطيب تمنياتنا!... هاكم واحد آخر!»،وضحك «باه، حقاً لقد حانت نهاية العالم : أصبح المهووسون يملأون المكان. هذا يقول انه رأى الرب قبل ليلتين وهو خارج ليتبوَّل. فكيف يتنازل من الآن فصاعداً ويعيش! بل انه يرفض أن يأكل، ويقول «لقد نوديت من السماء، وسأتناول طعامي هناك»، ثم يتدثر بكفنه ويقوم بجولة سريعة على الأبواب كلها. يتقبَّل التفويضات، ويقول وداعاً، ثم يرحل. أترون مايحدث حين تقتربون من الرب خذوا حذركم يا شباب ـ ها أنا أقولها لصالحكم ـ لا تقتربوا كثيراً منه. انني أتعبَّد سموَّه، ولكن عن بعد. ابقوا بعيدين!»

وضع الصحن الذي يحمل رأس الحمل في وسط المائدة. وكان

كل شيء فيه يضحك، شفتاه، وعيناه، وأذناه، ونادى قائلاً:

«رأس طازج! رأس يوحنا المعمداني! كلوا هنيئاً!»

شعر يوحنا بالتقزز وتراجع. واندراوس، الذي كان قد مد يده، أوقفها. كان الرأس، الموضوع على الصحن، ينظر اليهم واحداً واحداً، نظرة مبهمة، بعينيه الجامدتين المفتوحتين واسعاً.

هتف بطرس «سمعان، أيها الوغد لقد أثرت اشمئزازنا وأذهبت شهيتنا! كيف يمكنني الآن أن أخرج العينين؟ كنت أرغب في أن أبدأ بهما لفتح الشهية، لكن ذلك سيبدو وكأنني آكل عينيّ المعمداني»

انفجر صاحب الحان ضاحكاً. قال «لا تقلق يا عزيزي بطرس، سوف أكلمهما أنا - ولكن ليس قبل أن آكل اللسان اللذيذ، بورك! وكان يصرخ «توبوا! توبوا! لقد حانت نهاية العالم!» ولسوء الحظ حانت ساعة المسكين أولاً»

أخرج سكيناً، وقطع اللسان وازدرده بلقمة واحدة، وجرع محتوى كأس كاملة من الخمر، وجلس ينظر الى برميليه باعجاب.

«حسن، فلننس الأمر يا شباب. انني أرثي لكم. سأغيِّر الموضوع لكي تخرج صورة رأس المعمداني من رؤوسكم وتستطيعوا الاستمتاع بتناول رأس الحمل.. حسن، اذن، هل يمكنكم ان تتخيلوا من الذي رسم تلك الدرة التي تمثل الديك والخنزير التي تتأملونها على البرميلين؟ انه مضيفكم الكريم، بيديه هو، بلا فخر. وهل تعرفون لماذا كان رسماً لديك وخنزير؟ وكيف لكم أن تعرفوا، أيها الجليليون البلهاء! ولهذا أنا مضطر أن أحل لكم اللغز وأنير عقولكم المتناهية الصغر!»

نظر بطرس الى الرأس وراح يتلمَّظ بشفتيه، لكنه ظل لا يجرؤ على مد يده لأخذ العينين ليأكلهما. لكن صورة المعمداني كانت تلح

على مخيلته. لقد كانت عينا النبي تجحظان بالطريقة نفسها وهما تتأملان شؤون البشرية.

تابع صاحب الحان كلامه قائلاً « ـ اسمعوا، اذن، وأنيروا بكلامي عقولكم المتاهية في الصغر... بعد أن أنهى الرب خلق العالم (ولا أدري لماذا تجشم هذا المبارك عناء ذلك) وغسل عن يديه الطين، دعا كل المخلوقات الوليدة وسألها باعتزاز «قولوا لي أيها الطيور، والحيوانات،ما رأيكم في الكون الذي خلقته؟ هل ترون فيه أي خلل؟» فأخذ الجميع على الفور بالثغاء، والنهيق، والخوار، والمواء، والسقسقة، قائلين «لاشيء! لاشيء! لاشيء!»

«وقال الرب : «بوركتم بايمانكم بي. أنا أيضاً لا أجد فيه أي خلل. ان يديّ تستحقان التهنئة»، لكنه لاحظ أن الديك والخنزير ظلا مطرقين، لا ينطقان بكلمة، فصرخ الرب «مرحباً أيها الخنزير! وأنت، نيافة الديك، لماذا لا تنطقان؟ أيعقل أن خلقي لا يسركما أم هل ثمة شيء ناقص؟». لكنهما لم ينطقا بكلمة. لاشك بأن الشيطان قد هسَّ بتعليماته في آذانهما قائلاً : «قولا له ان هناك بالفعل شيئاً ناقصاً ـ نبات قصير القامة يثمر عنباً تهرسونه، وتملأون منه براميل فتتحول الى خمر»

«صرخ الرب من جديد: «لماذا لاتنطقان، أيها الحيوانان؟ «رافعاً يده العملاقة. وأخيراً رفع كلاهما (بعد أن نفخ الشيطان فيهما الشجاعة) رأسيهما وقالا : «أيها الرب الماهر، ماذا يسعنا أن نقول؟ تهانينا ليديك، وكونك رائعاً ـ أمسك الخشب! ولكن ينقصه نبات واحداً قصير القامة يثمر عنباً يهرس، ويملأ منه براميل فتتحول الى خمر»

قال الرب في نوبة غضبه «آه، هكذا اذن سأريكما الآن، أيها الوغدان» اذن تريدان مني خمراً، وسكراً، وعربدة وقيئاً؟ فلتكن

الكرمة!»، وشمَّر عن ساعديه وتناول حفنة من طين، ثم جعلها نبات الكرمة، وزرعها. قال «لتنزل لعنتي على كل من يسرف في شرب، وليغدُ عقله كعقل ديك ويصبح أنفه كخطم الخنزير!»

انفجر الصحب ضاحكين، وقد نسوا أمر المعمداني وانهمكوا في التهام الرأس المشوي. وكان يهوذا أوَّلهم جميعاً. كسر الجمجمة الى قسمين، وملأ كفه بمخ الحمل.حين رأى صاحب الحان انه قد سُلِبَ تملَّكه الرعب، فقال في نفسه، لن يتركوا لي عظمة واحدة.

هتف «لابأس عليكم يا شباب، أن تأكلوا وتشربوا، ولكن لا تنسوا المرحوم يوحنا المعمداني. آه، يا لرأسه المسكين!»

جمدت حركة الجميع وحصصهم ماتزال في أيديهم، واختنق بطرس الذي كان قد مضغ العين ويستعد لابتلاعها. من المقزز أن يبتلعها ولكن خسارة أن يبصقها. ماذا يفعل؟ وحده يهوذا من بينهم جميعاً، لم يتأثر. وملأ صاحب الحان الكؤوس.

«فلتبقَ ذكراه طويلاً في بالنا. واحسرتاه! على رأسه المسكين المقطوع... ولكن لنشرب نخبكم يا شباب!»

قال بطرس، وهو يبتلع العين «ونخبك أيها الماكر العجوز»

أجابه صاحب الحان «لا تقلق، انني لست خائفاً البتة. انني أبتعد عن شؤون الرب ولا أبه بأمر تخليص العالم ! أنا صاحب حانة، ولست ملاكاً أو رئيس ملائكة كما تدَّعون سيادتكم. على الأقل انا أنقذت نفسي من ذاك المصير». قال هذا واستولى على ماتبقى من الرأس.

فتح بطرس فمه، لكنه حبس أنفاسه فجأة، فقد ظهر عند عتبة الباب رجل ضخم الجثة، همجي مجدور، وأخذ ينظر الى الداخل. تراجع الأصحاب الى الزاوية. واختبأ بطرس خلف كتفيّ يعقوب العريضين.

جأر يهوذا عابساً «باراباس ! ادخل»

ثنى باراباس رقبته الغليظة وأخذ يتبين المريدين على النور الخفيف. ثم ضحكت تعابير وجهه القبيح ساخرة، وقال «يسعدني أن ألقاكم، يا حملاني. لقد قطعت نصف الطريق الى الصين بحثاً عنكم»

نهض صاحب الحان واقفاً، مبدياً تذمره، وجلب قدحاً، وغمغم: «أنت بالضبط من نحتاج اليه، أيها القبطان باراباس»، وكان يكنّ له ضغينة لأنه في كل مرة يأتي فيها الى حانه يسكر، ويتشاجر مع العابرين من الجنود الرومان، وتقع المصيبة على رأس صاحب الحان. «اياك أن تبدأ بممارسة خدعك القديمة من جديد، أيها الخنزير - الديك!»

«اسمع، طالما أن النجسين يطأون أرض اسرائيل، سأظل أرفع قبضتي في وجوههم، لذا اطرح أية فكرة أخرى من رأسك. هات الطعام، يا جلد الفرس القذر!»

دفع صاحب الحان بالصحن المملوء بالعظام الى الأمام. قال «كُل، فان لك أسنان كأنياب الكلب: تقرض العظام»

جرع باراباس مافي كأسه بجرعة واحدة، وفتل شاربه ثم التفت الى الصحب قائلاً «وأين الراعي الطيب، يا حملاني؟ ثمة حساب قديم أصفيه معه»، وكانت عيناه تقذفان شرراً.

قال له يهوذا بقسوة «لقد سكرت حتى قبل أن تبدأ بالشرب. ومآثرك الباسلة قد سببت لنا حتى الآن مايكفي من الازعاج»

وتجرأ يوحنا على سؤاله «لماذا تتحامل علينا ؟ انه رجل ورع. حين يسير ينظر الى الأرض حتى لا يطأ النمل»

«تقصد حتى لا تطأه نملة. انه خائف. هل هو رجل؟»

وتشجع يعقوب فقال «لقد أنقذ المجدلية من بين أنيابك، وها أنت الآن تبكي على الحليب المراق»

جـأر باراباس، وقـد غطت الـغـشـاوة عـينيـه «لقـد عـارضني، عارضني، وسوف يدفع الثمن!»

قبض عليه يهوذا من ذراعه وتنحى به جانباً، وقال له بصوت خافت، وسريع، وغاضب «ما شأنك في هذا المكان؟ لماذا غادرت جبال الجليل؟ لقد اختارتها المنظمة لتكون مخبأ لك. وثمة آخرون مخصص لهم مكان هنا في أورشليم»

اعترض باراباس حانقاً «هل تحارب من أجل الحرية أم لا؟ اذا كنت تفعل فأنا حر في أن أفعل ما يخطر ببالي. لقد أتيت لأرى بنفسي هذا المعمداني وما يتنبأ به من اشارات ومايقوم به من عجائب عظيمة. وقلت في نفسي، لعله المختار الذي ننتظره. فاذا كان كذلك فليأت دون تأخير، وليستلم القيادة، ويباشر المذبحة. لكني وصلت متأخراً. لقد قطعوا رأسه... يا يهوذا، أنت قائدي - ماذا لديك تقوله؟»

«أقول انهض وارحل. ولا تقحم نفسك في شؤون الناس»

«أرحل؟ أنت جاد؟ لقد أتيت أبغي المعمداني فلقيت ابن النجار. انني الاحقه منذ زمن بعيد، والآن وقد وضعه الرب أمام أنفي مباشرة تقول ان عليَّ أن أدعه وشأنه؟»

أمره يهوذا «ارحل! هذا شأني، ولا تقحم يدك فيه»

«ما غرضك؟ لمعلوماتك، المنظمة تريد قتله. انه جاسوس للرومان: انهم يدفعون له ليهتف بكلام حول مملكة السماء وبذا ينخدع الناس وينسون ما على الأرض ومانحن عليه من عبودية. أما أنت، قل لي... ماهو هدفك؟»

«لاشيء. لدي حساب أصفّيه. إرحل!»

التفت باراباس وألقى نظرة أخيرة على الصحب، الذين كانوا ينصتون ويرهفون أسماعهم. ثم صرخ بهم بخبث «الى الملتقى، يا

حملاني. لا أحد يفلت من باراباس بسهولة. سترون، سنعود من جديد لمناقشة موضوعنا»، ثم اختفى باتجاه بوابة داوود.

غمز صاحب الحان بعينه الى بطرس، وقال له بصوت منخفض «لقد أصدر اليه أوامره. ويسمون هذا أخوّة! هم يقتلون رومانياً واحداً والرومان يقتلون عشرة من الاسرائيليين. ليس عشرة، بل خمسة عشر! فاحذروا يا شباب!»

مال على بطرس وهمس له في أذنه: «اسمع: لا تثق بيهوذا الاسخريوطي. ان ذوي اللحى الحمراء...»

لكنه سكت. فقد كان ذو اللحية الحمراء قد عاد وجلس على مقعده.

اضطرب يوحنا، فنهض ووقف في ممر الباب وراح ينظر الى جهتيّ الطريق. لا أثر للمعلم. لقد طلع النهار، وامتلأت الشوارع بالناس، وكل مايقع بعيداً عن بوابة داوود يبدو منبوذاً: حصى، ورماح، ولا ورقة خضراء تظهر للعين - لاشيء غير أحجار بيضاء منتصبة: شواهد قبور. الهواء يفوح بنتانة جثث الكلاب والجمال. الهمجية الزائدة تخيف يوحنا. كل شيء هنا أصبح كالحجارة: وجوه الناس قُدَّت من الحجر، وقلوبهم متحجرة، والرب الذي يعبدون مصنوع من الحجر. أين هو الآب الرحيم الذي جلبه المعلم لهم! آه، متى سيظهر السيد الحبيب حتى يعودوا الى الجليل!

نهض بطرس. لقد وصلت قدرته على التحمل منتهاها. قال «يا أخوتي، هيا بنا! انه لن يأتي»

همس يوحنا في خوف «انني أسمعه يقترب»

قال يعقوب، ولم يكن يأبه بخيالات أخيه الوهمية «وأين سمعته أيها المستبصر؟» ومثل بطرس كان شديد التوق للعودة الى البحيرة، الى قواربه من جديد «أين سمعته، ألا تقول لي؟»

أجـاب الأخ الأصـغـر «في قلبي، فـهـو أول مـن يسـمـع، وأول من يرى»

هـز يعـقـوب وبطرس أكـتـافـهـمـا لامـبـالاة، لكـن صـاحب الحـان تدخل بحـدة «لا تسـخـر. الفتـى على حق. لقـد سـمـعت أن... انتظر، ذاك الشـيء الذي يقـال له سـفـينة نوح، مـاذا تظن انـه يمثل؟ انه قلب الانسـان طبـعـاً! وداخـله يجلس الـرب مع كل مـخلوقـاتـه. ويغـرق كل شيء ويغـوص الى القاع بينمـا يطفـو وحده فـوق المياه بحـمولتـه. قلب الانسان هذا يعرف كل شـيء ـ نعم لا تضحك ـ كل شـيء!»

دوّت أصـوات الأبواق، وارتفـع الضـجـيـج، وأفـسـح النـاس في الشـوارع السبيل، فانتـابت الـريبة الصـحب واندفعوا الى البـاب. كان هناك صبيـة مراهقـون يتمتعون بالجـمال والرشـاقـة يحملون مِحفّة مـزخـرفـة بالذهب يضـطجع فـيـهـا رجل بدين من الأعـيـان ويداعب لحيته، يرتدي مـلابس من الحرير ويضـع خـواتيم من الذهب ووجهه دهني بفعل العيش الرخيّ.

قـال صـاحب الحـان «انه قـيـافـا، رئيس الكهنة الخليع! سـدوا أنوفكم يا شـبـاب. إن أول جزء ينتن من السـمكة هو رأسـهـا»، وضغط على فـتـحـتي أنفـه وبصق، وتابع «انه في طريقـه من جـديد الى حـديقتـه ليـأكل ويشرب ويعبث مع نسـائه وصـبيـانه المليحين. اللعنة، ليتني كنـت الرب... ان العـالم معلّق من خيط واحـد، وكنت سـأقطع ذاك الخيط ـ نعم وحق خـمـري! ـ كنـت أقطعـه وأترك العـالم يذهب الى الجحيم!»

عـاد بطرس يقول «هيا بنـا نذهب. المكان هنـا غير آمن. إن قلبي له عـيـون وآذان، وهـو يصـرخ بـي «ارحلوا... ارحلوا جـمـيـعـاً، أيتـهـا المخلوقات البائسة!»

قـال انه سـمع قلبـه يقـول هـذا الكلام، سـمـعـه بالـفـعل. وتولاّه

الفـزع، فـقـفـز واقـفـاً وقـبض على عـصـا وجـدها في الـركن. رآه الآخـرون يفعل هذا فقفزوا جـميعاً بدورهم، وقد أصابتهم عدوى فزعه.

أصدر بطرس أمـره «أنت تعرفه يا سـمعان. اذا جاء فقل له اننا رحلنا الى الجليل»

قـال صـاحب الحـان قلقـاً «ومـن الذي سـيـدفع ثمن الرأس، والخمر...»

سأله بطرس «هل تؤمن بالحياة الآخرة يا سمعان القيرواني؟»

«طبعاً أؤمن»

«حـسن، أقـسم لك بأني سـأدفع لك هنـاك. واذا شئت أعطيك صكاً به»

حك صاحب الحان رأسه.

قال بطرس بحدة «ماذا؟ ألا تؤمن بالحياة الآخرة؟»

«أؤمن يا بطرس. اللعنة، أؤمن ـ ولكن ليس كثيراً...»

الفصل العشرون

ولكن بينما هم يتحدثون سقط فجأة ظل أزرق على عبتة الباب فنكصوا جميعاً. واذا بيسوع يمثل في ممر الباب؛ قدماه ملطختان بالدم، وثيابه مغطاة بالطين، ووجهه لا يكاد يُميّز. من هذا: أهو المعلم الرقيق أو المعمداني الهمجي؟ كان شعره منسدلاً بخصلات مفتولة حتى كتفيه، وقد باتت بشرته الآن ملفوحة خشنة، وغارت وجنتاه. واتسعت عيناه كثيراً حتى احتلَّتا كامل وجهه. لقد كانت قبضة يده المشدودة بقوة، وشعره، ووجنتاه وعيناه تشبه تماماً تلك التي للمعمداني. وراح المريدون الفاغرو الأفواه ينظرون إليه بصمت. أيمكن أن يكون الرجلان قد امتزجا في واحد؟

قال يهوذا في نفسه وهو يتنحَّى جانباً ليفسح الطريق للقادم المضطرب: إنه هو الذي قتل المعمداني، هو... هو... ولاحظ كيف تخطى يسوع عتبة الباب، كيف حدق الى كل منهم بقسوة، وكيف عض على شفتيه... لقد أُخِذَ منه كل شيء، كل شيء؛ سُرق جسده. ولكن ماذا عن روحه، وكلامه العنيف؟ سوف يتكلم الآن، وسوف نرى...

لزموا الصمت لبعض الوقت، وتبدل جو الحانة. جلس صاحب الحان القرفصاء في الركن دون أن يفوه بكلمة راح يحدق بعينين جاحظتين الى يسوع الذي تقدم بخطى بطيئة وهو يعض على شفته، وقد انتفخت عروق صدغيه. وفجأة سمعوا كلهم صوته الخشن العنيف، فأخذتهم الرجفة. لم يكن ذاك صوته، بل صوت النبي المخيف، المعمداني.

«أكنتم راحلين؟»

لم يجب أحد. كانوا قد وقفوا كالمتراس، الواحد خلف الآخر.

أعاد السؤال بغضب «أكنتم راحلين؟ تكلم يا بطرس!»

أجاب بطرس بصوت متردد «يا معلم، لقد سمع يوحنا وقع خطاك في قلبه وكنا خارجين لاستقبالك»

عبس يسوع. لقد غمره احساس بالمرارة والغضب، لكنه تمالك نفسه.

قال، مستديراً نحو الباب «فلنذهب»، ورأى يهوذا المتنحّي مكاناً بعيداً يرمقه بعينيه الزرقاوين القاسيتين.

سأله «ألست قادماً يا يهوذا؟»

«أنا معك حتى الموت. وأنت تعلم ذلك»

«لا يكفي! أتسمعني ـ لا يكفي. بل حتى ما بعد الموت!... هيا بنا!»

قفز صاحب الحان من مربضه بين براميل الخمر، وهتف «حظاً سعيداً يا شباب، وخلاصاً سعيداً! أتمنى لكم رحلة موفقة أيها الجليليون، وعندما يحين الزمن السعيد وتدخلون الجنة، لا تنسوا الخمر الذي قدمته لكم ـ والرأس!»

أجابه بطرس «أعدك»، وكان وجهه يعبر عن الجديّة والهم. كان يشعر بالخجل لأنه كذب على المعلم بدافع الخوف. إن عبوس

اليسوع الغاضب كان دلالة أكيدة على أنه كشف الكذبة. كان يؤنب نفسه بصمت: يا بطرس، أنت جبان، وكذاب، وخائن! اللعنة، متى ستغدو رجلاً؟ متى ستتغلب على الخوف؟ متى ستكف عن الدوران - يا طاحونة الهواء؟»

توقف بطرس عند ممر باب الحان، ينتظر ليرى في أي اتجاه سيسير المعلم. لكن يسوع الذي لم يبدِ حراكاً كان يرهف سمعه ويُنصت الى لحن أغنية رتيبة تنطوي على احساس بالمرارة تشدو به أصواتٌ عالية النبرة، جَشَّاء، خارج بوابة داوود. إنهم المجذومون. كانوا منتشرين على الأرض الترابية مادّين أذرعهم المقطوعة للمارة وهم يسبحون برقة بمجد داوود وبرحمة الرب الذي منحهم الجذام ليتمكنوا من التكفير عن آثامهم وهم على الأرض، لكي تبقى وجوههم غداً في الحياة الآخرة وضَّاءة تشع كالشموس والى أبد الآبدين.

ازداد احساس يسوع بالمرارة، والغضب باتجاه المدينة. كانت المحال التجارية، وورشات العمل والحانات قد فتحت أبوابها، وامتلأت الشوارع بالناس. ما أكثر ما يركضون ويصرخون، وكم تتعرق أجسادهم! وسمع أصواتاً جؤارة مخيفة لأحصنة، ورجال، وأبواق وأنفار: بدت له المدينة وحشاً مخيفاً، سقيماً، أحشاؤه مملوءة بالجذام، والجنون والموت.

تواصل الجؤار في الشوارع وتعاظم، وازداد ركض الناس هنا وهناك. وتساءل يسوع، ما داعي استعجالهم؟ لماذا يركضون هكذا، الى أين هم ذاهبون؟ تنهد. كلهم، كلهم - الى الجحيم!

اضطرب قليلاً. هل من واجبه أن يبقى في هذه المدينة آكلة البشر، أن يصعد الى سطح الهيكل ويصرخ «توبوا، فيوم الرب آت»؟ إن هؤلاء الناس التعسين، اللاهثين، الذين يهرعون في الشوارع

صعوداً وهبوطاً هم في أمس الحاجة للتوبة وللمواساة من صيادي السمك وفلاحيّ الجليل الهانئي البال. وقال يسوع لنفسه سأمكث هنا. هنا سأعلن أولاً عن دمار العالم، وحلول مملكة السماء!.

لم يقو اندراوس على اخفاء حزنه، فاقترب من يسوع وقال «يا معلم، لقد قبضوا على المعمداني وقتلوه!»

أجاب يسوع بهدوء «لا يهم، لقد توفر للمعمداني الوقت الكافي للقيام بواجبه. فلنأمل يا اندراوس أن يتوفر لنا الوقت الكافي لأداء واجبنا نحن!». ورأى عينيّ تلميذ السابق السالف تفيضان بالدمع، فربت يسوع على كتفه وقال له «لا تحزن يا اندراوس، إنه لم يمت. الذين يموتون هم الذين تأخروا على الخلود. أما هو فلم يتأخر. فقد منحه الرب الوقت الكافي»

بينما هو يقول هذا أضاء عقله. حقاً، إن كل شيء في هذا العالم يعتمد على الزمن. الزمن ينضج كل شيء. اذا توفر لك الوقت فإنك تنجح في معالجة الطين الانساني الداخلي وتحويله الى روح. بعدئذ لا تعود تخشى الموت. واذا لم يتوفر لك الوقت، تفنى... وأخذ يسوع يتضرع للرب قائلاً، يا رب امنحني الوقت الكافي. هذا كل ما أطلبه منك. امنحني الوقت... شعر أنه ما يزال في داخله الكثير من الطين، الكثير من الانسان. ما يزال عرضة لنوبات الغضب، والخوف، والغيرة، وحين يفكر في المجدلية تترقرق عيناه بالدموع، وفي الليلة الفائتة فقط، بينما كان ينظر خلسة الى مريم أخت اليعازر...

احمرَّ وجهه خجلاً، وعلى الفور اتخذ قراره، سوف يغادر هذه المدينة. إن ساعة موته لم تحن بعد، وليس مستعداً لها بعد... وعاد يتضرع الى الرب، يا رب امنحني الوقت، الوقت ولا شيء آخر... وأشار الى الصحب «تعالوا، يا أنصاري، فلنعد الى الجليل، باسم الرب!»

تسابق الصحب مسرعين يبغون بحيرة جنيسارت كأحصنة متوجعة، جائعة، عائدة الى اسطبلها الحبيب. وعاد يهوذا ذو اللحية الحمراء الى موقع القيادة. كان يصفّر. لم يشعر قلبه بمثل هذه الراحة منذ سنين طويلة. وأشاعت تعابير وجه المعلم، وصوته، وعنفه، التي لاحظها عليه منذ عودته من الصحراء، سروراً عظيماً فيه. وظل يقول لنفسه مراراً وتكراراً، هو الذي قتل المعمداني. لقد ضمه الى مجموعته، امتزج الحمل والأسد في واحد. أيمكن للمسيح أن يكون حملاً وأسداً معاً، كوحوش الأزمان الغابرة؟... وواصل مسيره وهو يصفّر وينتظر. وقال في باله، هذا الصمت لا يمكن أن يستمر. في ليلة من الليالي وقبل أن نصل الى البحيرة، سوف يفتح فمه ويتكلم. سيبوح لنا بالسر؛ ماذا فعل في الصحراء، هل شاهد رب اسرائيل أم لا. وما هو الحديث الذي دار بينهما، وبعدئذ سأحكم بنفسي.

ومرت الليلة الأولى. مكث يسوع يحدق الى النجوم، دون أن يتكلم، وحوله الصحب المتعبون نيام. لكن عينيّ يهوذا الزرقاوين كانتا تلمعان في الظلام، وظل هو ويسوع يقظين طوال الليل، يواجه أحدهما الآخر، ولكن دون أن ينطقا كلمة واحدة.

عند الفجر انطلقوا من جديد، مخلفين وراءهم حجارة اليهودية، ثم وصلا الى تربة السامرة البيضاء. كانت بئر يعقوب مهجورة: لم تأت امرأة واحدة لتسحب الماء لهم وتنعشهم. فعبروا على عجل الأرض المهرطقة وشاهدوا جبالهم الحبيبة - حرمون المتوَّج بالثلوج، والطور الجميل، والكرمل المقدس.

اقترب المساء، فاضطجعوا تحت شجرة أرز وارفة وراحوا يتابعون غروب الشمس. وأخذ يوحنا يتلو صلاة المساء: «يا رب، افتح أمامنا الأبواب. النهار ينصرم، والشمس تغيب، وتختفي. وها

نحن واقفون بأبوابك يا رب، فافتحها في وجوهنا، أيها السرمدي،نتضرع اليك أن تغفر لنا. أيها السرمدي، نتضرع اليك أن ترحمنا. أيها السرمدي، خلصنا!»

كان الهواء أزرق غامقاً، وفقدت السماء الشمس ولم تعثر بعد على النجوم، وحطت على الأرض مجرَّدة من زخارفها. ضغطت يدا يسوع اللدنتين الطويلتي الأصابع، التربة البيضاء اللامعة في الضوء الخافت الغامض. وكانت صلاة المساء ما تزال تدور داخله وتفعل فعلها. وسمع أياديَ مرتجفة لرجال تطرق بيأس أبواب الرب، ولا تفتح لهم. كان الرجال يطرقون ويصرخون. بماذا كانوا يصرخون؟

أغمض عينيه ليسمع بجلاء. طيور النهار عادت الى أعشاشها، وطيور الليل لم تفتح عيونها بعد. قرى البشر بعيدة جداً: إنه لا يسمع ضجيج الناس ولا نباح الكلاب. تمتم الصحب بتلاوة صلوات المساء. لكن النوم يغالبهم، والكلمات المقدسة تغوص داخلهم دون أن يصدر لها صدى. الا أن يسوع سمع داخله أناساً يدقون أبواب الرب ـ قلبه هو. يدقون قلبه الانساني الحاني ويصرخون «افتح! افتح! خلصنّا!»

شد يسوع على صدره وكأنه هو أيضاً يدق قلبه ويتوسل اليه أن ينفتح. وبينما هو كذلك يصارع، معتقداً أنه وحده، شعر بوجود شخص يراقبه من الخلف. التفت فإذا عينا يهوذا الباردتان الملتهبتان مثبتتان عليه. أجفل يسوع. ذو اللحية الحمراء هذا وحش متكبّر، غير مروَّض. شعر أنه من بين كل صحبه هو الأقرب إليه وأيضاً أنآهم عنه. ويبدو أنه ليس هناك الاَّ هو ليفضي اليه بما يكنّ. مدَّ يده اليمنى وقال:

«يهوذا يا أخي، انظر! أترى ما أحمله؟»

مدَّ يهوذا عنقه وسط النور الباهت ليتمكن من الرؤية، وأجاب «لا أرى شيئاً، لا أرى أي شيء»

قال يسوع وهو يبتسم «ستراه قريباً»
قال اندراوس «إنه مملكة السماء»
قال يوحنا «إنها البذور. أتذكر يا معلم ما قلته لنا عند البحيرة حين تكلمت لأول مرة وحدثتنا؟ قلت «لقد جاء الباذر ليبذر بذوره...»»
سأل يسوع «وأنت، يا بطرس؟»
«ماذا يسعني أن أقول لك يا معلم؟ اذا سألت عينيّ قالتا: لا شيء، واذا سألت قلبي قال: كل شيء. وبين الجوابين يتذبذب عقلي كالناقوس»
«وأنت يا يعقوب؟»
«لا شيء. سامحني يا معلم، لكنك لا تحمل أي شيء»
قال يسوع «انظروا!» ورفع ذراعه بعنف. وحين رفعها عالياً ثم أنزلها بقوة الى أسفل انتاب الخوف الصحب. وفرح يهوذا كثيراً واحمرَّ مثل وردة نضرة وأشرق وجهه كله.
ثم قبض على يد يسوع وقبّلها.
هتف «يا معلم، أنا رأيت! رأيت! أنت تحمل فأس المعمداني!»
لكنه سرعان ما شعر بالخجل والغضب لأنه لم يتمكن من ضبط فرحته، فتراجع من جديد واتكأ على جذع شجرة الأرز.
سمع صوت يسوع هادئاً ورصيناً وهو يقول «لقد أحضره اليّ ووضعه عند جذور الشجرة النخرة. لهذا خلق: ليحملها اليّ. ولم يكن بوسعه أن يفعل ما هو أكثر. وأتيت، وانحنيت، التقطت الفأس - ولهذا خلقت أنا. الآن يبدأ أداء واجبي: أن أقطع الشجرة النخرة. كنت أحسبني عريساً، وأنني أحمل غصن لوز يزهر في يدي، لكنني طوال الوقت كنت قاطع أخشاب. أتذكرون كيف رقصنا وتنزهنا في الجليل ننادي بجمال العالم، ووحدة السماء والأرض، وكيف أن

الفردوس سرعان ما سيفتح لنا وندخله؟ يا أصدقائي، لقد كان كل ذلك حلماً. وها نحن قد أفقنا منه»

صرخ بطرس في رعب «اذن فلا وجود لمملكة السماء؟»

«موجودة، يا بطرس، موجودة ـ ولكن داخلنا. مملكة السماء هي في داخلنا، ومملكة الشيطان في الخارج. والمملكتان تتقاتلان. الحرب! الحرب! إن واجبنا الأول هو أن نقطع دابر الشيطان بهذه الفأس»

«أي شيطان؟»

«هذا العالم المحيط بنا. تشجعوا يا أصدقاء ـ لقد دعوتكم لشن الحرب، وليس لحفل زفاف. سامحوني، لأنني لم أكن أعرف نفسي. ولكن على كل من يفكر منكم بزوجة، أو أطفال، أو حقول، أو سعادة، أن يغادر ولا داعي لأن يخجل. فلينهض، ويودعنا بهدوء ويرحل. مصحوباً ببركتنا. ما زال هناك وقت»

صمت. ومرر بصره على صحبه. لم يتحرك أحد. درجت نجمة المساء الشبيهة بقطرة ماء ضخمة، خلف أغصان الأرزة السوداء. نفضت طيور الليل أجنحتها الحالكة واستيقظت، وهب نسيم منعش منحدراً من الجبال. وفجأة، وسط عذوبة المساء، اندفع بطرس الى الأمام وهتف «يا معلم، أنا معك في هذه الحرب كظلك ـ وحتى الموت!»

«هذا كلام متبجح يا بطرس ـ إذ من يرغب في خلاص نفسه؟ متى نهض نبي ليخلص الناس دون أن يرجموه حتى الموت؟ إننا نسير على درب طويلة وعرة. تمسَّك بروحك بقوة يا بطرس ـ يجب ألا تفر منك. إن اللحم ضعيف، فلا تثق به... أتسمع؟ إنني أكلمك أنت يا بطرس»

فجأة ترقرقت عينا بطرس بالدموع وتمتم «ألا تثق بي يا

معلم؟ إن الرجل الذي ترمقه هكذا ولا تثق به سيأتي عليه يوم ويموت فداءاً لك»

وضع يسوع يده على ركبة بطرس وداعبها، وقال متمتماً «ربما... ربما... سامحني يا بطرس يا أعز الناس»

التفت الى الآخرين. قال «إن يوحنا المعمداني كان يعمِّد بالماء فقتلوه. أما أنا فسأعمِّد بالنار. إنني أوضح لكم هذا الأمر هذا المساء لتكونوا على بيِّنة ولا تتذمروا حين تداهمنا الأوقات العصيبة. وها أنا أعرِّفكم، قبل أن ننطلق، بالطريق التي سنسلكها: إننا نسير الى الموت ـ وبعد أن نموت، يكون الخلود. هذه هي الطريق، فهل أنتم مستعدون؟»

بدا الصحب وكأنهم مخدَّرون. هذا الصوت قاس. لم يعد يمرح ويضحك إنه يدعوهم لحمل السلاح. إذن فعليهم أن يسلكوا طريق الموت اذا ارادوا أن يدخلوا مملكة السماء؟ أما من سبيل آخر؟ إنهم أناس بسطاء، أميّون مساكين يكدحون طوال النهار، والعالم ثري وكامل السلطان ـ فكيف يسعهم أن يرفعوا السلاح في وجهه؟ ليت الملائكة تهبط من السماء وتساعدهم! ولكن لم يكن أي من المريدين قد رأى قط ملاكاً يمشي على الأرض ويساعد المساكين والمظلومين. لذا لزموا الصمت وهم يقدِّرون ويعيدون تقدير حجم الخطر. وكان يهوذا يتابعهم من زاوية عينه ويقهقه شاعراً بالفخر. هو وحده لم يكن يجري حساباته. كان متوجهاً الى الموت محتقراً الموت، غير آبه بجسده أو بروحه، ولا يحمل في جنباته غير هوى عظيم، وسيكون من قبيل الفرح المطلق أن يدمر نفسه اكراماً لذاك الهوى.

أخيراً فتح بطرس فمه، وكان أول المتكلمين، قال «يا معلم، هل ستهبط الملائكة من السماء لتساعدنا؟»

أجابه يسوع «نحن ملائكة الرب على الأرض يا بطرس، ولا

وجود لملائكة آخرين»

سأل يعقوب «ولكن أتظن أننا سنوفق وحدنا يا معلم؟»

نهض يسوع. كان جسر أنفه يرتجف، وصرخ «ارحلوا، اتركوني!»

هتف يوحنا «لن أتخلى عنك يا معلم. أنا معك حتى الموت»

وهتف اندراوس وهو يعانق ركبتي المعلم «وأنا أيضاً يا معلم»

انحدرت دمعتان كبيرتان من عينيّ بطرس، لكنه لم يتكلم، وأطرق يعقوب، الشاب الضخم القوي، رأسه خجلاً.

سأل يسوع، وقد لاحظ أن ذا اللحية الحمراء الصامت يحدق الى الآخرين بنظرة ضارية «وأنت، يا يهوذا، يا أخي؟»

قال يهوذا بعنف «لا تهمني الكلمات، ولا أحب الثرثرة مثل بطرس. ما دمت تحمل الفأس، فأنا معك. واذا تركتها، أتركك. إنني لا أتبعك أنت، كما تعرف جيداً. إنني أتبع الفأس»

قال بطرس «ألا تخجل من كلامك هذا مع المعلم؟»

لكن يسوع كان سعيداً. قال «يهوذا على حق يا أصدقائي، أنا أيضاً أتبع الفأس»

جلسوا جميعاً على الأرض، وظهورهم مستندة الى جذع الأرزة. وفي السماء تضاعفت أعداد النجوم.

قال يسوع «منذ هذه اللحظة فصاعداً سننشر راية الرب وننطلق لنشن الحرب، وعلى راية الرب طرز نجم وصليب. الرب معنا!»

ران عليهم الصمت، وقد استقروا على قرارهم، واضطرمت قلوبهم.

خاطب يسوع الصحب، وكان الظلام قد حجبهم تماماً «مرة أخرى سأحدثكم بلغة الأمثولات. أمثولة أخيرة قبل أن ننطلق لشن

معركتنا .. اعلموا أن الأرض مثبتّة على سبعة أعمدة، والأعمدة مثبتة على الماء، والماء على السحب والسحب على الرياح والرياح على العاصفة، والعاصفة على الصاعقة، والصاعقة تستقر عند قدمي الرب، كالفأس»

قال يوحنا وقد احمر خجلاً «إنني لا أفهم»

أجاب يسوع، وهو يداعب شعر صاحبه المحبوب «يا يوحنا، يا ابن الصاعقة! سوف تفهم حين تكبر وتذهب لتصبح ناسكاً على احدى الجزر وتنفتح أبواب السموات من فوقك ويتلظى عقلك ناراً!»

وصمت. كانت تلك المرة الأولى التي يدرك فيها بوضوح كنه صاعقة الرب: إنها فأس تلتهب عند قدميّ الاله، ومن هذه الفأس تتدلى العاصفة، والريح، والسحاب والماء كحبات مسبحة: تمثل الأرض برمتها. ومع أنه عاش سنين طويلة مع الناس، وعايش طويلاً الكتاب المقدس، فلم يكشف له قط هذا السر الرهيب: وما هو السر: هو أن الصاعقة هي ابن الرب، المسيح، المسيح هو الذي سيطّهر العالم.

قال - وكان بطرس قد شاهد فرعين من اللهب، أشبه بقرنين، يتطايران فجأة من جبينه - «يا أنصاري، لقد ذهبت الى الصحراء، كما تعلمون، لأقابل الرب. كنت جائعاً وظمآن، وأغلي من الحرارة. فجلست رابضاً فوق صخرة، أدعو الرب ليظهر. وأخذ الشياطين يتوافدون عليّ أمواجاً أمواجاً، وأثاروا فوقي ضجيجاً وتكسيراً، وأزبدوا، ومن ثم استداروا على أعقابهم وعادوا من حيث أتوا. في أول الأمر جاء شياطين الجسد، ثم شياطين العقل، وأخيراً شياطين القلب الجبابرة. لكني وضعت الرب نصب عينيّ كترس من البرونز، وفاحت الرمال من حولي برائحة مخالبهم وأنيابهم وقرونهم. ثم سمعت صوتاً هادراً فوقي يقول «انهض، خذ الفأس التي أحضرها لك السابق، واضرب»»

هتف بطرس «ألن يتم خلاص أحد؟»

لكن يسوع لم يَسمعه، وتابع «وعلى حين غرة ثقلت ذراعي وكأن ثمة من أقحم فأساً في قبضة يدي. وبدأت أنهض، ولكن بينما أنا أفعل سمعت الصوت مرة أخرى يقول «يا ابن النجار، هناك فيضان آخر ينداح بقوة، هذه المرة هو ليس ماءاً، بل نار. ابن سفينة جديدة، وانتق أطهر الناس وضعهم في داخلها!»، وها قد بدأ الانتقاء يا أصدقَائي. السفينة جاهزة، بابها مفتوح، فادخلوا!»

تحركوا جميعاً، زحفوا متقدمين، وتجمهروا حول يسوع وكأنه السفينة وهم يحاولون الدخول اليها.

«وسمعت الصوت ثانية يقول «يا ابن داوود، حالما يخمد اللهب وترسو السفينة في أورشليم الجديدة، اعتلِ عرش أجدادك واحكم الانسانية! ستكون الأرض القديمة قد تلاشتَ، والسماء القديمة قد اختفت. وستمتد سماء جديدة فوق رؤوس الأطهار وستلمع النجوم ـ وعيون الناس ـ أقوى من ذي قبل بسبع مرات»»

عاد بطرس يهتف «يا معلم، نحن الذين قاتلنا معك يجب أن لا نموت قبل أن نشهد ذاك النهار ونجلس محيطين بعرشك من اليمين ومن اليسار!»

لكن يسوع لم يسمع، وتابع كلامه مستغرقاً في رؤى الصحراء المحمومة. قال «وللمرة الأخيرة سمعت الصوت من فوقي يقول «يا ابن الرب، رافقتك مباركتي!»

ابن الرب! ابن الرب! هكذا هتف كل في نفسه، ولكن لم يجرؤ أحد على قول كلمة واحدة.

كانت النجوم قد طلعت كلها الآن. كانت منخفضة هذه الليلة، معلقة في منتصف المسافة بين السماء والبشر.

سأل اندراوس «والآن، يا معلم، أين سنبدأ حياتنا العسكرية؟»

أجابه يسوع «الرب أخذ حفنة من تراب الناصرة وشكَّل جسدي هذا، لذا من واجبي أن أبدأ الحرب من الناصرة. من هناك يجب أن يبدأ جسدي بتحوله الى روح»

قال يعقوب «وبعد ذلك نذهب الى كفرناحوم، الى والديَّ»

اقترح اندراوس قائلاً «ومن ثم الى مجدلة لنحضر المسكينة المجدلية، ونضمها بدورها الى السفينة»

هتف يوحنا، مشيراً الى الشرق والغرب «ومن ثم ننشر في العالم أجمع!»

سمع بطرس كلامهم فضحك. قال «إنني أفكر في بطوننا. ماذا سنأكل في السفينة؟ أقترح أن لا نأخذ معنا إلا الحيوانات التي تؤكل. بحق الرب، ما فائدة الأسود والبعوض لنا؟»

كان جائعاً، وكان عقله وأفكاره منصبَّة على الطعام. ضحك الجميع.

أنبَّه يعقوب. قال «أنت لا تفكر الا في الطعام. إننا هنا لنتحدث عن خلاص العالم»

اعترض بطرس «إنكم جميعاً تفكرون بالشيء نفسه، لكنكم ترفضون الاعتراف بذلك. إنني أقول صراحة ما يجول في خاطري، خيراً كان أم شراً. يدور ذهني فأدور معه. ولهذا يسميني الثرثارون بطاحونة الهواء. هل أنا محق يا معلم أم لا؟»

أشرق وجه يسوع مبتسماً، وخطرت بباله أمثولة «كان هناك حبر أراد أن يجد من يُحسن نفخ البوق بمهارة وقوة حتى يسمعه المؤمنون فيأتون الى الكنيس. فنادى على كل نافخي الأبواق الجيدين أن يحضروا شخصياً لعرض أدائهم. وكان على الحبر أن ينتقي أفضلهم. فأتى خمسة ـ هم الأكثر مهارة في البلدة. وتناول كل منهم البوق ونفخ. وبعد أن انتهوا جميعاً، سأل الحبر كلاً

منهم «بماذا تفكر، يا ولدي، وأنت تنفخ في البوق؟» فأجاب الأول «بالرب»؛ والثاني «أفكر بتحرير أرض اسرائيل»؛ والثالث «أفكر بالفقراء الجائعين»؛ والرابع «أفكر باليتامى والأرامل». وحده أشدهم رثاثة ظل واقفاً خلف المجموعة في الزاوية ولم يتكلم. فسأله الحبر «وأنت يا ولدي، بماذا تفكر وأنت تنفخ البوق؟»، فأجابه وقد احمرّ خجلاً «أنا يا أبت انسان فقير وأميّ ولديّ أربع بنات. وأنا غير قادر على تأمين بائنات تلك المسكينات حتى يتمكنَّ من الزواج كغيرهن من البنات. لذا، فعندما أنفخ في البوق أقول لنفسي: يا رب، أنت ترى كيف أكدّ وأكدح لأجلك، فأرجوك أرسل أربعة أزواج الى بناتي!». فقال الحبر «بوركت، لقد انتقيتك»»

التفت يسوع الى بطرس وضحك. قال «إنني أباركك وأنتقيك. أنت تفكر في الطعام، وتتحدث عن الطعام. وحين تفكر في الرب سوف تتحدث عن الرب. أحسنت! لهذا يدعوك الناس بطاحونة الهواء. أنا أنتقيك. أنت طاحونة الهواء التي ستطحن القمح ليغدو خبزاً ويأكله الناس»

وكان معهم قطعة خبز واحدة فقسمها يسوع. ولم يكن نصيب كل منهم غير مقدار لقمة، لكن المعلم باركها. وشبعوا. بعد ذلك اتكأوا على أكتاف بعضهم بعضاً وناموا.

في الليل يهجع كل شيء، يسترخي وينمو - حتى الحجارة، والماء، والأرواح. وحين استفاق الصحب في الصباح، كانت أرواحهم قد نما لها أغصان غطّت كامل أجسادهم، وملأتها ثقة وفرحاً.

انطلقوا قبيل الفجر. كان الهواء في ذاك اليوم بارداً، وتلبدت فيه السحب - إنه جو الخريف. طارت فوقهم طيور كراكي تأخرت في الرحيل، حاملة ما يملأ أفواهها ومتجهة جنوباً. وراح المريدون

الخالون من الهم يلتهمون الطريق: وقد اجتمعت السماء والأرض في قلوبهم. وحتى أصغر حجر كان يتلألأ، مملوءاً بروح الرب.

سار يسوع وحده في المقدمة، وفكره متوانياً: استقر على التفكير في رحمة الرب. كان يعلم أنه قد أحرق جسوره خلفه أخيراً ولم يعد بإمكانه أن يتراجع. أصبح مصيره أمامه وهو يتبعه. وما يشاؤه الرب، سيكون... مصيره؟ فجأة بدأ يسمع وقع خطى الغامض الذي ظل يلاحقه دون رحمة منذ وقت طويل. أرهف سمعه وأنصت. كان سريعاً، ثقيلاً وحاسماً. ولكن الآن لم يكن خلفه؛ كان أمامه ويقوده... قال لنفسه، هذا أفضل، أفضل. لن أضيّع طريقي بعد الآن...

مدَّ خطاه، وقد ملأه الحبور، وخيل إليه أن قدميه تسرعان من تلقاء ذاتهما، فأسرع معهما، تقدم وهو يهمس للمرشد الخفي «الى الأمام! الى الأمام!»، كان يركض، متعثراً في خطاه على الصخورويقفز عبر القنوات. وفجأة أطلق صرخة، شعر بألم رهيب في يديه وقدميه، وكأن مسامير اخترقتها. تهاوى على احدى الصخرات، والعرق يتفصد بارداً من كل جسمه. أصابه الدوار برهة من الوقت، وغاصت الأرض من تحت قدميه وامتد أمام ناظريه خضمٌ هائج حالك، خال الا من قارب أحمر اللون يطفو مبحراً بجرأة، وأشرعته منتفخةً تكاد تتمزق... أمعن يسوع النظر وأطال، ثم ابتسم. غمغم «إنه قلبي، إنه قلبي...» ثم عاد الهدوء الى رأسه، وخمد الألم، وحين وصل مريدوه وجدوه جالساً بسكينة على صخرة ويبتسم.

قال، وهو ينهض «إلى الأمام يا شباب، أسرعوا!»

الفصل الواحد والعشرون

يقال أن يوم السبت هو فتى حسن التغذية يرتاح على ركبتيّ الرب، ومعه ترتاح المياه، وتحجم الطيور عن بناء أعشاشها، ويتوقف الناس عن العمل، ويلبسون الثياب القشيبة استعداداً للذهاب للكنيس لمشاهدة الحبر وهو يفتح اللفيفة المقدسة المدوَّن فيها ناموس الرب بحروف حمراء وسوداء وليسمعوا العالم وهو يمحِّص كل كلمة، وكل مقطع صوتي ويكشف ـ بمهارة عظيمة ـ عن ارادة الرب.

واليوم هو السبت. وفي هذه اللحظة بالذات يغادر المؤمنون كنيس الناصرة، وعيونهم ما زالت مبهورة بالرؤى التي استحضرها شمعون، الحبر العجوز، أمامهم. ويكون تأثير النور من القوة على عيونهم حتى أنهم جميعاً يتعثرون في مشيهم كالعمي. ويتفرقون في أرجاء ساحة القرية؛ يتنزهون بخطى متمهلة تحت أشجار النخيل الباسقة ليستعيدوا توازنهم.

اليوم فتح الحبر الكتاب المقدس لا على التعيين، فإذا به سفر النبي ناحوم. ثم وضع اصبعه، أيضاً لا على التعيين، فوقعت على

النص المقدس التالي: «هوذا على الجبال قَدَما مبشر مناد بالسلام!»

قرأ الحبر العجوز هذه الكلمات، وأعاد قراءتها، وهو يزداد حرارة، ثم صرخ «إنه المسيح. هو قادم. انظروا فيما حولكم، وانظروا داخلكم. إن دلائل مجيئه في كل مكان. في داخلنا: غضب، خجل، أمل وهتاف «كفانا ما نلناه!»... وخارجنا: انظروا! الشيطان يتربع على عرش الكون، يضع على احدى ركبتيه جسد الانسان العفن ويداعبه، وعلى الأخرى روح الانسان العاهرة. لقد حان زمن نبوءات الانبياء - والرب هو الذي يتكلم من خلال أفواه الأنبياء. افتحوا الكتاب المقدس. ماذا يقول «حين سيطاح باسرائيل عن عرشها وتطأ تراب أرضنا الطاهر أقدام البرابرة، ستكون نهاية العالم!»، ويقول أيضاً «وسيكون آخر ملوكها فاسقاً، هاتكاً للحرمات، وكافراً، وسيكون أولاده فاسدين وسيسقط التاج عن رأس اسرائيل». وها قد أتانا الملك الفاسق، هاتك الحرمات: هيرود! لقد رأيته بعيني رأسي حين دعاني للمجيء الى أريحا لشفائه. وأخذت معي أعشابي السرية - وكنت أعرف كل شيء عن هذا العلم - وذهبت. ذهبت، ومنذ ذلك اليوم ونفسي تعاف أكل اللحم، لأني رأيت لحم جسمه المتعفن، وعافت نفسي شرب الخمر، لأني رأيت دمه يعج فيه الدود. وظلت عفونته ملازمة لأنفي طوال أكثر من ثلاثين عاماً... ثم مات، وتفسّخت جثته. وجاء أبناؤه: فإذا بهم حثالة تافهة، فاسدة. وسقط التاج عن رؤوسهم...»

«اذن، فقد تحققت النبوءات: حانت نهاية العالم! وتردد صدى صوت على ضفاف نهر الأردن «إنه آت!»، وتردد صدى صوت داخلنا: «إنه آت!». واليوم أفتح الكتاب المقدس فتحتشد الكلمات معاً وتصرخ «إنه آت!». لقد أدركني العجز، واعتمت عيناي،

وسقطت أسناني، وتراخت ركبتاي. إنني مبتهج! مبتهج لأن الرب أوفى بوعده. قال لي: «يا شمعون، لن تموت قبل أن ترى المسيح». وهكذا كلما اقتربت من الموت، اقترب منا المسيح أكثر. تشجعوا يا أولادي. لم تعد هناك عبودية، ولا شيطان، ولا رومان. ليس هناك غير المسيح، وهو قادم! أيها الرجال، شمّروا عن سواعدكم: إنها الحرب أيتها النسوة، أضئن المصابيح، فقد وصل العريس! لا نعرف بالدقة في أي ساعة أو دقيقة - قد يصل اليوم، وربما غداً. ابقوا يقظين! إنني أسمع الحجارة في الجبال القريبة تتطاير تحت وطأة قدميه. إنه قادم! اخرجوا، فلعلكم ترونه!»

خرج الناس وانتشروا تحت أشجار النخيل الباسقة. لقد كانت كلمات الحبر مفككة كلياً، وجاهد المستمعون كي ينسوها تماماً لتخمد ألسنة اللهب المستعرة وتتمكن أرواحهم من العودة لتسوية أمور عالقة. وبينما هم يتنزهون، ينتظرون بقلق حلول ساعة الظهيرة ليعودوا الى منازلهم ويعملوا على نسيان الكلمات المقدسة بالتحدث والتشاجر وتناول الطعام - وفجأة يظهر ابن مريم بثيابه الرثة، وقدميه الحافيتين، ووجه كومض البرق، والمريدون الأربعة منضمّون في خوف خلفه، ويهوذا ذو اللحية الحمراء، والعينين الفاحمتين، الانطوائي، يسير في المؤخرة.

غمرت الدهشة أهل البلدة. من أين أتى هؤلاء الرعاع - ثم أليس ذاك هو ابن مريم الذي يتقدمهم؟

«انظر كيف يمشي. إنه يمد ذراعيه ويلوح بهما كجناحين. لقد أصابه الرب بالغرور وهو يحاول أن يطير»

«إنه يعتلي صخرة ويومئ. سوف يتكلم»

«هيا بنا نذهب ونتسلى!»

حقاً كان يسوع قد اعتلى صخرة في منتصف الساحة، وتجمع

الناس حوله ضاحكين، سعداء لظهور هذا المستبصر. والآن سيتمكنون من نسيان كلمات الحبر الوقور. لقد قال لهم «إنها الحرب. ابقوا يقظين، إنه قادم!». إنه يدمدم بهذه الترتيلة في آذانهم منذ سنين عديدة، وقد ملّوا سماعها. والآن، شكراً للرب، سيعينهم ابن مريم على اراحة بالهم.

لوَّح يسوع بذراعيه مشيراً اليهم أن يتجمعوا حوله. كان المكان يعج بأصحاب اللحى، والقلنسوات الضيقة، والأردية المخططة. وبعض المحتشدين كان يمضغ التمر ليخدع به جوعه، وآخرون يمضغون عباد الشمس، والشيوخ منهم والأكثر خشية من الرب كانوا يسبِّحون بسبحات طويلة ذات خرزات مصنوعة من عقد صغيرة من القماش الأزرق اللون تحتوي على نصوص من الكتاب المقدس.

ومضت عينا يسوع. وعلى الرغم من أنه كان يقف أمام حشد غفير من الناس، الا أن قلبه لم يستشعر الخوف. باعد ما بين شفتيه، وصرخ «يا اخوتي، افتحوا آذانكم، وافتحوا قلوبكم، واسمعوا ما سأقول. لقد هتف أشعيا. قال «روح السيد الرب عليَّ لأن الرب مسحني لأبشِّر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلوب!»، وها أن اليوم الموعود قد جاء يا اخوتي. أرسلني رب اسرائيل لأبلِّغ البشارة. مسحني هناك في الصحراء اليهودية، ومن هناك أتيت! أودع لدي سراً عظيماً، فتلقيته وقطعت السهول والجبال - ألم تسمعوا خطى قدمي على سفوح التلال؟ - هرعت الى هذه القرية، مسقط رأسي، لأعلن النبأ السعيد للمرة الأولى. فماهو هذا النبأ السعيد؟ إن مملكة السماء قد حلَّت!»

رفع رجل عجوز ذو حدبتين كما الجمل سبحته وقهقه قائلاً: «كلماتك التي تتفوه بها كلمات غامضة، يا ابن النجار، غامضة، ولا أساس لها. «مملكة السماء»، «العدالة»، «الحرية» و«انتزعوا قدر ما

تستطيعون يا شباب، فكل شيء مباح». لقد طفح كيلي! معجزات! معجزات! أريد منك أن تقوم بشيء هنا والآن. قم ببعض المعجزات لنؤمن بك. والا، فالزم الصمت!»

أجاب يسوع «إن كل شيء هو معجزة، أيها العجوز، أية معجزات أخرى تريد؟ انظر تحتك: حتى أبسط ورقة عشب لها ملاكها الحارس يلازمها ويعينها على النمو. وانظر فوقك، ما أروع معجزة السماء المرصعة بالنجوم! واذا أغمضت عينيك، أيها العجوز، فما أروع معجزة العالم الكامن داخلنا! ما أشبه قلبنا بسماء مرصعة بالنجوم!»

سمعوه، ذهلوا، وتبادلوا النظرات «أليس هذا ابن مريم؟ كيف توصل الى أن يتكلم بمثل هذه القوة والثقة؟»

«إنه الشيطان يتكلم مستخدماً فمه. أين اخوته ليوثقوه لئلا يعض أحداً؟»

«ها هو يفتح فمه من جديد، صمتاً!»

«إن يوم الرب قد جاء يا اخوتي. فهل أنتم مستعدون؟ لم يتبق أمامنا الا بضع ساعات. نادوا على الفقراء ووزعوا عليهم ممتلكاتكم. ما اهتمامكم بمتاع هذه الأرض؟ النار قادمة لتحرقه كله! فقبل ملكوت السماء سيأتي ملكوت النار. وفي يوم الرب سوف تنهض حجارة منازل الأثرياء وتسحق ساكنيها؛ وسوف تتفصد قطع الذهب في خزائن الأثرياء عرقاً، وسوف يتدفق عرق الفقراء ودماؤهم على الموسرين. سوف تنشق السماوات، وتصب سيولاً ودماءاً. وستطفو السفينة الجديدة فوق ألسنة اللهب. إن المفاتيح معي وسأفتح السفينة وأختار. يا اخوتي في الناصرة، سأبدأ بكم، وأنتم أول من أدعوهم. تعالوا ادخلوا، إن لهب الرب قد بدأ بالهبوط فعلاً!»

أخذ الحشد يصيح مستهجناً وسط نوبات الضحك «بوو! بوو! ابن مريم جاء لينقذنا!»، وانحنى عدد من الناس، وملأوا أيديهم بالحجارة، وانتظروا.

ظهر شخص يركض عند أطراف الساحة. كان فيلبُّس، الراعي. جاء مسرعاً حالماً سمع عن وصول أصحابه. كانت عيناه متورمتين وملتهبتين كأنما من كثرة البكاء، وغارت وجنتاه. ففي اليوم نفسه الذي ودَّع يسوع وصحبه عند البحيرة وقال لهم ضاحكاً «لن آتي معكم، لدي أغنام، فأين أضعها؟» هبط عليه لصوص قادمين من لبنان وسرقوها، ولم يتركوا له غير عصاه. ولا زال يحتفظ بها. وراح ينتقل من قرية الى قرية، ومن جبل الى جبل، كملك غير متوج، يبحث عن قطيعه. وتهدد وتوعد، وشحذ خنجره العريض وقال أنه ذاهب الى أرض لبنان. لكنه أثناء الليل وهو وحيد، أخذ يبكي... وها هو الآن يهرع للانضمام الى أصدقائه وليحكي لهم عن معاناته لينطلقوا معاً الي لبنان. سمع تصاعد نوبات الضحك، فغمغم «ماذا يحدث هناك؟ لماذا يضحكون؟»، واقترب.

عندئذ كان يسوع قد استشاط غضباً، فصرخ «علام تضحكون؟ لماذا تجمعون الحجارة لترجموا بها ابن الانسان؟ لماذا تتباهون بمنازلكم وكروم زيتونكم وعنبكم؟ كله رماد! رماد! وأبناؤكم وبناتكم: رماد! اللهب واللصوص سوف يندفعون هابطين من الجبال وينهبون أغنامكم!»

دمدم فيلبُّس، وكان ينصت وذقنه معتمدة على عصاه «أي لصوص. أية أغنام؟ وما ذاك اللهب الذي ستنزله علينا الآن؟»

بينما كان يسوع يتكلم وصل المزيد فالمزيد من الفقراء السمر الذين سمعوا عن ظهور نبي جديد ينصر البؤساء فهرعوا اليه.

وقيل أنه كان يحمل في احدى يديه ناراً علوية ليحرق بها الأثرياء، وبالأخرى ميزاناً لتقسيم ممتلكاتهم على الفقراء. إنه موسى جديد، جالب ناموس جديد وأكثر عدالة. انتصب الناس وأنصتوا اليه، مأسورين. لقد جاءت، جاءت! مملكة الفقراء جاءت!

ولكن حين همَّ يسوع ثانية بالكلام، حطّت أربع أذرع عليه، وأمسكت به وأنزلته عن الصخرة. وبسرعة التف حبل حوله. التفت يسوع فرأى ولديّ يوسف وشقيقيه هو: سمعان الأعرج ويعقوب الورع.

زعقا، وهما يجرانه بسرعة «الى المنزل، الى المنزل ـ أدخل! أنت ممسوس بالشياطين!»

صرخ يسوع «لا بيت لي. أطلقوني. هذا هو بيتي، وهؤلاء هم اخوتي!». قال هذا مشيراً الى الحشد.

وهتف الأهالي بدورهم وهم يضحكون «اذهب الى البيت، الى البيت!»، ورفع أحدهم ذراعه وقذف بالحجر الذي كان يحمله، فكشط جبين يسوع، وجرت منه أول قطرة من الدم.

صرخ العجوز ذو الحدبة المزدوجة «الموت! الموت! إنه ساحر، إنه يرمينا بتعاويذه، ويستنزل علينا النار لتشوينا ـ وسوف تنزل!»

وسمع من قال «الموت! الموت!»

تقدم بطرس بسرعة، وهتف «عار عليكم جميعاً. ماذا فعل لكم؟ إنه بريء!»

اندفع شاب قوي البنية نحوه، وقال وهو يطبق على نحره، «يبدو أنك تقف الى جانبه، هه؟»

صرخ بطرس «لا! لا! لست كذلك!»، وهو يكافح ليخلص حنجرته من اليد الضخمة.

استولى الذعر على أصحاب يسوع الثلاثة الآخرين. تنحّى كل

من يعقوب واندراوس جانباً، ليقدّروا حجم قوتهم، وترقرقت عينا يوحنا بالدمع. لكن يهوذا شق طريقه بين الحشد الغفير ودفع الأخوين الثائرين بعيداً عن المعلم، وفك وثاقه.

صرخ بهما «ابتعدا، والا ستكون مشكلتكما معي! اغربا!»

زعق سمعان الأعرج «اذا اردت أن تصدر أوامر فارحل الى بلدتك!»

«أنا أصدر أوامري أينما تكون قبضتاي، ياذا الساق القصيرة!». ثم التفت الى الأنصار الأربعة وقال «ألا تخجلون من أنفسكم وأنتم تتكرونه منذ الآن! تقدموا! شكّلوا دائرة حوله لكي لايمسه أحد!»

شعر الأربعة بالخجل، وقفز الفقراء والمعوزون الى الأمام هاتفين «أيها الأخوة، نحن الى جانبكم! فلنقتلهم!»

صرخ صوت هادر «وأنا أيضاً معكم». لوح فيلبُّس بعصاه، وشق طريقه دافعاً المحتشدين من أمامه وأضاف «أنا أيضاً قادم!»

أجابه ذو اللحية الحمراء «أهلاً بك يا فيلبُّس. تعال إلينا! فالمساكين والمظلومون - كلهم معنا!»

حين رأى الأهالي الفقراء يثورون عليهم، اهتاجوا. لقد جاء ابن النجار ليزرع أفكاراً في رؤوس الفقراء، ويقلب النظام الراسخ للعالم رأساً على عقب. ألم يقل إنه يجلب ناموساً جديداً؟ الموت! الموت!

هبُّوا كالنار المستعرة واندفعوا اليهم، بعضهم مزود بالعصي والبعض الآخر بالسكاكين، أو بالحجارة. وتنحى العجائز جانباً يهتفون مشجّعين. واحتمى أصدقاء يسوع خلف أشجار الدلب عند حواف الساحة، واندفع آخرون خارجين الى العراء. أما يسوع نفسه فتقدم ووقف حائلاً بين الطرفين المتقاتلين. مدَّ ذراعيه وصرخ «اخوتي! اخوتي!»، ولكن لم ينصت اليه أحد. وتطايرت الحجارة بغضب وعلى الفور سمع أنين أول المصابين.

برزت امرأة بقوة من زقاق ضيق، تعصب وجهها بحزم بمنديل أرجواني، يغطي كل شيء فيه ما عدا نصف فمها وعينيها السوداوين النجلاوين، اللتين كانتا غارقتين بالدمع.

صرخت بصوتها الحاد «اكراماً للرب، لا تقتلوه!»

غمغم الناس «إنها مريم، أمه!»

ولكن كيف كان بإمكان العجائز أن يرأفوا بحال الأم وهم على ما هم عليه من تطرف أعمى. كانوا يجأرون «الموت! الموت! لقد جاء ليثير الناس، ليحثهم على التمرد، لتوزيع ممتلكاتنا على الرعاع الحفاة. الموت!»

هنا أمسك الخصوم بعضهم بتلابيب بعض، وتدحرج ولدا يوسف على الأرض، يجأران. قبض يعقوب على حجر وضرب به رأسيهما، ووقف يهوذا أمام يسوع شاهراً خنجره، مانعاً أي شخص من الاقتراب. وتذكر فيلبّس أغنامه فلم يعد باستطاعته أن يكبح زمام نفسه وأخذ يطيح بهراوته دون تمييز على رؤوس خصومه.

ومرة أخرى سمع صوت مريم يقول «باسم الرب، إنه مريض لقد فقد صوابه. اشفقوا عليه!»

لكن صرختها غرقت وسط الصخب. وكان يهوذا عندئذ قد أمسك بأقوى الشبان ووطأه بقدمه وسلّط الخنجر على نحره. لكن يسوع وصل في الوقت المناسب وأبعد ذراع ذي اللحية الحمراء.

صرخ «يهوذا، يا أخي، لا دماء! لا دماء!»

صرخ ذو اللحية الحمراء، وقد اضطرم غضبه «ماذا اذن ـ ماء؟ أنسيت أنك تحمل فأساً؟ لقد حانت الساعة!»

حتى بطرس أبدى حنقه، وقد استفزته الضربات التي تلقاها، فحمل حجراً كبيراً ثقيلاً وهجم على العجائز.

دخلت مريم الى مركز الشجار واقربت من ابنها. أمسكت بيده

وقالت «ماذا دهاك يا ولدي؟ كيف انحدرت الى هذا الحال؟ عُد الى البيت واغتسل، وبدِّل ملابسك وألبس صندلك. إن القذارة تسربلك يا ولدي»

قال «لا بيت لي، ولا أم. من أنت؟»

أخذت الأم تبكي، وتغرز أظافرها في وجنتيها، ولم تقل شيئاً.

طوَّح بطرس بالحجر الذي يحمله، فأصاب بقوة قدم الرجل العجوز ذا الحدبة المزدوجة. عوى المصاب من الألم وراح يقفز، منتقلاً خلال الأزقة باتجاه منزله. ولكن الحبر ظهر في تلك الآونة، وهو يلهث. فقد سمع الصخب فقفز عن طاولته التي كان منكباً عندها على قراءة الكتاب المقدس يجتهد لاستخلاص ارادة الرب من الكلمات والمقاطع الصوتية. ولكن حين سمع الضجيج تناول صولجانه وهرع ليرى ما يحدث. وكان قد قابل على طوال الطريق عدة جرحى وعرف كل شيء. وها هو يشق طريقه بين الحشد حتى وصل الى ابن مريم.

قال بصوت قاس «ما معنى كل هذا يا يسوع؟ أهذا أنت، حامل لواء المحبة؟ أهذه هي المحبة التي جلبتها معك؟ الا تخجل من نفسك؟»

ثم التفت الى الجمهور، وقال «يا أبنائي، عودوا الى منازلكم. هذا ابن أخي. إنه رجل مريض بائس، وهو مريض منذ زمن طويل. لا تكنّوا له ضغينة جراء ما قاله. اغفروا له. ليس هو من يتكلم، بل شخص آخر يستخدم فمه»

هتف يسوع «يا رب!»

قال الحبر بلهجة لاذعة «اصمت أنت»، ولمسه بصولجانه مؤنباً.

مرة أخرى التفت نحو الحشد، وقال «دعوه وشأنه، يا أبنائي. لا تكنوا له الضغينة، لأنه لا يعرف ماذا يقول. إننا جميعاً ـ أغنياء وفقراء ـ منحدرون من سلالة ابراهيم. لا تتقاتلوا فيما بينكم. لقد

انقضت الظهيرة، عودوا الى منازلكم، وسوف أتولى شفاء هذا الرجل التعس»

والتفت الى مريم «اذهبي الى المنزل يا مريم. وسنلحق بك في الحال»

ألقت الأم نظرة أخيرة على ولدها. نظرة شوق طويلة، وكأنها تودعه وداعاً أبدياً. تنهدت، وعضت على منديلها، ثم اختفت في الأزقة الضيقة.

بينما كان الناس يتذابحون غطت السحب صفحة السماء، واستعدت الأمطار للهطول وانعاش الأرض. ثم هبت الريح، وانفصلت آخر أوراق أشجار الدلب والتين عن أغصانها وتناثرت الأوراق على الأرض. وخلت الساحة من الناس.

التفت يسوع الى فيلبّس ومد له يده. قال «فيلبّس، يا أخي، أهلاً بك»

أجاب الآخر، وهو يضغط على يد يسوع «تسعدني رؤيتك يا معلم»، ثم سلمَّه عصاه، وقال «خذ هذه لتتكئ عليها»

قال يسوع «هيا، أيها الأنصار، لنذهب. انفضوا التراب عن أقدامكم. الوداع يا ناصرة!»

قال الحبر العجوز «سأرافقكم حتى أطراف القرية حتى لا يتعرض لكم أحد»

أمسك بيد يسوع، وسارا معاً في المقدمة. وشعر الحبر بكف يسوع تلتهب في قبضته قال «يا بني، لا تحمل هموم الآخرين على عاتقك، والا افترسوك»

«لا هموم شخصية لدى يا أبت ـ فلتفترسني هموم الآخرين!»

وصلوا الى نهاية الناصرة، ولاحت البساتين في الأفق، ومن خلفها الحقول. توقف المريدون في المؤخرة برهة لغسل جراحهم في

نبع للماء، وكان معهم عدد كبير من الفقراء والمعاقين، بالاضافة الى اثنين من العميان ـ وكانوا جميعاً يتحادثون وينتظرون النبي الجديد كي يقوم بمعجزاته. كانوا فرحين مرحين، وكأنهم عائدون من معركة عظيمة.

لكن المريدين الأربعة تابعوا المسير صامتين. أسرعوا متلهفين للاقتراب من المعلم ليواسيهم. لقد سخرت الناصرة، مسقط رأس سيدهم، منهم ونفتهم: ها قد بدأت الحملة العظمى بداية سيئة! وكانوا يقولون لأنفسهم، اذا ما طُردنا أيضاً من قانا ومن كفر ناحوم ومن كل مكان آخر يحيط ببحيرة جنيسارت، ماذا سيكون مآلنا؟ الى أين سنذهب؟ الى من سنعلن كلمة الرب؟ بعد أن أنكرنا شعب اسرائيل وسخر منا، الى من سنتوجه؟ الى الكفرة؟

نظروا الى يسوع، لكن لم يفه أي منهم بكلمة. لكن يسوع شاهد الخوف يطل من عيونهم، وأمسك بيد بطرس.

قال «بطرس، يا قليل الايمان، ثمة حيوان أسود اللون منتصب الشعر يجلس منكمشاً يرتعش داخل بؤبؤي عينيك. إنه الخوف يا بطرس، الخوف. أأنت خائف؟»

«حين أكون بعيداً عنك يا معلم، نعم، أخاف. لهذا تراني اقتربت منك، ولهذا اقتربنا جميعاً. حدِّثنا وثبِّت قلوبنا»

ابتسم يسوع، ثم قال «حين أغوص عميقاً في روحي لا أعرف كيف تنبثق الحقيقة دائماً من داخلي على شكل أمثولة ولماذا. لهذا يا أصدقائي، سأحدثكم مرة أخرى بلغة الأمثولات:

«أمر نبيل رفيع المقام ذات مرة باعداد وليمة في قصره بمناسبة حفل زفاف ولده وبعد أن ذُبحت الثيران ومُدَّت الموائد، أرسل خدمه ليعلنوا للمدعوين «كل شيء جاهز. تفضلوا، اذا شئتم، الى حفل الزفاف». لكن كُلاً من المدعوين بحث عن ذريعة للاحجام

عن المجيء. فقال أحدهم «لقد اشتريت حقلاً ويجب أن أراه»، وقال آخر «لقد تزوجت حديثاً ولا يمكنني أن أحضر»، وكان عذر التالي «لقد ابتعت خمسة أزواج من الثيران وأنا متوجه لأخضعها للاختبار» وعاد الخدم وقالوا لسيدهم «لن يتمكن أحد من المدعوين من الحضور، فكلهم مشغول»، فغضب النبيل وأمرهم قائلاً «أسرعوا الى الساحات ومفترق الطرق، واجمعوا من تجدونه من فقراء، ومعاقين، وعميان ومشوهين واحضروهم الى هنا. لقد دعوت أصدقائي لكنهم رفضوا دعوتي. لذا سأملأ بيتي بغير المدعوين لكي يأكلوا ويشربوا ويبتهجوا في حفل زفاف ابني»»

هنا سكن يسوع. كان قد بدأ كلامه بنبرة هادئة، لكنه كلما تكلم أكثر فكَّر أكثر بالناصريين وباليهود، واحتدم الغضب بين عينيه. وأدهش مظهره المريدين.

قال بطرس، وهو يحك رأسه في يأس «من هم المدعوون، ومن غير المدعوين، وما مغزى الزواج؟ اغفر لنا يا معلم، لكننا لا نفهم»

قال يسوع «سوف تفهمون حين استدعي المدعوين لدخول السفينة فيرفضون لأنهم كما يقولون لديهم حقول، وكروم عنب، وزوجات، ولأن عيونهم وآذانهم وشفاههم وأنوفهم وأيديهم هي الأزواج الخمسة من الثيران التي تحرث - تحرث ماذا ؟ جهنم التي لا قرارة لها !»

تنهد. شعر وهو ينظر الى رفاقه بأنه منبوذ تماماً. تمتم «ها أنا اتكلم، ولكن لمن؟ للفضاء. انني الوحيد الذي ينصت. متى ستنبُت الصحراء آذاناً تسمعني بها؟»

كرر بطرس القول «اغفر لنا يا معلم، لكن عقولنا ما هي الا كتل من الطين. فاصبر: سوف تزهر»

التفت يسوع ونظر الى الحبر، لكن العجوز كان يحدق إلى

الأرض. كـان لـديه هاجس مـشـؤوم حـول المعنى الـرهيب الخـفـي، وكانت عيناه الهرمتان الخاليتان من الرموش تترقرقان بالدمع.

عند أطراف الناصـرة، وأمـام سـقـيـفـة خـشـبـيـة، وقـف مـوظف الجمارك الذي يجمع المكوس، وكان اسـمـه متّى. وكان على كل التجار الذين يلجـون القـرية أو يغـادرونهـا أن يدفـعـوا مكوسـاً للرومـان. كـان قصـيـراً، وجـسـيـمـاً، ومـصـابـاً بـاليـرقـان؛ فـيـداه صـفـراوان ورخـوتان، وأصـابعـه ملوثة بالحـبـر، وأظافـر يديه سـوداء اللون؛ كـان ذا أذنين طويلتين شـعـراوين وصـوت رفـيـع كـصـوت خـصـي. وكـان أهل القـرية جميعاًيجدونه مثيراً للتقزز، وكرهوه. ولم يكن أحد يصافحه، وكان كل من يمر بالسقيفة يشيح ببصره عنه. ألا يقول الكتاب المقدس «واجبنا أن نـدفع المكوس للرب وحــده، ولـيس للناس»؟ وهـذا الـرجل جــابي ضـرائب، جـامـع مكوس يعمل لخـدمـة الطـاغيـة. لقـد انتـهك النامـوس، ويعتـاش من طريق غير مشـروعة. وكان الهواء من حوله ملوثاً وعلى بعد سبعة أميال.

قـال بطـرس «أسـرعـوا يا شـبـاب، احـبـسـوا أنفـاسكم. أشـيـحـوا بوجوهكم!»

توقف يسـوع عن المسيـر. كـان متّى واقـفـاً خـارج السـقـيـفـة يحـمل الريشة التي يكتب بها بين أسنانه. أخذت أنفاسه تتلاحق، لا يدري ماذا يفعل. كان يخشى أن يظل واقفاً في مكانه، إلا أنه لم يكن يرغب بالولوج الى داخل السقيفة. منذ زمن طويل وهو يتوق لالقاء نظرة عن قرب على النبي الجديد الذي يدّعي أن كل الناس أخوة. أليس هو من قال «الرب يحب العاصي الذي يتوب أكثر مما يحب من لم يعص قط»؟ وفي وقت آخر، ألم يقل «لقد جئت الى الدنيا ليس من أجل الصالحين بل من أجل العـصـاة: مع هؤلاء أحب أن أتكلم وأتناول الطعـام»؟ وقبل أيام سُئل «يا معلم، ما اسم الرب الحقيقي»؟، فأجاب «المحبة».

ظل متّى يقلّب هذه الكلمات في قلبه مراراً وتكراراً وعلى مدى أيام، ويقول وهو يتنهد «متى سأراه، متى سأخرُّ عند قدميه!». والآن ها هو يقف أمامه، لكن متّى يخجل أن يرفع بصره لينظر إليه. وقف لا يبدي حِراكاً، مطاطئ الرأس، وانتظر. ماذا كان ينتظر؟ سوف يمضي النبي الآن، وسيفقده الى الأبد.

خطا يسوع خطوة نحوه وقال «متّى»، بصوت غاية في الصفاء والرقة، حتى أن جابي الضرائب أحس بقلبه يذوب، ورفع عينيه. كان يسوع ماثلاً أمامه، ينظر إليه. كانت نظرته رقيقة ومسيطرة تماماً: اخترقت الموظف حتى أحشائه، وأنزلت السكينة الى قلبه وأنارت عقله. ارتعشت أعضاؤه الحيوية، لكن الشمس سقطت عليها وأدفأتها. ما أروع هذا الفرح، هذا اليقين، وهذه الصداقة! أيُعقل أن العالم بهذه البساطة وأن الخلاص بهذا اليسر؟

ولج متّى الى الداخل. أغلق دفاتره، وتأبط دفتراً فارغاً، وأقحم محبرته البرونزية في حزامه ووضع ريشته خلف أذنه. بعد ذلك أخرج مفتاحاً من حزامه، وأغلق باب السقيفة ورمى بالمفتاح الى الحديقة. بعد أن انتهى اقترب من يسوع بساقين ترتجفان، ثم توقف. أيتقدم أم لا؟ هل سيمُدّ له المعلم يده؟ رفع الى يسوع عينين تتوسلان اليه أن ارفق بي.

ابتسم له يسوع وقدَّم يده. قال «أهلاً بك يا متّى. تعال معي» انزعج المريدون وتنحوا جانباً. مال الحبر العجوز على أذن يسوع وقال له «يا ولدي، إنه جابي ضرائب هذا إثم عظيم. اتبع ما يقوله الناموس»

أجابه يسوع «أبت، إنني أتبع ما يقوله ناموس قلبي»

تجاوزوا منطقة الناصرة، مارين بالبساتين، حتى وصلوا الى الحقول. كانت تهب ريح صرصر. ولمع جبل حرمون وسط الظلام وقد تناثرت عليه أول تباشير الثلوج.

مرة أخرى أمسك الحبر بيد يسوع. أراد أن يتحدث اليه قبل أن يفترقا. ولكن ماذا يقول له؟ من أين يبدأ؟ إن يسوع يدَّعي أن الرب في الصحراء اليهودية ائتمنه فوضع النار في احدى يديه والبذرة في اليد الأخرى. قال أنه سوف يحرق هذا العالم ومن ثم سيزرع عالماً جديداً... وأخذ الحبر يرمقه خلسة. هل يصدقه؟ ألم يقل الكتاب المقدس أن من اختاره الرب سوف يُنبَذ ويُطردْ كشجرة ذابلة شطأت بين الحجارة؟ إذن يمكن أن يكون هذا الرجل هو المختار...

مال الحبر على يسوع وسأله بصوت منخفض، حتى لا يسمعه الآخرون «من تكون؟»

«لقد عايشتَني زمناً طويلاً، يا عمي شمعون - منذ الساعة الأولى لمولدي - وما زلت لا تعرفني؟»

توقف قلب الرجل العجوز عن الخفقان. غمغم «هذا يفوق قدرة عقلي على الاستيعاب، يفوق قدرته على الاستيعاب...»

«وماذا عن قلبك، يا عمي شمعون؟»

«يا ولدي، إنني لا أنصت الى قلبي، فهو يقود المرء الى الهاوية»

قال يسوع وهو يلقي على العجوز نظرة عطف «إنها هاوية الرب - الخلاص». ثم أردف على الفور «ألا تذكر يا أبت الحلم الذي رآه النبي دانيال ذات ليلة في بابل عن سلالة بني اسرائيل؟ رأى القديم الأيام جالساً على عرشه، لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كصوف خروف نقي. عرشه لهيب نار، ونهر من نار يتدفق عند قدميه، وتربع القضاة عن يمينه وعن يساره. ثم فتحت أبواب السماوات وهبط على متن السحب - من؟ أتذكر يا أبت؟»

أجابه الحبر العجوز الذي أمضى أجيالاً طويلة يقتات على هذا الحلم «ابن الانسان». بل لقد مرت عليه ليال كان يحلم خلالها بالحلم نفسه.

«ومن هو ابن الانسان يا أبت؟»

تداعت ركبتا الحبر العجوز، ونظر الى الشاب وقد تملَّكه الرعب. همس وبصره معلَّق بشفتي يسوع «من؟ من؟»

أجابه يسوع بصفاء «أنا»، ووضع يده على رأس العجوز، وكأنه يباركه.

ودَّ الحبر العجوز لو يتكلم لكنه لم يقوَ على فتح فمه.

قال يسوع، ماداً يده «وداعاً يا أبت. لا بد أنك رجل سعيد يا شمعون، لأن الرب أوفى بعهده ووجدك جديراً أن ترى، قبل أن تلقى منيَّتك، ما طالما تقت الى رؤيته طوال حياتك»

وقف الحبر يحدق اليه بعينين جاحظتين. ما هذا الذي يدور من حوله: عروش، وأجنحة، وابن الانسان على متن السحب؟ أهو يحلم؟ أيكون هذا النبي هو النبي دانيال؟ هل فتحت أبواب المستقبل في وجهه لكي يتمكن من النظر الى ما بداخلها؟ إنه لا يقف على أرض، بل يطفو فوق الغمام، وهذا الشاب الذي يمد له يده ويبتسم ليس ابن مريم، بل ابن الانسان!

شعر بالدوار، فغرز صولجانه في الأرض واستند عليه لكي لا يقع. ثم أخذ يملي ناظريه من يسوع الذي كان يمر من تحت الأشجار الخريفية ممسكاً بيده عصا رفيقه الراعي. أظلمت السماوات، ولم يتمكن المطر من التريُّث أكثر في السماء: فهطل. نقعت ملابس الحبر العجوز والتصقت بجسمه، وزرب الماء من شعره. ظل واقفاً وسط الطريق لا يبدي حراكاً، بالرغم من أنه كان يرتعش. وكان يسوع قد اختفى بين الأشجار، يتبعه رفاقه، لكن الحبر العجوز الواقف معرَّضاً للريح والمطر كان يراهم ما يزالون

يتـقـدمـون صـعـوداً. الى أين هم ذاهبـون؟ في أي اتجـاه؟ أهؤلاء الحفاة، الأميّون، الصعاليك، سيحرقون العالم؟ إن خطط الرب لجج لا تسبر أعماقها...

همس قائلاً «أدوناي، أدوناي...»، وبدأت دموعه تتهمر.

الفصل الثاني والعشرين

تجلس روما مهيمنة على كل الأمم هيمنة كاملة وذراعاها النهمتان ممدودتان واسعاً لتتلقى القوارب، والقوافل والآلهة وكل ما ينتجه العالم والبحار. ومع أنها لا تؤمن بأي إله إلا أنها تستقبل دون وجل وبتعطّف يثير السخرية كل الآلهة في قصورها؛ فمن بلاد فارس البعيدة عابدة النار يأتي مثرا حامل وجه الشمس ابن اهورا مازدا، يمتطي ظهر الثور المقدس الذي سرعان ما يموت؛ ومن أرض النيل الكثيرة الضروع، تأتي ايزيس التي تنطلق في الربيع تبحث في الحقول المزهرة عن القطع الأربع عشرة لزوجها وأخيها اوزيريس الذي قطع تايفون أوصاله؛ ومن أرض سوريا يأتي أدونيس، وسط مناحات تقطع نياط القلوب؛ ومن أرض فريجيا يأتي آتيس، ممدداً داخل تابوت ومغطى بأزهار بنفسج ذابلة؛ ومن أرض فينيقيا الشائنة تأتي عشتروت التي لها ألف زوج؛ وكل آلهة آسيا وافريقيا وشياطينهما؛ ومن أرض اليونان يأتي أولمبوس المتّوج بالبياض، وهادس السوداء.

إنها تستقبل كل الآلهة؛ فقد شقّت الطرق، وحررت البحار من

القراصنة واليابسة من اللصوص وفرضت السلام والنظام على العالم. لا أحد يعلو عليها، ولا حتى الاله. وتحتها ـ الجميع. الآلهة والناس كلهم مواطنو روما وعبيد لها. والزمن والفراغ لفيفتان غنيّتان بالزخارف والألوان مضمومتان في قبضتها. إنها تتبجّح قائلة، أنا أبدية، وهي تداعب النسر ذا الرأسين الجالس مستكيناً، بعد أن طوى جناحيه الملطّخين بالدماء، عند قدمي سيدته. وتقول روما في نفسها، أية روعة وأية بهجة مقيمة أن أكون كليّة القدرة وخالدة؛ وتغمر وجهها السمين المغرق بالمساحيق ابتسامة واسعة دهنية.

تبتسم، راضية... وتتسى. لَمنْ شقت الطرق البحرية والبرية، من أجل مَنْ ظلت تكدح على مدى قرون لتجعل الأمان والسلام يسودان العالم؟ لم يخطر ببالها قط أن تطرح على نفسها هذا السؤال. لقد سادت، وسنّت القوانين، وأضحت ثرية، وامتدت حتى شملت الكون كله ـ ولكن من أجل من، من أجل من؟

إنه من أجل الحافي القدمين الذي يتقدم في هذه اللحظة على الطريق المقفرة، الممتدة بين الناصرة وقانا، يتبعه حشد من الصعاليك. إنه لا يجد مكاناً يأوي إليه، ولا شيء يلبسه أو يأكله. إن كل مخازنه وأحصنته، وأثوابه الحريرية ما زالت في السماء ـ لكنها كانت قد بدأت تنزل.

إنه يسير متكئاً على عصا الراعي بين الغبار والحجارة بقدمين مدمّاتين. أحياناً يتوقف، ويميل على عصاه ويمسح ببصره دون أن يتكلم الجبال وينتقل منها الى منبع ضياء: الى الرب المتربع في الأعالي يسهر على البشر. ويرفع عصاه، يحييه، ومن ثم يواصل رحلته...

أخيراً وصل الى قانا. عند البئر في موقع خارج القرية كانت امرأة شابة شاحبة منتفخة الرحم تسحب الماء بسعادة وتملأ به

جرّتها. تعرّفوا عليها. إنها الفتاة التي حضروا حفل زفافها في الصيف. وكانوا في ذلك الوقت قد تمنّوا لها أن تنجب ولداً.

قال لها يسوع مبتسماً «لقد تحققت أمنيتنا». فاحمرت خجلاً وسألتهم إن كانوا عطاشى، فقالوا لا، فوضعت الجرة على رأسها ويممت شطر القرية ثم اختفت.

سار بطرس في المقدمة وأخذ يقرع كل الأبواب، هارعاً من عتبة دار الى أخرى، مدفوعاً بثمالة غامضة. وصرخ وهو يرقص «افتحوا! افتحوا!»

فتحت الأبواب وأطلّت منها نسوة. كان الليل يهبط. والمزارعون عائدين من حقولهم. فسألوه مدهوشين «ما الأمر يا صديق؟ لماذا تدق الأبواب؟»

أجاب بطرس «لقد جاء يوم الرب، إنه الطوفان يا رجال! إننا نمّد السفينة الجديدة بالمؤن. فيا كلّ المؤمنين: ادخلوها. انظروا! السيد يحمل المفتاح. خفّوا خطوكم الآن!»

استبد الخوف بالنساء. اقترب الرجال من يسوع، وكان قد جلس عندئذ على صخرة يحفر بعصاه رسوم صلبان ونجوم على التربة.

وتحلّق المرضى والمعاقون قادمين من كل أرجاء القرية حوله.

«يا معلم، المسنا حتى نُشفى. قل لنا كلمة طيبة لكي ننسى أننا عميان، ومعاقون ومجذومون»

هتفت سيدة عجوز ممشوقة القامة، ارستقراطية الهيئة متشّحة كلها بالسواد «كان لي ابن فصلبوه. أقمه من بين الموتى!»

من تلك العجوز النبيلة؟ والتفت المزارعون المدهوشون اليها. لم يكن قد صُلِبَ أحد من قريتهم. نظروا ليتبينوا من أين أتى الصوت ـ لكن السيدة العجوز كانت قد اختفت في ضوء الغسق.

كان يسوع منحنياً على التربة يحفر رسوم الصلبان والنجوم وينصت الى نفير الحرب المتاهي من التل المقابل. ثم سمع وقع خطى ثقيلة، منتظمة، وفجأة التمعت التروس والخوذات البرونزية تحت ضوء شمس المساء. التفت القرويون، وقد اكفهرّت وجوههم.

«الصياد اللعين عائد من رحلة صيده. لقد خرج من جديد للقبض على المتمردين»

«يقول إنه أحضر ابنته المشلولة الى قريتنا لمعالجتها بالهواء النقي. لكن رب اسرائيل لديه دفتر حساب وسجلات ولا يسامح. وسوف تُدفن في تراب قانا!»

«لا ترفعوا أصواتكم، أيها التعساء ـ ها قد وصل!»

مرَّ ثلاثة من الخيالة من أمامهم. في الوسط كان روفوس، قائد المئة في الناصرة. اقترب من حشد الفلاحين وهو ينخس مطيّته. وصرخ بهم وهو يشهر سوطه «لماذا تجتمعون؟ تفرقوا!» وكان الأسى بادياً على وجهه. ففي غضون بضعة أشهر أصبح عجوزاً، وغزا الشيب شعره. لقد حطّمته نوبات الألم على ابنته الوحيدة التي وجدت نفسها فجأة ذات صباح مشلولة وهي في سريرها. وأثناء تعنيفه القرويين وتفريقهم لمح يسوع جالساً بعيداً متنحياً على صخرة. وفجأة أشرق وجهه، ونخس فرسه واقترب منه.

قال «يا ابن النجار ها قد جئت من اليهودية ـ فأهلاً بك! لقد كنت أبحث عنك»

ثم التفت الى القرويين، وقال «لدي ما أقوله له. ابتعدوا!» ورأى المريدين والفقراء الذين تبعوه من الناصرة، وتعرّف على العديد منهم، وعبس.

قال «يا ابن النجار، لقد سبق لك أن ساعدت في صلب

الآخرين، فاحذر لئلا تُصلب أنت نفسك. لا تقرب الناس، ولا تُدخِل الأفكار الى رؤوسهم. إن يدي باطشة، وروما خالدة»

ابتسم يسوع، كان يعلم جيداً أن روما ليست خالدة، لكنه لم يفه بكلمة.

كان المزارعون المتذمرون قد تفرّقوا، ووقفوا بعيداً يحدقون الى المتمردين الثلاثة ـ كانوا رجلاً عجوزاً طويل القامة ذا لحية مدببة مع ولديه ـ قبض عليهم أفراد الفيلق وها هم يسوقونهم مكبّلين بالسلاسل. وكان الثلاثة برؤوس شامخة، يحدقون من فوق الخوذ الرومانية، محاولين أن يشاهدوا الحشد، لكنهم لم يروا شيئاً، لا شيء غير رب اسرائيل منتصباً في الجو، غاضباً.

تعرّف يهوذا عليهم. كان قد قاتل جنباً الى جنب معهم. أومأ لهم لكنهم لم يروه، لأنهم كانوا مبهورين بروعة الرب.

قال قائد المئة، وهو ينحني كثيراً لأنه ما يزال يمتطي فرسه «يا ابن النجار، هناك آلهة تكرهنا وتقتلنا، وآلهة أخرى لا تتنازل بالنظر نحونا لترانا، ولكن هناك آلهة تتخذ موقفاً ودياً منا وهي رحيمة باستمرار، وتعمل على شفاء اليائسين من أمراضهم. يا ابن النجار، الى أي من هذه الفئات ينتمي ربك؟»

أجابه يسوع «ليس هناك غير رب واحد، فلا تكفر يا قائد المائة!»

هزّ روفوس رأسه، وقال «إنني لا أبغي أن أدخل في نقاش لاهوتي معك. إنني أمقت اليهود، واعذرني اذا قلت لك أنكم جميعاً تضربون دون انقطاع على وتر الرب. إن ما أريد معرفته هو ما يلي: ألا يستطيع ربك أن...»

هنا سكت. كان خجلاً من الهبوط الى مستوى طلب معروف من يهودي، ولكن على الفور تمثّلت في مخيلته صورة سرير ضيق

طاهر، يتمدد عليه جسد شاحب لا حراك به لفتاة صغيرة ذات عينين خضراوين كبيرتين تنظران اليه، وتطيلان النظر، متوسلة اليه...

تنازل عن كبريائه ومال أشد من ذي قبل من فوق سرجه، وقال «يا ابن النجار، ألا يقدر ربك على شفاء المرضى؟»

سلّط الى يسوع نظرة ملؤها العذاب، وعاد يسأله من جديد، لمّا طال صمته «ألا يقدر؟»

وببطء، نهض يسوع عن الصخرة التي كان يجلس عليها واقترب من الفارس. قال ««الآباء يأكلون الحصرم والأولاد يضرسون». هذا هو ناموس ربي»

صرخ قائد المائة وقد أصابته الرعدة «هذا ظلم!»

عارضه يسوع قائلاً «لا، بل عدل! الأب والابن هما من جذر واحد، وهما يرتفعان معاً الى السماء، ومعاً ينحدران الى الجحيم. فاذا ضربت أحدهما، جُرح الاثنان معاً، واذا ارتكب أحدهما خطأ، عوقب الاثنان معاً. وأنت، يا قائد المائة، تطاردنا وتقتلنا، ورب اسرائيل ينزل ضربته على ابنتك فيشلّها»

«يا ابن النجار، إن وقع هذه الكلمات ثقيل. كنت قد سمعتك ذات مرة تتكلم في الناصرة، وبدت كلماتك عندئذ أرق مما اعتاد أي روماني سماعه. أما الآن...»

«عندئذ كانت مملكة السماء هي التي تتكلم، أما الآن فإنها نهاية العالم. ومنذ أن سمعتني، يا قائد المائة، جلس القاضي العادل على عرشه، وفتح دفاتر حسابه ونادى على العدالة، فمثلت بين يديه والسيف في يدها، ووقفت الى جواره»

صاح قائد المائة ساخطاً «هل ربك، إذن، هو ربٌ أقصى ما بوسعه عمله إقامة العدل؟ أهنا يتوقف عمله؟ ماذا اذن عن الدعوة

الجديدة للمحبة التي ناديت بها في الصيف الفائت في الجليل؟ إن ابنتي ليست بحاجة الى عدالة الرب، بل الى محبته. إنني أبحث عن رب يذهب الى أبعد من اقامة العدالة ويمكنه أن يشفي ابنتي. لهذا تراني قلبت كل حجر في أرض اسرائيل بحثاً عنك... أريد المحبة - أتسمع؟ المحبة، لا العدالة»

«يا قائد المائة الروماني، يا عديم المحبة والرحمة: من لقّن فمك الهمجي هذه الكلمات؟»

«معاناتي، ومحبتي لابنتي. إنني أبحث عن رب يشفي ابنتي، حتى أؤمن به»

«طوبى لمن يؤمنون بالرب دون أن يطلبوا المعجزات»

«نعم، طوبى. لكني رجل قاس وليس من السهل اقناعي. لقد رأيت الكثير من الأرباب في روما - لدينا منهم الآلاف محبوسون في أقفاص - وقد سئمتهم!»

«وأين ابنتك؟»

«هنا. إنها في حديقة تقع في أعلى مكان في القرية»

«هيا بنا اليها»

دبّت الهمّة في قائد المائة فقفز مترجلاً عن حصانه، ومشى هو ويسوع في المقدمة، ومن خلفهما على مبعدة تبعهما المريدون، وأبعد منهم سار الفلاحون. في تلك اللحظة ظهر توما، يطفر من الفرح، من خلف حرس مؤخرة الفيلق. كان يتغلغل خلف جنوده، يبيعهم سلعه بربح وافر.

هتف به المريدون «هيه، توما، أما زلت لا تريد أن ترافقنا؟ الآن سترى المعجزة بعينيك وستؤمن»

أجاب توما «يجب أن أرى أولاً، وأن ألمس»

«تلمس ماذا، أيها التاجر الداهية»

«الحقيقة»

«وهل للحقيقة جسد؟ ما هذا الهراء الذي تقوله، أيها الأحمق!»

قال توما ضاحكاً «اذا لم يكن لها جسد، فما حاجتي بها؟ إنني بحاجة إلى أن ألمس الأشياء. إنني لا أثق بعينيّ ولا بأذنيّ، بل أثق بيديّ»

وصلوا الى أعلى مكان في القرية ودخلوا منزلاً مبيَّضاً بماء الكلس، يبهج النظر.

كانت هناك فتاة في نحو الثانية عشرة من عمرها مستلقية على سرير أبيض، وعيناها الكبيرتان الخضراوان مفتوحتين،. وحين رأت والدها أشرق وجهها. ارتعشت روحها بقوة، وهي تحاول أن ترفع جسدها المشلول، ولكن عبثاً، وخبا الفرح عن وجهها. مال يسوع على الفتاة وأمسك بيدها. وتجمعّت كل قواه في كفه - كل ما به من قوة ومحبة ورحمة. وثبّت عينيه، دون أن يتكلم، في العينين الخضراوين وشعر بروحه تتدفع بقوة من أطراف أصابعه لتنتقل الى جسد الفتاة. فرمقته بنظرة متّقدة وشفتاها متباعدتان ترتسم عليهما ابتسامة.

دخل المريدون الغرفة على أطراف أصابع أقدامهم، وكان توما الأول والأسبق بينهم، يحمل كيس سلعه على ظهره وبوقه تحت حزامه. وتوزّع الفلاحون في أرجاء الحديقة وفي الزقاق الضيق. كان الجميع يحبسون أنفاسهم وينتظرون. واتكأ قائد المائة على الجدار، يراقب ابنته ويجاهد كي يخفي ألمه.

شيئاً فشيئاً أخذت وجنتا الفتاة تتوردان، وصدرها يخفق، وكان وخز لذيذ يتغلغل فيها منتقلاً من يدها الى قلبها، ومن قلبها حتى أخمصي قدميها. وأصدر منخراها حفيفاً واهتزا كأوراق شجر

الحور هبّت عليه نسائم لطيفة. شعر يسوع بيد الفتاة تنبض وكأنها قلب وتعود الى الحياة وهي في كفّه. عندئذ فقط فتح فمه وتكلم.

قال بلهجة آمرة رقيقة «انهضي، يا ابنتي!»

تحركت الفتاة بهدوء، وكأنها تستعيد وعيها بعد خدر، وتمطّت كالمستيقظ من النوم، ثم أسندت يديها على السرير، ورفعت جسمها - وبقفزة واحدة أصبحت بين أحضان والدها. وجحظت عينا توما المدورتان من رأسه. مدّ يده ولمس الفتاة رغبة منه كما بدا في أن يتأكد من أنها حقيقية. وصعق المريدون دهشة وخوفاً. وأطلق الحشد المحيط من كل جانب صرخة عالية لبرهة، وبعدها على الفور عقد الرعب ألسنته. ولم يعد يسمع غير ضحك الفتاة المنعش وهي تعانق والدها وتمطره بالقبل.

تقدم يهوذا من سيده، ووجهه ملؤه والغضب والشر. قال «إنك تبدد قواك على الكافرين، وتساعد أعداءنا. أهذه هي نهاية العالم التي بشّرتنابها؟ أهذا هو اللهب؟»

إلا أن يسوع، المحوّم بعيداً في أجواء مظلمة، لم يسمعه. لقد كان أشد خوفاً من الجميع لمرأى الفتاة وهي تقفز خارج سريرها. وشكّل المريدون، الذين لم يعد باستطاعتهم كبت فرحهم، حلقة وراحوا يرقصون حوله. اذن - فقد أحسنوا عملاً بالتخلي عن كل شيء والانضمام إليه. إنه الشخص الحقيقي: إنه يقوم بالمعجزات. تخيّل توما ميزاناً وراح يزن الأمور. وضع في احدى الكفتين سلعه، وفي الأخرى مملكة السماء. تذبذبت الكفتان لبعض الوقت وأخيراً استقرتا. لقد رجحت كفة مملكة السماء. نعم. إنها مجازفة رائعة: سأعطي خمسة، فقد أحصل على ألف. اذن، باسم الرب، والى الأمام!

اقترب من السيد وقال له «يا معلم، اكراماً لخاطرك الغالي سأوزع سلعي على الفقراء. فأرجوك لا تنس ذلك غداً حين تحل

مملكة السماء. إنني أضحي بكل شيءلكي أرافقك، فاليوم رأيت الحقيقة ولمستها»

لكن يسوع كان ما يزال شارداً. لقد سمعه لكنه لم يدلِ بجواب.

تابع التاجر الآنف الذكر قائلاً «سأحتفظ فقط ببوقي لكي أنفخ فيه وأجمع الناس وأنادي فيهم: إننا نبيع سلعاً جديدة، تدوم أبداً - ومجاناً!»

تقدم قائد المائة، وما يزال يحمل ابنته بين ذراعيه، من يسوع وقال «أيها الورع، لقد أعدت الحياة الى ابنتي. ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك؟»

أجاب يسوع «لقد حررت ابنتك من قيود الشيطان. فحرر أنت، يا قائد المائة، هؤلاء المتمردين الثلاثة من قيود روما»

طأطأ روفوس رأسه وتنهد. غمغم بحزن «لا أستطيع. حقاً، لا أستطيع. لقد أخذت عهداً على نفسي أمام الامبراطورية الرومانية، تماماً كما أخذت أنت عهداً على نفسك أمام الرب الذي تعبده. فهل يجوز أن نخون عهدينا؟ أطلب مني أي معروف آخر تريده. إنني مغادر الى اورشليم بعد غد وأود أن أرد لك معروفك قبل أن أذهب»

أجاب يسوع «يا قائد المائة، ذات يوم سنتقابل في اورشليم المقدسة في ظرف صعب. وعندئذ سأطلب منك المعروف. وحتى ذلك الحين، صبراً»

وضع يده على شعر الفتاة الأشقر وأبقاها فترة طويلة، وأغمض عينيه، فشعر بدفء الرأس، بنعومة الشعر، بعذوبة الأنوثة.

أخيراً قال، بعد أن فتح عينيه «يا طفلتي، سأقول لك شيئاً لا أريدك أن تنسيه. خذي بيد والدك وقوديه الى الطريق الصحيحة»

فسألته الفتاة «وما هي الطريق الصحيحة، أيها الورع؟»

«المحبة»

أعطى قائد المائة أوامره، فأُحضر الطعام والشراب، وأُعدت المائدة.

قال مخاطباً يسوع ومريديه «أنتم ضيوفي، هذا المساء ستأكلون وتشربون في هذا المنزل، لأنني احتفل بعودة ابنتي الى الحياة. لم أسعد هكذا منذ سنين عديدة. واليوم قلبي ملآن حتى الزبى بالفرح: فأهلاً بكم!»

ثم مال على يسوع، وقال «إنني أدين بقدر عظيم من الامتنان للرب الذي تعبده. فاعطني إياه حتى أرسله الى روما وأضمّه الى باقي الأرباب»

أجاب يسوع «سيصل الى هناك وحده»، ثم خرج الى الفناء ليستنشق بعض الهواء.

هبط الليل، وأخذت النجوم ترصّع قبة السماء. وفي الأسفل في القرية الصغيرة أضيئت المصابيح ولمعت عيون الناس. وفي هذا المساء ارتفعت نبرة حديثهم اليومي درجة أعلى من المعتاد، فقد كانوا يشعرون أن الرب دخل الى قريتهم، ويربض فيها كأسد أليف.

أُعدّت المائدة، وجلس يسوع بين مريديه ووزع الخبز ولكن دون أن يتكلم. ففي داخله كانت روحه ما تزال ترفرف بجناحيها بقلق وكأنها افلتت من خطر داهم أو أكملت أداء مأثرة عظيمة وغير متوقعة، ومريدوه الجالسون حوله أيضاً لم يتكلموا، لكن قلوبهم كانت تطفر من شدة الفرح. إن كل ما قاله عن نهاية العالم وعن مملكة السماء لم يكن مجرد أضغاث أحلام ولحظات اثارة، بل هو الحقيقة، وهذا الشاب الأسمر الحافي، الجالس الى جوارهم، الذي يأكل، ويتحدث ويضحك وينام مثلهم جميعاً كان حقاً رسول الرب.

بعد أن انتهوا من تناول الطعام واستلقوا ليناموا، ركع متّى تحت المصباح، وأخرج الدفتر الفارغ من تحت قميصه، وتناول

ريشته من خلف أذنه، ومال على الصفحات الخاوية وظل هكذا يتأملها زمناً طويلاً. كيف يبدأ؟ ومن أين يبدأ؟ لقد وضعه الرب الى جوار هذا الرجل التقي لكي يسجل بأمانة الكلمات التي يقولها والمعجزات التي يقوم بها، حتى لا تندثر ولكي تتعرف عليها الأجيال القادمة وتختار بدورها درب الخلاص. حتماً هذا هو الواجب الذي أوكله الرب بأدائه. إنه يعرف القراءة والكتابة، لذا تقع على عاتقه مسؤولية ثقيلة: أن يجمع بقلمه كل ما يوشك أن يندثر، وأن يعمل على تخليده، بتدوينه. فليمقته المريدون، فلينفروا من مجلسه لأنه كان ذات يوم جابي ضرائب. سوف يريهم الآن أن العاصي التائب أفضل ممن لم يرتكب معصية.

غمس ريشته في المحبرة البرونزية وسمع رفرفة أجنحة عن يمينه، وكأن ملاكاً أتى يهمس في أذنه ويملي عليه. وبدأ يكتب بيد واثقة سريعة: «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داوود ابن ابراهيم. ابراهيم ولد ....»

وراح يكتب ويكتب حتى اصطبغ الشرق بوهج أبيض مزرقّ وسمع أول صياح للديك.

وغادروا، وسار توما في المقدمة مع بوقه. نفخ فيه فاستيقظت القرية برمتها، وأخذ يصيح «وداعاً، أراكم في مملكة السماء»، وتقدم يسوع من المؤخرة مع المريدين وجموع صعاليك، ومعاقي الناصرة، الذين كانوا ما يزالون يتبعونه، وقد ازداد عددهم بعد انضمام آخرين جدد من قانا. كانوا ينتظرونه قائلين لأنفسهم، لا يمكن أن ينسانا. ستحين الساعة المباركة التي يلتفت فيها الينا أيضاً، ويخلصنا من الجوع والمرض... وفي هذا اليوم ظل يهوذا في آخر الموكب. كان قد عثر على مجموعة من أكياس السفر الكبيرة وكان يقف أمام كل باب ويتكلم مع ربات البيوت بنبرة ما بين التوسل والتهديد، «إننا نعمل

لأجلكم، أيها المساكين، لكي نخلصكم. أما أنتم فعليكم أن تساعدونا - ابعدوا عنا شبح الموت جوعاً. يجب أن تعلموا أنه حتى القديسين عليهم أن يأكلوا ليقووا على تخليص الانسانية. أعطونا بعض الخبز، والجبن، والزبيب، والتمر، وحفنة من الزيتون: مهما كانت الكمية فإنها ستدّون عند الرب وتجزون من اجلها في العالم الآخر. اعطونا شقاً من حبة زيتون فيجازيكم الرب ببستان كامل منه»

فإذا ما توانت احدى ربات البيوت عن فتح مخازنها، صرخ بها «لماذا أنت شديدة البخل يا سيدة؟ غداً أو بعد غد، أو حتى هذا المساء، ستُفتح أبواب السماوات، وتصبّ نار جهنم وتذهب كل مخزوناتك هباءاً ما عدا ما وهبتنا إياه. فإذا ما تم خلاصك، أيتها المخلوقة التعسة، فإن ذلك مرجعه الى الخبز والزيتون وزجاجة الزيت التي وهبتيها!»

تفتح النسوة المذعورات مخازنهن، وقبل أن يصل يهوذا الى أطراف القرية تكون أكياسه قد فاضت بما تحمله من صدقات.

كان الشتاء قد بدأ؛ والأرض ترتعش. وكثير من الأشجار التي تعرّت تماماً كانت تشعر بالبرد. وأخرى - كالزيتون والنخيل، والسرو - باركها الله واحتفظت بحللها القشيبة سليمة لم تمسّ صيفاً وشتاءاً. وكذا الأمر مع الناس: كل الفقراء كانوا يرتعدون من البرد، كاالأشجار العارية... وكان يوحنا قد دثّر يسوع بردائه الصوفي، فارتعدت فرائصه وأخذ يحث خطاه متعجلاً الوصول الى كفر ناحوم ليفتح صناديق أمه. فقد كانت العجوز سالومه على مدى حياتها قد نسجت أشياء كثيرة، وكان قلبها مفعماً بالنبل والكرم. سوف يوزّع الملابس الدفيئه على أصحابه، ولن يأبه لتذمر زبدى العجوز البخيل، لأن سالومه بكل عنادها وعذوبتها، كانت هي صاحبة الأمر والنهي في المنزل.

فيلبّس أيضاً كان متعجلاً، يفكر في صديقه الحميم نثائيل، المنكفئ طوال نهاره في كفرناحوم، يخيط الصنادل والأخفاف ويرقعها، وقد ضاعت حياته بهذه الطريقة. ليت لديه متسعاً من الوقت ليجعله يرفع عقله نحو الرب، ليسند سلّم يعقوب على السماوات ليصعد! وكان يتساءل آه، متى أصل الى هناك لأكشف عن السر للبائس المسكين، حتى يحظى هو أيضاً بالخلاص!

انعطفوا، مخلّفين طبريا وراءهم الى اليسار - طبريا، المزدراة من الرب، بحاكمها قاتل المعمداني الموعود بنار جهنم. اقترب متّى من بطرس ليسأله حول كل ما يذكره عن نهر الأردن وعن المعمداني، لكي يدوّنه حدثاً بعد حدث، لكن بطرس نكص وأشاح بوجهه جانباً ليتجنّب استنشاق أنفاس جابي الضرائب. حزن متّى، وتأبط دفتره نصف الملآن، وتلكأ في خطواته حتى أصبح في المؤخرة، وقابل سائقي عربتين كانا يترددان على طبريا، فاستجوبهما ليعلم منهما - ويدّون في دفتره - كيف ارتكبت الجريمة الشنيعة. أحقاً أن الحاكم شرب حتى ثمل وأن سالومه ابنة زوجته رقصت أمامه عارية؟ كان على متّى أن يعرف كل التفاصيل ليدوّنها ويخلّدها كتابة.

في ذلك الوقت كانوا قد وصلوا الى بئر كبيرةٍ واقعة خارج بلدة مجدلة. كانت السحب تغطي عين الشمس، وأسدِل على وجه الأرض خمار رقيق من الظلمة. وبدأت تهطل خيوط رفيعة من المطر، واصلة السماء بالأرض... رفعت المجدلية عينيها الى منور بيتها فرأت السماوات تكفهرّ، فغمغمت «الشتاء حل بنا، ويجب أن أسرع»، وأدارت البكرة وبدأت تغزل الصوف الممتاز النوعية الذي عثرت عليه بسرعة كبيرة. كانت تنوي أن تنسج عباءة دفئة لمحبوبها ليدرأ بها عنه البرد. وكانت بين الفينة والأخرى تلقي نظرة على

الفناء وتُعجَب بشجيراتها الضخمة من الرمان وبحملها الوافر من الثمار. لقد رعت شجيرات الرمان ولم تقطعها، فقد نذرتها جميعاً ليسوع. وقالت في نفسها، إن رحمة الرب لا نهاية لها. وذات يوم سوف يمر محبوبي مرة أخرى من هذا الدرب الضيق، وعندئذ سوف أملأ ذراعيّ بثمار الرمان وأضعها عند قدميه. وسوف ينحني، ويأخذ واحدة ويتلذذ بأكلها... وبينما هي تغزل، وتعجب بشجيراتها من الرمان، قلّبت في ذهنها كل مراحل حياتها، ووجدت أنها قد بدأت وانتهت مع يسوع، ابن مريم. ما أشد حزنها، وما أكبر فرحها! لماذا تركها جالسة تفتح بابها على ذاك الليل اللانهائي ليفر مثل اللصوص؟ الى أين يذهب؟ ترى أما يزال يصارع الأشباح بدل أن يحرث الأرض، ويشكّل الخشب أو يصطاد السمك، بدل أن يتخذ له زوجة (النساء أيضاً من خلق الرب) وينام الى جوارها؟ آه، ليته فقط يمر من مجدلة لتهرع وتضع رماناتها عند قدميه لتنعشه بأكلها!

بينما هي تتفكّر في كل هذا وتدير البكرة بيدها الماهرة السريعة، سمعت هتافاً، ووقع أقدام ثقيلة في الطريق. نفير بوق – مرحبا!!! أليس هذا توما البائع المتجول الأحول – ومن ثم سمعت صوتاً حاداً يقول:

«افتحوا، افتحوا أبوابكم. لقد جاءت مملكة السماء!»

قفزت المجدلية واقفة، وقلبها يخفق من الفرح. لقد جاء! جاء! وشاعت في كل جسمها رعشة دافئة. اندفعت الى الخارج، ناسية أن تضع المنديل على رأسها، وشعرها مسترسل على كتفيها. اجتازت الفناء وظهرت على عتبة البيت، ثم رأت السيد. فأطلقت صرخة الفرح وخرّت عند قدميه، وهمست «يا معلم، يا معلم، أهلا بك!»

كـانت قـد نسـيت أمـر الرمـان ونذرها. عـانقت الركـبـتين المقـدستين وانتثـر شـعرها، الذي كان مـا يزال يفـوح بعـبق عطوره القديمة الملعونة، على الأرض.

همست «يا معلم، يا معلم، أهلاً بك». ثم راحت تجره برفق نحو بيتها البائس.

انحنى يسوع، وأمسك بها بيده وأنهضها. أمسك بها، بخجل وافتتان، تماماً كما يمسك عريس غير خبير بعروسه. تغلغلت البهجة في كل جسمه وحتى جذوره. لم تكن المجدلية من أنهضها عن الأرض، بل روح الانسان - وكان هو عريسها. ارتعشت المجدلية، واحمرّت خجلاً، وأرسلت شعرها على صدرها لتستره. ونظر اليها الجميع دهشين. كم نحلت، وشحُب لونها! وكانت تحيط بعينيها حلقتان ارجوانيتان، وذبلت شفتاها الصارمتان الممتلئتان كزهرة لم تروَ بالماء. وكانت هي ويسوع يسيران يداً بيد ويحلمان. وبدل أن يطأآ الأرض كانا يرتفعان في الهواء ويتقدمان. أيكون هذا عرساً؟ أيكون الحشد الرث الذي يتبعهما، ويملأ الطريق كلها، موكب عرس؟ وشجيرة الرمان التي شوهدت في الفناء تنوء بحملها من الثمار، أيمكن أن تكون روحاً لطيفة، أو إلآهة تحرس المنزل، أو ربما امرأة بسيطة محظوظة جداً، أنجبت صبياناً وبنات، وها هي الآن تقف وسط فناء دارها تتأملهم باعجاب؟

قال يسوع بصوت منخفض «يا مجدلية، لقد غفرت لك كل آثامك، لأن قلبك مملوء بالمحبة»

مالت الى الأمام، تشيع في جنباتها سعادة غامرة. ودّت لو تقول، أنا بتول! لكن الفرح كان يغلبها، فلم تتمكن من فتح فيها.

هرعت وسلبت شجرة الرمان ثمارها، وملأت مئزرها منها وشكلّت برجاً من الثمار الحمراء الرطيبة عند قدمي محبوبها. وما

حدث إثر ذلك هو بالضبط ما كانت ترغب بحدوثه رغبة عارمة. فقد انحنى يسوع والتقط رمانة، وشقها، وملأ يده بحباتها، ورطّب بها حلقه. ومن ثم أخذ المريدون ينحنون كل بدوره ويأخذ كل منهم رمانة وينتعش بأكلها.

قال يسوع «يا مجدلية، لماذا تنظرين اليَّ بهاتين العينين القلقتين، وكأنك تلقين عليَّ نظرة الوداع؟»

«يا محبوبي، إنني أرحب بك وأودعك في كل لحظة منذ يوم مولدي». تكلمت بصوت شديد الانخفاض حتى أنه لم يتمكن من سماعها غير يسوع ويوحنا، الأقرب منها.

وبعد برهة من الصمت، تابعت قائلة «يجب أن أملي ناظري من مرآك، لأن المرأة خُلقت من جسد رجل وما زالت لا تقوى على فصل جسدها عن جسده. أما أنت فيجب أن تحدّق الى السماء، لأنك رجل، والرجل خلقة الرب. فدعني أملي ناظري منك، يابني»

تفوهت بالكلمة الخطيرة «يا بني» بصوت منخفض بدرجة لم تسمح حتى ليسوع بسماعها. لكن ثديها كان عامراً بما يحتويه، وينتفض بحركة وكأنها ترضع وليدها.

سادت غمغمة بين الحشد. فقد وصل فجأة فوج جديد من المرضى واحتل الفناء بكامله.

قال بطرس «يا معلم، إن الناس يتذمرون وضاقت صدورهم»

«ماذا يطلبون؟»

«كلمة طيبة؛ معجزة. انظر اليهم»

التفت يسوع فشاهد وسط الجو المضطرم المنذر بالمطر حشداً غفيراً من الأفواه نصف الفاغرة توقاً، وعيوناً تحدق اليه بألم. وتقدم عجوز من بين الحشد، وكانت رموشه قد سقطت: أصبحت عيناه أشبه بجرحين. وقد أحاط عنقه الشبيه بالهيكل العظمي

بعشر من التمائم، وكل منها يحتوي على احدى الوصايا العشر. ثم اتكأ على عصاه المدببة الطرف واقفاً على عتبة البيت.

قال بصوت ملؤه الحزن والتألم «يا معلم، انني أبلغ المائة من العمر، وحول عنقي أعلق وصايا الرب العشر، لتكون ماثلة أمام عينيّ. وأنا لم أعصَ أي واحدة منها. وفي كل عام أذهب الى أورشليم وأقدم كبشاً أضحية لرب الجنود المقدس، وأضيء شموعاً وأحرق بخوراً عَطِراً. وفي الليل، بدل أن أغط في النوم، أرتّل المزامير. أحياناً تراني أحدق الى النجوم، وحيناً الى الجبال - وأنتظر، وأنتظر أن يهبط عليّ الرب وأراه. وهذا هو التعويض الوحيد الذي أتمناه. لقد انتظرت حتى الآن سنين عديدة، ولكن عبثاً. إنني أضع قدماً في القبر، ولم أره حتى الآن. لماذا، لماذا؟ إن حزني لا يضاهيه حزن يا معلم. متى سأرى الرب، متى سأجد السكينة؟»

كان غضبه يتعاظم كلما تكلم أكثر، حتى أنه أخذ يضرب بعصاه المدببة الطرف الأرض ويصرخ.

ابتسم يسوع. ثم أجاب «أيها العجوز، كان يا مكان في قديم الزمان عرشٌ من الرخام قائم عند البوابة الشرقية لمدينة عظيمة. وكان يتربع على هذا العرش ألف ملك عيونهم اليمنى عوراء، وألف ملك آخرون عيونهم اليسرى عوراء وألف ملك أيضاً سليمو البصر تماماً. ونادوا جميعاً الرب كي يظهر لهم ويروه، ولكن ماتوا جميعاً دون أن تتحقق أمنيتهم. وبعد أن مات الملوك جاء رجل فقير، حافي القدمين وجائع، وجلس على العرش، وهمس «يا رب، إن عيون البشر لا تقوى على التحديق مباشرة في عين الشمس، لأن أبصارهم تنبهر وتعمى. فكيف يمكنهم، يا كليّ القدرة، أن ينظروا اليك مباشرة؟ ارفق بي، يا رب، اضبط قوتك، أبعد روعتك عني

حتى أتمكن، أنا الفقير المبتلى، من رؤيتك!». ثم ـ انتبه أيها العجوز! ـ صار الرب قطعة خبز، وكأساً من الماء المنعش، ورداءاً دافئاً، وكوخاً، وأمام الكوخ جلست امرأة ترضع وليداً. مدّ الفقير ذراعيه وابتسم بسعادة، وهمس «شكراً لك، يا رب، لقد تواضعتَ اكراماً لي. أصبحت خبزاً، وماءاً، ورداءاً دافئاً وزوجتي ووليدي حتى أراك. وها أنا أراك. إنني أسجد لوجهك المتعدد الوجوه وأعبده!»»

لم ينطق أحد بكلمة. أطلق العجوز تنهيدة أشبه بزفير ثور، ثم مدَّ عصاه المدببةالى الأمام واختفى بين الجمع الغفير. بعد ذلك رفع شاب صغير، متزوج حديثاً، قبضة يده وصرخ «يقولون أنك تحمل ناراً سوف تحرق العالم برمته ـ وستحرق منازلنا وأطفالنا. أهذه هي المحبة التي تدّعي أنك تجلبها إلينا؟ أهذه هي العدالة: النار؟»

امتلأت عينا يسوع بالدموع، وأشفق على ذلك الشاب المتزوج حديثاً. حقاً، أهذه هي العدالة التي جلبها: النار؟ أما من سبيل آخر للوصول الى الخلاص.

وهتفت ربة منزل كانت عندئذ تشق طريقها خلال الجمع لتقترب وتسمع الجوب بشكل أفضل، بما أنه كان من الصعب سماع صوته. قالت «أخبرنا بوضوح ماذا علينا أن نفعل لنحظى بالخلاص»

قال يسوع بصوت هادر «افتحوا قلوبكم، افتحوا خزائنكم، ووزعوا ممتلكاتكم بين الفقراء! لقد جاء يوم الرب! إن كل من يبخل برغيف من الخبز، أو بإناء من الزيت أو بقطعة أرض حتى يوم مماته فسوف يجد هذا الخبز وذاك الاناء وتلك التربة معلقة حول عنقه وتجره الى أعماق جهنم»

قال صاحب المنزل «أذناي تطنان. اعذروني اذا غادرت، ولكني أشعر بدوار»

وخرج حانقاً يبغي منزله المرفّه، وحث خطاه وهو يغمغم لنفسه ويلعن «اسمعوا هذا! نوزّع أرزاقنا بين الرعاع الوضيعين! أهذه هي العدالة؟ فليذهب الى الجحيم»

راقبه يسوع وهو يبتعد، فتنهد وقال «واسعة هي بوابة جهنم، واسع الدرب، ومحفوف بالأزاهير. أما بوابة مملكة الرب فضيّقة، والدرب اليها صاعدة. وما دمنا أحياء فبمقدورنا أن نختار، فالحياة تعني الحرية. ولكن حين يأتي الموت، فهو القدر المحتوم ولا انعتاق منه»

وصرخ رجل يمشي على عكاز «اذا اردتني أن أؤمن بك، فقم بمعجزة واشفني. أيعقل أن أدخل مملكة الرب وأنا أعرج؟»

«وأنا مجذوم؟»

«وأنا أكتع؟»

«وأنا أعمى؟»

وتقدم المعاقون كتلة واحدة ووقفوا أمامه وقفة تهديد وأخذوا يصرخون بعد أن فقدوا قدوتهم على ضبط النفس.

رفع رجل عجوز أعمى عصاه وجأر «اشفنا والا لن ندعك تغادر قريتنا وأنت حي!»

انتزع بطرس العصا من يد العجوز قائلاً «إن من يحمل أرواحاً كأرواحكم، أيها البلهاء، لن يرى النور دهره!»

انضم المعاقون وأصبحوا أشد ضراوة، وكذا كان حال المريدين وقد تجمّعوا حول يسوع. ارتعبت المجدلية، ومدت يدها تبغي رتج الباب، لكن يسوع منعها.

قال «يا مجدلية، يا أختاه، هذا جيل عاثر الحظ ـ ليس غير أبدان. تسحق أرواحه عادات وآثام وشحم. إنني أبعد اللحم والعظام، والأحشاء، فلا أجد أي شيء. وأأسفاه، أعتقد أن العلاج الوحيد هو النار!»

التفت نحو الحشد الغفير، وقد نضبت مقلتاه من الدمع وخلتا من الشفقة. قال:

«إننا مثلما نسفع التربة قبل بذر الحب لكي نجعل الحب الجيد ينمو بقوة، هكذا سيسفع الرب الأرض. إنه لا يرحم الشوك، أو البيقية، أو الطرخون. هذا هو مغزى العدالة. الوداع!». ثم التفت الى توما، وقال «انفخ في بوقك. سوف نغادر!»

مدّ عصاه أمامه، فأفسح الناس الذين خيّم على رؤوسهم الطير الطريق فمر بينهم. هرعت المجدلية تدخل منزلها، وتناولت منديلها ثم رمت بمفتاح الباب الى عرض الطريق ـ تاركة الصوف غير مكتمل الغزل، والقدر الفخاري على رف الموقد والدواجن في الفناء دون طعام، ودون أن تنظر خلفها تبعت ابن مريم متلفعّة بشدة بمنديلها.

الفصل الثالث والعشرون

كان الليل في أوله حين وصلوا الى كفرناحوم. وكان المطر المصحوب بالريح قد هطل على رؤوسهم، ثم دفعت به الريح الشمالية نحو الجنوب.

قال ابنا زبدى «سوف نأوي جميعاً في منزلنا. إنه كبير، وثمة مكان لكل واحد منا. يجب أن نحط رحالنا هناك.

قال بطرس ضاحكاً «وماذا عن زبدى العجوز؟ لن يعطي قطرة ماء حتى للملاك»

احمرّ وجه يوحنا. قال «ضعوا ثقتكم بالمعلم، سيكون لأنفاسه أثر جيد عليه، وسوف ترون»

لكن يسوع لم يسمع هذا الكلام. كان يسير في المقدمة، وعيناه مترعتين بمنظر العميان، والعرج، والمجذومين... وكان يقول في قلبه، آه، ليت باستطاعتي أن أنفخ على كل روح، وأصرخ بها، استيقظي! فاذا استيقظت سيغدو الجسد روحاً ويشفى.

بينما هم يخترقون القرية التجارية الكبيرة أقحم توما البوق بين شفتيه ينوي أن ينفخ فيه. لكن يسوع مدّ يده وقال «لا تفعل،

انني متعب...». والحق يقال، كان شاحب الوجه وقد حال لون اللحم المحيط بعينيه الى الأزرق. طرقت المجدلية أول باب طالبة كأساً من الماء، وشرب يسوع واستعاد قواه.

قال لها مبتسماً «إنني أدين لك بكأس من الماء يا مجدلية»

وتذكر ما كان قاله للمرأة الأخرى، السامرية، عند بئر يعقوب. ثم أضاف «سوف أسدد لك الدين بكأس من ماء الخلود»

أجابته المجدلية وقد احمرت خجلاً «لقد أعطيتني اياه منذ زمن طويل، يا معلم»

ومروا بكوخ نثنائيل. كان الباب مفتوحاً وسيد المنزل ما يزال في الفناء جالساً تحت شجرة التين، يقص أغصان الشجرة الميتة بخطّاف التشذيب. وسرعان ما انفصل فيلبّس عن جماعة المسافرين ودخل.

قال «لدي ما أقوله لك يا نثنائيل. كفّ عن التشذيب»، ودخل المنزل. تبعه نثنائيل وأشعل المصباح. قال له فيلبّس «إنس أمر مصابيحك، وأشجار التين ومنزلك وتعال»

«الى أين؟»

«تقول الى أين؟ ألم تسمع بالنبأ؟ لقد حانت نهاية العالم! اليوم أو غداً ستتشق السماوات ويصبح العالم رماداً. تحرك بسرعة وادخل السفينة حتى تحظى بالخلاص»

«أية سفينة؟»

«حضن ابن مريم، ابن داوود - معلمنا الناصري. لقد عاد لتوه من الصحراء حيث قابل الرب. وتحدثا سوياً، وقررا تدمير العالم وتخليصه. وضع الرب يده على شعر المعلم وقال له «اذهب واختر من سيتم خلاصهم. أنت نوح الجديد. انظر، هاك مفتاح السفينة الذي سيفتحها ويغلقها»، ثم أعطاه مفتاحاً من الذهب. إنه يعلقه من عنقه، لكن العين الانسانية غير قادرة على رؤيته».

«وضح كلامك يا فيلبّس. لقد تشوش عقلي. متى حدثت كل هذه العجائب؟»

«منذ وقت قريب، أؤكد لك، في الصحراء الاردنية. لقد قتلوا المعمداني، وتلبّست روحه جسد المعلم. حين تراه لن تتعرف عليه. لقد تغيّر ـ أصبح عنيفاً، ويداه يتطاير منهما الشرر. وقبل وقت قصير لمس في قانا ابنة قائد المائة الناصري المقعدة، وعلى الفور قفزت واقفة على قدميها وراحت ترقص. نعم، أقسم على ذلك بصداقتنا! يجب أن لا تضيّع الوقت. هيا!»

تنهد نثائيل وقال «اسمع يا فيلبّس. إنني في أحسن حال ولديّ العديد من المهام المطلوبة. انظر، انظر الى هذه الصنادل والأحذية، كلها تنتظر انهاءها. ان عملي يسير بأقصى سرعة. والآن...» ورمى نظرة مطولة فيما حوله، الى أدواته الحبيبة، والى المقعد الذي طالما جلس عليه ورقّع، والى سكين الاسكافي، الى المثاقب وخيط التشميع، والى المسامير الخشبية... وعاد يتنهد، وغمغم «كيف أتركها؟»

«لا تقلق، سوف تجد فوق في الأعالي أدوات من الذهب. سوف ترقّع صنادل ذهبية للملائكة، وسيكون لديك مهام مطلوبة لا تُعد ولا تحصى تعمل بها الى الأبد. سوف تخيط، وتمزق، ولن تفتقر الى العمل. فقط اسرع، وتعال وقل للمعلم «أنا معك!».. وكفى. قل «أنا معك وسأتبعك حيثما ذهبت ـ وحتى الموت!»، وهذا ما أقسمنا عليه جميعاً»

قال الاسكافي، وهو يرتعش «حتى الموت!»، وكان هائل الجسم ولكن كان لديه قلب طحان.

قال الراعي ليطئمنه «إنه مجرد اسلوب في التعبير أيها المسكين. فهذا ما أقسمنا عليه جميعاً، فلا تخف ـ إننا جميعاً

نسعى الى المجد، وليس الى الموت. هذا الرجل، يا صديقي، ليس رجلا عادياً. لا، إنه ابن الانسان!»

«والأمران ليسا متشابهين، هه؟»

«متشابهان؟ ألا تخجل من قولك هذا! ألم تسمع قط أحداً يقرأ في سفر النبي دانيال؟ إن عبارة «ابن الانسان» تعني المسيح - وبعبارة أخرى، الملك! سوف يتربع قريباً على عرش الكون، أما نحن - الذين بقدر ما نكون أذكياء يزداد عددنا المنضم إليه - فسنقوم بتوزيع مراتب الشرف والثروات. لن تسير حافي القدمين بعد الآن. سوف تنتعل صندلاً ذهبياً وسوف تنحني الملائكة لتشدّ لك الرباط. أؤكد لك يا نثائيل، إنها صفقة رابحة. فلا تدعها تفلت من بين يديك. ماذا أقول لك أكثر من أن توما انضم الينا. لقد أحسّ ابن الحرام ذاك أن في الأمر شيئاً جيداً. وتصدّق بقميصه الذي يرتديه لأحد الفقراء وأسرع بالانضمام. فافعل مثله أنت أيضاً. إنه الآن في منزل زبدى. تعال، هيا بنا!»

لكن نثائيل أحجم، عاجزاً عن اتخاذ قرار. أخيراً قال «اسمع يا فيليبّس، أحذرك، سيكون عليك أن تتحمل تبعة الأمر: اذا وجدتُ الوضع صعباً فسوف أترككم الى الأبد. انني مستعد لأي شيء، الا أن أتعرّض للصلب»

قال فيلبّس «حسن، حسن، في هذه الحالة سنتركهم نحن الاثنان. أتظنني جننت الى هذا الحد... موافق؟ هيا بنا!»

«حسن اذن - باسم الرب!» وأوصد الباب، ثم وضع المفتاح تحت قميصه، وسار الاثنان متشابكي الذراعين يبغيان منزل زبدى.

جلس يسوع ومريدوه يتدفأون أمام النار المضرمة بينما سالومه العجوز تدخل وتخرج، وقد غمرها الفرح. لقد فارقتها كل أمراضها. وها هي تدخل وتخرج وتعد المائدة، وافتخارها بولديها

وبخدمتها للرجل المبارك الذي سيُحضر مملكة السماء لا حدود له. مال يوحنا وهمس في أُذُن أمه بشيء. وبنظرة منه ألقاها على المريدين لفت نظرها الى شدة احساسهم بالبرد، بما أنهم كانوا ما يزالون يرتدون ملابس الصيف. ابتسمت الأم، ثم ولجت الى الداخل، وفتحت صناديقها وأخرجت منها ثياباً صوفية. وعملت بسرعة - وقبل أن يعود زوجها - على توزيعها بين الرفاق. أما أثقل الأثواب، المصنوع من الصوف الأبيض الناصع، فَرَمته برفق على كتفي يسوع.

التفت وقد أشرق وجهه بابتسامة. قال «بوركت أيتها الأم سالومه. من الحق والعدل أن تهتمي بأمور الجسد، فالجسد هو الجَمَل الذي تمتطيه الروح لتعبر به الصحراء. فاعتني به، ليكون قادراً على تحمّل المشاق»

دخل عليهم العجوز زبدى ورأى الضيوف غير المتوقعين. فرحّب بهم من أعماق قلبه. ثم جلس في الركن. هؤلاء اللصوص (هكذا كان يسميهم) يزعجونه كثيراً. من دعاهم للحضور واحتلال منزله؟ وهذه الزوجة المبذّرة قدّمت لهم للتو وليمة فاخرة! اللعنة على اليوم الذي ظهر فيه هذا المغتصب الجديد. ولم يكفه سوءاً أنه سرق منه ولديه! لا، بل وقعت مشاحنات دامت أياماً بطولها مع زوجته الحمقاء المنحازة الى ولديه. فهي تقول أنهما أحسنا التصرف، وهذا الرجل نبي حقيقي: سوف يصبح ملكاً، ويطرد الرومان ومن ثم سيتربع على عرش اسرائيل، وسيجلس يوحنا الى يمينه، ويعقوب الى يساره - ويصبحان من السادة العظام، ليس مجرد صيادَين في قاربيّ تجذيف، بل سيدين مهمين! أتظن أنهما كانا سيمضيان حياتهما يتعفنان فوق الماء؟ وكانت العجوز البلهاء تقضّ مضجع زبدى ليل نهار بمثل هذا الكلام - وغيره - وهي تدق قدمها في

الأرض وتصرخ. أحياناً كان يصب لعناته على ما يصادفه في طريقه ويهشّمه، وتارة يستسلم بيأس ويخرج ليتجول على شاطئ البحيرة كالمجنون. وفي آخر المطاف أدمن على شرب الخمر. والآن ـ ماذا بعد! ـ هاهم أولئك المنتهكون للقانون قد احتلوا بيته: تسعة أفواه واسعة؛ ومعهم تلك العاهرة المجدلية التي تلقت ألف قبلة وقبلة. تحلّقوا حول المائدة ولم يزعجوا أنفسهم حتى بالالتفات نحوه ـ هو، سيد المنزل ـ ولا حتى استأذنوا منه. هذا هو الحال الذي إلنا إليه! أمن أجل هؤلاء الطفيليين استُعبد هو وأسلافه طوال سنين عديدة؟ هنا استعر غضبه، فقفز واقفاً وصرخ «تمهلوا، يا شباب ـ بيت من هذا، بيتكم أم بيتي؟اثنان واثنان يساوي أربعة. هلا أخبرتموني من فضلكم؟»

أجابه بطرس، وقد جرع عدة كؤوس من الشراب وأصبح مرح المزاج «إنه بيت الرب، بيت الرب يا زبدى. ألم تسمع بالنبأ؟ لم يعد أي شيء ملكك أو ملكي؛ بل كل شيء ملك للرب»

باشر زبدى بالقول «إن ناموس موسى...»، لكن بطرس قاطعه قبل أن يتصاعد غضبه.

«ماذا أسمع ـ تقول ناموس موسى؟ لقد فات أوانه يا زبدى، انتهى، ذهب في نزهة جميلة ولن يعود منها قط. الآن لدينا ناموس ابن الانسان، أتفهم؟ نحن جميعاً أخوة! لقد اتسعت قلوبنا، ومع قلوبنا اتسع صدر الناموس. أصبح الآن يشمل البشرية جمعاء. والعالم كله هو الأرض الموعودة. لقد زالت الحدود! وأنا، الذي تراه ماثلاً أمامك يا زبدى، سوف يعلن كلمة الرب على الأمم. سأذهب حتى روما ـ نعم، لا تضحك ـ وسأقبض على الامبراطور من حنجرته وأطرحه أرضاً ثم أتربع على العرش. ولم لا! وكما قال المعلم، إننا لم نعد صيادين مثلكم. نحن لا نصطاد سمكاً؛ بل نحن

صيادو بشر. ونقولها نصيحة للحكماء: تقرّبوا منا، اعطونا الكثير من الخمر والزاد، لأننا ذات يوم ـ وهو قريب جداً ـ سنغدو سادة عظاماً. أعطونا قطعة خبز يابسة، فنكافئكم بعد بضعة أيام بملء فرن من الخبز. وأية أرغفة! خالدة! سوف تأكلون وتأكلون ولا تنفد»

جأر زبدى قائلاً، وكان قد تراجع من جديد الى ركنه، «أيها المسكين، أكاد أتخيلكم منذ الآن مصلوبين رأساً على عقب». وبعد أن سمع كلمات بطرس أخذ الخوف يتسرب إليه. وقال لنفسه، الأفضل أن ألزم الصمت. فمن يدري ماذا سيحدث. العالم مدوّر، وهو يدور. ومن الممكن تماماً ذات يوم أن هؤلاء المجانين... فلألزم جانب السلامة، اذن مهما حدث!

ضحك المريدون من بين لحيهم. كانوا يعلمون جيداً أن بطرس طروب ويمزح؛ ولكن في دواخلهم ـ وعلى الرغم من أنهم لم يثملوا الى الحد الذي يطلق ألسنتهم ـ كانت تراودهم الأفكار نفسها سراً. قوة التأثير، والمكانة المرموقة، والملابس الحريرية، والخواتيم الذهبية، ووفرة الطعام ـ والاحساس بالعالم صلباً تحت القدم اليهودية: هذه هي مملكة السماء.

تناول العجوز زبدى كأساً أخرى من الشراب واستجمع شجاعته، وقال «وأنت، يا معلم، ألن تتفوه بشيء؟ أنت من بدأ كل هذا، وها أنت جالس باسترخاء كخيارة هادئة بينما نحن الآخرون نجتهد في مناقشة الأمر... اسمع، هلا أخبرتني باسم الهك لماذا عليّ أن أرى ممتلكاتي تتبدد دون أن أصرخ مستفسراً عن السبب؟»

أجاب يسوع «يا زبدى، كان يا مكان في قديم الزمان رجل فاحش الثراء، حصد قمحه، وقطف عنبه، وجمع زيتونه، وملأ أباريقه، وأكل حتى أتخم، ومن ثم تمدد على ظهره في فناء داره، وقال «يا روحي، ما أكثر رغباتك. فكلي، واشربي وامرحي!»، ولكن

بعد أن قال هذا سمع صوتاً قادماً من السماء يقول «يا أحمق، يا أحمق - في هذه الليلة ستذهب روحك الى الجحيم. فماذا ستفعل بكل المؤن التي كدّستها؟». إن لديك أذنين يا زبدى، وأنت تسمع ما أقوله لك، ولك عقل، وتفهم ما أرمي إليه. قد يكون هذا الصوت السماوي مخيِّماً فوقك يا زبدى، ليلَ نهار!»

أطرق صاحب المكان العجوز ولم يتكلم بعد ذلك.

في تلك اللحظة فتح الباب وظهر فيلبّس على العتبة. ومن خلفه وقف نثنائيل الشبيه بسويقة بقول خرقاء ضخمة. لم يعد قلبه يدق دقتين معاً. لقد اتخذ قراره. اقترب من يسوع، ثم انحنى وقبّل قدميه.

قال «يا سيدي، أنا معك حتى الموت»

وضع يسوع راحة يده على الرأس الجعد الشعر كرأس ثور، وقال له «أهلاً بك يا نثنائيل. إنك تصنع الصنادل لكل الناس، وتسير أنت حافي القدمين. وهذا يسرني أيما سرور. إنضم إلي!» وأجلسه الى يمينه وأعطاه قطعة خبز وكأساً من النبيذ. قال «لكي تصبح تابعاً لي كُلْ هذه اللقمة من الخبز واشرب هذا الكأس من النبيذ»

أكل نثنائيل الخبز، وشرب النبيذ وعلى الفور شعر بالقوة تتغلغل في عظامه وفي روحه. ارتفع النبيذ كما الشمس وأضاء عقله بنور ذهبي، فأصبح النبيذ، والخبز والروح كلاً واحداً.

كان كمن يجلس على جمر مشتعل، أراد أن يتكلم لكنه كان شديد الحياء.

قال له السيد «تكلم يا نثنائيل. افتح قلبك وأرح نفسك»

أجاب «يا معلم، أريدك أن تعلم أنني كنت دائماً فقيراً. لقد عشت وأكلت يوماً بيوم، ولم يتح لي قط الوقت للتفكّر في الناموس.

إنني أعمى، يا معلم. اغفر لي... هذا ما اردتك أن تعرفه. ها قد بحت بما في نفسي وارتحت»

لمس يسوع كتفيّ الرجل المهتدي حديثاً العريضين مداعباً، وقال ضاحكاً «لا بأس عليك يا نثنائيل، ثمة طريقان تؤديان الى كنف الرب. أولاهما طريق العقل، والثانية طريق القلب. اسمع هذه الأمثولة:

«مات رجل فقير، وآخر ثري، وآخر فاسق في يوم واحد، ومثلوا أمام قضاء الرب في ساعة واحدة. ولم يكن أي منهم قد تفكّر في الناموس. عبس الرب وسأل الفقير «لماذا لم تتفكر في الناموس في حياتك؟»، فأجابه «يا رب، لقد كنت فقيراً وجائعاً. كدحت ليل نهار لأطعم زوجتي وأولادي. فلم يتح لي الوقت»، فسأله الرب غاضباً «أكنت أشد فقراً من عبدي المخلص هلّيل[1]؟ فهو لم يكن لديه مال يدفعه ليدخل الى الكنيس ليسمع تأويل الناموس، فارتقى الى السطح، ثم تمدد وأخذ ينصت من خلال المنور. لكن الدنيا أثلجت وكان مستغرقاً أيما استغراق فيما سمعه حتى أنه لم ينتبه للثلج. وفي الصباح حين دخل الحبر الكنيس وجد أن المكان مظلم. رفع عينيه فاكتشف أن ثمة جسد رجل متمدد فوق المنور. صعد الى السطح، وأزاح الثلوج وأخرج من تحتها جسد هلّيل. حمله بين ذراعيه، وهبط به، ثم أضرم ناراً وأعاد إليه الحياة: بعدئذ أصبح يسمح له بالدخول والانصات دون أن يدفع نقوداً، وأصبح هلّيل حبراً مشهوراً طبقّت شهرته العالم كله... فما رأيك بهذا؟»

«غمغم الرجل الفقير «لا شيء يا ربي»، ثم أجهش باكياً.

١- هلّيل، أو حلّيل (٦٠ ق.م - ٩م): حبر ولد في بابل. كان رئيساً للسنهدريم (المجلس الأعلى عند اليهود). أول من وضع أسس التأويل الانجيلي.

«والتفت الرب الى الرجل الثري وقال «وأنت، لماذا لم تتفكر في الناموس في حياتك؟»، فقال «لقد كنت فاحش الثراء. كان لدي بساتين، والكثير من العبيد، والكثير من الهموم. فكيف كان يسعني أن أوفق بين كل هذا؟» فقال الرب مؤنباً «أكنتَ أكثر ثراءاً من العازر ابن حرصوم، الذي ورث ألف قرية وألف سفينة؟ لكنه تخلى عنها جميعاً حين علم بمكان وجود رجل حكيم يشرح الناموس. فماذا تقول لتدافع عن نفسك؟

«غمغم الرجل الثري بدوره «لا شيء ياربي» وأجهش باكياً.

«ثم التفت الرب الى الرجل الفاسق وقال «وأنت، أيها الوسيم، لماذا لم تتفكر في الناموس؟» فقال «لقد كنت أزداد وسامة باضطراد وكانت النساء تترامى عليّ. فكيف كان يمكن أن أجد وقتاً مع كل التسلية التي توفرت لي، لأتفكّر في الناموس؟»، فأجابه الرب «أكنتَ أكثر جمالاً من يوسف، الذي عشقته زوجة فوطيفار؟ وكان فائق الجمال الى حد أنه كان يقول للشمس «اشرقي أيتها الشمس حتى أشرق مثلك». وحين كان يفتح صفحات الناموس تتفتح الحروف أمامه كالأبواب وتخرج المعاني ملفّعة بالنور والنار. فماذا لديك تقوله؟

«غمغم الفاسق قائلاً «لاشيء ياربي»، ثم أجهش أيضاً باكياً.

«صفق الرب بيديه ونادى على هلّيل، والعازر، ويوسف من الجنة. وحين مثلوا بين يديه قال «احكموا على هؤلاء الرجال الذين لم يتفكروا بالناموس بسبب الفقر، والغنى، والجمال. تكلم يا هليل. انطق بحكمك على الفقير! فأجاب هليل «كيف يمكن يا رب أن أدينه؟ أنا أعرف ماذا يعني الفقر، أعرف ماذا يعني الجوع. إنني أعفو عنه!»

«قال الرب «وأنت يا العازر؟ هاك الرجل الغني، إنني أكل أمره إليك!»

«أجاب العازر «يا رب، كيف أدينه؟ أنا أعرف ما معنى أن يكون المرء غنياً - إنه الموت! إنني أعفو عنه!»

«وأنت يا يوسف؟ جاء دورك. إليك هذا الوسيم!»

«كيف أدينه يا رب؟ أنا أعرف ما يمر به المرء من صراع، وعذاب مقيم في قهره لجمال الجسد. إنني أعفو عنه!»»

صمت يسوع، وابتسم، ونظر الى نثنائيل. لكن الاسكافي شعر بقلق.

سأله «حسن، وماذا فعل الرب بعد ذلك؟»

أجابه يسوع ضاحكاً «تماماً ما كان يمكن أن تفعله أنت»

ضحك الاسكافي البسيط بدوره. قال «هذا يعني أني نلت الخلاص!» وأمسك بكلتا يدي السيد وشد عليهما بقوة، وهتف «يا معلم، إنني أفهم. لقد قلت أن ثمة طريقين تؤديان الى كنف الرب، طريق العقل وطريق القلب. وأنا سلكت طريق القلب فعثرت عليك!»

نهض يسوع واقفاً، ومشى نحو الباب. كانت تهب ريح قوية؛ والبحيرة تعوي. وبدت النجوم في السماء كحبات دقيقة من الرمل لا يحصيها عدّ. وتذكر الصحراء، فسَرَت فيه الرعشة، وأغلق الباب. قال «الليل هبةٌ عظيمة من الرب. إنه أم الانسان، تأتي بهدوء ورقة وتدثره. تضع يدها الباردة على جبينه وتزيل هموم النهار عن جسمه وروحه. يا اخوتي، حان وقت الاستسلام لعناق الليل»

سمعته العجوز سالومه فنهضت. وكذا فعلت المجدلية من ركنها بجوار النار، حيث كانت تنصت بسعادة، وهي تميل للأمام، الى صوت المحبوب. مدّت المرأتان الفرش وأحضرتا الأغطية. خرج يعقوب الى الفناء، ثم عاد حاملاً ملء ذراع من خشب الزيتون وكوّمه فوق النار. رفع يسوع، الواقف منتصباً في وسط الدار مديراً وجهه

شطر اورشليم، رفع يديه وأخذ يتلو بصوت عميق صلاة المساء: «يا رب، افتح أبوابك في وجوهنا. لقد انصرم النهار، الشمس تغرب، الشمس تختفي. أيها السرمدي، إننا نقف على أبوابك. نتضرع اليك: اغفر لنا. نتوسل إليك: ارحمنا. خلّصنا!»

أضاف بطرس «وأرسل الينا أحلاماً سعيدة يا رب. دعني يا رب أرى في منامي قاربي الأخضر العتيق وقد أصبح جديداً تماماً ومزوداً بشراع أحمر اللون!». كان قد أفرط في الشرب وأصبح مزاجه مرحاً.

اضطجع يسوع في الوسط، وأحاط به مريدوه. وشغلوا كامل المنزل طولاً وعرضاً. ولما لم يجد زبدى وزوجته مكاناً لهما انتقلا الى مبنى اضافي منفصل، ومعهما المجدلية. دمدم العجوز متذمراً لأنه حرم من وسائل راحته. والتفت الى زوجته حانقاً، قال بصوت عال حتى تسمعه المجدلية: «ماذا سيحدث بعد! ها قد رمتنا عصبة من الأجانب خارج منزلنا الخاص. انظري الى أي حال وصلنا!»

لكن العجوز أشاحت بوجهها صوب الجدار ولم ترد عليه.

في تلك الليلة جافى النوم من جديد متّى. فجثم تحت المصباح، وأخرج الدفتر نصف الملآن بالملاحظات من تحت قميصه وأخذ يدوّن ـ كيف دخل يسوع كفرناحوم، وكيف انضمت المجدلية اليهم، والأمثولة التي قصّها السيد: كان يا مكان في قديم الزمان رجل فاحش الثراء... وبعد أن انتهى من الكتابة أطفأ المصباح وأوى بدوره الى الفراش، لكنه تنحى قليلاً جانباً، لأن المريدين لم يكونوا قد اعتادوا على أنفاسه.

حالما أغمض بطرس عينيه غاص في النوم، وسرعان ما هبط ملاك من المساء، وبهدوء فتح صدغيه وولج الى داخله على شكل حلم، فتراءى له جمهور غفير تجمّع على شاطئ البحيرة. وكان

المعلم موجوداً بينهم أيضاً، يبدي اعجابه بقارب جديد تماماً، أخضر اللون وذي شراع أحمر، ينساب فوق صفحة الماء. وعلى الجزء الخلفي لمقدمة القارب لمع رسم لسمكة عظيمة، تشبه تماماً السمكة الموشومة على صدر بطرس. سأل يسوع «لمن هذا القارب الجميل؟» فقال بطرس بفخر «إنه لي» فقال يسوع «اذهب يا بطرس وخذ معك بقية الرفاق وابحر الى عرض المياه حتى أتباهى بشجاعتك!»

قال بطرس «بكل سرور، يا معلم»، ثم حل المرسة، وقفز بقية الصحب الى القارب. وهبت ريح مواتية على مؤخره، وانتفخ الشراع ودخلوا عرض البحر وهم يغنون.

ولكن فجأة هبت زوبعة، فأخذ القارب يدور حول نفسه، وهيكله صار يتصدع، وبدأ الماء يتسرب اليه ويغرقه. انبطح المريدون على وجوههم على ظهر القارب، وهم يعولون عويلاً هائلاً. قبض بطرس على السارية وصرخ «يا معلم، يا معلم، نجنا!»، واذا به فجأة يتبين وسط الظلام الدامس المعلم المسربل بالرداء الأبيض يسير فوق سطح الماء. رفع المريدون رؤوسهم ورأوه. هتفوا وهم يرتعشون «إنه شبح! شبح!»

قال لهم يسوع «لا تجزعوا، هذا أنا!»

أجابه بطرس «يا سيدي، إن كنت أنت حقاً، مرني أنا أيضاً أن أمشي على الأمواج لأقترب وأقابلك»

فأمره يسوع «تعال!»

قفز بطرس خارج القارب، وخطا على الماء، وبدأ بالسير. ولكن حين شاهد البحر المضطرب شلّت حركته من الخوف، وأخذ يغوص. فصرخ «خلصني، يا سيدي. إنني أغرق!»

مدَّ يسوع يده وسحبه الى أعلى. قال «يا قليل الايمان، لم

فـزعت؟ ألا تثق بي؟ انظر!»، ورفع يده فـوق الأمـواج وأمـرها قـائلاً «اهدأي!» وللتو خمدت الرياح، وسكنت المياه.

انفجر بطرس في نوبة من البكاء. لقد امتحنت روحه هذه المرة أيضاً، ومرة أخرى ظهرت بصورة مشينة.

استيقظ مطلقاً صـرخة مـدوية. كانت لحيتـه مَبللة بالدمـوع. انتصب في جلسته على الحشية، وأسند ظهره الى الجدار وتنهد.

سـمـعـه مـتّـى الذي كـان مـا يزال يقظاً. سـأله «لماذا تتنهـد يا بطرس؟»

قـرر بطرس برهـة من الوقت أن يتظاهـر بالصـمم ولا يجـيـبـه. فـهـو حـتـمـاً لا يميل الى فـتح أحـاديث مـع الجبـاة. لـكن الحلم كـان يخنقـه وشعـر بأنه يجب أن يفصح عنه ويخفف عمـا في نفسـه. لذا زحف مـقـتـرباً من متّى وبدأ يسـرده عليـه، وكلمـا تقدم في السـرد، أكثـر من زخـرفـة الكـلام. وأنصت متّى بنـهم، مسـجـلاً كل شيء في ذهنه. وغداً صباحاً، إن شاء الرب، سيدونه في دفتره.

انتهى بطرس، لكن قلبه كان ما يزال يتأرجح. مثل القارب الذي تبدى له في الحلم. وفـجـأة هزّه الخـوف «أيمكن أن السـيـد قـد جـاء في الليل وصـحبـه الى عرض البـحـر ليختبـره؟ لم أر قط في حيـاتي بحـراً أشد حـيوية، وزورقـاً أكثر واقـعيـة ولا انتابني خوف مـحسـوس أكثر من هذا. لعله لم يكن حلماً... ما رأيك يا متّى؟»

أجـابه متّـى «لـم يكن حلمـاً بلا ريب. إن هذه المعـجـزة قـد وقـعت حتمـاً»، وراح يفكر عـميـقـاً في الاسلوب الـذي سيـدونه به على الورق في اليـوم التـالي. سيكون الأمـر شـديد الصـعـوبة لأنه ليس مـتـأكـداً تماماً من أنه كـان حلمـاً، ولا هـو متـأكـد تمامـاً من أنه الحـقيـقـة. إنه كـلاهـمـا معـاً. المعـجـزة وقـعت، ولكن ليس على هذه الأرض، ليس في هـذا البـحـر. في مكان آخـر ـ ولكن أين؟

أغمض عينيه ليتفكر ويجد الجواب. لكن النوم بادره وأخذه معه.

في اليوم التالي استمر المطر الغزير يهطل مع رياح عاتية، ولم يخرج الصيادون الى البحر. أغلقوا عليهم أبواب أكواخهم وجلسوا يرتقون شباكهم ويتحدثون عن الزائر الغريب الأطوار الذي ينزل في بيت العجوز زبدى، كأنه يوحنا المعمداني عاد الى الحياة. وكأن الجلاد بعد أن ضرب ضربته مباشرة انحنى المعمداني والتقط رأسه عن الأرض وأعاده الى مكانه على عنقه واختفى في لمح البصر. ولكي يمنع هيرودوس من القبض عليه ثانية وقطع رأسه مرة أخرى ذهب وحل في جسد ابن النجار الناصري وأصبحا شخصاً واحداً. وحين تراه تكاد تفقد عقلك. أهو واحد، أم اثنان؟ أمر محير. اذا نظرت الى وجهه مباشرة تراه رجلاً بسيطاً يبتسم لك. فإذا تحركت قليلاً ترى ان احدى عينيه يملأها الغضب وتود لو تأكلك، والأخرى تشجعك على الاقتراب منها. وتقترب فتصاب بالدوار، وقبل أن تعرف ماذا يحدث لك تتخلى عن بيتك وعن أولادك وتتبعه!

سمع صياد سمك عجوز كل هذا الكلام وهز رأسه. قال «هذا ما يحدث لأولئك الذي لا يتزوجون. إن كل ما يريدون فعله هو تخليص العالم بأية وسيلة. إن منيهم يصعد الى رؤوسهم ويهاجم عقولهم. حباً بالرب، نصيحة لكم جميعاً: تزوجوا، انفقوا قواكم على النساء وانجبوا أطفالاً لتهدأ سريرتكم!»

كان يونان العجوز قد سمع بالنبأ في الليلة السابقة وراح ينتظر في كوخه. وقال في نفسه، لا يمكن لهذا الأمر ان يستمر. لا شك بأن ولديّ سيأتيان ليريا إن كنت ميتاً أم حياً. ظل ينتظر طوال الليل يحدوه الأمل، ومن ثم فقد هذا الأمل، وفي الصباح انتعل حذاء

القبطان العالي الرقبة الذي صنع بمناسبة زواجه ولم يكن ينتعله الا في المناسبات الخطيرة، ثم تلفّع بمشمع ممزق وانطلق تحت المطر يبغي منزل صديقه زبدى. ووجد الباب مفتوحاً، فدخل.

كانت النار مضرمة. وقد جلس ما يقارب العشرة من الرجال وامرأتان القرفصاء أمام النار. تعرف على احدى المرأتين ـ العجوز سالومه. الأخرى كانت صغيرة السن. سبق له أن رآها في مكان ما. لكنه لا يتذكر أين. كانت الغرفة شبه مظلمة. وميّز ولديه بطرس واندراوس حين التفتا برهة ورأى وجهيهما اللذين أضاءهما وهج النار. ولكن لم يسمعه أحد وهو يدخل ولم يلتفت أحد ليراه. كانوا ينصتون ورؤوسهم مشرئبة الى الأمام وأفواههم فاغرة لشخص يواجهه مباشرة. ماذا كان يقول؟ فتح يونان العجوز فاه وأنصت. بين الحين والآخر كان يلتقط كلمات «عدل»، «الرب»، «مملكة السماء...». الكلمات نفسها ودائماً نفسها ـ طالما سمعها عبر السنين! لقد سئمها. فبدل أن يخبروك كيف تصطاد سمكة، أو ترتق شبكة، أو تلغط قارباً، أو كيف تتجنب الاصابة بالبرد أو بالبلل أو بالجوع، تراهم يجلسون ويتكلمون عن السماء! اللعنة، أليس لديهم أي شيء يقولونه عن الأرض والبحر؟ واحتدم غضب يونان العجوز. وسعل ليسمعوه ويلتفتوا اليه. فلم يفعل أحد. فرفع قدمه الضخمة وضرب بقوة حذاء القبطان على الأرض ـ ولكن عبثاً. لقد كان انتباههم معلقاً على شفتي المتكلم الشاحب.

العجوز سالومه وحدها التفتت. نظرت اليه لكنها لم تره. عندئذ تقدم العجوز يونان وجلس القرفصاء أمام موقد النار، خلف ولديه مباشرة. مدّ يده الضخمة ولمس بطرس من كتفه وهزه. التفت بطرس ورأى والده، فوضع اصبعه على شفتيه كإشارة له بأن يلزم الصمت، وعاد يلتفت نحو الشاب الشاحب، وكأنه ليس يونان،

والده، وكأنما لم تمر شهور طويلة منذ أن رآه آخر مرة. في أول الأمر شعر يونان بالحزن، ثم بالغضب. فخلع حذاءه الطويل (الذي بدأ يضغط عليه ويؤلمه) ليرميه في وجه المعلم، لعله يخرسه أخيراً ويتاح له أن يكلم ولديه. وكان قد رفع حذاءه الطويل الرقبة وأخذ يلوح به ليستجمع زخماً واذا به يشعر بيد تمنعه من الخلف. التفت فرأى العجوز زبدى.

همس صديقه في أذنه «انهض يا يونان، هيا بنا الى الداخل. لدي ما أقوله لك يا مسكين»

تأبط الصياد العجوز حذاءه الطويل وتبع زبدى. انتقلا الى الجزء الداخلي من المنزل وجلسا متجاورين على الصندوق الخاص بسالومه.

بادر زبدى بالقول متلعثماً، لأنه كان قد أفرط في الشراب في محاولة لاغراق حنقه «يونان، يا صديقي، أيها المناضل العتيق، لقد كان لديك ولدان ـ احذفهما من حياتك. أنا أيضاً كان لدي ولدان، وحذفتهما. يبدو أن الرب هو والدهم، فلمَ نتدخل؟ انهم ينظرون الينا وكأنهم يسألوننا «من أنتما، أيها العجوزان؟»... إنها نهاية العالم، يا صديقي المسكين يونان!»

«أنا أيضاً غضبت أول الأمر. شعرت برغبة في أن أمسك برمح الصيد وأرميهما به. لكني بعد ذلك وجدت أنه ليس هناك حل. لذا نكصت متراجعاً الى قوقعتي وسلمتهما زمام الأمور. زوجتي المسكينة توافقهما على طول الخط. اعتقد أنها بدأت تخرّف. فتش عن الأم، أيها العجوز زبدى، فتش عن الأم، أيها العجوز يونان ـ هذا ما كنت أروم قوله لك. ما فائدة الكذب على أنفسنا؟ اثنان واثنان أربعة: لقد هُزمنا!»

مرة أخرى انتعل العجوز يونان حذاءه الطويل الرقبة وتلفّع

بالمشمع، ثم حدق الى زبدى ليرى أن تبقى لديه ما يزيده. لا شيء لديه، لذا فتح يونان الباب، وألقى نظرة على السماء، ونظرة أخرى الى الأرض: الظلام دامس؛ ومطر، وبرد... تحركت شفتاه «لقد هُزمنا، هُزمنا»، وانطلق مثيراً رشاش الطين عائداً الى كوخه.

بينما يونان يواصل مسيره لاهثاً، كان ابن مريم يمد راحتيّ يديه نحو النار وكأنه يسبح بروح الرب الكامنة في اللهب وتمنح الناس الدفء. لقد انفتحت مغاليق قلبه، فمد راحتيّ كفيّه وتكلم:

«لا تظنوا أنني جئت لألغي الناموس والأنبياء؛ إنني لم آت لألغي الوصايا القديمة بل لأوسّع مجالها. لقد رأيتم منقوشاً في لوائح موسى: لا تقتل! أما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه ويرفع يده في وجهه، أو حتى يقول له كلمة جارحة، يكون مستحقاً نار جهنم. وقد رأيتم انه نقش في لوائح موسى: لا تزن. وأما أنا فأقول لكم أن كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. إن النظرة غير الطاهرة ترمي بالفاسق الى نار جهنم...

«إن الناموس العتيق يأمركم أن تُجلّوا الأب والأم؛ أما انا فأقول، لا تحبس قلبك داخل بيت والديك، فليخرج للملأ وليدخل كل البيوت، وليعانق أرض اسرائيل برمتها من جبل حرمون الى صحراء أدوميه وحتى ما بعدها: شرقاً وغرباً ـ الكون كله. إن أبانا هو الرب، وأمنا الأرض. نصفنا تراب والنصف الآخر من المساء. إن اجلالكم للأم وللأب معناه، اجلالكم للسماء والأرض»

تنهدت سالومه العجوز. قالت «كلماتك قاسية أيها المعلم، قاسية على الأم»

أجابها يسوع «إن كلمة الرب دائماً قاسية»

تمتمت الأم العجوز، وهي تشبك يديها معاً «خذ ولديّ، خذهما؛ هما لك»

سمع يسوع الأم الثكلى فشعر بأن أبناء العالم وبناته كلهم معلقين من عنقه. وتذكر التيس الأسود الذي رآه في الصحراء والذي يتدلى من عنقه كل آثام الناس مودعة داخل تمائم زرقاء اللون. ودون أن يتكلم مال على العجوز سالومه التي وهبته ولديها، وكأنه يقول لها، انظري، هذا عنقي، علّقي ولديك حوله...

رمى بحفنة من أغصان الكرمة في النار، فأتى عليها اللهب. راقب يسوع ولفترة طويلة النار تهسّ وهي تلتهم الأغصان؛ ثم عاد فالتفت الى أصحابه. قال:

«إن كل من يحب أباه وأمه أكثر مني لا يستحق أن يرافقني، وكل من يحب ابنه أو ابنته أكثر مني لا يستحق أن يرافقني. إن الوصايا القديمة لم تعد شاملة كفاية لتتسع لنا؛ ولا أهواءنا القديمة»

صمت برهة، ثم تابع: «الانسان تخم، عنده تنتهي الأرض وتبدأ السماء. لكن هذا التخم لا يكف أبداً عن الانتقال والتقدم نحو السماء، ومعه تنتقل وصايا الرب وتتقدم. إنني أفصل وصايا الرب عن لوائح موسى وأوسّع مجالها، أحثها على التقدم»

سأله يوحنا مدهوشاً «اذن، هل تتغير ارادة الرب، أيها المعلم؟»

«لا،يا يوحنا الحبيب. لكن قلب الانسان يتسع ويصبح أقدر على استيعاب المزيد من ارادة الرب»

هتف يوحنا وهو يقفز واقفاً «الى الأمام، اذن. ما جلوسنا؟ فلننطلق وننشر الوصايا الجديدة في العالم»

همس توما ساخراً «انتظر حتى يتوقف هطل المطر حتى لا نبتل!»

هزّ يهوذا رأسه حانقاً. قال «علينا أولاً أن نطرد الرومان. علينا أن نحرر أجسادنا قـ[illegible] أن نحرر أرواحـ[illegible]. يجب أن لا

نبدأ البناء من السقف والى الأسفل. بل علينا أولاً أن نرمي الأساس»

«الأساس هو الروح يا يهوذا»

«أما أنا فأقول أن الأساس هو الجسد!»

«اذا لم تتغير الروح داخلنا يا يهوذا فلن يتغير العالم من حولنا أبداً. إن العدو هو في الداخل. الرومان موجودون داخلنا، والخلاص يبدأ من الداخل!»

قفز يهوذا واقفاً، وهو يغلي من الغضب. منذ زمن بعيد وهو يكظم ما يعتلج في قلبه. كان ينصت وينصت، ويختزن كل شيء في صدره، والآن لم يعد بمقدوره أن يحتمل أكثر.

صرخ مرة أخرى بصوت مخنوق «أولاً نطرد الرومان! الرومان أولاً!»

سأل نثائيل «ولكن كيف يسعنا أن نطردهم؟». وكان قد بدأ القلق يتسرب اليه وأصبح يرمي نظرات جانبية الى الباب «هلا قلت لنا يا اسخريوطي؟»

«بالثورة! تذكروا المكابيين لقد طردوا اليونانيين. الآن جاء دورنا، حان الوقت للمكابيين الجدد ليطردوا الرومان. بعد ذلك، بعد أن نقبض على زمام الأمور من جديد، يمكننا أن نصفّي الأمور بين الأغنياء والفقراء، بين المضطهدين والمضطهَدين»

لم يفه أحد بكلمة. لم يكنَ المريدون متأكدين من الطريق الواجب سلوكها. فحدقوا الى المعلم وانتظروا. كان ينظر الى اللهب متأملاً... متى سيفهم الناس أنه لا يوجد الا درب واحد في كلا العالمين المرئي واللامرئي - إنه الروح!

نهض بطرس واقفاً. قال «اعذروني هذه نقاشات معقدة وأنا لا أفهم شيئاً. سوف تُعلّمنا التجربة أيهما الأساس. فلننتظر ونرى

ماذا يحدث. يا معلم، امنحنا التفويض لنخرج وحدنا وننشر البشارة بين الناس. وحين نعود نناقش الموضوع من جديد»

رفع يسوع رأسه ومسح المريدين بنظره، ثم أومأ لبطرس ويوحنا ويعقوب فتقدموا منه وضغط بيديه بقوة على رؤوسهم.

قال «اذهبوا، تصحبكم بركتي. اعلنوا البشارة للناس. لا تخافوا. سوف يحفظكم الرب في راحة يده ويقيكم من الفناء. لا يسقط عصفور دوري واحد من السماء الا بإرادته، وأنتم تعادلون عدداً كبيراً من عصافير الدوري. الرب معكم! عودوا سريعاً، فلتحط بأعناقكم آلاف الأرواح. أنتم رسلي»

تلقّى الرسل الثلاثة التبريك، وفتحوا الباب وخرجوا الى قلب العاصفة، واتخذ كل منهم درباً مختلفاً.

ومرت الأيام. كان خلالها فناء بيت زبدى يمتلئ بالناس في الصباح ويخلو في المساء. فيأتي المرضى، والمعاقون، والممسوسون بالشياطين، من كل حدب وصوب. بعضهم كان يبكي، وآخرون يغضبون ويصرخون في ابن الانسان ليقوم بمعجزة ويشفيهم. أليس من أجل ذلك بعثه الرب؟ فليخرج اذن الى الفناء!...

وكان يسوع يسمعهم يوماً بعد يوم، ويغلبه الحزن. فيخرج اليهم في الفناء ويلمس كلاً منهم، قائلاً «هناك نوعان من المعجزة يا اخوتي، معجزات الجسد ومعجزات الروح. آمنوا فقط في معجزات الروح. توبوا وطهّروا أرواحكم، فتتطهر أجسادكم. الروح شجرة، والمرض والصحة، والجنة والجحيم، هي ثمارها»

وكان الايمان يدخل قلوب العديد منهم وحالما يؤمنون يشعرون بالدم يتفجّر فيهم ويشيع في أجسادهم الخدرة، فيطرحون عكازاتهم ويقفزون واقفين. ويمرر يسوع يده على عيون البعض المطفأة، فيشعرون بالنور يتدفق من أطراف أصابعه، فيرفعون

أجفانهم ويهتفون من شدة الفرح، فقد بات بامكانهم الآن أن يروا العالم!

ظل متّى متسلحاً بريشته وأبقى عينيه وأذنيه مفتوحة. ولم يسمح حتى لكلمة واحدة تسقط منه على الأرض، بل جمع كل شيء ودوّنه على الورق. وهكذا، شيئاً فشيئاً، ويوماً بعد يوم، كان الانجيل ـ البشارة ـ يتكوّن. أصبحت له جذور، وأنبتَ أغصاناً وغدا شجرة تحمل ثماراً يتغذّى عليها المولودون والذين سيولدون فيما بعد. وكان متّى يحفظ محتوى الكتاب المقدس غيباً.

ولاحظ كيف أن أقوال المعلم وأفعاله تتطابق مع ما كان يطالب به الأنبياء، قبل قرون، فإذا حدث أحياناً ولم تكن التنبؤات تتماشى تماماً مع حياة يسوع، فذلك لأن عقل الانسان لم يكن تواقاً لفهم المعنى الكامن في النص المقدس. إن لكلمة الرب سبع طبقات من المعنى، وكان متّى يجاهد كي يكتشف الطبقة التي تجد عندها العناصر المتنافرة قرينات لها. وحتى حين كان أحياناً يقرن الأشياء معاً قسراً، كان الرب يغفر وهو ليس فقط يغفر، بل يحب ذلك. ثم ألم يكن يأتي ملاك ويميل على أذن متّى، كلما أمسك بريشته، ليملي عليه ما يكتبه؟

واليوم، فهم متّى لأول مرة وبوضوح من أين يبدأ بسرد حياة يسوع وعصره، وكيف يتناولها. أولاً، أين ولد ومن هم آباؤه وأجداده، وعلى مدى أربعة عشر جيلاً. لقد ولد في الناصرة من أبوين فقيرين ـ ليوسف النجار ومريم، ابنة يواكيم وحنه... تناول متّى ريشته ودعا الرب بصمت أن ينير عقله ويمنحه القوة. ولكن حين همّ بخط الكلمات الأولى على الورق بحروف جميلة تصلّبت أصابعه. أمسك به الملاك. سمع أجنحة تضرب الهواء بغضب. دوّى صوت في أذنه «إنه ليس ابن يوسف! ألم تسمع ما قاله النبي

أشعيا: «هاالعذراء تحبل وتلد ابناً[1]»... بل اكتب: كانت مريم عذراء. وهبط سيد الملائكة جبرائيل الى منزلها قبل أن يلمسها أي رجل، وقال لها «ليكن سلام لك يا مريم، أيتها الفاضلة، الرب معك!»، وللتو حملت أحشاؤها الثمرة... أتسمع؟ هذا ما ستكتبه. هو لم يولد في الناصرة، لا، ليس في الناصرة. لا تنس ما قاله النبي ميخا: «أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل[2]».

لذا فيسوع ولد في بيت لحم، وفي زريبة. ألا تذكر ما يقوله المزمور المعصوم عن الخطأ: «واختار داود عبده وأخذه من حظائر الغنم، من خلف المرضعات أتى به ليرعى يعقوب شعبه(٣)». لماذا توقفت؟ لقد أطلقت يدك ـ اكتب!»

لكن متّى غضب، فالتفت نحو الجناحين اللامرئيين الى يمينه وجأر بصوت خفيض، حتى لا يسمعه المريدون النيام: «هذا غير صحيح. أنا لا أريد أن أكتب، ولن أفعل!»

سمع رنين ضحك ساخر في الفضاء، وصوتاً يقول: «وما أدراك ما الحقيقة، يا حفنة التراب؟ للحقيقة سبع طبقات. على الطبقة الأعلى تتربع حقيقة الرب، والتي لا تشبه بأي حال حقيقة البشر. هذه الحقيقة، يا متّى الانجيلي، هي التي أرنّم بها في أذنك... اكتب: «وقدم ثلاثة من المجوس، على هدى نجم كبير، ليسجدوا للطفل...»»

١- أشعيا: ١٤/٧

٢- ميخا: ٢/٥

٣- المزامير: ٧٨/ ٧٠-٧١

تفصّد العرق غزيراً من جبين متّى، وصرخ «لن أكتب! لن أكتب!»، لكن يده كانت تتحرك بسرعة على الورق، وتكتب.

سمع يسوع صراع متّى أثناء نومه ففتح عينيه، ورآه منحنياً تحت المصباح يلهث، وكانت الريشة تصرّ وهي تجري بحنق على الصفحة وتوشك أن تتكسر.

قال له بهدوء «يا متّى، يا اخي، لماذا تئن؟ مالذي يثقل عليك؟»

أجابه، وريشته ما تزال تجري على الورقة «لا تسألني يا معلم، إنني مستعجل، أخلد أنت الى النوم»

وكان يسوع يشعر مسبقاً بأن الرب يخيم عليه. فأغمض عينيه حتى لا يزعج سير العملية المقدسة.

الفصل الرابع والعشرون

مرت أيام كثيرة وليال. وطلع قمر وغاب؛ وطلع القمر التالي. هطل مطر، وحل برد، وأشعلت نيران في الموقد؛ وأقيمت صلوات مسائية ورعة في منزل سالومه العجوز... وتوافد فقراء كفرناحوم وحزاناها في كل مساء بعد انتهاء عمل النهار ليسمعوا المغزى الجديد. كانوا يأتون فقراء حزانى، ويعودون الى أكواخهم الزرية أغنياء متعزّين. كان يرفع كروم عنبهم وقواربهم وأفراحهم من الأرض الى عنان السماء ويشرح لهم كيف أن السماء مضمونة أكثر بكثير من الأرض. وتمتلئ قلوب البؤساء بالصبر والأمل. حتى قلب زبدى الهمجي بدأ يستأنس. ونفذت فيه كلمات يسوع شيئاً فشيئاً، وأسكرت عقله قليلاً، وبهت هذا العالم حتى التلاشي وخيم فوق رأسه عالم جديد قوامه الخلود والثراء الذي لا ينضب... في هذا العالم الجديد الغريب سيعيش زبدى وولداه والعجوز سالومه وحتى قواربه الشراعية الخمس وصناديق نفائسه المترعة، الى الأبد. لذا، الأفضل عدم التذمر وهو يرى هؤلاء الضيوف غير المدعوين يمكثون

نهاراً وليلاً في منزله أو يتحلقون حول مائدته. وسيحين وقت التعويض، سيحين.

وفي منتصف الشتاء مرت أيام رائقة مفعمة بضياء الشمس. تلألأت خلالها الشمس، وأشاعت الدفء في عظام الأرض العارية. خدعت شجرة اللوز النامية في وسط فناء دار زبدى: حسبت أن الربيع قد جاء فأخذت تُنبت البراعم. وكانت طيور الرفراف تنتظر هذه الأيام الدافئة الرحيمة، لأنها تريد أن تودع بيوضها بين الصخور. إن كل باقي طيور الرب تتكاثر في الربيع، الا الرفراف في منتصف الشتاء. فأشفق عليها الرب ووعد بالسماح للشمس لتغدو ساطعة تشيع الدفء بضعة أيام خلال الشتاء فقط اكراماً لها. وها هي ذي عنادل البحر تحلق مبتهجة فوق مياه بحيرة جنيسارت وصخورها وتصدح بالشكر للرب لأنه أوفى مرة أخرى بوعده.

خلال هذه الأيام الجميلة توزّع من تبقى من المريدين على قوارب الصيد والقرى المجاورة لكي يدربوا بدورهم أجنحتهم على الطيران. انطلق فيلبّس ونثنائيل في البر ليلتقوا بأصدقائهم من المزارعين والرعاة ويعلنوا عليهم كلمة الرب. واتجه اندراوس وتوما الى البحيرة ليلحقوا بالصيادين. أما يهوذا المتوحد فخرج وحده منطلقاً الى الجبل لينفّس عن غضبه. إن أغلب تصرفات سيده تعجبه، ولكن ثمة بعض الأشياء التي ببساطة لا يقوى على هضمها. أحياناً يسمع المعمداني العنيف يهدر من بين شفتي يسوع، وتارة أخرى يرى ابن النجار القديم نفسه لا يزال يثغو هاتفاً: المحبة! المحبة!... أية محبة، أيها المستبصر؟ ومن نحب؟ العالم مصاب بالغنغرينا ولا يشفيه غير اعمال السكين فيه - هذا ما أراه أنا!

كان متّى الوحيد الذي لزم المنزل. لم يرغب في المغادرة، فقد يتكلم المعلم في هذه الأثناء، وعلى متّى أن لا يدع الرياح تذرو كلمته،

وقد يقوم بإحدى المعجزات، وعلى متّى أن يراها بأم عينه ليرويها. ثم، الى أين يذهب، الى من يتحدث؟ لن يقبل أحد الاقتراب منه، لأنه في وقت من الأوقات كان جابي ضرائب قذراً. لذا لزم المنزل وراح من ركنه يختلس النظر الى يسوع، الجالس في الفناء تحت شجرة اللوز المتبرعمة، والمجدلية جاثمة عند قدميه وهو يكلمها بصوت منخفض فأرهف متّى أذنه الكبيرة ليلتقط كلمة، ولكن عبثاً. وكان أقسى ما استطاع عمله هو أن يراقب وجه المعلم القاسي التعابير والمحزون ويديه اللتين كثيراً ما كانتا تتزلقان على شعر المجدلية.

كان يوم سبت وقد خرج الحجيج في الصباح الباكر من قرى نائية - مزارعون من طبريا، وصيادون من جنيسارت، ورعاة من الجبال - قدموا لسماع النبي الجديد وهو يكلمهم عن الفردوس والجحيم، والبشرية التعسة، وعن رحمة الرب. وكانوا عادة يصحبونه - بعد أن تسطع الشمس، ويبدو النهار رائعاً - الى سفح الجبل المخضوضر وهناك يفترشون العشب الدافئ ليستمعوا اليه، وقد يداعب النوم اللذيذ أجفانهم فيستسلمون له على المرج الربيعي. تجمعوا خارجاً في الطريق، لأن الباب كان موصداً، وهتفوا يطلبون ظهور المعلم.

قال يسوع «مجدلية، يا اختاه، اسمعي، لقد جاء الناس ليرافقوني»

لكن المجدلية، التائهة في عينيّ المعلم، لم تسمعه. بل إنها لم تسمع شيئاً مما كان يقوله لها منذ زمن طويل. كانت تبتهج لمجرد سماع رنين صوته: فالصوت وحده يخبرها بكل شيء. إنها ليست رجلاً، ولا تحتاج للكلمات. وذات مرة قالت له «يا معلم، لماذا تكلمني عن الحياة القادمة؟ لستُ رجلاً، ولا حاجة بي الى حياة أخرى

أبدية، أنا امرأة. وبالنسبة لنا معشر النساء إن لحظة واحدة مع الرجل الذي نحب هي فردوس سرمدي، ولحظة واحدة بعيداً عن الرجل الذي نحب هي جحيم مقيم. هنا على هذه الأرض نعيش نحن النساء حياتنا الأبدية»

كرر يسوع ما قاله لها «مجدلية يا أختاه، جاء الناس لمرافقتي. يجب أن أذهب». ونهض وقوفاً وفتح الباب. كانت الطريق مملوءة بالعيون الملتهبة بالحماس والأفواه الهاتفة، وبالمرضى الآنّين المادين أيديهم...

ظهرت المجدلية عند الباب ووضعت يدها على فمها حتى لا تفلت منها صرخة، وغمغمت وهي تراقبه سائراً في المقدمة، والجمع من ورائه يجأرون، «الناس أشبه بالوحوش الضارية. وحوش ضارية متعطشة للدماء ويمكن أن يلتهموه»

تقدم يسوع بخطى واسعة، رصينة باتجاه الجبل المطل على البحيرة، الجبل الذي كان قد اعتلاه ذات مرة وفتح ذراعيه أمام الحشود الغفيرة وهتف بهم، المحبة! المحبة! ولكن بين ذاك اليوم وهذا أصبح عقله أشد عنفاً. لقد قسّت الصحراء قلبه، وما زال يشعر بملمس شفتيّ المعمداني وكأنهما جمرتان مشتعلتان على شفتيه. كانت التنبؤات تومض وتنطفئ داخله، وعادت الصيحات القدسية اللاانسانية تنبض بالحياة ورأى بنات الرب الثلاث، الجذام، والجنون، والنار، تشق عنان السماء وتهبط.

حين وصل الى قمة التل وفتح فمه ليتكلم، قفز النبي القديم من داخله وأخذ يصرخ: «الجيش المرعب آت من أطراف الأرض يجأر، آت رهيباً، سريع الحركة. ليس فيه محارب واحد يعرج من التعب، أو ناعس أو حتى ينام أصلاً. لا ترون نطاقاً رخواً أو سيرَ حذاء واحد مكسور. السهام حادة النصال، وأوتار الأقواس

مشدودة، وحوافر الخيل قاسية كالحجر، ودواليب العربات تدور كالزوابع. إنه يزأر مهدداً كاللبؤة، وكل ما يقع بين مخالبها ترفعه بين أنيابها ولا أمل في خلاصه!»

هتف رجل عجوز وقد انتصب شعره الأبيض «أي جيش هذا؟!»

«أتسألون أي جيش هذا؟ يالكم من شعب أصم، أعمى، أحمق!»، ثم رفع يده نحو السماء وقال «إنه جيش الرب، أيها التعساء! إن محاربي الرب يبدون عن بعد وكأنهم ملائكة، ولكن عن قرب تجدونهم لهباً يتلظى. أنا نفسي خُدِعتُ بهم فتراؤوا لي ملائكة خلال الصيف الفائت من على قمة هذه الصخرة ذاتها التي أقف عليها الآن، وصرخت المحبة! المحبة! لكن رب الصحراء فتح عينيّ الآن. وأبصرتهم. إنهم لهب يتلظى! وصرخ الرب «لم أعد قادراً على تحمُّلكم. سأهبط!»، وسمع العويل في أورشليم وفي روما، وعويل فوق ذرى الجبال وفي المقابر. كانت الأرض تبكي أولادها. وهبطت الملائكة الى الأرض المحروقة، وراحت تبحث على ضوء مصابيحها للعثور على موقع روما، وموقع اورشليم. وكانت تسحق بين أصابعها الرماد ثم تشمه، وتقول لا بد أن هذه كانت روما، وهذه اورشليم، وترمي بالرماد الى الريح»

وهتفت أم شابة، وهي تشد وليدها الى صدرها «أما من خلاص؟ انني لا أتكلم عن نفسي، بل عن ابني»

أجابها يسوع «يوجد خلاص! فعند كل طوفان يوفر الرب سفينة، ويودع فيها خميرة لعالم المستقبل. والمفتاح معي!»

وهتف عجوز آخر وفكّه الأسفل يرتعش «ومن سيكون الخميرة؟ من الذي ستخلّصه؟ وهل لدينا ما يكفي من الوقت؟»

«الكون يمر من أمامي وأنا أختار منه. على أحد الجانبين يوجد المتخمون بالطعام، والشراب، والقبل. وعلى الجانب الآخر

المحـرومـون، والمضطهدون فـي العـالم. وأنا أخـتـار هؤلاء الأخـيـرين، المحـرومين والمضطهـدين. إنهم الحـجـارة التي سـأبنـي بهـا أورشليم الجديدة»

«نعـم، اورشليـم الجـديدة. أنا نفـسـي لـم أكن أعـرفـهـا الى أن أفضى اليّ الرب بالسر في الصحراء. لا تأتي المحبة الا بعد اللهب. أولاً سيحال هذا العالم الى رماد ومن ثم يزرع الرب كرمه الجديد. لا شيء يضاهي الرماد كمخصٍّب»

وتردد صدى صوت أجش «لا شيء يضاهي الرماد كمخصٍّب». كان صوتاً فرحاً أشبه بصوته، غير أنه أعمق وأشد فرحاً. التفت يسوع، ولدهشته رأى وجه يهوذا خلفه. شعر بالخوف، فقد كان وجه ذي اللحيـة الحمـراء يومض كالبـرق. وكان اللهب القـادم قد سقط عليه للتو.

اندفع يهوذا وقبض على يد يسوع، وهمس له برقة غير متوقعة «يا معلم، يا معلمي...»

لم يكن قـد سـبق ليـهـوذا قط أن كلّم أحـداً بمثل تلك الـرقـة. وشعـر بالخجل. ومال عليه متظاهراً بأنه يسأل عن أمر ما. مع أنه لم يكن يدري مـاذا يسـألـه، ثم وجد زهرة شقـائق النعـمـان صغـيـرة متفتحة قبل الأوان، فانتزعها من جذورها.

في المساء بعد عودة يسوع وجلوسه مرة أخرى على مقعده أمام الموقد وتحديقه الى النار، شعـر فـجـأة أن ربه الكامن داخله على عجلة من أمره وأنه لن يسمح له بالانتظار أكثر من ذلك. لقد تغلب عليه الحزن، والسخط والخجل. لقد تحدث من جديد هذا اليوم وأرسل لهـبـه فـوق رؤوس النـاس. انتـاب الخـوف البـسطاء من الصيـادين والمزارعين برهـة من الزمن، لكنهم سـرعـان مـا تمالكوا أنفسهم وهدأوا. لقد بدت لهم كل تلك التهديدات أشبه بقصة

خرافية، وغالب العديد منهم النوم فاستسلموا له على العشب الدافئ، يهدهدهم صوته.

أخذ يراقب النار بصمت وكان قلقاً، ووقفت المجدلية في الركن تنظر اليه. كانت ترغب بالتحدث اليه ولكنها لم تجرؤ على ذلك. أحياناً كلام المرأة يسعد الرجل؛ وأحياناً يثير غضبه، وكانت المجدلية تعرف ذلك فلزمت الصمت.

الدنيا سكون. المنزل يفوح برائحة السمك ونبات اكليل الجبل. النافذة المطلّة على فناء الدار مشرّعة. لا بد أن ثمة أشجاراً مثمرة مزهرة في مكان قريب، فأريجها، الطيب اللاذع، متغلغل في نسيم المساء.

نهض يسوع وأغلق النافذة. إن كل هذه الروائح الربيعية العطرة هي من أنفاس الغواية؛ إنها ليست الجو الملائم لروحه. لقد حان الوقت الملائم للانطلاق والبحث عن هواء يناسبه؛ الرب في عجلة من أمره.

فتح الباب، ودخل يهوذا ونقّل عينيه الزرقاوين في أنحاء الغرفة. رأى المعلم وعيناه مثبتتان على النار، رأى المجدلية ذات الردفين المرتفعين، وزبدى، الغارق في النوم يغط، وتحت المصباح رأى الكاتب يواصل خربشته ويملأ ورقته بالبقع... وهز رأسه. أتكون هذه هي آخر حملاتهم الكبرى؟ أهكذا سينطلقون للسيطرة على العالم؟ واحد مستبصر، وآخر أمين سر، واسكافي وبائع متجول - وكلهم يستريحون في كفرناحوم! وتكوّم في أحد الأركان. وكانت العجوز سالومه قد أعدّت المائدة.

جأر قائلاً «لست جائعاً. أريد أن أنام»، وأغمض عينيه حتى لا يرى الآخرين الذين سرعان ما جلسوا لتناول طعام العشاء. ثم دخلت فراشة من الباب، تخفق بجناحيها حائمة حول لهب المصباح.

ظلت هكذا برهة من الزمن ومن ثم، رفرفت في شعر يسوع، ثم انطلقت تدور في الغرفة.

قالت العجوز سالومه «سوف يأتينا زائر، وستسر بزيارته»

بارك يسوع الخبز ووزعه، وباشروا الأكل. لم يتكلم أحد وشعر العجوز زبدى، الذي استيقظ لتناول الطعام، بالاختناق من ثقل وطأة الصمت. ولم يعد بمقدوره التحمل أكثر من ذلك.

قال وهو يخبط قبضة يده على المائدة «تكلموا يا شباب، ما خطبكم؟ أترون أمامكم جثة هامدة؟ ألم تسمعوا القول المأثور: اذا اجتمع ثلاثة اشخاص او اربعة لتناول الطعام ولم يأتوا على ذكر الرب، كأنهم جالسون على مائدة جنائزية. هذا ما أخبرني به حبر الناصرة العجوز ذات مرة ـ بورك ـ ولا أزال أحفظه. فافصح يا ابن مريم، أعد الرب الى منزلي! اعذرني اذا خاطبتك بابن مريم. البعض ينادونك بابن النجار، وآخرون بابن داوود، أو ابن الرب، أو ابن الانسان. الجميع مشوشون. من الواضح أن العالم لم يتخذ قراره بعد بهذا الشأن»

أجاب يسوع «يا زبدى العجوز، إن حشوداً لا تحصى من الملائكة تحوم حول عرش الرب. أصواتها كخرير ماء صاف فضي وذهبي، تسبّح باسم الرب ـ ولكن عن بُعد، لا يجرؤ أي ملاك على الاقتراب كثيراً، ما عدا واحدا»

سأل زبدى، وهو يجحظ عينيه المترعتين بالخمر «أيُّها؟»

أجاب يسوع «ملاك الصمت». ولم يزد.

غصَّ سيد المنزل، فملأكأسه بالخمر ثم عبّه دفعة واحدة.

قال في نفسه، هذا الزائر هو قاتل المسرة دون شك. يشعر المرء وكأنه جالس على مائدة أسد... ما إن خطرت بباله هذه الفكرة حتى انتابه الخوف، ونهض واقفاً.

قال، وهو يتجه صوب الباب «أنا ذاهب لأبحث عن العجوز يونان حتى أتبادل معه حديث بشر». ولكن في تلك اللحظة سُمع وقع خطى خفيفة في الفناء.

قالت العجوز سالومه وهي تنهض «ها قد وصل زائرنا». التفتوا جميعاً، واذا بحبر الناصرة يظهر على عتبة الدار.

كم أصبح عجوزاً وكم ذوى! لم يبق منه غير حفنة من العظام ملفَّعة بجلد لفحته أشعة الشمس ـ بقدر بالكاد يكفي لتجد الروح شيئاً تعلق به حتى لا تغادره. ففي الفترة الأخيرة لم يكن الحبر يجد سبيلاً الى النوم، وحين يأتيه النوم أحياناً، عند الفجر، يكون مصحوباً بأحلام غريبة: ملائكة ولهب... وأورشليم تتخذ شكل حيوان جريح يعوي من فوق جبل صهيون. وقبل أيام راوده الحلم ثانية ولم يعد بمقدوره الاحتمال، فقفز وغادر منزله، وسار حتى وصل الحقول، واجتاز سهل يزرعيل حتى واجه جبل الكرمل، موطئ الرب، ماثلاً أمامه. لا شك بأن النبي ايليا واقف على قمته. وهو الذي حث خطى الحبر ومنحه القدرة على الارتقاء. حين وصل العجوز الى قمة الجبل كانت الشمس قد غربت. وكان يعلم أن ثمة ثلاث صخور عظيمة، قائمة على شكل مذبح فوق القمة المقدسة، وأن حولها عظام وقرون الأضاحي. ولكن بينما هو يقترب رفع عينيه، وشهق: لقد اختفت الصخور! في مساء ذاك اليوم وقف ثلاثة رجال بأجساد عملاقة فوق القمة، مسربلين بأردية بيضاء كالثلج، ووجوههم يشع منها الضياء. وكان يسوع ابن مريم يتوسطهم. الى يساره وقف النبي ايليا يقبض في كفه على جمر مشتعل؛ والى يمينه موسى ذو القرنين الملتويين يحمل لوحين عليهما كتابة بأحرف من نار... وسقط الحبر منبطحاً على وجهه. همس وهو يرتجف «أدوناي! أدوناي!». كان يعرف أن ايليا وموسى لم

يموتا، وأنهما سيظهران من جديد على الأرض في يوم الرب المخيف. إنها اشارة الى أن نهاية العالم قد حانت. لقد ظهرا من جديد ـ وهاهما! ـ وأخذ الحبر يرتعش من شدة الخوف. ثم رفع عينيه لينظر، فرأى الصخور العملاقة الثلاثة تومض يغطيها نور الغسق.

منذ سنين عديدة والحبر يفتح الكتاب المقدس، ويستنشق أنفاس يهوه. وتعلّم كيف يعثر على الفحوى الخفي الذي يبثه الرب خلف المرئي واللامرئي ـ بات يفهم الآن. تناول صولجانه عن الأرض ـ تُرى من أين استمد هذا الجسد المتهالك القدرة على فعل ذلك؟ ـ وانطلق يروم الناصرة، وقانا ومجدلة، وكفرناحوم ـ وكل مكان ـ بحثاً عن ابن مريم. كان قد سمع بخبر عودته من الصحراء اليهودية. وهاهو الآن بينما يقتفي أثره في كل أنحاء الجليل يرى كيف بدأ المزارعون والصيادون يؤلفون اسطورة النبي الجديد: حول المعجزات التي قام بها، والكلمات التي نطق بها، والصخرة التي اعتلاها ليتكلم من فوقها، وكيف اكتست الصخرة فجأة بالأزهار... واستجوب رجلاً عجوزاً قابله في الطريق، فرفع العجوز يديه نحو السماء وقال «كنت أعمى فمسح على جفنيّ وأعاد الي البصر. ومع أنه أمرني بأن لا أحدث بهذا الأمر أحداِ، إلا أنني أطوف بين القرى وأخبر الجميع به»

«وهل تستطيع أن تخبرني بالمكان الذي يوجد فيه الآن أيها العجوز؟»

«لقد تركته في منزل زبدى، في كفر ناحوم. عجِّل والحق به قبل أن يرتقي الى السماء»

حثَّ الحبر خطاه، وأدركه الليل، ووصل الى منزل العجوز زبدى تحت جنح الظلام. ودخل. وخفَّت سالومه للترحيب به.

قال الحبر وهو يجتاز عتبة الدار «سالومه، فليحل السلام على هذا المنزل، ولتُغدق خيرات ابراهيم واسحق على أصحابه»

ثم التفت فبهره مرأى يسوع.

قال «كم من طير مرَّ من فوقي وحمل اليَّ نبأك. إن الدرب التي اخترتها، يا ولدي، وعرة ولا نهاية لها. ليصحبك الرب!»

أجابه صوت يسوع الرصين «آمين!»

وضع العجوز زبدى يده على قلبه ورحَّب بالزائر وسأله «أي ريح حملتك الى داري يا أبت؟»

لكن الحبر - لعله لم يسمعه - جلس بجوار النار دون أن يجيب. كان مرهقاً، ومقروراً، وجائعاً. ولكن لم تكن لديه رغبة بتناول الطعام. كانت تمتد أمامه ثلاثة دروب، ولا يدري أيها يسلك. لماذا غادر منزله وجاء؟ ليكشف ليسوع عن رؤياه. ولكن ماذا لو أن هذه الرؤيا ليست من عند الرب؟ إن الحبر يعلم جيداً أن بإمكان الشيطان المغوي أن يتلبّس وجه الرب ليضلل البشر. واذا كشف ليسوع عما رآه، قد يتلبّس شيطان العجرفة روحه فيضيع وسيكون عليه هو، الحبر، أن يعطي رداً على ذلك. فهل يكتم سره ويتبعه الى حيث يذهب؟ ولكن أيليق به هو، حبر الناصرة، أن يتبع أشد الثوريين جرأة، رجلاً يفخر بأنه سيُحدث ناموساً جديداً؟ ألم يجد الآن، في طريقه الى هنا، قانا تسودها الفوضى بسبب شيء قاله يسوع يخالف الناموس؟ ويبدو أنه كان قد ذهب في يوم السبت المقدس الى الحقول ورأى أحدهم يعمل في تنظيف الحفر وفي ري حديقته. فقال له «أيها الرجل، إن كنت تعرف ماذا تفعل فلتحل عليك السعادة؛ واذا لم تكن تعرف فلتحل عليك اللعنة؛ لأنك بذلك تنتهك الناموس»، وحين سمع الحبر هذا الكلام اضطرب. وقال في نفسه، إن هذا المتمرد خطير. أسرع يا شمعون، والا وجدت نفسك ملعوناً - وأنت بهذا السن!

اقترب يسوع وجلس بجواره. كان يهوذا مضطجعاً على الأرض، وقد أغمض عينيه. وكان متّى قد لجأ الى مكانه تحت المصباح وجلس ينتظر، والريشة في يده. لكن يسوع لم يتكلم. أخذ يراقب النار وهي تلتهم الخشب ويشعر بالحبر الجالس الى جواره يلهث وكأنه ما يزال يسير على الطريق.

في تلك الأثناء أعدّت سالومه العجوز سريراً للحبر؛ فهو رجل عجوز ويجب اعداد حشية وثيرة ووسادة. ووضعت أيضاً ابريقاً صغيراً من الماء بجوار السرير حتى لا يعطش أثناء الليل.وأدرك زبدى العجوز أن الزائر الجديد لم يأت لأجله، فتناول هراوته وانطلق يبحث عن يونان ليستنشق من جديد أنفاس كائن بشري - فمنزله مملوء بالأسود. وانسحبت المجدلية وسالومه الى الغرفة الداخلية حتى ينفرد يسوع بالحبر. كان لديهما حدس بأن الرجلين لديهما أسرار كثيرة يتناقشان بشأنها.

لكن يسوع والحبر لم يتبادلا الحديث. كان كلاهما يفهم تماماً أن الكلمات لا يمكنها أبداً أن تخفف عما في قلب الانسان وتريحه. الصمت وحده قادر على فعل ذلك، فلزما الصمت.

ومرت الساعات. غلب النعاس متّى فنام والريشة ما تزال في يده، وعاد زبدى بعد أن شبع من الكلام واضطجع بجانب زوجته العجوز. انتصف الليل. وشبع الحبر بدوره - من الصمت. نهض. همس «لقد قلنا الكثير هذه الليلة يا يسوع. سنكمل في الغد!»، وانسحب الى سريره على ركبتين متداعيتين.

ارتفعت الشمس وتسنّمت قبة السماء. وانتصف النهار، لكن الحبر لم يكن قد فتح عينيه. كان يسوع قد ذهب الى شاطئ البحيرة ليتحدث الى الصيادين، واستقل قارب يونان ليساعده في صيده. وجال يهوذا في المكان بلا هدف، وحده، ككلب القطيع.

مالت سالومه على الحبر محاولة أن تسمع إن كان ما يزال يتنفّس، فوجدته، ثم غمغمت: «المجد للرب، مازال حياً»، وهمت بالابتعاد فإذا بالحبر العجوز يفتح عينيه، ورآها منكبّة فوقه، ففهم، وابتسم.

قال «لا تخافي يا سالومه، لم أمت. لم تحن ساعتي بعد»

أجابته سالومه بلهجة قاسية «كلانا أصبح عجوزاً. إننا نبتعد أكثر فأكثر عن الناس ونقترب من الرب. لا أحد يعرف متى تحين الساعة أو اللحظة. أعتقد أنه من الاثم القول «لم تحن ساعتي بعد»»

ألحَّ العجوز على القول «بل لم تحن ساعتي بعد. أيتها العزيزة سالومه. لقد وعدني رب اسرائيل بذلك. قال: «يا شمعون، لن تموت الا بعد أن ترى المسيح!»»

لكنه حين قال هذا جحظت عيناه من الخوف. أيمكن أن يكون قد شاهد المسيح لتوه؟ أيمكن أن يكون يسوع هو المسيح؟ أيمكن أن تكون رؤيا جبل الكرمل هي رؤيا من الرب؟ اذا كان الأمر كذلك فقد حانت ساعة موته! وتصبب العرق حتى أغرق جسده كله. لم يدر أيبتهج أم يندب. أما روحه فقد ابتهجت هاتفة: المسيح جاء! وأما جسده المتداعي فلم يرغب بالموت. نهض وهو يلهث، وزحف حتى الباب، ثم جلس على العتبة ليتشمّس، واستغرق في التفكير.

عاد يسوع قرابة الليل، مرهقاً. كان قد أمضى النهار يصطاد السمك مع يونان. وامتلأ القارب حتى فاض بمحتواه من السمك، وفرح يونان أيما فرح. وفتح فمه يبغي الكلام لكنه غير رأيه وأخذ يخوض حتى ركبتيه في كومة السمك المنتفض، وينظر الى يسوع - ويضحك.

في تلك الليلة بالذات عاد المريدون من تجوالهم في القرى المجاورة، وجلسوا القرفصاءحول يسوع وبدأوا يسردون عليه كل ما

رأوه وفعلوه. قالوا أنهم أعلنوا اقتراب يوم الرب بأصوات عمّقوها حتى يبثّوا الرهبة في قلوب المزارعين وصيادي السمك، لكن المستمعين اليهم واصلوا بهدوء ترميم شباكهم أو حرث حدائقهم. وكانوا بين الحين والآخر يهزّون رؤوسهم، ويقولون «سنرى... سنرى...»، ومن ثم يغيّرون موضوع الحديث.

وبينما المريدون يحكون هذا، اذا بالرسل الثلاثة يعودون فجأة. ولم يتمالك يهوذا، الذي كان منتحياً جانباً، نفسه من الضحك، لدى رؤيتهم.

هتف «ما هذه الفوضى التي أنتم بها، أيها الرسل. يا مساكين، لا شك بأنهم ضربوكم ضرباً مبرحاً!»

وهذا حق. فقد كانت عين بطرس اليمنى متورمة وتنزف، وكانت وجنتا يوحنا مملوءتين بالخدوش وملطختين بالدم، وكان يعقوب يعرج.

قال بطرس متنهداً «يا معلم، إن كلمة الرب تجلب الكثير من المتاعب، متاعب كثيرة جداً!»

وانخرطوا جميعاً في الضحك، أما يسوع فكان يتأملهم متفكراً.

ثم واصل بطرس، الذي كان متعجلاً يريد أن يكشف الأمر كله ليريح ذهنه، فقال «لقد ضربونا ضرباً مبرحاً. في أول الأمر قلنا أن على كل منا أن يسلك طريقاً مختلفة، ثم تولانا الخوف من فكرة أن يبقى كل منا وحده، فاجتمعنا نحن الثلاثة من جديد ورحنا نعظ الناس. فكنت أنا أعتلي صخرة أو شجرة قائمة في ساحة القرية، وأصفّق بيدي أو أضع أصابعي في فمي وأصفّر، فيجتمع الناس. وكان يوحنا يتولى الكلام كلما رأى تجمعاً من النساء. ولهذا ترون وجنتيه مملوءتين بالخدوش. وحين يكون عدد الرجال هو الغالب،

يتولى يعقوب، بصوته العميق، الكلام؛ فاذا ما بحَّ صوته استلم أنا المهمة. فماذا كنا نقول؟ الأشياء نفسها التي تقولها أنت ولكنهم كانوا يتلقوننا بالليمون العفن وصيحات الاستنكار لأننا نبشِّر، كما قالوا، بخراب العالم. وانقضَّت علينا النساء بأظافرهن، والرجال بقبضاتهم، والآن انظر، فقط انظر الى الحالة التي بتنا عليها!»

مرة أخرى قهقه يهوذا، لكن يسوع التفت اليه ورماه بنظرة قاسية أخرست فمه الوقح.

قال «أعلم أنني أرسلكم بوصفكم حملاناً بين الذئاب. سوف يسبونكم، ويرجمونكم ويجردونكم من الاخلاق لأنكم تشنون حرباً على الفسوق، وسيفترون عليكم، قائلين إنكم تبغون ابطال فكرة الايمان والعائلة، وأرض الأجداد، لأن ايماننا أنقى، وبيتنا أرحب، وأرض أجدادنا هي العالم كله! تحصنّوا جيداً أيها الرفاق. قولوا وداعاً للخبز وللفرح وللأمان. نحن ذاهبون لنخوض حرباً!»

التفت نثانئيل وألقى على فيلبّس نظرة قلقة. لكن فيلبّس أشار اليه وكأنما ليقول له، لا تخش شيئاً ـ انه يتكلم هكذا فقط ليختبرنا.

كان الحبر العجوز شديد التعب. وكان قد عاد يضطجع على سريره، لكن عقله ظل مفتوحاً على آخره: فرأى وسمع كل شيء. وقد توصل الآن الى قرار وهدأت غلواؤه. وعلا صوت من داخله ـ أصوته هو؟ أم صوت الرب؟ ولعله كلاهما ـ يأمره: يا شمعون، اتبعه، حيثما يذهب!

همَّ بطرس بفتح فمه مرة أخرى. لقد كان لديه ما يزيده. لكن يسوع مدَّ يده وقال «يكفي!»

نهض واقفاً. فمُثلت اورشليم أمام ناظريه: متوحشة، مسربلة بالدماء، وفي ذروة يأسها ـ هناك يبدأ الأمل. وتلاشت كفرناحوم،

بصياديها البسطاء وفلاحيها، وغاصت بحيرة جنيسارت مختفية داخله، وضاق به منزل زبدى ـ تقاربت الجدران حتى لامسته. شعر بالاختناق، ففتح الباب.

لماذا يمكث هنا، يأكل ويشرب، وتُضْرم لأجله النار، وتُعد له المائدة ظهراً ومساءاً؟ إنه يبدد الوقت هباءاً. أهكذا يخلِّص العالم؟ ألا يخجل من نفسه؟

خرج الى الفناء. كانت تهب ريح دافئة تحمل معها أريج الأشجار المتبرعمة. وكانت النجوم عقوداً من اللؤلؤ تحيط بجيد الليل وذراعيه. وفي الأسفل، عند قدميه شعر بالأرض تخزه وخزاً خفيفاً وكأن ألف فم يرضعون من أثدائهما.

يمّم وجهه شطر الجنوب، شطر اورشليم المقدسة. وكأنه كان ينصت بانتباه، ويحاول أن يتبين في الظلام وجهها الحجري القاسي الملطّخ بالدماء. وبينما تفكيره، المتّقد واليائس، يتدفق كالنهر ماراً بالجبال والسهول ويكاد يلمس في آخر المطاف المدينة المقدسة، خيل اليه فجأة أنه شاهد شبحاً هائلاً يتحرك في الفناء تحت شجرة اللوز المتبرعمة. وللتو برز من قلب الظلام شيء أشد حلكة من الليل (هكذا تبدّى له). إنها رفيقة سفره العملاقة. وسمع بوضوح في هدأة من الليل تنفسها العميق، لكنه لم يخف. لقد اعتاد مع مرور الزمن على سماع أنفاسها. انتظر، ثم قال، ببطء، وبنبرة آمرة، وبصوت هادئ خرج من تحت شجرة اللوز «هيا بنا!».

عندئذ ظهر يوحنا عند المدخل، مضطرباً. خيل اليه أنه سمع صوتاً في الظلام، فهمس «يا معلم، مع من تتكلم؟»

ولج يسوع المنزل، ومد يده وتناول عصا الراعي من الركن. قال «أيها الأصدقاء، هلموا بنا!». وسار باتجاه الباب دون أن ينظر خلفه ليرى إن كان أحد يتبعه.

قفز الحبر العجوز خارجاً من سريره، وشد عليه حزامه وقبض على صولجانه. قال «أنا آت معك يا ولدي». وكان أول المنطلقين نحو الباب.

كانت العجوز سالومه تغزل. هي أيضاً نهضت واقفة، ووضعت فَلْكة المغزل على صندوقها وقالت «أنا أيضاً قادمة. إنني أودع لديك المفاتيح يا زبدى. الوداع!». وحلّت المفاتيح عن خصرها وسلمتها لزوجها. ثم تلفَّعت جيداً بمنديلها، وألقت نظرة شاملة على منزلها وبإيماءة من رأسها ألقت تحية الوداع. وفجأة أصبح قلبها قلب فتاة في العشرين من عمرها.

المجدلية أيضاً نهضت، بصمت وحبور. ونهض المريدون الذين دبت فيهم الحماسة وتبادلوا النظرات.

سأل توما، وهو يعلق بوقه على حزامه «إلى أين نحن ذاهبون؟»

قال نثنائيل «أفي مثل هذا الوقت من الليل؟ لم العجلة؟ ألا يصح أن ننطلق في صباح الغد؟» ورمى فيلبّس بنظرة متجهمة.

لكن يسوع كان قد اجتاز الفناء بخطواته الواسعة وبدأ يسير جهة الجنوب.

الفصل الخامس والعشرون

أركان العالم تهتز لأن قلب الانسان يرتعش، رازحاً تحت وطأة الحجارة التي يسميِّها البشر اورشليم. تحت وطأة التنبؤات، وكثرة الكلام عن العود الثاني، ولعنات الكنيسة، والفريسين والصدوقين، والأغنياء المتخمين، والفقراء الجائعين، تحت وطأة الرب يهوه الذي تسيل من بين لحيته وشاربه دماء البشر منذ قرون طويلة، ويبتلعها اللج. وأينما لمست هذا الرب يعوى، واذا ألقيت على مسمعه كلمة طيبة يرفع قبضة يده ويصرخ «أريد لحماً». واذا قدمت له حَمَلاً أو ابنك المولود حديثاً كأضحية يزعق «لا أريد لحماً. لا تمزقوا ملابسكم بل مزقوا قلوبكم. حوِّلوا لحمكم الى روح. وأرواحكم الى صلوات، وانثروها في مهب الريح!»

قلب الانسان رازح تحت وطأة وصايا الناموس العبراني الستمائة والثلاثين المدوّنة بالاضافة الى آلاف غيرها غير مدونة - الا أنه لم يحرك ساكناً؛ رازح تحت وطأة التكوين، واللاويين، والعدد، والقضاة، والملوك[1] - ولم يحرك ساكناً. ثم فجأة، وفي

١- أسماء لأسفار في الكتاب المقدس (التوراة).

لحظة أبعد ما تكون عن التوقُّع هبّت نسمة رقيقة، ليس من السماء، بل من أسفل، من الأرض. فاهتزت حجيرات قلب الانسان جميعاً. وعلى الفور تداعى القضاة، والملوك، والتنبؤات، ولعنات الكنيسة، والفريسيون، والصدوقيون والحجارة التي يسميها البشر اورشليم وتقوّضت وأخذت تتهار - أولاً من داخل القلب، ومن ثم في العقل وأخيراً على الأرض نفسها. ومرة أخرى ربط يهوه المتعجرف حوله مئزره الجلدي ليمارس براعته الخاصة، ومرة أخرى تناول مسواته ومسطرته وهبط الى الأرض ووقف جنباً الى جنب مع البشر ليباشر بنفسه مساعدتهم على القضاء على الماضي وبناء المستقبل. لكنه قبل كل شيء بدأ بتشييد هيكل اليهود في اورشليم.

كان يسوع يذهب في كل يوم ويقف على حجارة الرصيف الملطخة بالدماء، ويتأمل هذا الهيكل المثقل ويشعر وكأن ضربات قلبه تدقه لتتقوض أركانه. الا أنه ظل قائماً، يلمع تحت أشعة الشمس كثور ذي قرنين ذهبيين يتوّجهما اكليل من الزهور. جدرانه مكسوّة حتى السطح بطبقة من الرخام الأبيض تتخلله خطوط زرقاء زرقة البحر: كأن الهيكل يطفو فوق متن محيط مضطرب. وارتفعت أمام ناظريه ثلاث طبقات من الغرف، واحدة فوق الأخرى. أسفلها وأفسحها مخصصة للوثنيين، والوسطى لشعب اسرائيل، والعليا مخصصة للاويين الذين يغسلون المصابيح ويسنفرونها، ويشعلونها، ويطفئونها، وينظفون أرجاء الهيكل. وتُحرَق سبعة أنواع من البخور نهاراً وليلاً. ويكون الدخان من الكثافة حتى أن الماعز يشم عبقه من مسافة سبعة أميال.

كانت السفينة المتواضعة المودع فيها الناموس، سفينة الأسلاف التي مخر أجدادهم البدو بها الصحراء، قد رست على قمة جبل صهيون هذه، وضربت جذورها، وأنبتت، واكتست بغابات السرو،

وبالذهب والرخام وأضحت هيكلاً. في أول الأمر لم يتنازل رب الصحراء الهمجي بسُكنى البيت، لكن اعجابه الشديد بأريج غابة السرو والبخور والعبق المنبعث من الحيوانات المذبوحة حثه ذات يوم فرفع قدمه ودخل.

مرَّ حتى الآن شهران على وصول يسوع من كفرناحوم. وفي كل يوم يذهب ويقف أمام الهيكل ويتأمله، وفي كل يوم يبدو وكأنه يراه للمرة الأولى. وكأنه يتوقع كل يوم أن يجده مقوضاً على الأرض حتى يطأه بقدميه من أدناه الى أقصاه. لم يعد يرغب في رؤيته قائماً أكثر من ذلك، ولا كان يخشاه. لقد تقوَّضت أركانه في قلبه فعلاً. وذات يوم حين سأله الحبر العجوز لماذا لا يدخله ويتعبّد، هز رأسه وأجاب «منذ سنين وأنا أدور في فلك الهيكل، والآن جاء دوره ليدور في فلكي»

قال الحبر معترضاً، وهو يشرئب بعنقه العجوز بعيداً عن صدره «هذه كلمات متبجّحة يا يسوع. ألا تخاف؟»

أجاب يسوع «عندما أقول «أنا» فأنا لا أقصد هذا الجسد ـ الذي هو تراب، ولا أقصد ابن مريم ـ فهو أيضاً تراب، يتخلله قبس صغير، صغير جداً من النار. إن كلمة «أنا» حين تخرج من فمي أيها الحبر فإنها تعني الرب»

هتف الحبر «إن هذا الكلام تجديف أشد شناعة»، وغطى وجهه.

أجابه يسوع وهو يضحك «أنا مجدِّف قديس، فلا تنس هذا»

حين رأى ذات يوم مريديه واقفين أمام الصرح المهيب فاغري الأفواه من فرط الاعجاب، انتابه الغضب. قال لهم ساخراً «أراكم تجدون الهيكل مثيراً لدهشتكم؟ كم سنة استغرق بناؤه يا ترى؟ عشرون عاماً؟ وعشرة آلاف عامل؟ أنا سأدمره في غضون ثلاثة

أيام. امعنوا النظر فيه ـ وللمرة الأخيرة، ودّعوه الوداع الأخير. فلن يبقى فيه حجر على حجر الا وينهار!»

ابتعد المريدون خطوة الى الوراء من هول ما سمعوا. أيمكن أن يكون المعلم قد أصيب بمكروه في دماغه؟ لقد أصبح مؤخراً حاد الطباع وغريب الأطوار، وشديد العناد. كأنما كانت تهب عليه ريح غريبة، متواترة. تارة يتألق وجهه كالشمس المشرقة ويستضيء كل ما حوله بنوره، وأحياناً تكفهر نظرته، ويملأ اليأس عينيه.

غامر يوحنا بالقول «ألا تأسف عليه يا معلم؟»

«على ماذا؟»

«الهيكل. لماذا تريد أن تهدمه؟»

«لكي أبني آخر جديداً. سوف أبني آخر جديداً في غضون ثلاثة أيام. ولكن يجب أولاً أن نُخلي الأرض»

تناول عصا الراعي التي قدمها له فيلبّس وضرب بها الطريق. وبدأت رياح الغضب تهب عليه. راح ينظر الى الفريسين السائرين بخطى متعثرة يرتطمون بالجدار ويجرحون أنفسهم. وكان واضحاً أن بهاء الرب الضافي يعميهم. وصرخ بهم «أيها المنافقون، لو يشق الرب قلوبكم بسكين لخرجت منها أفاع، وعقارب وقذارة!»، وسمعه الفريسيون فتملكهم الهلع، وقرروا سراً أن يسدوا هذا الفم الذي لا يعرف الخوف بالأقذار.

وضع الحبر العجوز راحة يده على شفتي يسوع ليسكته. وذات يوم سأله، والدموع تترقرق في عينيه «أتلاطف الموت؟ الا تعي أن الكتبة والفريسين يهرعون دائماً الى بيلاطس ويطالبونه برأسك؟»

أجاب يسوع «أعرف يا أبت، لكني أعرف ما هو أكثر من ذلك، أكثر بكثير...»

طلب من توما أن ينفخ في البوق، وارتقى منصته المعتادة فوق

شرفة سليمان ومرة أخرى أخذ ينادي «لقد جاء، يوم الرب جاء!» وكل يوم من الصباح وحتى الغروب كان يصرخ ليجبر السماوات على أن تنفتح وتقذف حممها ـ لأن صوت الانسان، كما يعرف جيداً، يتحلى بسحر طاغ. يكفي أن تصرخ «تعال!» للنار أو للندى، للجحيم أو للفردوس، فيأتي. وهكذا كان يستنزل الحمم لتطهّر الأرض وتمهد الطريق لمقدم المحبة. إن قدميّ المحبة دائماً تحبان السير على الرماد...

سأله اندراوس ذات يوم «يا معلم، لماذا لم نعد نراك تضحك، لماذا لست مرحاً، كما كنت في السابق؟ لماذا تغدو عنيفاً باضطراد؟»

لكن يسوع لم يدل بجواب. ماذا يسعه أن يقول، وكيف يمكن لقلب أندراوس الساذج أن يفهم؟ وفكّر، يجب تدمير هذا العالم ونزعه من جذوره اذا اردنا اقامة عالم جديد. ويجب تمزيق الناموس القديم، وأنا من سيفعل ذلك. ويجب نقش ناموس جديد على ألواح القلب، وأنا من سيقوم بالنقش. سأجعل الناموس رحباً يسع الأصدقاء والأعداء، اليهود والوثنيين: سوف تنفلق الوصايا العشر وتخرج براعم! لهذا جئت الى هنا الى اورشليم. هنا ستنشق السماوات. ماذا سيهبط من السماء ـ أمعجزة عظمى، أم الموت؟ فليكن ما يشاؤه الرب. أنا مستعد للعروج الى السماء أو النزول الى لجة الجحيم. فقرر يا رب!

اقترب عيد الفصح، وغمرت وجه اليهودية القاسي حلاوة ربيعية غير متوقعة، وفتحت طرق البر والبحر، ووصل المتعبدون من أركان العالم اليهودي الأربعة. وفاحت مدرجات الهيكل التي تضج بأصوات تجأر بروائح البشر، والدواب المذبوحة والروث.

اليوم تجمع عدد غفير من المعدمين والمعاقين خارج شرفة سليمان، يرمقون بوجوههم الشاحبة التي تنم عن شدة الجوع،

وبعيونهم الملتهبة، الصدوقين المتخمين والأثرياء، والمواطنين المرحين وزوجاتهم المثقلات بالأساور الذهبية، بنظرة حقود.

زعق أحدهم قائلاً «الى متى في اعتقادكم ستظلون تضحكون؟ قريباً سننحر أعناقكم. لقد قال المعلم: سوف يقتل الفقراء الأغنياء ويتقاسمون ممتلكاتهم»

قال رجل شاحب بعينين وشعر كالخروف، غامزاً «أنت لم تسمعه جيداً يا منسّى. بل لن يكون هناك فقراء وأغنياء بعد الآن، سوف يتساوون. هذا هو معنى مملكة السماء»

قاطعه رجل أخرق أشبه بنبتة بقول «إن مملكة السماء تعني أن الرومان سيرحلون. فلا يمكن مجيء مملكة السماء بوجود الرومان»

أجاب رجل وقور ذو شفتين كشفتي أرنب، وهو يهز رأسه الأصلع «أنت لم تفهم أي شيء مما قاله المعلم يا هارون. فلا وجود للاسرائيليين أو الرومان، أو لليونانيين أو للكلدانيين، أو حتى للبدو، فكلنا أخوة»

وهتف آخر «كلنا رماد! هذا ما فهمته أنا، سمعت ذلك بأذنيّ. لقد قال المعلم «سوف تنفتح أبواب السموات. الفيضان الأول كان من الماء؛ وهذا سيكون من النار. والجميع ـ أغنياء وفقراء، اسرائيليون ورومان ـ سيصير رماداً!»»

«سوف تهز شجرة الزيتون، ولكن ستبقى في أعلاها حبتان أو ثلاث حبات زيتون، وثلاث حبات أو أربع في أعلى الأفنان» هذا ما قاله النبي أشعيا... فتشجعوا يا رجال. سنكون نحن حبات الزيتون المتبقية. وكل ما علينا أن نفعله هو أن نلازم المعلم، حتى لا يغيب عن أنظارنا!». هذه الكلمات قالها رجل بشرته بلون قدر متفحّم، وعيناه مستديرتان، جاحظتان تحدقان الى الطريق البيضاء المغبرة المؤدية الى بيت عنيا. ثم دمدم «لقد تأخر اليوم، تأخر... خذوا حذركم يا شباب لا تدعوه يغيب عن عيونكم!»

سأل ذو الشفة الأرنبية العجوز «الى أين يمكن أن يذهب؟ لقد طلب منه الرب أن يقاتل في اورشليم، وها هنا ساحة قتاله!»

كانت الشمس تتبوأ كبد المساء، وحجارة الطريق تتبخر؛ واستفحلت الروائح النتنة مع ازدياد شدة القيظ. ظهر يعقوب الفريسي، وذراعاه مثقلتان بما تحملانه من تمائم، ينادي معلناً الفضيلة الخاصة لكل منها: هذه تشفي من الجدري، والمغص، والحمرة، وهذه تطرد الشياطين، أما أقواها جميعاً وأغلاها فتقتل أعداءك... ولاحظ وجود الصعاليك، والمعاقين، وتعرّف عليهم. فقوّق بحسد بفمه المسموم «اذهبوا الى الشياطين!»، وبصق ثلاث مرات في الهواء ليتخلّص منهم.

وبينما الصعاليك يتشاجرون، وكل منهم يحوّر كلمات المعلم على هواه، مثل أمام الجميع فجأة رجل ضخم الجثة، وقور، يحمل عصا طويلة ويتصبب عرقاً، معتفر الثياب، ووجهه الواسع الذي لم تتسلل اليه التجاعيد، يلمع.

هتف العجوز ذو الشفة الأرنبية «ملكي صادق! ماذا تحمل الينا من أخبار طيبة من بيت عنيا؟ ان وجهك يشع بالضياء!»

هتف العجوز الجليل «ابتهجوا وافرحوا أيها الناس»، وكان طوال الوقت يبكي ويعانق الناس كلهم، «لقد بُعث أحد الموتى؛ رأيته بأم عيني. نهض وقام من قبره وسار! ثم أعطوه ماءاً فشرب، وأعطوه خبزاً فأكله، وتكلم!»

«من؟ من الذي بُعث من موته، من الذي قام؟»، هكذا راحوا يتساءلون جميعاً ويتهافتون على الرئيس العجوز، وسمعهم الجالسون في الأروقة المقنطرة المجاورة، فهرع اليهم رجال ونساء، واقترب أيضاً العديد من اللاويين والفريسيين. وكان باراباس ماراً بهم والتقطت أذناه الجلبة، فانضم الى الحشد.

فرح ملكي صادق برؤية تلك الأعداد الغفيرة مشدودة الى ما يقوله. فمال على عصاه وباشر الكلام باعتزاز «إنه اليعازر، ابن الياقيم. هل يعرفه أحد منكم؟ لقد مات قبل أيام قليلة ونحن دفناه. ومرّ يوم، ويومان، وثلاثة أيام ـ ونسينا أمره. وفجأة في اليوم الرابع، سمعنا هتافاً في الشارع، فهرعت ورأيت يسوع، ابن مريم الناصري، وأختيّ أليعازر ساجدتين تقبلان قدميه، وتندبان أخيهما. وكانتا تصرخان وهما تولولان طوال الوقت، وتشدان شعرهما «لو كنت معه يا معلم ما كان مات. أعِدْه من مثوى الأموات يا معلم. نادِه فيأتي!»»

«أمسك يسوع بيديهما وأنهضهما، وقال «هيا بنا»»

هرعنا جميعاً خلفهم حتى وصلنا الى قبر. وهناك توقف يسوع، وتصاعد الدم كله الى رأسه، ودارت عيناه ثم غابتا، فلم نعد نرى غير بياضهما. ثم أطلق جواراً رهيباً حتى ظننا أن ثمة ثوراً داخله، وتملكنا الذعر جميعاً. فجأة، بينما هو كذلك، يرتعش من رأسه الى أخمصيه، صرخ صرخة عنيفة، صرخة غريبة، وكأنها صادرة من العالم الآخر. لابد أن رؤساء الملائكة يصرخون بتلك الطريقة عندما يغضبون... ثم هتف «يا أليعازر، قُمْ». وعلى الأثر سمعنا أرض الجدث تهتز وتتصدع. واذا بشاهد القبر يبدأ بالتحرك؛ كان هناك من يدفعه الى أعلى ببطء. وساد الرعب والرجفان... لم أعرف دهري خوفاً من الموت يبلغ مقدار خوفي من ذاك البعث. وأقسم أنني لو خيِّرتُ بين أن أشاهد أسداً أو بعثاً لاخترت مشاهدة الأسد.»

وصرخ الناس وهم يبكون «ارحمنا يا رب! ارحمنا يا رب! تكلّم، أيها الأب ملكي صادق، تكلم!»

«وأخذت النسوة تزعق، واختبأ العديد من الرجال خلف الصخور، وأما من بقي منا فكان يرتعش. وارتفع الشاهد شيئاً فشيئاً، ثم رأينا ذراعين يعلوهما الشحوب، ومن ثم رأساً يعلوه

الاخضرار، منشقاً وتسربله القذارة، وأخيراً الجسد الشبيه بالهيكل العظمي الملفع بالكفن. أخرج احدى قدميه، ثم الأخرى، وخرج. كان أليعازر»

سكت الرئيس العجوز ليجفف عرقه بكمِّه العريض. وكان الناس المحيطون به من كل جانب يولولون. بعضهم يبكي، وآخرون يرقصون.

رفع باراباس يده الغزيرة الشعر، وهتف «أكاذيب! أكاذيب! إنه مفوَّض من الرومان وهو الذي لفّق كل هذا بالتعاون مع أليعازر. فليسقط الخونة!»

صرخ صوت بربري من خلفه «اخرس! عن أي رومان تتكلم؟»

التفتوا جميعاً ثم نكصوا للتو. كان روفوس قائد المائة يقترب من باراباس رافعاً سوطه. تشبثت فتاة شاحبة شقراء الشعر، بذراعيه، وكانت طوال الوقت واقفة تنصت الى ما يقوله ملكي صادق العجوز، والدموع تنهمر غزيرة من عينيها الخضراوين الكبيرتين. تسلل باراباس مندمجاً في الحشد الانساني، ثم اختفى، وهرع خلفه يعقوب الفريسي مع تمائمه، وأدركه خلف أحد الأعمدة. وهناك كمن الاثنان وأخذا يتحدثان ورأساهما ملتصقان معاً: أصبح قاطع الطريق والفريسي أخوين.

بادر باراباس بالكلام. سأل بقلق «أتظن أنه صحيح؟»

«ماذا؟»

«ما يقولونه عن أنه أعاد الحياة الى جثة»

«اسمع ما سأقوله لك. أنا فريسي، وأنت زيلوت. حتى الآن كنتُ دائماً أقول أنه لن يخلِّص اسرائيل الا الصلاة والصوم، والناموس المقدس. أما الآن...»

سأله الزيلوت، وعيناه تومضان «الآن؟»

«الآن، أيها الزيلوت، بدأت أرى الأشياء بمنظاريك. لا يكفي الصلاة والصوم، هنا يجب الاستعانة بالخنجر. أتفهمني؟»

قهقه باراباس وسأله «أتسألني أنا؟ لا صلاة أفضل من نصل الخنجر. ماذا بعد؟»

«فلنبدأ به»

«بمن ؟ أوضح»

«بأليعازر . من الأهمية بمكان أن ننزله مرة أخرى الى بطن الأرض. فمادام الناس يرونه أمامهم سيقولون «لقد مات وأعاده ابن مريم الى الحياة». وهكذا سيذاع صيت النبي الزائف... أنت محق يا باراباس، إنه المفوض من قبل الرومان ليهتف ويقول «لا تهتمّوا بمملكة الأرض، وضعوا السماء نصب عيونكم!». وهكذا ـ بينما نحن نضيع وقتنا في البحث عن المفتاح يجثم الرومان على أعناقنا . أتفهم؟»

«ماذا تعني؟ أتريد منا أن نقتله أيضاً، وهو أخوك؟»

صرخ الفريسي، متظاهراً بأنه يمزق ثيابه «انه ليس أخي، لا أريد أن تكون لي أي صلة به! انه لكم!»

بعد أن قال هذا ابتعد عن العمود وباشر من جديد المناداة على طلاسمه. وفرح لأن خدعته انطلت تماماً على باراباس.

يئس حشد الفقراء المتجمِّع خارج شرفة سليمان من وصول يسوع، وبدأوا يتفرقون . ابتاع العجوز ملكي صادق حمامتين بيضاوين ليقدمهما كأضحية شكر لرب اسرائيل لسبغه رحمته أخيراً على الشعب وارساله لهم، بعد سنين كثيرة من الانتظار، نبياً جديداً .

كانت الحجارة تتلظى في الحر، وتلاشت وجوه الناس وسط الضياء المبهر، وفجأة ارتفعت سحابة من الغبار على الطريق القادمة من بيت عنيا وسمعت هتافات فرح؛ لقد أغلق أهل القرية برمتهم محلاتهم وهاهم قادمون. ظهر أولاً الأطفال حاملين سعف

النخـيل وأكـاليل الغـار، وخلف سـعف النخـيل ظهـر يسـوع ، بوجـه مـشرق؛ وبعـده كـان المريدون، بوجـوه مـتوردة تتـصـبب عـرقاً وكـأن كل واحـد منهم بعث ميتـاً من قبـره؛ وآخـر الجميع جاء أهل بيت عنيـا، وقد بحَّت أصواتهم تمامـاً من عزم الهتاف. وكـانوا جميعـاً مندفـعين نحـو الهـيكل. ارتقى يسـوع الدرج مـثنى، وقطـع المدرج الأول ووصل الى الثـاني. شعَّ وجهه ويداه بضياء وحشـي حتى لم يكن أحد يحتمل الاقـتـراب منه. وحـاول الحـبـر العـجـوز الذي هرول خلفـه لاهث الأنفـاس، لبـرهـة من الوقت أن يخـتـرق الفـراغ غيـر المرئي المحـيط بالمعلم، لكنه سـرعان ما أحجم وكأنما لسعته ألسنة من اللهب.

كـان يسـوع قد خـرج لتوه من أتون الرب وكـان دمـه مـايزال يغلي بعنف. وهو لا يكـاد يصـدق، ولا يـريد أن يصـدق: أيمكن أن تتـمـتع الروح بهـذه القـوة؟ أيمكن أن تـأمـر الجـبـال بالتـحـرك، فـتتـحـرك؟ مسـتـحـيل! أيمكن أن تشق قلب الأرض وتخـرج منهـا الموتى، وتـدمـر العـالم في غـضـون ثلاثة أيام وتعـيـد بنـاءه في غـضـون ثـلاثة أيام ؟ ولكن اذا كـانت الروح بهـذه القـوة الفـائقـة، فـإن عـبء الهـلاك الأبدي أو الخـلاص يقـع على عـاتق الانسـانيـة، وتمحِّي الحـدود بين الرب والانسـان... يا لهـا من فكرة مـرعبـة وخطيـرة. وأخـذ صـدغـا يسـوع يقـرعان كما الطبول.

كـان قـد تـرك أليـعـازر واقـفـاً وهـو مـايزال فـي كفنـه فـوق قـبـره، وانطلق بسـرعـة فـائقـة يبـغي الهـيكل في أورشليم . وكـانت تلك المرة الأولى التي يتيَّـقن فـيهـا دون أدنى شك بأنه يجب إفناء هـذا العـالم وأن على أورشليـم جـديدة أن تنهض مـن بين الموتى. وهـاقـد حـانت اللحظة المناسـبـة . وهـاهـي ذي الاشـارة التي طالما انتظرهـا. العـالم الذي فسـد ولا أمل فيه هو أليعازر . وقد جـاء الوقت المناسب ليصرخ «أيهـا العـالم انهض!». لقـد كـان يحـمل التـزامـاً على عـاتقـه، والشـيء

الأكثر إثارة للرعب، كما أصبح يدرك الآن، انه يتمتع بالقوة اللازمة لذلك. لم يعد بوسعه أن يتهرب فيقول، أنا غير قادر! انه قادر، واذا لم ينل العالم خلاصه، فالذنب كل الذنب يجب أن يقع عليه.

ارتفع الدم الى رأسه. وكان أينما نظر يقابله تحديق المضطهدين من الصعاليك، المعلقة آمالهم كلها عليه. وأطلق صرخة قوية ثم قفز معتلياً أحد المنابر فتجمهر الناس من حوله، والأغنياء أيضاً المتخمون توقفوا وهم يتكلفون الابتسام لينصتوا اليه. فالتفت يسوع ورآهم، ورفع قبضة يده في وجوههم.

قال «اسمعوا ، أيها الأغنياء ، اسمعوا، يا سادة هذا العالم. لن يكون هناك ظلم، أو فسق، أو جوع بعد الآن! الرب دلك شفتيّ بجمر ملتهب، وها أنا أصرخ بكم الى متى ستظلون تضطجعون على أسرّة من عاج وحشايا وثيرة؟ الى متى ستظلون تنهشون لحم الفقراء، وترشفون عرقهم ودمائهم ودموعهم؟ إن ربي يصرخ «لم أعد أحتمل!». النار تقترب، والموتى يُبعثون، وحانت نهاية العالم!»

رفعه رجلان ضخما الجثة من الصعاليك فوق رأسيهما، وتجمهر الدهماء من حوله، ملوِّحين بالسعف. وتصاعد البخار من رأس النبي الملتهب.

قال «جئت لا لأجلب السلام الى العالم، بل السيف. سأبث الشقاق في البيوت. سيرفع الابن يده ليضرب بها والده، وترفع الابنة يدها في وجه أمها، وكذا الكنّة في وجه حماتها- اكراماً لي. إن من يتبعني عليه أن يتخلى عن كل شيء. إن من يسعى لانقاذ حياته على هذه الأرض، سيفقدها، ومن يفقد حياته الفانية اكراماً لي سيفوز بحياة أبدية»

ثم صرخ صوت وحشي «ماذا يقول الناموس، أيها المتمرد؟ ماذا يقول الكتاب المقدس، يا شيطان؟»

أجابه يسوع، وعيناه تبرقان «ماذا يقول النبيان العظيمان ارميا وحزقيا؟ سوف ألغي الناموس المنقوش على ألواح موسى وأنقش ناموساً جديداً في قلب الانسان. سأزيل القلب الحجري الذي يحمله البشر بين أضلاعهم وأهبهم قلباً من لحم؛ وفي هذا القلب سأزرع أملاً جديداً! أنا من سينقش الناموس الجديد في القلوب الجديدة. وأنا أيضاً سأهب الأمل الجديد ! وأنا سأنشر المحبة ، انني أفتح بوابات الرب الأربعة العظيمة، الشرق ، والغرب ، والشمال، والجنوب، لتدخل منها الأمم كافة. إن حضن الرب ليس مخصصاً فقط لليهود، بل ليحضن به العالم كله! الرب ليس اسرائيلياً ، انه روح مقدسة سرمدية!»

غطى الحبر العجوز وجهه بيديه. ودّ لو يهتف، اصمت يا يسوع، إن هذا كفر عظيم! لكن الأوان كان قد فات. وانطلقت هتافات الفرح، وصاح الفقراء ابتهاجاً؛ وأطلق اللاويون صيحات الاستنكار، ومزق يعقوب الفريسي ثيابه وبصق في الهواء. واستسلم الحبر العجوز يأساً. وغادر المكان وهو يبكي ، وتمتم وهو يسير «لقد انتهى، انتهى! أي شيطان، أي رب يصرخ من داخله؟»

واصل سيره وقد هدَّه التعب حتى انه كان يحطُّ قدميه حطاً، فبعد كل هذه الأيام والأسابيع التي أمضاها يهرع خلف يسوع، مجاهداً كي يفهم كنهه، ذوى جسمه المتهالك تماماً. بل لم يتبق منه الآن غير جلد مسفوع بأشعة الشمس يلف عظامه تتشبث به الروح وتنتظر. أيكون هذا الرجل هو المسيح الذي وعده به الرب أم لا؟ إن كل المعجزات التي قام بها يمكن أيضاً أن يقوم بها الشيطان ، الذي بمقدوره أن يبعث الموتى. لذا فالحبر لم يعتبر أن المعجزات تشكل أساساً صلباً لاصدار حكم، ولا النبوءات . الشيطان ملاك وتيس ماكر وشديد البأس ومن أجل أن يخدع البشر بامكانه أن يجعل

كلماته وأفعاله تتطابق مع النبوءات المقدسة تطابقاً كاملاً. ولهذا كان الحبر يبقى طوال الليل أرقاً يتضرع الى الرب كي يرفق به ويريه اشارة واضحة... أية اشارة؟ كان الحبر يعرف بدقة ماهي : انها الموت، موته هو، وحين تمثّل هذه الاشارة في ذهنه أصابته الرجفة.

واصل سيره المضطرب وسط سحابة من الغبار ، ثم ظهرت بيت عنيا فوق قمة التل للعيان، مستسلمة بكاملها لأشعة الشمس. وباشر الصعود وهو يلهث بشدة.

باب بيت اليعازر مفتوح، وأهل القرية يهرعون داخلين خارجين ليشاهدوا الرجل العائد الى الحياة ويلمسوه، لينصتوا بكل انتباه الى أنفاسه ، ليتأكدوا من أنه يستطيع أن يتكلم ومن انه حي حقاً ـ أو إن كان ربما شبحاً ! وكان أليعازر جالساً، تعباً، متكئاً، في الركن الأشد ظلمة من بيته، لأن النور كان يزعجه. وكانت ساقاه، وذراعاه، وبطنه متورمة وخضراء اللون، مثل جثة ميتة مضى عليها أربعة أيام. وكان وجهه المنتفخ مشققاً كله ويتحلّب سائلاً أبيض مائلاً للصفار لوّث الكفن الأبيض الذي مازال يلتفُّ به : كان ملتصقاً بجسمه ويتعسر نزعه. في البداية كان يفوح برائحة فظيعة ، وكان على كل من يقترب منه أن يسد أنفه، لكن الرائحة الكريهة أخذت تخفُّ شيئاً فشيئاً، الى أن أصبح الآن لا يشتم منه الا رائحة التراب والبخور. وكان بين الفينة والأخرى يحرك يده وينزع العشب المشتبك بشعره ولحيته. وكانت أختاه مرتا ومريم تنظفانه من التراب ومن دود الأرض العالق به. وأحضر له جار ودود دجاجة ، والعجوز سالومه الجالسة القرفصاء بالقرب من موقد النار، تطبخها في الوقت الحالي حتى يشرب العائد الى الحياة المرق ويستعيد قواه. وأتى الفلاحون ولم يمكثوا الا هنيهات ليتفحّصوه عن قرب ويتكلموا معه. وأجاب عن أسئلتهم بضجر بكلمة نعم أو لا مقتضبة، ثم جاء آخرون

من القـرية أو من البلدان المجـاورة. واليوم جـاء أيضـاً شـيخ القـرية الضـرير، ومـد يده وراح يتـحـسـسـه بشـره. ثم سـأله ضـاحكاً «هل أمضيت وقتاً ممتعاً في الجحيم؟ أنت محظوظ يا اليعازر؛ الآن بت تعـرف كل أسـرار العـالم السـفلي. ولكن اياك أن تكشف عنهـا أيهـا البائس، والا أصيب الجميع بالجنون». ثم مـال على اذنـه وقـال بين الهـزل والخـوف «وجـدتَ ديدان، هه؟ لاشـيء غـيـر الديدان أليس كذلك؟». وانتظر فترة طويلة، لكن اليعازر لم يدلِ بجواب. استشاط الضرير من الغضب فأمسك بعصاه وغادر.

وقفت المجدلية في ممر الباب وراحت تحدق على طول الطريق المؤدية الى أورشليم . كان قلبـهـا يصـرخ كطفل صـغير. في كل ليلة كانت ترى كوابيس : رأت يسـوع يتـزوج، وتفسيـره الموت. فقبل ذلك خُيِّل اليها أنه تراءى لها على شكل سمكة طائرة فتحت زعانفها، ثم قـفـزت خـارجـة من الماء وسـقطت على اليـابسـة. وأخـذت تنتـفض بحـركات مـتشنجة على حصبـاء الشـاطئ، وهي تكافح عبـثاً لتفتح زعـانفهـا مرة أخـرى. وبدأت عيناهـا تغربان من الاختنـاق . فـالتفـتت نحـوهـا، وقامت بجهد مهلك لتمسك بها وتعيدها الى المحيط . الا أنهـا حين انحنـت وأمسكت بهـا بيدهـا كانت قد مـاتت. لكنهـا طوال فتـرة حملها لهـا وهي تنوح عليـهـا وتغسـلهـا بدموعـهـا كـانت تنمـو، وامتلأ بها حضنها وأضحت رجلاً ميتاً.

تمـتـمت «لن أدعـه يعـود الى أورشليم... لن أدعـه...»، وأطلقت تنهيدة وحدقت في امتداد الدرب الأبيض علَّه يظهر.

لكن الذي ظهـر على الدرب قـادمـاً مـن أورشليم لم يكن يسـوع، وبدلاً عنـه شـاهـدت المجـدليـة والدهـا العـجـوز، مـتـهـالكـاً ويرتجف. قـالت لنفسـهـا، يا للعجـوز الذاوي المسكين. لماذا يريـد وهو في هذه الحـالة المزرية أن يتـبـع مـعلمنا أينمـا توجـه، ككلب عـجـوز مـخلص؟

انني أسمعه وهو يقوم أثناء الليل ويخرج الى الفناء، ويسجد ويبكي ويتضرع الى الرب قائلاً «أنقدني أعطني اشارة!». لكن الرب يتركه يتعذب، ويبدو انه يعاقبه لأنه يحبه : بهذه الطريقة يتعزّى الرجل المسكين.

والآن أخذت تراقبه وهو يرتقي، متكئاً على عصاه . وكثيراً ماكان يتوقف ، وينظر خلفه جهة أورشليم ويفتح ذراعيه واسعاً ليلتقط أنفاسه... وطوال تلك الأيام اجتمع هذا الوالد وتلك الابنة في بيت عنيا ونسيا ماحدث في الماضي وعادا يتبادلان الحديث. وسامح الحبر ابنته بعد أن وجد انها قد تخلّت عن سبيل الشر. كان يعرف أن الآثام كلها تغسل بالدموع، وكانت المجدلية قد بكت بكاءاً سخياً .

وصل العجوز مقطوع الأنفاس ، فتنحَّت المجدلية ليمر من الباب، لكنه توقف وأمسك بيدها وقال يناشدها «مجدلية يا ابنتي، أنتِ امرأة: في دموعك ولمساتك الرقيقة قوة عظيمة . خِرّي على قدميه، توسّلي اليه أن يعود الى أورشليم. لقد أصبح الكتبة والفريسيون اليوم أشد ضراوة. أنا رأيتهم يتحدثون سراً فيما بينهم، والسُم يقطر من أفواههم. انهم يخططون لاغتياله.

هتفت المجدلية «اغتياله!»، وأحست بقلبها ينسحق «ولكن أيموت، يا أبت؟»

نظر الحبر العجوز الى ابنته وابتسم بمرارة، ثم غمغم «هذا مانقوله دائماً عمَّن نحبهم». وصمت.

قالت المجدلية بنبرة يائسة «لكن المعلم ليس رجلاً كبقية الرجال، لا ، ليس مثلهم! ليس مثلهم! ليس مثلهم!»، كررتها مراراً لكي تبعد عنها المخاوف.

سألها العجوز «وكيف لك أن تعرفي؟»، وطفر قلبه من بين أضلعه، لأنه كان يؤمن بأحاسيس النساء المسبقة.

أجابت المجدلية «أنا أعرف. ولا تسألني كيف. أنا متأكدة من ذلك لا تخف يا أبت. من سيجرؤ على لمسه الآن بعد أن بعث اليعازر من الموت؟»

«الآن بعد أن بعث اليعازر من الموت أصبحوا أكثر شراسة من ذي قبل. في السابق كانوا ينصتون الى وعظه ويهزون أكتافهم. أما الآن وبعد أن عُرفت المعجزة على الملأ، أصبح الناس يجدون الشجاعة ليهتفوا «انه المسيح. لقد أعاد الحياة الى الميت. انه يستمد قوته من الرب - هيا بنا ننضم اليه». أصبح الرجال والنساء يحملون سعف النخيل ويهرعون خلفه، ويحمل المقعدون عكازاتهم ويرفعونها مهددين، وجمح الفقراء، ورأى الكتبة والفريسيون كل هذا واستشاطوا من الغضب الهستيري، وقالوا «اذا تركناه يتمادى أكثر من ذلك فسيقضي علينا»، فذهبوا الى حنَّان، ومن حنَّان الى قيافا، ومن قيافا الى بيلاطس دون توقف - وخططوا لقتله.. مجدلية يا ابنتي، تشبثي بركبتيه، لا تدعيه قط يدخل أورشليم ثانية. يجب أن نعود جميعاً الى الجليل»

وتذكر وجهاً كئيباً، مجدوراً. فقال «وأنا في طريقي الى هنا يا مجدلية رأيت باراباس يحوم في المكان، وجهه متجهم كوجه شارون. وحين سمع وقع خطاي اختبأ بين الدغل، وهذه دلالة شؤم!»

تراخى جسمه الضعيف، فاحتوته ابنته بين ذراعيها وأدخلته. ثم أحضرت مقعداً بلا ظهر وأجلسته، وركعت الى جانبه.

سألته «أين هو الآن؟ أين تركته يا أبت؟»

«في الهيكل. كان يصرخ والشرر يتطاير من عينيه متوعداً بأنه سيضرم النار فيه! ويا للكلمات التي تفوه بها- رحماك يا رب على الكفر الذي قاله! لقد قال انه سوف يلغي ناموس موسى ويضع ناموساً جديداً. إنه لا يريد أن يذهب لمقابلة الرب فوق قمة جبل سيناء، وسيقابله داخل قلبه».

أخفض العجوز صوته وهو يقول مرتعداً «أحياناً يا ابنتي أخاف أن أفقد عقلي. أو ربما كان سيد الشياطين ـ»

قالت المجدلية بنبرة آمرة «صمتاً!»، ووضعت كلتا يديها على شفتي العجوز.

كانا مايزالان يتحدثان حين ظهر المريدون، واحداً إثر آخر، على عتبة الباب. انتفضت المجدلية واقفة وبحثت فلم تجد يسوع بينهم.

سألت بصوت يفتت الأكباد «والمعلم، أين المعلم؟»

أجابها بطرس متجهماً «لا تخافي، قادم في الحال»

انتفضت مريم بدورها من مكانها تاركة أخاها، واقتربت بقلق من المريدين الذين كانت وجوههم مكفهرة مضطربة، وعيونهم باهتة. واتكأت على الجدار.

تمتمت بوهن «المعلم؟»

أجابها يوحنا «انه قادم في الحال يا مريم، قادم. لو كان حدث له أي خطب، هل كنا تركناه؟»

توزَّع المريدون العابسون في أرجاء المنزل، متباعدين.

أخرج متّى أوراقه من تحت قميصه وتهيَّأ للكتابة.

قال الحبر العجوز «أفصح يا متى، قل شيئاً، ولك مباركتي»

أجاب متى «يا أبت، الآن وقبيل عودتنا معاً، باغتنا روفوس قائد المائة عند بوابة أورشليم وصرخ بنا «توقفوا! لدي أوامر أمليها عليكم!». فشلَّنا الخوف. لكن المعلم مدَّ يده بكل هدوء للروماني وقال له «أهلاً بك أيها الصديق. ماذا تريد مني؟»

«أجابه روفوس «لست أنا من يريد بل بيلاطس. تعال معي من فضلك»»

«قال يسوع بهدوء «ها أنا قادم»، وأخذ يسير باتجاه أورشليم.

لكننا جميعاً انقضضنا عليه صارخين «الى أين أنت ذاهب يا معلم، لن ندعك تذهب!»

«وقف قائد المائة حائلاً بيننا، فقال «لا تخشوا شيئاً. أعدكم بأنه سيكون بخير!»

فقال لنا المعلم آمراً «اذهبوا ، ولا تخافوا . ان الساعة لم تحن بعد »»

«لكن يهوذا قاطعه قائلاً «أنا سآتي معك يا معلم، لن أتركك»

«قال المعلم «تعال، وأنا أيضاً لن أتركك»، وانطلقوا يرومون أورشليم ، الاثنان في المقدمة ويهوذا يسير خلفهما ككلب حراسة القطيع»

بينما كان متّى يتكلم، اقترب المريدون ، دون أن يتكلم أي منهم، وركعوا على الأرض.

قال الحبر «وجوهكم مضطربة. أنتم تخفون أمراً عنا»

قال بطرس متلعثماً «لدينا أمور أخرى تقلقنا يا أبت ، أمور أخرى...» ثم عاد الى صمته من جديد.

والحق أنهم للتو ، وهم في طريقهم، تلبّستهم شياطين شريرة. لقد بدأ قيام الموتى. بات واضحاً أن يوم الرب قد اقترب، وسوف يتربع المعلم على عرشه. لذا فقد حان الوقت ليوزّعوا الغنائم. وعندئذ، عند توزيع الغنائم، بدأ المريدون بالتشاجر.

قال أحدهم «أنا سأجلس الى يمينه ، فأنا الأثير لديه»

فتدافعوا جميعاً وهتفوا «لا، بل أنا ! أنا!»

«أنا !»

«أنا!»

قال اندراوس «كنت أنا أول من ناداه بمعلم!»

اعترض بطرس قائلاً «كان يزورني في أحلامي أكثر من أي منكم»

قال يوحنا «انه يخاطبني بـ «أيها الحبيب»»
«وأنا أيضاً!»
«وأنا !»

بدأ دم بطرس يغلي، فصرخ «ابتعدوا - كلكم! ألم يقل لي قبل مدة «أنت الصخرة يا بطرس، وعليك سأبني أورشليم الجديدة»؟»

أعلن متّى «انه لم يقل «أورشليم الجديدة»! كلماته مدوَّنة هنا». وربت على الدفتر القابع تحت قميصه .

قال بطرس بغضب «ماذا قال لي اذن، أيها المخريش ؟ أنا أذكر ما سمعته!»

«لقد قال «أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي». قال «كنيستي» وليس «أورشليم» - ثمة فرق شاسع!»

صرخ بطرس «بماذا وعدني أيضاً؟ لماذا توقفت؟ لن يكون من صالحك أن تتابع، هه؟ وماذا عن المفاتيح؟ حسن، تكلم!»

تناول متّى دفتره، دون أن ينتابه الكثير من الغضب، وفتحه. ثم قرأ : «وسأعطيك مفاتيح مملكة السماء-»

هتف بطرس بانتصار «تابع ! تابع!»

ابتلع متّى لعابه وانكبَّ من جديد على دفتره «وكل ماتربطه في الأرض سيُربط لك في السماء؛ وكل ماتعقده على الأرض ستعقده في السماء...». هاك- هذا كل شيء!»

«وهل تراه أمراً يستهان به؟ إن المفاتيح - واسمعوا كلكم- هي بحوذتي ؛ إنني أنا من يفتح أبواب الجنة ويغلقها . ان شئتُ أدخلكم، وان لم أشأ لا أفعل!»

هنا ماج المريدون بالغضب وكانوا حتماً سيتبادلون الضربات لو لم يكونوا قد اقتربوا من بيت عنيا، وخجلوا من أنفسهم أمام أهل القرية، فكظموا غيظهم. الا أن وجوههم ظلت مكفهرة.

الفصل السادس والعشرون

في تلك الأثناء سار يسوع مع قائد المائة، متبوعاً بيهوذا، كلب الحراسة. توغلوا في أزقة أورشليم الملتوية الضيقة وتقدموا باتجاه الهيكل يبغون البرج الذي يؤلف قصر بيلاطس البنطي.

بادر قائد المئة بالكلام فقال بانفعال عاطفي «يا معلم، ان ابنتي في أحسن حال وتذكرك دائماً. وكلما علمت أنك تخطب في الناس تترك المنزل سراً وتهرع لتنصت الى كلامك. واليوم كنا معاً ننصت اليك وأنت في الهيكل، وقد قبضت بقوة على يدها لأنها أرادت أن تنكب على قدميك لتقبّلهما»

سأله يسوع «ولماذا لم تسمح لها؟ إن لحظة واحدة كافية لانقاذ روح انسان. لماذا ضيَّعتَ عليها تلك اللحظة؟»

فتاة رومانية تُقبّل قدميّ يهودي! هذا ماخطر بفكر روفوس مع إحساس بالعار، لكنه لم يتكلم .

أجبر بسوط قصير يحمله بيده الحشد الضاج على إفساح الطريق له. وكان الجو شديد الحرارة حتى ليكاد المرء يغمى عليه، وحامت سحب من الذباب. وشعر قائد المائة بالتقزز حين تنفس

الجو اليهودي. لقد مكث في فلسطين سنين عديدة، ومع ذلك لم يَعتَدْ على العيش بين اليهود... هم الآن يمرون من ساحة السوق العامة المغطاة بالقش . الجو هنا أكثر برودة، فأبطأوا خطاهم.

سأل قائد المائة «كيف يمكنك أن تخاطب هذا الحشد من الكلاب؟»

احتقن وجه يسوع وقال «انهم ليسوا كلاباً، بل أرواح تشع بقبس من الرب. نار تتلظى، يا قائد المائة، وكل روح هي قبس جدير بأن يحظى باحترامك»

أجابه روفوس «أنا روماني، وربي روماني، يشق الطرقات، ويبني الثكنات، ويجلب المياه الى المدن، ويرتدي الرداء البرونزي ويذهب الى الحرب. هو يقودنا ونحن نتبعه . أما الجسد والروح اللذان تتحدث عنهما فهما شيء واحد بالنسبة لنا، موسوم بختم روما. وحين نموت تموت الروح والجسد معاً ـ لكن أولادنا يبقون. وهذا مانعنيه بالخلود. أنا آسف، ولكن ماتقوله حول ممالك السماء يبدو لنا من قبيل الخرافة»

وبعد فترة صمت، تابع قائلاً «نحن الرومان خلقنا لنحكم الناس، والناس لا يُحكَمون بالمحبة»

قال يسوع وهو يحدق الى عينيّ قائد المائة الزرقاوين بنظرتهما الباردة، والى خديّه المحلوقين حديثاً والى يديه السمينتين القصيرتي الأصابع. «المحبة ليست عزلاء. المحبة أيضاً تشن الحرب وهي سريعة الانقضاض»

قال قائد المائة «اذن، فهي ليست محبة»

أطرق يسوع برأسه، وقال لنفسه، يجب أن أعثر على زقاق(١)

١ـ زِقاق، جمع زق : وعاء من جلد الحيوان لاحتواء الخمر.

جديدة اذا أردت أن أصب خمراً جديداً . زقاق جديدة، كلمات جديدة...

وأخيراً وصلوا. فقد ارتفع أمامهم شامخاً البرج، الذي هو حصن وقصر معاً، يحمي خلف جدرانه الحاكم الروماني المتغطرس، بيلاطس البنطي. كان يمقت العرق اليهودي ويسد أنفه بمنديل مضمَّخ بالعطر كلما سار في أزقة أورشليم أو اضطر للتحدث مع بعض العبرانيين. ولم يكن يؤمن بالآلهة أو بالناس ـ ولا ببيلاطس البنطي، ولا بأي شيء. وكنت ترى دائماً سلسلة دقيقة من الذهب تتدلى من رقبته معلق بها موسى حادة، يحتفظ بها ليقطع بها عروقه حين يسأم من كثرة الأكل والشرب وممارسة الحكم، أو حين ينفيه الامبراطور. كان كثيراً مايسمع اليهود يهتفون من أعماقهم منادين على المسيح كي يأتي ويحررهم ـ فيضحك منهم، ويشير الى الموسى الحادة ويقول لزوجته «انظري، هذا هو مسيحي، محرري». لكن زوجته كانت تشيح بوجهها عنه دون أن تُدلي بجواب.

توقف يسوع خارج بوابة البرج العظيمة، وقال «يا قائد المائة، أنت مدين لي بمعروف. أتذكر؟ وقد حان الوقت لكي أطلب منك رده لي»

«يا يسوع الناصري، انني أدين لك بكل مافي حياتي من فرح. تكلم، وسأعمل مابوسعي»

«إذا ألقوا القبض عليّ، اذا زجوا بي في السجن، اذا قتلوني ـ فلا تفعل أي شيء لانقاذي. أتعدني؟»

كانوا يعبرون بوابات البرج، فرفع الحرس أيديهم تحية لقائد المائة.

قال روفوس مذهولاً «هل ماتطلب مني يعتبر معروفاً؟ انني لا أفهمكم يا معشر اليهود»

كان هناك اثنان من الحرس الزنوج يحرسان باب بيلاطس.
قال يسوع «نعم، هو معروف، يا قائد المائة. أتعدني؟»
أومأ روفوس للزنجيين كي يفتحا الباب.
كان بيلاطس متربعاً على عرش مرتفع مزيَّن بنقش لنسرين ضخمين. رفع رأسه، النضر، الحليق الذقن، المنخفض الجبين، القاسي العينين الرماديتين، وذا الشفتين الرقيقتين كحد السيف، لينظر الى يسوع الماثل أمامه.
قال كمن يهمس، يبغي مضايقته، وهو يضع المنديل المضمَّخ بالعطر على أنفه «أأنت يسوع الناصري، ملك اليهود؟»
أجابه يسوع «لست بملك»
«ماذا؟ ألست المسيح، أليس المسيح هو من ينتظره مواطنوك أتباع ابراهيم منذ أجيال طويلة جداً - ينتظرونه ليحررهم، ليتربع على عرش اسرائيل ويطردنا نحن الرومان؟ فلم اذن تقول انك لست ملكاً؟»
«مملكتي ليست على الأرض»
سأله بيلاطس، وهو ينفجر ضاحكاً «أين اذن: أفي الماء، أم في الهواء؟»
أجاب يسوع بهدوء «في السماء»
قال بيلاطس «رائع. اعتبر السماء هدية مني لك، ولكن لا تلمس الأرض!»
خلع الخاتم الضخم الذي يضعه في ابهامه، ورفعه عالياً في وجه النور وراح يتأمل لون الحجر الكريم الأحمر. كان محفوراً عليه جمجمة مكتوب حولها «كُل واشرب، وامرح، لأنك ستموت غداً».
قال «أنا أجد اليهود مثيرين للتقزز. فهم لا يغتسلون قط، ويتصورون الرب على صورتهم : طويل الشعر، قذراً، جشعاً، متبجحاً وحقوداً كجمل»

قال يسوع، أيضاً بهدوء «إعلم أن الرب قد سدَّد لتوه قبضته الى روما»

أجابه بيلاطس وهو يتثاءب «روما خالدة»

«روما صنم هائل الحجم، تمَثَّل للنبي دانيال في رؤاه»

«صنم؟ أي صنم؟ إن ما تتوقون اليه يا معشر اليهود وأنتم صاحون ترونه في منامكم. تعيشون وتموتون في الرؤى»

«هكذا يبدأ الانسان حملته ـ بالرؤى. وشيئاً فشيئاً يتكثَّف الطيف ويَصلُب، وتكتسي الروح لحماً ثم تهبط الى الأرض. لقد رأى النبي دانيال رؤاه، ولهذا بُتَّ الأمر ـ ستتلبَّس الروح لحماً، ستهبط الى الأرض، لتدمِّر روما»

«يا يسوع الناصري، أنا معجب بجرأتك أم هل أقول بلاهتك؟ يبدو أنك لا تخشى الموت، ولهذا أراك تتكلم بكل حرية ... انني معجب بك. حسن، احكِ لي عن رؤيا دانيال»

«تراءى للنبي دانيال ذات ليلة صنم هائل الحجم. رأسه من ذهب، وثدياه وذراعاه من فضة، وبطنه وفخذاه من البرونز، وقصبتا ساقيه من الحديد، أما قدماه، من أخمصيهما، فمن الفخار. وفجأة اذ بيد خفية تقذف بحجر على القدمين الترابيين وتفتتهما، وعلى الفور تقوَّض الصنم كله ـ الذهب، والفضة، والبرونز، والحديد ـ وانهار على الأرض ... ان اليد الخفية، يا بيلاطس البنطي، هي رب اسرائيل، وأنا الحجر، أما الصنم فهو روما»

تثاءب بيلاطس مرة أخرى، وقال بضجر «أنا أفهم لعبتك، يا يسوع الناصري، يا ملك اليهود. انك تهين روما لتثير غضبي فأصلبك وترقى أنت الى مصاف الأبطال. لقد أعددتَ كل شيء ببراعة شديدة. بل لقد سمعتُ أنك بدأت ببعث الموتى : نعم، أنت تمهِّد السبيل، وبالطريقة نفسها سيعكف مريدوك فيما بعد على

اشاعة أنك لم تمت وأنك بعثت من الموت وعرجت الى السماء. ولكن يا عزيزي الوغد، لقد فاتك القارب. ألاعيبك أصبحت عتيقة، لذا يجمل بك أن تبحث عن غيرها جديدة. لن أقتلك، ولن أجعل منك بطلاً . أنت لن تصبح رباً۔ فاطرح هذه الفكرة من رأسك»

لم يفه يسوع بكلمة، وراح يتأمل، عبر النافذة، هيكل يهوه الضخم يومض تحت أشعة الشمس كوحش آكل البشر ساكن، تعجّ من حوله أسراب متعددة الألوان من البشر وتلج داخل فاه المظلم الفاغر . وواصل بيلاطس عبثه بسلسلته الذهبية الدقيقة ولم يتكلم بدوره. كان يخجل أن يطلب معروفاً من يهودي، لكنه كان قد وعد زوجته بأنه سيفعل، ولم يعد أمامه مجال للاختيار.

سأله يسوع «أهذا كل شيء؟»، واستدار ليتوجه الى الباب.

فنهض بيلاطس، وقال «لا تغادر. لدي ما أقوله لك وهو سبب استدعائي لك. تقول زوجتي إنها تحلم بك في كل ليلة. وبسببك باتت لا تجرؤ على اغماض عينيها، وتقول إنك تشتكي لها من أن مواطنيك حنَّان وقيافا يسعيان لقتلك وأنك تتوسل اليها في كل ليلة كي تكلمني وتقنعني بأن لا أدعهما يقتلانك. وفي الليلة الفائتة أطلقت زوجتي صرخة وأفاقت مجفلة وأخذت تبكي. يبدو أنها تشفق عليك (لا أدري لماذا: أنا لا أتدخل في سخافات النساء). وهكذا، خرَّت على قدمي متوسلة لأستدعيك وأقول لك أن ترحل وتنقذ نفسك. ان جو أورشليم لا يواتي صحتك يا يسوع الناصري: عُد الى الجليل! لا أريد أن أستخدم القوة معك انني أكلمك كصديق. عُد الى الجليل!»

أجابه يسوع بالتصميم نفسه، ودائماً بصوت هادئ «الحياة حرب! وأنت تعلم ذلك لأنك جندي روماني. أما ما لا تعلمه فهو مايلي : الرب هو الآمر ونحن جنوده. فمنذ لحظة ولادة الانسان،

يريه الرب الأرض وفوق الأرض مدينة، أو قرية، أو جبل، أو بحر أو صحراء، ويقول له «هنا ستشن حرباً!». فيا حاكم اليهودية، لقد قبض الرب عليّ من شعري ذات ليلة ثم رفعني عالياً، وأحضرني الى أورشليم، وحطّني أمام الهيكل وقال «هنا ستشن الحرب!»، وأنا لست من الصحراء، يا حاكم اليهودية- وسأشن حربي هنا!»

هزّ بيلاطس كتفيه، وقد ندم لتوه لأنه طلب منه معروفاً وكشف عن سر من أسرار بيته ليهودي. وكعادته قام بحركة غسل يديه.

قال «افعل ماتشاء، أما أنا فسأغسل يدي من الموضوع كله. اذهب»

رفع يسوع ذراعه واستأذن بالرحيل، ولكن بينما هو يجتاز العتبة، ناداه بيلاطس بطريقة استفزازية قائلاً، هيه، يا مسيح، ماهو هذا الخبر المريع الذي سمعتُ أنك بشّرتَ به العالم؟»

أجابه يسوع، بهدوئه المعهود «بالنار، بالنار التي ستطهّر الأرض»

«من الرومان؟»

«لا، بل من الكفار. من الظالمين، والفاسقين، والمتخمين»

«ثم ماذا؟»

«من ثم ستبنى أورشليم الجديدة على الأرض المحروقة، المطهّرة»

«ومن الذي سيقوم ببناء أورشليم الجديدة؟»

«أنا»

انفجر بيلاطس في نوبة من الضحك «مرحى، مرحى، لقد كنتُ على حق حين قلت لزوجتي انك مجنون. يجب أن تزورني بين حين وآخر- سوف يعينني ذلك على تزجية الوقت. حسن اذن: اذهب! لقد سئمتك»

صفق بيديه، فدخل الزنجيان العملاقان ورافقا يسوع حتى الباب.

كان يهوذا منتظراً بقلق خارج البرج. لقد كانت تتآكل المعلم مؤخراً هموم خفية. وفي كل يوم تزداد تعابير وجهه عبوساً وعنفاً؛ وكلماته حزناً وتهديداً أكثر فأكثر. كان غالباً مايذهب ليمكث وحده لساعات طويلة فوق الجلجلة، وهي تلة تقع خارج أورشليم يَصلُب عليها الرومان العصاة؛ وبالقدر الذي يرى فيه الكهنة وكبار الكهنة من حوله مهتاجين ويهددون بقتله، بالقدر نفسهـ وربما أكثرـ كان يهاجمهم ويصفهم بكانزي المال الحقودين، وبالكذابين، والمنافقين الذين يرتعدون اشمئزازاً من فكرة ابتلاع بعوضة ومن ثم يمضون في ابتلاع جمل! كان في كل يوم يقف من الفجر وحتى الغسق خارج الهيكل ويتلفظ بكلمات عنيفة وكأنه يسعى عن عمد الى حتفه، وذات يوم حين سأله يهوذا متى سيطرح عنه أخيراً ثوب الحمل حتى يظهر من تحته الأسد الأسامة، اكتفى بهز رأسه، ولم ير يهوذا في حياته ابتسامة على شفتي انسان تفوق ابتسامته في مرارتها، ومنذ ذلك الحين بات يهوذا لايفارقه. حتى حين رآه يصعد الجلجلة، سار خلفه خلسة مخافة أن يعتدي عليه عدو كافر.

راح يهوذا يمشي جيئة وذهاباً خارج البرج الملعون ويرمي الحرس الروماني الساكن الحركة بدروعه النحاسية ووجوهه الخشنة الجلفة بنظرات صارمة، وينظر الى راية الكفر المرفرفة، بنسورها، خلفاً وأماماً فوق قمة السارية العالية. وتساءل، ماذا يريد بيلاطس منه، ولماذا أرسل في طلبه؟ ماكان يعرفه يهوذا ـ فقد كان زيلوت أورشليم يزودونه بالأخبارـ ان حنّان وقيافا يترددان باستمرار على هذا البرج وأنهما اتهما يسوع بنيَّته باشعال نار الفتنة ليطرد الرومان وينصِّب نفسه ملكاً. لكن بيلاطس لم يوافقهما وكان يقول

«انه مجنون جنوناً مطبقاً، وهو لا يتدخل في شؤون روما. وقد أرسلت ذات مرة وعن عمد بعض الرجال ليسألوه «هل يريد منا رب اسرائيل أن ندفع الضرائب للرومان - ما رأيك؟» فأجاب هو، وكان محقاً تماماً، وبارعاً في جوابه. قال «اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للرب للرب!» ان جنونه ليس جنون قديس». هذا ماكان يقوله بيلاطس ضاحكاً. وكان دائماً يقول لهما «إنه مصاب بهوس القداسة. اذا تطاول على ديانتكم، عاقبوه - أنا غسلت يدي من المسألة كلها. لكن روما ليست مهتمة بأمره»، ومن ثم يصرفهما عنه. أما الآن... أيعقل أنه غيَّر رأيه؟

توقف يهوذا واستندالى الجدار المقابل للبرج، وهو يشد بعصبية على قبضتيه ثم يرخيهما .

وفجأة انتفض مجفلاً، فقد أطلق نفير، وأفسح الحشد الطريق، فاقترب أربعة من اللاويين ووضعوا برفق محفة مطعَّمة بالذهب أمام بوابة البرج. ثم بوعد مابين شقّي الستارة الحريرية وترجل منها قيافا ذو البشرة الرقيقة ببطء، مرتدياً ثوباً كله من الحرير الأصفر اللون. كان من البدانة بحيث أن تراكماً دهنياً تشكل حول عينيه كما الشرانق. فتحت البوابة الضخمة المزدوجة في الوقت الذي كان يسوع فيه خارجاً، وتقابل الرجلان وجهاً لوجه عند العتبة. توقف يسوع. كان حافياً، ورداؤه الأبيض ملآناً بالبقع. وقف لا يبدي أي حركة ويحدّق عميقاً الى عيني الكاهن الأعلى. فرفع الآخر جفنيه الثقيلين، وتعرّف عليه، وشمله بنظرة سريعة من رأسه الى أخمصه، وتباعدت شفتاه العنزيّتان ليقول «ماذا تفعل هنا أيها المتمرد؟»

لكن يسوع، ولايزال لا يبدي أية حركة، ردعه بنظرة قاسية من عينيه الكبيرتين المحزونتين، وأجابه «لست خائفاً منك، يا كبير كهنة الشيطان»

زعق قيافا في حاملي محفّته الأربعة «ارموا به خارجاً!»، ثم تقدم الى الفناء، أشبه بقزم بدين، مقوس الساقين، ومؤخرته الضخمة تكاد تلامس الأرض.

أحاط اللاويون الأربعة بيسوع، لكن يهوذا اندفع الى الأمام، وجأر «أبعدوا أيديكم!» ودفعهم بعيداً، ثم أمسك بالمعلم من يده، وقال «هيا، هيا بنا»

شق يهوذا الطريق خلال الجمال، والناس، والمواشي مُفسحاً المجال لتقدم يسوع. اجتازا بوابة المدينة المحصَّنة، ثم انحدرا الى وادي قدرون، وارتقيا المنحدر المقابل وسلكا الدرب المؤدي الى بيت عنيا.

سأل يهوذا، وهو يشد على ذراع المعلم مكروباً «ماذا يريد منك؟»

أجاب يسوع بعد صمت عميق «سأفضي اليك يا يهوذا بسر رهيب»

قرّب يهوذا رأسه ذا الشعر الأحمر وانتظر فاغراً فاه.

«أنت أقوى الصحب جميعاً. وأعتقد انه لن يعرف به غيرك، فأنا لم أقل أي شيء للآخرين، ولن أفعل. فلا طاقة لديهم للاحتمال»

احمرّ وجه يهوذا سروراً. قال «شكراً لك يا معلم على ثقتك بي. تكلم، وسترى : لن أخذلك»

«أتعلم يا يهوذا لماذا غادرتُ موطني الحبيب في الجليل لآتي الى أورشليم؟»

أجابه يهوذا «نعم، لأن هنا سيحدث مايجب أن يحدث»

«هذا صحيح، لهب الرب سينطلق من هنا. لم يعد النوم يراودني. انني أستيقظ مجفلاً في منتصف الليل فأحدِّق الى

السماء. ألم تتشق بعد؟ الا يتدفق اللهب؟ وينبلج الفجر فأهرع الى الهيكل، أتكلم، أتوعد، أشير الى السماء ، أصدر أوامري، أتضرع، أحث النار على الهبوط. لكن صوتي دائماً يضيع. وتبقى أبواب السماء من فوقي موصدة، خرساء يلفها السكون. وفجأة ذات يوم...»

وسكت صوته. مال يهوذا فوقه ليسمعه لكنه لم يلتقط غير صوت تنفس مكظوم وصرير أسنان يسوع.

قال يهوذا متلهفاً «تابع ! تابع!»

التقط يسوع أنفاسه وتابع قائلاً ذات يوم بينما كنت مستلقياً وحيداً فوق قمة الجلجلة تخيَّلت بعين عقلي النبي أشعيا ـ لا،لا، ليس بعين عقلي : بل رأيته ماثلاً أمامي بجسده على صخور الجلجلة، وكان يحمل جلد ماعز مُخاطاً ومنتفخاً، كان أشبه بالتيس الأسود الذي قابلته في الصحراء. وقد خُطَّت على الجلد أحرف. فأمرني، مادّاً جلد الماعز نحوي «إقرأ!» ولكن بعد أن سمعت الصوت، اختفى النبي وجلد الماعز ولم تبق غير الأحرف معلقة في الفضاء، أحرف كبيرة سوداء، وحمراء»

رفع يسوع ناظريه نحو النور، وقد شحب لونه. ثم شد على ذراع يهوذا متشبثاً به، وهمس، وقد ملأه الرعب «هاهي! إنها تملأ الفضاء!»

قال يهوذا، الذي أخذ يرتجف «إقرأها!»

بدأ يسوع وهو يلهث بتهجئة الأحرف بصوت مبحوح. كانت الأحرف أشبه بالوحوش الحية: فكان يصطادها وهي تقاومه. وكان طوال ماهو يقرأ يمسح عنه العرق : «لقد حمل عنا وزر أخطائنا؛ وجرح تكفيراً عن آثامنا؛ وعذاباتنا آذته. كان مكروباً، لكنه لم يَفِه بكلمة. وتابع تقدمه، مطروداً منبوذاً من الجميع، دون أن يبدي مقاومة، كحمل مُقاد الى الذبح»»

لم يزد يسوع كلمة واحدة. وعلاه شحوب الموت.

قال يهوذا، جامداً في مكانه يضرب الحصى باصبع قدمه الكبرى «أنا لا أفهم. من هو الحمل المقاد الى الذبح؟ من الذي سيموت؟»

أجاب يسوع ببطء «يهوذا، يهوذا يا أخي، أنا هو الذي سيموت»

قال يهوذا متراجعاً «أنت؟ اذن فلست المسيح؟»

«أنا هو»

كرر يهوذا القول «أنا لا أفهم»، وهو يؤذي اصبع قدمه بضرب الحصى.

«لا تغضب يا يهوذا. هذا هو السبيل المرسوم. فلكي يتم خلاص العالم، يجب أن أموت أنا بملء ارادتي. أنا نفسي لم أفهم في أول الأمر. كان الرب يرسل لي الاشارات عبثاً: تارة على شكل رؤى في الفضاء، وطوراً على صورة أحلام ليلية، أو على شكل جثة الماعز في الصحراء تحيط بعنقها آثام الناس كلهم. ومنذ أن غادرت منزل أمي، وثمة شبح يتبعني ككلب. وأحياناً يسبقني ليقودني على الدرب. وأي درب؟ انه درب الصليب!»

ألقى يسوع نظرة متمهلة فيما حوله. خلفه أورشليم، جبل من الجماجم البيضاء الناصعة، وأمامه صخور وأشجار زيتون مكتسية ببضعة أوراق فضية اللون، وأشجار أرز سوداء. وبدأت الشمس المضرجة بالدم تغرب.

كان يهوذا ينتف شعر لحيته ويرميه. لقد توقع مجيء مسيح مختلف، مسيح يمتشق سيفاً، مسيح تبعث صرخة منه كل أجيال الموتى من قبورها القابعة في وادي يوشافاط وتندمج بالأحياء. وتنتعش خيول اليهود وجمالهم كلها في وقت واحد، ويندفع الجميع قُدُماً ـ مشاة وفرسان ـ لذبح الرومان. ويتربع المسيح على عرش

داوود ويريح قدميه على الكون، وكأنه وسادة. هذا هو، هذا هو المسيح الذي توقع يهوذا الاسخريوطي مجيئه. أما الآن...

رمى يسوع بنظرة ضارية وعض على شفتيه ليمنع افلات كلمة قاسية من بينهما. ومن جديد بدأ يضرب الحصى، هذه المرة بعقب قدمه. ولاحظ يسوع حركاته فأشفق عليه .

قال، مرققاً نبرة صوته «تشجع يا يهوذا يا أخي. هكذا فعلت أنا، ولا سبيل آخر: هذه هي الطريق»

سأل يهوذا، محدقاً الى الصخور «وبعد ذلك؟»

«سأعود وأنا في ذروة مجدي لأصدر حكمي على الأحياء والأموات»

«متى؟»

«سيموت الكثير من أبناء الجيل الحالي قبل أن يروني»

قال يهوذا «هيا بنا!»، وحثّ خطاه . واجتهد يسوع ليلحق به وهو يلهث. ستغيب الشمس أخيراً خلف جبال اليهودية. ومن البعيد، من البحر الميت، سمع عواء أول من استيقظ من أبناء آوى.

أسرع يهوذا متقدماً وهو يزمجر . لقد كان في داخله زلزال: كل شيء فيه ينهار. لم يكن يؤمن بالموت ـ انه بالنسبة له أسوأ السبل قاطبة، وأليعازر القائم من بين الموتى، الذي بدا له أشد موتاً وقذارة ن كل الموتى؛ كان يثير تقززه، والمسيح نفسهـ كيف يمكنه الفوز في هذا الصراع مع شارون؟ ...لا، لا، إن يهوذا لا يؤمن بالموت كسبيل.

التفت اليه. أراد أن يبدي اعتراضه، أن يرمي في وجهه الكلمات الصارمة التي تحرق لسانه. لعلها تقنعه بتغيير دربه والامتناع عن السير في طريق الموت. إلا أنه حين التفت أطلق صرخة رعب. لقد رأى ان الظل الذي يرميه جسد يسوع كان هائل

الحجم. إنه ليس ظلاً لرجل بل لصليب ضخم. تشبث بيد يسوع وقال وهو يشير «انظر!»

أصابت يسوع الرعشة «إهدأ، يا يهوذا يا أخي. لا تتكلم»

وهكذا أخذا، صامتين، متشابكي الذراعين، يرتقيان المنحدر غير الحاد باتجاه بيت عنيا. تراخت ركبتا يسوع فدعمه يهوذا. ولم يتكلما. ومرة أخرى انحنى يسوع والتقط حجراً دافئاً وظل يحمله فترة طويلة قابضاً عليه بشدة بين راحتي يديه. أكان هذا حجراً، أم يد شخص محبوب؟ وأخذ يتلفت فيما حوله. كل هذه التربة التي ظلت مواتاً خلال الشتاء: كم أصبحت تنبت العشب الآن، كم أزهرت الآن!

قال «يهوذا يا أخي، لا تحزن. انظر كيف تخرج الحنطة من الأرض، وكيف يرسل الرب المطر وكيف تحبل الأرض وترتفع سنابل القمح فوق التربة المزبدة لتطعم بني البشر. فلو لم تمت حبة القمح، فهل كانت السنابل نبتت من جديد؟ الأمر نفسه يحدث لابن الانسان»

لم يتعزَّ يهوذا. وواصل صعوده دون أن يتكلم. غربت الشمس خلف الجبال، وتصاعد الليل من التربة، وخفقت أوائل المصابيح المشتعلة فوق قمة التل.

قال يسوع «تذكر أليعازر ...». لكن يهوذا شعر بالتقزز، وخفَّ في سيره وهو يبصق.

* * *

أشعلت مارتا المصباح، فغطى اليعازر عينيه بيده ـ لأنه كان مايزال يتأذى من الضوء. أمسك بطرس متّى من ذراعه وجلس

الاثنان تحت المصباح. وكانت العجوز سالومه قد عثرت على صرة تحتوي على صوف أسود اللون فجلست تغزله وتفكر في ولديها. يا رب، ألن يأتي اليوم أبداًالذي ستراهما فيه في أبهى حللهما، يعصبان شعرهما بشريط ذهبي، اليوم الذي تصبح فيه بحيرة جنيسارت كلها ملكهما؟...

وكانت المجدلية قد نزلت الى الطريق . لقد تأخر المعلم، وهي تعاني أقصى المعاناة، وأصبحت لا تطيق المكوث في المنزل، فنزلت الى الشارع آملة أن تقابل محبوبها. وجلس التلاميذ القرفصاء في الفناء، ينظرون من أطراف عيونهم الى الباب الخارجي دون أن يتكلموا، ومايزال الغضب يغلي داخلهم. والسكينة تلف أرجاء المنزل، لا يُسمَع فيه تردد نفس واحد. وحانت اللحظة المناسبة لبطرس، فمنذ أيام طويلة وهو يتوق لمعرفة مايكتبه جابي الضرائب في دفتره في كل مساء. وهذه الليلة، بعد شجاره مع الآخرين، لم يعد يحتمل الانتظار: يجب أن يعرف ماقاله متّى عنه. هؤلاء المخربشون عصبة شائنة وعليه أن يحرص على أن لا يتعرض للسخرية أمام الأجيال القادمة. فاذا تجرأ متّى وفعل ما يشبه هذا فسوف يرمي بالدفتر ـ القلم وملحقاته ـ الى النار. نعم، في هذا المساء بالذات... فأمسك بذراع جابي الضرائب متملقاً، وركع الاثنان تحت المصباح.

ثم طلب منه قائلاً «إقرأ لي يا متّى. واذا كان لابد أن تعرف السبب فأنا أريد أن أعرف ماذا تكتب عن المعلم»

سُرَّ متّى لسماع هذا، ثم أخرج الدفتر ببطء من موضعه بالقرب من صدره. وكان قد لفّه بمنديل نسائي مطرز قدمته له أخت اليعازر مريم. والآن حلّه بعناية وكأنه كائن حي مصاب بجرح. وفتحه. وأخذ جسمه يميل الى الأمام ثم يعود الى الخلف، واستجمع زخمه وباشر مابين القراءة والترنيم يرتّل :

«كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داوود ابن ابراهيم، ابراهيم ولد اسحق، واسحق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا واخوته. ويهوذا ولد فارص وزارح....»»

أغمض بطرس عينيه وراح يستمع. مرت أجيال العبرانيين من أمامه: من ابراهيم حتى داوود، أربعة عشر جيلاً، ومن داود حتى سبي بابل، أربعة عشر جيلاً، ومن سبي بابل وحتى المسيح، أربعة عشر جيلاً... يا له من حشد غفير، جرار، خالد! وأي فرح عظيم وأي فخر أن يكون فرداً من اليهود! أراح بطرس رأسه على الجدار وأخذ يصغي. وتابعت الأجيال مسيرتها، حتى وصلت الى زمن يسوع، وأنصت بطرس. كم من معجزة حدثت، ولم يكن يعرف عنها أي شيء! إذن... فقد وُلد يسوع في بيت لحم، وأبوه ليس يوسف النجار بل الروح القدس، وجاء ثلاثة من المجوس ليسجدوا له، وعند التعميد، ماذا كانت تلك الكلمات التي ألقت بها الحمامة من السماء؟ إن بطرس نفسه لم يسمع بها. من الذي أخبرها لمتّى، الذي لم يكن موجوداً عندئذ؟ وشيئاً فشيئاً لم يعد بطرس يسمع الكلمات، بات يسمع فقط تنغيماً مهدهداً، رتيباً وحزيناً ـ ومن ثم، وبهدوء، استغرق في النوم. وهناك، في النوم، سمع التنغيم والكلمات معاً بجلاء تام. بدت له كل كلمة في منامه أشبه برمانة ـ كتلك الرمانات التي أكلها قبل عام في أريحا. انفلقت وانفتحت لتنثر في الهواء تارة لهباً، وطوراً ملائكة، وأجنحة وأبواق...

وفجأة، وسط نومه العميق اللذيذ، سمع جلبة صراخ فرح. استيقظ مجفلاً، فرأى أمامه متّى، مايزال يقرأ، والدفتر على ركبتيه. وتذكر، فخجل لأنه أغفى، ثم ارتمى بين ذراعيّ جابي الضرائب وقبّل فمه.

قال «سامحني يا أخي متّى، ولكن بينما كنت أصغي اليك ولجتُ الجنة».

ظهر يسوع عند الباب، تتبعه المجدلية. كانت متوردة فرحاً، واللهب يتطاير من بين شفتيها، وعينيها، ومن جيدها العاري. وحين شاهد يسوع بطرس يعانق جابي الضرائب ويقبِّله، انبسطت أساريره وأشار الى المتعانقين قائلاً «هذه هي مملكة السماء»

اقترب من أليعازر، فهمّ بالنهوض. لكن حوضه صرّ وخشي أن ينكسر، فعاد الى مجلسه. ثم مدّ ذراعه ولمس يد يسوع بأطراف أصابعه فأصابت الرعشة يسوع. لقد كانت يد أليعازر باردة جداً، سوداء اللون، وتفوح منها رائحة التربة.

خرج يسوع مرة أخرى الى فناء ليستنشق الهواء. إن هذا الرجل المنبعث مازال يتأرجح بين الحياة والموت. لم يتمكن الرب بعد من التغلب على العفونة الكامنة داخله. ولم يسبق للموت أن أبدى قوته الحقيقية كما يفعل في هذا الرجل. واستولى الخوف والحزن الشديد على يسوع.

اقتربت العجوز سالومه من يسوع، وفَلْكة مغزلها تحت إبطها، ومشت على أطراف أصابع قدميها لتهمس في أذنه، وباشرت قائلة «يا معلم»

فمال نحوها ليسمعها «تكلمي يا سالومه.»

«يا معلم، حين ستعرج الى السماء، أريد منك معروفاً. وها أنت ترى كم فعلنا من أجلك»

انقبض قلب يسوع فجأة «أفصحي يا سالومه...»، وتساءل، متى يدرك الناس أن الأعمال الخيِّرة لا تنحدر قط الى مستوى قبول تعويض.

«والآن وقد بات من المؤكد أنك ستتربع على عرشك يا ولدي، فضع ولديّ يوحنا ويعقوب عن يمينك وعن يسارك»

عض على شفتيه حتى لا ينطق، ثم أطرق.

«أسمعتني يا ولدي؟ يوحنا...»

وبخطوة واسعة ولج يسوع الى المنزل. رأى متّى ملازماً للمصباح ولايزال يحمل دفتره المفتوح على ركبتيه. توقف. كان متّى مغمض العينين: مايزال مستغرقاً فيما كان قد قرأه.

قال يسوع «يا متّى، أحضر دفترك الى هنا. ماذا تكتب؟»

نهض متّى واقفاً وسلَّم يسوع كتاباته، وكاد يطير من الفرح.

قال «يا معلم، انني أحكي هنا قصة حياتك وانجازاتك، لكي يطَّلع عليها أناس المستقبل».

ركع يسوع تحت المصباح وأخذ يقرأ. وبعد أن قرأ الكلمات الأولى، انتفض مجفلاً. وراح يقلب الصفحات بعنف ويقرأ بسرعة كبيرة، واحمرَّ وجهه غضباً. ولما رآه متّى هكذا ربض في احدى الزوايا وقد ملأه الخوف، وانتظر. واصل يسوع تصفّح الدفتر، ولما نفدت طاقته على التهكم في نفسه نهض واقفاً ورمى انجيل متّى بسخط على الأرض.

صرخ «ماهذا ؟ إنها أكاذيب! أكاذيب! أكاذيب! إن المسيح ليس بحاجة للقيام بمعجزات. انه هو المعجزة ولا حاجة لمعجزات أخرى! أنا ولدت في الناصرة، وليس في بيت لحم، بل ان قدمي لم تطأ أرض بيت لحم؛ ولا أذكر أياً من المجوس. ولم أذهب مرة في حياتي الى مصر؛ وما تكتبه عن أن ثمة حمامة قالت «هذا هو ابني الحبيب» عند تعميديـ من الذي قاله لك؟ أنا نفسي لم أسمع ما قالته بوضوح. فكيف، لك أنت أن تعرف، وأنت حتى لم تكن هناك؟»

أجابه متّى وهو يرتجف «الملاك كشف الأمر لي»

«ملاك ؟ أي ملاك؟»

«الذي يأتيني في كل مساء حين أمسك بالقلم. إنه يميل على أذني ويملي عليَّ ما أكتبه»

قال يسوع مضطرباً «ملاك؟ ملاك يملي عليك ما تكتبه؟»

استجمع متّى شجاعته وقال «نعم، ملاك. بل انني أحياناً أراه. ودائماً أسمعه : تلمس شفتاه أذني اليمنى، وأحس بجناحيه يرفرفان حولي، فأتدثّر بجناحي الملاك كطفل وأباشر الكتابة؛ لا، انني لا أكتب بل أنسخ ما يأمرني به. فما رأيك؟ أيعقل أن أكون قد دوَّنت كل هذه المعجزات من تلقاء ذاتي؟»

عاد يسوع يتمتم «ملاك؟»، ثم غرق في التأمل. بيت لحم، المجوس، مصر، و «أنت هو ابني الحبيب» : ماذا لو أن كل هذا هو الحقيقة المطلقة... ماذا لو أن هذا هو أعلى مراتب الحقيقة، التي لا يبلغها الا رب العالمين... ماذا لو أن ما نسمّيه نحن الحقيقة، يسميه الرب أكاذيب...

لم يفه بكلمة. وانحنى وأخذ يجمع بعناية الأوراق التي نثرها على الأرض وأعطاها لمتّى، الذي أعاد ربطها بالمنديل المطرّز وأخفاها تحت قميصه، وألصقها بجلده.

قال يسوع «اكتب كل مايمليه عليك الملاك، لم يعد يحق لي أن...»، لكنه ترك جملته ناقصة.

في تلك الأثناء شكَّل التلاميذ في الفناء دائرة حول يهوذا وطلبوا منه أن يخبرهم عما كان بيلاطس يريده من المعلم. لكن يهوذا تملَّص من بينهم، حتى دون أن يوليهم التفاتة، ووقف عند ممر الباب الخارجي. كان يبغض مرآهم وأصواتهم؛ لم يعد بامكانه أن يتكلم من الآن فصاعداً الا مع المعلم. إن سراًرهيباً يقرّبهما من بعضهما ويبعدهما عن البقية... راقب يهوذا الليل وهو يلتهم العالم، وأوائل النجوم من فوقه، تشبه مصابيح أيقونة صغيرة بدأت تتوهج لتوها.

غمغم من داخله «يا رب اسرائيل ساعدني، والا فقدت صوابي»

اضطربت المجدلية، فاقتربت ووقفت الى جواره . وهمَّ بالمغادرة، لكنها تشبثت بطرف رداءه. قالت :

«يمكنك أن تفضي بالسر اليَّ يا يهوذا دون أن تخشى شيئاً. أنت تعرفني»

«أي سر؟ لقد استدعاه بيلاطس ليقول له ان يأخذ حذره. ثم ان قيافا-»

«ليس هذا، الآخر»

«أي آخر؟ ها أنت تلتهبين من جديد يا مجدلية. إن عينيك متوهجتان كجمرتين» وضحك بفتور «إبكي، إبكي. إن دموعك ستطفئهما»

لكن المجدلية عضَّت على منديلها ومزَّقته بأسنانها. وتمتمت «لماذا اختارك أنت، أنت، يا يهوذا الاسخريوطي؟»

هنا انتاب الغضب ذا اللحية الحمراء، فضغط بقوة بيده على ذراع المجدلية. قال «ومن كنت تتمنِّين، يا مريم المجدلية، منه أن يختار- بطرس طاحونة الهواء، أم ذاك الأبله يوحنا... أم لعلك كنت تودِّين لو أنه اختارك أنت أنت، المرأة؟ أنا قطعة من حجر الصوان قُدَّت من الصحراء : أقاوم البلى. لهذا اختارني !»

تغرغرت عينا المجدلية بالدمع، وغمغمت «أنت على حق، أنا امرأة؛ مخلوق عاجز جريح...»، ثم ولجت الى الداخل وربضت متكورة بجوار النار.

أعدَّت مرتا المائدة لتناول طعام العشاء. وجاء التلاميذ من الفناء، وجلسوا ركوعاً. وكان اليعازر قد شرب مرق الدجاج الذي يتحول الى دم يجري في عروقه، وكفَّ عن التحديق الى الأرض. وشيئاً فشيئاً، مع وجود الهواء والنور والغذاء، أخذ جسده المشقَّق يجلفط ويقوى.

فُتح الباب الداخلي وظهر منه الحبر العجوز، شاحب اللون، كثيف الشعر، أشبه بشبح، متكئاً بكل ثقله على عصاه لأن ركبتيه أصبحتا ترفضان دعمه. وحين رأى يسوع أومأ اليه بحركة تفيد بأنه يرغب بالتحدث اليه. فنهض يسوع واقفاً، وأمسك بالعجوز، وأجلسه، ثم جلس هو بدوره الى جوار اليعازر.

قال «أنا أيضاً أود التحدث اليك يا أبت»

قال الحبر العجوز، وهو يرنو بنظرة ملؤها الرقة المتجهمة «لدي اليوم ما أشتكيه منك يا ولدي، ها أنا أقولها صريحة أمام الجميع. فلنسمعها جميعاً - رجالاً ونساءاً؛ واليعازر، الذي لابد اطَّلع على الكثير من الأسرار وهو في القبر. فليسمع الجميع وليحكموا»

أجاب يسوع «وماذا يعرف البشر؟ ثمة ملاك يرفرف داخل هذا المنزل وينصت الى مايقال - اسأل متى. فليحكم هو. ما الذي يحزنك يا أبت؟»

«لماذا تريد أن تلغي الناموس المقدس؟ كنت حتى الآن تحترمه، كما يحترم الابن أباه العجوز. لكنك اليوم، وأمام الهيكل، رفعتَ رايتك الخاصة. الى أي مدى ستذهب بتمردك هذا؟!»

«الى المحبة، يا أبت، عند قدمي الرب. هناك سيجد الدعم والراحة»

«ألا تصل الى هذه البغية بالناموس المقدس؟ ألا تعلم مايقوله كتابنا المقدس؟ إن الناموس كتب قبل أن يقيم الرب العالم بتسع مائة وأربعة عشر جيلاً. لكنه لم يدوَّن على ورق نفيس، لأنه في ذلك الوقت لم تكن هناك حيوانات لتعطي جلودها؛ ولا على الخشب لأنه لم تكن هناك أشجار؛ ولا على الحجر، لأنه لم تكن هناك أحجار بعد. لقد كُتب بلهب أسود فوق نار بيضاء على الذراع اليسرى للرب. واعلم ان الرب خلق العالم وفقاً لهذا الناموس المقدس»

صرخ يسوع، وقد نفد صبره «لا، لا! وألف لا!»

أمسك الحبر العجوز يده برفق، وقال «لماذا تصرخ هكذا، يا بني؟»

شعر يسوع بالخجل، واحمر وجهه. لقد أفلت الزمام من بين يديه ولم يعد يتحكم في روحه. وكأنه مثخن بالجراح من رأسه الى أخمصه. وأينما تلمسه، وإن مسَّاً خفيفاً، كان دائماً يصرخ متألماً.

هذه المرة أيضاً صرخ، ثم هدأ. أمسك بيد العجوز، وأخفض صوته وهو يقول «الكتاب المقدس يا أبت صفحاته محفورة في قلبي، وأنا مزقتُ كل الأوراق الأخرى»

لكنه بعد أن قال هذا عاد فبدَّل فكره، وقال «ليس أنا... ليس أنا، انه الرب، هو الذي أرسلني»

شعر الحبر العجوز، الجالس بجوار يسوع، وكان شديد القرب منه حتى أن ركبهما تلامست، شعر بقوة نارية لا تحتمل تنبعث من جسم يسوع؛ وكما تهب فجأة ريح قوية من خلال النافذة المفتوحة لتطفئ نور المصباح، رأى الحبر في قلب الظلام ابن مريم يشع بالضياء كعمود من نار، منتصباً في وسط الغرفة . وتلفَّت يميناً ويساراً علَّه يرى أيضاً موسى وايليا يعودان للظهور، لكنه لم يرَ أياً منهما. كان يسوع وحيداً وسط ضيائه، وقد وصل رأسه حتى السقف المكسو بعيدان القصب، ونشر وهجه عليه. وكادت صرخة تفلت من الحبر العجوز فاذا بيسوع يمد ذراعيه على طولهما ليصبح صليباً تلعقه ألسنة اللهب.

نهضت مرتا واقفة وأعادت اضاءة المصباح. وعلى الفور عاد كل شيء الى طبيعته. كان يسوع مايزال جالساً مطرقاً، يفكر. تلفَّت الحبر فيما حوله، فأدرك أن لا أحد غيره رأى ما رآه وسط الظلام. فقد تحلَّق الآخرون حول المائدة وهم يستعدون بهدوء لتناول طعام

العشاء. فقال الحبر لنفسه، إن الرب يحملني بين يديه ويلاعبني. ان للحقيقة سبع مراتب، وهو يرفعني وينقلني من مرتبة الى مرتبة، حتى أُصابَ بالدوار...

لم يكن يسوع يشعر بالجوع، ولم يجلس ليتناول الطعام. وكذا كان حال الحبر العجوز. ظلا معاً ملازمين لأليعازر، الذي أغمض عينيه وكأنه مستغرق في النوم. لكنه لم يكن نائماً، كان يفكر. ماذا كان ذاك الحلم الذي رآه؟ وتساءل، هل حقاً مات، هل مُددٌ تحت الأرض، وهل سمع عندئذ فجأة صوتاً رهيباً يقول «يا اليعازر، قم!»، وهل انتفض وهو في كفنه واستيقظ ليجد نفسه ملفَّعاً بالكفن نفسه الذي رآه في الحلم؟ أم لعله لم يكن حلماً . أيعقل أن يكون قد هبط الى العالم السفلي؟

«لماذا أخرجته من القبر يا ولدي؟»

أجاب يسوع بهدوء «لم أرد ذلك. لم أرد ذلك يا أبت. عندما رأيته يرفع شاهد القبر أصابني الرعب. وددت لو أهرب، لكني خجلت من نفسي، فبقيت في مكاني وأنا أرتجف.

قال الحبر «يمكنني أن أحتمل أي شيء، أي شيء، ماعدا نتانة جسد يتعفَّن. هذه هي المرة الثانية التي أشهد فيها تفسُّخ جسد فظيع وهو مايزال حياً، يأكل، ويتكلم، ويتنفس. انه الملك هيرودوس، روح عظيمة حُكِمَ عليها بالهبوط الى الجحيم. لقد قتل ماريانا الجميلة، محبوبته، وقتل أصدقاءه، وقادته، وأبناءه. استولى على الممالك، وبنى الأبراج، والقصور، والمدن، وهيكل أورشليم المقدس، وهو أشد فخامة حتى من هيكل سليمان العريق. حفر اسمه عميقاً على الحجارة بحروف من برونز وذهب: كان متعطشاً للخلود. وفجأة، وفي قمة مجده لمست إصبع الرب عنقه، وللتو بدأ يتعفن. كان دائم الاحساس بالجوع، يأكل دون انقطاع لكنه لم يشبع قط.

كانت أمعاؤه جرحاً واحداً فاسداً لا يلتئم: كان جوعه لا يشبع، ويسمع أبناء آوى عواءه في الليل فيرتعشون خوفاً. وأخذ بطنه، وقدماه، وابطاه، تتفخ، وخرجت الديدان من خصيتيهـ وكانتا أول مافسد فيه. وكانت رائحته كريهة الى حد لم يحتمل معه أي كائن بشري الاقتراب منه. وكان خدمه يصابون بالاغماء. وكان يحمل الى الينابيع الدافئة في كاليرهو، بالقرب من نهر الأردن، لكن حالته ازدادت سوءاً. وفي تلك الأثناء ذاع سيطي كَشَافٍ من الأمراض وطارد للأرواح الشريرة. فعلم الملك بأمري فاستدعاني. وكان عندئذ قد حُمل الى أريحا، الى الحدائق، وكانت رائحته الكريهة تصل من أورشليم الى نهر الأردن. وحين مَثَلتُ أمامه للمرة الأولى أصبت بالاغماء. ثم صنعت بعض المراهم ودهنته بها. وكنت سراً أخفض رأسي وأتقيأ. وتساءلت، أهذا ملك؟ أهذا هو الانسان: قذارة وعفونة؟ أين الروح اذن لتضع الأمور في نصابها؟»

كان الحبر يتكلم بصوت منخفض جداً، فليس من اللائق أن يسمع الآخرون مثل هذا الكلام أثناء تناولهم الطعام . أنصت يسوع اليه، وهو مطرق قانط. هذا هو بالضبط المعروف الذي كان ينوي ان يطلبه من الحبر هذا المساء : أن يتحدث معه عن الموت، حتى يستجمع قواه. كان عليه هذه المرة أن يضع الموت دائماً نصب عينيه، حتى يعتاد عليه. أما الآن ... ودّ لو يمد يده ويسكت الحبر العجوز، ينهره قائلاً، يكفي هذا ! ولكن كيف يمكنه أن يسكت الرجل العجوز بعد أن وصل الى هذا الحد؟ إن الحبر لا يطيق صبراً على تأجيل سرد كل القذارة، كي يخرجها من ذاكرته ويتطهَّر منها.

«لم يكن لمراهمي أي نفع؛ كان الدود يلتهمها هي أيضاً. لكن الشيطان كان مايزال يتربع على تلك القذارة ويصدر أوامره. أمر كل أثرياء اسرائيل وأصحاب النفوذ فيها بالاجتماع، ثم زربهم في

فناء قصره. وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة نادى على أخته سالومه وقال لها «حالما أسلِّم الروح، اقتليهم جميعاً، حتى لا يفرحوا لموتي!» ثم مات. هيرودوس العظيم فني هاقد حانت الساعة المباركة، الساعة المباركة التي تتبأ بها موسى في عهده : «وفي النهاية سيأتي ملك فاسق داعر، أبناؤه فاسدون، وستزحف من الغرب جيوش همجية وملك ليحتلوا الأرض المقدسة . عندئذ، ستحل نهاية العالم!». هذا ما تنبأ به النبي موسى. وقد تحقق كله. لقد حلت نهاية العالم»

انتفض يسوع مجفلاً . كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها هذه النبوءة.فهتف «أين دوِّنت؟ ومن هو النبي؟ هذه أول مرة أسمع بها!»

«قبل سنين ليست عديدة عثر راهب في كهف في الصحراء اليهودية على رق عتيق داخل جرة غضارية . فتحها فوجد مكتوباً في أعلاها بأحرف حمراء : «عهد موسى». فقبيل وفاة الشيخ الجليل استدعى خليفته، يشوع بن نون، وأملى عليه كل ماسيقع في المستقبل. وانظر هاقد وصلنا الى السنين التي تنبأ بها. الملك الفاسق هو هيرودوس، والجيوش الهمجية هي الرومان؛ أما عن نهاية العالم، فاذا رفعت رأسك، فستراها تدخل من خلال الباب!»

نهض يسوع واقفاً. أصبح المنزل يقيده. فتجاوز أصحابه الجالسين على مائدة الطعام، خالين من الهموم، وخرج الى الفناء. وهناك، رفع رأسه. كان القمر في ذلك الحين قد برز، كبيراً يثير الشجن، من خلف جبال موآب. كاد يغدو بدراً بحيث يكتمل في عيد الفصح.

حدق اليه، مذهولاً، وكأنه يراه لأول مرة في حياته. وتساءل ماهو القمر، هذا القمر الذي يبرز من خلف الجبال فيجعل الكلاب

الخائفة تقحم أذيالها بين سيقانها وتتبح في وجهه؟ إنه يسطع، صامتاً، وسط الصمت المرعب، ويقطر سماً. ويصير قلب الانسان حفرة تمتلئ بالسم... شعر يسوع بلسان مسموم يجري على وجنتيه وعنقه وذراعيه، يلعقه، يحيط وجهه وجسمه كله بهالة من النور الأبيض، بكفن أبيض.

كان يوحنا يشعر مسبقاً بمعاناة يسوع. فخرج الى الفناء وراه، غارقاً كله في نور القمر. قال، متكلماً بصوت منخفض حتى لا يخيفه، «يا معلم...»، وتقدم على رؤوس أصابع قدميه.

التفت يسوع ونظر اليه. لم يعد الفتى الرقيق، الأمرد، بل وجد أمامه في وسط الفناء رجلاً عجوزاً، عجوزاً جداً، معرضاً لضوء القمر . يحمل باحدى يديه كتاباً مفتوحاً، خالياً من الكتابة، وبالأخرى ريشة كتابة، طويلة، أشبه برمح ذي نصل نحاسي. ولحيته البيضاء تماماً مسترسلة لتصل حتى ركبتيه.

هتف يسوع، بعد أن تمالك نفسه «يا ابن البرق، اكتب : «أنا الألف والياء، الكائن والذي كان والذي سيأتي. أنا رب الجنود» ألم تسمع نفيراً عالياً كالنفخ في البوق؟»

ارتعد يوحنا . ان عقل المعلم بدأ يختل ! كان يعلم أن القمر يُسكِر. ولهذا تراه خرج الى الفناء : ليعيد يسوع الى الداخل. ولكن واحسرتاه! لقد وصل متأخراً. قال «اهدأ يا معلم، أنا يوحنا، محبوبك. هيا بنا الى الداخل. هذا منزل اليعازر»

عاد يسوع يصدر أمره «اكتب! هناك سبعة من الملائكة يكتنفون عرش الرب، كل منهم يضع بوقاً على فمه، ألا تراهم، يا ابن البرق؟ اكتب «الملاك الأول نزل الى الأرض، برداً وناراً، ممزوجين بالدم. فاحترق ثلث الأرض، وثلث الأشجار، وثلث العشب الأخضر. والملاك الثاني نفخ في بوقه، فسقط جبل من نار الى البحر، فتحول ثلث

البحر الى دماء، ومات ثلث السمك، وغرق ثلث السفن. ونفخ الملاك الثالث في بوقه، فسقط نجم عظيم من السماء فتسمَّم ثلث الأنهار، والبحيرات والينابيع. ونفخ الرابع في بوقه، فأظلم ثلث قرص الشمس، وثلث قرص القمر، وثلث النجوم. ونفخ الخامس في بوقه، فسقط نجم آخر، وفغر الجحيم لجَّته مُطلقاً سحباً من الدخان، ومع الدخان جراد اندفع يهاجم، ليس العشب والأشجار، بل الناس؛ له شعر طويل كشعور النساء، وأسنانه كأسنان الأسود. وهو مسلَّح بدروع حديدية، وأجنحته تدوّي كعربات كثيرة الخيل تندفع الى المعركة. ونفخ السادس في بوقه...»

لكن يوحنا لم يعد يحتمل المزيد. فانفجر في نوبة بكاء وارتمى عند قدمي يسوع، وصرخ «معلمي، اهدأ... اهدأ...»

سمع يسوع بكاءه، فانتفض، وانحنى فرأى تلميذه الحبيب عند قدميه. قال «يوحنا، أيها الحبيب، لماذا تبكي؟»

خجل يوحنا من التصريح بأن عقل المعلم، ولبرهة من الزمن، وتحت ضوء القمر، اختل. قال «هيا بنا الى الداخل يا معلم. العجوز يتساءل عما ألمَّ بك، وتلاميذك يرغبون برؤيتك»

«ولهذا تبكي، يا يوحنا الحبيب؟ ... هيا بنا الى الداخل»

دخل وعاد الى مجلسه بجوار الحبر العجوز.كان شديد الارهاق، ويداه تتفصدان عرقاً، وكان يغلي من شدة الحرارة - إلا أنه كان يرتعش.

حدق الحبر العجوز اليه، وقد تملكه الخوف . قال وهو يشد على يد يسوع التي تقطر «يا بني، لا تنظر الى القمر. يقال انه حَلَمَهُ معشوق الشيطان الأول، الليل، وانه يفيض بالـ....»

لكن تفكير يسوع كان منصباً على الموت . قال «أعتقد يا أبت أنك أسأت الكلام عن الموت. إن الموت لا يتلبَّس وجه هيرودوس. لا،

انه سيد عظيم. حارس مفاتيح الرب، وهو الذي يفتح الباب. حاول أن تتذكر ميتات أخرى يا أبت، وواسني»

كان التلاميذ قد فرغوا من تناول وجبتهم، وقطعوا حبل مسامرتهم لينصتوا. نظّفت مرتا المائدة، وجثمت المريمتان عند قدمي يسوع. وبين الفينة والأخرى كانت كل منهما تنظر خلسة الى ذراعيّ، وصدر، وعينيّ وفم وشعر الأخرى، وهي تقدِّر بقلق أيهما أبهى جمالاً.

قال العجوز «أنت على حق يا ولدي، لقد أسأت الكلام عن كبير ملائكة الرب القاتمة. انه دائماً يتلبَّس وجه المحتضر. فاذا مات هيرودوس يصبح هو هيرودوس؛ ولكن اذا مات قديس فان وجهه يشع كسبع شموس. إنه سيد عظيم يأتي بعربته ويرفع القديس عن الأرض ويحمله الى السماء. أتود أن ترى الوجه الذي سيكون لك في الأبدية؟ انظر اذن لترى كيف سيظهر أمامك الموت في الساعة الأخيرة»

كانوا جميعاً منصتين فاغري الأفواه، وكل منهم، بينه وبين نفسه، يزن بقلق قدر روحه. وخيّم الصمت فترة طويلة فوقهم، وكأن كلاً منهم يجاهد ليرى وجه موته.

أخيراً فتح يسوع فمه وتكلم. قال «ذات يوم يا أبت، حين كنت في الثانية عشرة من عمري، ذهبت الى الكنيس واستمعت اليك تحكي قصة استشهاد النبي اشعيا وموته لأهل الناصرة . لكن هذا حدث قبل زمن طويل، ونسيتها. وهذه الليلة أنا شديد التوق لأسمع مرة أخرى قصة نهايته، فقد تهدأ غلواء روحي وأتصالح مع الموت : لقد أثرت غضب روحي الشديد يا أبت بكلامك عن هيرودوس»

«لماذا تريدنا أن نتحدث فقط عن الموت في هذه الأمسية يا ولدي؟ أهذا هو المعروف الذي رغبت بطلبه مني؟»

«هو بالضبط. ولاشيء أكبر منه»، ثم التفت الى التلاميذ وقال «لا تخشوا الموت يا رفاق. بورك! فلو لم يكن هناك موت، كيف كنا سنصل الى الرب ونبقى معه الى الأبد ؟ الحق أقول لكم، الموت يحمل مفاتيح الباب المؤدي اليه»

رمقه الحبر العجوز بدهشة، وقال «يا يسوع، كيف تستطيع أن تتكلم عن الموت بكل هذا الحب والثقة؟ منذ وقت طويل لم أسمع صوتك يتكلم بمثل هذه الرقة»

«احكِ لنا عن موت النبي اشعيا، وسترى أني على حق»

انتقل الحبر العجوز من مكانه ليتجنب لمس اليعازر.

«نسي الملك منسى وصايا أبيه حزقيًا الذي يخاف الرب، ودخله الشيطان وتملّكه. ولم يعد منسى يحتمل سماع اشعيا، صوت الرب. لذا بعث بالقتلة الى كل أرجاء اليهودية للعثور عليه وذبحه حتى لا يتكلم بعد ذلك. لكن اشعيا كان موجوداً في بيت لحم، مختبئاً داخل شجرة أرز ضخمة، وصار يصلي ويصوم لكي يرأف الرب باسرائيل ويخلّصها . وذات يوم مرَّ رجل سامري خارج عن القانون به وكان يصلي وقد برزت يده من الشجرة، رآها السامري المتمرد فهرع من فوره الى الملك وأخبره عن مكانه. فقُبض على النبي واقتيد الى الملك. فأمر الملعون قائلاً «أحضروا المنشار التي تقطع به الأشجار، وانشروه الى نصفين!». فمددوه على الأرض، ثم أمسك رجلان بطرفي المنشار وأخذا ينشران. صرخ الملك «تبرَّأ من نبوءاتك وسأمنحك الحياة!». لكن اشعيا كان قد انتقل الى الفردوس، ولم يعد يسمع الأصوات الأرضية. وعاد الملك يصرخ «أنكر الرب، وسأجعل رعاياي يسجدون لك ويعبدونك»».

«عندئذ أجابه النبي «لا قدرة لك على قتل جسدي. ولا قدرة لك على النيل من روحي، ولا على خنق صوتي. فكلاهما خالد.

أحدهما يصعد الى الرب، والآخر، أي صوتي، سيبقى الى الأبد على الأرض ليعظ». بعد أن قال هذا جاء ملاك الموت على عربة من نار، يتوّج شعر رأسه تاج من نبات الأرز المذهب، وأخذه»

نهض يسوع واقفاً، وعيناه تشعان. وكانت هناك عربة من نار معلقة فوقه.

قال، وهو ينقّل ناظريه من تلميذ الى آخر «يا أصدقائي، يا رفاق ترحالي الأحباء: إن كنتم تحبونني فاسمعوا الكلمات التي سأقولها لكم هذه الليلة. يجب أن تظلوا دائماً على أتم الاستعداد والتأهب ـ فمن لديه خف، فبالخف يتسلّح، ومن لديه هراوة، فبالهراوة استعدوا للرحلة العظمى. فما الجسد؟ إنه خيمة الروح، وعليكم أن تهتفوا في كل لحظة «سنطوي خيامنا ونرحل! نحن راحلون، عائدون الى وطننا الأم». وما هو وطننا الأم؟ إنه السماء !»

«إليكم، يا أصدقائي، كلمتي الأخيرة التي أود أن أقولها لكم هذه الليلة. حين تجدون أنفسكم أمام جدث انسان محبوب لديكم، فلا تذرفوا الدمع، وتذكروا هذا العزاء العظيم : الموت باب يؤدي الى الخلود؛ ولا باب آخر . إن محبوبكم لم يمت ـ بل حظي بالخلود»

الفصل السابع والعشرون

كان الربيع طوال النهار، بدءاً من انبلاج الفجر الرائع، ولكن بشكل أكبر خلال الليل بعيداً عن كل رقيب، كان الربيع بهدوء ينحّي الصخور والتربة جانباً ليطلع على أرض اسرائيل. وفي ليلة واحدة امتلأت سهول سارون في السامرة ويزدعيل في الجليل بأزهار الربيع الصفراء والزنبق البري، ونبتت أزهار شقائق النعمان القصيرة العمر - كبقع من الدم - بين صخور اليهودية المتجهّمة. وظهرت على الكرمة عيون جاحظة كعيون السرطان. وفي كل من هذه البراعم الزهرية والخضراء كانت العناقيد الفجّة، والعنب الناضج والنبيذ الجديد تستجمع زخمها لتنبجس؛ وفي مكان أعمق، في قلب كل برعم، كَمَنَت أغاني الناس. وعند كل وريقة خضراء وقف ملاك حارس ليساعدها على النمو. وتظن بأن الأيام الأولى للخليقة عائدة، حين تمتلئ كل كلمة يقولها الرب وتقع على التربة المحروثة حديثاً بالأشجار، وبالأزهار البرية وبالخضرة.

هذا الصباح وعند سفح جبل جريزيم المقدس كانت المرأة السامرية تملأ من جديد ابريقها من بئر يعقوب وتنظر على طول

الدرب المؤدي الى الجليل، وكأنها كانت ماتزال تتوق لرؤية الشاب الشاحب الذي حدَّثها ذات مرة عن الماء الخالد . والآن وقد حل فصل الربيع كشفت هذه الأرملة المحبة للمتعة أكثر من ذي قبل عن استدارتي ثدييها المبللين بالعرق.

في هذه الأمسية الربيعية تحولت روح اسرائيل الخالدة، أصبحت عندليباً رابضاً على النافذة المشرّعة لكل صبيَّة يهودية بتول وأبقاها مستيقظة حتى الفجر بغنائه. ويزقزق، مؤنباً اياها، لم تأوين الى النوم وحدك؟ لم باعتقادك منحتك شعراً طويلاً وثديين وكفلين عريضين مستديرين؟ انهضي، وتزيَّني بحليكِ، وأطلّي من نافذتك. قفي على عتبة دارك عند انبلاج الفجر، واحملي ابريقك واذهبي الى البئر واعبثي مع عُزَّاب اليهود الذين تصادفينهم في سبيلك، وانجبي معهم أطفالاً لأجلي. نحن معشر العبرانيين أعداؤنا كُثُر، ولكن طالما أن بناتي يهبنني أطفالاً أظل خالداً. أكره الحقول غير المحروثة والأشجار غير المطعَّمة في أرض اسرائيل - وأكره العذارى.

في صحراء أدوميه، بالقرب من جبل حبرون الذي يحميه الرب وحول قبر ابراهيم المجلل بالقدسية، استيقظ الأطفال اليهود في الصباح الباكر وراحوا يلعبون لعبة المسيح. فصنعوا أقواساً من أغصان الصفصاف وأخذوا يطلقون سهاماً مصنوعة من عيدان القصب الى السماء، وينادون على المسيح - ملك اسرائيل - ليهبط بعد طول انتظار ممتشقاً سيفاً طويلاً ومعتمراً خوذة ذهبية. وصنعوا له عرشاً ليتربع عليه وذلك بنشر جلد خروف على الجدث المقدس. وأنشدوا أغنية خاصة لأجله، وصفقوا له بأيديهم ليظهر لهم - رفجأة، ومن خلف الجدث، تعالى هتاف الفرح وقرع الطبول، ثم خرج المسيح يسير مختالاً وهو يصيح، بلحية وشارب مصنوعين من شرابات الذرة، ووجه صارم مدهون، وكان يحمل سيفاً طويلاً

من غصن نخيل وراح يضرب الأولاد واحداً بعد آخر على رقبته. وكانوا جميعاً يسقطون صرعى.

طلع النهار أيضاً على منزل اليعازر في بيت عنيا، لكن عينيّ يسوع لم تغمضا بعد. رفض كربه أن يخف؛ إنه لا يجد أمامه غير درب واحد سالك: الموت. وكان يسائل نفسه، إن النبوءات تتحدث عني. انني الحمل الذي سيأخذ على عاتقه آثام العالم ويذبح في عيد الفصح القادم. فليُذبح الحمل اذن قبل موعده بساعة. اللحم ضعيف، ولا ثقة لي به. وقد ينتابه الجبن في الدقيقة الأخيرة. فليأت الموت الآن مادمت لا أزال أشعر بروحي منتصبة... آه، متى تشرق الشمس حتى أتوجه الى الهيكل. يجب أن أضع حداً لكل شيء - اليوم!

بعد أن أخذ قراره، اطمأن باله بعض الشيء، فأغمض عينيه، واستغرق في النوم، ورأى حلماً: تراءت له السماء بستاناً محاطاً بسياج مقضَّب ملآن بحيوانات برية. هو أيضاً كان حيواناً برياً ويطفر ويمرح مع البقية. وأثناء طفره قفز عبر السياج ووقع على الأرض. عندما رآه الناس تولاهم الذعر. صرخت النسوة وجمعن أطفالهن من الشوارع حتى لا يأكلهم الوحش. وحمل الرجال الرماح، والحجارة، والسيوف، وبدأوا يطاردونه... كانت الدماء تسيل من كل أنحاء جسمه، وفجأة وقع على الأرض منبطحاً على وجهه. ثم بدا وكأن مجموعة من القضاة تجمَّعت حوله لكي تحاكمه. الا أنهم لم يكونوا بشراً، بل كانوا ثعالب، وكلاباً، وخنازير، وذئاباً. حاكموه، وحكموا عليه بالموت. ولكن بينما هم يقودونه الى الاعدام تذكر انه لا يمكن أن يموت : انه حيوان قدسي، خالد. وحين تذكَّر ذلك أمسكت امرأة بيده، فاذا بها مريم المجدلية. خرجت معه من المدينة الى الحقول، وقالت له «لا تصعد الى السماء . لقد حل الربيع؛ ابقَ

معنا» وسارا وسارا، الى أن بلغا مشارف السامرة. هناك التقى المرأة السامرية، وابريقها على كتفها . فقدمته له وشرب، بعد ذلك أمسكت هي الأخرى بيده وصحبته، دون أن تتكلم، حتى مشارف الجليل. ثم برزت أمه من تحت أشجار الزيتون العتيقة المزهرة. كانت تتدثر بشال أسود وتبكي. وحين رأت جروحه والدماء التي تغطي كل جسمه واكليل الشوك يتوّج شعره، رفعت يديها وقالت له «فليعذبك الرب كما عذّبتني. لقد جعلت اسمي مضغة في أفواه الناس: والعالم كله يتهامس عني. لقد ثرتَ ضد أرض الآباء، وعلى الناموس، وعلى رب اسرائيل. ألا تخشى الرب، ألا تشعر بالخجل أمام الناس؟ ألا تفكر في أمك وأبيك؟ اللعنة عليك!». وبعد أن قالت هذا، اختفت.

استيقظ بارتجاجة، وهو يتصبب بالعرق. وكان تلامذته متمددين حوله، يشخرون. وفي الفناء الخارجي صاح الديك. سمع بطرس الصياح ففتح عينيه نصف فتحة، فرأى يسوع واقفاً.

قال «يا معلم، حين صاح الديك كنتُ أرى حلماً. رأيتك تمسك بلوحيّ خشب متصالبين، فتحوّلا بين يديك الى قيثارة وقوس، فأخذت تعزف وتغني. فتجمّعت الحيوانات البرية من كل أركان الأرض لتنصت اليك... فما تفسيره؟ سوف أسأل الحبر العجوز»

أجابه يسوع «الحلم لا ينتهي عند ذاك الحد يا بطرس . لماذا استعجلت في الاستيقاظ؟ ان للحلم بقية»

«بقية ؟ لا أفهم . أتُراك حلمت به أنت نفسك، يا معلم ـ كله؟»

«حين سمعت الحيوانات البرية الأغنية اندفعت الى الأمام وافترست المغني»

جحظت عينا بطرس، وتكهن قلبه بالفحوى، لكن عقله تعطل، فقال «أنا لا أفهم»

أجاب يسوع «ستفهم في صباح يوم آخر حين ستسمع مرة أخرى صياح الديك»

أخذ يلكز أصحابه بقدمه واحداً بعد آخر، ويقول «استيقظوا أيتها العظام الكسولة . لدينا اليوم الكثير من العمل»

سأله فيلبس وهو يفرك عينيه «أنحن راحلون؟ رأيي أن نعود الى الجليل، الى الأمان»

صرَّ يهوذا أسنانه ولكن لم يفه بكلمة.

استيقظت النسوة في الغرفة الداخلية وأخذن يثرثرن . وخرجت سالومه العجوز لتضرم النار. وكان التلاميذ قد اجتمعوا في الفناء، ينتظرون يسوع الذي مال على الحبر العجوز وأخذ يكلّمه بصوت خافت. وكان الحبر العجوز، الذي اشتدت عليه وطأة المرض، طريح الفراش في الزاوية الخلفية من المنزل.

سأله الحبر «الى أين أنت ذاهب الآن يا ولدي؟ الى أين ستقود جيشك؟ ستعود من جديد الى أورشليم؟ هل سترفع يدك مرة أخرى لتهدم الهيكل؟ وكما تعلم، تصبح الكلمة فعلاً حين تصدر عن روح عظيمة ـ وروحك روح عظيمة. وأنت موثوق فيما تقول. فاذا أعلنت أن الهيكل سيُدمَّر، فسيُدمَّر حقاً ذات يوم. لذا، زن كلامك!»

«هذا ما أفعله يا أبت. انني أفكر في العالَم كله حين أتكلم، أختار ماسيبقى وما سيُدمَّر. انني آخذ المسؤولية على عاتقي»

«آه، ليتني فقط أبقى على قيد الحياة مدة كافية لأعرف من تكون! لكني عجوز، والعالم أصبح خيالاً يحوم حول رأسي، يريد أن يلجه. لكن كل الأبواب مسدودة»

«حاول أن تصمد بضعة أيام أخر يا أبت. حتى عيد الفصح. تمسَّك بروحك التي تهفو للحياة العزيزة، وستعرف. الساعة لم تحن بعد»

هزَّ الحبر رأسه، وقال شاكياً «متى ستأتي تلك الساعة؟ هل خدعني الرب؟ ماذا حل بوعده؟ إنني أحتضر، احتضر - فأين المسيح؟»، وقبض على كتفيّ يسوع بكل ماتبقى لديه من قوة.

«ابقَ حتى عيد الفصح يا أبت، وسترى أن الرب يفي بوعده!»، وتخلَّص يسوع من قبضة الرجل العجوز، ثم خرج الى أرض الفناء.

قال «يا نثنائيل، وأنت يا فيلبّس : اذهبا الى القرية، الى آخر منزل فيها. هناك ستجدان أتانا ومعها جحشها مربوطين الى مشبك الباب، فحلاَّها، واتياني بها. فاذا سألكما أحد الى أين تأخذانها، فأجيبا «المعلم يحتاجها وسوف نعيدها»»

همس نثنائيل الى صديقه «سوف نتورط في المشاكل»

قال فيلبّس «هيا بنا، إفعل ما يأمرك به، وليكن مايكون!»

كان متّى قد تناول قلمه منذ الصباح الباكر واستنفر عينيه وأذنيه، وقال في نفسه، يا رب اسرائيل، انظر كيف تم البناء بأكمله كما أعدهَ له الأنبياء، ذوو الاستنارة القدسية!» ماذا يقول النبي زكريا؟ «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون اهتفي يا بنت أورشليم.

هوذا ملكك يأتي اليك! هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان!»

قال متّى ليختبر المعلم «يا معلم، يبدو لي أنك تعب ولا تقوى على السير الى أورشليم مشياً على الأقدام»

أجابه يسوع «لا، لست تعباً. لماذا تسأل؟ لقد انتابتني فجأة رغبة بالركوب»

قاطعه بطرس «يجب أن تمتطي فرساً أبيض! أنت ملك اسرائيل، أليس كذلك؟ لذا يجب أن تدخل الى عاصمتك على ظهر فرس أبيض»

ألقى يسوع نظرة سريعة على يهوذا ولم يدل بجواب.

في تلك الأثناء كانت المجدلية قد خرجت وجلست على عتبة الدار. كانت عيناها منتفختين لأنها لم تفز بأي قسط من النوم طوال الليل. اتكأت على قائم الباب وراحت تملي ناظريها بالنظر الى يسوع بعمق، دون أن تحظى بالعزاء، وكأنها ستغادره الى الأبد، ودَّت لو تطلب منه أن لا يرحل، لكنها شعرت وكأن حنجرتها قد سُدَّت. ورآها متّى تفتح فمها وتغلقه دون أن تقدر على اخراج كلمة واحدة، وفهم الأمر. وقال لنفسه، ان الأنبياء لا يسمحون لها بالكلام، لا يسمحون لها بأن تعيق انجاز المعلم لما تنبَّأوا به. سوف يمتطي الأتان ويرحل الى أورشليم شاءت المجدلية أم أبت، شاء هو نفسه أم أبى. انه قدر مكتوب!

في تلك اللحظة وصل فيلبّس ونثائيل، يجران خلفهما بفرح الأتان وجحشها غير المسرح بحبل واحد. هتف فيلبّس قائلاً «لقد صح ماقلت يا معلم . امتطِ وهيا بنا»

التفت يسوع ليلقي نظرة على المنزل. كانت النسوة واقفات يراقبنه وهن يشبكن أيديهن، حزينات ولكن صامتات. ووقفت سالومه العجوز مع الأختين، ووقفت المجدلية في المقدمة...

سأل يسوع «هل لديكم سوط في المنزل يا مرتا؟»

أجابت مرتا «لا، يا معلم. لا يوجد غير مهماز الثور»

«أعطنيه»

كان التلاميذ قد وضعوا ملابسهم على الحيوان المطواع ليعدّوا مجلساً ليّناً للمعلم. وفوقها جميعاً فرشت المجدلية ملاءة حمراء من نسجها، مطرَّزٌ على حوافها رسوم لأشجار سرو صغيرة سوداء.

سأل يسوع «هل الجميع مستعدون؟ هل كل قلب فيكم ودود؟»

أجابه بطرس الذي سار في المقدمة «نعم»، وقاد الطريق وهو يمسك بزمام الحيوان.

سمع أهالي بيت عنيا المجموعة أثناء مرورهم ففتحوا أبوابهم، وسألوهم : «الى أين أنتم ذاهبون يا شباب؟ ولماذا نرى النبي راكباً اليوم؟»

مال عليهم التلاميذ وأفضوا اليهم بالسر قائلين «انه متوجه ليتربع على عرشه»

«أي عرش، يا صاح؟»

«شش، إنه سر. الرجل الذي ترونه أمامكم هو ملك اسرائيل»

فهتفت الصبايا قائلات «حقاً! هيا ننضم اليه». وشيئاً فشيئاً تجمهر الناس من حوله .

كان الأطفال يقطعون سعف النخيل ويمشون في المقدمة، يغنون بفرح «بورك القادم باسم الرب!»، ويخلع الرجال ستراتهم ويفرشونها على طول الطريق ليمر من فوقها. وكم ركضوا ! وكم كان ربيعاً زاهراً! ما أطول الأزهار هذا العام، وما أجمل غناء العصافير وما أروع طيرانها خلف الموكب، في طريقه الى أورشليم !

مال يعقوب على أخيه، وهمس له «بالأمس تحدثت اليه أمنا. قالت ان عليه أن يُجلسنا عن يمينه ويساره بعد أن يتربع على عرش المجد. لكنه لم يجبها. لعله غضب. قالت ان وجهه اكفهرَّ»

أجابه يوحنا «غضب بالطبع. ماكان يجب أن تفعل ذلك»

«ماذا اذن ؟ أيتركنا كما نحن ومن ثم - من يدري؟ - يمنح الأفضلية ليهوذا الاسخريوطي ؟ ألم تلاحظ كيف كانا طوال تلك الأيام السابقة يتحدثان سراً؟ انهما لا يفترقان. خذ حذرك يا يوحنا. اذهب اليه وكلِّمه بنفسك حتى لا تصيبنا الخسارة. لقد حانت الساعة لتوزيع مراتب الشرف»

لكن يوحنا هز رأسه معترضاً، وقال «يا أخي، انظر كم هو مبتل وكأنه ذاهب ليلقى حتفه»

تساءل متّى وهو يسير وحده خلف الآخرين، أود لو أعرف مايخبئه القدر. ان الأنبياء لا يقدمون تفاسير واضحة. بعضهم يقول إنه العرش، وآخرون يقولون انه الموت. فأي النبوءتين سيتحقق؟ لا أحد يمكنه أن يفسر نبوءة ما الا بعد تحققها. عندئذ فقط نفهم فحوى النبوءة . لذا - لنصبر وننتظر لنرى ما سيحدث - من باب التيقن. سوف ندوّن كل شيء هذه الليلة بعد رجوعنا.

في تلك الأثناء كانت البشارة قد وصلت على جناح السرعة الى القرى المجاورة والى الأكواخ المنتشرة بين كروم الزيتون والكرمة . فهرع الفلاحون من كل حدب وصوب ليفرشوا أرديتهم أو مناديلهم على الأرض ليمر النبي من فوقها. وكان هناك أيضاً العديد من المقعدين والمرضى، والمعدمين. وبين الفينة والأخرى كان يسوع يلتفت خلفه لينظر الى جيشه. وفجأة شعر بوحدة هائلة. فالتفت ونادى «يا يهوذا!»، لكن التلميذ الانطوائي كان يسير آخر الجميع ولم يسمعه.

عاد يسوع يهتف بيأس «يهوذا!»

فأجابه ذو اللحية الحمراء «أنا هنا!»، وراح يدفع بالتلاميذ جانباً ليمر من بينهم.

«لبيك يا معلم؟»

«ابقَ بجانبي يا يهوذا، لازمني»

«لا تقلق يا معلم. لن أتركك»، وتناول الحبل من يد بطرس وتولى القيادة.

عاد يسوع يقول «لا تتخلى عني يا يهوذا، يا أخي»

«ولماذا أتخلى عنك يا معلم؟ ألم نتّفق جميعاً على كل هذا؟»

أخيراً اقتربوا من أورشليم. المدينة المقدسة، بيضاء وضاءة تحت أشعة الشمس التي لا ترحم، تشمخ أمامهم فوق جبل صهيون. اخترقوا قرية جبلية صغيرة، كانت يتردد في أرجائها، من أقصاها

الى أدناها ترجيع ترنيمة حزينة، هادئة عذبة، كصوت هطل مطر ربيعي دافئ.

سأل يسوع وقد انتابته رعشة «على من يندبون؟ من الذي مات؟»

لكن القرويين الذين كانوا يتراكضون خلفه اكتفوا بالضحك. «لا عليك يا معلم لم يمت أحد. ان فتيات القرية يرتلون ترنيمة أثناء طحنهن بالطاحونة اليدوية»

«ولكن لماذا؟»

«ليعتدن على ذلك يا معلم. ليعرفن كيف يندبن عند اللزوم»

ارتقوا الزقاق المرصوف بالحصى حتى ولجوا المدينة آكلة البشر: أسراب صاخبة، بملابس غنية الزخارف من كل بقعة من العالم ـ كل منهم يحمل معه روائحه المحلية وقذارته ـ يتبادلون العناق والقبل: بعد يومين يقام الاحتفال الخالد، ويصبح كل اليهود أخوة! وحين رأوا يسوع يمتطي أتانا متواضعة والحشودتتبعه ملوِّحين بسعف النخيل، ضحكوا.

«من يكون هذا يا ترى ؟»

إلا أن المقعدين والمرضى والمعدمين رفعوا قبضات أيديهم في وجوههم مهددين «سوف ترون الآن ! هذا يسوع الناصري ملك اليهود !»

ترجَّل يسوع وأخذ يرتقي على عجل درجات الهيكل اثنتين اثنتين، حتى وصل الى رواق سليمان، فتوقف عنده. وجد عنده أكشاكاً للبيع قد نُصبت، وآلاف الناس يبيعون ويشترون، يتسامرون، يتناقشون، ينادون على سلعهم: تجار، صيارفة، أصحاب حانات، عاهرات. فتصاعد الغضب الى عينيه، وتولاه حنق مقدس، فرفع مهماز الثور وراح ينزل به على كل كشك يبيع الخمر، وعلى أكشاك

بيع المرطبات، وأماكن صنعها؛ قلب الطاولات، وضرب التجار بمهمازه، وهو يصرخ «ابعدوا ! اخرجوا من هنا!»، ملوِّحاً بمهماز الثور ومتقدماً. وكان من داخله يتضرع بهدوء ومرارة : ربي، ربي، ما شئته يجب أن يحدث. فليحدث ـ ولكن بسرعة. انني لا أسألك أي فضل آخر. أسرع ـ مادمتُ ما أزال محتفظاً بقواي.

اندفع الغوغاء خلفه يصرخون مهتاجين «اخرجوا من هنا! اخرجوا من هنا!»، وينهبون الأكشاك. توقف يسوع عند الممر الملكي المقنطر، المطل على وادي قدرون. كان الدخان يتصاعد من كامل جسمه ومن شعره الطويل الأسود الفاحم، وينهمر على كتفيه، وكانت عيناه تطلق لهباً. صرخ «لقد جئت لأضرم النار في العالم. في الصحراء نادى يوحنا قائلاً «توبوا! توبوا! فيوم الرب بات قريباً!». أما أنا فأقول لكم، لم يعد لديكم وقت لتتوبوا. لقد جاء، جاء. أنا هو يوم الرب! في الصحراء كان يوحنا يعمِّد بالماء، أما أنا فأعمِّد بالنار. أنا أعمِّد الناس، والجبال، والمدن،والقوارب. انني أرى النار منذ الآن تطوِّق أركان الأرض الأربعة. أركان الروح الأربعة ـ فأبتهج. لقد جاء يوم الرب : يومي أنا!»

وصرخ الغوغاء «النار! النار! أنزل النار، أحرق العالم!»

حمل اللاويون رماحهم وسيوفهم، وسار يعقوب، أخو يسوع، في المقدمة، وتعاويذه تتدلى من عنقه، واندفعوا يبغون القبض على يسوع، لكن غضب الناس استشاط، واستجمع التلاميذ شجاعتهم واندفعوا كجسد واحد وهم يزأرون لينضموا للآخرين في الشجار.

وعالياً فوق برج القصر كان الحراس الرومان يراقبونهم ويضحكون.

أخذ بطرس مشعلاً مضاءاً من أحد الأكشاك، وصرخ «وراءهم يا أخوة. النار، يا شباب، لقد حانت الساعة!»

كان يمكن أن تراق الكثير من الدماء في بيت الرب لو لم يتردد رجع نفخ الأبواق الرومانية مهدداً صادراً عن برج بيلاطس. ثم خرج قيافا الكاهن الأكبر الجليل من الهيكل وأمر اللاويين بانزال أسلحتهم . وكان قد حفر بنفسه، وبكثير من البراعة فخاً ليقع فيه المتمردحتماً - وبلا صخب.

تحلَّق التلاميذ حول يسوع وراحوا يرمقونه بألم شديد. هل سيعطي اشارة البدء أم لا؟ لماذا يتلكّأ، ولماذا، بدل أن يرفع يده نحو السماء، يكتفي بالتحديق الى الأرض؟ إنه حتماً ليس بحاجة للاستعجال، أما هم - هم فقراء ضحّوا بكل شيء، وقد حان الوقت لينالوا الثمن المقابل.

قال بطرس، أحمر الوجه ويتصبَّب عرقاً «قرر، يا معلم! اعطِ الاشارة!»

كان يسوع قد أغمض عينيه، دون أن يأتي بحركة. وتفصّد جبينه حبات من العرق. وردد بينه وبين نفسه، يومك قادم يا رب، لقد حانت نهاية العالم. أنا أعرف أنني سأعمل على وقوعها - أنا - ولكن بموتي ... وأخذ يردد هذا الكلام مراراً وتكراراً مستمداًّ منه الشجاعة.

صعد يوحنا أيضاً اليه. لمس كتفه ثم هزه ليدفعه إلى فتح عينيه، وقال «اذا لم تعطِ الاشارة الآن سينتهي أمرنا. ان مافعلته اليوم يعني الموت»

انضم اليهما توما قائلاً «يعني الموت، واعلم أننا لا نرغب بالموت»

هتف فيلبّس ونثنائيل معاً وقد أجفلا «نموت؟ ولكننا قَدِمْنا الى هنا لتكون لنا الغلبة!»

مال يوحنا على صدر يسوع، وسأله «فيم تفكر يا معلم؟»

لكن يسوع دفعه جانباً، وقال «يهوذا، تعال الى جواري!»، ثم اتكأ على ذراع ذي اللحية الحمراء الضخمة.

همس له يهوذا «تشجع، يا معلم، فالساعة لم تحن بعد؛ ولا يجب أن نخذلهم»

حدَّق يعقوب بحقد الى يهوذا. في السابق لم يكن المعلم حتى يلتفت لينظر اليه، أما الآن، ما معنى هذه الصداقة والتهامس السري؟ «هناك أمر يدَبَّر بين الرجلين، ما رأيك يا متّى؟»

«لا أرى شيئاً. إنني أنصت الى كل ماتقولونه جميعاً وما تفعلونه، ثم أدوِّنه. هذا هو عملي»

ضغط يسوع على ذراع يهوذا، فقد شعر فجأة بدوار. فدعمه يهوذا، وسأله «أنت متعب يا معلم؟»

«نعم، متعب»

أجابه ذو اللحية الحمراء «فكِّر في الرب وستشعر بالانتعاش»

استعاد يسوع توازنه ثم التفت الى تلامذته، وقال «هيا، لنرحل»

لكن التلاميذ لم يبرحوا مكانهم. لا يريدون الرحيل. الى أين ؟ الى بيت عنيا من جديد؟ ثم الى متى؟ لقد سئموا هذا الانتقال المكوكي ذهاباً واياباً.

لفت نثائيل بهدوء انتباه أصدقائه بالقول «أعتقد انه يغيظنا. لن أتزحزح من مكاني!». قال هذا وتبع بقية التلاميذ الذين باشروا بالتحرك نكدين في طريق العودة الى بيت عنيا.

من خلفهم سمعوا اللاويين والفريسيين يقهقهون. وعمد لاويّ فتى، بشع المنظر مربوع الكتفين، الى قذف قشرة ليمونة، فأصابت بطرس اصابة مباشرة في وجهه.

«ضربة موفقة يا شاؤول ! لقد أصبتَ الهدف!»

همَّ بطرس بالاستدارة ليشبع اللاوي ضرباً، لكن اندراوس كبحه، وقال له «صبراً يا أخي، سيأتي دورنا»

دمدم بطرس «متى؟ اللعنة، متى يا اندراوس؟ ألا ترى الفوضى التي وقعنا فيها؟»

ساروا على الدرب، مذلِّين صامتين. وكان الحشد من خلفهم قد تفرق وهم يسبُّون . لم يعد أحد يتبعهم، لم يعد أحد يفرش ثوبه الرث للمعلم ليمشي عليه. بات فيلبّس الآن هو الذي يقود الأتان بينما أمسك نثنائيل من الخلف بالذيل. كان كلاهما تواق لاعادة الحيوان الى صاحبه حتى لا يقعا في المشاكل. كانت الشمس تلتهب؛ وهبَّ نسيم دافئ؛ وتصاعدت سحابة من الغبار وكادت تخنقهم. حين اقتربوا من بيت عنيا وجدوا أمامهم باراباس مع اثنين من أصحابه الهمجيين. بشاربيهما الضخمين.

صرخ «الى أين تأخذون معلمكم؟ الرحمة، انه خائف حتى الموت!»

أجاب رفيقا باراباس وقد انفجرا يقهقهان «انهم يأخذونه ليعيد أليعازر الى الحياة!»

حين وصلوا الى بيت عنيا ودخلوا الى المنزل وجدوا أن الحبر العجوز يلفظ أنفاسه الأخيرة . وكانت النسوة راكعات حوله، يراقبن رحيله بوجوم ودون أن تند عنهن أية حركة. كن يعرفن أن ليس بوسعهن أن يفعلن أي شيء ليعدنه الى الحياة. اقترب يسوع ووضع يده على جبين الرجل العجوز، فابتسم الحبر لكنه لم يفتح عينيه.

جلس التلاميذ القرفصاء في فناء الدار وهم يعانون من الاحساس بالمرارة. ولم يتكلموا .

أومأ يسوع الى يهوذا، وقال «يا يهوذا، يا أخي، لقد حانت الساعة. هل أنت مستعد؟»

«ها أنا أسألك مرة أخرى يا معلم : لماذا اخترتني؟»

«أنت تعرف أنك الأقوى . الآخرون لا طاقة لديهم على الاحتمال... هل تحدثت الى الكاهن الأعلى قيافا؟»

«نعم، يقول انه يريد أن يعرف متى وأين»

«قل له عشية عيد الفصح بعد تناول العشاء الفصحي، في جثسيماني. تشجع يا يهوذا، يا أخي. أنا أيضاً أحاول أن أستجمع شجاعتي»

هزَّ يهوذا رأسه ودون أن يقول شيئاً خرج الى الطريق لكي ينتظر طلوع القمر.

سألت سالومه العجوز ولديها «ماذا حدث في أورشليم؟ ماذا حصل معكم يجعل الوجوم يخيم عليكم؟»

أجابها يعقوب «أعتقد يا أماه أننا بنينا بيتنا على الرمال. لقد حصل الانهيار!» «والمعلم، وفخامته، وأثواب الحرير الموشاة بالذهب، والعروش؟ خدعكم اذن؟»

نظرت السيدة العجوز الى ولديها وضربت كفاً بكف، ولكن أياً منهما لم يعطها جواباً.

طلع القمر من خلف الجبال الموآبية، حزيناً وبدراً. توقف برهة متردداً بالقرب من قمم الجبال، يتأمل العالم، ومن ثم أخذ قراره فجأة وابتعد عن الذرى، وبدأ بالطلوع. فتوهَّجت خوذة اليعازر الداكنة ببياض براق، وكأنها طليت فجأة بماء الكلس.

عند الفجر تجمهر التلاميذ حول المعلم. لم يتكلموا بل راح ينقّل بصره من واحد الى آخر وكأنه يراهم للمرة الأولى، أو الأخيرة. وقرابة منتصف النهار فتح فمه وقال «يا أصدقائي، أود أن أحتفل بعيد الفصح المقدس معكم. ففي يوم كهذا رحل أسلافنا، خلَّفوا وراءهم أرض العبودية وولجوا حرية الصحراء. نحن أيضاً

خرجنا لأول مرة في عيد الفصح هذا، من عبودية الى أخرى وولجنا حرية أخرى. فليسمع كل من له أذنان!»

لم ينطق أحد منهم. هذه الكلمات مبهمة. ماهي العبودية الجديدة، وماهي الحرية الجديدة؟ لم يفهموا. وبعد قليل قال بطرس «ثمة شيء لا أفهمه يا معلم. ان عيد الفصح بلا حَمَل مستحيل. أين سنجد الحمل؟»

ابتسم يسوع بمرارة. قال «الحمل مستعد يا بطرس. في هذه اللحظة بالذات هو يتقدم من تلقاء ذاته الى ذابحه، حتى يتمكن فقراء العالم من الاحتفال بعيد الفصح الجديد. لذا، لا تقلق بشأن الحَمَل»

نهض اليعازر، الذي كان جالساً واجماً في الركن، واقفاً، ثم وضع يده الشبيهة بالهيكل العظمي على صدره وقال «يا معلم، أنا أدين لك بحياتي، وبالرغم من سوء أحوالها الا أنها تظل أفضل من ظلمة الجحيم. لذا سأحضر لكم حمل عيد الفصح هبة مني. ان لي صديقاً راعي غنم في الجبل. وداعاً، أنا ذاهب اليه»

نظر اليه التلاميذ وقد تولّتهم الدهشة. من أين لهذا الحي الميت بالقوة على النهوض والتحرك نحو الباب! اندفعت نحوه الأختان لتمنعاه من الخروج، لكنه دفعهما جانباً، وتناول عصاه ليتكئ عليها، واجتاز العتبة.

تقدم مباشرة خلال أزقة القرية. كانت الأبواب على طول الطريق تفتح، وتظهر منها النساء الفزعات، المندهشات، يتعجّبن من قدرة ساقيه المهزولين على السير، ومن عدم انكسار وسطه الرخو! وعلى الرغم من تألمه الا أنه شد عزمه وكان بين الحين والآخر يكافح ليصفر لكي يؤكد استعادته لحيوية شبابه. الا أن شفتيه لم تتضما تماماً. لذا تخلّى عن فكرة الصفير وبدأ، بسيماء جادة، يرتقي سفح الجبل، قاصداً زريبة غنم صديقه.

غير أنه ما إن صار على مرمى حجر من المكان حتى قفز أمامه باراباس خارجاً من بين أغصان وزال مزهرة. كم من الأيام أمضاها يتجول في القرية بانتظار هذه اللحظة، بانتظار اللعين الذي عاد الى الحياة حتى يخرج من منزله لكي يقتله؟ يجب أن يمنع الناس من رؤيته ومن تذكّر المعجزة. لابد أن ابن مريم قد جمع حوله، منذ أن أعاده الى الحياة؛ أتباعاً كُثُراً؛ لذا يجب أن يعود اليعازر الى القبر لكي يتخلص منه الى الأبد.

صرخ به «اللعنة عليك يا تارك الجحيم وما أسعدني بلقياك! قل لي، هل أمضيت وقتاً ممتعاً في الأسفل هناك، بجوار الرب! وأيهما أفضل، الحياة أم الموت؟»

أجابه اليعازر «أعطي ستة للأولى، ونصف دزينة للآخر»، وهمَّ بالمرور لكن باراباس مدَّ ذراعه وسد بها الطريق.

قال «اعذرني، يا عزيزي الشبح، لكن عيد الفصح قادم، وليس لدي حمل. وهذا الصباح أقسمت للرب بأنني بدل الحمل سأذبح أول كائن حي أصادفه على الطريق، لأحتفل بعيد الفصح. وشاء الحظ أن تكون أنت. مدّ عنقك. ستكون أضحيتي للرب»

أخذ اليعازر يصرخ، فقبض باراباس عليه من تفاحة آدم ولكن سرعان مااستولى عليه الذعر. فقد وجد أنه أمسك بشيء شديد النعومة، كملمس القطن، لا ـ بل أكثر نعومة، كالهواء. اخترقته أظافر أصابعه وخرجت ثانية دون أن تنزف منه قطرة واحدة من الدم. وقال في نفسه، لعله شبح، وازداد شحوب وجهه المملوء بندوب الجدري.

فسأله «ألا تتألم؟»

أجابه اليعازر، متملصاً من قبضة باراباس يبغي الفرار «لا».

زعق باراباس «قف!»، وقبض عليه هذه المرة من شعره. لكن

الشعر مع جلدة الرأس بقيا في يده. ولمعت الجمجمة تحت ضوء الشمس بلونها الأبيض المصفرّ.

غمغم باراباس وهو يرتجف «اللعنة عليك! اللعنة، أأنت شبح؟»، ثم قبض على ذراع اليعازر اليمنى وهزها بعنف «قل إنك شبح وسأتركك»

لكنه حين هز الذراع، انخلعت وبقيت في يده. تملكه الرعب فرمى بالذراع النخرة الى شجيرة الوزّال المجاورة وبصق تقززاً. كان رعبه شديداً حتى أن شعر رأسه انتصب حتى آخره. فقبض على خنجره يبغي القضاء عليه على عجل، والتخلص منه. ثم أمسك به بعناية من قفا رقبته وأسند حنجرته على حجر وأخذ يذبحه. حزّ وحزّ، لكن السكين لم يخترقه، وكأنه يحز حزمة من الصوف . برد الدم في عروق باراباس. وتساءل، أيعقل انني أذبح جثة ميت؟ وهمَّ بالانحدار أسفل التل هرباً لكنه رأى أن اليعازر مايزال يتحرك وخشي أن يجده صديقه اللعين فيعيده الى الحياة مرة أخرى. فتغلّب على خوفه وأمسك به من طرفيه، تماماً كما يفعل المرء حين يعصر ثوباً مبللاً قبل أن ينشره على حبل الغسيل، وعصره ثم نفضه بقوة. فتفككت فقراته وانفصل عند الوسط الى قطعتين، فأخفاهما باراباس داخل شجيرة الوزّال، ثم فرَّ هارباً. وراح يركض ويركض . انها المرة الأولى في حياته التي يصاب فيها بالذعر. ولم يجرؤ على النظر الى الخلف. وغمغم «آه، ليتني أصل الى أورشليم في الوقت المناسب لأرى يعقوب! سوف يعطيني تميمة تطرد عني الشيطان!»

في منزل اليعازر في تلك الأثناء كان يسوع يميل على تلامذته، يجاهد لينير عقولهم أكثر قليلاً حتى لا يخافوا مما هم مقدمون على مشاهدته فيشتّتهم.

قال لهم «أنا الطريق، والمنزل الذي يسعى اليه الانسان. وأنا أيضاً الدليل الذي يخرج المرء لملاقاته. عليكم جميعاً أن تؤمنوا بي. مهما ترون لا تخافوا، فأنا لا أموت، أتسمعون ـ أنا لا أموت»

ظل يهوذا وحده في الفناء . كان يحفر الحصى بطرف اصبع قدمه الكبير. وكثيراً ماكان يسوع يلتفت لينظر اليه، فتخيِّم على وجهه سحابة من الحزن الغامض.

قال يوحنا متذمراً «يا معلم لماذا تدعوه دائماً ليلازمك؟ إنك لو نظرت الى بؤبؤي عينيه فسترى سكيناً ماضياً»

أجابه يسوع «لا، يا يوحنا، أيها الحبيب، ليس سكيناً ـ بل صليباً»

تبادل التلاميذ نظرات محدقة، واضطرب حالهم.

هتف يوحنا، وهو يندفع الى صدريسوع «صليب! ومن الذي سيُصلب يا معلم؟»

«كل من يقترب من تينك العينين وينظر فيهما سيرى وجهه مرسوماً على الصليب. أنا نظرت، فرأيت وجهي»

لكن التلاميذ لم يفهموا . وضحك العديد منهم.

قال توما مازحاً «ماقلته لنا حسن يا معلم. أما أنا فلن أنظر في عينيّ ذي اللحية الحمراء مادمت حياً!»

قال يسوع «أولادك يا توما وأحفادك سينظرون»، وأرسل بصره عبر النافذة الى يهوذا، الواقف عندئذ على درجة الباب يحدق صوب أورشليم .

تذمر متّى قائلاً «كلماتك غامضة يا معلم. كيف تتوقع مني أن أسجلها في دفتري؟» وطوال ذلك الوقت كان ممسكاً بقلمه معلقاً في الهواء، غير قادر على فهم أي شيء أو على الكتابة.

أجابه يسوع بمرارة «أنا لا أتكلم لكي تدوّن ما أقول يا متّى.

أنتم الكتبة يسمونكم بالديكة عن حق: تظنون أن الشمس لن تشرق الا اذا صحتم. أود لو آخذ منك قلمك وأوراقك وأرمي بهم الى النار!»

وبسرعة جمع متّى كتاباته ونفر مبتعداً.

لكن غضب يسوع لم يخمد «انني أقول شيئاً، وأنت تكتب شيئاً آخر، والذين يقرأونك يفهمون بدورهم شيئاً آخر تماماً! أنا أقول صليب، موت، مملكة السماء، الرب... فماذا تفهمون؟ ان كُلاً منكم يقرن معاناته الخاصة، واهتماماته ورغباته بكل من هذه الكلمات المقدسة، فتتلاشى كلماتي، وتتبدد روحي. لم أعد قادراً على التحمل!»

نهض واقفاً، يكاد يختنق. وفجأة شعر وكأن عقله وقلبه مملوءان بالرمل.

انكمش التلاميذ خائفين، وكأن المعلم مايزال يمسك بمهماز الثور وينخسهم به، وكأنهم ثيران كسولة ترفض أن تتزحزح من أماكنها . كان العالم عربة وهم موثوقون اليها، ويسوع ينخسهم باستمرار، وهم يتململون تحت وطأة نيرهم دون أن يتزحزحوا من أماكنهم. تأملهم يسوع وشعر بأنه استنفد كل قواه معهم. ان الطريق الواصلة بين الأرض والسماء طويلة جداً، وهم لا يأتون بأي حركة.

صرخ بهم «الى متى ستتمسكون ببقائي معكم ؟ من يضمر سؤالاً خطيراً في نفسه، فليسرع ويطرحه عليّ. ومن لديه كلمة رقيقة يقولها لي، فليقلها بسرعة: سوف تريحني. قلها، حتى لا تلوم نفسك بعد رحيلي، لأنك لم تنتهز فرصة النطق بكلمة طيبة لي، ولأنك لم تدعني أعرف مدى حبك لي. عندئذ سيكون الأوان قد فات.»

أنصتت النسوة، وكن متكومات في أحد الأركان، وذقونهن

مقحمة بين ركبهن. وبين الفينة والفينة يتهدن. كن يفهمن كل شيء، لكنهن لم يقلن شيئاً. وفجأة أطلقت المجدلية صيحة. كانت أول من تكهَّن بالأمر وتفجَّرت في داخلها مناحة جنائزية . قفزت واقفة ودخلت الى الغرفة الداخلية . راحت تفتش تحت وسادتها حتى عثرت على قنينة زجاجية كانت قد أحضرتها معها. كانت مملوءة بطيب عربي وقد حصلت عليها من عاشق سابق مقابل قضاء ليلة معها. وكانت تحملها معها على الدوام أثناء سيرها مع يسوع، المسكينة، وتقول لنفسها : الرب عظيم، من يدري فقد يأتي يوم يتاح لي فيه أن يقف الى جواري كعريس. تلك هي الرغبات المكنوزة في صدرها؛ أما الآن فها هي ترى خلف جسد محبوبها الموت ـ ليس اله الحب، بل الموت. هو أيضاً، كالزواج، يحتاج الى الطيوب. أخرجت القنينة الزجاجية من تحت وسادتها. وضمتها الى صدرها وأخذت تبكي. شدَّتها الى صدرها وراحت تهدهدها كطفل وليد، بكت بهدوء، حتى لا يسمعها أحد. ثم مسحت عينيها، وخرجت وخرَّت عند قدمي يسوع. وقبل أن ينحني لينهضها كسرت القنينة فتضوَّعت قدماه المقدستان بعبق المُرّ. ثم فرشت شعرها، وهي تبكي، ومسحت به القدمين المعطرتين. وبما تبقَّى من الطيب غسلت رأس محبوبها. وللتو انهارت مرة أخرى على قدمي المعلم وأخذت تقبِّلهما.

ثار التلاميذ وغضبوا.

قال توما التاجر «عارٌ أن ندع كل هذا القدر من الطيب النفيس يذهب هباءاً. لو أننا بعناه لتمكَّنا من اطعام العديد من الفقراء»

وقال نثنائيل «ولتبرَّعنا لليتامى»

قال فيلبّس «ولاشترينا غنماً»

غمغم يوحنا متنهداً «إنه نذير شؤم. فبمثل هذا النوع من

الطيب تُضمَّخ جثث الأثرياء. ماكان يجب أن تفعلي هذا يا مريم. لو أن شارون شم رائحة عطره المفضل فسوف يأتي...»

ابتسم يسوع، وقال «ستجد الفقراء معك دائماً، ولكنك لن تتمكن من الاحتفاظ بي دائماً. لذا، لا يهم اذا أهدرت قنينة من الطيب اكراماً لي . هناك أوقات حتى الاسراف يرتقي فيها الى السماء، ويجلس الى جوار أخته النبالة الكريمة الأصل. فلا تحزن أنت، يا يوحنا، أيها الحبيب. الموت دائماً يأتي. فيستحسن أن يأتي والشعر مضمَّخ بالطيب»

أصبح المنزل يفوح بعبير جدث مرفَّه. ثم ظهر يهوذا ورمق المعلم بنظرة. أيمكن أن يكون قد أفضى بالسر للتلاميذ؟ هل كانوا يضمِّخون المحتضر بالمرّ الجنائزي؟

لكن يسوع ابتسم، وقال «يا يهوذا، يا أخي، ان سرعة طيران السنونو في الجو أكبر من سرعة الغزال على الأرض؛ وعقل الانسان يتحرك أسرع من السنونو، أما ماهو أسرع من عقل الانسان فقلب المرأة». قال هذا وأشار بعينيه الى المجدلية.

ثم تكلم يوحنا . قال «لقد تكلمنا كثيراً، لكننا نسينا أهم شيء. أين سنحتفل بعيد الفصح في أورشليم يا معلم؟ أقترحُ أن نذهب الى حانة سمعان القيرواني»

قال يسوع «لقد أعدَّ الرب الأمر بشكل مختلف. انهض يا بطرس. خذ يوحنا واذهبا الى أورشليم. ستقابلان هناك رجلاً يحمل ابريقاً على كتفه. اتبعاه . سيدخل الى منزل. ادخلا أنتما أيضاً وقولا لصاحب الدار «معلمنا يبعث اليك بتحياته ويسألك، أين تُمَدُّ الموائد حتى آتي وأتناول طعام عيد الفصح مع تلاميذي؟»، فيقول لكما «بلِّغا تحياتي لمعلمكما. إن كل شيء معدٌّ. ونحن نتطلع لرؤياه»»

حدق التلاميذ بعضهم في وجه بعض، وقد اتسعت عيونهم اعجاباً، كالأطفال.

قال بطرس جاحظ العينين «أأنت جاد يا معلم؟ كل شيء معدّ؟ الحمل، والسفافيد(١)، والنبيذ ـ وكل شيء؟»

أجابه يسوع «كل شيء. اذهبا. تمسَّكا بأهداب الايمان. إننا هنا جالسون نتحدث، أما الرب فلا يجلس ولا يتحدث. انه يعمل لصالح البشر»

في هذه اللحظة سمعوا صوت خرخرة من الزاوية الخلفية للمنزل. التفتوا جميعاً، فتملكهم شعور بالخجل. فخلال تلك الفترة كلها نسوا الحبر العجوز وهو ينازع آلام الاحتضار! هرعت المجدلية ومن خلفها ثلاث نساء أخريات، واقترب التلاميذ من السرير. ومرة أخرى وضع يسوع راحة يده على فم الرجل العجوز البارد كالثلج. فتح الآخر عينيه، فرآه وابتسم. ثم أبعد يده وأشار الى الرجال والنساء كي يغادروا المكان. وحين أصبحا وحدهما مال يسوع وقبَّل فمه، وعينيه، وجبينه. نظر العجوز الى عينيه، فتورَّد وجهه.

«رأيت الثلاثة مرة أخرى ـ ايليا وموسى وأنت. بتُّ متأكداً الآن... أنا راحل!»

«باركك الرب يا أبت. هل أنت مسرور؟»

«نعم. دعني أقبِّل يدك»

أمسك بيد يسوع وألصق شفتيه المثلجتين عليها لفترة طويلة، ثم نظر اليه نظرة ابتهاج، وكأنه يقول له، دون كلام، وداعاً. لكنه بعد برهة عاد يقول :

«متى ستأتي أنت أيضاً ـ الى هناك، فوق؟»

---

١ ـ السفافيد : جمع سفود : سيخ لشي اللحم.

«غداً، في عيد الفصح. عندئذ سأراك يا أبت!»

شبك الحبر العجوز يديه معاً، وغمغم «يا رب، حرِّر عبدك الآن. لقد رأتْ عيناي مخلّصي!»

الفصل الثامن والعشرون

كانت الشمس قد وصلت الى خط الأفق وتكاد تغرب، حمراء براقة. وفي الطرف المقابل من السماء كان قد انتشر وهج مزرق جهة الشرق. وسرعان ماطلع قمر الفصح، هائل الاتساع وصامتاً. وكانت أشعة الشمس الشاحبة ماتزال تدخل المنزل وتسقط مائلة على وجه يسوع النحيل، ووصلت حتى جبهات التلاميذ وأنوفهم، وأيديهم، وامتدت الى الركن وداعبت وجه الحبر العجوز الساكن، السعيد، المخلَّد الآن. وجلست مريم عند مغزلها، في ظل كامل فلم ير أحد الدموع التي تنحدر بهدوء على وجنتيها وذقنها لتسقط على الثوب نصف المنسوج. وكان المنزل مايزال يعبق بالطيب؛ وأصابع يسوع تقطر بقطرات من المُرّ.

وفجأة، بينما هم جالسون هكذا، ومع اقتراب الليل، بدأت قلوبهم يستولي عليها الحزن أكثر فأكثر، ثم انقضَّ طائر سنونو عبر النافذة كضربة سيف، ودار ثلاثاً فوق رؤوسهم، وزقزق بمرح، ثم يمم وجهه شطر الشمس وغادر المكان كالسهم المندفع. ولم يتح لهم الوقت الكافي لرؤية بطنه الأبيض وجناحيه المسننين.

وكأن تلك كانت الاشارة الغامضة التي كان ينتظرها يسوع، فنهض واقفاً. قال «لقد حان الوقت»

ألقى نظرة متريثة فيما حوله على موقد النار، وأدوات العمل، وأدوات المطبخ، والمصباح، وابريق الماء، والمغزل؛ ثم على النسوة الأربع ـ سالومه العجوز، ومرثا والمجدلية ومريم وهي تنسج؛ وأخيراً الرجل العجوز الشاحب الذي انتقل الى الحياة السرمدية.

قال، ملوحاً بيديه «وداعاً»

لم تستطع أي من النسوة الثلاث الأصغر سناً أن تجيبه. الا أن سالومه العجوز قالت «لا تنظر الينا هكذا يا ولدي. وكأنك تودعنا الى الأبد»

كرر يسوع القول «وداعاً»، ثم اقترب من النسوة ووضع راحة يده أولاً على شعر المجدلية، ثم على شعر مرثا. عندئذ نهضت الناسجة واقفة واقتربت. وطأطأت رأسها بدورها. شعرت وكأنه يباركهن ويعانقهن، وكأنه سيصحب الثلاثة معه ـ ليبقين معه دائماً. لكن الثلاثة معاً بدأن على الفور بترنيم لحن حزين.

خرجوا الى الفناء، وهناك تبعه التلاميذ. على وشيع الفناء، فوق البئر، أزهرت شجيرة صرعة الجدى، التي أخذت تنشر ضوعها الآن بعد هبوط الليل. مدَّ يسوع يده وقطف زهرة ووضعها بين أسنانه. ودعا في قلبه قائلاً، رب امنحني القوة، امنحني القوة لأحتفظ بهذه الزهرة الرقيقة بين أسناني خلال آلام الصلب العظيمة ولا أعضها.

توقف على عتبة الباب الخارجي مرة أخرى، ورفع يده وهتف بصوت عميق «وداعاً أيتها النسوة!»

لم يرد على تحيته أحد. وكان نواحهن يتردد صداه في أرجاء أرض الفناء.

سار يسوع في المقدمة، وانطلقت المجموعة على الطريق المؤدية الى أورشليم. طلع القمر بدءاً من خلف جبال موآب، وغربت الشمس خلف جبال يهودية. توقفت برهة دُرَّتا السماء العظيمتين وتبادلتا النظرات. ثم ارتفعت احداهن، وغاصت الأخرى.

أومأ يسوع الى يهوذا، فاقترب وسار الى جواره. لابد أن هناك أسراراً يتبادلانها، فقد كانا يتحدثان بصوت خافت. أحياناً كان يسوع يخفض رأسه، وتارة يهوذا؛ وكل منهما يزن كلماته بعناية قبل أن يجيب الآخر، وكأن كل كلمة هي قطعة ذهب.

قال يسوع «أنا آسف، يا يهوذا يا أخي، لكن الأمر ملحاح»

«لقد سبق وسألتك يا معلم ـ أما من سبيل آخر؟»

«لا، يا يهوذا يا أخي. أنا أيضاً كنت أتمنى وجود آخر؛ أنا أيضاً كنت آمل بوجود سبيل آخر. لقد حلت نهاية العالم. هذا العالم، مملكة الشيطان هذه، ستزول وتحل محلها مملكة السماء. وأنا سأجلبها. كيف؟ بموتي. ولا سبيل آخر. ولا تخف يا يهوذا يا أخي، فخلال ثلاثة أيام سأقوم من جديد»

«أنت تقول لي هذا لتواسيني ولتفسح لي المجال لخيانتك دون أن يمزق ذلك قلبي. تقول إن لدي طاقة على التحمل ـ تقول ذلك لتمنحني القوة. لا، كلما اقتربنا أكثر من اللحظة الرهيبة...لا، يا معلم، لا طاقة لي على التحمُّل!»

«بل ستتحمل يا يهوذا يا أخي. سوف يهبك الرب القدرة على ذلك، قدر ماينقصك، لأنها ضرورية ـ ضرورية لي لأتحمل قتلي وضرورية لك لتخونني. علينا نحن الاثنان أن نخلِّص العالم. فأعنِّي»

أطرق يهوذا، وبعد قليل سأله «إذا كان عليك أنت أن تخون معلمك، هل كنت تفعل؟»

تفكَّر يسوع وقتاً طويلاً. وأخيراً قال «لا، لا أعتقد أني كنت سأقدر. لهذا أشفق الرب عليّ وأسندَ اليَّ المهمة الأيسر : أن أُصلَب»

أمسك به يسوع من ذراعه وراح يكلمه بصوت خافت، ليقنعه «لا تتخل عني، ـ ساعدني. ألم تتحدث الى الكاهن الأكبر قيافا؟ أليس عبيد الهيكل الذين سيقبضون عليّ مستعدين ومسلحين؟ ألم يحدث كل شيء كما خططنا له يا يهوذا؟ فلنحتفل هذا المساء اذن بعيد الفصح كلنا معاً، ثم سأعطيك اشارة فتنهض وتذهب لتستدعيهم. أيام الحزن لن تستمر أكثر من ثلاثة أيام ؛ ستمر كلمح البرق، وفي اليوم الثالث سوف نبتهج ونرقص كلنا معاً ـ بعد قيامتي!»

سأله يهوذا، مشيراً بابهامه الى جمع التلاميذ خلفهما «هل سيعرف الآخرون بالأمر؟»

«سأخبرهم هذا المساء. لا أريدهم أن يُبدُوا أية مقاومة عندما سيأتي الجنود واللاويون للقبض عليّ»

زمَّ يهوذا شفتيه امتعاضاً. قال «يُبدون مقاومة! أين عثرت عليهم يا معلم؟ إن كل واحد منهم أسوأ من صاحبه»

أطرق يسوع ولم ينطق.

ارتفع القمر وفاض بضيائه على الأرض، يمسح على الحجارة، والأشجار، والناس. وامتدت على الأرض ظلال زرقاء قاتمة. كان التلاميذ في المؤخرة متكتِّلين معاً يتجاذبون أطراف الحديث ويتشاجرون. بعضهم كان يتلمَّظ بشفتيه لدى التطرُّق لذكر وليمة، والبعض الآخر يتحدث باهتمام عن كلمات يسوع النافذة، وجاء توما على ذكر الحبر العجوز المسكين «لقد مات وانتهى، والعُقبى لنا!»

قال نثنائيل مندهشاً «ماذا، هل سنموت نحن أيضاً. ألم نقل إن مآلنا هو الخلود؟»

قال بطرس شارحاً «صحيح، ولكن يبدو أن علينا أولاً أن نمر بالموت»

هزّ نثنائيل رأسه وتمتم «إننا نسلك طريقاً وعرة الى الخلود. علّم على كلامي سوف نجد جهنم مكاناً رهيباً جداً!»

هذه المرة كانت أورشليم تشمخ، بيضاء شفافة كشبح، أمامهم، يسربلها ضياء القمر. وبدت المنازل، تحت ضوء القمر، وكأنها منفصلة ومرتفعة عن الأرض. وشيئاً فشيئاً أخذوا يميزون بوضوح في قلب الليل جلبة مُركَّبة من أناس يرتلون المزامير وأصوات حيوانات تُذبح.

كان بطرس ويوحنا واقفين ينتظران عند البوابة الشرقية للحصن، فهرعا ووجهيهما يلمعان تحت تلألؤ القمر، لاستقبالهم تملأهم السعادة. قالا «كل شيء تم كما قلت يا معلم. الموائد مّدَّت، وطعام العشاء أُعِّد!»

أضاف يوحنا ضاحكاً «واذا كنت ستسأل عن رب البيت، فقد أعدَّ كل شيء ومن ثم اختفى»

ابتسم يسوع. قال «هذه هي الضيافة المثالية : أن يختفي المضيف»

خَفُّوا جميعاً خطاهم. وكانت الشوارع تحتشد بالناس، وبالمصابيح المضاءة وبنبات الآس. وكان مزمور عيد الفصح يتردد بابتهاج احتفالي من وراء كل باب مغلق:

عند خروج اسرائيل من مصر،
وبيت يعقوب من شعب أعجم
البحر رآه فهرب،
الأردن رجع الى خلف؛
الجبال قفزت مثل الكباش

والأكام مثل حملان الغنم،
مالكَ أيها البحر قد هربت،
ومالكَ أيها الأردن قد رجعت الى الخلف ؟
وما لكن أيتها الجبال قد قفزتن مثل الكباش،
وايتها التلال مثل حملان الغنم؟
أيتها الأرض تزلزلي من قدام الرب،
من قدام اله اسرائيل؛
المحول الصخرة الى غدران مياه
والصوان الى ينابيع مياه.[1]

أثناء متابعة التلاميذ سيرهم في الشوارع أخذوا بدورهم يشاركون في ترتيل مزمور عيد الفصح. سار بطرس ويوحنا في المقدمة ليقوداهم. وكانوا جميعاً، ماعدا يسوع ويهوذا، قد نسوا همومهم ومخاوفهم وغزّوا السير الى الموائد المنتظرة.

توقف بطرس ويوحنا عن السير، ودفعا باباً مفتوحاً عليه علامات أصابع طبعت بدماء حمل ذبيح، ودخلا. وتبعهما يسوع وموكب الجياع. عبروا الفناء الخارجي ثم ارتقوا درجاً حجرياً أوصلهم الى الطابق العلوي. كانت الموائد ممدودة، وثمة ثلاثة شمعدانات سباعية الفروع توزع ضياءها على الحمل، والخمر، والخبز الخالي من الخميرة، والمشهيات، وحتى على العصي التي يفترض أن يحملوها أثناء تناول الطعام، وكأنهم مهيأون للانطلاق في رحلة طويلة.

قال يسوع «نحن سعداء بلقياك!»، ورفع يده ليبارك المضيف اللامرئي.

---

١ ـ المزامير : رقم ١١٤.

ضحك التلاميذ، وقالوا «من الذي تُبارك يا معلم؟»
أجاب يسوع «إنه اللامرئي»، ورمقهم بنظرة قاسية.
ربط منشفة كبيرة حول خصره، وتناول ماءاً، ثم ركع فأخذ يغسل أقدام التلاميذ.
هتف بطرس «لن أدعك مطلقاً تغسل لي قدميَّ»
«يا بطرس، اذا لم أغسل لك قدميك، فلن ترافقني الى مملكة السماء»
«حسن، في هذه الحالة، يا معلم، إغسل ليس فقط قدميَّ بل يديَّ ورأسي أيضاً»
تحلَّقوا جلوساً حول الموائد. كانوا جياعاً جداً، لكن أحداً منهم لم يجرؤ على مد يده. لقد كان وجه المعلم عبوساً هذا المساء وشفتاه ترسمان تعبير مرارة شديدة. نقّل ناظريه من تلميذ الى آخر؛ نظر الى بطرس الجالس الى يمينه، والى يوحنا الى يساره - اليهم جميعاً؛ وقبالته، الى شريكه في المؤامرة، الرصين، غير المجامل، ذي اللحية الحمراء.
قال «بادئ ذي بدء، يجب أن نشرب الماء المالح، لنتذكر الدموع التي ذرفها آباؤنا في أرض العبودية»
وتناول ابريق الماء المالح وبدأ بملء كأس يهوذا حتى فاض، ثم صب مقدار بضع رشفات في كؤوس الآخرين، وأخيراً ملأ كأسه هو.
قال «فلنتذكر الدموع، والآلام والأسى الذي عاناه الناس في سبيل الحرية»، ثم جرع محتوى كأسه المترع دفعة واحدة.
شرب الآخرون بأفواه ملوية. ومثل يسوع شرب يهوذا كأسه دفعة واحدة، ثم عرضه على المعلم وقَلَبه رأساً على عقب. لم تبق فيه قطرة واحدة.

قال يسوع، مبتسماً «أنت محارب شجاع يا يهوذا، ويمكنك أن تتحمل أقسى مرارة» ثم تناول الخبز الخالي من الخميرة ووزّعه عليهم. بعد ذلك قدَّم لحم الحمل. مدَّ كل يده وتناول حصته من الأعشاب المرَّة التي يوصي الناموس بأكلها: المردقوش والغار والصعتر البري، ثم صُبَّت صلصة لحم حمراء فوق اللحم لذكرى القرميد الأحمر الذي كان أسلافهم يصنعونه خلال فترة أسرهم. عَجَّلوا في تناول الطعام، كما يوصي الناموس، ثم قبض كل منهم على عصاه ورفع احدى قدميه في الهواء استعداداً للانطلاق.

راقبهم يسوع وهم يأكلون، وهو نفسه لم يأكل. ثم أمسك بدوره عصاه ورفع قدمه اليمنى في الهواء استعداداً للقيام بالرحلة العظمى. لم يفه أحدهم بكلمة. الصوت الوحيد الذي سمع كان طرطقة الأسنان، ورنين كؤوس الخمر، والألسن وهي تلعق العظام. تسلل ضياء القمر اليهم من خلال كوة المنور من فوقهم، فأضيئت نصف الموائد بنور ساطع، وظل النصف الآخر غارقاً في ظلمة قرمزية.

بعد صمت عميق فتح يسوع فمه وقال «عيد الفصح، يا رفاقي الأوفياء على الدرب، هو ممر ـ ممر يؤدي من الظلام الى النور، من العبودية الى الحرية. أما عيد الفصح هذا الذي نحتفل به هذا المساء فيتجاوز هذا المعنى بكثير. فعيد الفصح هذا يعني المرور من الموت الى الحياة الأبدية. وأنا، يا رفاقي، أسير في المقدمة لأمهِّد لكم الدرب.»

أصابت الرجفة بطرس، فقال «يا معلم، ها أنت تتحدث مرة أخرى عن الموت، ومرة أخرى كلماتك لها حدَّان. ان كان ثمة كارثة ستحل بك، فتكلم بصراحة. نحن رجال»

قال يوحنا «هذا حق يا معلم، كلماتك أشد مرارة من الأعشاب المرة. إرفق بنا وحدثنا بوضوح»

تناول يسوع حصته من الخبز التي لم يكن قد مسَّها بعد ووزَّعها بحيث تكون حصة كل من تلاميذه مقدار لقمة واحدة.

قال «هذا جسدي، فكلوه»

وتناول أيضاً كأساً من الخمر، وكان مايزال مترعاً، ومرَّره من فم الى فم. فشربوا منه جميعاً.

قال «وهذا دمي، فاشربوه»

أكل كل من التلاميذ لقمته من الخبز وشرب رشفة الخمر. أحسوا بدوار، وكأن الخمر كان كثيفاً ومالحاً، كمذاق الدم؛ ونزلت لقمة الخبز كجمرة مشتعلة الى أحشائهم، وشعروا فجأة، وقد أصابهم الرعب، أن يسوع قد مدَّ جذوره فيهم وأخذ ينهش أمعاءهم. فأسند بطرس مرفقيه على المائدة وأخذ يبكي.

مال يوحنا على صدر يسوع وأخذ يهمس له مراراً وتكراراً «تريد أن ترحل يا معلم، تريد أن ترحل... أن ترحل...»، دون أن يتمكن من النطق بأي شيء آخر.

صرخ اندراوس «لن تذهب الى أي مكان! قبل أيام قلت لنا «من ليس معه خنجر فليبع رداءه ويشتري بثمنه واحداً!». سوف نبيع ملابسنا، ونتسلح، وبعد ذلك فليأت شارون - إن جرؤ - ويلمسك!»

قال يسوع دون تذمر «كلكم ستتخلون عني. كلكم»

هتف بطرس وهو يمسح دموعه «لن أفعل أبداً!»

«بطرس، يا بطرس، قبل أن يصيح الديك، ستنكرني ثلاث مرات»

زعق بطرس، وهو يضرب على صدره بقبضتيه «أنا؟ أنا؟ أنا أنكرك؟ إنني معك حتى الموت!»

قفز كل التلاميذ في نشوة وقالوا متأوهين «حتى الموت!»

قال يسوع بهدوء «اجلسوا. لم تحن الساعة بعد. في عيد

الفصح هذا لدي سر عظيم أفضي به اليكم. افتحوا أذهانكم، وقلوبكم، ولا تدعوا الخوف يتسلل اليكم!»

غمغم يوحنا، وقلبه يرتعش كقصبة في وجه الريح «تكلم، يا معلم»

«هل أكلتم؟ ألم تعودوا جائعين؟ هل امتلأت البطن؟ هل ستسمح أخيراً لأرواحكم بالانصات باطمئنان؟»

تعلقت أنظارهم جميعاً بشفتي يسوع، وهم يرتجفون.

هتف بهم يسوع «أيها الرفاق الأحباب، الوداع ! فأنا راحل!»

شهق التلاميذ وصرخوا، وارتمى بعضهم عليه وأمسك به لكي لا يغادر. وكثير منهم بكوا. لكن يسوع التفت بهدوء الى متّى.

قال «يا متّى، أنت تحفظ الكتاب المقدس غيباً إنهض وأسمعهم بصوت جهور كلمات النبي اشعيا لتثبّت قلوبهم. أنت تذكر قوله : «نبت قدّامه كفرخ وكعرق من أرض يابسة...»

فرح متّى وقفز واقفاً على قدميه. كان محني الكتفين، قصير الساقين، جاف العود، وأصابعه الطويلة النحيلة ملطّخة بالسواد على الدوام؛ ولكن فجأة، ما أغرب استقامة قامته! تضرَّجت وجنتاه بالاحمرار، وانتفخ عنقه، وتردد صدى كلمات النبي في أرجاء العلّية العالية السقف، ملؤها المرارة والقوة:

«نبتَ قدأمه كفرخٍ وكعرقٍ من أرض يابسة.
لا صورة له ولا جمال فتنظر اليه، ولا منظر فتشتهيه ؛
محتقرُ ومخذولُ من الناس،
رجل أوجاع ومختبرَ الحزن.
وكَمُستّرٍ عنه وجوهنا محتقر فلم نعتد به.
لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحمّلها،
ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً.

وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا
تأديب سلامنا عليه وبجبُرِه شفينا...
ظُلِمَ اما هو فتذلّل ولم يفتح فاه،
كشاةٍ تساق الى الذبح...»[1]

قال يسوع، متنهداً «يكفي هذا»

ثم التفت الى أصحابه، وقال بهدوء «انه أنا من تكلم عنه النبي اشعيا: أنا الشاة التي سيقت الى الذبح، ولن أفتح فمي». وبعد فترة صمت، تابع «إنهم يسوقونني الى الذبح منذ يوم مولدي»

حدق اليه التلاميذ المذهولون بأفواه فاغرة، يجاهدون كي يفهموا ماقاله لهم، وفجأة، اذا بهم جميعاً يخفون وجوههم على الموائد ويرفعون عقيرتهم بالنواح.

حتى يسوع رق قلبه برهة من الوقت. كيف يمكنه أن يتخلى عن هؤلاء الأصحاب النائحين ورفع بصره ونظر الى يهوذا. لكن عينيّ هذا الأخير القاسيتين الزرقاوين كانتا مثبّتتين على يسوع منذ وقت طويل. لقد خمَّن ماكان يدور في دخيلة المعلم وعرف كم هو سهل على المحبة أن تشل قواه، تلاقت النظرتان وتصارعتا في الهواء لجزء من الثانية، واحدة صارمة لا ترحم، والأخرى متضرعة مكلومة. وبعد جزء من الثانية فقط هز يسوع رأسه مباشرة وبقوة، وابتسم يهوذا بمرارة، وعاد يلتفت نحو التلاميذ.

سألهم «لماذا تبكون ؟ لمَ تخشون ملاك الموت؟ إنه أرحم ملائكة الرب، وأشدهم حباً للانسان. من الضروري أن أستشهد وأُصلَب وأن أهبط الى الجحيم. لكني بعد ثلاثة أيام سأخرج من القبر، وأرتقي نحو السماء لأجلس الى جوار أبي»

---

١ ـ سفر اشعيا: اصحاح ٥٣.

هتف يوحنا، وهو يبكي «أتغادرنا من جديد؟ خذنا معك الى الجحيم والى السماء يا معلم!»

«مهمتكم على الأرض أيضاً ثقيلة أيها الحبيب يوحنا. يجب أن تبقوا جميعاً على تراب الأرض، وأن تعملوا. كافحوا، هنا على الأرض؛ أحبوا، وانتظروا ـ وسوف أعود!»

كان يعقوب قد تآلف مع فكرة موت المعلم وأخذ يفكر بما سيفعلونه بعد أن يظلوا على الأرض بدونه.

«لا يمكننا أن نعارض ارادة الرب وارادة معلمنا. وكما يقول الأنبياء، أيها المعلم، من واجبك أن تموت، ومن واجبنا أن نعيش : نعيش حتى لا تندثر الكلمات التي تقولها. سوف نثبّتها بقوة على شكل كتاب مقدس جديد، وسوف نقيم نواميس، ونبني كنائسنا الخاصة نختار كبار كهنتنا وكتبتنا وفريسينا الخاصين بنا»

ارتعد يسوع لهذا القول، فهتف «أنت تصلب الروح يا يعقوب.لا، لا، لا أريد هذا!»

أجابه يعقوب «هذه هي الطريقة الوحيدة التي نمنع بها الروح من التحول الى أثير والهرب»

«لكنها لن تعود حرة بعدئذ، لن تكون روحاً!»

«لا يهم. سوف تبدو كروح. وهذا يكفي يا معلم بالنسبة لعملنا»

تصبب يسوع عرقاً بارداً، وألقى نظرة سريعة على تلامذته. لم يرفع أحد منهم رأسه ليعترض، بل إن بطرس نظر الى ابن زبدى باعجاب. انه يتمتع بعقل خلاق: لقد أخذ عن أبيه، الريان، كل صفاته اللامعة، والآن كما ترى ـ أوشك أن ينظم كل شيء نيابة عن المعلم ذاته...

رفع يسوع يديه بحركة يائسة، وكأنه يطلب العون «سوف أرسل لكم الروح القدس، روح الحق، وهو الذي سيهدي خطاكم»

هتف يوحنا «أسرع بارسال الروح القدس حتى لا نضل ونضيّعك ثانية، يا معلم!»

هز يعقوب رأسه القاسي العنيد، وقال «هي أيضاً ـ روح الحق هذه التي تتحدث عنها ـ هي أيضاً سوف تُصلب. يجب أن تعلم يا معلم أن الروح ستُصلب طالما وُجد البشر. ولكن لا يهم، فدائماً يتبقى شيء. وأؤكد لكم أن هذا يكفينا»

هتف يسوع يائساً «لكنه لا يكفيني!»

اضطرب حال يعقوب حين سمع هذه الصرخة الزاخرة بالألم، فاقترب من المعلم وأمسك بيده. قال «نعم، يا معلم، انه لا يكفيك. لهذا سوف تصلب. اغفر لي معارضتي لك»

وضع يسوع يده على الرأس العنيد، وقال «إن كانت هذه هي ارادة الرب، فلتُصلب الروح الى الأبد على هذه الأرض، وليُبارك الصلب! فلنتحمَّله بمحبة، وصبر وايمان. ويوماً ما سيتحول الى أجنحة على أكتافنا»

لم ينبس أحد بكلمة. كان القمر قد وصل الى كبد السماء، وانتشر ضياء جنائزي على الموائد. وشبك يسوع يديه.

قال «لقد أنجز عمل يوم كامل. أديت ماعليَّ، وقلتُ مالدي. أعتقد أنني قمت بواجبي. وها أنا أشبك يديّ»

أومأ برأسه قبالته الى يهوذا، فقام وشدَّ حزامه الجلدي وقبض على عصاه المعقوفة، ولوَّح له يسوع بيده، وكأنه يودعه.

قال «هذا المساء سنصلي تحت شجر الزيتون في الجثسمانية، بعد وادي قدرون. إرحل أنت يا يهوذا يا أخي ـ مع بركة الرب. الرب معك!»

باعد يهوذا مابين شفتيه، أراد أن يقول شيئاً، لكنه غيَّر رأيه. ثم فتح الباب واندفع الى الخارج. وكان وطء قدميه الكبيرتين يسمع ثقيلاً وهو ينزل الدرج الحجري.

انتـــاب القلق بطرس، فـــســــأل «الى أين هـو ذاهب؟»، وهـمَّ بالنهوض ليلحق به، لكن يسوع منعه.

«لقد بدأ دولاب الرب بالدوران يا بطرس، فلا تقف في طريقه»

هبَّ النسيم، وخفق لهب الأفرع السبعة للشمعدان. وفجأة هبَّت نفخة شديدة من الريح فانطفأت الشموع، وغمر نور القمر الغرفة بأكملها.

ارتعب نثنائيل فمال على صديقه، وقال «هذه ليست الريح يا فيلبّس. لقد دخل أحدهم. آه يا ربي! أتظن إنه شارون؟»

أجـابه رعي الغنم «ومـا همَّك إن كـان هو! إنه لا يبـحث عنا نحن»، وصفع ظهر صديقه، الذي لم يكن قد استعاد توازنه بعد.

قـال «سفن كبـيرة، عـواصف عـاتيـة. شكراً للرب لأننا مجـرد قوارب تجذيف وقشور جوز»

كان القمر قد احتل وجه يسوع والتهمه. لم يبق منه غير عينين فاحمتي السواد. ارتعد يوحنا، فمد يده خلسة الى وجه المعلم ليرى إن كان مايزال موجوداً، وغمغم «أين أنت يا معلم؟»

أجابه يسوع «لم أرحل بعد يا يوحنا الحبيب. لقد غبتُ برهة لأنني كنت أفكر في أمرٍ قاله لي زاهد فوق جبل الكرمل المقدس : «كنتُ غارقاً في أحواض جسدي الخمسة، كخنزير»»

«فقلت له «وكيف تخلصتَ منها ياجدي؟ هل كافحتَ كثيراً؟»»

«أجـابني «لا أبداً، فـذات صـبـاح شـاهدتُ شـجـرة لوز مـزهـرة وأُنقذتُ»...»

«شـجـرة لوز مـزهرة، يا يوحنا الحبيب : هـكذا ظهـر لي الموت الآن للحظة»

ونهض واقـفـاً. قـال «هيـا بنـا، لقـد حـان الوقت»، وسـار في المقدمة، يتبعه التلاميذ غارقين في تفكير عميق.

همس نثنائيل لصديقه «فلنرحل. أشم رائحة مشاكل»

أجاب فيلبّس «خطر ببالي الشيء نفسه، ولكن لنأخذ معنا أيضاً توما»

وراحا يبحثان على ضوء القمر عن توما، لكنه كان قد اختفى في الأزقة. وظلا وحدهما في المؤخرة. وحالما وصلت المجموعة الى وادي قدرون تركا الآخرين يسبقوهما ومن ثم فرّا ناجين بحياتهما.

هبط يسوع الى وادي قدرون مع الباقين، ثم ارتقى السفح المقابل واتخذ الدرب المؤدي الى كرم زيتون الجثسمانية. كم من مرة جلس يقظاً طوال الليل تحت أشجار الزيتون العتيقة تلك وتحدث عن رحمة الرب وعن خطايا البشر!

توقفوا عن المسير، فقد كان التلاميذ قد أكثروا من الأكل والشرب هذا المساء وغلبهم النوم. مهّدوا الأرض بابعاد الحصى بأقدامهم، ثم استعدوا للاضطجاع.

قال المعلم، وهو يبحث فيما حوله «ثلاثة منا مفقودون. ماذا حدث لهم؟»

قال اندراوس بغضب «رحلوا»

ابتسم يسوع، وقال «لا تدينهم يا اندراوس. سوف ترى : ذات يوم سيعودون ثلاثتهم، يتوّج رأس كل منهم اكليل من الشوك، وهي أجلّ الأكاليل ـ ولا تذبل!». وبعد أن قال هذا اتكأ على شجرة زيتون، لأنه شعر فجأة بتعب شديد.

وكان التلاميذ قد تمددوا لتوهم. وجدوا حجارة جعلوا منها وسائد وتمددوا بارتياح. ابتعد يسوع عن الشجرة، وقال بطرس متثائباً «تعال يا معلم وتمدد معنا. اندراوس سيحرس المكان»

ابتعد يسوع عن الشجرة وقال «بطرس، ويعقوب، ويوحنا، تعالوا معي!». وكانت نبرة صوته حزينة وآمرة.

تظاهر بطرس بعدم السماع، فتمدد على الأرض وتثاءب من جديد، لكن ابنيّ زبدى أمسكاه من يديه وأنهضاه.

قالا «هيا بنا، ألا تخجل؟»

اقترب بطرس من أخيه، وقال «من يدري ماذا سيحدث يا اندراوس. اعطني خنجرك»

سار يسوع في المقدمة، وخلّفوا أشجار الزيتون وراءهم ووصلوا الى الأرض المفتوحة. لمعت أمامهم أورشليم، التي يخلع عليها ضوء القمر ثوباً أبيض. وكانت السماء من فوقهم لبنيَّة، خالية من النجوم، والقمر البدر، الذي كانوا قد شاهدوه في وقت مبكر يطلع مسرعاً، أصبح الآن معلقاً ساكناً في كبد السماء.

غمغم يسوع «أبي، أبي الذي في السماء، أبي الذي على الأرض: العالم الذي خلقته جميل، ونحن نراه؛ وجميل أيضاً العالم الذي لا نراه. لا أدري - اغفر لي - لا أدري يا أبي، أيهما الأجمل»

انحنى، وأخذ حفنة من التربة وشمَّها. فغاص عبقها عميقاً الى أحشائه. لابد أن ثمة شجرة فستق في مكان قريب، والأرض تفوح برائحة الراتنج والعسل. فرك التربة على خده، وعنقه، وشفتيه، وتمتم «أي عطر، أي دفء، أية أخوة!»

أخذ يبكي وهو يقبض على التربة بكفِّه، كارهاً أن يفارقها قط. وغمغم «معاً، معاً سنموت يا أختاه. لا رفيق آخر لدي»

توقف بطرس طويلاً، وقال «أنا مرهق. الى أين يأخذنا؟ لن أتقدم أكثر من هذا، وسوف أتمدد هنا بالذات»

ولكن بينما هو يبحث فيما حوله عن تجويف مريح يتمدد فيه، رأى يسوع يتقدم منه بخطى وئيدة، فاستعاد على الفور قواه وهرع قبل الآخرين لملاقاته.

قال «كاد ينتصف الليل يا معلم، وهذا مكان مناسب لننام فيه»

قال يسوع «يا أبنائي، نفسي حزينة جداً حتى الموت. عودوا أنتم واضطجعوا تحت الأشجار وسأمكث أنا هنا في العراءٍ لأصليّ. ولكن أرجوكم، لا تغفوا. اسهروا معي هذه الليلة وصلّوا معي. ساعدوني، يا أبنائي، ساعدوني على تمضية هذه الساعة العصيبة»

والتفت نحو أورشليم، وقال «اذهبوا الآن. دعوني وحدي»

ابتعد التلاميذ مسافة مرمى حجر وتمددوا تحت أشجار الزيتون. لكن يسوع انهار على الأرض، وألصق وجهه بالتربة. إن عقله، وقلبه وشفتيه لا يقوون على الانفصال عن الأرض ـ لقد أصبحوا هم الأرض.

غمغم «أبي، أنا هنا بأحسن حال : غبار مع غبار. دعني وشأني. مُرَّة، مُرَّة كالحنظل، الكأس التي أعطيتنيها لأجرعها. لا طاقة لي على احتمالها. فإنْ أمكن، يا أبت، أبعدها عن شفتيّ»

لزم الصمت، وأخذ ينصت. لعله يسمع صوت الآب في قلب الظلمة. أغمض عينيه. من يدري ـ الرب طيب، فقد يظهر الآب في داخله ويبتسم له بحب ويومئ له برأسه محيياً. وراح ينتظر وينتظر، ويرتجف. لم يسمع شيئاً، ولم ير شيئاً. ولأنه وحده تلفّت حوله وقد انتابه الخوف، ثم قفز منتصباً وذهب ليلقي رفاقه ليثبّت قلبه، فألفى الثلاثة جميعاً نائمين. فلكز بطرس بقدمه، ثم يوحنا، ثم يعقوب.

وقال لهم بمرارة «ألا تخجلون من أنفسكم؟ ألا تصبرون وقتاً قصيراً لتصلّوا معي؟»

فقال بطرس، وهو لا يقوى على فتح جفنيه «يا معلم، الروح مستعدة ومتلهفة لكن اللحم ضعيف. فاغفر لنا»

عاد يسوع الى الأرض المنفتحة وخرَّ على ركبتيه على الصخور، وعاد يهتف «يا أبي، مُرَّة، مُرَّة كالحنظل الكأس التي أعطيتنيها. أبعدها عن شفتيّ»

بينما كان يتكلم شاهد فوقه على ضوء القمر ملاكاً، صارم الملامح وشاحباً، يهبط. جناحاه من القمر ويحمل بين راحتيه كأساً فضية. فغطى يسوع وجهه بيديه وانهار على الأرض.

«أهذا هو ردُّكَ، يا أبي؟ ألا ترحمني؟»

انتظر بعض الوقت، ثم بدأ قليلاً قليلاً يباعد مابين أصابعه وهو يرتعد ليرى إن كان الملاك مايزال فوقه. فوجد أن الزائر السماوي قد هبط أكثر، ثم لامست الكأسُ شفتيه، فزعق ومد ذراعيه وانطرح على الأرض.

حين أفاق كان القمر قد تحرك مسافة عرض اليد عن ذروة السماء، وكان الملاك قد ذاب في ضياء القمر. وعلى البعد، على الدرب المؤدي الى أورشليم، شاهد أضواء متفرقة تتحرك ـ كان واضحاً أنها مشاعل. أتراها قادمة نحوه؟ أم هي تبتعد عنه؟ ومرة أخرى غلبه الاحساس بالخوف ـ اشتاق لرؤية بشر، ليسمع صوتاً بشرياً، أن يلمس يدين يحبهما. فترك مكانه مسرعاً ليلحق بأصدقائه الثلاثة.

كان الثلاثة قد عادوا الى النوم، ووجوههم الهادئة مغمورة بفيض من ضوء القمر. كان يوحنا يستخدم كتفيّ يعقوب وسادة له، كذا فعل بطرس بصدر يعقوب. وأسند يعقوب رأسه ذا الشعر الأسود الى حجر. وكانت ذراعاه، ممدودتين واسعاً وكأنه يحتضن السماوات وأسنانه اللامعة تومض من خلال شاربه ولحيته الفاحمي السواد. لابد أنه ينعم برؤية أحلام ممتعة، لأنه كان يبتسم. أشفق يسوع عليهم وأحجم هذه المرة عن لكزهم لايقاظهم. ومشى على أطراف أصابع قدميه، عائداً الى مكانه. ومرة أخرى انطرح على وجهه وأخذ يجهش بالبكاء.

قال، بصوت خفيض جداً وكأنه لا يريد للرب أن يسمعه «أبي، أبي، لتكن مشيئتك. ليس مشيئتي يا أبت ـ بل مشيئتك»

ثم نهض ونظر مرة أخرى جهة الطريق المؤدية الى أورشليم. كانت الأضواء قد اقتربت، وبات يرى بوضوح الظلال المرتعشة المنتشرة حولها ووميض الأسلحة البرونزية.

غمغم «إنهم قادمون... قادمون...»، ولم تعد ركبتاه تقويان على حمله. وفي تلك اللحظة بالذات ظهر عندليب وجثم داخل شجرة سرو غضة صغيرة قبالته. ثم نفخ صدره ورفع عقيرته بالغناء، وقد أثمله القمر الهائل الحجم، وعبق الأطياب الربيعية، والليل الرطب الدافئ. ان الرب الكليّ القدرة يكمن داخله، الرب ذاته الذي خلق السماء، والأرض وأرواح البشر. رفع يسوع رأسه وأرهف سمعه. أيمكن أن يكون هذا الرب الذي أحب التربة، والعناقات الممتعة والصدور الصغيرة للطيور أن يكون حقاً الرب الحقيقي للبشر؟ وفجأة، وكردٍّ على دعوة الطائر، قفز عندليب آخر من أعماق روحه وبدأ يصدح بترنيمة الآلام والأفراح السرمدية : الرب، الحب، والأمل...

الطائر غرّد، ويسوع ارتجف. لم يكن مدركاً لوجود مثل هذه الثروة داخله، ولا لكل هذه المسرات والخطايا الخفية الممتعة. وازدهرت أحشاؤه، وعلق العندليب بالأغصان المزهرة ولم يتمكن، بل لم يرغب، بالافلات منها قط. الى أين يذهب؟ ولِمَ يرحل؟ هذه الأرض هي الفردوس... ولكن بينما يسوع يلج الفردوس، متتبعاً الغناء المزدوج، دون أن يفقد جسده، سمع أصواتاً خشنة، واقتربت منه أضواء المشاعل ودروع برونزية، ووسط الوهج والدخان خيِّل اليه أنه لمح يهوذا، بذراعيه القويين تقبضان عليه واللحية الحمراء وهي تخز وجهه. زعق ثم فقد وعيه لحظة - أو هكذا خيِّل اليه - ولكن بعد أن شعر بفم يهوذا ذي الأنفاس الثقيلة يلصق فمه على فمه وسمع صوتاً أجشاً يائساً يقول «مرحباً يا معلم!»

كان القمر قد أوشك أن يلمس جبال اليهودية الزرقاء المائلة للبياض. وهبت ريح رطبة تجمّد الأطراف حتى ازرقت أطراف أصابع يسوع وشفتيه. وشمخت أورشليم عمياء يعلوها شحوب الموت تحت ضوء القمر.

التفت يسوع ونظر الى الجنود اللاويين. قال «أهلاً بكم عند رسل الرب. هيا بنا!»

فجأة، وسط الضجيج، لمح بطرس يستل خنجره ليقطع به أذن أحد اللاويين.

فأمره قائلاً «أعد خنجرك الى قرابه. إذا واجهنا الخنجر بالخنجر، فمتى سيتحرر العالم من القتل؟»

الفصل التاسع والعشرون

ألقوا القبض على يسوع، وأخذوا يجرونه، وهم يصرخون به هازئين، فوق الصخور، وبين أكمات السرو وأشجار الزيتون، نزولاً الى وادي قدرون، دخولاً الى أورشليم وأخيراً الى قصر قيافا، حيث يلتئم المجمع الكنسي بانتظار اصدار حكمه على المتمرد.

كان الجو بارداً ، والخدم يتدفأون أمام نيران أشعلوها في الفناء . وكان اللاويون يغدون من الداخل باستمرار حاملين التقارير. لقد كان دليل ادانة يسوع كاف لجعل شعر الرأس ينتصب: فهذا الذي نزلت عليه اللعنة الإلاهية قد تلفظ بالتجديفات كذا وكيت في حق رب اسرائيل، وكذا وكيت في حق ناموس اسرائيل، وقال انه سيدمر الهيكل المقدس ويبذره بالملح!

تسلل بطرس متدثراً بملابس ثقيلة، الى الفناء. قعد خافضاً رأسه أمام النار ليتدفأ ويستمع وهو يرتجف الى التقارير.

مرت خادمة بجواره ، وحين رأته توقفت، وقالت «هيه، أيها العجوز، لماذا تختبئ منا؟ ارفع رأسك حتى نراك. أظن أنك كنت معه»

سمع العديد من اللاويين كلامها فاقتربوا.

انتاب الخوف بطرس، فرفع رأسه، وقال «أقسم بأني لا أعرفه!»، وانسحب باتجاه الباب.

ثم مرت به خادمة أخرى ، ورأته وهو يحاول الابتعاد، فاعترضته بيدها، وقالت«هيه ، أيها العجوز، الى أين أنت ذاهب؟ أنت كنت معه. لقد رأيتك!»

صاح بطرس مرة ثانية «أنا لا أعرف الرجل»، ونحَّى الفتاة عن طريقه، وتابع سيره. ولكن عند الباب أوقفه لاويَّان، وأمسكا به من كتفيه وهزَّاه بعنف.

صرخا «لكنتُك تفضحك. أنت جليلي ، وأحد التلاميذ!»

أخذ بطرس يسب ويلعن، وصرخ «أنا لا أعرف الرجل!»

في تلك اللحظة صاح ديك الفناء، فأطلق بطرس أنيناً عالياً، وتذكر كلمات المعلم حين قال «بطرس، يا بطرس، قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، سوف تنكرني ثلاث مرات». فخرج الى الطريق، وسقط منهاراً على الأرض وانفجر في نوبة بكاء.

بدأ النهار ينبلج ، وقد تحول لون السماء أحمر دموياً.

اندفع لاويّ شاحب البشرة خارجاً بسرعة من القصر صاخباً «الكاهن الأعلى يمزق ملابسه. ماذا تظنون المجرم قال لتوه؟ قال «أنا المسيح، ابن الرب!»، فانتفض كبار القوم جميعاً، وأخذوا يمزقون ملابسهم ويصرخون «الموت! الموت!»»

ثم ظهر لاويّ آخر، وقال «الآن ينوون أن يقبضوا عليه ويقودوه الى بيلاطس، فهو الوحيد الذي يحق له أن يقتله. افسحوا لهم الطريق ليمروا. الأبواب تُفتَح!»

فُتِحَت الأبواب وخرج منها نبلاء بني اسرائيل. خرج أولاً وبخطى وئيدة، الكاهن الأعلى قيافا بأناقته المفرطة، ومن خلفه

كبار القوم ـ بلحيهم الكثة، وعيونهم الخبيثة المشوهة، وأفواههم الدرداء وألسنتهم الشريرة. كانوا جميعاً يترنحون من شدة الغضب، وينفثون . ومن ورائهم خرج يسوع، هادئاً وحزيناً، وقد هرب الدم من رأسه، لأنهم كانوا قد ضربوه.

ضج الفناء بصيحات الاستهزاء ، والضحك وصب اللعنات. انتفض بطرس واتكأ على عضادة الباب الخارجي، وعيناه تفيضان بالدمع، وغمغم قائلاً «يا بطرس، يا بطرس، أيها الجبان، الكذاب، الخائن! انهض واصرخ «أنا معه!» حتى ولو قتلوك»، وأسدى النصيحة الى روحه، أثارها لكن جسمه اتكأ، لا يبدي حراكاً، على عمود الباب وهو يرتجف. تعثّر يسوع وترنح عند اجتيازه عتبة القصر، وحين مدَّ يده ليتمسك بشيء ما وقعت على كتف بطرس.

تحوَّل الآخر الى تمثال من الرخام ولم ينبس بكلمة، ولم يأت بأي حركة، شعر بيد المعلم تنغرز فيه ، وتمنعه من الافلات. لم يكن ضوء النهار قد ساد تماماً، ولم يستدر يسوع ليرى وسط الظلمة المائلة للزرقة بماذا تشبث ليتجنب السقوط. استعاد توازنه وواصل مسيره ـ خلف كبار القوم ومحاطاً بالجنود ـ نحو برج القصر.

كان بيلاطس قد استيقظ من نومه، واغتسل، ومسح نفسه بزيت رومانطيقي الرائحة، ثم أخذ يمشي بعصبية جيئة وذهاباً في المشمس العالي في برجه. كان يكره يوم الفصح هذا، ففيه يسكر اليهود مع ربهم، وتصيبهم حالة من الهذيان، ويتشاجرون مع الجنود الرومان ـ وقد تقع مجزرة أخرى هذا العام، وهو أمر لا تحبذه روما. وفي عيد الفصح هذا لديه هم اضافي . فالعبرانيون يريدون صلب الناصري المجنون بأي ثمن... يا للسلالة المخزية!

شدَّ بيلاطس على قبضته. كانت تتملكه رغبة عنيدة بانقاذ هذا الأحمق، ليس لأنه بريء (بريء: مامعنى هذا؟)، ولا لأنه يشفق

عليه (الويل له! إن كان سيبدأ عندئذ بالشفقة على اليهود)، وانما لكي يثير حنق سلالة العبرانيين المخزية.

سمع بيلاطس جلبة عظيمة تدور تحت نوافذ البرج. أطل الى الخارج فرأى أن فناء قصره قد امتلأ باليهود. ورأى أيضاً الحشود المسعورة التي فاضت بها أروقة الهيكل ومدرجاته، وقد تدافعت مسلحة بالعصي والمقاليع ترفس يسوع وتصيح هازئة به. وكان الجنود الرومان يحرسونه وهم يشقون طريقهم نحو باب البرج الضخم.

ولج بيلاطس الى الداخل وتربع على عرشه المنحوت بفظاظة. ثم فتح الباب، ودفع الزنجيان الضخمان يسوع الى الداخل. كانت ملابسه أسمال بالية ووجهه ملطخاً بالدماء، لكنه كان يرفع رأسه عالياً، يلمع في عينيه وميض هادئ، نائياً عن البشر كافة.

ابتسم بيلاطس، وقال «ها أنت تمثل أمامي مرة أخرى يا يسوع الناصري، يا ملك اليهود. يبدو أنهم يريدون أن يقتلوك»

حدق يسوع عبر النافذة الى السماء. كان عقله وجسده قد انفصلا لتوهما. ولم يتكلم.

غضب بيلاطس، فصرخ «دعك من السماء، وانظر اليَّ! ألا تعلم أن بيدي أن أطلق سراحك أو أصلبك؟»

أجاب يسوع بهدوء «ليس لك أي سلطة عليَّ، لا سلطة لأحد الا للرب»

وفي الأسفل ، ضج المكان بالصراخ الهستيري «الموت! الموت!»

سأله بيلاطس «لماذا هم مسعورون هكذا؟ ماذا فعلت لهم؟»

أجاب يسوع «لقد أظهرت لهم الحق»

ابتسم بيلاطس «أي حق؟ مامعنى الحق؟»

انقبض قلب يسوع أسى. هذا هو العالم، وهؤلاء هم حكام العالم. يسألون ماهو الحق، ويضحكون.

وقف بيلاطس مواجهاً النافذة. وتذكر أنهم بالأمس القريب قبضوا على باراباس بتهمة قتل اليعازر ، وقد جرت العادة أن يطلق سراح أحد السجناء في عيد الفصح.

فهتف بهم «من تريدون أن أطلق لكم ، يسوع ملك اليهود أم باراباس قاطع الطريق؟»

فصرخ الناس «باراباس! باراباس!»

نادى بيلاطس على الحراس وأشار الى يسوع وقال آمراً «اجلدوه، وتوّجوه باكليل من الشوك، ولفّعوه بثوب قرمزي واعطوه قصبة طويلة ليحملها كصولجان. إنه ملك ـ فليلبس كملك!»

كان قد تعمّد أن يعرضه على الناس بهذه الصورة المزرية، آملاً أن يثير في قلوبهم الشفقة.

أمسك به الحراس، وربطوه الى عمود وأخذوا يسوطونه ويبصقون عليه. ثم ضفروا له اكليلاً من الشوك وأقحموه على رأسه. فانبجس الدم من جبينه وصدغيه. ورموا بثوب قرمزي اللون على ظهره، ووضعوا قصبة طويلة بين أصابعه، ثم أعادوه الى بيلاطس حين رآه القائد الروماني ، لم يتمالك نفسه من الضحك.

قال «أهلاً بجلالته! تعال، دعني أعرضك على رعاياك»

وقاده من يده حتى وصلا الى الدكة.

هتف «هذا هو رجلكم!»

فأخذ الناس يجأرون «اصلبه ! اصلبه!»

أمر بيلاطس باحضار طست وابريق من الماء، ثم مال وغسل يديه أمام الحشود الغفيرة، وقال إنني أغسل يديّ وأنظفهما من الأمر. لست أنا من أمر بسفك دمه، انني بريء منه. فليقع الاثم عليكم!»

زعق الناس «دمه على رؤوسنا ورؤوس أولادنا!»

قال بيلاطس «خذوه، كفاني ازعاجاً!»

قبضوا عليه، وألقوا بالصليب على ظهره، وبصقوا عليه، وضربوه، ورفسوه ليحث خطاه الى الجلجلة. كان الصليب ثقيلاً، وكان ينظر فيما حوله مترنحاً، لعله يجد أحد تلامذته فيومئ اليه كي يشفق عليه. بحث وبحث. لا أحد. وزفر تنهيدة.

تمتم : «بورك الموت. المجد للرب!»

في تلك الأثناء كان التلاميذ قد اختبأوا في حانة سمعان القيرواني، ينتظرون عملية الصلب وهبوط الليل ليتمكنوا من الفرار خفية . جلسوا القرفصاء خلف البراميل، وأخذوا ينصتون مرهفين أسماعهم لمرور الجماهير السعيدة من الشارع. فقد كان أهل المدينة برمتهم ـ رجالاً ونساءاً ـ قد بدأوا يهرعون الى الجلجلة. لقد استمتع الناس بقضاء عيد فصح رائع، وأكلوا أكثر من حاجاتهم من اللحم ، وشربوا فوق طاقتهم من الخمر، والآن هاهي عملية الصلب جاءت ليزجوا بمشاهدتها وقتهم.

هرع الناس، وأنصت التلاميذ الى ضجيج الشارع وهم يرتجفون خوفاً. وكان يسمع بين الحين والآخر بكاء يوحنا المكبوت. أحياناً كان اندراوس ينهض ويأخذ بالتمشي في أرجاء الحانة وهو يهدد ويتوعد. ولعن بطرس نفسه وعنّفها لأنه جبان ولا يتحلى بالشجاعة الكافية لجعله يهرع الى الخارج ليُقتَل جنباً الى جنب مع المعلم. كم من مرة أقسم له قائلاً «معك يا معلم حتى الموت!»، والآن وقد ظهر شبح الموت، هاهو يختبئ خلف البراميل.

استعر يعقوب غضباً. قال «كفاك بكاءً يا يوحنا ـ أنت رجل . وأنت، أيها الشهم اندراوس، لا تبرم شاربك. اجلسوا، اجلسوا جميعاً لنتخذ قراراً. لنفرض انه حقاً المسيح، بأي وجه سنقابله اذا بُعث بعد ثلاثة أيام؟ ألم يخطر هذا ببالكم قط؟ ماقولك يا بطرس؟»

أجاب بطرس يائساً «إن كان هو المسيح، فقد هلكنا - هذا رأيي. كما سبق وقلت لكم، لقد أنكرّته ثلاث مرات»

قال يعقوب «ولكن حتى لو لم يكن هو المسيح، سنهلك أيضاً. ماقولك يا نثائيل؟»

«أنا أقول إن عليكم أن تخرجوا من هنا. وسواء كان هو المسيح أم لا، فنحن هالكون»

قال اندراوس، وقد همَّ بالاندفاع نحو الباب «ونتركه هكذا، دون حماية؟ كيف تطاوعكم قلوبكم؟»

لكن بطرس شده من طرف ردائه، وقال له «اجلس أيها البائس قبل أن أقطعك الى الف قطعة! ولنبحث عن حل آخر»

هسّ توما قائلاً «منافقون وفريسيون! عن أي حل تتحدثون؟ فلنتصارح دون خجل: نحن عقدنا صفقة تجارية، وخسرنا رأس مالنا كله. نعم: انه عمل! لماذا هذه النظرة الحاقدة اليّ - هذا مافعلناه، عقدنا صفقة صغيرة. أنتم تعطوني وأنا أعطيكم. أنا أعطيتكم سلعي - أمشاط، بكرات خيطان، مرايا للجيب - مقابل مملكة السماء. كلكم فعل الشيء نفسه. واحد أعطى قاربه، وآخر غنمه، وثالث راحة باله. والآن أصبحت القضية كلها أثراً بعد عين. لقد أفلسنا؛ ذهب رأس مالنا أدراج الرياح. انتبهوا والا فقدنا أرواحنا في هذه الصفقة. أي نصيحة يمكن أن أعطيها بعد ذلك؟ انقذوا أنفسكم مادامت الفرصة سانحة!»

صرخ فيلبّس ونثائيل معاً «موافق! انقذوا أنفسكم مادامت الفرصة سانحة!»

التفت بطرس بقلق نحو متّى، الذي كان منزوياً جانباً، ينصت بأذن مرهفة، دون أن يفوه بكلمة. قال بطرس «اكراماً للرب يا متّى، لا تدوِّن كل هذا! كأنك لم تسمع. لا تجعلنا مثار سخرية الأبدية جمعاء!»

أجابه «لا تقلق، أنا أعرف ماذا أفعل. انني أرى وأسمع الكثير، لكني أنتقي... الا أني سأقول كلمة لصالحكم : اتخذوا قراراً نبيلاً، بيِّنوا مقدار شجاعتكم - حتى أكتب عنها ، وتحظون أنتم أيها المساكين بالمجد. أنتم رسل، وهذا شيء لا يستهان به!»

في تلك اللحظة فتح سمعان القيرواني باب الحانة بسرعة ودخل. كانت ملابسه ممزقة ، ووجهه وصدره ملطخين بالدم، وعينه اليمنى متورمة تنزف. طرح عنه مابقي عليه من أسمال بالية وهو يلعن ويدمدم، ثم غمس رأسه في الحوض الذي اعتاد أن ينظف فيه كؤوس الخمر، وتناول منشفة وجفف بها صدره وظهره، وكان طوال الوقت يدمدم ويبصق . بعد ذلك، وضع فمه على صنبور البرميل وراح يشرب. وحين سمع حركة البراميل مال فوقها. ولما رأى التلاميذ الرابضين متكومين، جن جنونه.

أخذ يزعق فيهم «اغربوا عن وجهي أيها الكلاب القذرة! باه! أهكذا تلازمون رئيسكم! بتهرُّبكم من المعركة، هه! أيها الجليليون القذرون، السامريون القذرون، أولاد الحرام القذرون!»

غامر بطرس بالقول «يعلم الرب أن أرواحنا كانت راغبة في ذلك، لكن أجسادنا -»

«اخرسوا، أيها الثرثارون! باه! حين تريد الروح فلا سلطة للجسد. تصبح الروح هي كل شيء، حتى الهراوة التي في أيديكم، والمعطف الملقى على أكتافكم، والحجارة التي تدوسونها - كل شيء، كل شيء! انظروا أيها الجبناء، انظروا اليَّ : مضروب، ملابسي أسمال ممزقة، مُقلتا عينيّ تكادان تسقطان من رأسي. لماذا؟ - ليأخذكم الشيطان أيها التلاميذ القذرون! - لأني، اللعنة، دافعتُ عن معلمكم. قاتلت الناس جميعاً - أنا، أنا، صاحب الحان، القيرواني القذر! ولماذا فعلت هذا؟ الأنني أؤمن بأنه المسيح المنتظر

ولأنه غداً سيجعل شأني عظيماً هاماً ؟ البتة، لا، مطلقاً. وانما لأن احترامي اللعين لذاتي يتملكني، وأنا أيضاً لست نادماً على ذلك!»

أخذ يتمشى في المكان ذهاباً واياباً، يتعثر بالمقاعد ، ويبصق، ويصب لعناته. وكان متّى في أشد حالات القلق، يريد أن يعرف ماذا حدث في قصر قيافا، وماذا حدث في قصر بيلاطس، وماذا قال المعلم، وبماذا هتف الناس، حتى يتمكن من تسجيل كل شيء في دفتره.

قال «اذا كنتَ تؤمن بالرب يا سمعان، يا أخي، فاهدأ واحكِ لنا ماحدث: كيف، ومتى وأين، وما إذا تكلم المعلم»

أجابه سمعان «لقد تكلم حتماً! «لعنة الجحيم عليكم أيها التلاميذ!» هذا ماقاله . حسن ـ اكتب! لماذا تحملق بي؟ تناول قلمك واكتب : «لعنة الجحيم عليكم!»»

وتصاعد النحيب من وراء البراميل . كان يوحنا يتدحرج على الأرض ويصرخ فزعاً، وبطرس يضرب برأسه على الجدار.

عاد متّى يتضرع اليه قائلاً «إن كنتَ تؤمن بالرب يا سمعان، قل الحقيقة حتى أدونها . ألا تفهم أن مستقبل العالم كله في هذه اللحظة متوقف على ماتقوله ؟»

كان بطرس مايزال يخبط رأسه على الحائط.

قال له صاحب الحان «اللعنة، لا تيأس يا بطرس، سأقول لك ما يمكنك أن تفعله كي تفوز بالمجد الأبدي. اسمع ، بعد قليل سيقودونه من هنا ـ إنني أسمع جلبتهم منذ الآن. انهض، كن رجلاً وافتح الباب، اذهب واحمل عنه الصليب على كتفيك. اللعنة، كم هو ثقيل، وربك شديد الرقة، ومرهق»

دفع بطرس بقدمه وهو يضحك، وقال «أتفعل؟ أريد أن أرى فعلاً، هنا والآن!»

قـال بطـرس وهـو يئن «سـأفـعل، أقـسـم لك ، إذا لم يكـن هناك حشـد كبير، لأنهم سيفرمونني»

استـعـر صـاحب الحـان غـضبـاً وبصق، وصـرخ «الى الجـحـيم ـ كلكم! ألن يقـوم أحـد منكم بذلك؟ ألا تفـعل أنت يا نثـائيـل يا عـود البـقـول؟ وأنت، يا اندراوس أيها السـفـاح؟ أمـا من أحـد، لا أحـد؟ تفـووه! الى الجـحـيم كلكم! آه، يا عـزيزي المسـيح المسكين، مـا أرفع الأفكار التي انتقيتها لتعيننا على قهر العالم! كنت فعلت خيراً لو أنك اخترتني أنا ـ أنا! لعلني أستحق الشنق أو رفع رأسي فوق وتد، لكني في كل الأحوال أتمتع بشيء من احترام الذات، وحين يتمتع المرء باحتـرام ذاته لا يهم عندئذ ان كان سكيراً، أو لصاً أو كـاذباً: فهو يظل رجلاً. واذا لم تكن تحترم ذاتك، فقد تكون حمامة بريئة. ولكن تفووه! أنتم لا تساوون رقعة حذاء بائسة!»

بصق ثانية، ثم فتح الباب ووقف على العتبة، وهو ينفث.

كان الشارع قد امتلأ بالناس، رجال ونساء يركضون، ويهتفون «انه قادم! ملك اليهود قادم. بوو! بوو!»

عـاد التلاميذ ينزوون خلف البراميل. وسمعان يدور كالدوامة، ويقول «باه! ألا تحترمون أنفسكم؟ لا تريدون أن تخرجوا لتروه هه؟ ألا تريدون حتى أن تمنحوه عـزاء القـاء نظرة على تلاميذه؟ حسن اذن: أنا سأخرج ، سوف ألوِّح له، سأقول له «هذا أنا، أنا، سمعان القيرواني ـ موجود!»

وبقفزة واحدة أصبح في الشارع.

مـرت الحشـود، أمـواجاً تتوافد. في المقدمة سار الفرسان الرومان، وخلفهم جاء يسوع حاملاً صليبه. كان ملطخاً كله بالدماء، وملابسه مهلهلة ممزقة، ولم تعد فيه طاقة على السير، ووجهه يميل أكثر فأكثر الى الأمام؛ وكان يتعثر في خطاه باستمرار،

ويوشك أن يقع، وهم يعملون باستمرار على نصب قامته ورفسه ليتقدم. وفي المؤخرة هرع العرج، والعميان ، والمشوهون، يحدوهم السخط منه لأنه لم يشفهم. صبوا عليه لعناتهم وكالوا له الضربات بعكازاتهم وعصيهم. وكان هو يتلفت على الدوام فيما حوله. ألن يظهر أحد من رفاقه الأحبة؟ ماذا ألمَّ بهم؟

حين وصل بالقرب من الحانة التفت فرأى صاحب الحان يلوح له بيده . ابتهج قلبه ، وهمَّ بالايماء له برأسه مودعاً لكنه تعثر بحجر وانهار على الأرض ، وسقط الصليب عن ظهره، فأخذ يئن ألماً .

اندفع القيرواني بسرعة، فأنهضه ثم رفع الصليب وحمله على ظهره هو. والتفت الى يسوع وابتسم. قال له «تشجَّع . أنا معك؛ لا تخف»

انطلقوا من بوابة داوود وأخذوا يرتقون السفح المؤدي الى قمة الجلجلة - الجلجلة: كومة من الحجارة والأشواك والعظام. هنا صلب المتمردون، وتركت بقاياهم طعاماً للصقور. وكان الهواء يفوح بنتانة الجثث.

حطَّ القيرواني الصليب. وبدأ جنديان بالحفر وطمروه بين الصخور. جلس يسوع على حجر وأخذ ينتظر. الشمس معلقة عالياً فوقه؛ والسماوات بيضاء، تتلظى - موصدة. لا يصدر عنها لسان لهب واحد، أو ملاك، ولا حتى اشارة صغيرة تدل على أن ثمة هناك فوق من يراقب الأحداث الجارية على الأرض... وبينما هو جالس ينتظر، يفتت كتلة صغيرة من التراب بين أصابعه، شعر بشخص يمثل أمامه، يحدق اليه. فرفع رأسه ببطء، دون عجلة، فرآها وتعرَّف عليها .

غمغم «أهلاً بك، يا رفيقة الدرب المخلصة. هاهنا تنتهي الرحلة. وهاقد أنجز ما أردته، وما أردته أنا أيضاً أُنجز. طوال

حياتي وأنا أكدح لأحوِّل اللعنة الأبدية الى تبريك. وقد فعلت، وأصبحنا الآن أصدقاء. وداعاً، أيتها الأم الكبرى!» ولوَّح بيده بوهن للشبح المتوحش.

قبض عليه جنديان من كتفيه ، وصرخا به «انهض، يا صاحب الجلالة. تربع على عرشك!»

خلعا عنه أسماله، وكاشفين عن جسده النحيل، الملطخ بالدماء.

كان الحر شديداً ، ووقف الناس وقد ملّوا من كثرة الصراخ حتى بحَّت أصواتهم، يراقبون بصمت تام.

اقترح أحد الجنود، قال «فلنسقِه خمراً حتى يستعيد قواه»

أبعد يسوع الكأس عنه ومدَّ ذراعيه نحو الصليب ، وغمغم «فلتكن مشيئتك ، يا أبي!»

هنا أخذ العميان ، والمجذومون والمشوهون يزأرون «كذاب! غشاش! مضلِّل الناس!»

وزعق الصعاليك «أين مملكة السماء، أين الأفران المملوءة بأرغفة الخبز؟» وأمطروه بوابل من قشور الليمون ومن الحجارة.

فتح يسوع ذراعيه واسعاً وفتح فمه يبغي أن يهتف يا اخوتي! لكن الجنود أمسكوا به ورفعوه الى الصليب. ثم نادوا على الغجر ليحضروا المسامير ، ولكن ما إن ارتفعت المطارق وسُمعت أول طرقة حتى غاب وجه الشمس ، وبعد سماع الطرقة الثانية اكفهرت السماء وأظلمت وظهرت النجوم : لم تكن نجوماً ، بل قطرات كبيرة من الدموع انهمرت على الأرض.

غمر الخوف الجماهير ، واشتد صياح الأحصنة التي يمتطيها الرومان، وراحت تثب وتقفز مسعورة وتدوس اليهود. ومن ثم فجأة لفَّ الأرض والسماء والهواء صمت تام، كما يحدث عادة قبل وقوع زلزال.

انبطح سمعان القيرواني على الحجارة، واهتز العالم عدة مرات تحت قدميه، وتملكه الرعب، وتمتم «يا ويلي! الآن ستنشق الأرض وتبتلعنا جميعاً»

رفع رأسه وتلفّت فيما حوله، فبدا له وكأن العالم قد أُغمي عليه يعلوه شحوب الموت، وأصبح الآن بالكاد مرئياً وسط الظلمة المشوبة بالزرقة، واختفت رؤوس الناس ولم تبق هناك غير عيونهم - كثقوب سوداء - محفورة في الهواء. وهبَّ سرب حاشد من الغربان كان قد اشتم رائحة الدم فاندفع نحو الجلجلة، انتفض هارباً من الرعب. وندَّ عن الصليب لهاث شكوى ضعيف. رفع القيرواني عينيه ونظر، وهو يشد على قلبه حتى لا ينفجر باكياً. وفجأة أفلتت منه صرخة. لم يكن الغجر هم الذين يسمِّرون يسوع على الصليب! لا ، بل حشد من الملائكة هبط من السماء، حاملاً بأيديه مطارق ومسامير. كانت ترفرف حول يسوع ، تنهال بالمطارق بحبور وتسمِّر اليدين والقدمين؛ بعضها كان يشد جسد الضحية بقوة بحبل ثخين حتى لا يقع، وحمل ملاك صغير بخدين متوردين وخصلات شعر ذهبية رمحاً وغرزه في قلب يسوع.

غمغم القيرواني وهو يرتجف «ماهذا؟ انه الرب ذاته، الرب ذاته يصلبه!»

بعد ذلك - ولم يكن القيرواني قد خَبر قط مثل ذاك الخوف الشديد أو الألم - شقَّت الفضاء، من الأرض الى السماء، صرخة عظيمة، تفتت الأكباد ملؤها الشكوى:

«إيلي... إيلي...»

وعجز المتألم عن المتابعة. أراد أن يفعل لكنه لم يقدر : لم يعد في صدره أنفاس.

تدلّى رأس المصلوب - وغاب عن الوعي.

الفصل الثلاثون

رفَّت رموش عينيه فرحاً ودهشة. إنه ليس صليباً؛ بل شجرة ضخمة تمتد من الأرض الى السماء. لقد حل الربيع؛ الأزهار تغطي الشجرة برمتها؛ وعلى نهاية طرف كل غصن جلس عصفور على الشفا يغرد... أما هو ـ هو وقف منتصب القامة، متكئاً بكامل جسمه على الشجرة المزهرة. رفع رأسه وأخذ يعدّ : واحد ، اثنان، ثلاثة...

غمغم «ثلاثة وثلاثون، بعدد سني عمري. ثلاثة وثلاثون عصفوراً، وكلها تغرد»

اتسعت عيناه، تجاوزتا حدودهما، غطتا مساحة كامل وجهه. ودون أن يلتفت استطاع أن يرى العالم مزهراً في كل اتجاه. واستقبلت أذناه، الشبيهتين بصدفتين متمعّجتين، التجديفات ، وبكاء العالم وصخبه، وحولتاها الى غناء. وتدفق الدم من قلبه الذي خرقه رمح.

لم تكن هناك ريح، لكن الشجرة الرحيمة أخذت تنفض عنها الأزهار ، واحدة بعد أخرى، فوق شعره المشتبك بالشوك وعلى يديه

المدمّاتين . وبينما هو يصارع وسط هدير الزقزقة ليتذكر من يكون وأين هو، دوّم الهواء فجأة، وتكثّف، واذا بملاك يظهر أمامه ... وفي تلك اللحظة ، انبلج النهار.

كان قد شاهد ملائكة عديدة، في منامه كما في يقظته، ولكن لم ير مثيلاً لهذا الملاك. يا لجماله الانساني الدافئ، ويا لنعومة الزغب الجعد على وجنتيه وفوق شفته العليا! والعينان - كيف تعبثان مرحاً، ملؤهما العنفوان، كعيني شاب صغير عاشق أو صبية عاشقة. جسمه لدن وقوي، ويغطي ساقيه زغب أسود مائل للزرقة مزعج، ومن القصبتين وحتى الفخذين المستديرين، ويفوح من تحت ابطيه رائحة عرق انساني محبَّب.

ارتبك يسوع، وسأله، وقلبه يضرب بقوة «من أنت؟»

ابتسم الملاك، وغمرت وجهه كله حلاوة، كوجه انسان، وطوى جناحيه الأخضرين الكبيرين وكأنه لا يريد أن يبث الخوف في قلب يسوع أكثر من ذلك.

أجابه «أنا مثلك تماماً، ملاكك الحارس. فكن مؤمناً»

كان صوته عميقاً، مداعباً، رؤوفاً ومألوفاً - تماماً كصوت انساني. وكانت أصوات الملائكة التي سمعها حتى ذلك الحين قاسية. وكانت دائماً توبخه. نظر، وقد ملأه الحبور، الى الملاك متوسلاً بانتظار أن يقول المزيد.

تكهّن الملاك بما يريده ونزل مبتسماً عند رغبة الانسان. قال :

«أرسلني الرب لأعيد العذوبة الى شفتيك. لقد سقاك البشر الكثير من المرارة، وكذا فعلت السماوات. وقد تألمت كثيراً وصارعت. وطوال حياتك لم تشهد يوم سعادة واحداً. أمك، أخوتك، تلاميذك ، الفقراء، والمشوهون، والمضطهدون - كلهم، كلهم تخلوا عنك في لحظتك الأخيرة الرهيبة. بقيت وحدك فوق صخرة

الظلام، وحيداً تماماً وأعزل. فأشفق الرب الآب عليك، فنادى عليّ قائلاً «هيه، يا هذا، لم أنت جالس؟ ألستَ ملاكةُ الحارس؟ اهبط اذن وانقذه. لا أريده أن يُصلَب. يكفي عند هذا الحد»»

«فأجبته، وأنا أرتجف «يا رب الجيوش، ألم ترسله الى الأرض لكي يُصلَب ليخلِّص البشرية؟ لهذا تراني جالساً مطمئناً : حسبتُ أن تلك هي مشيئتك»

«أجابني الرب «فليُصلب في الحلم، فليذق الخوف نفسه، والألم نفسه»»

هتف يسوع، وهو يمسك برأس الملاك بكلتا يديه حتى لا يفلت منه «يا ملاكي الحارس، يا ملاكي الحارس، انني محتار ـ ألم أصُلَب؟»

وضع الملاك يده الناصعة البياض على قلب يسوع المضطرب ليسكِّن من غلوائه، ثم قال له، وعيناه الفاتنتان ترفرفان «إهدأ، ولا تضطرب، أيها الحبيب. لا، أنت لم تصلب»

«أكان الصليب، إذن ، حلماً ـ والمسامير، والألم، والشمس التي أظلمت؟»

«نعم، هو حلم. لقد عشتَ آلامك كلها في حلم. ارتقيت الصليب وسمِّرتِ عليه في حلم. والجروح الخمسة التي في يديك، وقدميك وقلبك أُصبتَ بها في حلم، ولكن بقوة عظيمة الى حد ـ انظر ! الدماء مازالت تجري»

راح يسوع يحدق فيما حوله في نشوة . أين هو؟ ماهذا السهل بأشجاره المزهرة ومياهه الوافرة؟ وأورشليم؟ وروحه؟ ثم التفت الى الملاك ولمس ذراعه. ما أبرد جسمه، وما أقواه!

قال «أيها الملاك الحارس، كلامك يخفف آلام جسدي، ويحوِّل الصليب الى شبح صليب، والمسامير الى أشباح مسامير، ويطفو الصليب والمصلوب في السماء فوقي، كسحابة»

قال الملاك «هيا بنا»، وأخذ يسير برشاقة وخطى واسعة فوق المرج المزهر. «ثمة أفراح عظيمة بانتظارك يا يسوع الناصري. لقد أعطاني الرب مطلق الحرية في أن أسمح لك بتذوُّق كل المتع التي كنتَ تتوق اليها سراً، أيها الحبيب، ان الأرض طيبة، وسترى. الخمر والضحك، ومذاق شفتي امرأة، وقفز طفلك الأول مرحاً على ركبتيك ـ كل هذا طيب. اننا معشر الملائكة كثيراً ما نطل، ونحن هناك فوق في السماء، لنلقي نظرة على الأرض (أتصدق؟) ـ ونتنهد حسرةً»

رفرف بجناحيه الكبيرين الأخضرين وعانق يسوع. قال «استدر، وانظر خلفك»

استدار يسوع ـ فماذا رأى؟ رأى عن بُعد عالياً تلة الناصرة تلمع تحت أشعة الشمس الطالعة، وبوابات الحصن مفتوحة، وحشوداً تعدادها بالآلاف ـ كلهم من علية الرجال والنساء ـ يخرجون منها، مرتدين ثياباً من الذهب ويمتطون جياداً بيضاء ـ وقد رُفعت رايات ترفرف في الهواء من الحرير الأبيض كالثلج موشّاة برسوم أزهار السوسن بخيوط من ذهب. واصل الموكب مسيره نزولاً بين الجبال المرصعة بالأزاهير، مروراً بقلاع فخيمة، وخوضاً في أنهار، متعرجاً بينها، معانقاً سفوح التلال. وسمع ضجيجاً مركَّباً من الضحك، وأحاديث تدور بأصوات عالية، ومن خلف أجمات كثيفة من الأشجار، تأوهات عذبة.

قال يسوع، مرتبكاً «أيها الملاك الحارس، ماهذا الحشد من النبلاء؟ من هؤلاء الملوك والملكات؟ الى أين هم ذاهبون؟»

أجابه الملاك مبتسماً «إنه موكب زواج ملكي . إنهم ذاهبون لحضور حفل الزفاف»

«من الذي سيتزوج؟»

أجابه «أنت. هذه أول متعة أقدمها لك»

ارتفع الدم الى رأس يسوع، وحدس فجأة من ستكون العروس، فشعر بنشوة جسدية، ومن ثم بات ملهوفاً. قال «هيا بنا»

وعلى الفور شعر انه هو أيضاً يمتطي ظهر حصان أبيض مطهَّم بالذهب سرجاً ولجاماً. ونظر الى نفسه . كانت ريشة زرقاء ترفرف فوق قمة رأسه ، ورداؤه الرث المرقع بألف رقعة أصبح كله من المخمل والذهب.

سأله «أهذه، يا بني، هي مملكة السماء التي أعلنتها للملأ؟»

أجابه الملاك ، ضاحكاً «لا، لا، بل هذه الأرض»

«كيف تغيَّرتْ الى هذا الحد؟»

«هي لم تتغير ، أنت تغيرت. في وقت سابق كان قلبك يرفض الأرض؛ كان يتصرف عكس ارادتها. والآن أصبح يريدها ـ وهذا هو حل السر كله. انه التناغم مابين الأرض والقلب، يا يسوع الناصري: هذه هي مملكة السماء... ولكن لِمَ نُضيِّع وقتنا بالكلام؟ تعال، فالعروس تنتظر»

هنا امتطى الملاك حصاناً أبيض، وانطلقا معاً . مخلفاً وراءه الجبال التي يتردد في جنباتها صهيل موكب الفرسان الملكي يتقدم نزولاً . وازداد ضحك النساء. وكانت الطيور المرفرفة في الجو تحث كل شيء للاتجاه جنوباً ، وتغرد قائلة «إنه قادم، إنه قادم، إنه قادم!»

قلب يسوع أيضاً كان عصفوراً ، جاثماً فوق قمة رأسه ويزقزق «أنا قادم، أنا قادم، أنا قادم!»

ولكن بينما كان يسير خبباً، اذا به فجأة، وفي غمرة فرحه العارم، يتذكر تلاميذه. فالتفت الى الوراء، وراح يدقق النظر في جموع السادة والسيدات، علّه يعثر عليهم ـ ولكن عبثاً.

نظر الى مرافقه مدهوشاً.

سـألـه «ومـاذا عن تلامـيـذي؟ انني لا أراهم. أين عـسـاهم يكونون؟»

أجابه بضحكة ساخرة «تفرقوا»

«لماذا؟»

«من الخوف»

«حتى يهوذا؟»

«كلهم! كلهم! لقد عادوا الى قواربهم الشراعية، واختبأوا داخل أكـواخـهم، وأقـسـمـوا على أن لا يقـابلوك قط، وأن لا يتـعـرفـوا عليك...كفاك تنظر خلفك. انسهم. انظر أمامك»

غزا الجو عبير مسكر فاح من أشجار الليمون المزهرة.

قـال الملاك، وهو يتـرجل «هـاقد وصلنا»، وتحـوّل حـصـانه الى ضياء ثم اختفى.

تردد من داخل كرم الزيتون صدى خوار شاكٍ عميق، ملؤه الألم والرقة. اضطرب يسوع : شعر وكأن أحشاءه تصـرخ. نظر، فرأى ثوراً سـمين الكفلين براقـاً، مـقـدّم رأسـه مـبـقّع باللونين الأسـود والأبيض، مربوطاً. كان ذيله منتصباً عالياً، وثمة اكليل زواج يتوّج قـرنيـه. لم يكن يسـوع قـد شـاهد قط ثوراً بمثل قـوته، وروعـتـه، وعضـلاته القوية، ولا مثيلاً لسواد عينيه، المملوءتين نشاطاً وقوة. تملّكه الخوف. قال في نفسه، هـذا ليس ثوراً؛ إنه أحد أوجه الرب العلي ، السمراء الخالدة.

وقف الملاك الى جانبـه وابتسم بمكر. قـال «لا تخف يا يسـوع الناصري، إنه مجرد ثور، ثور فتيّ بكر. انظر ما أسرع حركة لسانه ولعـقـه لأنفـه الرطب، وانظر كيف يخفض رأسـه وينطح شـجـرة الزيتون، اشتياقاً لقتالها، وكيف يهز نفسه ليقطع الحبل ويهرب... انظر هناك الى المرج. ماذا ترى؟»

«إنها عجول، عجول غضَّة. وهي ترعى»

«إنها لا ترعى، بل تنتظر أن يقطع الثور الفتيّ الحبل. أنصت مرة أخرى كيف يخور. يا لرقته، وتوسله، وقوته! انه بحق أشبه بإله أسمر جريح... لماذا أصبحت سحنتك صارمة يا يسوع الناصري؟ لماذا تنظر اليّ بهاتين العينين الداكنتين المتجهّمتين؟»

جأر يسوع بصوت منخفض «هيا بنا». وكان صوته مفعماً بالرقة، والتضرع والقوة.

أجاب الملاك ضاحكاً «سأطلق سراح الثور أولاً. الا تأسى له؟»

ثم اقترب وفكَّ الحبل. للوهلة الأولى لم يبد الحيوان البكرحراكاً. لكنه فجأة فهم الأمر: إنه حر. وبقفزة واحدة اندفع يبغي المرج.

في تلك اللحظة بالذات سمع يسوع رنين أساور وقلائد من داخل بستان الليمون. التفت، فرأى مريم المجدلية متوَّجة بأزهار الليمون، ماثلة أمامه، حييَّة ترتجف.

اندفع يسوع نحوها وعانقها. هتف «المجدلية، المجدلية الحبيبة. آه، كم من سنين، كم من سنين طويلة جداً تقت خلالها الى هذه اللحظة! من الذي وقف حائلاً بيننا ورفض أن يدعنا أحراراً ـ أهو الرب؟... لماذا تبكين؟»

«من فرط فرحي، أيها الحبيب؛ من فرط اشتياقي . تعال!»

«هيا بنا. قوديني!»

والتفت ليودع رفيقه، لكن الملاك كان قد تلاشى في الأثير. والموكب الملكي الفخيم للسادة والسيدات والملوك والخيول البيضاء ورسوم الليلك البيضاء الذي كان يسير خلفه تبخَّر بدوره. وفي الأسفل على المرج كان الثور يجامع العجول.

«عمَّن تبحث أيها الحبيب ؟ لماذا تحدق خلفك؟ لم يبق غيرنا

في العالم. وأنا أقبِّل الجروح الخمسة على قدميك ، ويديك، وقلبك. أي فرح هذا، ما أروعه من فصح! لقد بُعث العالم كله من جديد تعال»

«الى أين ؟ اعطيني يدك : قوديني . أنا أثق بك»

«الى بستان كثيف الشجر. لقد طاردوك؛ ويبغون القاء القبض عليك. كان كل شيء معداً ـ الصليب، والمسامير، والرعاع، وبيلاطس ـ ولكن فجأة جاء ملاك واختطفك . هيا ـ قبل أن ترتفع الشمس وتراك. لقد أصبحوا مسعورين : يطالبون بموتك»

«ماذا فعلتُ لهم؟»

«سعيتَ لخيرهم، لخلاصهم. فكيف يمكنهم أن يغفروا لك هذا! هات يدك أيها الحبيب. اتبع المرأة. انها دائماً تعرف الطريق الصحيح دون شك»

أمسكت بيده. وكان خمارها الأحمر الناري ينتفخ أثناء سيرها الحثيث تحت أشجار الليمون المزهرة التي ستطرح ثمارها قريباً، وكانت أصابعها المتشابكة مع أصابع الرجل تلتهب من الحرارة، وفمها يعبق برائحة أوراق الليمون.

انقطعت أنفاسها فتوقفت برهة ونظرت الى يسوع . انتابته رجفة، فقد رأى عينها تنبض بمرح غاو، ماكر، كعين الملاك. لكنها ابتسمت له. قالت :

«لا تخشَ شيئاً أيها الحبيب. منذ سنين وسنين وعلى طرف لساني شيء أريد قوله، ولكن لم يكن لدي من الشجاعة مايدفعني لمصارحتك به. والآن سأفعل»

«ماهو ؟ تكلمي ولا تخافي ، أيتها الحبيبة»

«اذا كنتَ في السماء السابعة وطلب منك عابر سبيل كأساً من الماء، فاهبط اليه من السماء السابعة لتلبِّي طلبه. واذا كنتَ قديساً

ورعاً وطلبت امرأة منك قبلة، فاهبط من حرمتك لتعطيها إياها . والا فانك لن تنال الخلاص»

ضمَّها يسوع اليه، ورفع رأسها ثم قبَّلها على فمها.

علا وجهيهما معاً شحوب الموت، وتراخت ركبهما. ولما لم يعد بامكانهما أن يتقدما أكثر من ذلك، استلقيا تحت شجرة ليمون مزهرة وراحا يتدحرجان على الأرض.

ارتفعت الشمس وتوقفت فوقهما. هبت نسمة هواء؛ فوقعت عدة أزهار ليمون على الجسدين العاريين، والتصقت عظاءة خضراء على حجر قبالتهما وأخذت تراقبهما بعينيها المدوَّرتين، الثابتتين. وبين الحين والآخر كان يُسمَع خوار الثور عن بعد، وقد ارتاح الآن وأشبع رغبته. وهطل رذاذ خفيف رطب من حرارة الجسدين الملتهبة وأشاع عبق تربة الأرض.

عانقت مريم المجدلية الرجل، وهي تخرخر بسرور، وأبقت جسدها ملتصقاً بجسده.

«لم يقبِّلني أي رجل آخر من قبل. ولم أتحسس شعر لحية أي رجل آخر على شفتي ووجنتيّ، ولا بركبتيّ رجل بين ركبتيّ. انه يوم مولدي... أتبكي يا طفلي؟»

«زوجتي الحبيبة، لم أعرف قط أن العالم بهذا الجمال وأن الجسد بهذه القداسة. هو أيضاً ابن الرب، شقيق مبارك للروح. ولم أعرف قط أن متع الجسد ليست آثمة»

«لم انطلقتَ لتغزو السماء، وتتأوه، وتبحث عن مياه الحياة الأبدية الاعجوبية؟ أنا هو ذاك الماء. لقد انحنيت، وشربت ،ووجدت السكينة... أما زلت تتأوه، يا طفلي؟ فيم تفكر؟»

«إن قلبي وردة ذابلة من أريحا انتعشت وتفتَّحت من جديد حين وُضِعَت في الماء. المرأة هي نبع ماء الخلود. الآن بتُّ أفهم»

«تفهم ماذا يا طفلي؟»

«أن هذا هو الدرب الصحيح»

«الدرب؟ أي درب، يا يسوع العزيز؟»

«الدرب الذي اذا سار عليه الفاني يغدو خالداً، الدرب الذي يهبط الرب بواسطته الى الأرض متخذاً هيئة البشر؛ لقد ضللت لأني رحت أبحث عن درب غير درب الجسد؛ أردت أن أتخذ درب السحب، والأفكار العظمى والموت. اغفري لي أيتها المرأة، يا رفيقتي العزيزة في صنع الرب. إنني أسجد وأتعبدك ، يا أم الرب... ماذا سنسمي الولد الذي سننجبه؟»

«خذه الى نهر الأردن وعمّده كما تشاء؛ إنه ابنك»

«فلنسمه باراقليط، أي المُعزِّي!»

«شش، إنني أسمع شخصاً قادماً خلال الأشجار. لابد أنه عبدي الصغير الوفي . أمرته أن يقوم بالحراسة حتى لا يقترب أحد . هاهو!»

«أنا شاؤول ، يا سيدتي»

رقصت عينا الصبي البيضاوان البراقتان، وكان جسمه اللحيم يرغي ويزبد كله كجسم حصان بعد أن قام بقفزة.

انتفضت المجدلية منتصبة ووضعت يدها على فمه «اصمت!»

ثم التفتت الى يسوع ، وقالت «زوجي الحبيب، أنت تعب. نم. وسأعود سريعاً»

لكن يسوع كان قد أغمض عينيه فعلاً، وغمر جفنيه وسبلتيه نوم هانئ، ولم ير المجدلية وهي تبتعد تحت أشجار الليمون وتختفي على الدرب المقفر.

لكن ذهنه انتفض مستيقظاً بارتجاجة، تاركاً جسده نائماً على الأرض. وانطلق في إثر المجدلية. الى أين هي ذاهبة؟ لماذا ترقرقتْ

عيناها فجأة بالدمع واكفهرت الدنيا في وجهها؟ حلّق ذهنه، كالصقر فوق تينك العينين ولم يدعها تفلت منه.

سار الفتى الزنجي خائفاً يتعثّر في المقدمة. اجتاز كرم الزيتون. لم تكن الشمس قد غربت بعد. ثم وطأا أرض المرج. كانت العجول متمددة على العشب، تمضغ جرّتها. ثم انحدرا الى وهد ظليل صخري وهناك سمعا نباح كلاب وأصوات رجال تلهث. استولى الرعب على الزنجي الصغير، قال «أنا ذاهب» وانطلق يركض.

بقيت المجدلية وحدها. تلفّتت فيما حولها.لاشيء غير صخور، صوّان، وبضع شجيرات عليق. امتدت شجرة تين برية غير مثمرة بشكل أفقي خارج وجه الجرف. لمح غرابان - يحرسان أفضل نقطة من نتوء صخري - المجدلية فبدءا يصرخان كأنهما يستدعيان رفاقهما.

سمعت صوت حجارة تزاح من أماكنها. ثمة رجال يرتقون الجرف. ثم ظهر كلب أسود، مع بقع حمراء، يدلي لسانه. ثم أصبح الوهد مملوءاً، أشبه بمقبرة ، بأشجار السرو والنخيل. وسمع صوت هادئ، ينمُّ عن الرضى «أهلاً»

استدارت المجدلية، وقالت «من يتكلم؟ من يرحب بي؟»

«أنا»

«من أنت؟»

«الرب»

«الرب! دعني أغطي شعري وأستر ثديي. أدر وجهك يا رب، لا يليق أن ترى عريي - إنني خجلة. لماذا استدرجتني الى هذه البرية الموحشة؟ أين أنا؟ انني لا أرى غير أشجار السرو والنخيل»

«صحيح! الموت والخلود... أيتها الشهيدة العظيمة. لقد

استدرجتك بالضبط الى حيث أردت. استعدي لتموتي، يا مجدلية، حتى يتاح لك أن تصبحي من الخالدين»

«لا أريد أن أموت . لا أريد أن أغدو خالدة. دعني أواصل الحياة على الأرض، وبعد ذلك، فلتحولني الى رماد»

«الموت قافلة محمّلة بالتوابل والعطور. لا تخشي شيئاً يا مجدلية. امتطي الجمل الأسود وادخلي الى صحراء السماء»

«آه، من أولئك المسافرون المهتاجون الذين برزوا من خلف أشجار السرو؟»

«لا تخافي يا مجدلية، انهم عبّادي من حداة الجمال . ظللي عينيك بيدك. ألا ترين الجمل الأسود الذي يقودونه ، ذي السرج المخملي الأحمر الذي ستمتطينه؟ لا تقاومي»

«يا رب، انني لا أخشى الموت، ولكن لدي شكوى أقدمها لك. الآن فقط، وللمرة الأولى، أصبح جسدي وروحي جديرين بأن يكون لهما فم واحد؛ للمرة الأولى، تلقّى كلاهما القبل - فهل يجب أن أموت؟

«انها اللحظة المثلى بالنسبة لك لتموتي يا مجدلية. ولن تصادفي مثيلة لها، فلا تقاومي»

«آه، ماتلك الصرخات، والتهديدات، ونوبات الضحك التي أسمعها؟ يا رب، لا تتخل عني، إنهم قادمون ليقتلوني!»

سمعت الصوت، مازال هادئاً وينم عن الرضى ، لكنه الآن بات آتياً من بعيد «يا مجدلية، لقد نلت أعظم متع حياتك. ولا يمكنك أن تنالي أكثر من ذلك. الموت رحمة... الى الملتقى، يا أول الشهداء!»

تلاشى الصوت، وبرز لها غوغاء من اللاويين المسعورين وعبيد قيافا المتعطشين لسفك الدماء آتين من أحد منعطفات الوهد،

حاملين الخناجر ، والفؤوس. وحين رأوا المجدلية انقضّوا عليها ، حاملو سواطير وكلاب ورجال.

راحوا يجأرون في وجهها وسط نوبات من الضحك «يا مريم المجدلية، يا عاهرة!»

حجبت عين الشمس سحابة سوداء، وأظلمت الدنيا.

صرخت المرأة التعيسة «لست كذلك، لست كذلك! كنت هكذا من قبل، ولكن لست كذلك الآن. اليوم ولدت من جديد!»

«مريم المجدلية، عاهرة!»

«كنت من قبل، ولم أعد كذلك الآن. أقسم على هذا . لا تقتلوني. الرحمة! من أنت، أنت أيها الأصلع ، ذو الكرش الضخمة، والساقان المقوستان - أنت، أيها الأحدب؟ لا تلمسني!»

«مريم المجدلية، أيتها العاهرة! أنا شاؤول . أرسل رب اسرائيل في طلبي من دمشق ومنحني الحق بقتله»

«قتلُ من؟»

«عشيقك!»

ثم التفت الى عصابته.

«اهجموا عليها يا شباب! انها عشيقته، وتعرف مكانه. أخبرينا، أين أخفيته أيتها الساقطة!»

«لن أخبركم!»

«سأقتلك!»

«هو في بيت عنيا!»

«كاذبة! نحن قادمون لتونا من هناك . أنت أخفيته في مكان ما قريب. قولي الحقيقة الآن!»

«اترك شعري ! لماذا تريد أن تقتله؟ ماذا فعل لكم؟»

«من يعبث بالناموس المقدس - جزاؤه الموت!»

بينما كان الأحدب يتكلم كان ينظر اليها بهيام وأخذ يقترب منها ويقترب، يلهث أنفاساً حارة.

رفرفت المجدلية رموش عينيها، وقالت «انظر يا شاؤول الى نهديّ، وذراعيّ، ونحري، أليس خسارة أن ينتهوا؟ لا تقتلهم!»

ظل شاؤول يقترب ، وقد اختنق صوته ، وأضحى أجشاً وهو يقول «اعترفي بمكان وجوده وسأعفو عنك. أحب نهديك، وذراعيك، ونحرك. اشفقي على جمالك واعترفي! لماذا تنظرين اليّ هكذا؟ ماذا يدور بخلدك؟»

«كنت أفكر يا شاؤول - واتحسَّر - أفكر بالمعجزات التي قد تقوم بها لو أن الرب يضيء فجأة نوره داخلك وترى الحق! لكي يتمكن حبيبي من غزو العالم يحتاج الى أتباع من أمثالك - وليس الى صيادي سمك، وبائعين متجولين، ورعاة غنم ، بل الى ألسنة لهب، مثلك يا شاؤول!»

«يغزو العالم ! أيريد أن يغزو العالم؟ كيف ؟ أفصحي يا مجدلية، لأن هذا بالضبط ما أريد معرفته»

«بالمحبة»

«بالمحبة؟»

«اسمع يا شاؤول ما سأقوله لك. تخلص من الآخرين - لا أريدهم أن يسمعوا. ان الرجل الذي تطاردونه وتبغون قتله هو ابن الرب، مخلّص العالم، المسيح! نعم، وأقسم بروحي التي ستذهب الى باريها!»

همس لاويّ نحيل، مسلول، ذو لحية هزيلة شائبة قائلاً: «شاؤول، يا شاؤول، إن ذراعيها أشراك ذئب. احذر!»

«اغرب عن وجهي!»

وعاد يلتفت الى المجدلية. قال «بالمحبة؟ أنا أيضاً أود أن أغزو

العالم. انني أنزل الى الموانئ، أشاهد السفن وهي تبحر، ويحترق قلبي شوقاً للوصول الى أطراف الدنيا، ولكن ليس كعبد يهودي متسول؛ لا، بل كملك، يمتشق سيفاً! أما الآن؟ مستحيل. انني أشعر بالاحباط حتى لأكاد أقتل نفسي. في هذه الأثناء أنفّس عن نفسي بقتل الآخرين»

صمت برهة، ثم اقترب أكثر من المرأة، وسألها بصوت خفيض «أين سيدك يا مجدلية؟ أخبريني حتى أعثر عليه وأكلمه. أريده أن يخبرني ماهي المحبة. وأي نوع من المحبة سيغزو العالم... لماذا تبكين؟»

«لأني بحق أريد أن أكشف عن مكانه. أريد أن أعقد لقاءاً بينكما أنتما الاثنين. هو العذوبة المطلقة؛ وأنت النار. ومعاً ستغزوان العالم. لكني لا أثق بك؛ لا، لا أثق بك يا شاؤول - لهذا تراني أبكي»

كانت ماتزال تتكلم حين كسر حجر انطلق يشق صفيره الهواء فكّها.

وزعق اللاوي المسلول قائلاً «يا أخوتي - باسم رب ابراهيم، واسحق ويعقوب - اضربوها». وكان هو أول من التقط حجراً وضربها به.

هدرت السماوات بالرعود. وفي الأفق كانت الشمس الغاربة تستحم في الدماء.

جأر أحد عبيد قيافا «هاك واحداً لفمها ذي الألف قبلة»، وتهشّمت أسنان المجدلية وتناثرت على الأرض.

«وهذا لبطنها!»

«ولقلبها!»

«ولجسر أنفها!»

دفنت المجدلية رأسها في صدرها لتحميه، وانبجست الدماء من فمها ، ونهديها، وفرجها، وبدأت تخرخر خرخرة الموت.

صفَّق الصقر بجناحيه. لقد رأت عيناه المستديرتان كل شيء. وعاد أدراجه مطلقاً صرخة تمزِّق السمع، فألفى جسده مازال مستلقياً تحت شجرة الليمون ، فدخله. رفرفت عينا يسوع؛ وانهمرت قطرة مطر كبيرة على شفتيه. استيقظ وانتصب في جلسته على التربة الغنية التي يسكنها الموت، تتقاذفه الأفكار. بماذا كان يحلم؟ انه لا يتذكر. لم يبق في ذاكرته غير صور لحجارة، امرأة ودماء... أيمكن أن تكون المرأة هي المجدلية؟ كان وجهها في مخيلته متماوجاً ، كسطح ماء جار، لا يثبت حتى يراه. وبينما هو يجاهد كي يميزه بدا له وكأن الحجارة والدم تتحول الى نول، وثمة امرأة جالسة أمام آلتها تنسج وتغني. كان صوتها غاية في العذوبة، ومشحوناً بالحسرة.

فوق رأسه لمعت ثمار الليمون وكأنها من الذهب بين أوراق شجر الليمون القاتمة. وضغط راحتي يديه على التربة الرطبة فتحسس برودتها ودفئها الربيعي. ألقى نظرة سريعة فيما حوله : لا أحد يراقبه. فمال وقبَّل الأرض.

قال بصوت منخفض «أماه، ضميني اليكِ، وسأضمك بدوري. أماه، لم لا تكوني أنتِ ربي؟»

اهتزَّت أوراق الليمون، وسمع وطء خطى خفيفة على الأرض الرطبة، وصوت شحرور غير مرئي يغرد . رفع يسوع ناظريه فرأى ملاكه الحارس ذا الجناحين الأخضرين ماثلاً أمامه، سعيداً مرحاً. كان الزغب الجعد الذي يغطي جسمه يتلألأ تحت أشعة الشمس الغاربة المائلة.

قال يسوع «مرحباً، يبدو وجهك مشرقاً. ماذا تحمل اليَّ أيضاً

من أخبار طيبة؟ أنا أثق بك : إن خضرة جناحيك تشبه خضرة عشب الأرض.»

ضحك الملاك وطوى جناحيه ، وجلس القرفصاء بجوار يسوع ثم سحق زهرة ليمون وأخذ يشمها بشوق، ثم راح يحدق الى الجهة الغربية من السماء ، التي أضحت عندئذ بلون القراصيا . وهبت من الأرض نسمات عليلة ، وخشخشت أوراق شجرة الليمون فرحاً ورقصت.

قال «ما أسعدكم أنتم بني البشر! أنتم مخلوقون من تراب وماء. لذا تراكم متناغمون معاً : رجالاً، نساءاً، لحماً، خضروات، ثماراً... ألستم من التربة ذاتها، من الماء ذاته؟ والكل يرغب بالاندفاع في الآخرين. وأقرب مثال على ذلك، أني قبل قليل وأنا في طريقي سمعت امرأة تنادي عليك»

«ولماذا كانت تنادي عليَّ؟ ماذا تريد؟»

ابتسم الملاك. قال «إن ماءها وتربتها يناديان على مائك وتربتك. انها جالسة الى نولها، تغزل وتغني. أغنيتها تخترق الجبال، وتنتشر على السهول - بحثاً عنك. أنصت. بعد قليل ستصل الى هنا، هنا بين أشجار الليمون. اصمت : هاهي. أتسمعها حسبتها تغني، ولكن لا، انها تندب. أنصت جيداً. ماذا تسمع؟»

«أسمع الطيور عائدة الى أعشاشها؛ فالظلام يسود»

«ولاشيء آخر؟ حاول بكل قواك. أترك روحك تغادر جسدك لعلك تسمع»

«ها أنا أسمع! أسمع! انه صوت امرأة، بعيدة جداً، بعيدة جداً... انها تندب، لكني لا أميز الكلمات»

«أنا أسمعها بوضوح تام. أنصت اليها جيداً. على ماذا تندب؟»

نهض يسوع وبذل أقصى جهده : غادرت روحه جسده، ووصلت الى القرية، ودخلت المنزل وتوقفت في فنائه.

قال يسوع، وهو يضع اصبعه على شفتيه «اسمع...»

«تكلم»

«يا قبر الفضة، يا قبر الموشى بالذهب،
لا تلتهم شفتيه الحمراوين، لا تلتهم عينيه السوداوين
لا تلتهم لسانه الصفير المغرد كالعندليب...»

«ألا تتعرف على صوت النادبة يا يسوع الناصري؟»

«نعم»

«إنها مريم، أخت اليعازر. مازالت تنسج جهاز عرسها. تعتقد أنك متَّ، وتبكيك. نحرها الناصع البياض عار، تتدلى منه على صدرها قلادة فيروزية . والعرق ينضح من جسدها كله ـ وتفوح منه الروائح : أشبه برائحة الخبز الخارج تواً من الفرن، أشبه برائحة ثمرة أجاص ناضجة، أشبه برائحة تربة الأرض بعد هطل المطر. انهض. هيا بنا لنواسيها»

صرخ يسوع، وقد تملكه الخوف «والمجدلية؟»

أمسك الملاك به من ذراعه وأجلسه مرة أخرى على الأرض .

قال بهدوء «المجدلية، آه، نعم نسيت أن أقول لك : لقد ماتت»

«ماتت؟»

«قُتلت. هيه، الى أين أنت ذاهب يا يسوع الناصري وأنت تشد على قبضتيك هكذا؟ من تنوي أن تقتل ـ الرب؟ إنه هو الذي قتلها. اجلس! لقد رمى الكليّ القدسية سهماً اخترقها وهي في ذروة سعادتها، والآن ستبقى هي فوق ، مع الخالدين . فهل يمكن لأي امرأة أن تحظى بمتعة أعظم منها؟ انها لن تشهد خبو جذوة حبها، وجبن قلبها، وتعفّن جسدها. لقد كنتُ حاضراً عملية قتلها كلها، ورأيت تلك السعادة . لقد رفعت يديها الى السماء وصرخت «الشكر لك يا رب. هذا ماكنت أصبو اليه!»

انفجر غضب يسوع وهو يقول «الكلاب وحدها لديها مثل هذا الاشتياق للخنوع ـ الكلاب والملائكة! أنا لست كلباً ولا ملاكاً. أنا بشر، وها أنا أصرخ هذا ظلم! هذا ظلم! ظلم! يا رب، ظلم منك أن تقتلها. حتى أشد قاطعي الأخشاب فظاظة يرتجف نفوراً من قطع شجرة مزهرة، والمجدلية كانت مزهرة من جذورها وحتى آخر أطراف أغصانها!»

ضمَّه الملاك بين ذراعيه وراح يداعب شعره وكتفيه وركبتيه، ويكلمه بهدوء، ورقة. وأخيراً حل الظلام. هب النسيم، وتبددت السحب وظهر نجم كبير ، لابد أنه نجم المساء.

قال له «صبراً، سلِّم بالأمر، ولا تيأس. لا توجد في العالم الا امرأة واحدة، امرأة واحدة لها وجوه لا تحصى. يسقط واحد، فيظهر آخر. ان مريم المجدلية ماتت. ومريم أخت اليعازر حية ترزق وهي تنتظرنا. تنتظرك أنت. انها المجدلية ذاتها، ولكن بوجه آخر. انصت... هاهي تنوح من جديد. هيا بنا نواسيها. في داخل رحمها تحمل ـ تحمل لأجلك يا يسوع الناصري ـ أعظم المتع قاطبة: ابناً ـ ابنك أنت. هيا بنا!»

داعب الملاك صديقه برقة ورفعه ببطء عن الأرض. وبات الاثنان يقفان تحت أشجار الليمون، وفوقهما كان نجم المساء ينحدر، وهو يضحك.

هدأت غلواء قلب يسوع شيئاً فشيئاً، وامتزج في ذهنه وسط شبه الظلمة الرطبة وجها مريم المجدلية، ومريم أخت اليعازر، وأضحيا وجهاً واحداً. وجاء الليل، مضمَّخاً بالعطر، وخيم عليهما.

غمغم الملاك، وهو يحيط خصر يسوع بذراعه المفتولة، التي يغطيها الزغب «تعال». كانت أنفاسه تعبق برائحة جوز الطيب

والتربة الرطبة. فمال برأسه عليه، وأغمض عينيه، وأخذ يستنشق بعمق، يريد أن تنزل أنفاس الملاك الحارس حتى أحشائه.

نشر الملاك أحد جناحيه وهو يبتسم. لقد جاء الليل مصحوباً بصقيع شديد، فغطى يسوع بجناحيه الأخضرين ليقيه القر. ومرة أخرى سمع نواح المرأة، كهطل رذاذ ربيعي رقيق يشق الجو الرطب: «يا قبر الفضة ، يا قبر الذهب...»

قال يسوع «هيا بنا» وابتسم.

الفصل الحادي والثلاثون

أمضى يسوع الليل كله يتقلب على الأرض متدثراً بالجناحين الأخضرين معانقاً الملاك من خصره بقوة. وكان قرص القمر الكبير قد وصل الى سمت السماء. وفي هذه الليلة كان غريب الأطوار، مرحاً. وبدل أن يرى على صفحة وجهه قايين وهابيل كنت ترى فماً واسعاً سعيداً، وعينين رائقتين ووجنتين موردتين صحة، يغمرهما الضياء : أشبه بوجه امرأة عاشقة كامل الاستدارة يطوف في الليل، واختفت الأشجار، وأخذت الطيور تتكلم كالبشر. وانشقَّت الجبال، وضمَّت اليها جوَّابي الليل ثم عادت فالتأمت.

أي سعادة هذه : أن نطير، نتقلب على الأرض تماماً كما نرى في أحلامنا! لقد أصبحت الحياة حلماً. أيمكن أن يكون هذا هو معنى الجنة؟... ودَّ لو يسأل الملاك لكنه لزم الصمت، لأنه خشي أن يستيقظ اذا ما تكلم.

تلفَّت حوله. كم أضحت أرواح الحجارة والهواء،والجبل خفيفة: كما لو أنك جالس مع أصدقائك، مثقل القلب، ثم قدمتَ الخمر وشربتها، واذا بذهنك يحلِّق، يطفو، يبحر فوق رأسك، يغدو سحابة وردية، وتنعكس صورة العالم، ذهبية أثيرية، عليها مقلوبة.

مـرة أخرى همَّ بالالتفات نحـو الملاك ليكلّمه ، لكن هذا الأخيـر وضع اصبعه على شفتيه، مبتسماً، وطلب منه برقة أن يلزم الهدوء.

لابد أنهما كانا قد اقتربا من احدى القـرى ، فقد سـمعا صـياح الديكة تعلن عن انبلاج الفجر. في ذلك الحين كان قرص القمـر قد انحدر خلف الجبال وبدأ ضـياء الفجـر ينيـر العالم بسـلام. كانت الأرض قـد أضـحت أكثر رصانة، وعـاد الزمن مُدْرَكاً. وعـاد الجبل، والقرية، وكـرم الزيتون الى الظهـور حيث وضـعها الرب لتنتظر نهاية العالم. هنا الدرب الحبيب، وهناك قـرية بيت عنيـا الرحيمـة وسط كـروم زيتـونها وتينها وعنبها. هنـاك أيضـاً منزل الأصـدقاء المنعش، وفيـه النول المقدس والنـار المضـرمـة والأختـان، الشـعلتان اللتان لا تعرفان النوم...

قال الملاك «هاقد وصلنا»

كان الدخان يتصـاعد مـن مدخنة السطـح. لابد أن الأختين قد استيقظتا لتوهما وأضرمتا النار.

قال الملاك، رافعاً جناحه عنه «يا يسـوع الناصري، لقـد أضـرمت الأختـان نـاراً، وقـامتـا بالحلب منذ الصبـاح البـاكر وهمـا الآن تُعدَّان الحليب لأجلك. ألم تكن تـريد، ونحن على الطـريق ، أن تسـألنـي عن معنى الجنة؟ انها آلاف من المتع الصغيرة، يا يسـوع الناصري. هي أن تقرع باباً، فتفتح لك امرأة، فتجلس أمام موقد، وأن تراقبها وهي تعد لك المائدة، وبعـد أن يسـود الظـلام الدامس أن تداعبـها وتأخـذهـا بين ذراعيك. هكذا يأتي المخلّص : بالتدريج ـ من عناق الى عناق، من ابن الى ابن : هذا هو الدرب»

قال يسوع «فهمت»، وتوقف أمام الباب ذي اللون النيلي، وقبض على المطرقة، لكن الملاك منعه.

قـال «لا تتـعجل . اسـمع، الأفضل أن لا نفـترق بعـد الآن. انني

أخاف أن أتركك وحيداً أعزل ـ لذا سآتي معك. سأظهر على هيئة صبي أسود، ذاك الذي رأيته تحت أشجار الليمون، ويمكنك أن تقول انني عبد صغير يؤدي لك مهاماً. لا أريدك أن تسلك الطريق الخطأ مرة أخرى وتضل»

ما إن أنهى كلامه حتى رأى يسوع صبياً أسود ماثلاً أمامه، رأسه حتى مستوى ركبتي الرجل، أسنانه كبيرة بيضاء، وفي أذنيه قرطان ذهبيان؛ وكان يحمل سلة ملآى حتى الزيا.

قال مبتسماً «هاك يا سيدي، هبات من الأختين. ثياب حريرية أقراط، أساور، مراوح صنعت من ريش نفيس ـ انها أسلحة أنثوية كاملة العدة. الآن بوسعك أن تدق الباب»

قرع يسوع الباب . سمع طرق وقع قبقاب على أرض الفناء ومن ثم صوتاً عذباً ينادي «من هناك؟»

تصاعدالدم الى وجه يسوع حتى استحال قرمزياً . لقد تعرَّف على صاحبة الصوت: انها مريم. فتح الباب وخرَّت الأختان عند قدميه.

«يا معلم، اننا نسجد لآلامك، ونرحب بقيامتك المقدسة. أهلاً بك!»

وقالت مريم «اسمح لي أن ألمس صدرك يا معلم، لأرى ان كنت أنت فعلاً»

هتفت مرتا «انه جسد حقيقي يا مريم. جسد حقيقي، جسد ـ مثلنا. ألا ترين؟ ثم انظري، ظله مرتسم على عتبة دارنا»

أنصت يسوع اليهما وابتسم. شعر بالأختين تتلمسانه، وتشمانه مبتهجتين.

«يا مرثا ومريم ، أيتها الشعلتان : يسعدني أن أراكما . وأنت يا منزل البشر، الهادئ، المتواضع، المضياف : يسعدني أن أراك. مازلنا أحياء، مازلنا نجوع، ونعمل، ونبكي. المجد للرب!»

وأثناء تبادله الحديث مع الأختين والتحية كان يتقدم داخل المنزل.

«يسعدني أن أراكم أيها الموقد والنول وأنت يا جرن العجن، ويا طاولة ويا ابريق وأيها المصباح الحبيب ! يا خدم المرأة المخلصين انني أنحني وأسجد لفضلك. ان المرأة حين تصل الى بوابة الجنة تتوقف وتسأل «يا رب، هل تسمح لرفاقي أيضاً بالدخول معي؟»»

«ويسألها الرب «ومن هم رفاقك؟»»

«»هاهم - الجرن، والمهد، والمصباح، والابريق والنول. فاذا لم يدخلوا، فلن أدخل أنا أيضاً»»

«فيضحك الرب الطيب القلب ويقول لها «هل يمكنني أن أرفض لكنَّ معروفاً أيتها النساء؟ ادخلوا جميعكم. الجنة ملآى بالأجران، والمهود، والأنوال، ولم يتبق مكان للقديسين»»

ضحكت المرأتان، ثم التفتتا فرأتا الصبي الأسود يحمل السلة الطافحة.

سألت مريم «من هذا الصبي يا معلم ؟ تعجبني أسنانه»

جلس يسوع أمام الموقد. ثم جلبتا الحليب، والعسل، والخبز المصنوع من الدقيق الأسمر الكامل. وترقرقت عينا يسوع بالدمع.

قال إن السماوات السبع، والفضائل العظمى السبع، والأفكار العظمى السبع لم تكن تكفيني. والآن، ماهذه المعجزة، يا أختاي؟ بات يكفيني منزل صغير جداً، لقمة من الخبز، وكلمات بسيطة من امرأة!»

أخذ يقطع البيت جيئة وذهاباً كأنه سيده، ثم أحضر ملء ذراعه من أغصان الكرمة من الفناء ، وغذّى النار. وتصاعد اللهب. وانحنى فوق البئر، وسحب منه ماءاً وشرب. ثم مدَّ يديه ووضعهما على كتفي مرثا ومريم وشدّهما اليه،

قال «يا أعز مخلوقتين مرثا ومريم، سوف أبدل اسمي. لقد قتلوا أخي الذي بعثته من بين الموتى، لذا سآتي وأجلس في مكانه، هنا في الركن، سوف آخذ مهماز الثور ، وسأحرث حقوله، وأبذرها، وأحصدها. وحين أعود في المساء سوف تغسل أختاي قدميّ المرهقتين وتعدًّا المائدة لي. بعد ذلك أجلس بجوار نار الموقد، على هذا المقعد. ان اسمي الآن هو اليعازر»

بينما هو يتكلم كان ينظر مفتوناً الى عينيّ الصبي الأسود النجلاوين. وكلما أطال النظر اليه تبدلت أكثر قسمات وجه يسوع، وجسده أيضاً: رأسه، وصدره، وفخذاه، ويداه وقدماه. وصار يشبه أكثر فأكثر اليعازر؛ اليعازر بالغ، ناضج، ملؤه الصحة والقوة، له عنق ثور، وصدر لوَّحته أشعة الشمس ويدان ضخمتان تغطيهما العقد. راقبت الأختان هذا التحول على الضوء الخافت وهما ترتجفان.

«لقد تبدل جسدي، وتبدلت روحي. فمرحباً! ها أنا أعلن الحرب على الفقر والصوم. الروح حيوان يفور بالحياة؛ ويرغب بالأكل. وهذا الفم الكامن تحت لحيتي وشاربي هو فم روحي، وهو الفم الوحيد للروح. أعلنها حرباً على العفة. ثمة وليد يقبع أصمَّ خدراً في رحم كل امرأة. افتحوا الأبواب وأطلقوا سراحه! ان كل من لا ينجب، يقتل... أتبكين يا مريم؟»

«وبأي جواب آخر أدلي، يا معلم؟ نحن معشر النساء لا جواب آخر لدينا»

فتحت مرثا ذراعيها واسعاً، وقالت «نحن معشر النساء ذراعان مفتوحتان أبداً. ادخل يا معلمي. اجلس. أصدر أوامرك . أنت رب هذا البيت.

أشرق وجه يسوع، وقال «لقد انتهيت من صراعي مع الرب، وأصبحنا صديقين. لن أصنع صلباناً بعد الآن. سأصنع أجراناً،

ومهوداً وأسرَّة. سأبعث برسالة أطلب فيها أدواتي من الناصرة، وسأبعث أيضاً في طلب أمي المكلومة، حتى يتاح لها أن تربي أحفادها وتتذوق تلك المسكينة أخيراً حلاوة الحياة»

اتكأت احدى المرأتين بصدرها على ركبتيه، وأمسكت الأخرى بيده ولم تتركها. وكان الصبي الأسود قد جلس أمام موقد النار وأسند وجنته على ركبتيه وتظاهر بالنوم. لكنه كان من بين رموش عينيه السوداوين الطويلة يراقب يسوع والمرأتين، ترتسم عبر وجهه ابتسامة ماكرة راضية.

كانت مريم، وصدرها متكئ على ركبتي يسوع، تقول «كنت جالسة أمام النول يا معلم، أنسج الامك - صليباً، وآلاف مؤلفة من طيور السنونو تكتنفه - على قطعة بيضاء. كنت أوشّع الخيطان السوداء والحمراء وأرتل ترنيمة حزينة، فسمعتني، وأشفقت عليّ وأتيت»

انتظرت مرثا أختها بهدوء حتى تنتهي، ثم تابعت قائلة «انني لا أعرف غير عجن الخبز وغسل الملابس وقول نعم. تلك هي فضائلي يا معلم، ولدي حدس مسبق بأنك ستختار أختي زوجة لك. ولكن اسمحا لي أن أستنشق هواء الزواج معكما: اسمحا لي أن أرتب سريريكما وأهويكما وأتولى جميع حاجاتكما المنزلية»

سكتت، وتنهدت. ومن ثم قالت «بنات قريتنا يغنون أغنية حزينة جداً. يغنينها في فصل الربيع، أثناء حضانة الطيور لبيوضها. اسمح لي أن أغنيها لك بدل أن أتلوها تلاوة، حتى تَفهم فحواها، لأن مرارتها تكمن في لحنها:

هو، أنتم! أيها الشجعان المرد -
تعبت من الربيع، من بيع نفسي
ولا أجد مشتر .

انني أقدم كل شيء في صفقة، بما فيها نفسي؛

المتقدم الأول، ينال الأفضل !

كل من يعطيني بيضة سنونو

أعطيه شفتي ؛

ومن يعطيني بيضة نسر ،

أعطيه ثديي؛

ومن يسدد لي طعنة ،

أعطيه قلبي !

ترقرقت عيناها بالدمع . وأحاطت مريم بذراعيها خصر الرجل وكأنها تخشى أن يؤخذ منها .

شعرت مرثا وكأن خنجراً يخترق قلبها، لكنها استجمعت شجاعتها وعادت تتكلم . «يا معلم، أريد أن أقول لك شيئاً واحداً فقط، وبعد ذلك سأنهض وأدعك مع مريم. ذات مرة كان هناك مالك أرض جبار يدعى بوعز كان يقطن بالقرب من هنا، في بيت لحم. وكان الوقت صيفاً وقد أنهى عبيده الحصاد، والدرس، والذرّ وجمع الحزم في البيدر: القمح الى اليمين والتبن الى اليسار. فتمدد بين حزمتين واستغرق في النوم. وفي منتصف الليل جاءت امرأة فقيرة تدعى راعوث ودخلت بهدوء، حتى لا توقظه، وجلست عند قدميه. كانت أرملة ولم تنجب أطفالاً وكانت تعاني الأمرَّين. شعر الرجل بدفء جسدها عند قدميه، فأنزل يده باحثاً، فعثر عليها ورفعها الى صدره... أفهمت يا معلم؟»

«نعم، كفاكِ كلاماً»

قالت مرثا «أنا ذاهبة» ونهضت .

بقي الاثنان وحدهما. فأحضرا حشية والملاءة المزخرف عليها رسم الصليب وطيور السنونو، وصعدا الى سطح المنزل . وكانت

سحابة رحيمة تغطي عين الشمس. اختبأا تحت الملاءة المزخرفة حتى لايراهما الرب، وبدءا يتبادلان المداعبة. ومرة، انزلق الغطاء عنهما لحظة ففتح يسوع عينيه، فرأى الصبي الأسود جالساً عند حافة السطح. كان يحمل مزمار راعٍ وينفخ فيه، وعيناه تحدقان بعيداً باتجاه أورشليم.

في اليوم التالي وفد كل أهل القرية ليعبروا عن اعجابهم باليعازر الجديد. وكان الولد الأسود يهرع لأداء المهام، فيسحب الماء من البئر، ويحلب النعاج، ويساعد مرثا في اضرام النار. ومن ثم تكوَّم عند عتبة الدار وأخذ ينفخ في مزماره. وتوافد أهالي القرية محمَّلين بعطايا من كيزان الذرة، والحليب، والتمر والعسل، ليرحبوا بالضيف الغريب الشديد الشبه باليعازر. ورأوا الصبي الأسود جالساً عند عتبة الدار فعبثوا معه وضحكوا، وشاركهم هو أيضاً الضحك.

دخل رئيس القرية الأعمى، ومد يده وأخذ يتلمَّس ركبتي يسوع وفخذيه وكتفيه متفحصاً ، ثم هز رأسه وانفجر ضاحكاً.

صرخ في أهل القرية الذين كانوا يملأون الفناء «تباً لكم! أأنتم جميعاً عُمي؟ هذا ليس اليعازر. رائحة أنفاسه ليست نفسها، وملمس جسده مختلف، وعظامه يتشبث بها الكثير من اللحم، ولا يمكن حتى لساطور جزار أن يفصل بينهما»

جلس يسوع في الفناء، يضفر الحقائق والأكاذيب معاً، وضحك. قال «لا تخشوا شيئاً يا أولادي، أنا لست اليعازر. لقد انتهى أمره. وانما تصادف ان كان اسمي اليعازر؛ المعلم اليعازر - فأنا نجار. لقد قادني ملاك ذو جناحين أخضرين الى هذا المنزل فدخلت» ثم نظر الى الصبي الأسود، الذي كان يتلوّى من فرط الضحك.

تسارع الزمن كمياه سرمدية ، وروى العالم. فنضجت حبات القمح، وبدأت حبات العنب تتلألأ، وامتلأت ثمار الزيتون بالزيت، وطرحت شجيرات الرمان المزهرة ثماراً. ثم أدركهما الخريف، وحل الشتاء، وولد ابنهما. واستلقت مريم الناسجة خلال فترة نفاسها تنظر الى الوليد باعجاب لا حدود له، وتقول مبتسمة «ربي، كيف خرجت هذه المعجزة من رحمي؟ لقد شربتُ من ماء الحياة الخالدة، شربت من ماء الحياة الخالدة : لن أموت!»

الليل حالك الظلمة، والدنيا تمطر. الأرض الفاغرة فاها تستقبل السماء بترحاب لتلج أحشاءها، وتحولها الى طين. والمعلم اليعازر متمدد تحت جنح الظلام وسط مهود لم يكتمل صنعها وأجران بين نشارة الخشب في ورشته، ينصت الى قصف الرعود ويفكر في ابنه الوليد وفي الرب. كان مسروراً . انها المرة الأولى التي يحل فيها الرب في عقله على شكل طفل. هاهو يسمعه يبكي ويضحك في الغرفة المجاورة؛ يسمعه يرقص عند قدمي أمه. قال في نفسه، أيمكن أن يكون الرب قريباً الى حد أن يمسد على لحيته السوداء. هل أخمص قدميه الورديان بهذه الرقة، وهل يتأثر بالدغدغة، هل يبكي بهذه السهولة، هذا الرب العلي القدير، حين تداعبه أصابع بشرية؟

تثاءب الصبي الأسود، متظاهراً بالنوم في الركن الآخر، المجاور للباب. وسمع الأم تعانق وليدها، فابتسم ابتسامة رضى. والآن، في قلب الليل، حين لا يراه أحد ، تحول مرة أخرى الى ملاك وجلس مسترخياً وجناحاه الأخضران منشوران فوق نشارة الخشب.

وهمس وسط الظلام «هل أنت مستيقظ يا يسوع؟»

تظاهر يسوع بعدم السماع، وأسعده أيما سعادة أن يظل صامتاً ينصت الى الوليد في هدأة الليل. لكنه ابتسم. لقد أصبح عزيزاً

جداً عند هذا الصبي الأسود. إن الفتى يقوم طوال النهار بأداء المهام له ويساعده في تشكيل الخشب. وفي المساء بعد نهاية يوم عمل يجلس على عتبة الدار ويعزف له. وينسى يسوع وهو ينصت تعب النهار، وعندما تطلع أول نجمة يجلسون معاً جميعاً على مائدة واحـــدة لتناول الطعـــام، ولا يكف الزنجي عن اطلاق النكات والقهقهة، ويضايق مرثا ويحرجها بسبب عذريتها.

ويقول، وهو يضحك وينظر اليها نظرة مغناج «هناك في بلدنا، أثيوبيا ، لا نخفي رغباتنا الدفينة ونتآكّل قلوبنا كما تفعلون أنتم اليهود؛ إننا نناقش رغباتنا بصدق، وانفتاح، ونعمل وفقها : فإذا رغبت في أكل موزة ـ لا يهم إن كانت تخصني أو تخص غيري ـ فاني آكلها . واذا رغبت في أن أسبح ، أذهب وأسبح. واذا رغبت في تقبيل امرأة، أقبّلها. ولا يؤنبني الرب؛ إنه أسود اللون وهو يحب السود. ويضع أقراطاً ذهبية في أذنيه وهو أيضاً يفعل كل ما يحلو له . انه أخونا الكبير، ولكلينا أم واحدة ـ هي الليل»

وذات مساء سألته مرثا ، لتزعجه «ألن يموت ربك؟»

أجاب الأسود، وهو يميل ليدغدغ أخمص قدم مرثا «مادام زنجي واحد على قيد الحياة، فربما لن يموت»

وكان الملاك الحارس في كل مساء، وحالما يخبو نور المصباح، ينشر جناحيه تحت جنح الظلام ويتمدد بجوار صاحبه. ويتحدثان همساً حتى لا يسمعهما أحد، وينفحه الملاك بنصيحة ليعمل بها في اليوم التالي. ومن ثم يعود صبياً أسود ثانية، ويزحف فوق نشارة الخشب عائداً الى مكانه وينام.

الا أن النوم جافاه هذه الليلة، وكرر على مسمعه، رافعاً صوته «يسوع، هل أنت نائم؟». وحين وجد انه لا يتلقى جواباً قفز واقفاً، واقترب من يسوع ولكزه.

«هو، يا معلم اليعازر، أعرف أنك لست نائماً. لم لا ترد؟»

قال يسوع، وهو مغمض العينين «لا أرغب بالكلام. أنا سعيد»

سأله الملاك، بفخر «أأنت راض عني؟ هل لديك أي شكوى؟»

«أبداً، يا بني، أبداً»، وعمر قلبه بالدفء، فنهض، وغمغم قائلاً «أي طريق شريرة سلكت لأصل الى الرب، أي منحدر مهجور، كله جروف ونتوءات صخرية! ناديت وناديت، فارتدّ صوتي من الجبل المقفر فحسبت انه جواب!»

ضحك الملاك، وقال «وحدك لن تتمكن من العثور على الرب. الأمر يلزمه شخصان، رجل وامرأة، أنت لم تكن تعرف هذا ـ أنا علمتك، وهكذا، وبعد مرور سنين عديدة من بحثك عن الرب عثرت عليه أخيراً ـ حين اقترنت بمريم. وها أنت الآن جالس في الظلام تنصت الى وليدك يبكي ويضحك، فيمتلئ قلبك بهجة»

تمتم يسوع «هذا هو معنى الرب، هذا هو معنى الانسان. هذا هو الطريق الصحيح» وأغمض عينيه من جديد.

ومرت حياته السابقة في ذهنه كلمع البرق ، وأطلق تنهيدة. ثم مد ذراعه . فتلاقت مع يد الملاك. قال برقة «لو لم تأت، يا ملاكي الحارس، يا بني، لضعت. ابق دائماً بقربي»

«سأفعل ، لا تخف. لن أتركك. اني معجب بك»

«الى متى ستدوم هذه السعادة؟»

«طالما أنا معك وأنت معي، يا يسوع الناصري»

«والى الأبد؟»

ضحك الملاك. «ما الأبد؟ ألم تتمكن بعد من التخلص من الكلمات الطنانة يا يسوع الناصري، من الكلمات الطنانة ، والأفكار الضخمة، وممالك السماء؟ وهل يعني هذا انه حتى ابنك لم ينجح

في شفائك؟»، وخبط قبضة يده على الأرض. «مملكة السماء هنا: على الأرض. هنا الرب : انه ابنك. هنا الأبدية: هي كل لحظة ، يا يسوع الناصري، كل لحظة تمر. ألا تكفيك اللحظات؟ ان كان الجواب لا فان الأبدية أيضاً لن تكفيك»

لزم الصمت ، ثم سمع وقع خطى خفيفة في الفناء لقدمين حافيتين تقتربان منه .

سأل يسوع، وهو ينهض «من هناك؟»

أجاب الملاك مبتسماً «امرأة»، ومضى ورفع رتاج الباب.

«أي امرأة؟»

هزّ الملاك اصبعه وكأنما يوبخه . قال «لقد قلت لك من قبل - أنسيت؟ ليست هناك غير امرأة واحدة في العالم، واحدة، واحدة تحمل وجوهاً لا حصر لها. وأحد تلك الوجوه سيظهر . فانهض لترحب به. أنا ذاهب»

وكالأفعى، انزلق داخل نشارة الخشب واختفى.

توقف وقع الخطى خارج الباب . فأغمض يسوع عينيه ميمماً وجهه شطر الجدار، متظاهراً بالنوم. دفعت يد الباب فانفتح ودخلت منه امرأة، حابسة أنفاسها. تقدمت ببطء حتى وصلت الى الركن الذي يستلقي فيه يسوع، ودون أن تفوه بكلمة أو تثير أي ضجيج، تكومت عند قدميه.

شعر يسوع بالدفء يتصاعد من أخمص قدميه الى ركبتيه، وفخذيه، وقلبه، وعنقه. فأنزل يده حتى وصلت الى خصلات الشعر وتلمست وجه المرأة، ونحرها، ونهديها وسط الظلام. فانحنت وكلها ترقب واستسلام، ولم تتكلم؛ لكن لحمها كان يرتعش وكامل جسدها ينضح بعرق مصقع.

قال الرجل بصوت منخفض، رقيق، ملؤه الحنو «من أنت؟»

ارتعشت المرأة، ولم تدلي بجواب . وندم يسوع لأنه تكلم، لقد نسي مرة أخرى ماقاله له الملاك. ماهمّ إن لم يعرف اسمها، أومن أين أتت ، أو شكل، ولون، وجمال أو قبح وجهها؟ إنه الوجه الأنثوي للأرض. رحمها يكاد يخنقها؛ ففي داخله أبناء وبنات كثر، يختنقون ولا يقدرون على الخروج. وقد أتت الى الرجل لعله يشق لهم منفذاً للخروج. وعمر قلب يسوع بالشفقة عليها.

تمتمت المرأة وهي ترتعش «أنا راعوث»

«راعوث؟ أي راعوث؟»

«مرثا»

الفصل الثاني والثلاثون

ومرت الأيام، والشهور، والسنون. وتضاعف عدد الأبناء والبنات في منزل المعلم اليعازر ، وتنافست مرثا ومريم في انجاب الأطفال . والرجل يكافح، تارة في الورشة مع أخشاب الصنوبر، وسنديان القرمز والسرو. يطرحها أرضاً ويستخرج منها بالقوة أدوات الرحال؛ وطوراً في الحقول مع الرياح والمناجذ والقراص. وفي المساء يعود، مرهقاً، ليجلس في الفناء، فتُقبل عليه زوجتاه لتغسلا له قدميه وربلتيه، وتضرما النار، وتعدا المائدة لأجله وتفتحا له أذرعهما واسعاً. وكان، كما انه يعمل في الخشب، محرراً منه المهود الكامنة داخله وكما كان يعمل في الأرض، محرراً منها الأعناب وسنابل القمح التي داخلها، كذلك كان يصنع بالنساء ويطلق من دواخلهن : الرب.

قال يسوع في نفسه، أي سعادة، أي اتصال عميق بين الجسد والروح، بين الأرض والانسان!... وتمد مرثا ومريم أيديهما وتلمسان الرجل اللتان أحبتاه والأطفال اللذين خرجوا من رحمهما ويشبهونه، تلمسانهم لتريا ان كانوا مع كل هذا الفرح والعذوبة حقيقيين. لقد

بدا لهما ان كل هذا الفيض من السعادة كثير عليهما، وأصابتهما الرعدة.

وذات ليلة حلمت مريم حلماً رهيباً. فنهضت من سريرها وخرجت الى الفناء فرأت يسوع؛ كان قد اغتسل وجلس برضى على الأرض، وراحتا يديه مغروزتان في التربة. اقتربت منه وجلست الى جواره، ثم سألت بصوت رقيق «ماهي الأحلام يا معلم؟ ممَّ تتألف؟ ومن يرسلها؟»

أجابها يسوع «لا هي ملائكة ولا شياطين. وعندما بدأ لوسيفر ثورته على الرب، لم تتمكن الأحلام من اتخاذ قرارها بالانضمام الى هذا الجانب أو ذاك. فظل موقعها بين الملائكة والشياطين، وقذف بها الرب الى جحيم النوم... لماذا تسألين؟ بماذا حلمت يا مريم؟»

انفجرت مريم باكية ولم تعط جواباً. مسَّد يسوع عليها، قائلاً «مادمت تحتفظين به في داخلك يا مريم سيظل ينهش أحشاءك . اخرجيه الى النور حتى تتخلصي منه»

كادت مريم تبدأ بذلك لكن خوفها كان من الشدة بحيث تعذَّر عليها التنفس، فداعبها يسوع ليمنحها الشجاعة.

«كان القمر طوال الليل ساطعاً بقوة حتى جافاني النوم. ولكن يبدو أنني قرابة الفجر استغرقت في النوم، فحلمت بطائر...لا، لم يكن طائراً: كانت له ستة أجنحة من نار- لابد أنه أحد السيرافيمات التي تحيط بعرش الرب اقتربَ، وحوَّم بصمت حولي ومن ثم انقضَّ فجأة وطوَّق رأسي بأجنحته، وأقحم منقاره في أذني وقال لي... يا معلم، أتوسل اليك، أقبِّل قدميك، مُرني بالصمت»

«تشجعي يا مريم. ألست معك؟ لم أنت خائفة؟... حسن، لقد كلَّمك . ماذا قال؟

«قال إن كل هذا يا معلم، هو...»

مرة أخرى تعذَّر عليها التنفس، فعانقت ركبتي يسوع وشدَّت عليهما بقوة بذراعيها.

«إن كل هذا هو ... ماذا، يا مريم العزيزة؟»

انفجرت في نوبة بكاء وهي تقول «حلم»

ارتعدت فرائص يسوع «حلم؟»

«نعم، يا معلم. كل هذا حلم»

«ماذا تعنين بكل هذا؟»

«أنت، وأنا، ومرثا، وعناقنا في الليل... والأطفال... كله، كله- كله أكاذيب! أكاذيب خلقها الغاوي ليضللنا! أخذ النوم، والموت والهواء وصاغها على شكل ... خلِّصني يا معلم!»

أخذت تتقلب على الأرض، ثم اهتزت اهتزازة متشنجة برهة من الزمن، وفجأة تصلَّبت. هرعت مرثا اليها وهي تحمل بعضاً من خل الورد ودلكت به صدغيها. أفاقت مريم، وفتحت عينيها، ولما رأت يسوع تشبثت بقدميه.

قالت مرثا «لقد حركت شفتيها يا معلم. انحنت. تريد أن تقول لك شيئاً»

مال يسوع ورفع لها رأسها، فحرَّكت شفتيها.

«ماذا قلت، أيتها الحبيبة مريم؟ انني لا أسمعك»

استجمعت مريم كل شجاعتها، وغمغمت «وأنك أنت يا معلم... «انني أنا؟ تكلَّمي!»

«... قد صُلبت!». قالت هذا ومن ثم تدحرجت مرة أخرى على الأرض وأغمي عليها.

مدَّداها على السرير، ولازمتها مرثا. أما يسوع ففتح الباب وخرج الى الحقول. كان يختنق. وسمع وقع خطى خلفه. التفت، فرأى الفتى الزنجي.

فصرخ به غاضباً «ماالأمر؟ أريد أن أكون وحدي»

أجابه الزنجي، وعيناه تلمعان «أخاف من أن أتركك وحدك يا يسوع الناصري. هذه لحظة شاقة. وقد يضطرب عقلك»

«هذا ما أريده بالضبط. أحياناً يعيق عقلي الملعون بصيرتي»

ضحك الزنجي، وقال «أأنت امرأة حتى تؤمن بالأحلام؟ دع البكاء للنساء. إنهن اناث، ولا يحتملن الفرح العارم، فيبكين. أما نحن فنتحمل، أليس كذلك؟»

«نعم. اصمت!»

حثَّا خطاهما وارتقيا تلة خضراء، تنمو بين أعشابها شقائق النعمان وأزهار الربيع. كانت الأرض تفوح برائحة الصعتر، وكان بوسع يسوع أن يشاهد منزله من بين أشجار الزيتون. وكان الدخان يتصاعد بهدوء من السقف، واطمأنت روح يسوع، وقال في نفسه، لقد استعادت المرأتان قواهما، وقد جلستا القرفصاء أمام الموقد وأضرمتا ناراً... قال للزنجي «هيا بنا نعود دون أن نفه بكلمة. انهما امرأتان! ارفق بهما»

ومرت الأيام. وذات مساء ظهر عابر سبيل غريب، شبه ثمل. حدث ذلك في يوم السبت، يوم عطلة يسوع عن العمل. وقد جلس على عتبة الدار وأجلس أصغر أبنائه وأصغر بناته على ركبتيه، يعابثهما. وكانت قد أمطرت في الصباح، لكن الجو صحا في فترة بعد الظهر، ومن ثم طفت سحب رقيقة بلون الكرز متجهة غرباً، وتلونت السماء من بينها بلون أخضر صرف، كما المرج. وكانت هناك حمامتان تهدلان على السقف. جلست مريم الى جوار يسوع، ثدياها متدليان وممتلئان.

توقف ابن السبيل، والقى نظرة خبيثة على يسوع وضحك. وقال وهو يفأفئ «لاشك بأنك كنت محظوظاً ! مضت السنون من أمام باب

دارك ورحلت وأنت جالس كالشيخ الجليل يعقوب مع زوجتيه ليئه وراشيل. وأنت أيضاً لديك زوجتان ـ مرثا ومريم. احداهما، كما سمعت، مسؤولة عن شؤون المنزل والأخرى تتكفل بك؛ في حين أنك مسؤول عن كل شيء : الخشب، والأرض والزوجين- والرب . ولكن يجب أن تظهر للملأ قليلاً؛ أخرج من باب دارك، ظلّل عينيك من نور الشمس وحدّق الى أرجاء العالم لترى مايدور فيه... هل سبق لك أن سمعت عن بيلاطس ، بيلاطس البنطي! ليت عظامه تشوى بالقار!»

تأمل يسوع ابن السبيل شبه الثمل وابتسم. قال «أهلاً بك، يا سمعان القيرواني، يا رجل الرب والخمر! خذ مقعداً واجلس. يا مرثا، هاتي كأساً من الخمر لصديقي القديم»

جلس ابن السبيل على المقعد وتناول كأس الخمر براحتي كفيه. قال باعتزاز «كل العالم يعرفني. الجميع جاؤا الى حانتي ليتعبدوا. لابد وأنك أنت أيضاً فعلت، يا معلم اليعازر- ولكن لا تغير الموضوع. كنت أسألك إن كنتَ سمعتَ ببيلاطس، بيلاطس البنطي. هل رأيته مرة؟»

وظهر الزنجي ، واتكأ على قائمة الباب وأخذ يستمع.

قال يسوع، وهو يجاهد ليتذكر «أرى سحابة رقيقة تعبر خيالي وعينين باردتين، رماديتي اللون كعيني صقر، وضحكة ملؤها السخرية، وخاتماً ذهبياً... ولا أذكر أي شيء آخر. آه، نعم- أرى طاساً فضياً أحضر اليه ليغسل فيه يديه. ولاشيء آخر. لابد أنه كان حلماً، أو أن العقل تجمَّد. ارتفع قرص الشمس ومن ثم تلاشى... ولكن الآن وقد ذكّرتني به، يا قيرواني، فانني أذكره: لقد عذبني أيما عذاب أثناء نومي»

«اللعنة عليه! لقد سمعت أن الأحلام في نظر الرب لها تقدير أكبر من الواقع اليومي. حسن، لقد عاقب الرب بيلاطس. لقد صُلب!»

أطلق يسوع صرخة «صُلب!»

«ولم الدهشة؟ يستأهل! لقد وجدوه بالأمس ، عند بزوغ الفجر - مصلوباً. ويبدو أن عقله قد أخذ يختل. ولم يعد يراوده النوم، فيقوم من سريره ويحضر طاساً ويأخذ يغسل يديه طوال الليل، وهو يصرخ «إنني أغسل يديّ وأشطفهما: انني بريء من دمه!». لكن الدم يظل عالقاً في يديه، فيحضر مزيداً من الماء ويعاود غسلهما. ومن ثم ينطلق خارجاً ويجوب أنحاء الجلجلة، ولا يجد الراحة. وكل ليلة يأمر اثنين من عبيده المخلصين أن يضربوه بسوطه هو. ثم يجمع بعض الأشواك يجعلها على شكل اكليل ويقحمه على رأسه، حتى يجري دمه»

تمتم يسوع «أذكر... أذكر...»، وبين الفينة والأخرى ينظر خلسة الى الفتى الزنجي الذي جلس متكئاً على قائمة الباب منصتاً بانتباه.

«وبعد ذلك أدمن على شرب الخمر وراح يتنقل بين الحانات . وأصبحت امرأته تتقزز منه ومن ثم هجرته. وبعد ذلك صدرت أوامر من روما بخلعه ... أتسمعني ، يا معلم اليعازر؟ لماذا تتنهد؟»

حدَّق يسوع الى الأرض ولم يدل بجواب. وأعاد الصبي ملء كأس سمعان وهمس له في أذنه «اصمت! وارحل!»

لكن سمعان ثار وغضب، وقال «ولمَ أصمت! باختصار، بالأمس عند الفجر عُثر على صديقك بيلاطس فوق قمة الجلجلة، مصلوباً!»

شعر يسوع فجأة وكأن طعنة سددت الى قلبه، وكأن رمحاً اخترقه؛ وتورَّمت الندوب الزرقاء الأربعة على يديه وقدميه واحمرَّ لونها.

رأت مريم الشحوب يعلو وجهه، فتقدمت منه وراحت تمسد

على ركبتيه. قالت «أنت متعب يا حبيبي. تعال الى الداخل واسترح»
كانت الشمس قد غربت؛ وبرد الهواء. تعب القيرواني ، الذي أضحى الآن ثملاً تماماً، من كثرة الكلام فغاص في النوم. أمسك الزنجي به من ذراعه وأنهضه بحركة واحدة وجرَّه خارج القرية.
قال له غاضباً ، مشيراً الى الطريق المؤدية الى أورشليم «أنت تهذي . ارحل!»
عاد الفتى الى المنزل يخامره القلق. كان يسوع متمدداً في ورشته، وعيناه مثبتتان على كوة المنور، وكانت مرثا تعدّ طعام العشاء. أما مريم فكانت ترضع أصغر الأطفال وتراقب يسوع بصمت. ثم دخل الفتى الزنجي، وشرر الغضب مايزال يتطاير منهما.
قال «لقد رحل. أصبح ثملاً تماماً، ولم يعد يدري مايقول»
التفت يسوع ونظر الى الزنجي نظرة أسى ، وعض على شفتيه حتى لا تجرؤان على الانفراج والبوح. ومرة أخرى التفت الى الزنجي، وكأنه يطلب منه العون. لكن الصبي وضع اصبعه على شفتيه وابتسم له.
قال «اخلد الى النوم. اخلد الى النوم»
أغمض يسوع عينيه. تراخت شفتاه، واختفت تغضُّنات جبينه، وغرق في النوم. وفي اليوم التالي عند بزوغ الفجر ولدى استيقاظه، شعر بالفرح والارتياح. وكأنه أفلت من خطر داهم. وكان الزنجي أيضاً قد استيقظ ، وأخذ يرتب الورشة، وهو يقهقه بينه وبين نفسه.
سأله يسوع وهو يغمز له بعينه «ماذا يضحكك؟»
أجابه بصوت منخفض ، حتى لا تسمعه المرأتان «انني أضحك على البشرية يا يسوع الناصري. كم من أمور مرعبة تفكر بها عقولكم البائسة في كل لحظة! تحف بكم جروف سحيقة من

الخلف. ولا ممر لكم الا الى الأمام، وهناك تجدون حبلاً ممدوداً فوق الهاوية!»

قال يسوع، ضاحكاً بدوره «لقد تعثر عقلي لبرهة من الزمن وهو يسير على حبلك هذا وأوشك أن يسقط، لكنه نجا!»

ثم دخلت المرأتان ، واتخذ الحديث منحى مختلفاً، وأُضرمت النار، وبدأ النهار. اندفع حشد من الأطفال الى الفناء وانتشروا يلعبون لعبة الغميضة.

قال يسوع ضا حكاً «ألدينا كل هذا العدد الغفير من الأطفال يا مريم؟ لقد امتلأ الفناء بهم يا مرثا. فاما أن نوسّع المنزل أو نكف عن انجاب الأطفال»

أجابته مرثا «سوف نوسع المنزل»

«انهم يكادون يتسلقون أسوار الفناء وأشجاره كفئران الحقل والسناجب. لقد أعلنّا الحرب على الموت يا مريم. بوركت أرحام النساء. انها ملأى بالبيوض، كما عند السمك، وفي كل بيضة رجل. لن يتغلب علينا الموت»

أجابت مريم «لا، لن يغلبنا الموت يا حبيبي. فقط اعتن بنفسك وكن بأحسن حال»

كان مزاج يسوع حسناً، ورغب بمضايقتها. لقد أشاعت فيه مريم هذا الصباح سروراً عظيماً، وهي نصف مستيقظة، وحين وقفت أمامه تمشط شعرها.

قال «ألا تفكرين أبداً في الموت يا مريم. ألا تلتمسين رحمة الرب، ألا تقلقين عما سيحل بك في العالم الآخر؟»

هزت مريم شعرها الطويل، وضحكت. قالت «تلك من اهتمامات الرجل. لا، أنا لا ألتمس رحمة الرب.انني امرأة ، والتمس الرحمة من زوجي. وأنا أيضاً لا أطرق على باب الرب؛

أستجدي منه كالمتسولة أن يمنحني متع الفردوس الأزلية. انني أعانق الرجل الذي أحب ولا أرغب في أي فردوس آخر.فلندع المتع الأزلية للرجال!»

قال يسوع، مداعباً كتفيها العاريين «تقولين أن المتع الأزلية هي للرجال؟ يا زوجتي الحبيبة، ان الأرض بيدر ضيق . فكيف يمكنك أن تغلقي على نفسك داخل هذه المساحة ولا ترغبين بالفرار؟»

«إن المرأة لا تسعد إلا ضمن الحدود، كما تعلم يا معلم. المرأة خزان وليست نبعاً»

ودخلت عليهما مرثا على عجل، وقالت «ثمة من يستدل على بيتنا . انه قصير القامة وسمين، أحدب، وذو رأس أصلع أشبه بالبيضة. وهو يحث خطى ساقيه الملتويتين وسرعان ماسيصل الى هنا»

واندفع اليهم أيضاً الزنجي لاهثاً ويقول «لا تعجبني نظراته، سأغلق الباب في وجهه. إنه شخص آخر يبغي أن يفسد كل شيء»

القى يسوع على الفتى نظرة صارمة، وسأله «مم تخاف؟ من يكون حتى تخاف منه؟ افتح الباب!»

غمز الزنجي له بعينه وقال بصوت منخفض «اطرده شر طردة!»

«لماذا ؟ من يكون؟»

عاد الزنجي يقول «اطرده شر طردة، ودون طرح مزيد من الأسئلة»

تملَّك يسوع الغضب، وقال «ألست حراً؟ الا أستطيع أن أفعل ما أشاء؟ افتح الباب»

ولكن هذه المرة سُمع صوت وقع أقدام في الطريق. توقفت. ثم قُرع الباب.

سأل يسوع وهو يهرع الى الفناء «من هناك؟»

فأجابه صوت أجش ، عالي النبرة «مبعوث من الرب. افتح!»

فتح الباب. وعلى عتبة المنزل وقف رجل أحدب، بدين وقصير، مازال شاباً، لكنه أصلع الرأس، وكانت عيناه يتطاير منهما الشرر.

نكصت لمرآه المرأتان اللتان كانتا قد هرعتا لمشاهدته .

قال الزائر، فاتحاً ذراعيه واسعاً «ابتهجوا وافرحوا يا أخوتي، انني أجلب لكم البشارة!»

تأمله يسوع، باذلاً جهده ليتذكر أين رآه. وشعر بقشعريرة باردة تجري على طول ظهره. سأله «من أنت؟ أظنني قابلتك في مكان ما. في احدى عمليات الصلب؟»

جرى الفتى الزنجي ليحتمي باحدى زوايا الفناء وهو يقول ساخراً «انه شاؤول، شاؤول السفاح!»

سأله يسوع ، وقد تملّكه الرعب «أأنت شاؤول؟»

«كنت كذلك، ولكني لم أعد شاؤول السفاح. لقد رأيتُ نور الحق. اسمي الآن بولس. لقد نلت الخلاص - المجد للرب! - وها أنا الآن انطلق لأخلّص العالم! ليس اليهودية، ولا فلسطين، وانما العالم برمته! إن البشارة التي أحملها لا تسعها الا محيطات ومدن مترامية الأطراف : تحتاج الى أماكن فسيحة. لا تهز رأسك ، يا معلم اليعازر، لا تضحك، ولا تسخر نعم، سأخلص العالم!»

أجاب يسوع «يا بني الرائع، لقد عدتَ لتوي من حيث تتوجه. اذكر أنني وأنا شاب مثلك انطلقت أبغي تخليص العالم أليس هذا هو معنى الشباب - ارادة تخليص العالم؟ ورحت أتجول حافي القدمين، أرتدي أسمالاً، أتمنطق بحزام مملوء بالمسامير، كما فعل الأنبياء القدامى. وأخذت أصيح «المحبة! المحبة!»، وبأشياء أخرى لم أعد أرغب بتذكرها. فرُشقت بقشور الليمون، وضُربت، وكنت قاب قوسين من الصلب. وسيحصل لك الشيء نفسه، يا بني الرائع»

كان قد استجمع زخماً، ناسياً دوره كمعلم اليعازر، وأخذ يفضي بسره لغريب.

تدخَّل الزنجي المرعوب بينهما ليحوّل مجرى الحديث . قال «لا تتكلم معه يا معلم. لدي ما أقوله له، دعني أكلمه»

ثم التفت الى الغريب مستأنفاً «ألست أنت، يا شيطان الجحيم، الذي قتل ظلماً مريم المجدلية؟ ان يديك تقطران بالدم. أخرج من فناء دارنا المحترمة!»

قال يسوع وهو يرتعد فرقاً «أنت ؟ أنت؟»

أجاب بولس مع تنهيدة عميقة «نعم، أنا . وانني أضرب على صدري وأمزق ملابسي وأهتف «لقد أثمت! أثمت!». كنت أتلقى رسائل تحتوي على تعليمات بقتل كل من يدنس ناموس موسى. وقتلت كل من تمكنت منهم وكنت في طريق عودتي الى دمشق واذا بي أرى فجأة ومض برق يشق عنان السماء ويطرحني أرضاً . وبهرتني شدة الضياء، فلم أعد أبصر. لكني سمعت صوتاً مؤنباً آتياً من فوقي يقول «شاؤول، شاؤول، لماذا تتعقّبني؟ ماذا فعلت لك؟»

«فهتفت» من أنت يا سيدي؟»

«قال «أنا يسوع الذي تتعقبه. انهض، وارحل الى دمشق، وهناك سيقول لك المخلصون لي ماذا عليك أن تفعل». فقفزت واقفاً وفرائصي ترتعد. كانت عيناي مفتوحتين، لكني لم أر شيئاً. فأمسك بي مرافقي من يدي وأحضرني الى دمشق. وجاء أحد تلامذة يسوع، واسمه حنانيا- باركه الرب- الى الكوخ الذي كنت أقطنه. وضع يده على رأسي ورتَّل «يا مسيح، أعد له بصره حتى يتمكن من الترحال في كل أرجاء الدنيا ليعلن البشارة!». وبينما هو يتكلم سقطت الحراشف من عينيّ، واستعدت بصري وعُمِّدتُ. لقد عُمِّدتُ، أصبحتُ بولس، المرسل الى كل الأمم. وأنا أبشر ـ على

اليابسة، وفي البحر ـ أبشر بالبشارة... لماذا تنظر اليَّ هكذا، وعيناك تجحظان من رأسك؟ ولماذا نهضت هكذا مع كل هذه الجلبة يا معلم اليعازر؟»

راح يسوع يقطع أرض الفناء ، وهو يشد على قبضتيه، ويرغي ويزبد. فرأى المرأتين الشاحبتين واقفتين في الركن، ورأى الأولاد يصرخون ويتشبثون بتلابيب أمهاتهم، فأمرهم قائلاً «اذهبوا الى الداخل ، دعونا وحدنا!». ثم اقترب الزنجي المرهق والمتوتر منه ليكلمه، لكنه دفعه عنه بغضب، وقال «ألستُ حراً؟ لقد بقيتُ صامتاً طويلاً، والآن سأتكلم!»

والتفت الى بولس ، وجأر بصوت يرتعش «عن أي بشارة تتكلم؟»

«إن يسوع الناصري ـ لابد أنك سمعت به- لم يكن ابن يوسف ومريم؛ كان ابن الرب. هبط الى الأرض واتخذ شكلاً انسانياً حتى يخلِّص البشرية. وقبض عليه الكهنة والفريسون الأشرار وأحضروه الى بيلاطس وصلبوه. لكنه في اليوم الثالث قام من بين الموتى وصعد الى السماء. لقد قُهِرَ الموت، يا اخوتي، وغُفِرَت الذنوب، وفُتِحَت أبواب السموات»

صرخ يسوع «أرأيت يسوع الناصري هذا الذي قام؟ رأيته بأم عينيك؟ صفه لي؟»

«انه كومض البرق ـ ومض برق يتكلم»

«كاذب!»

«تلاميذه رأوه. تجمعوا بعد صلبه في العلية، وأغلقوا عليهم الباب. وفجأة ظهر لهم وقفز بينهم وقال يخاطبهم «السلام عليكم!»، ورأوه جميعاً وذُهلوا، لكن توما لم يقتنع، فأدخل اصبعه في جروحه وأعطاه بعض السمك فأكله.»

«كاذب!»

لكن بولس كان قد استشاط غضباً، وتطاير الشرر من عينيه، وانتصبت قامته المحدودبة. قال «إنه لم يولد من انسان : أمه كانت عذراء، وقد هبط الملاك جبريل من السماء وقال «السلام عليك يا مريم»، وسقطت الكلمة كالبذرة في رحمها، وهكذا ولد هو»

«كاذب ! كاذب!»

تملَّكت الدهشة بولس ووقف لا يبدي حركة، فنهض الزنجي وأرتجَ الباب. وكان الجيران حين سمعوا الصراخ قد فتحوا أبواب منازلهم نصف فتحة وأصاخوا أسماعهم . وعادت المرأتان المذعورتان للظهور في الفناء، لكن الزنجي أعادهما الى الداخل مرة أخرى. وكان يسوع يغلي من شدة الغضب، ولم يعد بمقدوره أن يهدِّئ من غلواء قلبه. ثم اقترب من بولس، وأمسك به من كتفيه وراح يهزه بعنف.

صرخ «كاذب! كاذب! أنا يسوع الناصري وأنا لم أصُلَب قط، ولم أقم قط. أنا ابن مريم ويوسف نجار الناصرة. لست ابن الرب، أنا ابن الانسان ـ كغيري من الناس. أنت كافر وقح! كاذب! أبهذه الأكاذيب، أيها المخادع ستتجرأً على تخليص العالم؟»

غمغم بولس، مرتبكاً «أنت، أنت؟». وبينما كان المعلم اليعازر يتكلم، يرغي ويزبد، لاحظ بولس وجود ندب المسامير الزرقاء لجراح يديه وقدميه، وجرحاً آخر على قلبه.

صرخ يسوع «لماذا تدير عينيك هكذا؟ لماذا تحدق الى يدي وقدميّ. ان تلك الندوب التي تراها طبعها الرب عليَّ أثناء نومي. الرب، أو المغوى : ما أزال لا أعرف أيهما فعل ذلك. لقد حلمت أنني على الصليب أتألم ، لكني أطلقت صراخاً، فاستيقظت، وتلاشى ألمي. والألم الذي كان يجب أن أعانيه وأنا يقظ، عانيته وأنا نائم ـ ونجوت!»

جأر بولس ، وهو يضغط على صدغيه لكي لا ينفجرا «اصمت! اصمت!»

ولكن كيف يمكن ليسوع أن يلزم الصمت. لقد شعر وكأن تلك الكلمات كانت حبيسة صدره طوال سنين عديدة. والآن هاهو يفتح وتندفع خارجة منه. قبض الزنجي على ذراعه وقال له «اصمت! اصمت!»، لكن يسوع رماه الى الأرض بدفعة واحدة ثم التفت الى بولس.

«نعم، نعم، سأقول كل شيء. يجب أن أجد الراحة! ماكان ينبغي أن أعانيه وأنا يقظ، عانيته وأنا نائم. لقد نجوت، وأتيت الى هذه القرية الصغيرة تحت اسم مغاير وبجسد مختلف. وهنا عشت حياة انسان: أكلت، وشربت ، وعملت وأنجبت أطفالاً، وخمد الحريق الهائل ، وأصبحت بدوري ناراً لطيفة هادئة، تكوَّمتُ داخل الموقد، وكانت زوجتي تطهو وجبات الأطفال. لقد انطلقت أروم قهر العالم لكني ألقيت مرساتي في هذا الغور الصغير الأليف. واستقرت أموري ـ وليس لدي ما أشكو منه. أؤكد لك اني ابن الانسان، وليس ابن الرب... كفاك تجوب العالم كله وتنشر فيه الأكاذيب . سوف أنهض وأعلن الحقيقة!»

ثم حان وقت بولس لينفجر، فصرخ به وهو يندفع نحوه «أغلق فمك الوقح! اصمت. وإلا سمعك الناس وماتوا خوفاً . وسط هذه العفونة، وجور هذا العالم وفقره، يبقى يسوع الذي صلب ثم قام العزاء النفيس الوحيد للانسان الشريف، الانسان المظلوم. وما همَّني! أكان هذا صحيحاً أم زائفاً. يكفي أن يتم خلاص العالم!»

«الأفضل أن يفنى العالم مع الحقيقة على أن تُخلِّصه الأكاذيب. ففي قلب مثل هذا الخلاص تكمن الدودة الضخمة ـ الشيطان»

«ماهي (الحقيقة)؟ وماهو (الزيف)؟ إن مايمنح الناس القدرة

على التحليق، ماينتج الأعمال العظيمة والأرواح العظيمة ويرفعنا الى قامة الانسان على الأرض ـ هو الحقيقي. وما يقص أجنحة الانسان ـ هو الزائف»

«أراك لا تنوي أن تلزم الصمت، يا ابن الشيطان! الأجنحة التي تتكلم عنها ماهي إلا أجنحة ابليس»

«لا، لن أصمت. لا يهمني قط ماهو الحقيقي وماهو الزائف ، أو سواء صلب أم لم يصلب. أنا أخلق الحقيقة، أخلقها بالعناد والتوق والايمان. انني لا أجاهد لأعثر عليها- بل أبنيها . أبنيها حتى تعلو فوق قامة الانسان وهكذا أجعل الانسان ينمو. فاذا كان لا مناص لك من تخليص العالم فمن الضروري ـ أتسمع ـ ضرورة مطلقة أن تُصلَب، وأنا الذي سأصلبك، شئت أم أبيت؛ ومن الضروري لك أن تُبعَث من جديد، وأنا الذي سأبعثك، شئت أم أبيت. لا يهمني ان جلستَ هنا في قريتك البائسة، تصنع المهود، والأجران وتتجب الأطفال. وأُعلِمُكَ انني أنوي أن أجبر الهواء على أن يتخذ شكلك: جسدك، واكليل الشوك، والمسامير، والدماء... أصبحت القطع كلها الآن جزءاً من آلية الخلاص- أصبح كل شيء لا مفر منه. وسوف ترتفع الأبصار في كل ركن من العالم لتشاهدك معلقاً في الهواء ـ مصلوباً. سوف يبكون ، وسوف تطهر الدموع أرواحهم من كل آثامها. ولكن في اليوم الثالث سوف أبعثك من بين الموتى ، لأنه لا خلاص بلا قيامة. إن العدو الأخير، والأشد رهبة، هو الموت. وسوف ألغي الموت. كيف؟ ببعثك كيسوع، ابن الرب ـ المسيح!»

«هذا غير صحيح. سوف أقف وأصرخ قائلاً اني لم أُصلَب، ولم أقم من بين الموتى، واني لست الرب! ... لماذا تضحك؟»

«اصرخ كما تشاء. لستُ خائفاً منك. بل اني لم أعد بحاجة اليك. الدولاب الذي أدرته اكتسب زخماً: فمن يقدر على كبحه

الآن؟ الحق أقول لك، حين كنت تتكلم هناك وددتُ لوهلة من الزمن لو انقضُّ عليك وأخنقك مخافة أن تقوم مصادفة بالكشف عن هويتك، وتبيِّن للبشرية المسكينة أنك لم تُصلَب . لكني تمالكت نفسي للتو، وقلت لنفسي، ولم لا يصرخ؟ سوف يقبض عليك التلاميذ المخلصون، ويرمون بك الى المحرقة بتهمة الكفر ويحرقونك!»

«أنا لم أقل غير كلمة واحدة، لم آتِ الا بدعوة واحدة : المحبة، المحبة - ولاشيء آخر»

«إنك بلفظك لكلمة «المحبة» أطلقت كل الملائكة والشياطين الذين كانوا غافين في أحشاء الانسانية. فكلمة «المحبة» ليست، كما تظن، مجرد كلمة بسيطة ، وادعة؛ ففيها تكمن جيوش مذبوحة، ومدن محروقة، ودماء مهروقة. انها أنهار من الدماء، وأنهار من الدموع: ووجه الأرض وقد تبدل. يمكنك أن تصرخ الآن قدر ما تشاء، يمكنك أن تجعل صوتك يبحّ وأنت تصرخ «ليس هذا ماقصدت - هذه ليست محبة. لا يقتل بعضكم بعضاً! نحن أخوة! كفى!»... ولكن، أيها البائس، هل بامكانك أن تكف ؟ إن ماكان لا رادَّ له!»

«انك تضحك كما الشيطان»

«لا، بل كرسول. سوف أصبح رسولك شئت أم أبيت. سوف أوجِّهكُ وأوجِّه حياتك، وتعاليمك، وصلبك، وقيامتك، كما أشاء. إن يوسف النجار لم ينجبك، أنا أنجبتك- أنا، بولس الكاتب الطرسوسي، الكيليكي»

«لا! لا!»

«ومن طلب رأيك؟ لا أحتاج الى اذن منك. لماذا تقحم أنفك في شؤوني؟»

انهار يسوع على منصة الفناء الجافة ودفن رأسه بين ركبتيه ، يائساً. كيف وقع بين مخالب هذا الشيطان؟

وقف بولس يعلو يسوع الساجد وخاطبه مؤنباً «كيف يمكن لمثلك أن يخلِّص العالم يا معلم اليعازر؟ أي قدوة صالحة يمكنك أن تقدمها للعالم لتقنعه باتِّباعك؟ هل سيتخطى معك، طبيعته، وهل سينبت لروحه جناحان؟ اذا أراد العالم الخلاص، فسيصغي اليَّ-اليَّ!»

أخذ يتلفت حوله. الفناء مقفر. كان الزنجي مكوَّماً في احدى زواياه، وعيناه البيضاوان اللامعتان تتحركان، يعوي ككلب راع مكبَّل. وكانت المرأتان مختبئتين، وقد فرَّ الجيران هاربين. لكنَّ بولس ارتقى المنصة ـ وكأن عينيه تريانه الفناء مربعاً شاسعاً متـرامي الأطراف مكتظاً بالناس ـ ارتقاها بقفزة واحدة وأخذ يلقي موعظة في الحشود اللامرئية.

«يا إخوتي، ارفعوا أبصاركم . انظروا! ترون في هذا الجانب المعلم اليعازر، وفي الجانب المقابل بولس، خادم المسيح. اختاروا ! اذا تبعتموه، اذا تبعتم المعلم اليعازر، فسوف تعيشون حياة ضنك وعبودية، سوف تعيشون وتموتون كما يعيش الغنم ويموتون ـ انهم يخلفون وراءهم قليلاً من الصوف، وبعض الثغاء والكثير من الروث. واذا تبعتموني: فالمحبة، والكفاح، والحرب ـ سوف نقهر العالم! اختاروا! على هذا الجانب، المسيح، ابن الرب، خلاص العالم؛ وعلى الجانب الآخر ، المعلم اليعازر!»

كان قد اتقد حماساً، وهو ينقِّل ناظريه المستديرين كعيني صقر بين الحشود اللامرئية. وكان دمه يغلي. وانهارت جدران الفناء، واختفى من أمامه الصبي الأسود والمعلم اليعازر، وسمع صوتاً يتردد في الفضاء :

«يا رسول الأمم، أيها الروح العظيمة، يا من عجنتَ الزيف بدمك ودموعك وحوَّلته الى حقيقة : أمسك بالزمام وقُدنا! الى أي مدى سنصل؟»

فتح بولس ذراعيه واسعاً، معانقاً العالم كله وهتف «الى أقصى امتداد بصر الانسان. بل لما بعده. الى أقصى مايصبو اليه قلب الانسان! العالم كبير ـ المجد للرب! فبعد أرض اسرائيل تقع مصر، وسوريا ، وفينيقيا، وأسيا الصغرى، والجزر الكبيرة الغنية، قبرص، ورودس، وكريت. وأبعد منها : روما. وأبعد أكثر : البرابرة، بخصلات شعورهم المرسلة الشقراء وفؤوسهم ذات الحدِّين... ما أبهج أن ننطلق في الصباح الباكر، تهب ريح الجبال أو البحر في وجوهنا، حاملين الصليب لنزرعه في الصخور وفي قلوب الناس- لنسيطر على العالم! ما أمتع أن نُنبذ، ونُضرب، ونُرمى في حُفر عميقة ونُقتَل ـ كله فداءاً للمسيح!»

عاد الى وعيه وهدأت غلواؤه. وتبخرت الحشود الخفية في الأثير. ثم التفت فرأى يسوع، الذي كان عندئذ متكئاً على الجدار يستمع اليه، وقد علاه الشحوب.

«اكراماً للمسيح... ليس أنت يا معلم اليعازر، بل المسيح الحقيقي ـ مسيحي أنا!»

لم يتمكن يسوع من كبح نفسه أكثر من ذلك، فانفجر يجهش باكياً.

فاقترب الفتى الأسود منه، وقال له بصوت رقيق «يا يسوع الناصري، لم تبكي؟»

تمتم يسوع «يا صاحبي السري، كيف يمكن لأي انسان أن يرى السبيل الوحيد لتخليص العالم دون أن يغلبه البكاء؟»

هنا نزل بولس عن المنصة، وكان الشعر الخفيف الذي يغطي

رأسه يتبخر. خلع صندله، وضربه معاً لينفض عنه الغبار ثم استدار نحو الباب الخارجي.

قال ليسوع، الذي وقف مرتبكاً، في وسط الفناء «لقد نفضت غبار بيتك عن صندلي. وداعاً! سلامي للطعام الطيب، والخمر الجيدة، والقبلات الممتعة، يا معلم اليعازر، وطول عمر رائع! واياك أن تتدخل في عملي. فاذا فعلت، انتهى أمرك ـ أتسمع، يا معلم اليعازر ـ انتهى! ولكن لا ينبغي أن تسيء فهمي. لقد أسعدني لقاؤك. لقد تحررت، وهذا ماكنت أصبو اليه: أن أتخلص منك. حسن، هاقد تخلصت منك والآن أنا حر، حر التصرف. وداعاً!»

قال هذا ثم فتح الباب وبقفزة واحدة أصبح في الشارع ميمماً وجهه شطر أورشليم.

قال الزنجي، وهو يتوجه نحو المخرج ليراقبه بعينين غاضبتين «كم هو مستعجل! لقد رفع كُميِّه ويركض كذئب جائع ، يركض ليلتهم العالم»

ثم التفت ليتأمل يسوع وهو يمارس حرفته، وليطرد عنه الروح الخطرة التي هبطت عليه من السماوات لتزعجه. لكن يسوع كان قد اجتاز العتبة، ووقف في وسط الطريق يراقب، يعذبه كرب شديد وتوق، الرسول الغاضب يغيب ركضاً في المدى. واستيقظت داخله ذكريات رهيبة وآمال كان قد نسيها تماماً.

انتاب الزنجي الخوف، فأمسك به من ذراعه، وقال بصوت منخفض، ونبرة آمرة «يا يسوع، يا يسوع الناصري، إن تفكيرك يضطرب. الى ما تنظر؟ هيا ندخل!»

إلا أن يسوع ، الصامت والشاحب اللون ، هز ذراعه وتخلص من يد الملاك.

فكرر الآخر بغضب «هيا الى الداخل. يجمل بك أن تنفّذ كلامي، أنت تعلم جيداً من أنا»

هدر يسوع قائلاً «دعني وشأني!» وعيناه مثبتتان على بولس الذي كاد أخيراً أن يختفي في آخر الدرب.

«أتريد أن تذهب معه؟»

هدر يسوع مرة أخرى «دعني وشأني!»، وكانت أسنانه تصطك، فقد شعر فجأة ببرد شديد.

نادى الزنجي «يا مريم، يا مرثا!»، وأمسك بيسوع من خصره بقوة ليمنعه من الهروب.

سمعته المرأتان فهرعتا، وخلفهما جمع الأولاد . وفُتحت الأبواب المجاورة لهم، وأطل الجيران منها وتحلقوا حول يسوع الواقف في وسط الطريق، شاحب اللون كملاءة. وفجأة أسدل جفناه، وتدحرج واقعاً، بهدوء، ورفق، على الأرض.

أحس بأنه يرفع ، ويوضع الى السرير ، وشعر بصدغيه يتلقيان رذاذاً من خُلاصة زهر البرتقال، واشتم رائحة خل الورد الذي وضع أمام أنفه. ثم فتح عينيه، فرأى زوجتيه وابتسم. حين لمح الفتى الأسود شد على يده.

قال «تشبَّث بي جيداً، لا تتركني أرحل. إنني في أحسن حال هنا».

الفصل الثالث والثلاثون

جلس يسوع تحت تعريشة عنب عتيقة في فناء داره، لحيته البيضاء تتهمر على صدره المكشوف . انه يوم عيد الفصح، وقد استحم، وطيَّب شعره، ولحيته، وتحت ابطيه، وارتدى ثياباً نظيفة. الباب مغلق، ولا أحد بجواره . كانت زوجتاه، وأولاده، وأحفاده يضحكون ويمرحون في الجزء الخلفي من المنزل، والزنجي، الذي كان قد اعتلى افريز الجدار عند الفجر، محدِّقاً صوب أورشليم صامتاً وغاضباً.

نظر يسوع الى يديه. أصبحتا سمينتين جداً وامتلأتا بالعقد . عروقهما الجافة ذات اللون الأزرق الداكن بارزة، وبدأ الجرح القديم الغامض المرتسم على ظهر كل يد يتلاشى ويختفي. هز رأسه الأبيض ذا القسمات الخشنة وتنهد.

«ما أسرع انصرام السنين، كم أصبحت عجوزاً! وليس فقط أنا، بل زوجتاي وأشجار الفناء والأبواب والنوافذ والحجارة التي أطأها»

انتابه الخوف، فأغمض عينيه وشعر بالزمن يجري كجريان

المياه من منبعها في الأعالي ـ من عقله ـ هبوطاً الى عنقه، وصدره، وعورته وفخذيه، ليصب أخيراً من أخمص قدميه.

سمع وقع خطى في الفناء ففتح عينيه . انها مريم. رأته غائصاً في التأمل فاقتربت منه وجلست عند قدميه. وضع يسوع يده على شعرها، الشعر الأسود الفاحم الذي أصبح الآن، مثل شعره، أبيض . وتملّكته رقة مبهمة. وقال في نفسه، على يدي غزاها الشيب، على يدي غزاها الشيب...

ثم مال وقال لها «أتذكرين، أيتها الحبيبة مريم، أتذكرين كم من مرة جاءت طيور السنونو منذ اليوم المبارك الذي اجتزت فيه عتبة داركم وأصبحت سيداً عليه، ومنذ أن شققت طريقي كزوج لك، الى رحمك؟ كم من مرة بذرنا معاً وحصدنا القمح، وقطفنا الكروم، وجمعنا الزيتون؟ لقد ابيضَّ شعركِ، يا أعز الناس مريم، وكذا شعر مرثا الشجاعة»

أجابته مريم «نعم، أيها الحبيب، ابيضَّ شعرنا. السنون تمضي. نحن زرعنا هذه الكرمة التي نستظل بظلها الآن، زرعناها في العام الذي زارنا فيه ذاك الأحدب اللعين، الذي رماك بسحره فأفقدك وعيك ـ أتذكر؟ منذ كم من السنين ونحن نأكل من هذا العنب؟»

انزلق الزنجي عن حافة السطح دون أن يُحدِث صوتاً وتقدم منهما. فنهضت مريم وغادرت المكان . لم تكن تحب هذا الابن المتبنَّى الغريب. فهو لم يكبر، لم يشخ، إنه ليس برجل، بل روح، روح شريرة دخلت البيت ولم تغادره بعد ذلك. ولم تكن تحب عينيه المرحتين، الساخرتين، ولا أحاديثه السرية مع يسوع التي تجري ليلاً.

اقترب الزنجي، وعيناه ملؤهما السخرية، وأسنانه تلمع، حادَّة وبيضاء. قال بصوت منخفض «اقتربت النهاية، يا يسوع الناصري»

التفت اليه يسوع دهشاً «أي نهاية؟»

وضع الزنجي اصبعه على شفتيه وكرر القول «اقتربت النهاية». ثم جلس القرفصاء قبالة يسوع وأخذ ينظر اليه، ويضحك.

سأله يسوع «هل ستتركني؟»، وشعر فجأة بسعادة غريبة وارتياح.

«نعم حانت النهاية. لماذا تبتسم يا يسوع الناصري؟»

«أتمنى لك رحلة سعيدة. لقد نلت منك ما أردت: لم أعد بحاجة اليك»

«أهكذا يكون وداعك لي؟ أيمكن أن تكون بهذا الجحود؟ وكل سنيّ عمري التي أمضيتها أكدُّ من أجلك ـ وكل جهودي التي بذلتها لأمنحك كل متعة ترغب بها : أذهبت كل تلك الجهود سدى؟»

«ان كان هدفك أن تخنقني بالعسل، كالنحلة، فان جهدك قد ذهب سدى. لقد أكلت كل العسل الذي اشتهيته، قدر ما استطعت، لكني لم أغمس جناحي فيه»

«أي جناحان، أيها المستبصر؟»

«روحي»

قهقه الزنجي بخبث، وقال «أتظن، أيها البائس، أن لك روحاً؟»

«نعم لدي. وهي ليست بحاجة الى ملائكة حارسة أو فتيان سود : إنها حرة»

جن جنون الملاك الحارس من الغضب، وعوى «أيها العاصي!»، ثم التقط حجراً من أرض الفناء وفتتها بين راحتي يديه ونثرها غباراً في الهواء.

قال «لابأس، سنرى»، ثم اتجه نحو الباب وهو يصب لعناته.

❖ ❖ ❖

صراخ مسعور، ولولة، نحيب... خيول تصهل: واذا بالطريق يمتلئ بأسراب من الراكضين. كانوا يصرخون «أورشليم تحترق لقد احتلوها! ضعنا!»

كان الرومان قد حاصروا المدينة طوال شهور، لكن الاسرائيليين عقدوا آمالهم على يهوه. وأحسوا بالأمان، وقالوا ان المدينة المقدسة لن تحترق، وانه ليس لدى المدينة المقدسة ما يخيفها؛ لأنه يقف على على كل بوابة من بواباتها ملاك يمتشق سيفاً معقوفاً. أما الآن...

اندفعت النسوة الى الطريق، يصرخن وينتفن شعرهن. ومزق الرجال ملابسهم ونادوا على الرب كي يظهر. فنهض يسوع، وأمسك بمريم ومرثا بيديه، وأدخلهما الى المنزل ثم أرتج الباب.

قال لهما مشفقاً «لماذا تبكيان؟ لماذا تعارضان ارادة الرب؟ اسمعا ما سأقوله لكما، ولا تخشيا شيئاً. الزمن نار، يا زوجتيّ الحبيبتين. الزمن نار، والرب يتحكم في لهبها. وفي كل عام يشوى حملاً فصحياً. هذا العام الحمل الفصحي هو أورشليم، وفي العام المقبل سيكون روما، وفي العام الذي يليه-»

صرخت مريم «اصمت، يا معلم، أنت تنسى أننا من النساء، وضعيفتان»

قال يسوع «اغفري لي يا مريم. نسيت. حين يسلك القلب طريقاً صاعدة فانه ينسى، ويخلو من الرحمة»

بينما كان يتكلم سمع وقع خطى ثقيلة خارجاً في الطريق، وأيضاً صوت أنفاس تلهث، ثم راحت هراوات ضخمة تدق بقوة على الباب.

قفز الزنجي واقفاً، وأمسك برتاج الباب، ثم نظر الى يسوع وابتسم ساخراً. سأله وهو يكاد لا يقوى على كبح ضحكه «هل أفتح؟ انهم أصحابك القدامى يا يسوع الناصري»

«أصحابي القدامى؟»

قال الزنجي «سوف تراهم!»، وفتح الباب حتى آخره.

ظهر في ممر الباب جمع من الرجال القميئين العجائز، دلفوا الى الفناء يدبون دباً، نخرين لا يمكن التعرف عليهم، يعتمد بعضهم على بعض، كأنهم ملتصقون معاً ولا يمكن فصلهم.

تقدم يسوع خطوة واحدة ثم توقف. أراد أن يمد لهم يده ويرحب بهم. لكنه فجأة شعر بروحه تعتصرها مرارة لا تطاق- مرارة، وسخط، وشفقة. فشد على قبضتيه وانتظر. اشتم رائحة ثقيلة لخشب يحترق، وشعر يشيط وجروح لم تندمل .كان الهواء عابقاً بالروائح الكريهة. امتطى الزنجي الحصان الخشبي، وأخذ يراقبهم ويضحك.

تقدم يسوع خطوة أخرى، والتفت الى العجوز الذي دبَّ في المقدمة، وقال «أنت، الذي في المقدمة، اقترب. قف ثابتاً ريثما أزيل حطام الزمن لأتعرف عليك . إن قلبي يخفق بشدة، لكن هذا اللحم المتهدل، وهاتين العينين الملوءتين بالدفق ـ لا أتعرف عليها»

«ألا تتعرف عليَّ، يا معلمي؟»

«بطرس! ألست الصخرة التي أردتُ في يوم من الأيام خلال حماقة الشباب أن أبني عليها كنيستي؟ كم هرمتَ يا ابن يونان لم تعد صخرة بل اسفنجة تملؤها الحفر!»

«انها السنون، يا معلمي...»

«أي سنون؟ الذنب ليس ذنب السنين. فطالما الروح تقف منتصبة فانها ترفع الجسد عالياً ولا تسمح للسنين بالنيل منه. إن روحك هي التي انحطّت يا بطرس، روحك!»

«لقد أرهقت هموم العالم كاهلي. فقد تزوجت. وأنجبت أولاداً، وأصبت بجروح، وشاهدت أورشليم تحترق... أنا انسان: وكل هذا حطّمني»

تمتم يسوع متعاطفاً : نعم، أنت انسان وكل هذا عمل على تحطيمك، أيها المسكين بطرس، وفي حالة العالم كما هي اليوم عليك لكي تقوى على الاحتمال أن تكون الرب والشيطان»

ثم التفت الى التالي، الذي برز من خلف بطرس. وقال له «وأنت؟ لقد جدعوا أنفك: أصبح وجهك أشبه بالجمجمة - كلها ثقوب. كيف تنتظر مني أن أتعرف عليك؟ أفصح، أيها الصاحب القديم، تكلم. قل «يا معلم!» فلعلي أتذكر من أنت!»

أطلق ذو الهيكل المتداعي صرخة مدوية «يا معلم!»، ثم طأطأ رأسه ولزم السكون .

«يعقوب ابن زبدى الأكبر، ذو الجثة الضخمة، والعقل العنيد الصلب!»

قال يعقوب، متباكياً «بل بقاياه، يا معلم. لقد أقعدتني عاصفة عاتية. كسرت رافدة قص المركب، وخرق الهيكل، وسقط الصاري. عدت الى الميناء حطاماً»

«أي ميناء؟»

«اليك، يا معلم»

«وماذا يسعني أن أفعل لأجلك؟ لست مُسفناً تلجأ اليه. ان ما سأقوله لك يا يعقوب قاس، لكنه عادل : إن ميناءك الوحيد هو قاع البحر. وكما كان يقول والدك، اثنان واثنان يساوي أربعة»

فجأة استولى عليه السخط والحزن الدفين. والتفت الى مجموعة ثانية من العجائز «وأنتم الثلاثة؟ هيه، أنت، أنت، يا سويقة البقول الخرقاء : ألم تكن ذات يوم نثنائيل؟ لقد ترهلتَ - انظر الى مؤخرتك، وبطنك ولغدك، كلها منتفخة ومتهدلة! ماذا فعلت بعضلاتك القوية يا نثنائيل؟ أما الآن فما أنت غير هيكل لمنزل من

ثلاث طبقات. نعم، ما أنت غير بقايا منتصبة، ولكن لا تبتئس ـ إن هذا كاف يا نثنائيل لتفوز بالجنة»

لكن الغضب غلب نثنائيل. قال «أي جنة؟ كأنما لم يكفني اني فقدت أذنيَّ، وأصابع يديّ واحدى عينيّ لا، فبالاضافة الى هذا، فان كل مامزجته فينا : الغرور والخيلاء، والفخامة، ومملكة السماء ـ كل هذا كان ثمالة وهاقد صحونا منه الآن! مارأيك يا فيلبّس ألست على حق؟»

قال عجوز ضئيل الجسم ضاع في وسط الجمع «ماذا عساي أقول يا نثنائيل، ماذا عساي أقول يا أخي فأنا المسؤول عن انضمامك الينا!»

هز يسوع رأسه متعاطفاً ثم أمسك بيد هذا العجوز القميء الذي أطلقوا عليه اسم فيلبّس،وقال له «لقد أحببتُكَ يا فيلبّس حباً ملأ جوارحي، يا أخْيَر الرعاة، لأنك لم تكُ تملك قطيعاً. لم تكُ تملك الا عصا الراعي وكنت ترعى الهواء. في الليل كنت تطلق سراح الرياح لترعى. وفي خيالك كنت تضرم النار، في خيالك كنت تعدُ مرجلاً كبيراً، تغلي فيه الحليب ثم تسكبه من أعلى الجبل ليجري الى السهل ويشرب منه الفقراء. كانت ثروتك كلها في قلبك. أما في الخارج : فالفقر، وصيحات الاستهزاء، والعزلة والجوع. هذا هو معنى أن تكون تلميذاً لي! أما الآن... فيلبّس، يا فيلبّس، يا أخْيَر الرعاة، الى أي درك انحدرت! لقد تقت، لهفي عليك، الى قطيع حقيقي، قطيع يمكنك أن تمسك صوفه، ولحمه، بيدك ـ فهلكت!»

ردَّ فيلبّس «لقد نال مني الجوع. ماذا تتوقع مني أن أفعل؟»

أجاب يسوع «فكِّر بالرب وستشبع!»، فجأة عاد قلبه يقسو.

ثم استدار الى عجوز محني الظهر كان قد انكفأ ووقع في

جـرن الماء وظل هـناك يرتجف من البـرد. رفع عنه الأسـمـال التي تغطيه، وأزاح حاجبيه، لكنه لم يتعرف عليه. الا أنه حين أخذ يبحث تحت الشعـر عثـر على أذن كبيـرة مقـحم خلفها ريشـة كتابة مكسورة أكل الدهـر عليها وشـرب. فضحك.

قـال، يحـييـه «أهـلاً بالأذن الكبيـرة، الـضخـمـة، المنتصـبـة، المملوءة بالشعر، التي كانت تهتز كأذن الأرنب، ملؤها الخوف، والفضول والنهم. أهلاً بالأصابع الملطخة بالحبر وبالقلب ـ المحبرة! أما زلتَ تملأ الصفحات ببقع الحبر، يا متّى، يا كاتبي الخاص؟ الريشة محطمة تماماً، مازالت خلف أذنك. هل شننت حرباً واستخدمتها كحربة؟»

قال الآخر مستشعراً المرارة «ماهذه النظرة الساخرة؟ ألن تكف عن السخرية منا؟ تذكر الأسلوب الرائع الذي دوَّنتُ به قصة حياتك وعصـرك. كان يمكن أن أغدو أنا أيضاً خالد الذكر، جنباً الى جنب معك. والآن، هاأنا أصـبحت كالطاووس الذي فقـد ريشـه. ولم أكن طاووساً: بل دجاجة . يا خسارة اجتهادي!»

شـعـر يسـوع بركـبـتـيـه تخـذلانه، فطـأطأ رأسـه، لكنـه سـارع، بغضب، الى رفعه وأشار باصبعه مهدداً الى متّى.

قال «اصمت! خسئت!»

برز من بين سـاقي نـثـائيل رجل عـجـوز أحول العينـين مهـزول وأخذ يقهقه. التفت اليه يسوع فرآه وتعرف من فوره عليه.

«تومـا، يا طفلي مـولود السـبـعـة أشـهـر، أهلاً بك! أين نثـرت أسنانك؟ ماذا فعلت بالشعرتين اللتين كانتا تتوجان رأسك؟ ومن أي معزاة انتزعت هذه اللحية الصغيرة الزيتية المدلاة من ذقنك؟ أنت توما ذو الوجهين، والوجوه السبعة، الشديد المكر، أليس كذلك؟»

«بشحمه ولحمه ماعدا أسناني التي فقدتها ـ لقد سقطت على طول الطريق ـ والشعرتين، وكل ماعدا ذلك ظل كما هو»

«والعقل؟»

«ديك حقيقي. يعتلي تلة الروث وهو يدرك جيداً انها ليست التلة التي تشرق من خلفها الشمس. الا أنه مع ذلك يصيح في كل صباح ويستدعيها - لأنه يعرف التوقيت الصحيح للصباح»

«ألم تقاتل أنت أيضاً،يا بطل الأبطال، لانقاذ أورشليم؟»

«أنا أقاتل؟ أغبيٌّ أنا ؟ أنا ادَّعيت أني نبي»

«نبي؟ اذن فقد نبت لذي عقل النملة الصغير جناحان؟ هل نفخ الرب عليك؟»

«ومادخل الرب في هذا؟ ان عقلي وحده هو الذي كشف السر»

«أي سر؟»

«سر النبي. قداستك أيضاً عرفته ذات مرة، لكني أعتقد أنك نسيته»

«ذكّرني اذن، يا توما الماكر - فقد تعود اليَّ الذاكرة. من هو النبي؟»

«النبي هومن يبقى على الأمل، بعد أن ييأس الجميع. وهو من ينتابه اليأس حين يملأ الأمل قلوب الجميع. وستسألني لماذا. أقول لك لأنه المطّلع على السر الأعظم: وهو أن الدولاب يدور»

قال يسوع، وهو يغمز له بعينه «ان التحدث اليك أمر خطير يا توما، فداخل عينيك الصغيرتين الحولاوين السريعتي الحركة أرى ذيلاً، وقرنين - وومضة ضياء يتوهج»

«انه ضياء حقيقي يتوهج، يا معلم- أنت تعلم ذلك، لكنك تأسى على الانسانية. ان القلب يشفق : لهذا يجد العالم نفسه غارقاً في الظلام. أما العقل فلا يعرف الشفقة: ولهذا نرى العالم يتلظى بالنار... آه، أنت تومئ لي كي أصمت. معك حق، سأصمت. فلا ينبغي أن نفشي مثل هذه الأسرار أمام هذه الأرواح البسيطة. فلا

طاقة لأي منهم على التحمل، ماعدا واحد : هو!»
«ومن يكون؟»
دبَّ توما حتى وصل الى الباب الخارجي ثم آشار الى عملاق، دون أن يلمسه، كان واقفاً على عتبة الدار أشبه بشجرة ذابلة حرقتها صاعقة. وكانت جذور شعر رأسه ولحيته مازالت حمراء اللون.
قال، وهو ينكص الى الخلف «هو ! يهوذا! إنه الوحيد الذي مازال منتصب القامة. احذر يا معلم . انه مفعم بالقوة والتصميم . كلِّمه برفق، واكسب حظوتك عنده. انظر ان رأسه العنيد يرسل بخار الغضب الشديد.
«حسن، اذن، ولكي نتجنب أذى أسد الصحراء هذا فلنقبض عليه بارسال أسد مروَّض في إثره»، ثم رفع صوته وهو يقول «أإلى هذا الدرك انحدرنا ! يا يهوذا يا أخي، ان الزمن نمر جليل مفترس، ولا يشبعه أكل البشر: انه أيضاً يلتهم المدن، والممالك وأيضاً (سامحني يا رب) حتى الآلهة ! لكنه لم يلمسك أنت . لقد رفض غضبك العارم أن يهدأ، لا، أنت لم تتهاون مع العالم. ما أزال أرى الخنجر العنيد ملتصقاً بصدرك، والحقد، والحنق، والأمل، انفعالات الشباب الكبرى... أهلاً بك!»
غمغم يوحنا، الذي كان قد انهار عند قدمي يسوع، ولم يكن بالامكان التعرف عليه، بلحيته البيضاء والجرحين العميقين على وجنتيه وعنقه، غمغم «ألا تسمع يا يهوذا؟ ألا تسمع؟ إن المعلم يحييك. حيِّه بتحية أحسن منها!»
قال بطرس «انه عنيد أحمق وحرون كبغل. انه يعض على شفتيه ليمنع نفسه من الكلام»
ثبَّت يسوع نظره على صاحبه المتوحش القديم، وأخذ يكلمه بصوت رقيق «يهوذا، لقد مرت الطيور المزقزقة الناقلة للأخبار من

فوق سطح منزلي وأسقطت النبأ، فسقط في فنائي. يبدو أنك التجأت الى الجبال وشننت حرباً ضد الطغاة، المحليين والأجانب. ومن ثم هبطت الى أورشليم، وقبضت على الخونة من الصدوقيين، وربطت حول أعناقهم أشرطة حمراء وذبحتهم ذبح الحملان تقدمةً على مذبح رب اسرائيل. أنت روح يائسة، حزينة عظيمة يا يهوذا. منذ أن افترقنا لم تشهد يوماً سعيداً واحداً. لقد اشتقت اليك أيما اشتياق يا أخي، فأهلاً بك!»

حدقت عينا يوحنا المذعورتين الى يهوذا الذي كان مايزال يعض على شفتيه ليمنع نفسه من الكلام. ثم غمغم «إن الدخان الكثيف لا يكف عن التلبد فوق رأسه»، ونكص منضماً الى الآخرين.

قال بطرس «احذر يا معلم، انه ينظر اليك من كل زاوية ويقدّر من أين سيباشر الانقضاض عليك!»

واصل يسوع كلامه قائلاً «انني أكلمك يا يهوذا، يا أخي. ألا تسمعني؟ إنني أحييك، لكنك لا تضع يدك على قلبك لتقول «أنا سعيد بلقياك!». هل صدمتك معاناة أورشليم فأخرستك؟ لا تعض على شفتيك. أنت رجل : تجلَّد، ولا تنتحب. لقد أديتَ واجبك بشجاعة إن الجروح العميقة على ذراعيك، وصدرك، ووجهك- وكلها في المقدمة - مما يدل على أنك قاتلت كأسد. ولكن ماذا بمقدور الانسان أن يفعله ضد الرب؟ إنك بقتالك لتخليص أورشليم، انما كنت تقاتل الرب. فهو يرى ان المدينة المقدسة قد استحالت الى رماد منذ سنين عديدة بعيدة.

غمغم فيلبّس، مذعوراً «انظروا، لقد تقدم خطوة. رأسه غائص بين كتفيه، كالثور. الآن سيتأهب للهجوم»

قال نثنائيل «هيا ننتقل الى الخطوط الجانبية يا شباب. هاهو الآن يرفع قبضته»

هتفت كل من مرثا ومريم وهما تتقدمان «يا معلم، يا معلم، خذ حذرك!»

لكن يسوع واصل كلامه. الا ان شفتيه بدأتا ترتجفان بشكل واضح . قال :

«أنا أيضاً أحسنت البلاء في القتال قدر ما استطعت، يا يهوذا يا أخي. ففي شبابي انطلقت، ككل شاب، أبغي تخليص العالم. وبعد ذلك، حين نضج تفكيري، انضممت الى الركب- ركب الرجال، وعدت أنخرط في عملي : حرثت الأرض، وحفرت الآبار، وزرعت أشجار الكرمة والزيتون. ضاجعت أجساد النساء وخلقت رجالاً - لقد قهرت الموت. أليس هذا ماكنت دائماً أقول بأني سأفعله؟ حسن، هاقد أوفيت بعهدي : قهرت الموت!»

فجأة اندفع يهوذا بسرعة، مبعداً عن طريقه بطرس والمرأتان، الذين كانوا قد اعترضوه، وصاح صيحة همجية عظيمة «خائن!»

وجمدوا جميعاً في أماكنهم، وعلا الشحوب وجه يسوع ووضع يديه على صدره.

غمغم «أنا؟ أنا، يا يهوذا؟ إن ما نطقتَ به خطير. اسحبه!»

«خائن! آبق!»

اصفرَّت وجوه العجائز القميئين، وهمُّوا بالتوجه نحو الباب. وكان توما قد وصل لتوه الى الطريق.

وقفزت المرأتان الى الأمام.

وهتفت مريم «أيها الأخوة، لا تتركوا الشيطان يرفع يده في وجه المعلم. سوف يضربه!»

كان بطرس ينسلُّ خلسة الى الباب ينوي الفرار، فتمسَّكت به مرثا وهي تقول «الى أين أنت ذاهب؟ هل ستتنكر، مرة أخرى - مرة أخرى؟»

قال فيلبّس «لن أتورط في هذا. ان للاسخريوطي ذراعاً غاشمة، وأنا رجل عجوز. هيا بنا يا نثائيل»

عندئذ كان يهوذا ويسوع واقفين متواجهين، والبخار يتصاعد من جسم يهوذا، وتفوح منه روائح العرق والجراح المتعفنة.

وعاد يجأر «خائن! آبق! مكانك هو على الصليب. هناك وضعك رب اسرائيل لتقاتل. ولكنك جبنت،وحين رفع الموت رأسه، لم تتمكن من الاسراع بالفرار! فهرعت ودفنت رأسك في أذيال مرثا ومريم. جبان بل انك بدَّلتَ وجهك واسمك، يا اليعازر الزائف، لتفلت بجلدك!»

هنا قاطعه بطرس (بتشجيع من المرأتين) بقوله «يهوذا الاسخريوطي، يا يهوذا الاسخريوطي، يا يهوذا الاسخريوطي، أهكذا تخاطب المعلم ألا تُبدي أي قدر من الاحترام؟»

عوى الاسخريوطي وهو يهز قبضته مهدداً «أي معلم؟ هو؟ أليست لديك عينان تريان، وعقل يفكر. أهذا معلم؟ ماذا قال لنا؟ وبماذا وعدنا؟ أين جيش الملائكة الذي كان من المفترض أن يهبط لانقاذ أمة اسرائيل ؟ أين الصليب الذي كان من المفترض أن يكون نقطة انطلاقنا الى السماء؟ فحالما واجه هذا المسيح الدجال الصليب أصابه الدوار وفقد وعيه. ثم تشبثت به المرأتان ووظفتاه لينجب لهما الأطفال. ثم يقول انه قاتَلَ، قاتَلَ ببسالة. نعم، راح يمشي مختالاً كديك جماعة الطيور. لكن موقعك، أيها الآبق، كان على الصليب، وأنت تعلم ذلك. يمكن للآخرين أن يستصلحوا الأرض البور. ويخصبوا النساء العقيمات. كان واجبك أن تعتلي الصليب - هذا رأيي! وتفخر بأنك قهرت الموت. لهفي عليك! أهكذا تقهر الموت - بانجاب الأطفال، ليغدو لُقَماً لشارون! لُقماً لشارون! هذا هو مصير الطفل - أن يغدو لقمة سائغة لشارون! لقد أصبحت سوقاً للحم تزوده بالأطباق الشهية. خائن! آبق! جبان!»

تمتم، يسوع وقد بدأ الآن يرتجف من رأسه الى أخمصه «يا يهوذا يا أخي، كن أكثر رأفة»

جأر يهوذا «لقد حطمت قلبي، يا ابن النجار، كيف تتوقع مني أن أكلمك برأفة؟ أحياناً أرغب في أن أصرخ وأنتحب كأرملة وأضرب رأسي على الصخور! اللعنة على اليوم الذي ولدت فيه، وعلى يوم مولدي، وعلى الساعة التي قابلتك فيها وملأت قلبي بالآمال! حين كنت تسير في المقدمة وتجرنا وراءك وتحدثنا عن السماء والأرض، كم كنت أجد الفرح، والحرية، والثراء! كانت أشجار الكرمة تبدو كفتية في الثانية عشرة. كنا نشبع من حبة قمح واحدة. وذات يوم حصلنا على خمسة أرغفة من الخبز : أطعمنا منها حشداً من آلاف الناس، وتبقّى لدينا ملء اثنتي عشرة سلة. والنجوم: ماكان أبهاها، يا لها من دفق من نور الى السماء! وهي لم تكن نجوماً، بل ملائكة. لا، لم تكن ملائكة، بل هي نحن - نحن، تلاميذك، فننهض وننطلق، وكنت أنت في المركز، ثابتاً كنجمة الشمال، وكنا نحيط بك من كل جانب، ونرقص! ثم غمرتني بين ذراعيك - أتذكر؟ - وتوسلت اليَّ قائلاً «خُنّي، خُنّي. يجب أن أصلب ثم أبعث من جديد حتى نتمكن من تخليص العالم!»

سكت يهوذا برهة وتأوه. كانت جراحه قد فتحت من جديد وأخذت تنز. وراح العجائز القميئون الملتصقون معاً يبذلون أقصى جهدهم مطأطئي الرؤوس ليتذكروا وليستعيدوا حياتهم.

تكوَّنت دمعة في عين يهوذا، فمسحها بغضب، ثم عاد يصرخ، فقلبه لم يفرغ بعد : «وأخذت تثغو قائلاً «أنا حمل الرب، سأذهب الى الذبح حتى أخلص العالم. يا يهوذا يا أخي، لا تخشَ شيئاً. الموت بوابة تفتح الى الخلود، ويجب أن أعبر هذه البوابة، فساعدني!». ومن شدة حبي لك، ووثوقي بك قلت لك «سأفعل» وذهبت وأفشيت أمرك. لكنك... لكنك...»

وأرغى وأزبد، وقبض على يسوع من كتفيه وأخذ يهزه بعنف، مثبّتاً اياه الى الجدار. ومن جديد أخذ يجأر «ماذا تفعل هنا؟ لماذا لم تُصلَب؟ جبان! آبق! خائن! ما الذي أنجزته ؟ ألا تخجل؟ ها أنا أرفع قبضتي في وجهك وأسألك : لماذا، لماذا لم تصلب؟»

توسل اليه يسوع قائلاً «صمتاً ! صمتاً!، وبدأ الدم ينبجس من جروحه الخمسة.

قاطعه بطرس من جديد «يا يهوذا الاسخريوطي، ألا تشفق عليه؟ ألا ترى قدميه، ويديه؟ تلمّس جنبه بيدك ان كنت لا تصدق. انه ينزف»

أجبر يهوذا نفسه على الضحك، ثم بصق على الأرض وصرخ «ايه، يا ابن النجار، لن تتمكن من اقناعي بأي شيء- لا! لقد جاء ملاكك الحارس خلال الليل»

صعق يسوع، وتمتم وهو يرتجف «ملاكي الحارس...»

«نعم، ملاكك الحارس: الشيطان، وطبع بقعاً حمراء على يديك، وقدميك وجنبك لتخدع بها العالم ولتتخدع أنت نفسك. لماذا تنظر اليَّ هكذا؟ لم لا تجيب؟ جبان! آبق! خائن!»

أغمض يسوع عينيه . أحس بالاغماء لكنه نجح في الاحتفاظ بتوازنه. قال، بصوت يرتعش «يهوذا، لطالما كنت شموساً عنيفاً، ولم تقبل قط بالحدود الانسانية، ونسيت ان روح الانسان سهم ينطلق عالياً قدر ما يستطيع نحو السماء، لكنه دائماً يقع عائداً الى الأرض. ان الحياة على الأرض تعني أن يتخلى الانسان عن جناحيه»

لدى سماعه هذا الكلام أصيب يهوذا بالهذيان، وزعق «ألا تخجل؟ أهذا كل ما توصلت اليه، أنت يا ابن داوود، يا ابن الرب، يا مسيح! إن الحياة على الأرض تعني : أن تأكل خبزاً وتحوِّل الخبز الى أجنحة، هي أن تشرب ماءاً وتحول الماء الى أجنحة. الحياة على

الأرض معناها : شطء أجنحة. هذا ماقلته لنا - أنت، أيها الخائن! إنها ليست كلماتي ؛ إنها كلماتك. فاذا كنت قد نسيتها، فسأذكّرك بها!

«أين أنت يا متّى، أيها الكاتب؟ تعال هنا! تصفَّح أوراقك الثقيلة- فأنت دائماً حاملها بالقرب من قلبك، كما أحمل أنا خنجري. تصفَّح كتاباتك. لقد تآكلها الزمن، والعث، والعرق، ولكن مازال بالامكان تمييز بعضاً منها. تصفَّح كتاباتك يا متى، واقرأ حتى يسمع صاحبنا السيد المحترم ويتذكر. فذات ليلة زارته شخصية بارزة هامة من أورشليم اسمه نيقوديموس، جاءه سراً وسأله «من أنت؟ ماهو عملك؟»، وأجبته أنت، يا ابن النجار قائلاً - أتذكر؟ - «انني أصنع أجنحة!»، وحين قلت هذا شعرنا جميعاً بأجنحة تشطأ من ظهورنا، والآن انظر الى أي حال وصلت، أيها المحتال! ها أنت تئن وتقول «الحياة على الأرض تعني تخلي الانسان عن أجنحته». تفووه، اغرب عن وجهي، أيها الجبان! اذا لم تكن الحياة كلها برق ورعد فما نفعها لي؟ لا تقترب مني يا بطرس، يا طاحونة الهواء، ولا أنت، يا اندراوس الشهم. كفاكما صراخاً أيتها المرأتان. لن أؤذيه. ولم أرفع يدي في وجهه؟ انه ميت منذ زمن طويل. هو لازال يمشي على قدميه، ويتكلم، ويبكي، الا أنه ميت: جثة. فليتولَ الرب أمر الغفران له - الرب، لأنني لا أستطيع ذلك. فلتنزل على رأسه دماء اسرائيل، ودموعها، ورمادها!»

نفدت طاقة العجائز القميئين على التحمل فتداعوا كتلة واحدة على الأرض. وانتعشت ذكرياتهم، وبدأوا يشعرون بأنهم يعودون شباباً، وتذكروا مملكة السماء، والأشواك، والهيبة. وفجأة انطلقوا يرتلون ترنيمة حزينة، يئنون وينتحبون، ويضربون جباههم على الحجارة.

وفجأة انفجر يسوع بدوره يجهش بالبكاء، وصرخ «يا يهوذا يا أخي، سامحني!»، وهمَّ بالاندفاع ليرتمي بين ذراعي ذي اللحية الحمراء. لكن يهوذا انتفض مرتداً، ومدَّ يديه ليمنعه من الدنو منه،وصرخ به «لا تلمسني، لم أعد أؤمن بأي شيء، ولا أؤمن بأحد. لقد حطمَت قلبي!»

تلعثم يسوع وراح يتلفت باحثاً عن شيء يتمسك به، فوجد المرأتين اللتين انهارتا على الأرض تنتفان شعرهما وتصرخان، والتلاميذ يرمونه بنظرات الغضب والكراهية. أما الولد الأسود فكان قد اختفى.

غمغم قائلاً «أنا خائن، آبق، جبان. الآن بتُّ أدرك ذلك «لقد ضعت! نعم، نعم، كان يجب أن أصلب، لكني فقدت شجاعتي وفررت. سامحوني يا أخوتي، لقد خدعتكم . أواه، ليت بامكاني أن أعيش حياتي من بدايتها!»

انهار على الأرض وهو يتكلم وأخذ يضرب رأسه على حصباء الفناء.

«يا رفاقي، يا أصدقائي القدامى، قولوا لي كلمة طيبة، واسوني. انني أفنى، أضيع! إنني أمدُّ يدي اليكم. أما من أحد منكم ينهض ليضع يده في يدي ويقول لي كلمة طيبة؟ ألا أحد؟ لا أحد؟ ولا حتى أنت يا يوحنا الحبيب؟ ولا أنت يا بطرس؟»

قال التلميذ الحبيب منتحباً «كيف يسعني أن أتكلم، ماذا أقول؟ أي سحر رميته علينا يا ابن مريم؟»

قال بطرس، وهو يمسح دموعه «لقد خدعتنا. يهوذا على حق: لقد حنثت بوعدك، وذهبتٍ حياتنا هباءاً»

وفجأة تصاعد من تكتُّل العجائز القميئين جلبة أنين جماعي: «جبان ! آبق! خائن!»

«جبان ! آبق! خائن!»

قال متّى متفجّعاً «لقد ضاعت حياتي كلها هباءاً، هباءاً، هباءاً! كم برعتُ في جعل كلماتك ومنجزاتك خليقة بالأنبياء ! كانت مهمة صعبة جداً، لكني نجحت في اتمامها. كنت أقول لنفسي إنه في كنائس المستقبل سوف يفتح المؤمنون كتبهم السميكة الموشاة بالذهب ويقولون «درس اليوم نقتطفه من الانجيل المقدس حسب متّى!» وهذه الفكرة كانت تجعلني أحلّق، وأواصل الكتابة. أما الآن، فقد تبخرت كل تلك العظمة، وأنت ـ أيها العاق! الجاهل! الخائن!ـ أنت الملوم. كان يجب أن تُصلَب. نعم، حتى ولو اكراماً لي، لكي يتم انقاذ هذه الكتابات، كان يجب أن تُصلَب!»

مرة أخرى سمع ضجيج الأنين الجماعي من تكتّل العجائز القميئين:

«جبان ! آبق! خائن!»

«جبان ! آبق! خائن!»

عندئذ اندفع توما ينوي باب الخروج، وهتف «يا معلم، أنا لن أتخلى عنك بعد أن خذلك الجميع وأعلنوك خائناً! لا، لن أتخلى عنك، ليس أنا، ليس توما الرسول : لقد قلنا ان دولاب الزمن يدور لهذا لن أتخلى عن مساندتك. وسأنتظر دوران دولاب الزمن»

نهض بطرس، وهتف «هيا بنا نرحل! وأنت يا يهوذا، سر في المقدمة، وقدنا!»

نهض العجائز القميئون واقفين وهم يلهثون . وكان يسوع متمدداً على الأرض، منبطحاً، وذراعاه ممدودتين واسعاً. كان يملأ ساحة الفناءكلها . ورفعوا قبضات أيديهم مهددين وهم يصرخون :

«جبان ! آبق! خائن!»

«جبان ! آبق! خائن!»

وتناوبوا بالدور الصراخ «جبان ! آبق! خائن!»- حتى ابتعدوا.

أدار يسوع عينيه في محجريهما ألماً، ونظر حوله. أصبح وحيداً. فناء المنزل، والأشجار، وأبواب بيوت القرية، والقرية ذاتها- كل شيء اختفى. لم يتبق غير الحجارة تحت قدميه، حجارة ملطخة بالدماء، وفي مكان أكثر انخفاضاً، وأبعد، شاهد حشداً: آلافاً من الرؤوس يلفّها الظلام.

بذل كل ما لديه من طاقة ليعرف أين هو، ومن يكون ولماذا يشعر بالألم. أراد أن يُكمِل بكاءه، أن يصرخ: لِمَ شَبَقْتَني... حاول أن يحرك شفتيه فلم يقوَ. وأحس بدوار وأوشك أن يصاب بالاغماء، وكأنه يغوص باندفاع الى أسفل ويتلاشى.

ولكن فجأة، بينما هو يسقط ويتلاشى، يبدو أن ثمة شخصاً على الأرض أشفق عليه، فرفع اليه قصبته، وشعر باسفنجة مغموسة بالخل تستقر على شفتيه ومنخريه. استنشق بعمق الرائحة اللاذعة، فانتعش، ونفخ صدره، ونظر الى السموات وأطلق صرخة تمزق نياط القلب: لِمَ شَبَقْتَني!

ثم خذلته قواه، وعلى الفور تراخى رأسه.

أحس بآلام رهيبة في يديه وقدميه وقلبه. وصفت بصيرته. فرأى اكليل الشوك، والدم، والصليب. ولمح تحت نور الشمس الغاربة قرطين ذهبيين، وصفّين من الأسنان القوية الناصعة البياض. وسمع ضحكاً ساخراً رخياً، وتلاشت صورة القرطين والأسنان. وبقي يسوع معلقاً في الهواء، وحيداً.

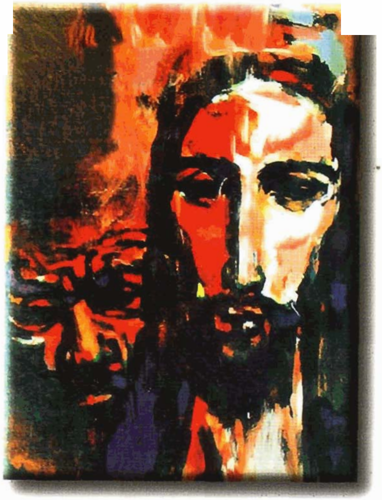
ارتعش رأسه. وفجأة تذكّر أين هو، ومن هو ولماذا يستشعر الألم. وغمره فرح عارم لا يُقهَر. لا، لا، لم يكن جباناً، أو آبقاً، أو خائناً. لا، انه مسمَّر على الصليب. لقد احتفظ بمكانته بكل شرف وحتى آخر لحظة، وأوفى بوعده. وفي اللحظة التي هتف فيها

«إلوي، إلوي» وغاب عن الوعي، تملَّكته الغواية لجزء من الثانية وأضلّته. والمُتَع، والزيجات والأولاد كانت أكاذيب، والرجال العجائز المتداعون، النخرون، الذين صرخوا به، جبان، آبق، خائن، كانوا أكاذيب. كل شيء- كل شيء كان وهماً أرسله الشيطان. وتلاميذه أحياء مفعمون بالقوة. انتشروا بحراً وأرضاً يعلنون البشارة. لقد انتهى كل شيء الى نهايته المنشودة، المجد للرب!

وأطلق صرخة انتصار مدوِّية : تم انجاز العمل!

وكأنه قال : انها بداية كل شيء.

■ ■ ■



لطالما مثّل جوهر المسيح المزدوج ـ توق الإنسان ، التوق الشديد الإنسانية ، الخارق في إنسانيته ، ليبلغ الله أو ، بعبارة أدق ، ليعود إلى الله ويتطابق معه ـ مثّل لغزاً مبهماً عويصاً بالنسبة إليّ . هذا الحنين إلى الله ، وهو في وقت واحد غامض وحقيقي تماماً ، نكأ داخلي جروحاً كبيرة وفجّر أيضاً ينابيع متدفقة .

كان مصدر ألمي الأساسي ومنبع كل أفراحي وأحزاني بدءاً من طفولتي فصاعداً صراع متواصل لا يعرف الرحمة بين الروح والجسد .

في داخلي تكمن القوى المظلمة السحيقة القِدَم للجانب الشرير ، الإنساني وما قبل الإنساني ، وفي داخلي أيضاً القوى المضيئة ، إنسانية وما قبل إنسانية ، ـ لله ـ وكانت روحي ساحةً تصادمَ عليها هذان الجيشان وتقاتلا .

كان الألم مبرِّحاً . لقد أحببتُ جسدي ولم أرد له أن يفنى ، وأحببت روحي ولم أرد لها أن تبلى . جاهدت لأصالح بين هاتين القوتين الأساسيتين الشديدتي التناقض ، لأجعلهما تدركان أنهما ليستا عدوتين وإنما رفيقتا عمل ، أملاً في أن تبتهجا في انسجامهما ـ وأملاً في أن أبتهج معهما .

كازانتزاكيس

ISBN => 2-84305-054-5
EAN => 9782843050541